

مكتبة الأسرة

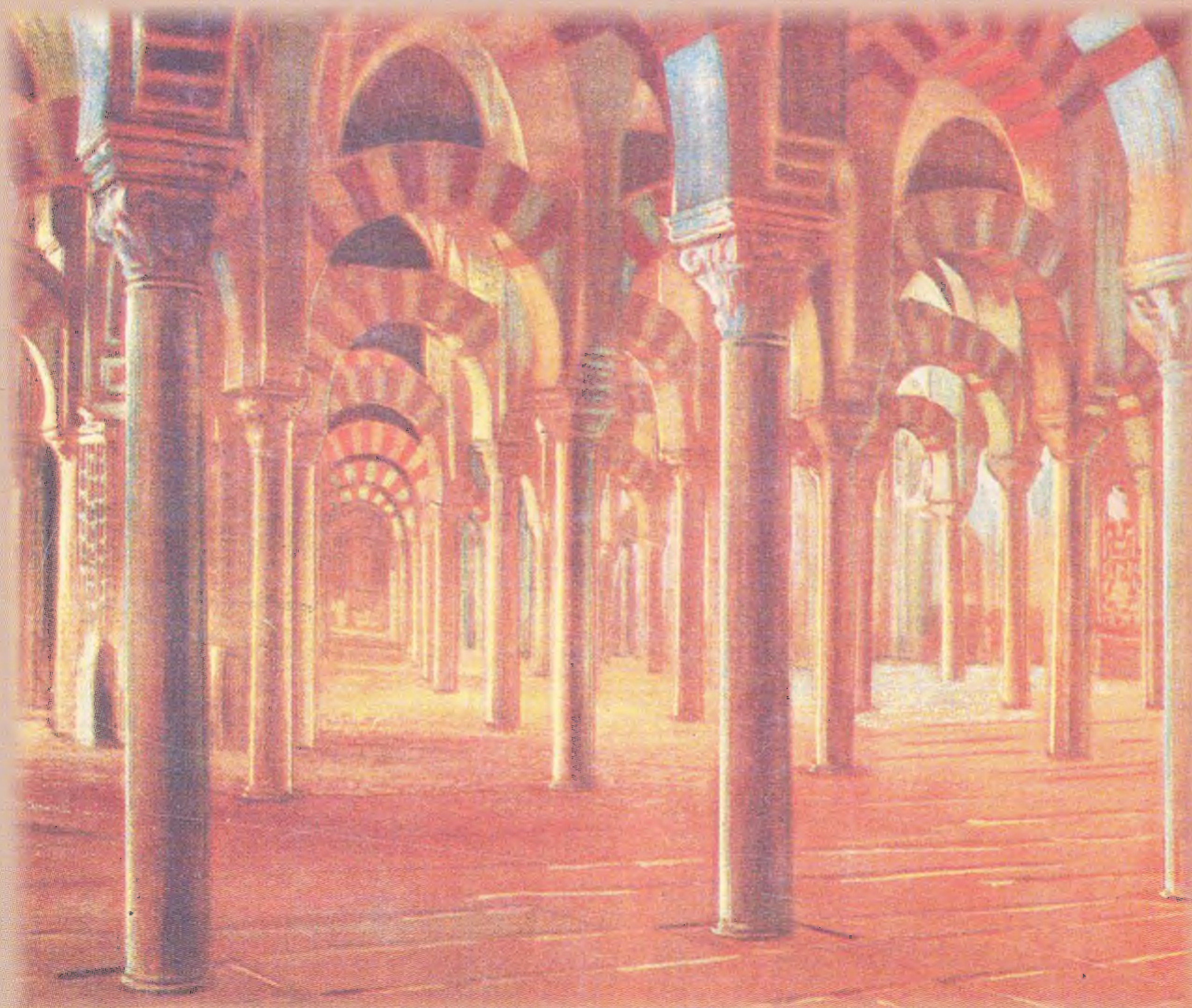


مهرجان القراءة للجميع

محمد عبد الله عنان

دولة الإسلام في الأندلس

نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين



الأعمال الفكرية

الجزء السابع



الهيئة المصرية
العامة للكتاب

دولة الإسلام في الأندلس

نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتتصرين

لوحة الغلاف

عرفت طليطلة بموقعها فى وسط قشتالة وهى من الثغور الأندلسية، وتاريخها مفعم بالثورات المتتالية، وكان سكانها من المولدين، ومثلها كانت لشبونة وسرقسطة، وكانت العوامل الاجتماعية والاقتصادية تغذى تلك الثورات الكثيرة؛ ولكن أخطر ثورة مرت بها هى ثورة ابن حفصون التى انتهت بضعفه، حتى أنه تنصر قبل موته ٩١٧م بعد أن آلت طليطلة إلى آل ذى النون أيام الطوائف، ثم كانت أول مكاسب الأسبان الكبيرة.

محمود الهندى

دولة الإسلام في الأندلس

نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتتصرين

الجزء السابع

محمد عبد الله عنان



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الفكرية)

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

دولة الإسلام في الأندلس

نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتلصرين

(الجزء السابع)

محمد عبدالله عنان

الغلاف

والإشراف الفني :

الفنان : محمود الهندي

المشرف العام :

د . سمير سرحان

على سبيل التقديم :

كان الكتاب وسيظل حلم كل راغب فى المعرفة واقتناؤه غاية كل متشوق للثقافة مدرك لأهميتها فى تشكيل الوجدان والروح والفكر، هكذا كان حلم صاحبة فكرة القراءة للجميع ووليدها «مكتبة الأسرة»، السيدة سوزان مبارك التى لم تبخل بوقت أو جهد فى سبيل إثراء الحياة الثقافية والاجتماعية لمواطنيها.. جاهدت وقادت حملة تنوير جديدة واستطاعت أن توفر لشباب مصر كتاباً جاداً ويسعر فى متناول الجميع ليشبع نهمه للمعرفة دون عناء مادي وعلى مدى السنوات السبع الماضية نجحت مكتبة الأسرة أن تتربع فى صدارة البيت المصرى بثناء إصداراتها المعرفية المتنوعة فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية.. وهناك الآن أكثر من ٢٠٠٠ عنواناً وما يربو على الأربعين مليون نسخة كتاب بين أيادى أفراد الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً وشيوخاً تتوجها موسوعة «مصر القديمة» للعالم الأثرى الكبير سليم حسن (١٨ جزء) . وتلضم إليها هذا العام موسوعة «قصة الحضارة» فى (٢٠ جزء) .. مع السلاسل المعتادة لمكتبة الأسرة لترفع وتوسع من موقع الكتاب فى البيت المصرى تنهل منه الأسرة المصرية زاداً ثقافياً باقياً على مر الزمن وسلاحاً فى عصر المعلومات.

د. سمير سرحان

طبعة خاصة من مكتبة الخانجي
لمكتبة الأسرة
بالاشتراك مع الهيئة المصرية العامة للكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة^(١)

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب في سنة ١٩٤٩ ، وصدرت طبعته الثانية في سنة ١٩٥٨ ، مدعمة بكثير من المراجع والوثائق التي أتيج لي أن أجمعها خلال رحلاتي وبحوثي العديدة في أسبانيا والمغرب وغيرهما .

وقد قمت حتى اليوم باثنتي عشرة رحلة دراسية في شبه الجزيرة الإسبانية ، وزرت سائر المدن الأندلسية القديمة في أسبانيا والبرتغال ، وعينت بدراسة سائر ما بها من الآثار والأطلال والنقوش الأندلسية ، كما زرت سائر المدن الإسبانية النصرانية التي لها علاقة بتاريخ الأندلس ، في قشتالة ، ونافار ، وليون وجليقية ، ووقفت خلال هذا التجوال الشامل في أنحاء شبه الجزيرة ، على كثير من خواصها وطوائعها الجغرافية والإقليمية ، وكثير من تقاليدها وخواصها الاجتماعية والأدبية ، وقد كان لذلك كله ، أعمق الأثر في نفسي ، وفي إمدادي بكثير من الآراء والفكر الجديدة ، المتعلقة بتاريخ الأندلس والأمة الأندلسية .

وهناك حقيقة سبق أن نوهت بها في مقدمة الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، وهي أن المصادر الإسلامية بالنسبة لهذه المراحل الأخيرة ، من حياة الأمة الأندلسية قليلة ضئيلة . أجل لقد انتهت إلينا عن تاريخ مملكة غرناطة وأحوالها طائفة من المراجع القيمة ، في مقدمتها كتب الوزير ابن الخطيب ، وما كتبه عنها ابن خلدون حتى حوادث عصره ؛ وكذلك انتهت إلينا طائفة حسنة أخرى ، عن تاريخ مملكة بني مرين ، قرينة مملكة غرناطة ، وعصدها الأيمن في الجهاد . ولكن هذه المراجع الإسلامية تقف بنا عند أواخر القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) ، ولأنكاد نظفر بعد ذلك ، خلال القرن التاسع الهجري ، وهو بالنسبة لمملكة غرناطة ، عصر الانحلال والسقوط النهائي ، بأية مراجع إسلامية ذات شأن ،

(١) هذه هي مقدمة الطبعة الثانية مع تعديلات يسيرة .

وليس لدينا من تراث الرواية الإسلامية عن تلك المرحلة القائمة ، من تاريخ دولة الإسلام في الأندلس ، سوى رواية صاحب « أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر » عن سقوط غرناطة ، وما نقله إلينا المقرئ من شذور قليلة متفرقة ، في نفح الطيب ، وفي أزهار الرياض ، عن تلك المرحلة الأخيرة من حياة غرناطة . أما عن مأساة الموريسكيين أو العرب المنتصرين ، وهم بقايا الأمة المغلوبة ، فلسنا نظفر من الرواية الإسلامية إلا بأقوال وشذور يسيرة ، معظمها أيضاً مما نقل إلينا المقرئ في كتابيه السابقين . ولهذا كان جل اعتمادنا في استعراض هذه المرحلة الأخيرة ، من حياة الأمة الأندلسية ، على المصادر الغربية ، والإسبانية بنوع خاص ، ومنها بعض المصادر المعاصرة ، التي تروى لنا تفاصيل المأساة عن مشاهدة فعلية ؛ وإذا كانت المصادر الإسبانية ، يفيض معظمها بالموثرات القومية والدينية ، فإنه لما يشهد للبحث الغربي بالاعتدال والروية ، وروح الإنصاف ، ما يبيده في مواطن كثيرة ، من تقدير موثر لعبقرية الأمة المغلوبة وحضارتها ، وروعة كفاحها للود عن حياتها وكرامتها وتراثها ، وما يبيده بالأخص من عطف على محنتها وآلامها ، ومن استنكار لخطط السياسة الإسبانية ، وأساليب محاكم التحقيق في العمل على إبادةها . ويكفي أن ننقل في هذا الموطن تلك العبارة الموجزة القوية ، التي يحمل فيها الدكتور « لى » ، وهو من أحدث الباحثين في هذا الموضوع ، مأساة للعرب المنتصرين ، إذ يقول في مقدمة كتابه : « إن تاريخ الموريسكيين لا يتضمن فقط مأساة تثير أبلغ عطف ، ولكنه أيضاً خلاصة لجميع الأخطاء والأهواء ، التي اتحدت لتتحد بإسبانيا في خلال قرن ، من عظمها أيام شارل الخامس ، إلى ذلتها في عصر كارلوس الثاني » .

* * *

ومن ثم فقد وطنت النفس على ألا أدخر وسعاً ، في تقصى المصادر والوثائق المتعلقة بهذه المرحلة الغامضة القائمة ، من تاريخ الأمة الأندلسية — مرحلة الإنحلال والفناء — والسعى وراءها أينما وجدت ، سواء منها العربية أو القشتالية ؛ وأعتقد أنني بذلت في هذا السبيل جهد المستطاع ، ووفقت إلى نتائج ذات شأن ، سواء بالنسبة لتاريخ مملكة غرناطة ، أو تاريخ الموريسكيين . ففي خلال الرحلات العديدة التي قمت بها حتى اليوم في شبه الجزيرة الإسبانية ، لم أترك موطناً من

مواطن البحث والدرس ، أو مستودعاً من مستودعات المصادر والوثائق المخطوطة أو المطبوعة إلا قصده ، ونهلت منه ؛ وقد أنفقت أوقاتاً عديدة في البحث في المجموعات العربية المخطوطة ، التي تحتفظ بها مكتبة مدريد الوطنية ، وأكاديمية التاريخ ، والإسكوريال ، وغرناطة ، وأنفقت كذلك أوقاتاً أوفى في البحث والتنقيب وراء الوثائق المخطوطة ، الأندلسية ، والمغربية ، والمدجنية ، والمستعربية العربية ، والوثائق المخطوطة القشتالية ، وذلك سواء في دار المحفوظات التاريخية بمدريد ، أو الإسكوريال ، أو دار المحفوظات العامة في شنت منكش Simancas ، أو محفوظات التاج الأرجوني ببرشلونة ، أو محفوظات مملكة بلنسية ، أو بلدية غرناطة ، وكتدرائية سرقسطة ، وبلدية بنبلونة ، وغيرها من المجموعات المحلية الخاصة ، وقد ظفرت من وراء ذلك كله بمجموعة زاخرة من الوثائق التي تلي أعظم ضوء ، على هذه المرحلة المشجية من تاريخ الأمة الأندلسية ، ومنها وثائق عديدة لم تر الضياء من قبل ، وهي تمدنا بكثير من الحقائق والتفاصيل .

وقد ألفيت بغيتي بنوع خاص ، في دار المحفوظات الإسبانية العامة ، في شنت منكش (سيانكا) ؛ وشنت منكش هي قلعة أندلسية قديمة تحيط بها حلة صغيرة ، وتقع جنوب غربي مدينة بلد الوليد Valladolid ، على قيد عشرة كيلومترات منها ، وقد اتخذت منذ القرن السادس عشر داراً للمحفوظات الملكية الإسبانية ، وهي ما تزال إلى يومنا مستودع هذه المحفوظات الشهيرة ، التي تضم مجموعات عديدة زاخرة من أهم وأنفس الوثائق التاريخية والسياسية والقضائية ، ومنها عدد من الوثائق الأندلسية والمغربية النادرة . وقد اطلعت فيها على عدد كبير من الوثائق الأندلسية والقشتالية المتعلقة بتاريخ مملكة غرناطة ، ومجموعة كبيرة من المراسيم الملكية الصادرة إلى العرب المنصرين ، ومن وثائق ديوان التحقيق المتعلقة بهم وبمجاكاتهم ، وحصلت على صور فوتوغرافية لهذه الوثائق ، التي استقيناً من محتوياتها خلال هذا الكتاب ، كثيراً من الحقائق والتفاصيل ، ونشرنا لوحات من بعضها .

كما أوردت كثيراً من محتويات الوثائق المدجنية والمستعربية ، التي استطعت الحصول عليها من مختلف المجموعات الإسبانية التي سبق ذكرها ، وهي تلي ضوءاً كبيراً على حياة المدجنين وأحوالهم في العصور المتأخرة ، التي انقطعت فيها كل

صلاتهم بماضيهم القديم ، وبدينهم ولغتهم ، وأمتهم الأصيلة .
وبالرغم من أن مجموعة الإسكوريال الأندلسية ، لا تحتوى فيما يتعلق بتاريخ
مملكة غرناطة ، عدا كتب ابن الخطيب ، على كثير من الآثار ، ولم يكن بها
من قبل عن المرحلة الأخيرة سوى نسخة مخطوطة من كتاب « أخبار العصر في
انقضاء دولة بنى نصر » الذى عني بنشره المستشرق ميللر ، ثم فقد بعد نشره ،
فانى وقتت خلال بحوثي بها على طائفة من النصوص الهامة ، وردت في بعض
الرسائل المغمورة ، مثل رسالة « أسنى المتاجر » عن هجرة المدجنين ، ورسالة
ابن خاتمة عن الوباء الكبير . وقد ألفت بالطبع في كتب ابن الخطيب - ومنها
بالإسكوريال عدة - مادة نفيسة ، وانتفعت بها في كثير من المواطن . بيد أنى
لم أجد مع الأسف هنالك شيئاً يتعلق بالموريسكيين أو العرب المنتصرين .
ووقتت خلال بحوثي بمكتبة القاتيكان الرسولية برومة ، على مؤلف مخطوط
هام لرحالة ومؤرخ مصرى ، هو عبد الباسط بن خليل الحنفى ، عنوانه « الروض
الباسم في حوادث العمر والتراجم » وقد وردت به فقرات كثيرة عن حوادث
غرناطة الأخيرة ، وقد شهدا الرحالة المذكور ، أو وقف عليها خلال زيارته
لغرناطة أيام السلطان أبى الحسن . وعثرت هنالك فوق ذلك على وثيقة فقهية
هامة بها نصائح وتوجيهات دينية للعرب المنتصرين ، وقد نشرت برمتها في
موضعها من الكتاب .
كما وقتت خلال بحوثي بالمغرب على بعض النصوص المفيدة ، ومنها رواية
مخطوطة ضافية عن أحوال العرب المنتصرين وموقف السياسة الإسبانية منهم ،
كتبها موريسكى هاجر وعاد إلى الإسلام في أواخر العهد الموريسكى .
وقد كان لما تضمنته هذه الوثائق العديدة ، وما تلقيه من أضواء هامة على كثير
من الحوادث والتطورات ، المتعلقة بالمرحلة الأخيرة من تاريخ مملكة غرناطة
وتاريخ العرب المنتصرين ، وحياتهم في ظل الاستعباد الإسباني المرهق ، المدنى
والدينى ، نحو مائة عام - كان لذلك كله أثره العميق في تصحيح كثير من النصوص
والروايات المتواترة ، وفي إخراج قصة سقوط الأندلس ، وقصة العرب المنتصرين
واستشهادهم المؤثر ، في ثوبها التاريخى الحق ، المدعم بالأدلة والنصوص التى
لا شك فيها .

ورأيت إلى جانب هذه الوثائق التاريخية ، أن أتقصى المصادر القشتالية الكلاسيكية ، ومنها بعض الروايات المعاصرة للمأساة أو القربية منها ، ولم أشأ أن أترك آراء المؤرخين القشتاليين وأحكامهم جانباً ، بالرغم مما يشوب هذه الآراء والأحكام في كثير من الأحيان من التحامل . وقد انتفعت بآراء مراجعة دقيقة شاملة لأهم المصادر القشتالية ، ونخص فيما يتعلق بالرواية التاريخية بالذكر ثلاثة منها هي : رواية هرناندو دي بايثا المعاصرة عن أحداث الأعوام الأخيرة لمملكة غرناطة ؛ ورواية لويس دل مارمول المستفيضة عن سقوط غرناطة ، وثورة العرب المنتصرين وقد كتب روايته بعد سقوط غرناطة بنحو ثمانين عاماً ، وشهد ثورة العرب المنتصرين منذ بدايتها إلى نهايتها ؛ وتاريخ غرناطة للمؤرخ الغرناطي لافونتي القنطرة ، وقد كتب في القرن الماضي ، وهو زاخر بالمعلومات والتفاصيل القيمة ؛ ورجعت فيما يتعلق بالعرب المنتصرين ونفهم ، إلى عدة من أكابر المفكرين والمؤرخين الإسبان الذين يعتد بآرائهم في هذا الميدان ، وفي مقدمتهم موديستو لافونتي ، وخانير ، وبيكاتوستي ، ومنديث إي بلايو ، ونقلت من تعليقاتهم على مأساة النني ونتائجها فقرات طويلة ، تعرض آراءهم وأحكامهم بوضوح ، وحرصت على نقل آراء المؤيدين والمعارضين على السواء .

وقد عנית عناية خاصة بالتجوال في مملكة غرناطة القديمة ، فزرت سائر مدتها : غرناطة ، وألمرية ، والمنكب ، وبسطة ، ووادي آش ، ومالقة ، وبلس ، ولوشة ، والحامة ، ورندة ، وأركش ، والحزيرة ، وطريف ، وجبل طارق ، كما زرت كثيراً من بلدانها وقراها ، وزرت مدينة غرناطة ذاتها عشر مرات ، وشهدت في بسائطها ونجودها وأحيائها ، كثيراً من الأماكن التي كانت مسرحاً لكثير من الحوادث والوقائع الشهيرة ، وتجولت في مرجها الشهير ، وعلى ضفاف نهرها القديم شكيل ، وصعدت إلى جبال سيرا نقاذا ذات الآكام الناصعة ، وشهدت بمدينة الحمراء - وهي التي ما زال قصرها المنيف ، وأبهاؤها الرائعة ، عنواناً لمجد غرناطة الإسلامية وحضارتها العظيمة - سائر الأماكن التي اختتمت فيها المأساة الأندلسية ، والتي تذكرها الرواية في كثير من المناسبات المشجية . وشغلت مدى أعوام ، بدراسة هذه المجموعة الزاخرة من الوثائق والمصادر ، وإعداد هذه الطبعة الجديدة من « نهاية الأندلس » ، أو بعبارة أخرى بكتابة

الكتاب من جديد ، بعد أن اجتمعت لدى سائر هذه العناصر الحية . ولقد كان لهذا التجوال المستفيض في مواطن الحوادث ، وهذه المشاهدات العديدة ، للديار والربوع ، أعمق الأثر في نفسي ، وفي ذهني ، وفي تكييف قلبي ، حتى لقد كنت أشعر ، حين تدوين الحوادث ، وأمام مخيلتي تلك الأماكن والمشاهد ، أنني كأنما قد عشت في تلك الأيام ، وفي تلك الربوع ، وبين أولئك الناس أبطال المأساة ، الذين أتبع سيرهم ومصايرهم .

ولهذا كله ، وعلى ضوء كل ما تقدم من الوثائق والنصوص ، العربية والقشتالية ، التي اجتمعت لي منها أغزر مادة ، يمكن أن تجتمع لباحث في هذا الميدان ، أرجو أن أكون قد وفقت لأن أضع اليوم بين يدي القارئ ، أوفى وأوثق رواية كتبت عن نهاية الأندلس ، وعن مأساة العرب المتنصرين .

وإني لأنتهز هذه الفرصة لأقدم جزيل الشكر إلى الآباء المحترمين القائمين على إدارة مكتبة الإسكوريال لما لقيت من جميل عونهم وعنايتهم خلال زيارتي العديدة لهذه المكتبة الحليمة . وإني ما زلت أذكر بالأخص بعميق العرفان ما قدمه إلى صديقي المرحوم الأب الجليل نيمسيو موراتا أمين مكتبة الإسكوريال السابق ، من معاونات قيمة ، كما أقدم وافر شكرى لمديرى وأمناء دور المحفوظات في سيانقا ومدريد وبرشلونة وبلنسية وغرناطة ، ومدير وأمناء مكتبة مدريد الوطنية ، لما لقيت من معاوناتهم القيمة خلال بحوثي بها مدى أعوام طويلة . وأود أخيراً أن أعرب عن وافر امتناني وعرفاني ، لإخواني القائمين على معهدنا المصرى بمدريد ، لما أسدوا لى في مختلف المناسبات من معاونات قيمة ، كان لها أكبر الأثر في تسهيل مهمتى .

محمد عبد العنان

صفر سنة ١٣٧٨
الموافق أغسطس سنة ١٩٥٨

تصدير

صدرت الطبعة الثانية من هذا الكتاب في سنة ١٩٥٨ ، أعني منذ نحو سبعة أعوام . والآن ، وقد أنجزت كتابة مرحلة التاريخ الأندلسي ، التي تسبق مرحلة الإنهيار والسقوط ، وهي تاريخ « عصر المرابطين والموحدين » وتمت بذلك سلسلة تاريخ الأندلس ، منذ الفتح حتى إخراج بقايا الأمة الأندلسية نهائياً من الأراضي الإسبانية ، فاني أقدم هذه الطبعة الثالثة من « نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين » .

وقد كان في مقدمة ما عنيانا به في هذه الطبعة الجديدة ، هو أن نراجع فصول الكتاب الأولى ، المتعلقة بسقوط القواعد الأندلسية الكبرى ، وهووض محمد ابن يوسف بن الأحمر ، ونشوء مملكة غرناطة ، وأن نصل وأن ننسق بين هذه الفصول ، وبين ماورد عن نفس الموضوعات في القسم الثاني من كتابنا « عصر المرابطين والموحدين » ، وهو « عصر الموحدين وانهيار الأندلس الكبرى » . وقد اقتضى هذا التنسيق بعض التكرار في سرد هذه الحوادث ، وهو تكرار يقصد به قبل كل شيء ، المحافظة على استقلال هذا القسم الأخير من تاريخ الأندلس ، بيد أننا توخينا الإيجاز في استعراض هذه الحوادث ، تمهيداً لموضوعنا الأساسي ، وهو نشوء مملكة غرناطة ، آخر دول الإسلام بالأندلس ، وتاريخها خلال حياتها الطويلة ، هذا بينما تناولنا مرحلة انحلال الأندلس الكبرى وسقوط قواعدها ، في كثير من الإسهاب والإفاضة في كتابنا « عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس » وهو الذي يسبق مباشرة كتاب « نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين » ، وهو الحلقة الختامية في هذه السلسلة الكبرى من تاريخ « دولة الإسلام في الأندلس » .

وقد أتبع لنا في نفس الوقت ، أن نقوم بكثير من التعديلات والإضافات الجديدة ، التي استطعنا أن نفيدها الكثير منها ، خلال بحوثنا في الأعوام الأخيرة

— ١٠ —

في مدريد وفي المغرب . وبالرغم من أن هذه التعديلات والإضافات ، ليست كثيرة ، فإنها مع ذلك تضي على الكتاب قيما وفوائد جديدة .
وإننا نرجو أن تتوج هذه الطبعة الجديدة من « نهاية الأندلس » ذلك المجهود الطويل المضني الذي بذلناه مدى خمسة وعشرين عاماً في كتابة هذه القصة المشجية — تاريخ الأمة الأندلسية — منذ بدايتها حتى نهايتها .

محمد عبد الله عنان

ربيع الأول سنة ١٣٨٦
الموافق يولييه سنة ١٩٦٦

تاريخ مملكة غرناطة

٦٣٥ - ٨٩٧ هـ : ١٢٣٨ - ١٤٩٢ م

الكتاب الأول

مملكة غرناطة

منذ قيامها حتى ولاية السلطان أبي الحسن

٦٣٥ - ٨٦٨ هـ : ١٢٣٨ - ١٤٦٣ م

الفضل الأول

الأندلس الفاربة

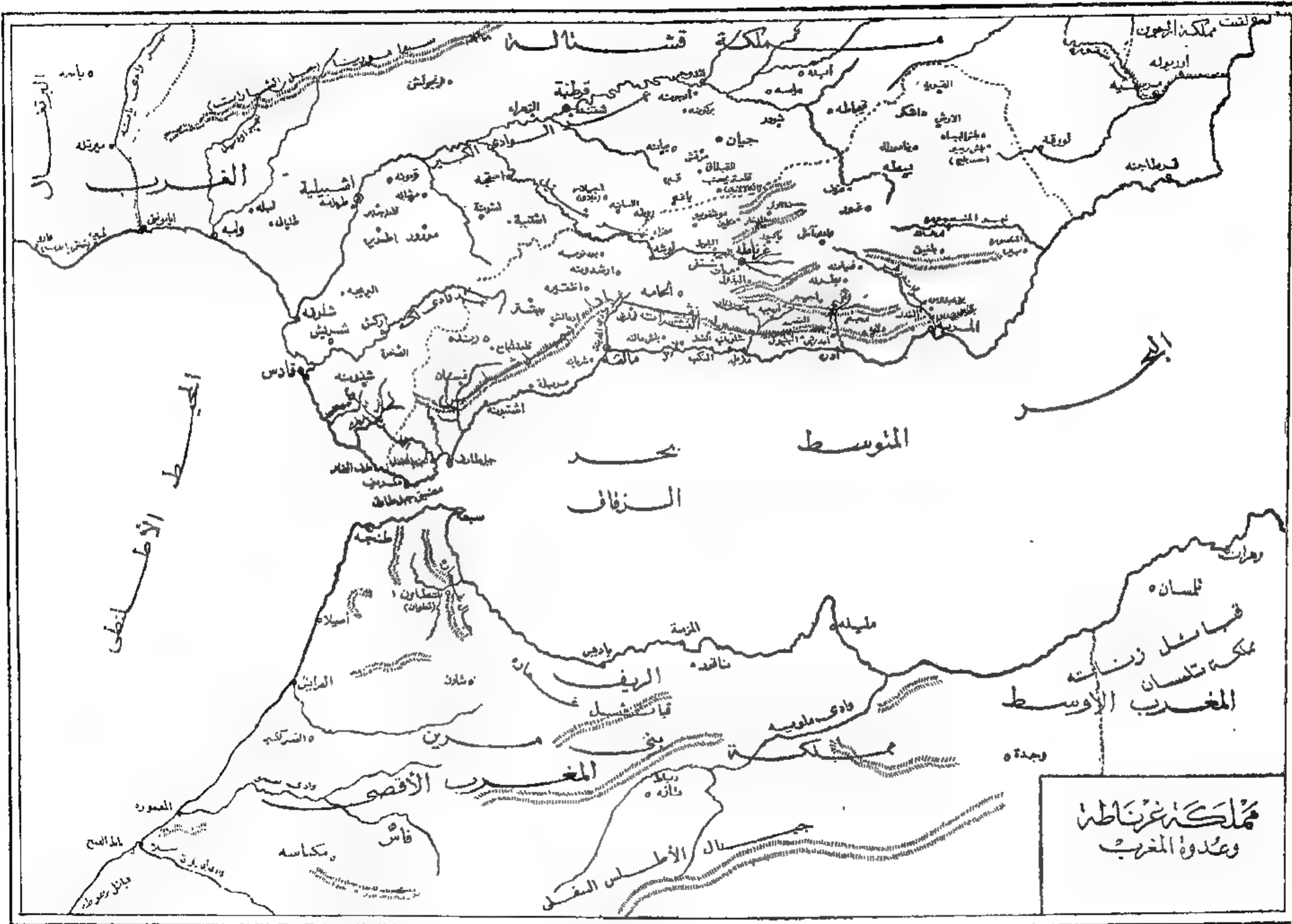
دول الطوائف . المرابطون والموحدون . سياسة الإسترداد النصرانية . سقوط القواعد الأندلسية في يد النصارى . موجة الاسترداد الفائرة في القرن السابع . شعور أهل الأندلس بمصيرهم . مدينة غرناطة . صفها أيام الدولة الإسلامية . ما بقى من خططها ومعالمها الأندلسية .

— ١ —

يقدم إلينا تاريخ الأندلس في مراحلها الأولى ، صفحات باهرات من ضروب المجد الحربى والسياسى ، وآيات ساطعات من ضروب التمدن والعرفان . ولكنه يقدم إلينا في مراحلها الأخيرة ، صفحات مشجية مؤثرة من قلب الحدود ، وتعاقب الحزن ، والانحدار البطيء المؤلم ، إلى معترك الهزيمة ، والذلة والسقوط .

ولا تمثل قصة الأندلس ، سوى الحقيقة التاريخية الخالدة . وليس مجرى التاريخ سوى تعاقب الأجيال والأمم ، وتبدل الحضارات والدول . ولكن الصراع الطويل المضطرم ، الذى خاضته الأمة الإسلامية في الأندلس ، قبل أن تستسلم إلى قدرها المحتوم ، يبدو فضلا عما يحف به من ألوان البطولة الخالدة ، صفحة رائعة من الاستشهاد المؤثر ، قلما يقدمها إلينا تاريخ أمة من الأمم ، التى اشتهرت بالذود عن حياتها وحرقاتها .

وقد سقطت قواعد الأندلس الشهيرة ، في سلسلة من المعارك والحزن الطاحنة ، التى تقلبت فيها الأمة الأندلسية ، منذ انهار صرح الخلافة الأموية في الأندلس ، في أواخر القرن الرابع الهجرى ، وقامت دول الطوائف الصغيرة المفككة ، على أنقاض دولة عظيمة شامخة . وكان سقوط كل قاعدة من هذه القواعد الشهيرة التى كانت تسطع بمجتمعاتها وحضارتها الزاهرة ، خلال حلك العصور الوسطى ، يمثل ضربة مميتة للدولة الإسلامية في الأندلس ، ويحدث أعظم صدى في جنبات الدول الإسلامية في الشرق والغرب ، وينتزع من وحى النثر والنظم أروع المراثى . وكانت الأمة الأندلسية ، كلما سقطت قاعدة من قواعدها الشهيرة ، فى يد عدوتها القديمة المتربصة بها — إسبانيا النصرانية — ألقت عزاءها فى قواعدها الأخرى ،



وهرع معظم السكان المسلمين إلى تلك القواعد الإسلامية الباقية ، إستبقاء لحرياتهم ودينهم وكرامتهم ، حتى لم يبق من تلك القواعد الشهيرة سوى غرناطة وأعمالها ، تؤلف مملكة إسلامية صغيرة ، ولكن أية ساطعة ، استطاعت عبقرية بناتها النصرين ، أن تسير بها خلال العاصفة أكثر من مائتي عام .

والحقيقة أن مصير الأندلس ، كان يهتز في يد القدر ، منذ فشلت ریح دول الطوائف ، وغلب عليها الخلاف والتفرق ، وانحدرت إلى معترك الحرب الأهلية ، تفسح لعدوها الخطر مجال التفوق عليها ، والضرب والتفريق بينها . وقد استطاع بعض ذوى النظر الثاقب من رجالات الأندلس ، حتى في ذلك العصر ، الذى كان الإسلام يسيطر فيه على معظم أنحاء شبه الجزيرة الإسبانية ، أن يستشفوا ما وراء هذا التفرق من الخطر الداهم . فرى ابن حيان مؤرخ الأندلس في القرن الخامس الهجرى ، يقول لنا بعد أن يعصف حوادث سقوط بربرشت ، من أعمال الثغر الأعلى (أراجون) ، في يد النصارى (النورمان) في سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٣ م) وما اقترن بسقوطها من القتل والسبي وشنيع الاعتداء : « وقد استوفينا في شرح هذه الفادحة مصائب جليلة ، مؤذنة يوشك القلعة ، طالما حذر أسلافنا لحاقها ، بما احتملوه عمن قبلهم من آثاره . ولاشك عند أولى الألباب ، أن ذلك مما دهانا من داء التقاطع ، وقد أخذنا بالتواصل والألفة ، فأصبحنا من استشعار ذلك والتماهى عليه ، على شفا جرف يودى إلى الهلكة لا محالة ، إذ قدر الله زماننا هذا بالإضافة إلى ما عهدنا في القرن الذى سلخه من آخر أمد الجماعة ، على إدراك ما لحق الذى قبله ، فمثل زهرنا هذا - لا قدس - بهيم الشبه ، ما أن يباهى بعرجه ، فضلا عن نزوج خيره ، قد غربل ضمايرهم ، فاحتوى عليهم الجهل ، فليسوا في سبيل الرشيد بأتقياء ، ولا على معالى الغنى بأقوياء . نشأ من الناس هامل يعلنون أنفسهم بالباطل ، من أول الدلائل على فرط جهلهم ، اغترارهم بزمانهم ، وبعادهم عن طاعة خالقهم ، ورفضهم وصية نبيهم ، وغفلتهم عن سد ثغرى حتى أطل عدوهم الساعى لإطفاء نورهم ، يتبجح عراض دورهم ، ويستقرى بسائط بقاعهم ، يقطع كل يوم طرفا ، ويبيد أمة ، ومن لدينا وحوالينا من أهل كلمتنا صموت عن ذكراهم ، لهاء عن بثهم » (١) ، ولم يكن هذا التنديد من

(١) نقلنا هذه الفقرة من تعليقات ابن حيان على نكبة بربرشت ، عن الأخيرة لابن بسام ، القسم الثالث المخطوط المخطوط بمكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد (لوحات ٣٤ - ٣٦) . ونقل المقرئ بعض هذه التعليقات في نفح الطيب (مصر) ج ٢ ص ٥٧٦ .

جانب المؤرخ الأندلسي الكبير ، بتواكل أهل الأندلس ، وتخاذلهم عن نصره دينهم وإخوانهم ، إلا معبراً عن حقيقة راسخة مؤلمة ، ظهرت بأروع مظاهرها ، في عصر الطوائف . بل لقد لاح مدى لحظة ، حينما سقطت طليطلة أول قاعدة إسلامية كبيرة ، في يد إسبانيا النصرانية في سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) ، أن الأندلس أضحت على وشك الفناء ، وأن دول الطوائف المنهكة الممزقة ، سوف تسقط تباعاً في يد عدوها القوي ، وأن دولة الإسلام في إسبانيا سوف تطوى وتختتم حياتها المحيدة في شبه الجزيرة . وقد ساد الفزع والتوجس يومئذ بجنابات الأندلس كلها ، حتى قال شاعرهم حينما سقطت طليطلة :

يا أهل أندلس شدوا رحالكم فما المقام بها إلا من الغلط
السلك ينثر من أطرافه وأرى سلك الجزيرة منثوراً من الوسط
من جاور الشر لا يأمن بوائقه كيف الحياة مع الحيات في سقط

ولكن الدرس كان عميق الأثر ، فجنح زعماء الطوائف إلى الرشاد ، وجمعت المحنة منهم الكلمة ، وارتدوا إلى ما وراء البحر ، يلتمسون الغوث إلى « المرابطين » إخوانهم في الدين . وكان المرابطون يومئذ في عنفوان دولتهم ، وأميرهم يوسف ابن تاشفين يبسط سلطانه القوي على أمم المغرب ، من المحيط غرباً حتى تونس شرقاً . فاستجاب المرابطون إلى صريخ الطوائف ، وعبروا البحر إلى الأندلس في قوات ضخمة ، والتقت الحيوش الإسلامية المتحدة بقيادة يوسف بن تاشفين ، بالحيوش النصرانية المتحدة بقيادة ألفونسو السادس زعيم إسبانيا النصرانية ، في سهل الزلافة في رجب سنة ٤٧٩ هـ (أكتوبر سنة ١٠٨٦ م) فأحرز المسلمون نصراً عظيماً حاسماً . وكانت موقعة الزلافة من أيام الأندلس المشهورة ، وانتعشت دول الطوائف ، وقويت نفوس الأمة الأندلسية ، وبدأت الأندلس حياة جديدة . ولكن سرعان ما انقلب المرابطون على إخوانهم وحلفائهم ، واجتذبتهم نعماء الأندلس وثرواتها ، فحطموا دول الطوائف ، وبسطوا حكمهم على الأندلس زهاء نصف قرن . ولما سقطت دولتهم في المغرب ، وقامت على أنقاضها دولة الموحدين ، جاشت مختلف القواعد الأندلسية بالثورة على المرابطين ، وعبر الموحدون البحر إلى إسبانيا ، واستولوا تباعاً على القواعد الأندلسية الكبرى وبسطوا على الأندلس حكمهم زهاء قرن آخر . وفي ظل الموحدين أحرزت الحيوش الإسلامية كما أحرزت في الزلافة أيام المرابطين ، نصرها الحاسم على إسبانيا

النصرانية ، بقيادة الخليفة الموحدى يعقوب المنصور ، وذلك فى موقعة الأرك الشهيرة (٥٩٣ هـ - ١١٩٥ م)^(١) . ولكنها ما لبثت أن لقيت هزيمتها الحاسمة ، بعد ذلك بقليل على يد اسبانيا النصرانية ، فى عهد الخليفة محمد الناصر ولد المنصور فى موقعة العقاب المشهورة التى فى فيها معظم الجيوش الموحدية والأندلسية (٦٠٩ هـ - ١٢١٢ م)^(٢) . وكانت هزيمة العقاب ضربة شديدة لسلطان الموحدين ولاسبانيا المسلمة ، فعاد شعب الفناء يلوح للأندلس قوياً منذراً ، وسرى هذا التوجس إلى كتاب العصر وشعرائه ، وظهر واضحاً فى رسائلهم وقصائدهم . ومن ذلك ما قاله أبو اسحق ابراهيم بن الدباغ الإشبيلي معلقاً على موقعة العقاب :

وقائلة أراك تطيل تفكراً كأنك قد وقفت لدى الحساب
فقلت لها أفكر فى عقاب غدا سيباً لمعركة العقاب
فما فى أرض أندلس مقام وقد دخل البلا من كل باب^(٣)

وفى خلال ذلك كانت الأندلس تضطرم بأشنع ضروب الخلاف والفتن ، والقواعد والثغور يتناوبها الزعماء والمتغلبون ، واسبانيا النصرانية تنزل بالأندلس ضرباتها المتوالية ، وتستولى تباعاً على القواعد والثغور .

والحقيقة أن الجهد المضطرم الذى بذلته اسبانيا النصرانية يومئذ ، لانتزاع القواعد الأندلسية لم يكن سوى الذروة فى مرحلة طال أمدها ، من حركة الفتح والاسترداد النصرانية *La Reconquista* . وقد بدأ هذا الاسترداد من جانب اسبانيا النصرانية لأراضيها المفتوحة منذ عصر مبكر جداً ، أعنى منذ قامت المملكة النصرانية الشمالية عقب الفتح الإسلامى بقليل فى حى الجبال الشمالية ، واشتد ساعدها بسرعة ، واستطاعت منذ منتصف القرن الثامن الميلادى أن تدفع حدودها تباعاً نحو الجنوب . وكانت أولى القواعد الإسلامية التى سقطت هى « لك » فى أقصى الشمال الغربى لشبه الجزيرة ، وأسترق فى شمال نهر دويرة ، وسمورة وشلمنقة وشقوبية وآبله فى الناحية الأخرى من دويرة . ولم تتأثر الأندلس المسلمة

(١) وتعرف فى الاسبانية بموقعة *Alarcos* . وتراجع تفصيلها فى كتابى « عصر المرابطين والموحدين » القسم الثانى ص ٢٠٠ - ٢١٤ .

(٢) وتعرف فى الاسبانية بموقعة *Las Navas de Tolosa* . وتراجع تفصيلها فى الكتاب السالف الذكر القسم الثانى ص ٢٩٣ - ٣٢٢ .

(٣) نفع الطيب ج ٢ ص ٥٨٢ .

كثيراً بفقد هذه القواعد الأولى لنأيها وقربها من المملكة النصرانية . ولكن الأندلس شعرت بالخطر الحقيقي منذ استطاع النصارى عبور نهر التاجه متوسط شبه الجزيرة في غزوات قوية ، واستيلائهم بعد ذلك على طليطلة ثالثة القواعد الاندلسية الكبرى بعد قرطبة وإشبيلية . ووضع نصر الزلافة ، وقيام سلطان المرابطين في شبه الجزيرة ، حداً مؤقتاً لتقدم النصارى في وسط شبه الجزيرة وشرقيها . ولكن موجة جديدة من الغزو النصراني اجتاحت شمال شرق الأندلس منذ بداية القرن السادس الهجري ، فسقطت سرقسطة في يد النصارى (٥١٢ هـ - ١١١٨ م) ، وكانت تطيلة حصنها الأمامي قد سقطت قبل ذلك بعام ، ثم تلتها بقية قواعد الشغل الأعلى ، لاردة وإفراغة ومكناسة وطرطوشة (٥٤٣ هـ - ٥٤٤ هـ) (١١٤٨ - ١١٤٩ م) . وفي تلك الآونة ذاتها بدأ سقوط القواعد الإسلامية في غربي شبه الجزيرة أعني في البرتغال ، فسقطت أشبونة وشنتر وشنترين في يد النصارى في سنة ١١٤٧ م (٥٤٢ هـ) ، وسقطت باجة بعد ذلك بقليل في سنة ١١٦١ م (٥٥٦ هـ) ، ثم تلتها يابرة في سنة ١١٦٥ م (٥٦١ هـ)

ولما توطد سلطان الموحدين بالأندلس في أواخر القرن السادس الهجري ، توقفت حركة الإستراداد النصراني مدى حين ، ثم عادت تضطرم قوية بعد إحراز اسبانيا النصرانية لفوزها الحاسم على الموحدين في موقعة العتاب (٦٠٩ هـ) . ومنذ أوائل القرن السابع الهجري تجتاح اسبانيا المسلمة موجة عاتية من الغزو النصراني وتسقط قواعد الأندلس الثالثة شرقاً وغرباً في يد النصارى . وهكذا سقطت جزيرة ميورقة (٦٢٧ هـ - ١٢٢٩ م) ، وبياسة (٦٢٣ هـ - ١٢٢٦ م) وأبدرة (٦٣٠ هـ - ١٢٣٣ م) ثم قرطبة (٦٣٣ هـ - ١٢٣٦ م) وإستجة والمدور (٦٣٣ هـ - ١٢٣٦ م) وبلنسية (٦٣٦ هـ - ١٢٣٨ م) ودانية ولقنت (٦٤١ هـ - ١٢٤٤ م) وأوريولة وقرطاجنة (٦٤٣ هـ - ١٢٤٥ م) وشاطبة (٦٤٤ هـ - ١٢٤٦ م) ومرسية (٦٤٠ هـ - ١٢٤٣ م) وجيان (٦٤٣ هـ - ١٢٤٦ م) ، ثم لإشبيلية (٦٤٦ هـ - ١٢٤٨ م) . واجتاحت غرب الأندلس في الوقت نفسه موجة مماثلة من الغزو النصراني ، فسقطت بطليوس (٦٢٧ هـ - ١٢٣٠ م) وماردة (٦٢٨ هـ - ١٢٣١ م) وشلب (٦٤٠ هـ - ١٢٤٢ م) وشنتمرية الغرب (٦٤٧ هـ - ١٢٤٩ م) ولبله وولبة (٦٥٥ هـ - ١٢٥٧ م) . ثم سقطت قادس في سنة ١٢٦١ م ، وتلتها شريش في سنة ١٢٦٤ م . وهكذا لم يأت منتصف القرن

السابع الهجرى (القرن الثالث عشر الميلادى) حتى كانت ولايات الأندلس الشرقية والوسطى كلها ، قد سقطت فى يد اسبانيا النصرانية ، ولم يبق من تراث الدولة الإسلامية بالأندلس ، سوى بضع ولايات صغيرة فى طرف اسبانيا الجنوبى . وأخذت الأندلس عندئذ ، تواجه شبح الفناء مرة أخرى ، وطافت بالامة الأندلسية التى احتشدت يومئذ فى الجنوب فى بسيتها الضيق ، ربح من التوجس والفرع ، وعاد التنذير يهيب بالمسلمين ، أن يغادروا ذلك الوطن الخطر ، الذى يتخاطف العدو أشلاءه الدامية ، وسرى إلى الامة الأندلسية شعور عميق بمصيرها المحتوم .

ولكن شاء القدر أن يرجىء هذا المصير بضعة أجيال أخرى ، وشاء أن يسبق على الدولة الإسلامية بالأندلس . حياة جديدة فى ظل مملكة غرناطة ، التى استطاعت أن تبرز من غمر الفوضى ضئيلة فى البداية ، وأن توطد دعائم قوتها شيئاً فشيئاً ، وأن تذود عن الإسلام ودولته الباقية بنجاح ، أكثر من قرنين . وكان من حسن طالع هذه المملكة الإسلامية الصغيرة ، أن شغلت عدوتها القوية اسبانيا النصرانية مدى حين ، بمنازعاتها وحروبها الداخلية ، فلم توفق إلى تحقيق غايتها الكبرى ، وهى القضاء على دولة الإسلام فى الأندلس ، وعلى الامة الأندلسية بصورة نهائية ، إلا بعد أن تهيأت لذلك جميع الظروف والأسباب . ولم يكن ذلك قبل مائتين وخمسين عاماً ، عاشتها مملكة غرناطة الصغيرة . أبية كريمة ، ترفع لواء الإسلام عالياً فى تلك الربوع ، التى افتتحها الإسلام قبل ذلك بعدة قرون ، وأنشأ بها المسلمون حضارتهم العظيمة التى حفلت بأرقى نظم للحياة المادية والأدبية ، وأرفع ضروب العلوم والفنون التى عرفت فى العصور الوسطى .

كانت غرناطة وقت اقتتاح الأندلس ، مدينة صغيرة من أعمال ولاية «إلبيرة» تقع على مقربة من مدينة إلبيرة قاعدة الولاية ، من الناحية الجنوبية^(١) ، افتتحها المسلمون عقب انتصارهم على القوط ، بقيادة طارق بن زياد فاتح الأندلس ، فى موقعة شريش فى رمضان سنة ٩٢ هـ . (يولييه سنة ٧١١ م) . ولما اضطرت الفتنة بالأندلس ، ودب الخلاف بين القبائل ، عقب موقعة بلاط الشهداء (٧٣٢م)

(١) إلبيرة وبالإسبانية Elvira هى مدينة رومانية قديمة كانت تسمى أيام الرومان Iliboris وكانت عاصمة للولاية التى تسمى بهذا الاسم ، وكانت أيام الفتح الإسلامى مدينة كبيرة عامرة .

واشتد التنافس على الإمارة بين الشاميين من ناحية ، والعرب والبربر من ناحية أخرى ، رأى أمير الأندلس أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي ، أن يعمل على تهدئة الفتنة بتمزيق عصبة الشاميين ، ففرقهم في أنحاء الأندلس ، وأنزل جند الشام بكورة البيرة ، وجند حمص بإشبيلية ، وجند فلسطين بشنونة والحزيرة ، وجند الأردن بريته ، وهكذا نزل الشاسيون منذ البداية بولاية البيرة ، وغدوا يمضي الزمن كثرة فيها . واستمرت مدينة البيرة قاعدة لهذه الولاية ومركز قضائها في ظل الدولة الأموية ، حتى أواخر القرن الرابع حينما انهارت الخلافة الأموية وتعاقبت الفتن ، وعاث البربر في النواحي ، وخربت مدينة البيرة شيئاً فشيئاً ، حتى غدت غرناطة قاعدة الولاية مكانها ، وغلب اسم غرناطة على الولاية نفسها ، ومن ذلك الحين يحنى اسم البيرة كقاعدة من قواعد الأندلس ، ويذكر مكانها اسم غرناطة . والواقع أن البيرة وغرناطة تعتبران في معظم الأحيان ولاسيما في المراحل الأولى لتاريخ الأندلس ، اسمين لمكان واحد ، وقد جرى كثير من المؤرخين والجغرافيين على المزج بينهما^(١) .

وغرناطة أو إغرناطة اسم قديم يرجع إلى عهد الرومان والقوط ، وقد اختلفت آراء الباحثين في أصل هذه التسمية ، فيرى البعض أنه مشتق من الكلمة الرومانية Granata أى الرمانة ، وأنها سميت كذلك لحماها ، ولكثرة حدائق الرمان التي تحيط بها^(٢) ، ويرى البعض الآخر أن التسمية ترجع إلى أصل قوطي أو أنها ترجع إلى أصل بربري مشتق من اسم إحدى القبائل^(٣) . والواقع أن غرناطة تتمتع بموقع فائق في الحسن ، فهي تقع في واد عميق يمتد من المنحدر

(١) كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة ، لابن الخطيب (القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ص ٩٩-١٠٥

(٢) المستشرق سيبولد في *Ency. de l'Islame : Grenade* ؛ وكذلك في معجم ياقوت حيث يقول إن معنى غرناطة « الرمانة » بلسان عجم الأندلس سمي البلد كذلك لحسنه (راجع معجم ياقوت تحت كلمة غرناطة) . وقيل إنها سميت كذلك لأنها أنشئت على البقعة التي زرع فيها الرمان لأول مرة عند نقله من إفريقية إليها ، وقيل أيضاً إنها سميت كذلك لأنها بموقعها وانقسامها على اثنين تشبه بمنازلها الكثيفة الرمانة المشقوقة . راجع كتاب : (Prescott : Ferdinand and Isabella, p. 190, Note)

(٣) هذا ما يراه المستشرق الإسباني سيمونيت ، إذ يقول إن المرجح أن الاسم قوطي الأصل ، وأنه مركب من كلمة « ناطة » وهو اسم قرية قديمة كانت تقع على مقربة من البيرة و « غار » وهو المقطع الذي أضافه المسلمون إليها فصارت « غرناطة » . أو أن البربر سموها كذلك عند نزولهم بها وهو اسم أحد قبائلهم راجع : (Simonet : Descripción del Reino de Granada (Granada 1872) p. 40 & 41)
وراجع كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة (القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ص ٩٩ الهامش .

الشمالي الغربي لجبال سيرا نفادا ، وتظلها الآكام العالية من الشرق والجنوب ، ويحدها من الجنوب نهر شنيل فرع الوادي الكبير^(١) ، وهو ينبع من جبال سيرا نفادا ، ويخترقها فرعه المسمى نهر حدره أو هدره El-Darro ، ويلتقي به عند جنوبي المدينة . وقد كان شنيل وفرعه حدره أيام المسلمين يفيض بالماء ، ولاسيما في الصيف حين تذوب الثلوج ، وكانت ضفافهما خضراء يانعة تغص بالحدائق الغناء . أما اليوم فقد جف مجرى شنيل ، وقلما يجري فيه الماء سوى القليل أيام الشتاء . وأما فرعه حدره فيخترق المدينة من الشرق عند سفح التل الذي تقع عليه « الحمراء » ويتصل بشنيل عند القنطرة الأندلسية القديمة . وهو يكاد يختفي اليوم ولم يبق من مجراه سوى الجزء الصغير المجاور لتل الحمراء . وأما جزؤه الذي كان يخترق وسط المدينة فقد غطى اليوم بشارعها الرئيسي الأوسط المسمى « شارع الملكين الكاثوليكين » ، وامتداده في الميدان الكبير حتى قنطرة شنيل .

وتشرف غرناطة من الجنوب الغربي ، على بسيط شاسع أخضر وافر الحصب ، هو المرج أو الفحص الشهير La Vega^(٢) الذي يمتد غرباً حتى مدينة لوشة ، ومن الجنوب الشرقي على جبال سيرا نفادا Sierra Nevada (جبل شلير أو جبل الثلج)^(٣) التي تغطي آكامها الثلوج الناصعة .

وكانت غرناطة أيام الدولة الإسلامية ، جنة من جنات الدنيا ، تغص بالغياض والبساتين الياقة ، التي كانت لوفرة خصبها وروعة نظرتها ، تعرف « بالحنات » ، فيقال للمزرعة أو البستان « جنة كذا » أو جنة فلان ، مثل جنة الحرف ، وجنة العرض ، وجنة الحفرة ، ومدرج نجد ، ومدرج السيكة ، وجنة ابن عمران وجنة العريف وغيرها . وقد ذكر ابن الخطيب أن هذه الحنات الغرناطية الشهيرة كانت تبلغ في عصره زهاء المائة ، كما ذكر لنا أن منطقة غرناطة ، كانت تضم زهاء ثلاثمائة قرية عامرة ، منها ما كان يبلغ سكانه الألوف ومنها ما كان يملكه

(١) شنيل هو بالاسبانية Xenil أو Qenil ، ويسمى أيضاً عند الأندلسيين بنهر سنجيل مشتقاً من اسمه اللاتيني Singilis .

(٢) وهي كلمة إسبانية معناها المرج . ولعلها مشتقة من كلمة « فحص » العربية .

(٣) يطلق الجغرافيون الأندلسيون اسم شلير أو جبل الثلج على جبال « سيرا نفادا » . فأما « شلير » فهو محرف عن اللاتينية Solaris ومعناها جبل الشمس ، وذلك لأن الشمس تسلط أشعتها الساطعة على تلك الجبال فينعكس ضوءها على الثلوج الناصعة التي تغطيها . وأما تسميتها بجبل الثلج ، فهي ترجمة عربية مطابقة لاسمها القشتالي Sierra Nevada .

مالك واحد أو ملاك قلائل . هذا عدا الأملاك السلطانية والحصون^(١) . وبذلك نستطيع أن نقدر أن مدينة غرناطة ، كانت تضم أيام أن كانت عاصمة للدولة الإسلامية ، أكثر من نصف مليون من الأنفس . وأما خارج المدينة فيضفه ابن الخطيب في قوله :

« ويحف بسور المدينة المعصومة بدفاع الله تعالى ، البساتين العريضة المستخلصة ، والأدواح الملتفة ، فيصير سورها خلف ذلك كأنه من دون سياج كثيفة ، تلوح نجوم الشرفات البيض أثناء خضرايه ، فليس تعرى جنباته من الكروم والحنات جهة » . وأما المرج الشهير أو الفحص La Vega فقد كان بسيطاً رائع الحضرة بشبهونه بغوطة دمشق ، وتخرقه الحداول والأنهار ، ويغص بالقرى والحنات ، ويهرع إليه الرواد في ليالى الربيع والنصيف فيغدو مسرح الأسفار والأنس .

وكانت المدينة ذاتها نموذجاً بديعاً للعمارة الإسلامية ، تغص بالصروح والأبنية الفخمة ، وتمثلها الميادين والطرقات الفسيحة . وكانت مدينة الحمراء أو دار الملك أروع ما فيها ، تطل على أحيائها « في سمت من القبلة » ، تشرف عليه منها الشرفات البيض ، والأبراج السامية والمعاقل المنيعة ، والقصور الرفيعة ، تغشى العيون ، وتبهر العقول^(٢) .

وقد أشاد بذكر محاسن غرناطة وفضائلها كتاب الأندلس وشعراؤها ، وانتهت إلينا من منظومهم ومنثورهم فيها تراث حافل ، ينم بالرغم مما يحمله أحياناً من طابع المبالغة ، عما كانت تشره غرناطة في نفوسهم من عميق الإعجاب والحب . وقد أورد لنا ابن الخطيب في « الإحاطة » والمقرى في « نفح الطيب » ، و« أزهار الرياض » كثيراً من هذه القصائد والرسائل ، وإليك بعض نماذج منها :

قال ابن الخطيب :

بلد تحف به الرياض كأنه وجه جميل والرياض عذاره
وكأنما واديه معصم غداة ومن الحسور المحكمات سواره

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة (القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ص ١٢٢ و ١٢٣ . ويقدم لنا ابن الخطيب بياناً وافياً عن القرى الغرناطية . (راجع ص ١٣١ - ١٣٨) والهوامش حيث تبين مواقع هذه القرى وأسماؤها الإسبانية الحالية .

(٢) راجع الإحاطة في أخبار غرناطة ج ١ ص ١٢١ . واللمحة البدرية في تاريخ الدولة النصرانية لابن الخطيب أيضاً ص ١٣ و ١٤ .

وقال أبو الحجاج يوسف بن سعيد :

أغرناطة العلياء بالله خبرى أللهائم الباكي إليك طريق
وما شاقني إلا نصارة منظر وبهجة واد للعيون تروق
تأمل إذا أملت «حوز مؤمل»^(١) ومد من الحمراء عليك شقيق
وأعلامه نجد والسيكة قد علت وللشفق الأعلى تلوح بروق
وقد سل شئيل فرندا مهندا يضيء فوق در* ذر* فيه عقيق

وقال آخر :

غرناطة ما لها نظير ما مصر ما الشام ما العراق
ما هي إلا العروس تجلى والأرض من جملة الصداق

أما اليوم فقد غدت غرناطة مدينة متواضعة لا يزيد سكانها على مائة وثلاثين ألفاً . وهي عاصمة الولاية الأندلسية المسماة بنفس الاسم . وبالرغم من أنها قد فقدت بهاءها السالف ، فإنها ما زالت تتشع بطابع خاص من التحفظ والنبيل المؤثر . وقد اختفت معظم خططها الإسلامية ، وقامت على أنقاضها مدينة أوربية حديثة . بيد أن غرناطة ما زالت مع ذلك تحتفظ ببقية من صروحها ومعالمها الأندلسية . وتجتمع هذه البقية بالأخص في قسمها الشرقي حيث تبرز أبراج « الحمراء » فوق هضبتها العالية ، وأعظم آثارها الإسلامية الباقية هو بلا ريب قصر الحمراء الملكي الذي ما زال يحتفظ بكثير من روعته القديمة ، وقصر « جنة العريف » El Generalife الواقع في شرقه على مسافة قليلة ، وقد كان مصيفاً للملك غرناطة ، وبقية ضئيلة من « قصر شئيل » Alcázar Genil^(٢) ، وهي تقع في ضاحية أرملة (أرمليا) على مقربة من شئيل ، و« الخان » Alhóndiga ، وهو ذو عقد عربي رائع ، ويقع على مقربة من دار البريد القديمة . أما المسجد الجامع وبقية المساجد الأخرى فقد هدمت جميعاً وقامت على أنقاضها الكنائس . وأما ما بقي من خططها الإسلامية ، فهو ظاهر بالأخص في « جى البيازين » Albaicín الواقع في شمالها

(١) هو اسم مكان بغرناطة الإسلامية كان يشتهر بنفرتة ورياضه ، ويحتل مكانه اليوم الحى الفرناطى المسمى Campo del Principe (راجع الإحاطة ج ١ ص ٤٤٩ والهامش) .

(٢) هو القصر الذى يعرف فى تاريخ غرناطة بقصر السيد ، وقد أنشئ فى عصر الموحدين ، أنشأه السيد أبو إبراهيم إسحاق بن يوسف بن عبد المؤمن والى غرناطة ، وذلك فى سنة ٦١٤ هـ (١٢١٧ م) وعرف عندئذ بقصر السيد . وكان أيام الدولة النصرانية يستعمل قصرا للضيافة الملكية (راجع كتابى عصر المرابطين والموحدين القسم الثانى ص ٣٣١) .

الغربي ، والميدان الكبير الذي ما زال يحمل اسمه القديم « رجة باب الرملة » Plaza de Bibrambla ، وإلى جواره القيسرية القديمة Alcaícaría . هذا فضلا عما يبدو في كثير من دروبها الضيقة الصاعدة ، ومنازلها العديدة ذات الطراز الأندلسي ، من الملامح الأندلسية الواضحة .

كذلك بقيت قطعة كبيرة من أسوار غرناطة الإسلامية ، وبضعة من أبوابها القديمة مثل باب البنود وباب البيرة وباب البيازين وباب فجص اللوز ، وباب الشريعة وهو مدخل الحمراء الرئيسي . هذا وما زالت « قنطرة شليل » ، قائمة على النهر عند التقائه بفرعه « حدره » ، وتحمل اسمها الإسلامي القديم Puente del Genil .

وتوجد في متحف غرناطة الأثرى طائفة كبيرة من اللوحات والنقوش والمتحف الأندلسية .

ولغرناطة منزلة خاصة في نفوس الإسبان وفي التاريخ الإسباني . فهي إلى كونها خاتمة الفتوح المظفرة التي توجت بحروب الإسترداد الإسبانية La Reconquista تعتبر بتاريخها المؤثر أنبل المدن الأندلسية ، ويعتبر سقوطها في أيدي الإسبان فاتحة عصر اسبانيا الذهبي . ومن ثم فقد اتخذت مئوى ألبدياً لفاتحيها الملكين الكاثوليكين فرناندو وإيسابيلا ، حيث يرقدان في كنيسها العظمى التي أقيمت فوق موقع المسجد الجامع . ونالت غرناطة حظوة خاصة لدى ملوك اسبانيا المتوالين فخبوها بمختلف المنشآت وضروب الإصلاح والتجميل ، وحرص الإسبان على أن تبقى عاصمة الأندلس القديمة كما كانت مركز العلوم في جنوبي اسبانيا ، فأنشئت جامعة غرناطة الشهيرة في سنة ١٥٣١م ، في عصر الإمبراطور شارلكان ، وهي اليوم من أهم وأقدم الجامعات الإسبانية ، ويوجد ضمن معاهدها الخاصة ، معهد لدراسة عصر الملكين الكاثوليكين فاتحي غرناطة ، ومدرسة للدراسات العربية . وفي غرناطة معاهد علمية وثقافية عديدة أخرى ، وعدة متاحف فنية أثرية .

الفصل الثانی

نشأة مملكة غرناطة

وقیام الدولة النصریة

غرناطة منذ عهد الفتنة حتى عهد الموحدين . اضمحلل دولة الموحدين بالأندلس والمغرب . النزاع حول عرش الخلافة الموحدية . قیام العادل ثم المأمون . ظهور ابن هود وثورته على الموحدين . استيلاؤه على مرسية . دعوته للخلافة العباسية . انهيار الدولة الموحدية . الحرب بين ابن هود وبين النصارى . هزيمة ابن هود . زحف النصارى على قرطبة . استغاثها بابن هود . ابن هود يؤثر السير إلى بلنسية . حصار قرطبة وسقوطها في يد النصارى . وفاة ابن هود . غزو ملك أراجون لبانسية واستيلاؤه عليها . استيلاء القشتاليين على مرسية . أحوال جنوبي الأندلس . ظهور محمد بن الأحمر . طاعة القواعد الجنوبية له . دعوته لصاحب إفريقية . تحالفه مع الباجي وغدره به . دخول جيان ومالقة وشريش في طاعته . الثورة في غرناطة . دعوتها لابن الأحمر واستيلاؤه عليها . استيلاؤه على المرية . بنو أشقيلولة أصهار ابن الأحمر . قیام مملكة غرناطة . افتراق كلمة الأندلس . خضوع القواعد الشرقية للنصارى . غزو ابن الأحمر لمرتش . غزو فرناندو الثالث لأراضي ابن الأحمر وحصاره لغرناطة . خضوع ابن الأحمر لفرناندو وتمهده بأداء الجزية . سقوط القواعد الغربية في يد النصارى . تأهب فرناندو لافتتاح إشبيلية . استيلاؤه على قرمونة . حصار إشبيلية . معاونة ابن الأحمر للنصارى . قصيدة ابن سهل في استصراخ أهل العدو . سقوط إشبيلية في يد النصارى . سقوط باقي القواعد الغربية . ابن الأحمر ودقة موقفه . اتجاهه إلى عون بني مرين . الحرب بينه وبين النصارى . سقوط إستجة . هزيمة ابن الأحمر . صدى صريخ الأندلس في المغرب . نزول ابن الأحمر عن شريش والقلعة وغيرها . صدى سقوط القواعد الأندلسية . مرثية أبي الطيب الرندي . ثورة بني أشقيلولة بمالقة . غزو النصارى للجزيرة الخضراء . صفات ابن الأحمر وخلاله . كيف يصورها النقد الحديث . وفاة ابن الأحمر .

لبشت غرناطة في ظل الدولة الأموية ، قاعدة متواضعة من قواعد الأندلس الجنوبية ، وهي تحتل مكانا ليرة شيئا فشيئا ، حتى كانت أيام الفتنة عقب انهيار الدولة الأموية في أواخر القرن الرابع ، فأخذت القواعد الجنوبية تغدو ، بعد تخريب قرطبة ، ونأى القواعد والشعور الشرقية والشمالية ، مركز التجاذب والتنافس بين زعماء الفتنة . ووقعت غرناطة يومئذ في نصيب البربر ، واستولى عليها زعيم صنهاجة زاوي بن زيري واتخذها دار ملكه ، وقامت في قرطبة دولة بني حمود الإدريسية . واستمرت الحرب والفتنة مدى حين ، محالابين المتغلبين من فلول بني أمية وبني عامر ، وفتيانهم ومواليهم ، وبين زعماء البربر . ولما ظهر المرتضى ، وهو من عقب

بنى أمية ، ودعا لنفسه بالخلافة ، سار في عصبة الأمويين والموالي إلى غرناطة ، لانزاعها واتخاذها دار ملكه ، فرده عنها صاحبها زاوى الصنهاجى في موقعة دموية (٤٠٨ هـ) . واستقر زاوى في حكم غرناطة وأعمالها بضعة أعوام ، ثم غادرها إلى دار قومه في تونس ، واستخلف عليها ابن أخيه حبوس بن ماكسن ، فحكمها حتى توفى في سنة ٤٢٩ هـ . وخلفه في ولايتها ولده باديس وتلقب بالمظفر ، واستولى على مالقة من يد الأدارسة (بنى حمود) ، واتسع ملكه ، ولبت طول حكمه الذى استطال حتى سنة ٤٦٧ هـ ، فتح قتال مستمر مع بنى عباد أمراء إشبيلية ، أعظم وأقوى ملوك الطوائف يومئذ . ولما توفى باديس المظفر ، خلفه في حكم غرناطة وأعمالها ، حفيده عبد الله بن بلكيين بن باديس ، واستمر في حكمها إلى أن عبر المراهطون البحر إلى الأندلس في سنة ٤٨٣ هـ ، بقيادة عاهلهم يوسف بن تاشفين ، واستولوا عندئذ على غرناطة ، كما استولوا على قواعد الأندلس الأخرى ، وانتهت بذلك دول الطوائف ، التى قامت على أنقاض الخلافة الأموية ، وحاشت زهاء ستين عاماً .

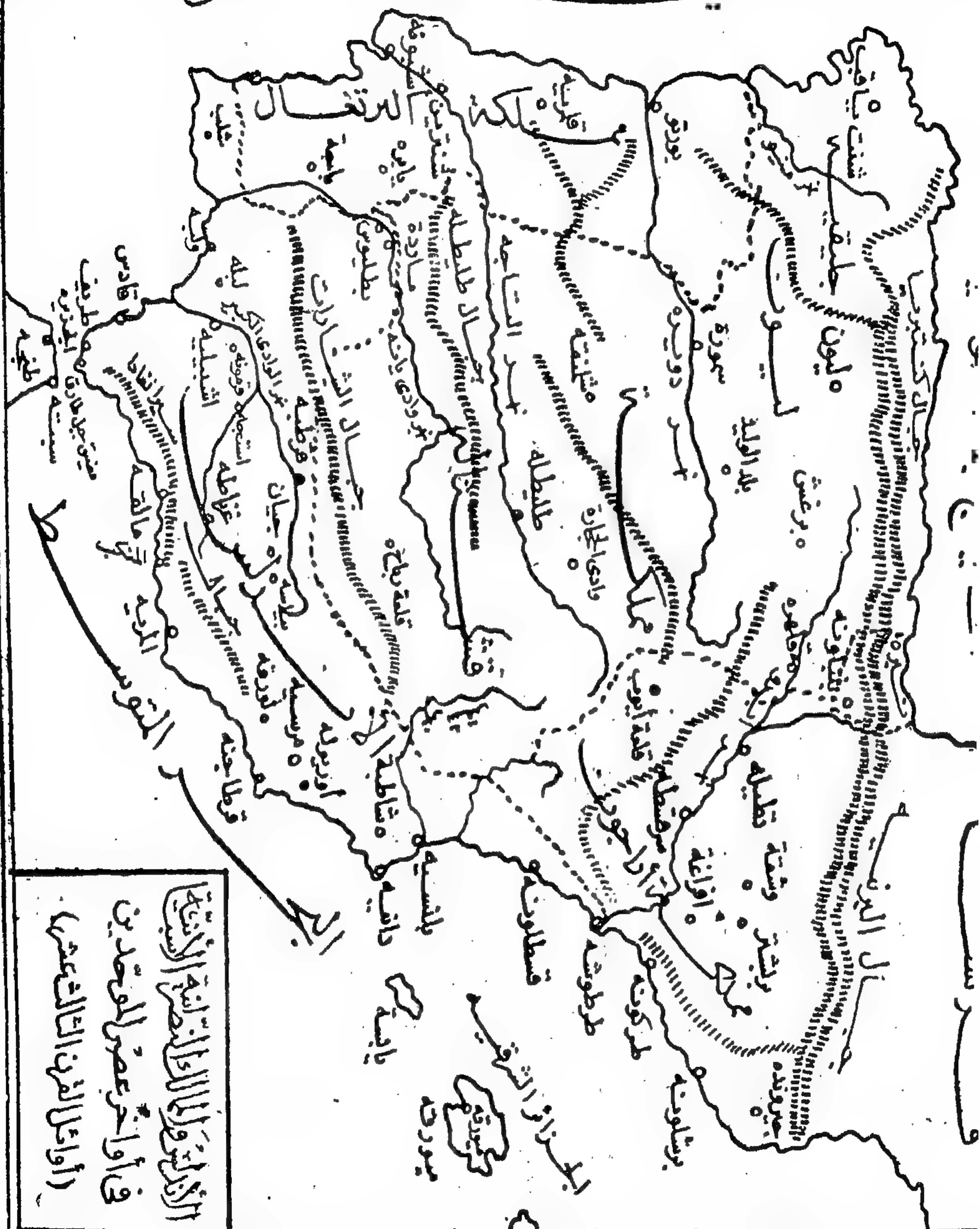
واستمر المراهطون في حكم الأندلس وقواعدها ، زهاء ستين عاماً أخرى ، وتعاقب في حكم غرناطة عدة من أمراء اللمتونيين^(١) وسادتهم ، من قرابة يوسف بن تاشفين . فلما ابهارت دولتهم في المغرب ، جاز الموحدون المتغلبون على دولتهم إلى الأندلس في سنة ٥٤١ هـ (١١٤٧ م) ، وأخذوا يستولون تباعاً على القواعد والشعور ، فاستولوا أولاً على قواعد الغرب ، شلب وميرتلة وباجة ، ثم استولوا على إشبيلية في أواخر سنة ٥٤١ هـ ، فقرطبة في سنة ٥٤٣ هـ ، واعتصم المراهطون بغرناطة بضعة أعوام أخرى ، ثم اضطروا أخيراً إلى تسليمها إلى الموحدين وذلك في سنة ٥٥١ هـ (١١٥٦ م) .

ولبت غرناطة كباقي القواعد الأندلسية في أيدي الموحدين ، يتناوب حكمها الأمراء والسادة من بنى عبد المؤمن وقرابته ، حتى كانت ثورة أبى عبد الله محمد ابن يوسف بن هود سليل بنى هود أمراء سرقسطة السابقين ، على الموحدين ، وانزاعه معظم قواعد الأندلس من أيديهم .

وذلك أنه لما توفى أبو يعقوب يوسف المستنصر بالله خليفة الموحدين ، في سنة ٦٢٠ هـ دون عقب ، أقام الموحدون مكانه السيد أبا محمد عبد الواحد

(١) لمتونة هو اسم القبيلة التى ينتمى إليها المراهطون ، ولذا يسمون أحياناً باللمتونيين .

المحيط الأطلنطي



الأنثى والذكر المصنفين
في آخر عصر الموحدين
(أو على القرن الثالث عشر)

ابن يوسف بن عبد المؤمن ، الملقب بالخلوع ، ولكن الأمور لم تهدأ بذلك ولم تستقر ، إذ ظهر بالأندلس ، مدع جديده للخلافة ، هو السيد أبو محمد عبد الله ابن يعقوب المنصور ، والى مرسية ، وأعلن نفسه خليفة للموحدين باسم العادل ، وذلك في شهر صفر سنة ٦٢١ هـ . وأيدته في دعوته معظم القواخذ الكبرى ، وكان ولاية قرطبة وغرناطة ومالقة ، وإشبيلية ، يومئذ من أخوته ، أولاد المنصور . ثم سار العادل إلى إشبيلية ، وهناك وصلته بيعات أهل مراكش وبلاد المغرب . وقام أشياخ الموحدين بمراكش بخلع الخليفة أبي محمد عبد الواحد ، ثم دبروا قتله غيلة (شعبان ٦٢١ هـ) وعندئذ قرر العادل العبور إلى المغرب ، وترك أخاه السيد أبا العلاء إدريس بن المنصور والياً لإشبيلية ، وهي يومئذ قاعدة الحكم الموحدى بالأندلس .

وعبر العادل البحر إلى المغرب في أواخر سنة ٦٢٢ هـ . وترجع على كرسى الخلافة . وكانت أحوال الدولة الموحدية قد ساءت يومئذ ومزقتها الأهواء والفتن ، وتضعضع سلطانها في معظم أنحاء المغرب والأندلس . ولم يمض قليل على قيام العادل في الخلافة حتى خرج عليه بالأندلس ، أخوه أبو العلاء إدريس والى إشبيلية ، ودعا لنفسه ، وتسمى بالمأمون ، وكان من أصداء هذه الحركة الجديدة في مراكش أن قام الموحدون بقتل العادل ، ولكنهم لم يعلنوا بيعه المأمون ، بل أقاموا مكانه في الخلافة ولد أخيه ، يحيى بن الناصر (شوال ٦٢٤ هـ) وبما علم المأمون بذلك ، استشاط سخطاً ، وقصد إلى فرناندو الثالث ملك قشتالة ، وطالب إليه العون على انتزاع العرش من ابن أخيه ، وقدم إليه عدداً من الحصون الأندلسية الهامة ، ودفع إليه مبلغاً طائلاً من المال ، وتعهد بأن يمنح النصراني في مراكش امتيازات عديدة ، وأن يسمح لهم ببناء كنيسة لهم ، وفي نظير ذلك أمدد ملك قشتالة بفرقة من جنوده ليستعين بها على مقاتلة خصمه . وعبر المأمون إلى المغرب في حشوده من العرب والموحدين والقشاليين ، وذلك في أواخر سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٨ م) ، وقصد توجاً إلى مراكش . وخرج الخليفة يحيى بن الناصر للقائه في قواته . ونشبت بين الفريقين معركة هزم فيها يحيى ، وفر ناجياً بنفسه ، ودخل المأمون مراكش ، وترجع على كرسى الخلافة .

وكان المأمون ، أميراً وافر الهمة والعزم ، يجيش بمشاريع وأطاع عظيمة . ففضى الأعوام القلائل التالية في العمل على توطيد سلطانه بالمغرب ، واستبد بالحكم

واستعمل الشدة والعنف ، في قمع كل نزعة إلى الخروج ، وقضى بمرسومه الشهير ، على رسوم المهدي ابن تومرت وتعاليمه ونظام حكمته ، باعتبارها نظاماً رجعية ، لا تتفق مع روح الدين الصحيح ، وفكك بنحوصه والناكثين لبيعته من الموحدين وغيرهم . فسرت روح السخط إلى معظم القبائل ، وأخذ الزعماء المتوثبون يرقبون الفرص . ثم مرض المأمون وتوفي فجأة ، وهو في إبان سلطانه ومشاريعه ، وذلك في شهر ذى الحجة سنة ٦٢٩ هـ (١٢٣٢ م) ، فخلفه ولده الفتي أبو محمد عبد الواحد الملقب بالرشيد .

وبينما كان المغرب يضطرم بعوامل الثورة والانتفاض على هذا النحو ، وكرسى الخلافة الموحدية يهتز لإزاء أطماع الخوارج والمتوثبين ، كان سلطان الموحدين بالأندلس يهتز في الوقت نفسه ، ويتداعى بسرعة ، وينهار حكمهم تباعاً . ففي تلك الآونة ، ظهر زعيم أندلسي جديد ، ينتمي إلى بيت عريق في الزعامة والملوكية ، هو محمد بن يوسف بن هود الجذامي ، وهو سليل بني هود ملوك سرقسطة القدماء ، وكان يومئذ في منواضعاً من أهل مرسية من طوائف الجند . ظهر يدعو إلى دعوة جديدة ، تمثل فيها روح الأندلس الحقيقية ، وهي وجوب العمل على تحرير الأندلس من نير الموحدين والنصارى معا . وكان تحالف المأمون مع ملك قشتالة ، وتنازله له عن الحصون الأندلسية ، وتعهد به بأن يمنح النصارى في أراضيه امتيازات خاصة ، وذلك مقابل عونه له بالجند على محاربة بنحوصه : كان ذلك يسبغ على دعوة ابن هود قوة خاصة ، ويدفع الأندلسيين إلى الانضواء تحت لوائه . وظهر ابن هود لأول مرة في أحواز مرسية في سنة ٦٢٥ هـ (١٢٢٨ م) ، في الوقت الذي أخذ فيه سلطان الموحدين ، يضطرب ويتصدع في الثغور والنواحي ، ثم أغار على مرسية في عصبته القليلة ، واستطاع أن ينتزعها من يد حاكمها الموحدي السيد أبي العباس . وأخذ نجمه يتألق من ذلك الحين ، فأعلن أنه يعتزم تحرير الأندلس من الموحدين والنصارى معاً ، والعمل على إحياء الشريعة وسننها ، ودعا للخلافة العباسية ، وكاتب الخليفة المستنصر العباسي ببغداد ، فبعث إليه بالخلع والمراسيم ، وتلقب بالموكل على الله . ولم يمض سوى قليل حتى دخلت في طاعته عدة من قواعد الأندلس ، ومنها جيان وقرطبة وماردة وبطليوس . ثم استطاع أن ينتزع غرناطة .

قصبة الأندلس الجنوبية ، من المأمون وذلك في سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣١ م) (١).

وفي العام التالي (٦٢٩ هـ) توفي المأمون خليفة الموحدين حسبا تقدم ، وهو في طريقه إلى مراكش ، ليعمل على إنقاذ عرشه من المتغلبين عليه . وبينما كان سلطان الموحدين بالأندلس يدنو سراعاً من نهايته ، كانت دولتهم بالمغرب تدخل في دور الانحلال وتجاوز مراحلها الأخيرة . وبا لرغم من أنه لاح مدى لحظة ، في ظل الخليفة أبي الحسن علي السعيد (٦٤٠ - ٦٤٦ هـ) ، الذي خلف الرشيد ، أن الدولة الموحدية سوف تنهض من كبوتها ، وتسترد قوتها ، وتصمد أمام هجمات بني مرين المتوالية ، فإن مصرع السعيد الفجائي في الحرب ضد أمير تلمسان ، قضى على هذه البارقة . ثم جاء الخليفة المرتضى بالله (٦٤٦ - ٦٦٥ هـ) ، ففضت الخلافة الموحدية في ظله سراعاً إلى المنحدر ، ثم اختتمت حياتها ، بعد ذلك بقليل في فاتحة سنة ٦٦٨ هـ (سبتمبر ١٢٦٩ م) ، على يد آخر خلفائها الواصلين إلى ديارهم ، لتقوم على أنقاضها دولة بني مرين الفتية الشاحنة .

وقد خاض ابن هود ، قبل أن تستقر دعوته ، مع الموحدين والنصارى معارك متوالية . فأما عن صراعه مع الموحدين ، فقد بذل الخليفة المأمون قبل عبوره إلى المغرب محاولة لإخماد حركة ابن هود في المشرق ، فلم يفلح (٦٢٦ هـ) ، وكان من أثر هذا الفشل ، أن تمكنت دعوة ابن هود ، وقامت إشبيلية عاصمة الأندلس الموحدية بالدخول في طاعته . على أن ابن هود لم يحرز مثل ذلك للتوفيق في محاربة النصارى . ذلك أن ألفونسو التاسع ملك ليون ، رأى أن يتنهر فرصة اضطراب الأحوال في الأندلس ، وانهيار سلطان الموحدين في شبه الجزيرة ، فخرج في قواته إلى منطقة الغرب الأندلسية ، وزحف على مدينة ماردة ، وضرب حولها الحصار . ولما علم ابن هود بذلك ، سار في بعض قواته نحو الغرب لينقذ المدينة المحصورة ، واشتبك مع الليونيين في معركة هزم فيها ، واستولى الليونيون على ماردة ، ثم احتلوا بعد ذلك بقليل مدينة بطليوس ، وذلك في أواسط سنة ٦٢٧ هـ (١٢٣٠ م) . وكان فرناندو الثالث ملك قشتالة ، وهو ولد ألفونسو التاسع ملك ليون ، يرقب الفرصة في نفس الوقت ، لينتزع ما يمكن انتزاعه من أراضي الأندلس المتاخمة لقشتالة . فسير قواته لمقاتلة ابن هود ، وقد كان يبدو في نظره

(١) تحدثنا عن ظهور ابن هود تفصيلاً في كتابنا (عصر المرابطين والموحدين) القسم الثاني

ومثد زعيم الأندلس الحقيقي . وكان ابن هود قد استطاع في تلك الآونة ، أن يبسط سلطانه على الولايات والشواطىء الجنوبية ، فيما بين الجزيرة الخضراء والمرية ، وفيما بين قرطبة وغرناطة ، وكان يرى في مقاتلة النصارى عاملاً لتدعيم دعوته وسلطانه . فسار للقائهم والتقى الجيشان في فحص شريش على ضفاف نهر وادى لكه ، ولكن ابن هود هزم للمرة الثانية بالرغم من تفوقه في العدد (أواخر ٦٣٠ هـ - ١٢٣٣ م) ، وسار فرناندو بعد ذلك لاجتياح أبدة ، فسقطت في يده بعد حصار قصير (٦٣١ هـ - ١٢٣٤ م) .

على أن سقوط قرطبة كان أعظم ضربة نزلت يومئذ بالأندلس . وكان ابن هود عقب هزيمته في شريش ، قد جمع قواته ، وسار لقنال خصمه ومنافسه الحديد محمد بن الأحمر في أحواز غرناطة ، وألقى النصارى من جانبهم الفرصة سانحة للزحف على قرطبة . وكانت عاصمة الخلافة القديمة ، بالرغم من دخولها في طاعة ابن هود ، تعاني من حالة مؤلمة من الاضطراب والفوضى ، ولم يكن لها حاكم أو زعيم يجمع الكلمة أو يتزعم حركة الدفاع ضد النصارى . وكان القشتاليون في الحصون القريبة ، يشعرون بضعف العاصمة التالدة ، وإمكان مهاجمتها ، فاجتمعت بعض قوى الفرسان القشتالية المرابطة في حصون الحدود ، وسارت نحو قرطبة ، وهاجمت قسمها الشرقي المسمى « بالشرقية » ، واقتحمته ليلاً ، وعلى غرة من أهله ، واستطاعوا الاستيلاء على بعض أبراجه ، ولكنهم رأوا أن الاستيلاء على المدينة ذاتها ليس بالأمر السهل ، ولا بد لتحقيقه من قوات ضخمة . وعلم فرناندو الثالث ، وهو في طريقه إلى ليون بما تم من استيلاء قواته على بعض أبراج المدينة ، وبما تبين من ضعف وسائل الدفاع عنها ، فارتد إليها مسرعاً تلاحقه قواته من سائر الأنحاء ، وضرب الحصار حول المدينة ، وبادر أهل قرطبة بالتأهب للدفاع عن مدينتهم ، وأرسلوا إلى ابن هود أميرهم الشرعى ، يطلبون الغوث والإنجاد . وقدر ابن هود خطورة الموقف ، واعتزم في الحال أن يسير إلى إنجاد المدينة المحصورة ، فسار في قواته نحو قرطبة ، ونزل في إستجة على مقربة منها ، ولكنه لبث جامداً لا يحاول الاشتباك مع النصارى . وفي بعض الروايات أن ابن هود رأى جيش القشتاليين يفوقه في الأبهة والكثرة ، فنكل عن الاشتباك معه . وفي البعض الآخر ، أن ابن هود ، وصله وهو على مقربة قرطبة صريخ أبي جميل

زيان زعيم بلنسية لمعاونته ضد خايمي^(١) ملك أراجون ، الذى اشتد فى مناوآته ولا رهاقه ؛ ولاح له أن السير إلى بلنسية التى كان يطمح إلى امتلاكها أيسر وأجدى ، فترك قرطبة لمصيرها ، موثقاً أن يصمد أهلها للدفاع عنها ، أو يستطيع إنقاذها فيما بعد . ولبت النصارى على حصار قرطبة بضعة أشهر ، ودافع القرطبيون عن مدينتهم وعن دينهم وحریاتهم ، أعنف دفاع وأروع ، ولكنهم اضطروا فى النهاية ، وبعد أن أرهقهم الحصار ، وفقدوا كل أمل فى الغوث والإنقاذ ، إلى التسليم . ودخل القشتاليون قرطبة فى ٢٣ شوال سنة ٦٣٣ هـ (٢٩ يونيه سنة ١٢٣٦ م) ، وفى الحال حولوا مسجدھا الجامع إلى كنيسة^(٢) . وقد كان هذا شعارهم كلما دخلوا قاعدة أندلسية ، وذلك إيداناً بظفر النصرانية على الإسلام . وكان لسقوط العاصمة الخلافة الثالثة ، أعظم وقع فى الأندلس وفى سائر جنابات العالم الإسلامى ، وكان ضربة مميتة أخرى صوبتها اسبانيا النصرانية ، إلى قلب الأندلس المفككة المهوكة القوى^(٣) .

ولم يلبث ابن هود أن توفى بعد ذلك بقليل فى أوائل سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٧ م) . وكانت وفاته فى ثغر ألمرية ، فى ظروف غامضة . وكان قد سار إليها معزماً أن ينقل بعض قواته فى البحر لإنجاد أمير بلنسية ، فقبل إن وزيره ونائبه فى ألمرية أبا عبد الله محمد بن عبد الله الرميمى استضافه فى قصره ، ودبر قتله غيلة ، وزعم فى اليوم التالى أنه توفى مصروعاً . وكان الرميمى قد قام بدعوته فى ألمرية ووفد عليه فى مرسية ، فقدر ابن هود عونه ، وولاه وزارته وعينه حاكماً لألمرية ، ثم تغير

(١) خايمي Jaime وهو الرسم الإسبانى لاسم يعقوب .

(٢) وما زال جامع قرطبة العظيم قائماً إلى يومنا بأروقته وعقوده وأعمدته الإسلامية كاملاً كما كان أيام المسلمين . بيد أنه حول إلى كنيسة قرطبة الجامعة ، وأقيمت الهياكل فى سائر جوانبه تحت عقوده القديمة ، وأقيم فى وسطه مصل كبير على شكل صليب Crucero ؛ وقد أزيلت قبابه ونقوشه الإسلامية . ولم يبق محتفظاً بنقوشه القديمة سوى محاريبه الثلاثة . وما زال هذا الأثر الأندلسى العظيم إلى جانب تسميته بكتدرائية قرطبة يحمل اسمه الإسلامى القديم « المسجد الجامع » La Mezquita Aljama . راجع كتاب الآثار الأندلسية الباقية (الطبعة الثانية ص ٢٠ - ٣٣) .

(٣) راجع فى سقوط قرطبة ، ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٩ و ١٨٣ ؛ ونفح الطب ج ٢ ص ٨٥ . حيث يشير إليه إشارة عابرة مع تحريف فى التاريخ ، إذ يذكر أن سقوطها كان فى سنة ٦٣٦ هـ . وراجع التكملة لابن الأبار (القاهرة) ص ٢٠٢ . وقد تحدثنا عن سقوط قرطبة تفصيلاً فى كتابنا « عصر المرابطين والموحدين » القسم الثانى (ص ٤١٨ - ٤٢٥) .

عليه فيما يقال من أجل جارية نصرانية رائعة الحسن ، كان يودعها لديه وقد أغراها الرميمي واستأثر بها ، فسار إلى ألمرية لمعاقبته ، ونحشى الرميمي العاقبة فدبر مصرعه ، ولجأ إلى الجريمة احتفاظاً بسلطانه . وكان مصرع ابن هود على هذا النحو في الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٦٣٥ هـ (٢١ يناير ١١٣٨ م) (١) .

وهكذا توفي ابن هود وهو في ذروة سلطانه ومشاريعه ، ولم تطل وثبته التي بثت إلى الأندلس مدى لحظة قصيرة أملاً بخلباً ، سوى بضعة أعوام ، فانهارت بوفاته دولته التي لم يتح لها كثير من أسباب الاستقرار والتوطد (٢) .

وكان المتوكل بن هود أميراً شجاعاً ، كريم الصفات ، يضطرم إخلاصاً وغيره للقضية التي نصب نفسه للاضطلاع بها ، ولكنه لم يكن بصفاته وموارده كفوفاً لتلك المهمة العظيمة ، وكانت تعتور جهوده نفس المثالب القديمة التي كانت تصدع دائماً من جهود الزعماء الأندلسيين ، والتي تتلخص في مصانعة النصارى ، ومداراتهم ، ومساومتهم على حساب المصالح القومية .

وعلى أثر وفاة ابن هود وانهيار دولته ، بادر نخاعي ملك أراجون بانتهاز الفرصة السانحة فغزا ولاية بلنسية . وكان قد استولى قبل ذلك بأعوام قلائل على الجزائر الشرقية (جزائر البلياز) في سنة ٦٢٧-٦٣٢ هـ (١٢٣٠-١٢٣٥ م) . وكانت بلنسية ، في الوقت الذي اضطرم فيه شرقي الأندلس بثورة ابن هود ، ما تزال في أيدي الموحدين ، ويحكمها واليها السيد أبو زيد عبد الرحمن بن محمد ابن يوسف بن عبد المؤمن . ولما استولى ابن هود على مرسية ، خرج السيد أبو زيد في قواته لمحاربتة ، ولكنه ارتد مهزوماً إلى بلنسية . فكان لذلك وقع عميق في بلنسية ذاتها ، ونهض الشعب البلنسي ليحطم نير الموحدين ، وشعر السيد أبو زيد بخرج الموقف ، ونهض في نفس الوقت زعيم من آل مردنيش ، زعماء بلنسية السابقين ، هو الأمير أبو جميل زيان بن مردنيش ، يحاول انتزاع السلطة ، والتف حوله الشعب البلنسي ، وعندئذ بادر السيد أبو زيد ، وغادر بلنسية في أهله وأمواله والتجأ إلى أحد الحصون القريبة ، ولكنه لما رأى تفاقم الموقف ، اعتزم أمره

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٩ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٨٢ و ٥٨٣ ؛ والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٣٥ و ٢٣٦ .

(٢) راجع في ثورة ابن هود ووفاته ، ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٨ - ١٧٠ ؛ والإحاطة ج ٢ ص ٩٠ - ٩٤ . ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٨١ - ٥٨٣ .

وسار ملتجئاً إلى خايى الأول ملك أراجون (٦٢٦ هـ) ، وعقد معه معاهدة تعهد فيها بأن يعطيه جزءاً من الحصون والأراضي الإسلامية التى يستردها أو يفتتحها ، ثم زاد على ذلك ، بأن اعتنق النصرانية ، وانضم بكليته إلى أعداء أمته ودينه ، وأخذ يسير مع حلفائه النصارى فى غزواتهم المتوالية لأراضي بلنسية . وأخذ الملك خايى يستولى تباعاً على حصون بلنسية الأمامية ، ثم هزم البلنسيين ، بقيادة أميرهم زيان ، هزيمة شديدة فى موقعة أنيشة (ذى الحجة ٦٣٤ — أغسطس ١٢٣٧) . ولم تمض على ذلك أشهر قلائل ، حتى سار خايى فى قواته صوب بلنسية وضرب حولها الحصار (رمضان ٦٣٥ هـ) ، وأخذ يضربها بالآلات المخربة . ودافع البلنسيون عن مدينتهم أشد دفاع ، وبعث الأمير أبو جميل كاتبه الفقيه الشاعر المؤرخ ، ابن الأبار القضاعى بصريحه سفيراً إلى الأمير أبى زكريا الحفصى عاهل إفريقية ، وألقى ابن الأبار بين يديه قصيدته السينية الرائعة التى نشير إليها فيما بعد ، وبعث الأمير أبو زكريا عدة من السفن محملة بالعتاد والأموال لإنجادا للمدينة المحصورة ولكنها لم تستطع اختراق الحصار ، واضطر البلنسيون آخر الأمر إلى التسليم بعد أن استنفدوا كل وسائل الدفاع ، وسقطت بلنسية فى أيدي الأرجونيين ، وذلك فى اليوم السابع والعشرين من شهر صفر سنة ٦٣٦ هـ (٩ أكتوبر سنة ١٢٣٨ م) (١) ، وانهارت بذلك سائر خطط الدفاع عن شرق الأندلس . وأتبع خايى فتح بلنسية بالاستيلاء على شاطبة ودانية ولقنت وأوريولة وقرطاجنة ، وذلك فى سنة ٦٤١ — ٦٤٤ هـ . وأما ولاية مرسية فقد استولى عليها فى البداية الأمير أبو جميل زيان ، عقب فقدته لبلنسية ، ولكن الزعماء المحليين آثروا الانضواء تحت حماية ملك قشتالة ، فتقدموا إليه يلتمسون مهادنته ومخالفته على الوضع المأثور ، وهو أن يسمح لهم باستبقاء مدنهم فى طاعته وتحت حمايته ، فأجابهم فرناندو ملك قشتالة إلى ملتسمهم ، وبعث إليهم ولده ألفونسو . ودخل النصارى مرسية صلحاً سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٣ م) . وبذلك سقطت ولاية بلنسية ومرسية وشرق الأندلس كله فى أيدي النصارى فى أعوام قلائل فقط ، وكانت نفس المأساة تتكرر فى ذلك الوقت نفسه ، بصورها وأوضاعها المحزنة ، فى غربى الأندلس حسبما تفصل بعد (٢) .

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٧ . والحلة السيرة لابن الأبار ص ١٩٠

(٢) تناولنا حصار بلنسية وافتتاحها ، وسقوط باقى قواعد الشرق تفصيلاً فى كتابنا « عصر المرابطين والموحدين » القسم الثانى ص ٤٣٧ — ٤٦٤ .

وفي تلك الآونة العصبية ، التي أخذت فيها قواعد الأندلس العظيمة : قرطبة ، وبلنسية. ومرسية وإشبيلية ، تسقط تباعاً في يد النصارى ، والتي أخذت الأندلس تواجه فيها شبح الفناء من جديد كما واجهته أيام الطوائف ، كانت عناصر الفتنة والفوضى تتمخض عن قيام مملكة إسلامية جديدة في جنوبي الأندلس هي مملكة غرناطة . وقيام هذه المملكة في الطرف الجنوبي للدولة الإسلامية القديمة ، يرجع إلى عوامل جغرافية وتاريخية واضحة . ذلك أن القواعد والثغور الجنوبية التي تقع فيما وراء نهر الوادي الكبير آخر الحواجز الطبيعية ، بين إسبانيا النصرانية وبين الأندلس المسلمة ، كانت أبعد المناطق عن متناول العدو وأمنعها ، وكانت في الوقت نفسه أقربها إلى الضفة الأخرى من البحر ، إلى عدوة المغرب وشمال إفريقيا حيث تقوم دول إسلامية شقيقة ، وحيث تستطيع الأندلس وقت الخطر الداهم ، أن تستمد الغوث والعون من إخوانها في الدين . وقد كان لها في ذلك منذ أيام الطوائف أسوة ، بل لقد كان صريخ الأندلس يتردد في تلك الآونة ذاتها على لسان شاعرها وسفيرها ابن الأبار القضاعي ، حينما دهم العدو بلنسية في سنة ٦٣٥هـ (١٢٣٧م) ، وكان الصريخ موجهاً من أميرها أبي جميل زيان ، إلى أبي زكريا الحفصي ملك إفريقيا (تونس) ، وهو الذي رده الشاعر في قصيدته الشهيرة التي مطلعها: (١)

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا	إن السبيل إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمت	فلم يزل عز النصر منك ملتصا
وحاش مما تعانيه حشاشتها	فطالما ذقت البلوى صباح مسا
يا للجزيرة أضحى أهلها جزراً	للحادثات وأمسى جدها تعسا
في كل شارقة إلسام بائقة	يعود مآتمها عند العدا عرسا
وكل غاربة إجحاف نائبة	تثنى الأمان حذاراً والسرور أسى
تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم	إلا عقائلها المحجوبة الأنسا
وفي بلنسية منها وقرطبة	ما ينسف النفس أو ما ينزف النفسا
مدائن حلها الإشراك مبتسا	جدلان وارتمل الإيمان مبتثسا
وصيرتها العوادي العابثات بها	يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا

(١) تراجع هذه القصيدة في نفح الطيب ج ٢ ص ٥٧٨ وما بعدها ؛ وفي أزهار الرياض ج ٣ ص ٢٠٧ وما بعدها ، وهي من غرر القصائد الأندلسية السياسية .

وفي قول الشاعر يتمثل هذا المغزى التاريخي . الذي لبث أحقاباً يربط بين الأندلس وبين الدول الإسلامية الشقيقة في عدوة المغرب ، وقد كان يتمثل واضحاً كلما اشتد الخطر بالأمة الأندلسية ، ولأح لها شبح الفناء في جزيرتها المنقطعة قوياً رهيباً . وقد قامت مملكة غرناطة ، التي شاء القدر أن تكون ملاذ الأمة الأندلسية دهرآ طويلاً آخر ، في ظروف متواضعة . وذلك أنه لما ضعف أمر الموحدين بالأندلس ، وخرج عليهم محمد بن يوسف بن هود الملقب بالمتوكل كما قدمنا ، وأخذت قواعد الأندلس تخرج من قبضتهم تباعاً ، ينتزع بعضها ابن هود وثوار النواحي ، والبعض الآخر ينتزعه النصاري ، كان من الزعماء الذين ظهرُوا أثناء الفتنة محمد بن يوسف النصري المعروف بابن الأحمر سليل بني نصر ، وهم في الأصل سادة حصن أرجونة (١) من أعمال ولاية جيان . وهو محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر ابن قيس الخزرجي . ويُرجع بنو نصر نسبهم إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج وأحد أكابر الصحابة ، فهم بذلك من أعرق البطون العربية . وقد أشار إلى هذه النسبة بعض مؤرخي الأندلس ومنهم الرازي (٢) . وكان لبني نصر وجاهة وعصبية . وولد محمد بن يوسف في أرجونة سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٨ م) ونشأ في مهاد الفضيلة والتقشف جندياً وافر الجرأة والعزم ، يتزعم قومه ، ويقودهم إلى مواطن النضال ، وكان بالرغم من تقشفه وتواضعه يجيش بأطماع كبيرة ، وكانت حوادث الأندلس يومئذ تقدم لأولى العزم والإقدام كثيراً من فرص الظهور والمغامرة ، فلما تفاقمت الفتنة ، واضطربت الشئون في الثغور والنواحي ، وكثرت غزوات النصاري لقواعد الأندلس ، وظهر ابن هود على الموحدين في الثغور الشرقية ، لاحت لمحمد ابن يوسف فرصة العمل . وكان هذا الزعيم المتواضع الموهوب معاً ، يبدو لكثير من الزعماء وذوى الرأي ، معقد الآمال في إنقاذ ما بقي من تراث الأندلس ، فالتفت حوله الصاحب والأنصار ، أولاً في أرجونة موطن أسرته وعصبته ، وفي الجهات المجاورة لها . وبينما كان ابن هود يعمل لتوطيد سلطانه في شرقي الأندلس وجنوبها ، كان محمد بن يوسف يعمل من جانبه في الأنحاء الوسطى ، ولم يلبث

(١) ومكانه اليوم بلدة أرجونة Arjona وهي بلدة صغيرة تقع شمال غربي مدينة جيان ، وجنوبي بلدة أندرجر .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٧٠ ؛ والإحاطة ج ١ ص ١٥٨ وج ٢ ص ٥٩ و ٦٠ ؛ وأزهار الرياض ج ١ ص ١٦٧ .

أن أطاعته جيتان وبسطة ووادي آش وما حولها من البلاد والحصون ، وبسط حكمه على تلك الأنحاء بالرغم من معارضة ابن هود . ثم اتجه ببصره إلى القواعد والشعور الجنوبية باعتبارها أقرب ميدان للعمل ، وأهدد الأماكن عن متناول العدو ، ورأى في الوقت نفسه ، أن يستغل بدعوة أحد الأمراء المسلمين الظاهريين ، فدعا للأمير أبي زكريا الحفصي صاحب إفريقية (تونس) وتلقى منه بعض العون . وقيل أيضاً إنه حذا حذو ابن هود في الدعاء للخليفة المستنصر بالله العباسي ؛ ونادت قرمونة وقرطبة وإشبيلية بطاعته لمدة قصيرة وذلك في أواسط سنة ٦٢٩ هـ ، ثم عادت قرطبة وإشبيلية عنه إلى طاعة ابن هود . ولما اضطربت الثورة في إشبيلية ، واستطاع زعيمها القاضي أبو مروان الباجي أن يبسط حكمه عليها ، وأن يخرج منها عامل ابن هود ، بادر محمد بن يوسف إلى مخالفته على معارضة ابن هود ومقاتلته ، وهزمه سويماً في بعض المواقع . ولكن محمداً غدر بعد ذلك بالباجي ليخلو له الخو ودس عليه من قتله . ولم يمض قليل على ذلك حتى أطاعته شريش ومالقة ، وكثير من القواعد والحصون القريبة (سنة ٦٣٠ هـ) . أما إشبيلية وقواعد غربي الأندلس فقد احتفظت باستقلالها في ظل بعض الزعماء المحليين . وهرع إلى لوائه كثير من المسلمين الذين غادروا المدن التي وقعت في يد النصاري ، واستطاع أن يجمع جيشاً كبيراً من الفرسان والرجالة ، يؤازره في تنفيذ خطته ومشاريعه^(١) ولما قويت دعوة ابن هود ، وامتد سلطانه نحو الغرب والجنوب ، واستولى على غرناطة وأقره الخليفة العباسي على دعوته ، رأى محمد بن يوسف (ابن الأحمر) مصانعته والانضواء تحت لوائه ، فأنحاز إليه وجاهر بطاعته (٦٣١ هـ) ولكن ابن هود ما لبث أن توفي في أوائل سنة ٦٣٥ هـ وانهارت دولته كما قدمنا . وعندئذ بادر محمد بن يوسف إلى العمل ، لاجتناء تراثه في الأنحاء الوسطى . وكان ابن هود قد ولي على غرناطة عتبة بن يحيى المغيلي ، وكان خصماً لابن الأحمر يأمر بسبه على المنابر ، وكان ظالماً جائراً ، فلما اشتدت وطأته على أهل غرناطة ، ثار عليه جماعة من أشرافها بزعماء ابن خالد ، واقتحموا القسبة والقصر في عصبيتهم ، وقتلوا عتبة وأعلنوا طاعتهم لابن الأحمر ، وبعثوا إليه يستدعونه ؛ فسار ابن الأحمر إلى غرناطة ودخلها عند مغيب الشمس في يوم من أواخر رمضان

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٧٩ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٩ ، واللمحة البدرية

في الدولة النصرانية لابن الخطيب ص ٣١ .

سنة ٦٣٥ هـ (أبريل سنة ١٢٣٨ م) ، وهو يرتدى ثياباً خشنة وحلة مرقعة ، ونزل بجامع القصبة وأم الناس لصلاة المغرب ، ثم خرج من المسجد إلى قصر باديس ، والشموع بين يديه ، ونزل فيه مع خاصته ، وبدا غدت غرناطة حاضرتة ومقر حكمه ، وكان ذلك لأشهر قلائل فقط من وفاة ابن هود^(١) . وما كاد ابن الأحمر يستقر في حاضرتة الجديدة ، حتى عول على افتتاح ألمرية وصحق ابن الرميمي وزير ابن هود وقاتله ، فسار إليها في بعض قواته وحاصرها مدة ، فلما اشتد عليها الحصار غادرها الرميمي من جهة البحر بأهله وماله في سفينة خاصة ، وسار إلى تونس مستظلاً بحماية أميرها أبي زكريا الحفصي ، وملك ابن الأحمر ألمرية وامتد بذلك سلطانه إلى سائر الشواطئ الجنوبية .

وكان من أعظم أعوان محمد بن يوسف في تلك المعركة التي انتهت بتحقيق رياسته ، أصهاره بنو أشقيلولة وهم أسرة قوية نابعة من المولدين . وكان كبيرهم أبو الحسن بن أشقيلولة من رجالات الأندلس وزعمائها وقت الفتنة ، وكان من خصوم ابن هود ومن المقاومين لحركته ، فأنحاز إلى محمد بن يوسف منذ الساعة الأولى ، وعاونته على مقاومة خصومه ، وتوثقت أواصر الزعيمين بالمصاهرة ، إذ تزوج أبو الحسن أخت محمد بن يوسف وتزوج ولده أبو محمد عبدالله بن أشقيلولة من ابنته . ولما استقام الأمر لابن الأحمر ، ندب صهره أبا الحسن لحكم وادي آش ، وندب أبا محمد لحكم مالقة . ولما توفي أبو الحسن خلفه في حكم وادي آش ولده أبو إسحق . وتمكن نفوذ بني أشقيلولة في الرياسة وكانوا عضداً لابن الأحمر ، ولكن أطماعهم كانت تتجاوز حكم المدن ، وكان ابن الأحمر في أواخر عهده يستريب بهم ويخشى بأسهم ، وقد ظهرت أعراض انتفاضهم غير بعيد^(٢) .

ويرى المستشرق الإسباني دي لاس كانخيلاس ، أن قيام مملكة غرناطة في ظل بني نصر ، يبدو لغزاً حقيقياً . ذلك أنها ولدت في ظروف غير ملائمة ، بل ضعيفة ذابلة ؛ ونشأ ابن الأحمر ، لا كإبن هود أو ابن مردنيش ؛ وكلاهما ينتمي إلى أسرة حكمت ولاياتها منذ أيام الموحدين ، ولكن وحيداً في بلاده أرجونة

(١) اللوحة البدرية ص ٣٥ ؛ وراجع الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ، وهو لمؤلف مجهول (طبع الجزائر سنة ١٩٢٠) ص ٦٠ ، وفيه أن دخول ابن الأحمر مدينة غرناطة كان في آخر رمضان سنة ٦٣٦ هـ . ولكن معظم الروايات على أن دخوله كان في ٦٣٥ .

(٢) ابن خلدون ج ٧ ص ١٩٧ هـ .

كحدث غير عادى ، بل ودون رسوخ محلى . وقد كانت قوته الحقيقية ، فضلا عن جرأة حركته ، تتركز في أسرته الخاصة ، وفي جمع من الأصدقاء والحلفاء مثل بنى أشقيلولة المولدين .

ثم يبدى دهشته من أن مملكة غرناطة بالرغم من تكوينها من هضاب وبساتين يغلب عليها القفر أكبر مما يغلب الحصب ، وامتداد رقعتها من جيتان شمالا إلى الجزيرة جنوباً ، وبالرغم من أن الحند النصارى كانوا في أحيان كثيرة يخترقونها بسهولة حتى مرج غرناطة ، فإن هذه العوامل كلها لم تكن شيئاً إزاء الحوادث المستقبلية . ولم يمنع تردد مؤسسها وتقلبه ، ولا ظروفها الجغرافية والاقتصادية السيئة ، من تقدمها وازدهارها ، ومن بقائها مدى قرنين ونصف سليمة موطدة ، وهي خلال هذا المدى الطويل تستأثر بأطماع النصارى الفتحية . ثم يقول : « حقاً إن ذلك كله لغريب ، بل إنه لينبو عن الإيضاح » (١) .

وهكذا نشأت إمارة غرناطة الصغيرة ، من غمر الفوضى التي سادت الأندلس ، على أثر انهيار سلطان الموحدين ، ولكنها كانت في حاجة إلى الاستقرار والتوطد ، وكان محمد بن يوسف يواجه في سبيل هذه المهمة كثيراً من الصعاب ، وكانت الأندلس قد مزقتها الحرب الأهلية شيعاً ، وانتشرت إلى حكومات ومناطق عديدة ، وكان ابن الأحمر يحظى بتأييد جمهرة كبيرة من الشعب الأندلسي ولاسيما في الجنوب . ولم يك ثمة ما يمنع من التفاف الأمة الأندلسية كلها حول لواء هذا الزعيم المنقذ ، ولكن روح التفرق والتنافس كانت متأصلة في نفوس المتغلبين والطامعين ، وكان أصاغر الزعماء والحكام يوثرون الانضواء تحت لواء ملك النصارى ، والاحتفاظ في ظله بمدنهم وقواعدهم ، على ظاهرة ابن الأحمر والانضواء تحت لوائه . وحدث ذلك بنوع خاص في مرسية وشرقي الأندلس حسبما أشرنا من قبل ، حيث ارتضى والى مرسية محمد بن علي بن هود وحكام لقنت وأوريولة وقرطاجنة وجنجاله وغيرها ، أن يعقدوا الصلح مع ملك قشتالة على أن يعترفوا بطاعته ويؤدوا له الجزية ، وأن يبقوا متمتعين في ظله بحكم مدنهم ومواردهم . وعلى أثر ذلك سلمت مرسية ودخلها ألفونسو ولد فرناندو الثالث ملك قشتالة في احتفال فخم (شوال ٦٤٠ هـ - أبريل ١٢٤٣ م) . وهكذا كان الخلاف بين أبناء الأمة الأندلسية في تلك الآونة العصبية ، يذهب إلى حد التضحية

بأقدس المبادئ وأسمى الاعتبارات ، وكانت وشائج القومية والدين والخطر المشترك كلها ، تغيض أمام الأطماع الشخصية الوضيعة ، وكان فرناندو الثالث يرى في ابن الأحمر بعد اختفاء ابن هود ، زعيم الأندلس الحقيقي والحصم الذي يجب تحطيمه . وكان ابن الأحمر من جانبه يقدر خطورة المهمة التي ألقاها القدر على عاتقه ، وكان يضطرم عزمًا وإقدامًا لمحاربة النصارى ، واستخلاص تراث الوطن من أيديهم ، فما كاد يستقر في غرناطة حتى نشط إلى محاربة النصارى وكانوا قد عاثوا في أحواز جيان وخربوها ، وسار إلى قلعة مرتش^(١) في قوة كبيرة ، وضرب حولها الحصار (٦٣٦ هـ) ، ولكن النصارى قدموا لإنجادها بسرعة ، واضطر ابن الأحمر إلى رفع الحصار ، ثم اشتبك في معركة حامية مع النصارى ، وكان يقودهم ردرىجو ألونسو وهو أخ غير شرعى لفرناندو الثالث ، وهزمهم هزيمة شديدة ، قتل فيها قائد مرتش ، وعدة من أكابر الفرسان وأحبار قلعة رباح . على أن مثل هذه المعارك المحلية لم تكن حاسمة في سير الحوادث . وكان فرناندو الثالث يرقب نهوض هذه القوة الأندلسية الحديدية بعين التوجس ويتأهب لمقارعتها ، فما كاد ينتهى من إخضاع الثغور الشرقية والاستيلاء على مرسية ، حتى عمد إلى مهاجمة ابن الأحمر ، وكان يتوق إلى الانتقام لموقعة مرتش ، وبعث لقتاله جيشاً قوياً بقيادة ولده ألفونسو . وعاث النصارى في منطقة جيان واستولوا على حصن أرجونة موطن بنى نصر ، وعدة حصون وأماكن أخرى من أملاك أمير غرناطة ، ثم حاصروا غرناطة نفسها (٦٤٢ هـ - ١٢٤٤ م) ، ولكنهم ردوا عن أسوارها بنحسائر فادحة . وفي العام التالى زحف النصارى على جيان وحاصروها ، حتى كادت تسقط في أيديهم . فلما رأى ابن الأحمر تفوق النصارى وعبث المقاومة ، أثر مصانعة ملك قشتالة ومهادنته ، فسار إلى لقائه في معسكره ، وقدم إليه طاعته ، ويرى بعض الباحثين أن قدوم ابن الأحمر على هذا النحو إلى فرناندو ، إنما كان تنفيذاً لاتفاق سابق ، تم فيه التفاهم على تحديد مملكة غرناطة^(٢) . وعلى أى حال فقد تم الاتفاق على أن يحكم ابن الأحمر مملكته وأراضيه باسم ملك قشتالة وفي طاعته ، وأن يؤدى له جزية سنوية ، قدرها مائة وخمسون ألف قطعة من الذهب (دوبلاس) ، وأن يعاونه في حروبه ضد أعدائه ، فيقدم إليه عدداً من الجند أينما طلب منه ذلك ،

(١) مرتش ، وبالإسبانية Martos ، بلدة حصينة تقع على مقربة من جنوب غرب مدينة جيان .

(٢) Prieto y Vives : De como debió nacer el Reino de Granada p. 14.

وأن يشهد اجتماع مجلس قشتالة النيابي (الكورتيس) ، باعتباره من الأمراء التابعين للعرش^(١). وسلم ابن الأحمر إلى فرناندو جيان وأرجونة وبركونة وبيغ والحجار وقلعة جابر^(٢) رهينة بحسن طاعته ، ونزل له عن أرض الفرنتيرة لعجزه عن الاحتفاظ بها^(٣). وفي مقابل هذا الثمن القادح عقد ملك قشتالة السلم مع ابن الأحمر لمدة عشرين سنة ، وأقره على ما بقي بيده من القواعد والحصون (٦٤٣ هـ - ١٢٤٥ م)^(٤). وهكذا أمنت غرناطة شر العدوان مدى حين ، وقبل ابن الأحمر أن يضحى استقلاله السياسي وهيبته الأدبية احتفاظاً بأراضيه ، وتطلعاً إلى ظروف أفضل يستطيع فيها النضال والصمود .

وفي تلك الفترة العصيبة ، كانت الفتنة تمزق ما بقي من أوصال الأندلس ، ويهرع الزعماء المسلمون الأصاغر ، إلى مصانعة ملك قشتالة والانضواء تحت لوائه ، وكانت اسبانيا النصرانية قد انتهت من الاستيلاء على الولايات الشرقية كلها ، ولم يبق عليها سوى التهام الولايات الغربية . ولم يكن مثل ابن الأحمر وهو أعظم زعماء الأندلس يومئذ ، مشجعاً على غير هذا المسلك المؤلم . ففي سنة ٦٤٥ هـ (١٢٤٧ م) نزل القاضي ابن محفوظ وهو من زعماء الغرب لملك قشتالة عن مدينة طبرة ، والعل ، وشلب ، والخزانة ، ومرشوشة ، وبطرنا ، والحرة^(٥) . وكان فرناندو الثالث يتأهب في تلك الآونة ذاتها ، لافتتاح إشبيلية أعظم القواعد الأندلسية . وكان قد استطاع قبل ذلك بأشهر أن يستولى على مدينة قرمونة حصن إشبيلية الأمامي ، وذلك بمعاونة محمد بن الأحمر ، وفقاً للتحالف المعقود بينهما ، ثم عمد

(١) Crónica General (Ed. Pidal) Vol. I. p. 74

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ٣٦٧ ، والذخيرة السنية ص ٧٢ . وجيان وبالايبانية Jāen من قواعد الأندلس القديمة وتقع جنوب شرق قرطبة ، وشمال غرناطة . وأرجونة سبق التعريف بها . وبركونة Porcuna تقع جنوب غرب أرجونة ؛ والحجار Higuera تقع جنوب بركونة وكلاهما من أعمال مدينة جيان ، وبيغ أو بيغو Priego وتقع جنوب شرق قرطبة .

(٣) ابن خلدون ج ٧ ص ١٩٠ ، والفرنتيرة La Frontera هي المنطقة الساحلية الواقعة غرب الجزيرة الخضراء والممتدة من ثغر قادس جنوباً حتى طرف النار ،

(٤) الذخيرة السنية ص ٧٣ ؛ واللمحة البدرية ص ٣٦ ، والإحاطة ج ٢ ص ٦٥ .

(٥) الذخيرة السنية ص ٧٦ . وتقع هذه الأماكن كلها في ولاية «الغرب» Algarve في جنوب البرتغال ، ويحدد موقعها طبرة Tavira وهي تقع على المحيط على مقربة من الحدود الإسبانية ؛ وشلب Silves وهي تقع في أقصى جنوب البرتغال الغربي على مقربة من المحيط .

بعد ذلك إلى افتتاح باقى الحصون القريبة من إشبيلية . واستطاع ابن الأحمر بنصحه وتدخله ، أن يقنع معظم أصحابها بتسليمها للملك قشتالة ، مقابل تعهده بأن يحقن دماء المسلمين ، وأن يمنحهم شروطاً سخية . ولم تأت أواسط سنة ١٢٤٧ م (٥٦٤٥ هـ) حتى كان ملك قشتالة ، قد استولى على جميع الحصون الأمامية لإشبيلية ، وانتسف سائر البسائط والضيايع القريبة منها .

وبدأ النصارى حصارهم لإشبيلية فى أغسطس سنة ١٢٤٧ م (جمادى الأولى سنة ٥٦٤٥ هـ) . وحشد فرناندو حول المدينة المحصورة قوات عظيمة حشدت فى سائر أنحاء قشتالة ، وتسابق الأمراء والأشراف والأجبار النصارى ، فى الاشتراك فى هذه الحملة الصليبية الخطيرة ، ورابط أسطول قشتالى قوى فى نهر الوادى الكبير إحكاماً لمحصرة المدينة من جهة البحر ، واضطر ابن الأحمر أن يقدم وفقاً لتعهده قوة من الفرسان للمعاونة فى حصار الحاضرة الإسلامية والاستيلاء عليها . وهكذا أرغم هذا الزعيم المسلم على أن يشرب الكأس المرة إلى الثمالة ، فى مخالفة أعداء وطنه ودينه . وتقول بعض الروايات الإسلامية ، إن ابن الأحمر كان يرمى بمعاونة النصارى على هذا النحو ، إلى الانتقام من أهل إشبيلية لخذلهم إياه ونكولهم عن طاعته^(١) . وصمم أهل إشبيلية على الدفاع عن مدينتهم جهداً استطاعة ، ولكن الموقف داخل المدينة كان غامضاً ومضطرباً . ذلك أن إشبيلية ، منذ خلعت طاعة الموحدين ، عند اضطراب أمرهم ، وانهيار سلطانهم ، كباقي الفواعد الأندلسية ، لم تقم بها زعامة موحدة ، ولا تحدثنا الرواية الإسلامية عن أولئك الزعماء الذين ألقى القدر إليهم مهمة الدفاع عن إشبيلية فى تلك الآونة العصيبة ، ولكننا نعرف بعض الأسماء من الرواية النصرانية المعاصرة ، ومن بعض إشارات عابرة فى الرواية الإسلامية ، فهى تذكر لنا قائد الفحص شقاف ، والرئيس ابن شعيب ، ويحيى ابن خلدون ، ومسعود بن خيار . وكان القائد شقاف ، فى الواقع ، هو الزعيم الحقيقى الذى يتولى أمر الدفاع ، وعليه تعقد الآمال . وطال الحصار حول إشبيلية وأخذ يشتد يوماً بعد يوم ، وكانت المدينة المحصورة تتلقى من وقت إلى آخر من عدوة المغرب ، بعض المؤن عن طريق الوادى الكبير . ولما تفاقمت أهوال الحصار وضع شاعر إشبيلية يومئذ إبراهيم بن سهل الإشبيلي الأسرائيلي ، قصيدة مؤثرة يستصرخ فيها أهل العدو ، ويستحثهم على المبادرة إلى نصرة إخوانهم فى الدين وفيها يقول :

ورداً فمضمون نجاح المصدر
نادى الجهاد بكم بنصر مضمير
نخلوا الديار للدار عز واركبوا
وتسوغوا كدر المناهل في السرى
يا معشر العرب الذين توارثوا
إن الإله قد اشترى أرواحكم
أنتم أحق بنصر دين نبيكم
أنتم بنيتم ركنه فلتدعموا
هي عزة الدنيا وفوز المحشر
يبدونكم بين القنسا والضمر
عبر العجاج إلى النعيم الأنحضر
ترووا بماء الحوض غير مكدر
شيم الحمية كابرأ عن أكبر
بيعوا ويهتكم وفاء المشتري
ولكم تمهد في قديم الأعصر
ذاك البناء بكل لدن أسمر^(١)

وطال حصار إشبيلية زهاء ثمانية عشر شهراً ، وأبدى المسلمون آيات من
البسالة والجلد في الدفاع عن حاضرتهم ، ولكن هذه البسالة لم تغن شيئاً أمام عزم
النصارى وتصميمهم . وأخيراً اضطر الإشبيليون إلى قبول مصيرهم المحتوم ،
وارتضوا تسليم المدينة ، على أن يؤمن المسلمون في أنفسهم وأموالهم ، وأن يمهلوا
شهراً لتسوية شئونهم وإخلاء دورهم والتأهب للرحيل ، ووضع ملك قشتالة
الترتيبات اللازمة لنقل أهل المدينة بالبر والبحر إلى الجهات التي يقصدونها . وفي
٢٣ ديسمبر سنة ١٢٤٨ م (أوائل رمضان سنة ٦٤٦ هـ) دخل فرناندو الثالث مدينة
إشبيلية في موكب فخم ، وذلك بعد أن حكمها المسلمون أكثر من خمسة قرون ،
وحكمها الموحدون زهاء قرن . وفي الحال حول مسجدوها الجامع إلى كنيسة ،
وأزيلت منها معالم الإسلام بسرعة ، وتفرق معظم أهلها المسلمين في الحواضر
الإسلامية الباقية ، ولا سيما غرناطة . وكان سقوط إشبيلية إيذاناً بسقوط سائر
المدن والحصون الإسلامية الواقعة فيما بينها وبين مصب الوادى الكبير وفي المناطق
المجاورة . وهكذا استولى للنصارى تباعاً على شريش وشلونة وقادس وشلوقة
وغليانة وروضة أوروطه وأركش وثمر شنتمرية^(٢) ، وغيرها من قواعد الوادى

(١) راجع هذه القصيدة بأكملها في الذخيرة السنية ص ٧٤ وما بعدها .

(٢) شريش وبالإسبانية Jerez تقع على مقربة من مصب نهر وادى لكه شمال ثغر قادس ،
وشلونة Medina Sidonia تقع جنوب شرق قادس وسط أرض القرنطيرة ، وقد اشتهرت بالموقعة
التي حدثت على مقربة منها بين طارق فاتح الأندلس والقوط وانتهت بفتح إسبانيا ، وقادس Cadiz ، تقع
جنوب شريش على المحيط الأطلنطى ، وشلوقة وهي الآن مدينة San Lucar ، وتقع شمالى شريش
على المحيط ، وروضة هي Rota أو Roda ، وتقع على مقربة من شلوقة على المحيط ، وأركش Arcos =

وحصونه ؛ وسلم ابن محفوظ في الوقت نفسه للنصارى حصن اللقوة ووادي أنة وشنتل والحصين وشلطيش ، على أن يستبقى حكم لبلة وأحوازها^(١) . وعاون ابن الأحمر النصارى في الاستيلاء على ثغر قادس . وهكذا بسط القشتاليون سلطانهم على سائر الأراضي الإسلامية الواقعة غربي ولاية الأندلس ، وأخذت رقعة الدولة الإسلامية تنكمش بسرعة مروعة^(٢) .

وكان موقف ابن الأحمر من هذه الحوادث موقفاً شاذاً مؤلماً ، فقد كان يقف إلى جانب أعداء أمته ودينه ، وكان يبذل كل نصارى ما استطاع من العون المادى والأدبى ، وكان معظم الزعماء المسلمين من حكام المدن والحصون الباقية ، وقد أيقنوا بأنهم سيخضعون لسلطان الإسلام في الأندلس ، يهرعون إلى احتذاء مثاله . وإلى الانضواء تحت لواء ملك قشتالة ، وكانت هذه المناظر المؤلمة تتكرر في تاريخ الأندلس منذ الطوائف ، حيث نرى كثيراً من الأمراء المسلمين يظهرون النصارى على إخوانهم في الدين ، احتفاظاً بالملك والسلطان . ولكن ابن الأحمر كان يقبل هذا الوضع المؤلم إنقاذاً لتراث لم يكتمل الرسوخ بعد ، وتنفيذاً لأمنية كبيرة بعيدة المدى . ذلك أنه كان يطمح إلى جمع كلمة الأندلس تحت لوائه . وإدماج ما تبقى من تراثها وأراضيها في مملكة موحدة ، تكون ملكاً له ولعقبه . ولم تكن تحدوه رغبة في توسع يجعله إلى الأبد أسيراً لحلفائه النصارى ، مثلما كان يفعل أسلافه زعماء الطوائف . بل كانت تحدوه قبل كل شيء رغبة في الاستقلال ، والتوسط داخل حدود إمارته المتواضعة . وقد لبث يعمل على تحقيق هذه الغاية في ولاية غرناطة والولايات المجاورة ، وهو يصانع النصارى ويتجنب الاشتباك معهم ، ويشهد التهامهم لأشلاء الوطن الممزق ، وقلبه يتفطر حزناً وأسى .

= تقع شمال شرق شريش وسط المثلث الإسباني ، وشنتمرية هي ثغر شنتمرية الغرب *Sta Maria de Algarve* وتقع جنوبي البرتغال على المحيط ، ومكانها اليوم مدينة فارو البرتغالية .

(١) الذخيرة السنية ص ٨٥ . وتقع هذه الأماكن في ولاية الغرب على مقربة من مدينة أونية (ولة *Huelva* الحديثة) شرق نهر أوديل .

(٢) راجع حوادث حصار إشبيلية وسقوطها في البيان المغرب القسم الثالث ص ٣٨١ و ٣٨٢ وابن خلدون ج ٤ ص ١٩٠ ، والذخيرة السنية ص ٧١ - ٧٦ . ومن المراجع القشتالية بالأخص : *Crónica General (Ed. Pidal) Vol. 1, No. 1080-1125* ، وقد أفردنا لسقوط إشبيلية ، في كتابنا « عصر المرابطين والموحدين » فصلاً كبيراً ، ويراجع في القسم الثاني منه ص

على أن ابن الأحمر لم يكن يعترم المضي في ذلك المسلك المؤلم المهين إلى النهاية ، فقد كانت نفسه الوثابة تحدثه من وقت إلى آخر ، بأن يحطم هذه الأغلال الشائنة التي صفدته بها محالفة النصارى ، وكان كلما آنس ازدياد قوته ورسوخ سلطانه صلبت قناته وذكاء عزمه ، وكان يتجه ببصره إلى ما وراء البحر ، إلى إخوانه في الدين في عدوة المغرب ، وكان جرياً على السياسة الأندلسية الماثورة يرى في ملوك العدو ، عضداً له قيمته في مغالبة النصارى ، وكانت حوادث المغرب تتمخض في ذلك الحين بالذات عن قيام دولة جديدة قوية هي دولة بنى مرين . ومع أن الكفاح بين دولة الموحدين المحتضرة وبين دولة بنى مرين الناشئة^(١) ، كان يحول دون إنجاد الأندلس بصورة فعالة ، فإن كتائب المجاهدين من بنى مرين والمتطوعة من أهل المغرب ، لم تلبث أن هرعت إلى غوث الأندلس . وعبر القائد أبو معرف محمد بن إدريس بن عبد الحق المرينى وأخوه الفارس عامر ، البحر في نحو ثلاثة آلاف مقاتل ، جهزهم أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق سلطان بنى مرين . وكانت حوادث الأندلس المؤسفة تحدث وقعها العميق في المغرب ، وكانت رسائل الأندلس تترى إلى أمراء المغرب وأكابرهم بالصريح مما تكابده من عدوان النصارى واستطالتهم ، والاستنصار بأهل العدو لإخوانهم في الدين ، وكان علماء المغرب وخطباؤه وشعراؤه يبثون دعوة الغوث والإنجاد ، ومن ذلك قصيدة مؤثرة وضعها أبو الحكم مالك بن المُرَجَّل ، وقرئت في جامع القرويين بفاس في يوم جمعة من أيام سنة ٦٦٢ هـ ، وبكى الناس تأثراً لسماعها ومما جاء فيها :

استنصر الدين بكم فاستقدموا . فإنكم إن تسلموه يسلم
لاذت بكم أندلس ناشرة . برحم الدين ونعم الرحم
فاسترحمتكم فارحموها إنه لا يرحم الرحمن من لا يرحم
ماهى إلا قطعة من أرضكم وأهلها منكم وأنتم منهم^(٢)

وكان لاهتمام المغرب بإنجاد الأندلس صداه . وكان ابن الأحمر قد بدأ في الوقت نفسه يشعر بمقدرته على مواجهة النصارى والخروج على طاعتهم ، وحماية مملكته الفتية من عدوانهم . ولما فاتحه النصارى بالعدوان وغزوا أراضيه في سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦١ م) ، استطاع بمعاونة قوات من المتطوعة والمجاهدين الذين

(١) سنعود إلى التحدث عن قيام دولة بنى مرين في موضع آخر .

(٢) راجع الذخيرة السنية ص ١٠٨ - ١١٢ حيث يورد القصيدة بأكملها .

وفدوا من وراء البحر ، أن يهزمهم وأن يردهم عن أراضيهم ، وبذلك ظهرت الأندلس على عدوها في ميدان الحرب لأول مرة منذ انهيار دولة الموحدين . ولما عبرت الكتائب المرينية بعد ذلك بقليل (٦٦٢ هـ) ، استطاع قائدهم الفارس عامر ابن إدريس أن ينتزع مدينة شريش من يد النصارى ، ولكن لمدى قصير فقط (١) ، وقد كانت هذه بارقة أمل متواضعة . ولكن الحوادث ما لبثت أن تجهمت للأندلس مرة أخرى . ذلك أن ملك قشتالة (ألفونسو العاشر) خشى هذه المبادرة على خططه وغزواته ، وخشى بالأخص أن تتضاعف الأمداد من وراء البحر فيشتد ساعد أمير غرناطة ، ومن ثم فقد عول أن يضاعف أهبطه وضغطه على القواعد الأندلسية الباقية . ففي أواخر سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٣ م) نزل ابن يونس صاحب مدينة إستجة عنها إلى النصارى (٢) ، ودخلها دون خيل قائد القشتاليين ، فأخرج أهلها المسلمين منها ، وقتل وسبى كثيراً منهم وذلك بالرغم من تسليمها بالأمان . وفي العام التالى (٦٦٣ هـ) ظهرت نيات ملك قشتالة واضحة في العمل على افتتاح ما بقى من القواعد الأندلسية ، وسرى الخوف إلى نواحي الأندلس ، وعادت الرسائل تترى على أمراء المغرب وزعمائه ، بالمبادرة إلى إمداد الأندلس ، وإغايتها قبل أن يفوت الوقت ، خصوصاً وقد بدأ عدوان النصارى يحدث أثره ، وبدأت هزائم قوات ابن الأحمر في ذلك الوقت على يد دون نونيدى لارا (دوننه) صهر ملك قشتالة وقائده الأكبر (٦٦٣ هـ - ١٢٦٤ م) . وكتب الفقيه أبو القاسم العزفى صاحب سبته رسالة طويلة إلى قبائل المغرب ، يستنصرهم فيها ويحثهم على الجهاد في سبيل الأندلس ، وفيها يقول : « ولا تخلدوا بركون إلى سكون ، والدين يدعوكم لنصره ، وصارخ الإسلام قد أسمع أهل عصره ، والصليب قد أوعب في محشده ، فالبدار البدار ، بإرهاب الحد وأعمال الجهاد في نيل الحد... » (٣) . وتكرر مثل هذا الصرخ إلى سائر أمراء إفريقية ، وأعلن ابن الأحمر بيعته للملك المستنصر بالله الحفصى صاحب تونس ، فبعث إليه المستنصر

(١) الذخيرة السنية ص ١١٢ .

(٢) سبق أن أشرنا إلى سقوط إستجة في يد النصارى سنة ١٢٣٧ م ، أعنى قبل ذلك بخمسة وعشرين عاماً (ص ٢٠) . والظاهر أنها بقيت خلال هذه المدة بيد حكامها المسلمين تحت حماية ملك قشتالة على نسق كثير من المدن الأندلسية الأخرى ، التى لبثت حيناً بيد حكامها المسلمين بعد تسليمها صلحاً للنصارى .

(٣) راجع هذه الرسالة في الذخيرة السنية ص ١١٣ - ١٢٢ .

هدية ومالا لمعاونته^(١) . ولكن هذه المساعي لم تسفر عن نتيجة سريعة ناجعة ، و بقيت الأندلس أعواماً أخرى تواجه عدوها القوي بمفردها وتتوجس من سوء المصير . ولما تفاقم عدوان القشتاليين وضغطهم ، لم ير ابن الأحمر مناصاً من أن يخطو خطوة جديدة في مهادنة ملك قشتالة ومصادقته ، فنزل له في أواخر سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٧ م) عن عدد كبير من البلاد والحصون ، منها شريش والمدينة والقلعة وغيرها . وقيل إن ما أعطاه ابن الأحمر يومئذ من البلاد والحصون المسورة للنصارى بلغ أكثر من مائة موضع ، ومعظمها في غرب الأندلس^(٢) ، وبذا عقد السلم بين الفريقين مرة أخرى^(٣) .

وهكذا فقدت الأندلس معظم قواعدها الثالثة في نحو ثلاثين عاماً فقط (٦٢٧-٦٥٥ هـ) في وابل مروع من الأحداث والحن ، واستحال الوطن الأندلسي الذي كان قبل قرن فقط ، يشغل نحو نصف الجزيرة الإسبانية ، إلى رقعة متواضعة هي مملكة غرناطة . وقد أثارت هذه الحن التي توالى على الأندلس ، في تلك الفترة المظلمة من تاريخها لوعة الشعر والأدب ، ونظم شاعر العصر أبو الطيب صالح بن شريف الرندي ، مرثيته الشهيرة ، التي مازالت تعتبر حتى اليوم من أروع المراثي القومية وأبلغها تأثيراً في النفس ، وفيها يبكى قواعد الأندلس الداهية ، ويستنهض هم المسلمين أهل العدو لإنجاد الأندلس وغوثها ، وإليك بعض ما جاء . هذه المرثية الشهيرة التي خلدت ذكر ناظمها على كر الأحقاب :

لكل شيء إذا ما تم نقصان	فلا يغر بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول	من سره زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقى على أجد	ولا يدوم على حال لها شان
يمزق الدهر حتما كل سابغة	إذا نبت مشرفيات وخرصان

* * *

(١) الذخيرة السنية ص ١٢٥ .

(٢) راجع الذخيرة السنية ص ١٢٧ . وقد سبق أن أشرنا إلى تنازل ابن الأحمر ملك قشتالة عن أرض الفرنتيرة ، وفيها تقع شريش وقادس وغيرها ، ولكن هذا التنازل كان اسمياً ، واضطر النصارى إلى افتتاح هذه المدن بصورة فعلية . وكان سقوط شريش وقادس في يد ألفونسو العاشر سنة ١٢٦٢ م . والظاهر أن المتصود هنا مصادقة ابن الأحمر على استيلاء النصارى على هذه القواعد .

(٣) يضع ابن الخطيب تاريخ عقد ابن الأحمر الصلح مع النصارى للمرة الثانية في سنة ٦٦٢ هـ .

فجائع الدهر أنواع متنوعة
والحوادث سلوان يهونها
دهى الحزيرة أمر لا عزاء له
فاسأل بلنسية ما شأن مرسية
وأين قرطبة دار العلوم فكم
وأين حمص وما تحويه من نزه
قواعد كن أركان البلاد فما
تبكى الحنيفة البيضاء من أسف
على ديار من الإسلام نحالية
حيث المساجد قد صارت كنائس ما
حتى المحاريب تبكى وهى جامدة

وللزمان مسرات وأحزان
وما لما حل بالإسلام سلوان
هوى له أحد وانهد ثهلان
وأين شاطبة أم أين جيان
من عالم قد سما فيها له شان
ونهرها العذب فيناض وملآن
عسى البقاء إذا لم تبق أركان
كما بكى لفراق الإلف هيمان
قد أفقرت ولها بالكفر عمران
فيهن إلا نواقيس وصلبان
حتى المنابر ترفى وهى عيدان

* * *

أعندكم نبأ من أهل أندلس
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم
ماذا التقاطع فى الإسلام بينكم

فقد سرى بحديث القوم ركبان
أسرى وقتلى فما يهتز لإنسان
وأنتم يا عباد الله إخوان^(١)

* * *

وقضى ابن الأحمر الأعوام القليلة الباقية من حكمه ، فى توطيد مملكته وإصلاح

(١) راجع هذه المراثية البليغة بأكملها فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٩٤ و ٥٩٥ ، وفى أزهار الرياض ج ١ ص ٤٧ - ٥٠ . وقد التبس الأمر على المقرئ فى تعيين العصر الذى قيلت فيه هذه القصيدة والذى عاش فيه ناظمها صالح بن شريف فوصفه بأنه خاتمة أدباء الأندلس (أزهار الرياض ج ١ ص ٤٧) . وذكر فى نفح الطيب أن أبياتاً أخرى أضيفت إليها تشتمل على ذكر بسطة وغرناطة وغيرهما ليست من نظم صاحبها لأنه توفى قبل سقوطها (أى غرناطة) مما يدل على اعتقاد المقرئ بأن أبا الطيب عاش فى أواخر أيام مملكة غرناطة (أواخر القرن التاسع الهجرى) . بيد أنه واضح من سياق القصيدة . وذكر القواعد الأندلسية التى تبكىها وهى بلنسية ومرسية وشاطبة وجيان وقرطبة وإشبيلية ، وهى التى سقطت كلها فى يد النصارى بين سنة ٦٣٥ هـ و ٦٥٠ هـ ، أن الشاعر قد عاش فى هذا العصر . ومن جهة أخرى فقد ذكر صاحب الذخيرة السلية صراحة أنها نظمت حينما نزل ابن الأحمر للنصارى سنة ٦٦٥ هـ عن عدد كبير من القواعد الأندلسية . وقد توفى أبو الطيب الرندى بعد هذه الأحداث بنحو عشرين عاماً فى سنة ٦٨٤ هـ . ومنعود إلى ترجمته فى الكتاب الرابع .

شئونها ؛ وكان منذ شعر باستقرار الأمور في مملكته ، قد اختار لولاية عهده ولده الأمير أبا سعيد فرج بن محمد بن يوسف ، ولكن هذا الأمير توفي في سنة ٦٥٢ هـ ، فاختار مكانه لولاية العهد ولده محمداً أكبر أولاده من بعده . وهكذا أسبغ ابن الأحمر على رئاسة بني نصر صفة الملوكة الوراثية^(١) . ولم تقع في تلك الفترة حوادث ذات شأن ، فقد لزم النصارى السكينة حيناً . ولكن ظهرت عندئذ أعراض الانتقاض على بني أشقيلولة أصهار ابن الأحمر ومعاونيه ؛ وكان ابن الأحمر قد زوج في سنة ٦٦٤ هـ إحدى بناته لابن عمه الرئيس أبي سعيد بن اسماعيل بن يوسف ووعده بولاية مالقة ، فسمى ذلك إلى واليها أبي محمد بن أشقيلولة ، وهو أيضاً زوج ابنته ، فغضب لذلك وأعلن العصيان والاستقلال بحكم المدينة ، فسار ابن الأحمر لقتاله تعاونه قوة من حلفائه النصارى ، وحاصروا مالقة ثلاثة أشهر ، ولكنهم ارتدوا عنها خائبين (٦٦٥ هـ - ١٢٦٦ م) . وعاد ابن الأحمر فسار إلى مالقة مرة أخرى في سنة ٦٦٨ هـ ، ولكنه لم ينل منها مأرباً^(٢) .

وفي تلك الآونة عاد النصارى إلى التحرك والتحرش بالمملكة الإسلامية ، وسار ملك قشتالة ألفونسو العاشر إلى الجزيرة الخضراء فعاث فيها ، وعاد ابن الأحمر يتوجس شراً من نيات النصارى ، فبعث إلى أمير المسلمين السلطان أبي يوسف المريني ملك المغرب يطلب منه الغوث والإنجاد ، ونصرة إخوانه المسلمين فيما وراء البحر ، ويخبره بما بدا من عدوان النصارى ونيتهم في القضاء على ما بقي من ديار الأندلس ، ولكن ابن الأحمر لم يعيش ليرى نتيجة هذه الدعوة ، إذ توفي بعد ذلك بقليل .

وكان محمد بن الأحمر يتمتع بخلال باهرة من الشجاعة والإقدام ، وشغف الجهاد ، والمقدرة على التنظيم ، إلى جم التواضع والبساطة . ويقدم لنا ابن الخطيب مؤرخ الدولة النصرانية عنه هذه الصورة المؤثرة : « كان هذا الرجل آية من آيات الله في السذاجة والسلامة والجمهوريّة ، جندياً ثغرياً ، شهماً ، أيّداً ، عظيم التجلّد ، رافضاً للدعة والراحة ، مؤثراً للتقشف والاجتزاء باليسير ، متبلغاً بالقليل ، بعيداً عن التصنع ، جافى السلاح ، شديد العزم ، مرهوب الإقدام ،

(١) الإحاطة ج ٢ ص ٦٥ ، واللمعة البدرية ص ٣٦ ، والذخيرة السنية ص ٨٨ .

(٢) الذخيرة السنية ص ١٢٥ و ١٢٩ .

عظيم التشمير ، محتقراً للعظيمة ، مصطعناً لأهل بيته ، فضاً في طلب حظه ، حامياً لقربائه وأقرانه وجيرانه ، مباشراً للحروب بنفسه ، تتغالى الحكايات في سلاحه وزينة ديابوزه ، ينخسف النعل ، ويلبس الخشن ، ويؤثر البداوة ، ويستشعر الحد في أموره « (١) .

وكان يعرف بالشيخ ويلقب بأمر المسلمين ، وهو اللقب الذى غلب على سلاطين غرناطة فيما بعد . وهو الذى ابتنى حصن الحمراء الشهير ، وجعله دار الملك ، وجلب له الماء ، وسكنه بأهله وولده . وأما تسميته بابن الأحمر فقد اختلفت في شأنها الرواية . ويقال إن هذه التسمية ترجع إلى نضارة وجهه واحمرار شعره ؛ ويرى البعض أنها أسبغت عليه لإنشائه حصن الحمراء ؛ ولكن سوف نرى عند الكلام على تاريخ الحمراء ، أن هذا الاسم أقدم من الدولة النصرانية ببضعة قرون ، وأنه لا صلة بين هذا الاسم الذى أطلق على الحصن والقصور الملكية ، التى أنشأها محمد بن يوسف وبنوه من بعده ، وبين تلقيبهم ببني الأحمر ، كما أنه ليس ثمة بين القبائل العربية أية قبيلة تحمل هذا اللقب ، ويمكن أن ينسب إليها بيت غرناطة الملكى (٢) . وكان ابن الأحمر يباشر الأمور بنفسه ، ويدقق في جمع الأموال والجبايات حتى امتلأت خزائنه بالمال والسلاح . وكان يعقد للناس مجالس عامة يومين في الأسبوع ، يستمع فيها إلى الظلمات وذوى الحاجات ، ويستقبل الوفود ، وينشده الشعراء . وكان يجرى في تصريح شئون الملك على قاعدة الشورى ، فيعقد مجالس يحضرها الأعيان والقضاة ومن إليهم من ذوى رأى ، للاسترشاد برأيهم ، ونصحهم (٣) . وكان في مقدمة وزرائه أبو مروان عبد الملك بن يوسف بن صناديد زعيم جيّان ، وهو الذى مكّنه من التغلب عليها ، والقائد أبو عبد الله محمد بن محمد الرميمى ولد صاحب المرية السابق . وكان بين كتابه المحدث الشهير أبو الحسن على بن محمد بن سعيد اليحصبي اللوشى . وكان من شعرائه أبو الطيب الرندى

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة ج ٢ ص ٦١ .

(٢) راجع مقدمة أطلس « الحمراء » Alhambra الذى وضعه Owen Jones & Jules Goury وكتبها المستشرق جاينجوس (London 1842) ص ٥ الهامش . وتسمى الدولة النصرانية على الأغلب بدولة بني الأحمر ، ويؤثر ابن خلدون تسميتها بذلك الاسم (ج ٤ ص ١٧٠ وما بعدها) .

(٣) ابن خلدون ج ٧ ص ١٩٠ ؛ واللمحة البدرية ص ٣١ .

صاحب المروثة الشهيرة ، وهو الذي سبقت الإشارة إليه . وكان أثراً لديه ، وقد نظم في مدحه بعض غرر قصائده .

واليك كيف يصور النقد الغربي الحديث خلال منشيء مملكة غرناطة وظروف مملكته : « كان محمد بن الأحمر من أبرع أولئك الأمراء الذين كان لهم فضل خلال العصور المضطربة ، في الدفاع عن الإسلام ومجد المسلمين ، وكان جريئاً بعيد الغور ، ولكن مكره لم يكن راجعاً إلى طبيعة خبيثة وضبعة ، ولكن إلى خلق خصومه الذين كان مرغماً على مقارعتهم . ففي العصور الوسطى كان قانون الأمم وعقد المعاهدات ، ومجاملات الفروسية وشروط السلم الشريف ، تفهم بطريقة ناقصة ، وكثيراً ما تنتهك بعمد ، وكانت معظم نقائص هذا الأمير العظيم ، ترجع إلى أخلاق العصر المنحلة ، وكانت بوادر خضوعه لأعدائه الألداء مظاهر فقط لسياسة محكمة التدبير ، أقدم عليها لإحراز ملكه وتوطيد سلطانه ، وكان تقدم الغزو المستمر يرهق مملكته ، ولكنها كانت تغدو أقوى ويغدو الدفاع عنها أيسر ، كلما انكمشت حدودها . وكان القشتاليون كلما احتلوا مدينة جديدة ، هرعت منها جمهرة من المهاجرين العاملين إلى غرناطة ، فزيد سكانها كثرة على كثرة ، يحملون معهم ثروات عظيمة ، وصفات هي أئمن من الثروة لدولة منحلة : النشاط والاقتصاد ، والمقدرة على هضم الظروف الجديدة ، وذكرى المظالم السابقة ، وآلام المطاردة المحزنة ، وأمل الانتصاف ، وشعور لا يقهر ببغض النصرانية . وكان الاندماج السياسي لهذه الجماعات المنفية المضطهدة ، في حماية الجبال التي تظل ملأها الأخير ، هو الذي عاون في حفظ مملكة غرناطة الزاهرة لمجدها المستقبل ومحنها الغامرة » (١).

وتوفي محمد بن الأحمر في التاسع والعشرين من جمادى الثانية سنة ٦٧١ هـ (ديسمبر ١٢٧٢ م) على أثر سقطة من جواده ، حين عوده من معركة رد فيها جمعاً من الخوارج الذين حاولوا الزحف على الحمراء في منتصف جمادى الثانية من العام المذكور ، فحمل جريحاً إلى القصر وتوفي بعد ذلك بأسبوعين ، وقد قارب الثمانين من عمره ، ودفن بالمقبرة العتيقة بأرض السيكة (٢) . وكانت مملكة

(١) Scott : The Moorish Empire in Europe, V. II p. 433-34

(٢) الإحاطة ج ٢ ص ٦٦ . وقد كان اسم السيكة يطلق على البسيط الذي يقع جنوب شرق

الحمراء .

غرناطة قد توطدت دعائمها نوعاً ، واستقر بها ملك بني نصر الفتيّ على أسس ثابتة . وكان من حسن الطالع أنه لم يظهر في مملكة غرناطة في بداية أمرها زعماء خوارج ينازعون بني نصر زعامتهم . ولذا لم نشهد في هذه الأندلس الجديدة مأساة الطوائف مرة أخرى ، وإن كان تاريخ الدولة النصرية لم يخل من ثورات وانقلابات محلية عديدة . وقد كان من غرائب القدر أن هذه المملكة الإسلامية الصغيرة ، استطاعت غير بعيد ، أن تعيد لمحة من مجد الأندلس الذاهب ، كما استطاعت بكثير من الشجاعة والجلد ، أن تسهر على تراث الإسلام في الأندلس ، زهاء مائتين وخمسين عاماً أخرى .

الفصل الثالث

طوائف الأمة الأندلسية

في عصر الانحلال

مملكة غرناطة وحدودها . عناصر سكانها . المدجنون . تاريخهم وحياتهم في ظل الممالك النصرانية . وثائق هامة تلقى ضوءاً على أحوالهم . الأحكام الشرعية في شأنهم . اضطهادهم على يد الكنيسة . نشاطهم وتفوقهم . النصارى المعاهدون وأحوالهم في ظل الحكومة الإسلامية . تعصبهم وخياناتهم . هجرة الأندلسيين من تلافى القواعد إلى غرناطة . عناصر الأمة الأندلسية . المولدون . اليهود . الشعب الفرناطي . صفاته وخصاله .

كانت مملكة غرناطة عند قيامها في أواسط القرن السابع الهجري تشمل القسم الجنوبي من الأندلس القديمة ، وتمتد فيها وراء نهر الوادي الكبير إلى الجنوب ، حتى شاطئ البحر الأبيض المتوسط ومضيق جبل طارق ، ويحدها من الشمال ولايات جيان وقرطبة وإشبيلية ، ومن الشرق ولاية مرسية وشاطئ البحر المتوسط الممتد منها إلى الجنوب ، ومن الغرب ولاية قادس وأرض الفرنجية . وكانت تشمل عندئذ على ثلاث ولايات كبيرة ، وهي ولاية غرناطة الواقعة في الوسط ، والممتدة جنوباً حتى البحر ، وأهم مدنها العاصمة غرناطة ، ووادي آش وبسطة وأشكرو وحصن اللوز ولوشة والحامة وأرجة والمنكب وشلوبانية . وولاية ألمرية وهي تمتد من ولاية مرسية حتى البحر ، وأهم مدنها ثغر ألمرية وبيرة والمنصورة وبرشانة وبرجة ودلاية وأندرش . وولاية مالقة ، وهي تقع على البحر غربي غرناطة ، وأهم مدنها ثغر مالقة ، وبلش مالقة وطرش وقارش وأرشدونة وأنتقيرة ورندة ومربلة . ويلحق بها منطقة جبل طارق والجزيرة الخضراء وطريف .

وتخترق مملكة غرناطة من الوسط جبال سيرا نفادا (جبل شلير) الشاهقة ، وهضاب البشرات الوعرة وبساتينها الخضراء ، كما تخترقها عدة أنهار منها شتيل فرع الوادي الكبير ونهر أندرش الصغير ، وفي الشرق نهر المنصورة . وكانت خواصها الطبيعية التي تجمع بين مزيج مدهش من المروج والوديان الحصبة ، والجبال والهضاب الوعرة ، تملؤها بثرات زراعية ومعدينية حسنة ، ينميها

ويضاغفها الشعب الأندلسي الموهوب ، بذكائه ونشاطه وبراعته الماثورة . وهكذا كانت مملكة غرناطة الصغيرة ، تستمد من مواردها الطبيعية ، أسباب القوة والمنعة والرخاء .

وقد رأينا فيما تقدم أن كورة إلبيرة ، وهى التى غدت فيما بعد كورة غرناطة ، كانت منذ الفتح منزل قبائل الشام ، وقد لبثت أعقاب هذه البطون مدى عصور كثيرة فى تلك الولاية . ولما اضطربت الفتن بالأندلس عقب انهيار الدولة الأموية ، تقاطر البربر من الضفة الأخرى من البحر على قواعد غرناطة ، ثم غدت مدينة غرناطة مدى حين إمارة بربرية ، وأصبح البربر عنصراً بارزاً فى سكان هذه المقاطعة . وكانت الثغور الجنوبية بطبيعة الحال ، منزل البربر كلما عبروا إلى الأندلس ، وخصوصاً أيام المرابطين والموحدين . وكانت طوائف كبيرة من الغزاة ، تتخلف فى هاتيك الوديان النضرة وتستقر فيها ، يحذبهم خصبها ونعماؤها . ولما أخذت قواعد الأندلس الشرقية والوسطى تسقط تباعاً فى أيدي النصارى ، كان يهرع إلى القواعد والثغور الجنوبية كثير من الأسر المسلمة الكريمة ، التى أثرت الهجرة إلى أرض الإسلام ، على التدجن والبقاء تحت سلطان النصارى . على أنه بقيت فى القواعد والثغور التى استولى عليها النصارى جموع كبيرة من المسلمين ، الذين حملتهم ظروف الأسرة ودواعى العيش على البقاء فى الوطن القديم ، تحت حكم الإسبان سادتهم الجدد . وأولئك هم المدجنون^(١) (أو بالإسبانية Mudéjares) أو أهل الدجن . وقد شاع استعمال هذا اللفظ بالأندلس منذ أوائل القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) أو بعبارة أخرى منذ كثرة استيلاء النصارى ، على أراضى المسلمين ، وكثر عدد الرعايا المسلمين الذين تضمهم إسبانيا النصرانية فى هذه الفترة بالذات سقطت معظم قواعد الأندلس فى أيدي النصارى ، وسقطت منها فى الشرق ، بلنسية وشاطبة ودانية ، ولقنت ، وأوريولة ، ثم مرسية ، وسقطت فى الوسط قرطبة وجيان ، وسقطت فى الغرب ماردة وبطليوس وإشبيلية وقرمونة ولبله وغيرها - سقطت هذه القواعد الأندلسية التالدة كلها فى أيدي النصارى فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى ، وبقيت من أهلها المسلمين طوائف كبيرة تحت حكم الإسبان ، وهى التى غدت مجتمع المدجنين . وكان أكثر

(١) من دجن وتدجن أى أقام ، ومصدره الدجن والتدجن ومنه دواجن البيوت وهى طيور وحيوانات أليفة مقيمة .

المدجنين احتشاداً في شرق الأندلس في منطقتي بلنسية ومرسية . ولهذا المجتمع الإسلامي الإسباني تاريخ طويل موثر . فقد لبث المدجنون عصراً ، يتمتعون في ظل ملوك قشتالة وأراجون ، بنوع من الطمأنينة والرخاء والأمن ، فكان يسمح لهم بالاحتفاظ بدينهم وشريعتهم ومساجدهم ومدارسهم ، وكان لهم في العصور الأولى قضاة منهم يحكمون في سائر المنازعات التي تقع فيما بينهم وفقاً للشريعة الإسلامية ؛ أما المنازعات التي تقع بين مسلم ونصراني ، فكان ينظرها أحياناً قاض نصراني أو تنظرها محكمة مختلطة من قضاة من المذهبين . وكان من امتيازاتهم ، أن لا يدفعوا من الضرائب غير ما كانوا يؤدونه من قبل للوكلهم ، ثم ترك هذا الامتياز بمضي الزمن ، وأصدر الفونسو العاشر في سنة ١٢٥٤ م لسكان إشبيلية ، امتيازاً يخولهم حق شراء الأراضي من المسلمين في منطقتهم ، مما يدل على أنه قد سمح للمسلمين بالاحتفاظ بأراضيهم ، وكان لهم حق البيع والشراء في العقارات . فلما تطورت الحوادث ، وغلبت النزعة الرجعية في أواخر القرن الثالث عشر ، صدر قانون يحرم على المسلمين واليهود شراء الأراضي من النصارى ، ولكن ترك هذا القانون فيها بعد . وكان يسمح للمدجنين أيضاً بحمل السلاح ، ويلزمون بتأدية الخدمة العسكرية ، ويعتبر الإعفاء منها امتيازاً خاصاً . ثم أعفى المدجنون بعد ذلك من الخدمة العسكرية نظير جزية سنوية يؤدونها ، وكان انضمامهم إلى الجيوش النصرانية يقع في حدود نسبتهم العددية . ولما توالى استيلاء الإسبان على القواعد والشغور الأندلسية ، كان يخصص للمدجنين في كل مدينة مفتوحة حتى خاص لإقامتهم ، يفصل بينه وبين أحياء النصارى سور ضخمة ، وكان هذا هو شأن اليهود أيضاً حيث كانوا يلزمون بالإقامة في حي خاص بهم^(١) .

وتوجد في كتدرائية سرقسطة مجموعة من وثائق عربية تلتقى ضوءاً على تاريخ المدجنين وأحوالهم في مملكة أراجون منذ القرن العاشر الميلادي إلى القرن الخامس عشر . وهي عبارة عن طائفة من عقود البيع والشراء والوديعة وغيرها التي عقدت بين أفراد من المدجنين وبين المدجنين والنصارى ، وفيها وثائق محررة في تواريخ متأخرة في سنة ١٤٨٢ ، وسنة ١٤٩٦ . ويستفاد من تلاوتها أن المدجنين في مملكة أراجون ، كانوا إلى هذا العصر المتأخر ، حتى بعد سقوط غرناطة في يد الإسبان ،

يحتفظون بدينهم الإسلامي ، وأنه كانت ما تزال ثمة بعض مساجد قائمة في بعض أنحاء ولاية سرقسطة .

(١) ومن ذلك وثيقة مؤرخة في شهر ربيع الأول سنة ٦٤٤ هـ (١٢٤٦ م) تبدأ بالبسملة والصلاة على النبي ، وهي عقد شراء ، يشتري بمقتضاه « أحمد المران » من « محمد بن سلمة البرتيالي » جميع ما له من أملاك وديار ببطرة قرية ابتورة ... بثمن مبلغه وعدته تسعون دينيراً قناشر من القناشر الحارية بسرقسطة ... وذلك كله على سنة المسلمين في طيبات بيوعاتهم ومرجع أدركهم وارتضاء ذلك البيعة المذكورة الشنيور من القرية المذكورة القسيس الأجل دون برتلماو و شنت جيل عن إذن الأقسمة من الكنيسة المذكورة ، شهد على إشفاد المتايغان المذكوران من أشهاد ، وسمع منهما ، وعرفهم ، والجميع بحالة الصحة والجواز في شهر ربيع الأول من سنة أربعة وأربعين وستمائة .

(٢) ووثيقة مؤرخة في ٩ أغسطس سنة ١٤٨٤ ، ورد فيها ما يأتي :
« الحمد لله وحده ، أشهد على نفسه الكريم فرج الطليطلي الساكن بموضع قلعة التراب شهداء هذا الكتاب قولاً بالحق وانقياداً إليه ، أن عليه وفي ذمته وماله من المكرمان برول وكتلة من شنت مري لميور والسبداد داسرغوس وديعة محضة وأمان موثمن وذلك خمسون قفراً قمح طيباً نقباً من مكابيل مدينة سرقسطة ... » .
وكتب هذه الوثيقة : « محمد بن محمد الأزقة فقيه ونخادم مسجد قلعة التراب »
(٣) ووثيقة مؤرخة في شهر فبراير عام احدى وتسعمائة (١٤٩٦ م) تبدأ أيضاً بالبسملة والصلاة على النبي . وهي عبارة عن إقرار كل من « موسى الحسن وابن عبد الله محمد بن فرج المحج الساكنون في بلدة الحمام بأنهم يحبسون وديعة قح » لمن يدعى « أبو باكر ابن أبو باكر ، من أهل قاعة التراب » .
وكتب الوثيقة هو : « ابراهيم البساتني البني هليجي خديم جامع البلد المذكور » (١) .

وعثرنا في متحف بلدية بنبلونة على وثيقة عربية وحيدة مؤرخة في « التاسع من شهر أبريل عام احدى وثمانمائة » (١٣٩٨ م) وهي عبارة عن إشفاد بالدين

(١) قام بدراسة هذه الوثائق المستشرق الإسباني R. Garcia di Linares في بحث عنوانه *Escrituras Arabes pertenecientes al Archivo de Nuestra Senora del Pilar de Zaragoza* ومنشور في كتاب *Homenaje a Francisco Codera (Zaragoza 1904) p. 171-197*

مستهلة بالبسملة والصلاة على النبي ومحررة أمام « القاضي الأروع الأروع
أبي الحسن علي القرشي ». وقد جاء فيها ما يأتي :

« أشهدوا على أنفسهم أبو الحجاج يوسف الحضرمي ومحمد بن محمد بن
جعفر الزهرى ، ويوسف بن زيد ، وأحمد بن المكحل ، ويوسف شداد بن دجنبر
مسلمان ساكنان في ربض المسلمين ببلدة برجة حاضرون بغايبون كل واحد منهم
عنه وعن الكل ، بأنهم دانوا الاشتراك الشابلي لإسرائيل ساكن بلدة المذكورة أولم
ظهر هذا العقد عنده ثلثاية واثنين وثلثين فلريناش ذهباً قالب أرغون من سكة طيبة
موزونة ... الخ » وفي ذيلها عدة من أسماء الشهود المسلمين .

وفيما أوردناه من نص هذه الوثيقة ، ما يدل على أنه كانت توجد في تلك
المنطقة النائية من شمال اسبانيا ، في بلاد نافار ، أقليات مسلمة لها أحياء خاصة حيث
وجدت ، وتتمتع بالتعامل بلغتها القومية أمام قاضيها الخاص ، وذلك في هذا العصر
المتأخر ، في أواخر القرن الرابع عشر ، أعني بعد مرور أكثر من ثلاثة قرون
على استيلاء النصارى على سائر القواعد الإسلامية في تلك الأنحاء .

وكانت مسألة التدجن هذه وبقاء المسلمين في الأرض التي يفتحها النصارى
تثير كثيراً من المسائل الفقهية ، وكان بعض الفقهاء يرمي أولئك المدجنين بالمرور
عن الإسلام لبقائهم تحت حكم النصارى . وقد عثرت خلال بحوثي في مكتبة
الإسكوريال على رسالة مخطوطة تتناول هذه المسألة ، وهي عبارة عن فتوى طلبها
أحد الفقهاء عن حكم الشرع فيمن آثر من المسلمين الأندلسيين الهجرة من دار
الإسلام إلى الأراضي المفتوحة ليعيش تحت حكم النصارى ، والمقصود بهؤلاء بنوع
خاص أولئك الذين هاجروا من القواعد الأندلسية المفتوحة إلى بلاد المغرب ، ثم
لم يجدوا بها ما أملوا من رخاء ويسر في العيش ، وترتب على ذلك أنهم ندموا على
هجرتهم ، وتمنوا العودة إلى ديارهم القديمة تحت حكم ملك قشتالة ، وتتضمن
الرسالة الأسئلة الآتية :

« ما حكم من تمادى من المسلمين في ذلك ؟ وما حكم من عاد منهم إلى دار
الكفر بعد حصوله في دار الإسلام ؟ وهل يجب وعظ هؤلاء أو يعرض عنهم
ويترك كل واحد منهم لما اختاره ؟ وهل من شرط الهجرة أن لا يهاجر أحد إلا إلى
دنيا مضمونة يصيبها عاجلاً عند وصوله ، جارية على وفق غرضه حيث حل من
نواحي الإسلام ، أو ليس ذلك بشرط بل يجب عليهم الهجرة من دار الكفر إلى دار

الإسلام، إلى حلو أو مر أو وسع أو ضيق أو عسر أو يسر بالنسبة لأحوال الدنيا ، وإنما المقصد بها سلامة الدين والأهل والولد ، والخروج من حكم الملة الكافرة إلى حكم الملة المسلمة ، إلا ما شاء الله من حلو أو مر أو ضيق عيس أو سعة ونحو ذلك من أحوال الدنيا .

وقد رد الفقيه المستول ، وهو أحمد بن يحيى التلمساني الونشريشي عن هذه المسائل بما خلاصته :

١ - أن الهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإسلام فريضة إلى يوم القيامة ، وكذلك الهجرة من أرض الحرام والباطل . وهو يؤيد قوله بطائفة من الأحاديث النبوية .

٢ - ولا يُسقط هذه الهجرة الواجبة على هؤلاء الذين استولى الطاغية على معاقلمهم وبلادهم ، ولا يتصور العجز عنها بكل وجه وحال ، لا الوطن ولا المال ، فإن ذلك كله ملغى في نظر الشرع . وأما المستطيع بأى وجه كان وبأى حيلة تمكنت ، فهو غير معذور وظالم لنفسه إن أقام . والظالمون أنفسهم إنما هم التاركون للهجرة مع القدرة عليها حسبما تضمنه قوله تعالى : « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ... » . والمعاقب عليه إنما هو من مات مصراً على هذه الإقامة .

٣ - وتحريم هذه الإقامة تحريم مقطوع به من الدين ، كتحریم الميتة والدم وخم الخنزير وقتل النفس بغير حق ... ومن جوز هذه الإقامة واستخف أمرها ، واستسهل حكمها فهو مارق من الدين ، ومفارق لجماعة المسلمين ، ومحجوج بما لا مدفع فيه لمسلم ، ومنبوذ بالإجماع الذى لا سبيل إلى مخالفته وخرق سبيله . قال زعيم الفقهاء القاضى أبو الوليد بن رشد رحمه الله فى أول « كتاب التجارة ، إلى أرض الحرب » ، من مقدماته : فرض الهجرة غير ساقط بل الهجرة باقية لا زمة إلى يوم القيامة ، وأجاب بإجماع المسلمين على من أسلم بدار الحرب أن لا يقيم بها حيث تجرى عليه أحكام المشركين ، وأن يهجره ويلحق بدار المسلمين حيث تجرى عليه أحكامهم .

٤ - ثم لما نبعت هذه الموالات النصرانية فى المائة الخامسة وما بعدها من تاريخ الهجرة وقت استيلاء ملاعين النصارى دمرهم الله على جزيرة صقلية وبعض كور الأندلس ، سئل فيها بعض الفقهاء ، واستفهموا عن الأحكام الفقهية المتعلقة بمرتكبيها ، فأجاب بأن أحكامهم جارية مع أحكام من أسلم ولم يهاجر ، وألحقوا

هؤلاء المستول عنهم والسكوت عن حكمهم بهم ، وسووا بين الطائفتين في الأحكام
الفقهية المتعلقة بأموالهم وأولادهم ولم يروا فيها فرقاً بين الفريقين» (١).

على أن هذه الاعتبارات الدينية لم تحل دون بقاء طوائف كبيرة من المسلمين
في الأراضى التى يقطعها النصارى تبعاً من الوطن الأندلسى . وكانت الإعتبارات
الدنيوية ، وظروف الأسرة ، ودواعى العيش ، تغلب على كل الاعتبارات
الأخرى . وكان تسامح النصارى فى البداية ، وتركهم رعاياهم المسلمين ، يتمتعون
بتطبيق شريعتهم وأحكام دينهم فيما بينهم حسبما تقدم ، يخفف عن أولئك المدجنين
مرارة الانسلاخ عن مجتمعتهم القديم ، والانتماء إلى المجتمع النصرانى . وهكذا
لبث المدجنون عصراً ، يتمتعون فى ظل الحكم الإشباني بامتيازات كثيرة ،
ويعيشون فى نوع من الأمن والدعة ، بعيداً عن عصف الأهواء السياسية والقومية
العنيفة . ولكن هذه الحال أخذت فى التبدل منذ اتسع نطاق الفتوحات النصرانية
فى أراضى الأندلس ، وزاد بذلك عدد المدجنين فى مختلف المناطق المفتوحة .
وكانت الكنيسة تبغض هذه الطوائف الإسلامية ، القائمة فى قلب المجتمع النصرانى ،
وتنقم على المدجنين هذه الدعة وهذا التسامح ، وترى فى احتفاظهم بدينهم ولغتهم
نوعاً من التحدى المذموم ، وتأخذ على ملوك قشتالة وأراجون تسامحهم فى معاملتهم ،
وتسعى جاهدة لتحريضهم على اتباع سياسة الانتقام والعنف ، إزاء أولئك الرعايا
المسلمين . ومنذ أوائل القرن الثالث عشر ، تتوالى أوامر البابوية وقراراتها ضد
المدجنين ، والحض على استرقاقهم أو تنصيرهم ، ومن ذلك ما أمر به البابا إنوسان
الرابع فى سنة ١٢٤٨ م ، ملك أراجون خايمى الأول من وجوب استرقاق المسلمين
فى الجزائر الشرقية . ولكن خايمى لم يأبه لذلك الأمر . ولما فتح ثغر بلنسية فى
سنة ٦٣٦ هـ (١٢٣٨ م) ، سمح للمسلمين أن يبقوا فيها كمدجنين . وكان ملوك قشتالة
وأراجون يعارضون هذه السياسة العنيفة ، لبواعث وأسباب تتعلق بمصالحهم القومية
ورخاء بلادهم . ذلك لأن المدجنين كانوا بين رعاياهم ، أفضل العناصر وأنشطها ،

(١) عنوان هذه الرسالة المخطوطة هو : « كتاب أسنى المتاجر فى بيان أحكام من غلب على وطنه
النصارى ولم يهاجر وما يترتب على ذلك من العقوبات والزواجر » ، وهى تقع فى عشر لوحات مزدوجة
وتوجد ضمن مجموعة نطوطة لا عنوان لها ، وتحفظ بمكتبة دير الإسكوريال برقم ١٧٥٨ الفزيرى ،
وفى نهاية هذه المجموعة أنها كتب سنة ٨٩٦ هـ (١٤٩٠ م) . وقد قام بتحقيقها ونشرها أخيراً الدكتور
حين مؤنس ، وذلك فى مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمديرية (المجلد الخامس ص ١٢٩ - ١٩١) .

وأكثرها دأبا ومثابرة ، وأوفرها تأدية للضرائب ، وكانوا ساعد النبلاء الأيمن في زراعة أراضيهم واستغلالها . وكانوا يستأثرون بالتفوق في العلوم والفنون والمهن . وكانوا أبرع الأطباء والمهندسين والبنائين . وكان لهم الفضل الأول ، في إدخال محاصيل عديدة في اسبانيا النصرانية ، مثل القصب والقطن والأرز والحرير والتين والبرتقال واللوز وغيرها ، وما زالت مشاريع الري التي أنشأوها ، ولاسيما في مناطق اسبانيا الشرقية والشمالية الشرقية تشهد بعبقريتهم في هذا المضمار . وهم الذين وضعوا أسس الصناعة الإسبانية ، وكانوا أساتذة الصناعات الدقيقة ، وكانت صناعاتهم ولاسيما المنسوجات القطنية والحريرية ، والفخار والخزف والحلود ، نماذج بارعة تحذو حذوها الصناعة الأوروبية ، فلم يك ثمة أشهر من خزف مالقة ، ولا أقمشة مرسية ، ولا حرير ألمرية وغرناطة ، ولا أسلحة طليطلة ، ولا منتجات قرطبة الحلدية . وكانت بلنسية التي تضم كتلة كبيرة من المدجنين ، تعتبر من أغنى ثغور أوروبا بما تنتجه من السكر والنبيد وغيرها من المنتجات العديدة . وكان المدجنون مثال النشاط والدأب ، يزاولون التجارة بنجاح وشرف ، وكانوا أفضل التجار وأوفرهم أمانة ونزاهة ، ولم يكن بينهم متسولون إذ كانوا يعولون فقراءهم . وكانوا مثلاً للنظام والسكينة ، يحسمون منازعاتهم بأنفسهم . وعلى الحملة فقد كانوا يؤلفون أصلاح عنصر بين السكان الذين يمكن أن تحتويهم أي البلاد^(١) .

ويلخص لنا المؤرخ الإسباني خاير أحوال المدجنين في عصور التسامح والتزمت معاً على النحو الآتي :

« كان ثمة معاهدات من كل ضرب ، تحترم بإخلاص في سائر نقاطها الجوهرية وتعتبر أساساً للحقوق والتعهدات المدنية للأندلسيين المدجنين ، ويختلف بعضها عن بعض ، سواء في قشتالة أو أراجون ، وفقاً لتباين النقط التي تتعلق بالامتيازات المختلفة . فهنا مثلاً تطبق بنوع من التوسع ، أو بروح يقل أو يكثر من الحرية أو التزمت ، وذلك وفقاً لما نصت عليه اتفاقات تطيلة أو طرطوشة ، وقوانين قيجاطة أو عسقلونة ، أو قلعة أيوب أو طليطلة ، أو امتيازات بلنسية أو قرطبة أو إشبيلية ، أو امتيازات القري أو المزايا التي منحت للأحياء أو الضياع التي

(١) Dr. Lea : History of the Inquisition in Spain, V. II. p. 66, 67

Dr, Lea : The Moriscos of Spain p. 57.

يسكنها كلها المسلمون . ومن أمثال التوسع والتسامح التي يقدمها إلينا التاريخ ، وهو واحد من عدة كثيرة ، الإمتياز الذي منحه خاتمي الفاتح إلى مسلمي « وادي أوشو » ، بأن يسكنوا فيه ، وأن يقيهم من الجرائم التي ارتكبت فيه ، والعقوبات التي وقعت بسببها ، ومن الديون التي عليهم لليهود ، وأن يستمروا في تطبيق شريعتهم ، وأن يعلموا القرآن جهراً لأولادهم ، وأن يقوموا جهراً بشائر شعائهم الإسلامية ، وأن يتعاملوا في كل شيء داخل المنطقة كلها ، ويدفعوا الضرائب المعتادة ، باستثناء السنة الأولى حيث يعفون منها ، وأخيراً بأن يحكموا في قضاياهم الخاصة ، وأن يقوموا بإدارة إيراد المساجد ، وتعيين القضاة والعلماء وفقاً لتقاليدهم القديمة ، ثم ولا يسمح لنصراني أو متنصر أن يقيم بينهم دون إذن خاص منهم ، وأن يحصلوا على عهد بتأمين أنفسهم وأموالهم ، سواء بالنسبة لهم أو بالنسبة لأعقابهم ، وهم يتعهدون من جانبهم بأن يؤدوا العشور ، وأن يتعاونوا مع الدولة ومع باقي الرعايا من جيرانهم ، وألا يقتربوا مطلقاً من الأماكن التي توجد بها الحرب ، وألا يساعدوا أعداء ملوك أراجون .

بيد أنه كان ثمة طوائف أخرى من المدجنين أقل حظاً ، في بعض القرى التي أخضعت لبعض الفروض ؛ ذلك أنه بالرغم من منحهم حرية التعبد ، وضمان أملاكهم ، فإنه نص مع ذلك على ألا يتخذوا الرقيق أو الخدم من النصراني ، وألا يأكلوا أو يستحموا مع النصراني ، وألا يقوموا بعلاجهم حال المرض ، وألا يدفنوهم في مدافنهم ؛ كذلك حرم عليهم أن يقوموا علناً بشعائر دينهم ، وألا يتخذوا مسائل الدين المسيحي موضعاً للمناقشة . ويلاحظ ، أنه خلال هذه القيود العادلة التي كانت تقتضيها كرامتنا ، في عصر كانت الحروب الدينية تلهب فيه حماسة الكافة ، أن حالة المدجنين كانت أفضل بكثير من حالة اليهود . وأن المدجنين قد استحقوا الثقة في عهودهم . وقد كان المدجنون واليهود كلاهما يعاونون الدولة بدفع العشور من مواردهم ، وكان هذا مما يرضى العرش ، أو السادة ، أو الأحيار الذين يتبعونهم .

ونحن متى تدبرنا ذلك التنوع الذي يقدمه لنا التشريع النصراني للجنس المغلوب خلال عصر الإسترداد ، يجب ألا نعتقد أننا نستطيع أن نكتشف نظاماً سياسياً معيناً ، يقصد إلى استغراق السكان المسلمين مباشرة ، سواء بالقوة أو بالمصانعة ، ويفضي تدريجياً إلى الوحدة ، التي حققت في النهاية في المملكة ، وكان واجباً أن

تحققها الأمة الإسبانية في الدين كما تحققت في شكل الحكومة . والواقع أنه إذا لم يكن ثمة نظام معين - كان من المستحيل تحقيقه أيام الاسترداد - فلنا نجد مع ذلك من خلال التعامل السلمى بين النصارى والمدجنين ، والحرية المطلقة في التعبد ، ميولا واضحة للتوفيق قدر الإمكان بين الأجناس دون قوة ودون عنف . وهكذا فإنه مع ترك المساجد للمسلمين ، كان الظافرون يخصصون أحدها فقط ، وهو المسجد الجامع للعبادة النصرانية ، كما حدث في جيّان وقرطبة وإشبيلية . ولنفس هذه الغاية أنشأ الفونسو العالم في سنة ١٢٤٥م في إشبيلية دراسات لاتينية وعربية ، وأمر أن تُرفع بعض الضرائب عن الأشخاص الذين ينتظمون في دراستها . ويكفى للتدليل على روح التسامح التي كانت سائدة بين الأمتين أن نذكر التحية التي أداها ملك غرناطة المسلم للذكرى وفاة سان فرناندو ، حيث أرسل في سنة ١٢٦٠ م ، إلى الاحتفالات الدينية التي أقيمت بهذه المناسبة في كاتدرائية إشبيلية ، طائفة من الفرسان من حاشيته ، ومائة من المسلمين : حملوا في أيديهم مع كثيرين آخرين شموعاً بيضاء . وفي خلال حرب غرناطة ، أيام الملكين الكاثوليكين ، وهو عصر عظيم في تاريخنا ، كانت فيه القسوة تبرز بالبطولة ، سقطت أماكن كثيرة في أيدي النصارى ، بفضل ما أبداه هذان الملكان من الكياسة والحكمة السياسية ، وما منحاه من ضروب الرحمة ، والمنح الأخرى إلى المغلوبين ، الذين فتحوا أبوابهم طوعاً ، في حين أنهم لو قاوموا حتى النهاية ، لفرض الأسر على السكان ، وبيعوا كالرقيق ، ولم يمنحوا عهداً ما (١) .

وقد لبث ملوك قشتالة عصوراً يحرسون على الانتفاع بنشاط المدجنين وحمايتهم . ونستطيع أن نقول على ضوء الوثائق التي سبقت الإشارة إليها إنه كانت ثمة طوائف كبيرة منهم حتى القرن الخامس عشر ، تعيش في أنحاء كثيرة من إسبانيا النصرانية محتفظة بدينها ولغتها وتقاليدها (٢) . وكانت البابوية تسير على خطتها ، من التحريض

Florencio Janer : Condición Social de los Moriscos de España (Madrid (١)

1857) p. 13 & 14..

(٢) نشر المستشرق ديرنبور صورة وثيقة عربية إسبانية مؤرخة في سنة ١٣١٢ م بعنوان : Une Charte Hispano-Arabe de l'année 1312 : المقيمين بنافار وبين رئيس مستشفى يوهان دى أورشليم النصراني . وفيها تبين حقوق كل طرف وواجباته . وما رتب فيها على المدجنين « أن تعطوا للاشبتال Hospital المذكور الثلث من كل ما تجمعوا من طعام ومن عنب ومن زيتون ومن فول ، ومن كل نوع من كل ما تجمعوا من كل فاكهة . وهذا =

• - أندلس

عليهم والمطالبة بتجريدتهم من دينهم ، والعمل على تنصيرهم بطريق الاضطهاد والعنف ، وتردد الكنيسة الإسبانية من جانبها هذا التحريض . ولكن هذه السياسة الباغية لم تحدث أثرها إلا ببطيء ، ولم يتسع نطاقها إلا في أواخر القرن الخامس عشر عندما أشرفت الدولة الإسلامية في غرناطة على نهايتها . وكان قيام مملكة غرناطة في ذاته ، عنصراً من عناصر تكييف السياسة الإسبانية لإزاء المدجنين . ذلك أن ملوك اسبانيا فوق ما كان يحلوهم من رغبة المحافظة على مصالحهم وسكينة بلادهم بإيثار الرفق في معاملة المدجنين ، كانوا أيضاً يخشون سياسة الانتقام من النصارى المقيمين في غرناطة ، وفيما وراء البحر في بلاد المغرب ، بل وفي الممالك الإسلامية الأخرى مثل مصر وتركيا . على أن العوامل الاجتماعية والمحلية كانت من جهة أخرى تحدث أثرها في مجتمع المدجنين . ذلك أنه بالرغم من جميع الفوارق التي كانت تفصل بينهم وبين النصارى ، فقد جنح الكثير منهم إلى التشبه بجيرانهم ، وانتهوا بمضى الزمن وأثر الاختلاط والتزاوج إلى فقد دينهم ولغتهم ، ومميزاتهم الجنسية والقومية ، والاندماج شيئاً فشيئاً في المجتمع الذي يعيشون فيه ؛ وهكذا أصبحوا بالتدريج قشتاليين ونصارى ، وأضحى علماءهم يكتبون كتب الدين والشريعة بالقشتالية

« كله أن يعملوه في عهد وميثاق وصدق . وكل مسلم أن يحبس دارونار في أسران المذكور أن يقدم لقائد أسران الذي يكون على الاشبطال المذكور ربع من قمع ، النصفاء من قمع والنصفاء من شعير في شهر أغشت من كل عام طول الأبد ، وكل دار أن يعطى للاشبطال المذكور أربعة مرافق من تين في كل عام ، وكل عام مسلم ومسلمين في الموضع المذكور أى يعملوا اكل نفقة أن يحتاج في الموضع المذكور .. » ثم تقول الوثيقة :

« أن يطبخوا المسلمين المذكورة خبزهم في فرن الاشبطال المذكور من دايماً الدهر ، وأن يعطوا من ستة عشر خبزة واحدة ، ولا يقطعوا أشجار ، ولا يقلعوا كرمان دون أمر قائد أسران .. »
« يكون جميع خصماتكم لحكمه (أى القمندور) وإن كان تريدوا تعملوا عند حكمه ارتفاع (استئناف) أن تعملوا أمام كل قاضى أن يكون مسلم من تطيلة كما هو مستكم وشرعتكم ، وأن تكونوا أجسامكم وأموالكم ملتزمة للاشبطال المذكور ، وذلك بشرط أن لا يكون لأحد منكم أن يخرج من الموضع المذكور ، وكل واحد منكم لا يبيع ولا يرهن ميراث الاشبطال لنصراني أو يهودى . ونص في نهاية الوثيقة أنها ختمت بخاتم دون بطره غرسييس ملك نبره (نافار) ، وأرخت في الثامن عشر من فبراير سنة أحد عشر وسبعمائة هجرية وهى توافق سنة ١٣١١ م . ووقعها من المدجنين سبعة منهم موسى الليل المحقى والمراتب بن وليد وعيسى بن موسى ولب يارس دريس . ووضعت أصولها الإسبانية فوق كل عبارة عربية .

ويبدو من مضمون هذه الوثيقة العربية الإسبانية ومن ركاكتها أن المدجنين في هذه المنطقة من نافار كانوا أقل احتفاظاً بلغتهم وامتيازاتهم وأنهم كانوا قد بدأوا يومئذ يفقدون كياناتهم الاجتماعية وامتيازاتهم القديمة .

للرجوع إليها . وقام أيضاً بين المدجنين أدب قشتالي ، استمر عصوراً حتى بعد إخراج العرب المنتصرين من اسبانيا^(١) . على أن المدجنين لبثوا بالرغم من هذا الاندماج الاجتماعي تطبعهم مسحة خاصة تباعد بينهم وبين المجتمع النصراني القديم^(٢) . كان نظائر هؤلاء الأندلسيين المدجنين ، جمهرة من النصارى الإسبان يعيشون في القواعد والثغور الإسلامية ، ويعرفون بالنصارى المعاهدين أو المستعربين (وبالاسبانية Mozárabes) . وقد لبثوا عصوراً يتمتعون في ظل الحكم الإسلامي بضروب الرعاية والتسامح . وكانت الحكومات الأندلسية ، حتى في أزهى عصورها ، تحافظ على سياسة التسامح التي اتبعت إزاءهم منذ الفتح ، وتعاملهم بالرفق ، وتحترم شعائرهم الدينية ونقاليدهم القومية ، وتجنب أية محاولة لإرغامهم على اعتناق الإسلام . وكان من ضروب هذه الرعاية ، أن أنشئ في ظل حكومة قرطبة منذ عهد الحكم بن هشام ، ديوان خاص للنظر في شئون أهل الذمة (النصارى واليهود) ، يتولاه كبير من الأحرار النصارى يطلق عليه « قومس أهل الذمة » . وهكذا استطاعوا دائماً أن يحتفظوا بدينهم ولغتهم ، ومميزاتهم القومية والاجتماعية . وكانت حال النصارى في ظل الحكم الإسلامي ، أفضل بكثير مما كانت عليه أيام القوط ، وكثيراً ما كان يعهد إليهم بمناصب القيادة والوزارة ، أو ينتظمون في البلاط والحرس الملكي . ومع ذلك فقد كانت منهم دائماً طوائف متعصبة تسيء استعمال هذا التسامح ، وتحاول بمختلف الوسائل أن تكبد للإسلام ودولته ومن ذلك ما حدث في عهد عبد الرحمن بن الحكم (أواسط القرن التاسع الميلادي) من الحوادث الدموية التي أثارها تعصب النصارى^(٣) . وهكذا فإن النصارى المعاهدين ، لم يشعروا دائماً بالولاء والإخلاص للدولة الإسلامية . التي يعيشون في ظلها ، والتي توليهم كثيراً من رعايتها ورفقها ، وكانوا دائماً يتربصون بها ، وينتظرون الفرص لمناوأتها والكيد لها ، ويستعدون عليها الوطن القديم ، كلما اضطربت شئونها . وعصفت بها عواصف الثورة والحرب الأهلية . وكانت أعظم

(١) المقصود هنا أدب الألياميدو Aljamiado وهو عبارة عن كتابة اللغة القشتالية المحرفة بحروف عربية مشكلة . وكان العرب المنتصرون يضطرون إلى كتابة كتبهم الدينية بهذه اللغة بعد أن حرمت عليهم لغتهم العربية ، ومنعوا من التحدث عن ذلك فيها بعد .

(٢) Dr. Lea : History of the Inquisition, V. I. p. 66

(٣) راجع كتابي « دولة الإسلام في الأندلس » (الطبعة الثالثة) المص. الأول ص ٢٦٤ - ٢٧٠ .

خيانة ارتكبوها من هذا النوع ، في أواخر أيام المرابطين ، حينما دعوا ألفونسو الأول ملك أراجون الملقب بالمحارب عقب استيلائه على سرقسطة ، إلى أن يسير إلى غزو الأندلس ، بعد ما لاح من انحلال سلطان المرابطين فيها ، واستجاب ملك أراجون لتحريضهم ، وسار مخترقاً الأندلس بجيوشه ، والنصارى المعاهدون في كل قاعدة ينهضون إلى معاونته بوسائلهم ، وذلك في سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥ م) ، حتى انتهى إلى فححص غرناطة وحاصرها حيناً ، ثم غادرها إلى الجنوب ، ونشب القتال بينه وبين المرابطين فهزمهم . ولبت حيناً يعيث في تلك الأنحاء ، والنصارى المعاهدون يهرعون إلى شد أزره ، ويمدونه بالأقوات والمؤن . ثم عاد ثانية إلى اختراق الأندلس إلى أراجون ، وقد انضم إلى جيشه آلاف من النصارى المعاهدين . ولفتت هذه الغزوة أنظار المسلمين إلى خطر بقاء أولئك المعاهدين في الثغور والقواعد الأندلسية ، فانقلبت الحكومة الإسلامية إلى مطاردتهم ، وأفتى القاضي أبو الوليد ابن رشد الجحد بإدانتهم في نقض العهد والخروج على الذمة ، ووجوب تغريمهم وإجلائهم عن الأندلس ، وأخذ أمير المرابطين علي بن يوسف بهذه الفتوى ، وغربت ألوف من النصارى المعاهدين إلى إفريقية ، وفرقوا هنالك في أماكن مختلفة ، وهلك الكثير منهم بسبب الطمس وتغير وسائل التغذية ، وضم السلطان كثيراً منهم إلى حرسه الخاص ، وكانت هذه المحنة سبباً في تمزيق عصبتهم وإضعاف شوكتهم (١) .

وقد كان مجتمع المستعربين أو النصارى المعاهدين ، حتى في القواعد الأندلسية التي سقطت في يد إسبانيا النصرانية ، وبسط عليها النصارى حكمهم ، يتأثر بجمع المذجنين ، وبأحواله وتقاليده ، حتى أنهم كانوا يتخذون اللغة العربية لغة التعامل ، ولغة التخاطب أحياناً ، إلى جانب لسانهم القوي . وقد قمنا بدراسة مجموعة من الوثائق العربية المحفوظة بدار المحفوظات التاريخية بمدريد ، والمنقولة إليها من دير سان كلمينتي بطليلة ، وهي مجموعة ضخمة ، كلها عقود تعامل من بيع وشراء وهبة وإيجار ووصية وغيرها ، ومعظمها مكتوب في القرن الثالث عشر الميلادي ، وبعضها في القرن الثاني عشر . وهي محررة على الأغلب بين المستعربين وأحياناً بينهم وبين المذجنين ، بأسلوب عربي لا بأس به ، وكلها تستهل بالبسملة مقرونة أحياناً بعبارة « وبه نستعين » أو « الحمد لله وحده » ، وعلى كثير منها شهود مسلمون

(١) راجع الإحاطة ج ١ ص ١١٥ و ١٢٠ ، والحلل الموشية ص ٧٠ و ٨١ : ٤ . وراجع كتابي « عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس » القسم الأول - ص ١٠٨ - ١١٢ .

مدجنون إلى جانب الشهود النصارى ، ومما يلفت النظر أن أسماء المستعربين النصرانية قد عربت فيها تعريباً حسناً ، وإليك ملخص لبعض ما جاء فيها :

(١) من ذلك وثيقة مؤرخة في « شهر دجنبر من عام سبعة وثمانين ومائة وألف من تاريخ الصفر » (١١٨٧ م) بمقتضاها « باعت الراهبة دونة بويابيه وأختها كرشتينة بنتى تمام الرطلى ومرتين ودمنغة ابنتى بشتة بنت تمام الرطلى ومريّة ولوقاذة بنتى دمنغة بنت تمام الرطلى من دون رديق مبنوس ومن زوجته دونه سسيلية نصف الضيعة المعلومة لتمام الرطلى بقرية دليش مالمزنوفه من عمل طليطلة حرسها الله وذلك سهم ونصف والحنان كله الذى فيه البير إذ تبقت عواضه البيوت المعلومة لتمام المذكور بالقرية المذكورة .. بثمن عدته عشرون مثقالاً ونصف ذهباً مرابطية دفع المبتاعان بجميع الثمن إلى البائعين وقبضوه منهما ... » وعلى الوثيقة أسماء شهود مدجنين مثل دمنغة بن عبد العزيز ، واشتامن بن حسان ، وشهود من النصارى .

(٢) ووثيقة مؤرخة في شهر « أغشت من سنة ثلاث وسبعين ومائة وألف لتاريخ الصفر » (١١٧٣ م) بمقتضاها « اشترى الوزير دون ميقيال بيطس أحزه الله من بهلول وأخيه بيطرة ابنى مرتين بن بهلول رحمه الله جميع الدار الكبيرة ، والقرال المتصل بها من جهة الغرب والقبلاريسة المتصلة بها أيضاً من جهة القبلة حدود جميع ذلك كله فى الشرق الطريق السالك وإليه يشرع الباب ، وفى الغرب دار ابن طورينه المسلم أمين الفخارين ، وفى القبلة دار بيطرة البنا بن بهلول ، وفى الجوف دار تبقت بيد البائعين ، ودار سلمة بن حسان ... بثمن عدته ثمانون مثقال ذهباً مرابطية ... » وتحمل الوثيقة أسماء عدة شهود مسلمين مثل عبد الله ابن داود ، وعامر بن تمام ، وعلى بن عياش .

(٣) ووثيقة مؤرخة فى « العشر الآخر من شهر أكتوبر سنة خمس وأربعين ومائتين وألف للصفر » بمقتضاها « اشترى الوزير دون شانجه شقورة الفرائلى أدام الله عزته من دون خوان دمنغة بن الصباغ ومن زوجته دونة مريّة بنت تيان بيطر من جميع الكرم الكبير الذى لها بحومة خندق عقرون من أحواز مدينة طليطلة حرسها الله ، وحده فى الشرق كرم لورثة دون أندراش البرجمانس وفى الغرب مخدع سالك من نهر تاجه إلى الحقل وفى القبلة أرض بنضل لدون فرنندة بن بوارى عبد الملك وفى الجوف كرم كان للوزير المتشرف أبى عمر بن جوفار

ومنزّل الآن للقاضي دون يليان اقمانس ... والثن مبلغه وعدته ستون مثقالا ذهباً من الذهب الأذفونشي الضرب دفع المبتاع المذكور جميع الثمن للبايعين المذكورين وقبضاه منه ... وخلص بذلك للمبتاع المذكور ملك جميع المبيع الموصوف ... الخ، وعلى الوثيقة شهود مسلمون ونصارى .

ونحن نكتفى بإيراد ما تقدم من هذه الوثائق . وهذه العقود تدلّ بكثير من من الحقائق التاريخية ، فمنها يستدل أولاً على أنه كانت توجد بطليطة حتى أواخر القرن الثالث عشر ، أقلية مسلمة هامة من المدجنين . ونحن نعرف أن طليطة سقطت في أيدي النصارى منذ سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) . ومنها نعرف الكثير عن خطط طليطة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد ، ومنسوب أثمان العقارات ، ونوع العملة المستعملة في التعامل ، وفيها ما يدل بوضوح على توثق أو اصر المودة والتفاهم بين المدجنين والنصارى (١) .

على أن الكثرة الغالبة من المسلمين في القواعد الأندلسية الذاهبة ، كانت تؤثر الالتجاء إلى أرض الإسلام والتشبث بلواء الدولة الإسلامية . وهكذا أخذت مملكة غرناطة ، تموج منذ أواسط القرن السابع الهجري بسيول الوافدين عليها ، من بلنسية ومرسية وقرطبة وإشبيلية وجيان وبياسة وغيرها ، وهكذا غدت المملكة الصغيرة تضيق بسكانها المسلمين ، بعد أن احتشدت بقايا الأمة الأندلسية المتداعية في تلك المنطقة الضيقة . ومن المرجح أن مملكة غرناطة كانت تضم في عصورها الأخيرة ، زهاء خمسة أو ستة ملايين من الأنفس ، وكانت غرناطة وحدها تضم أكثر من نصف مليون نفس ، وقد كانت هذه الهجرة الغامرة من مختلف القواعد الأندلسية في الشرق والغرب ، إلى ذلك الوطن الأندلسي الجديد ، تضيق على التكوين العنصري لسكان مملكة غرناطة طابعاً خاصاً . وبالرغم من أن العناصر الأساسية التي تتكون منها الأمة الأندلسية ، وهي العرب والبربر والمولدون - وهم أعقاب الإسبان الذين أسلموا منذ الفتح - لبثت على كثر العصور

(١) تحفظ هذه الوثائق في قسم **Archivos Historicos** الملحق بالمكتبة الوطنية بمدريد . وقد نشر معظم وثائق هذه المجموعة المستشرق الإسباني الكبير كوثالث بالثيا **Gonzalez Palencia** مقرونة بترجمته الإسبانية في أربعة مجلدات كبيرة تحت عنوان **Los Mozárabes de Toledo en los Siglos XII y XIII (Madrid 1926-1930)** ونشرت مقتطفات منها في **P.Boigues : Escrituras Mozárabes** **Toledanas**

دون تغيير ، فانه يلاحظ أن الجموع الوافدة على المملكة الإسلامية الجديدة ، كانت تضم كثيراً من العناصر التي صقلتها حضارة أرقى ، ومن ثم فإنه يمكن القول بأن الأمة الأندلسية الجديدة ، كانت تمثل أطيافاً وأثمن ما بقي من القيم النصرانية والحضارية للأندلس القديمة .

وكان المولدون يمثلون في المجتمع الأندلسي الحديد مثولاً قوياً . وكان أولئك المولدون قد نموا بمضى الزمن حتى غدوا عنصراً هاماً بين سكان الأمة الأندلسية . وكان العرب والبربر ينظرون إليهم بشيء من الريب . وكانوا بالرغم من تمتعهم في ظل الحكومات الإسلامية المتعاقبة بنفس الحقوق التي يتمتع بها باقي المسلمين ، ينزعون إلى الثورة في أحيان كثيرة ، وقد كان لهم شأن يذكر ، في إضرام بعض الثورات الخطيرة التي اضطرت ضد حكومة قرطبة ، مثل ثورة الربض ، وثورة طليطلة أيام الحكم بن هشام ، وثورة بني قسي في الثغر الأعلى ، وقد كان جدهم الكونت قسي قوطياً نصرانياً . وكان المولدون أعوان ابن حفصون أعظم وأخطر ثوار الأندلس ، وهو الذي استطاع بمؤازرتهم ومؤازرة النصارى المعاهدين ، أن ينشئ مدى حين مملكة مستقلة في منطقة رنדה (أواخر القرن التاسع الميلادي) . وكان ابن حفصون مولداً يرجع إلى أصل نصراني . هلى أن المولدين كان لهم موقف آخر ضد الغزاة القادمين من إفريقية . فقد وقفوا إلى جانب مواطنيهم الأندلسيين ضد المرابطين ثم الموحدين ، وكان عماد الثورة ضد المرابطين في غربي الأندلس زعيم من المولدين هو الفقيه المتصوف أحمد بن قسي شيخ المريدين ، وكان زعيم الثورة ضد الموحدين في شرقي الأندلس زعيم من المولدين هو محمد بن سعد بن مردنيش أمير بلنسية ومرسية . وكان يتحدث القشتالية ويلبس الملابس الإفريقية ، ويحشد في جيشه كثيراً من الضباط والحند النصارى^(١) . ولم يكن للعاطفة الدينية في تلك العصور وفي تلك الظروف دائماً كبير أثر ، بل كانت تغلب في معظم الأحيان عواطف القومية والمصلحة الخاصة . ويبدو ذلك بنوع خاص في سياسة زعيم مثل ابن مردنيش كانت سياسته تقوم على مصادقة النصارى ، والاستعانة بهم على تنفيذ خططه^(٢) . كذلك كان يمثل بين سكان غرناطة أقلية يهودية قوية ، معظمهم من طائفة « السفرديم » القديمة أو اليهود الإسبان . وكان لليهود في ظل معظم

(١) الإحاطة ج ٢ ص ٨٧ .

(٢) Dr. Lea : History of the Inquisition, V. I. p. 50

الحكومات الإسلامية تفوذ يذكر . وكان منهم أعلام في العلوم والآداب مثل الرئيس موسى بن ميمون القرطبي ، الذي غادر الأندلس إلى المشرق في أواسط القرن السادس الهجري ، فراراً من اضطهاد الموحدين ، وكان لهم مثل هذا النفوذ في مملكة غرناطة ، ومنهم معظم أطباء البلاط والخاصة .

وكانت العروبة تغلب على السكان المدنيين في مملكة غرناطة ، ولا سيما بعد أن نزح إليها على أثر سقوط القواعد الأندلسية في أيدي النصارى ، كثير من سادة البطون العربية القديمة . ويذكر لنا ابن الخطيب عشرات من الأنساب العربية العريقة التي كان ينتمى إليها أهل غرناطة . بيد أنها كانت عروبة من نوع خاص ، صقلتها الأمة الأندلسية ، وأضفت عليها طابعها وألوانها الخاصة . ويصف ابن الخطيب الغرناطين بوسامة الوجوه ، واعتدال القدود ، وسواد الشعر ، ونضرة اللون ، وإناقة الملبس ، وحسن الطاعة والإباء ، يتحدثون بعربية فصيحة تغلب عليها الإمالة . ويصف نساءهم بالجمال والرشاقة والسحر ، ونبل الخلال ، ولكنه ينعي عليهن المبالغة في التفنن في الزينة والتبرج في عصره . أما الجند فكانت فيهم كثرة ظاهرة من البربر ، ولا سيما من قبائل زنانة ومغراوة وبنى مرين . ويرجع ذلك إلى أن طوائف البربر التي تخلفت منذ عهد المرابطين والموحدين بالأندلس ، كان أغلبها من الجند ، وقد بقيت على عهدهما تؤثر الجندية على الزراعة والمهن والفنون المدنية^(١) . وهكذا كان الشعب الأندلسي حين آذنت شمسيه بالمغيب ، كما كان يوم مجده ، يتكون من هذا المزيج العربي الإفريقي الإسباني الذي أطلق عليه الغربيون عبارة « عرب الأندلس » أو « مسلمي الأندلس »^(٢) .

وكانت الأمة الأندلسية تتمتع حتى في عصورها الأخيرة بحضارة زاهرة ، كانت مشار التقدير والإعجاب في سائر الأمم الأوروبية ، وكان يحج إلى معاهدها العلمية كثير من الطلاب من مختلف أنحاء أوروبا .

وكان الشعب الغرناطي من أهل السنة يدين بمذهب مالك ، وهو المذهب الذي غلب على الأمة الأندلسية منذ أواخر القرن الثاني الهجري ، أعني منذ عصر هشام بن عبد الرحمن الداخل ، ولم تتأثر غرناطة في نزعتها المذهبية ولا تقاليدها الدينية السميحة ، بما توالى عليها من سيادة المرابطين والموحدين حيناً من الدهر .

(١) راجع الإحاطة في أخبار غرناطة (القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ص ١٤٠ - ١٤٥ ؛ واللمحة البدرية ، ص ٢٧ و ٢٨ .

(٢) وهي بالإسبانية Los Moros ، وبالإنجليزية The Moors ، وبالفرنسية Les Maures .

الفصل الرابع

طبيعة الصراع بين الأندلس وإسبانيا النصرانية

المعركة الحادة بين الأندلس وإسبانيا النصرانية . تصاؤل قوة الأندلس . قيام مملكة غرناطة . مرحلة جديدة في الصراع . طبيعة هذا الصراع . العوامل القومية والدينية . نزعة الجهاد عند المسلمين . النزعة الصليبية عند النصارى . قيام الجبايات الدينية المحاربة في إسبانيا . ضعف العامل الديني في بداية النضال . السيد الكيادور . المرتزقة النصارى في الجيوش الإسلامية . التجاء الأمراء النصارى إلى حماية الملوك المسلمين . زواج الأمراء المسلمين بنساء من النصارى . ابن مردنيش . التحالف بين المسلمين والنصارى . التعاون بينهما أيام السلم . القروسة وعلائق المودة . طبيعة حرب الاسترداد . صبغتها الدينية في مراحلها الأخيرة .

يبدأ بقيام مملكة غرناطة فوق أنقاض الدولة الإسلامية الكبرى في إسبانيا ، طور جديد من أطوار الصراع الحاد بين الأندلس وإسبانيا النصرانية ، أو بعبارة أخرى طور جديد فيما يمكن أن نسميه في تلك المرحلة المتأخرة من تاريخ الأندلس حرب الاسترداد القومية .

وقد بدأت إسبانيا النصرانية حرب الاسترداد القومية *La Reconquista* منذ منتصف القرن الخامس الهجري ، أعنى حينما انهارت الدولة الإسلامية القوية ، وانتشرت إلى عدة دويلات صغيرة متنافسة هي دول الطوائف . وبلغت الأندلس أيام الطوائف من التفرق والضعف مبلغاً عظيماً ، حتى لاح لإسبانيا النصرانية أن عهد الدولة الإسلامية أوشك على الزوال ، وأن الفرصة قد سنحت لتضرب ضربتها الحاصمة . وكانت مملكة قشتالة تزعم إسبانيا النصرانية ، وتقودها في ميدان الصراع مع المسلمين ، وكان ملكها أيام الطوائف ألفونسو السادس ، يعمل بذلك لاستغلال منافسة الدول الإسلامية وتفرق كلمتها ، ويغلب أميراً على أمير ، حتى انتهى بالاستيلاء على مدينة طليطلة من يد صاحبها يحيى بن ذى النون ، وذلك في صفر سنة ٤٧٨ هـ (مايو سنة ١٠٨٥ م) . وكانت طليطلة أول قاعدة إسلامية عظيمة تسقط في يد إسبانيا النصرانية . ويعتبر بعض الباحثين سقوطها ختام مرحلة التفوق السياسى الذى احتفظت به الدولة الإسلامية في شبه الجزيرة منذ الفتح ، وبدأ مرحلة التفوق السياسى لإسبانيا النصرانية^(١) وعلى أى حال فقد كان سقوط

ظليطة نذيراً خطيراً للأمة الأندلسية ، يذكرها بقوة العلو المتربص بها ، ويخبرها عاقبة التنايد والتفرق ، فاجتمعت كلمة أمراء الطوائف يومئذ على الاستعانة بإخوانهم فيما وراء البحر ، في عدوة المغرب . وكان المرابطون يومئذ قد بسطوا سلطانهم على سائر بلاد المغرب ، وبدأت دولتهم قوية شائعة ، فاستجاب رعيهم يوسف بن تاشفين إلى صريخ الأندلس ، وعبر البحر بقواته إلى الأندلس . وكانت هزيمة اسبانيا النصرانية على يد جيوش المغرب والأندلس في موقعة الزلاقة (٤٧٩ هـ - ١٠٨٦ م) فاتحة حياة جديدة للأمة الأندلسية . وبالرغم من أن المرابطين استولوا على الأندلس بعد ذلك بأعوام قلائل وبسطوا حكمهم عليها ، فقد استمد الإسلام في اسبانيا من قوتهم قوة جديدة ، وعاد الصراع الخالد بين الدولة الإسلامية وبين اسبانيا النصرانية ، يضطرم في نوع من تكافؤ القوى . ولما اضمحل سلطان المرابطين في الأندلس بعد ذلك بنحو ستين عاماً ، وخلفهم الموحدون في ملك المغرب والأندلس ، لبثت الدولة الإسلامية حقبة أخرى في شبه الجزيرة عزيزة قوية الجانب نوعاً ، وإن كانت قد فقدت في تلك الفترة بعض قواعدها النالدة ، مثل سرقسطة التي سقطت في يد النصارى سنة ٥١٢ (١١١٨ م) وبقية قواعد الشجر الأعلى التي سقطت بعد ذلك بفترة قصيرة . وأحرز الإسلام للمرة الثانية على النصرانية نصراً حاسماً في موقعة الأرك الشهيرة ، التي انتصرت فيها جيوش يعقوب المنصور خليفة الموحدين على جيوش ألفونسو الثامن ملك قشتالة (٥٩٣ هـ - ١١٩٥ م) ، وانكسرت اسبانيا النصرانية مدى حين ، ولكنها عادت فاجتمعت كلمتها تحت لواء ألفونسو الثامن ، وسارت الجيوش النصرانية المتحدة إلى لقاء المسلمين بقيادة خليفة الموحدين محمد الناصر ولد يعقوب المنصور ، وأصيب المسلمون في موقعة العقاب بهزيمة فادحة (٦٠٩ هـ - ١٢١٢ م) وأخذ سلطان الموحدين في الأندلس يتداعى من ذلك الحين ، وبدأ مصير الأندلس يهتز في يد التقدر ، وبدأت اسبانيا النصرانية يومئذ في أوج سلطانها وقوتها . ولم تمض فترة وجيزة أخرى حتى بدأت قواعد الأندلس العظيمة ، تسقط تباعاً في يد النصارى : قرطبة (٦٣٣ هـ) فيلنسية (٦٣٦ هـ) فرسية (٦٤١ هـ) فشاطبة ودانية (٦٤٤ هـ) فيشيلية (٦٤٦ هـ) . وهكذا سقطت عدة من قواعد الأندلس النالدة ومنها عاصمة الخلافة القديمة في يد اسبانيا النصرانية في مدى عشرة أعوام فقط ، ولقيت الأندلس أعظم محناً في تلك الفترة العصبية ، ولاح لاسبانيا

النصرانية ان حرب الإسترداد القومية لن تلبث حتى تتوج في أعوام قلائل أخرى ،
بالقضاء على ما بقى من تراث الإسلام في الأندلس .

ولكن شاء القدر أن تتمخض هذه المحنة ، التي غمرت الأندلس في أوائل
القرن السابع الهجرى ، عن قيام مملكة إسلامية جديدة هي مملكة غرناطة ، تتمتع
بالرغم من صغرها بكثير من عناصر الفتوة والحيوية . وفي الوقت الذي خيل فيه
لإسبانيا النصرانية أنها أضحت على وشك الإجهاز على المملكة الإسلامية ، كانت
بنور صراع مرير طويل الأمد تنمو وتتوطد ، وإذا بالنهاية المرجوة تستجبل إلى
بداية جديدة : ولقد استطالت هذه المرحلة الأخيرة من حرب الإسترداد زهاء
مائتين وخمسين عاماً ، صمدت فيها المملكة الإسلامية لهجمات إسبانيا النصرانية
المستمرة ، وعملت على استغلال كل فرصة للمطاوله والمقاومة ، وأبدت في
النضال على صغر رقعتها وضآلة مواردها ، بسالة عجيبة . وكانت كلما شعرت
بالخطر الداهم يكاد ينقض عليها ويودي بحياتها ، استغاثت بجارتها المسلمة من
وراء البحر ، أو عصفت بإسبانيا النصرانية ريح الخلاف والتفرق فشغلها عن
إرهاق المملكة الإسلامية حيناً ، حتى شاء القدر بعد طول النضال أن تنتهى هذه
المعركة القاسية الطويلة إلى نهايتها المحتومة ، وأن تنهار المملكة الإسلامية الصغيرة
أمام ضغط القوة القاهرة ، وأن تختتم حياتها المحيدة أبية كريمة .

وهنا يجدر بنا أن نحاول أن نلقى شيئاً من الضياء ، على طبيعة هذا النضال ،
الذى استمر قروناً بين الأمة الأندلسية وبين إسبانيا النصرانية ، وإلى أى حد
كانت تحلوه العوامل القومية أو الدينية .

كانت العوامل القومية والدينية ، تبرز بأدوار هذا النضال في معظم أطواره ،
وكانت تشتد حيناً وتخبو حيناً تبعاً لتطور الحوادث . ولما افتتح العرب إسبانيا ،
وسيطرت الدولة الإسلامية على معظم أنحائها ، قامت المملكة الإسبانية النصرانية
الناشئة في قاصية الشمال ، ترقب الفرص للتوطد والتوسع . بيد أنها لم تجرؤ على
تحدى المملكة الإسلامية والنزول إلى ميدان النضال قبل أواخر القرن التاسع ،
ففي ذلك الحين اضطربت الأندلس بالفتن والثورات الداخلية ، وشغلت حكومة
قرطبة بأمر الثوار والنواحي . وكانت غزوات النصارى للأراضي الإسلامية
يومئذ غزوات عيث يغلب عليها حب الانتقام والغنم . ولم يكن يطبعها شيء
من تلك الروح الدينية العميقة ، التي جمعت أوروبا النصرانية تحت لواء كارل مارتل

لمحاربة العرب على ضفاف اللوار ، والتي حفزت شارلمان فيما بعد إلى عبور جبال البرنيه وغزو الأندلس أيام عبد الرحمن الداخل . غير أنه لما اشتد ساعده الأندلس أيام عبد الرحمن الناصر (أوائل القرن العاشر الميلادي) وظهرت المملكة الإسلامية في أوج قوتها وظفرها ، ونفذت الجيوش الإسلامية غير مرة إلى أعماق المملكة النصرانية ، وشعر النصارى بالخطر الداهم على كيانهم ، أخذت العوامل الدينية والقومية تستيقظ من سباتها ، واتحدت المملكتان النصرانيتان ليون وناغار (نبرة) على مقاومة الخطر الإسلامي . وكانت المعارك التي نشبت في تلك الفترة في عهد أردونيو الثاني وولده راميرو بين المسلمين والنصارى ، تحذوها من الجانبين ، فوق نزعتها القومية ، نزعة دينية واضحة ؛ فكانت غزوات المسلمين تحمل طابع الجهاد ، ويهرع أهل الثغور إلى مرافقة الجيش لمقاتلة النصارى ، وكان يرافق الجند النصارى إلى القتال جموع غفيرة من الأحرار ورجال الدين ، يسقطون إلى جانب الفرسان في ساحة الوغى . وكانت هذه الصبغة القومية الدينية تبدو كلما اشتد الخطر من الجنوب على اسبانيا النصرانية . ففي أواخر القرن العاشر في عهد الحاجب المنصور ، حينما اشتدت وطأة الأندلس على اسبانيا النصرانية ، وغزا المسلمون أقصى وأمنع معاقلها الشمالية ، اتحدت الممالك النصرانية الثلاثة ليون وقشتالة وناغار ضد المسلمين في جبهة دفاعية موحدة ؛ وبدأت كذلك موحدة الرأى والقوى ، حينما عبرت جموع البربر إلى الأندلس تحت لواء المرابطين ، لتتخذ الأندلس من خطر الفناء الذى كان يهددها ، من جراء تفرق ملوك الطوائف . وكانت موقعة الزلاقة تحمل في نظر المسلمين طابع الجهاد في سبيل الله ، وتطبعها في نظر النصارى صبغة صليبية واضحة ، ولم يكن نصر الزلاقة نصراً للأندلس على خصيمتها اسبانيا فقط ، ولكنه كان نصر الإسلام على النصرانية أيضاً . وكذا كان نصر الموحدين في موقعة الأرك ، ثم هزيمتهم بعد ذلك في موقعة العقاب ، يحمل كلاهما من الجانبين هذا الطابع الدينى العميق . ويجب أن نذكر أن الحروب الصليبية ، قد بدأت في المشرق بعد موقعة الزلاقة بقليل ، واستمرت تضطرم بين المسلمين والنصارى في مصر والشام زهاء قرنين ، وبلغت ذروتها أيام الملك الناصر صلاح الدين معاصر الخليفة يعقوب المنصور الظافر في معركة الأرك . ولم يكن شك في أن النزعة الصليبية التي دفعت بمجافل الغرب إلى الشرق الإسلامى ، كانت تحدث صداها قوياً في اسبانيا النصرانية وفي الغرب الإسلامى .

وفي الوقت الذي كانت جيوش الصليبيين تحاول فيه أن تغزو مصر حصن الإسلام في المشرق ، في أوائل القرن السابع الهجري ، كانت قواعد الأندلس الكبيرة تسقط في أيدي النصارى ، وكانت اسبانيا النصرانية تبدو يومئذ إزاء الأندلس ، موحدة الرأي والقوى ، كما كانت الجيوش الأوروبية الصليبية تسير إلى المشرق متحدة لتحقيق الغرض المشترك .

وقد ظهر صدى النزعة الصليبية في اسبانيا في شكل آخر ، هو قيام الجماعات الدينية المحاربة . ونحن نعرف أن جماعات الفرسان الدينية قامت في المشرق في ظل الصليبيين ، واشتهر منهم بالأخص جماعة فرسان المعبد أو « الداوية » كما تسميهم الرواية العربية ، وفرسان القديس يوحنا أو الأسبتارية . وكانت هذه الجماعات الدينية المحاربة ، تشد أزر الأمراء النصارى وتؤدي للصليبيين أثناء الحرب والسلم خدمات جليلة . وكما أن قيامها في المشرق كان أثراً من آثار المعارك الصليبية ، فكذلك كان قيامها في اسبانيا أثراً من آثار النضال بين اسبانيا النصرانية وبين اسبانيا المسلمة . ذلك أن بعض الفرسان والرهبان الوريثين المتحمسين ، كان يحزنهم تفرق الملوك النصارى وتخاذلهم أحياناً في مقاتلة المسلمين ، وكانوا يرون أنه لا بد من قيام جماعات غيرة مخلصه من الفرسان ، تنذر نفسها للدفاع عن الدين وعن الأراضي النصرانية . وكانت قلوبهم في ذلك جماعات المسلمين من أهل الثغور والمرابطة ، فقد كانت هذه الجماعات المجاهدة التي ترابط عند حدود الأراضي الإسلامية ، تبدى في محاربة النصارى بسالة منقطعة النظير ، وتؤدي للجيوش الإسلامية أجل الخدمات . فلما أنشئت جماعة فرسان المعبد (الداوية) في بيت المقدس سنة ١١١٩ م عقب قيام المملكة اللاتينية بقليل ، كان لقيامها صدى عظيم في اسبانيا ، ولم تمض أعوام قلائل حتى قامت أول جمعية محاربة دينية في أراجون في عهد ألفونسو المحارب ، في صورة فرع لجماعة فرسان المعبد ، وأبدى ألفونسو في تأييدها حماسة ، وانتظم في سلكها الكونت ريمون برنيجار أمير برشلونة ، وأقطعت عدة حصون وأراض شاسعة على حدود أراجون ، كما احتلت عدداً من الحصون في قشتالة ، ونمت بسرعة وأخذت تضطلع من ذلك الحين بدور هام في سائر المواقع التي تنشب بين النصارى والمسلمين .

وقامت في قشتالة بعد ذلك بقليل أعظم الجمعيات الدينية المحاربة ، ففي أواخر

عصر القيصر ألفونسو ريمونديس أو ألفونسو السابع^(١) ملك قشتالة ، قامت حول سنة ١١٥٠ م جمعية فرسان دينية قوية في بعض أديار منطقة شلمنقة ؛ وسميت بجمعية القديس يوليان ، ثم سميت بعد ذلك بجمعية فرسان القنطرة . وفي سنة ١١٥٨ م قامت جمعية دينية محاربة أخرى ، ربما كانت أشهر وأقوى جماعات الفرسان التي ظهرت في اسبانيا في هذا العصر ، وهي جمعية « فرسان قلعة رباح » ، ونشأت لأول أمرها على يد بعض الرهبان الوريثين المتحمسين الذين عملوا على حشد الجند النصارى للتطوع للدفاع عن تلك القلعة الحصينة ضد المسلمين ، واتخذت قلعة رباح مركزاً لها^(٢) . وقامت أيضاً في البرتغال عدة فروع لفرسان المعبد (الداوية) وفرسان القديس يوحنا (الأسبترارية) . وظهرت هذه الجمعيات الدينية المحاربة ولاسيما فرسان القنطرة وفرسان قلعة رباح في كثير من المعارك ، التي نشبت في تلك العصور بين المسلمين والنصارى ، وكان تدخلهم في كثير من الأحيان من عوامل النصر والإنقاذ للجيوش النصرانية ، بيد أنهم بالرغم من صفتهم الدينية والصليبية كانت تحذوهم بواعث وأطماع دنيوية ، وكان ظمأ الكسب واجتناء المغنم روحهم المسيرة ، وكانوا يسيطرون على قلاع كثيرة وأراض واسعة ، ويعيشون في بذخ وترف ، بما يحصلون عليه من الإقطاعات والهبات والندور الوفيرة ، وكان تدخلهم في شئون السياسة والعرش يشتد أحياناً ، ويفضي إلى أحداث وتطورات خطيرة .

كانت اسبانيا النصرانية حينما بدأت حرب الإسترداد الحقيقية *La Reconquista* في أواسط القرن الثالث عشر ، عقب سقوط القواعد الأندلسية الكبيرة ، تجيش إلى جانب نزعتها القومية بهذه النزعة الصليبية الواضحة . على أنه يمكن القول أن ظهور هذه النزعة القومية والدينية العميقة في حروب اسبانيا النصرانية مع المسلمين ، لم يكن ملحوظاً بصورة واضحة ، حينما كان التفوق في القوة لإسبانيا المسلمة أيام الدولة الأموية ، وحينما كان ثمة نوع من توازن القوى السياسية والعسكرية بين الأندلس واسبانيا النصرانية أيام المرابطين والموحدين وتدل حوادث التاريخ الأندلسي حتى أواخر القرن الثاني عشر على أن التعصب

(١) Alfonso Raimundez وتعرف الرواية الإسلامية باسم أدفنش بن رمند أو السليطين
(٢) تناولنا قيام الجماعات الدينية النصرانية ، ونشأة جمعية فرسان قلعة رباح تفصيلاً في
« عصر المرابطين والموحدين » القسم الأول ص ٥١٨ - ٥٢٠ .

القوى أو الدينى لم يكن دائماً ظاهرة بارزة ، فى حروب المسلمين والنصارى . فقد كان الفريقان المتحاربان على وجه العموم يحترم بعضهم بعضاً ، وكان التعصب الدينى قاصراً على جماعات الفقهاء من ناحية ، وعلى القساوسة والأخبار من جهة أخرى ؛ ويوصف المسلمون فى الأناشيد الإسبانية القديمة بأنهم خصوم شرقاء ، ولا يجيش النصارى نحوهم بىغض أكثر مما كان يجيش به المسلمون أنفسهم ، بعضهم نحو بعض فى الحروب الأهلية التى كانت تنشب فيما بينهم^(١) . يقول العلامة دوزى : « إن الفايوس الإشباني فى العصور الوسطى لم يكن يحارب من أجل دينه أو وطنه ، بل كان مثل « السيد » يحارب لكسب عيشه ، سواء فى ظل أمير مسلم أو أمير نصرانى . ولقد كان « السيد » نفسه أقرب إلى روح المسلم منه إلى الكاثوليكي^(٢) . وفى حياة السيد الكيبادور (الكنييطور)^(٣) نفسه أوضح مثل لاتبجاءات الفروسية الإسبانية فى تلك العصور ، فقد نشأ السيد وظهر فى كنف أمير مسلم ، وتقلب فى خدمة الأمراء المسلمين والنصارى على السواء ، بل لقد خدم الأمراء المسلمين أكثر مما خدم الأمراء النصارى ، ولو لم يمت وهو فى خدمة الجانب النصرانى لما حفلت به الأساطير الإسبانية ، ورفعت إلى مرتبة البطل . القوى^(٤) . وفى أخيان كثيرة نرى المرتزقة من الفرسان والجنود النصارى يعملون فى الجيوش الإسلامية . وفى مواطن عديدة من تاريخ إسبانيا النصرانية ، نرى الملوك والأمراء النصارى خلال الحروب الأهلية يلوذون بحماية الأمراء المسلمين . فقد لجأ سانشو ملك ليون إلى حماية عبد الرحمن الناصر حينما استأثر أخوه أوردونيو بالملك دونه ، ولجأ ألفونسو السادس ملك قشتالة إلى حماية المأمون بن ذى النون

Dr. Lea : History of the Inquisition in Spain ; V. I. p. 51. (١)

Dozy : Recherches sur l'Histoire et Littérature de l'Espagne pendant (٢)

le moyen âge ; V. II. p. 202 & 283.

(٣) وبالإسبانية El Cid Campeador ؛ ومعناها « السيد الباسل جدا » .

(٤) يختلف تقدير التفكير الغربى لسيد الكيبادور ومنزلته من البطولة ، فبرى دوزى فى كتابه

(Le Cid) أنه ليس سوى جنلى مفاخر يجمع فى شخصه من رذائل عصره أكثر مما يجمع من فضائله ويجاريه فى هذا رأى معاصره العلامة الفرنسى ريتان ، ويقول « إنه لم يفقد بطل بخروجه من حيز الأسطورة إلى حيز التاريخ كما فقد السيد » . ولكن العلامة الإشباني المعاصر الأستاذ منشث بيدال يخالف هذا رأى ، ويبالغ فى تقديره السيد ، ويقول « إن الشعر والتاريخ يتفقان فى شأنه ، وأنه بالعكس لا يوجد بطل ملاحم أكثر لمعاناً فى ظل التاريخ » . R.M.Pidal : La España del Cid ; Vol. II. p. 594 .

أمير طليطلة ، حينما تغلب عليه أخوه سانشو الثاني وعاش في بلاطه حتى توفي أخوه ؛ فلما ارتقى عرش قشتالة كان أعظم مشاريعه أن ينتزع طليطلة من يد القادر بن ذى النون ولد المحسن إليه . وفي سنة ٩٩٠ م قدم برمودو (برمند) الثاني أخته زوجة لحاكم طليطلة المسلم . ولم يكن زواج الأمراء المسلمين من الأميرات والعقائل النصراني أمراً نادراً . وربما كان تاريخ بلنسية في القرنين الحادى عشر والثانى عشر أسطع مثل لهذا الامتزاج والتفاهم بين الفريقين المتحاربين ، ففيه يكثّر التحالف بين المسلمين والنصارى ولاسيما أيام « السيد » وبعدها . وقد كان أمير بلنسية في أواخر عهد المرابطين وأوائل عهد الموحيدين محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش ينتمى حسباً قدمنا إلى أسرة من المولدين أغنى من أصل نصراني ، وكان يرتدى الثياب القشتالية ، ويعتمد في جيشه على الضباط والجند النصراني . ولم يحجم أمراء المرابطين في الأندلس حينما انهارت دولتهم في المغرب ، وبدأ الموحدون في انتزاع الأندلس من أيديهم ، عن الاستعانة ألفونسو ريمونديس ملك قشتالة وحليفه غرسيمة ملك نافار على محاربة الموحيدين . وهذا ما فعله بالأخص الأمير يحيى بن غانية آخر زعماء المرابطين بالأندلس حينما استعان بالقيصر ألفونسو السابع على الاحتفاظ برياسته لقرطبة . وهذا ما فعله أيضاً الخليفة الموحدى أبو العلاء المأمون حينما اتفق مع فرناندو الثالث ملك قشتالة ، على معاونته بفرقة من الفرسان النصراني يستعين بها على استرداد العرش من خصومه . ولم ينقطع هذا التعاون بين المسلمين والنصارى حتى بعد أن بدأت مرحلة الإسترداد الأخيرة ؛ فقد كان مؤسس مملكة غرناطة محمد بن الأحمر في بداية أمره ، ينضوى حسباً رأينا تحت حماية ملك قشتالة ، ويتعهد بمعاونته في حروبه ضد خصومه من المسلمين والنصارى . ونجد من الجانب الآخر أمراء النصارى ، يلوذون من وقت إلى آخر بحماية المسلمين حتى في ذلك العصر الذى تضاعفت فيه المملكة الإسلامية ، ففى الإنفانت فيليب حينما ثار على أخيه الملك ألفونسو العاشر ، يلتجئ مع جماعة من النبلاء إلى حماية السلطان أبى يوسف المنصور المرينى ملك المغرب ، ويستقرون ضيوفاً في بلاط غرناطة ، حتى انتهى ملك قشتالة إلى مصالحتهم واسترضائهم (١٢٧٠ م) . وفي سنة ١٢٨٢ م اضطر ألفونسو العاشر نفسه حينما ثار عليه ولده سانشو وانتزع منه العرش ، إلى الاستعانة بالسلطان أبى يوسف ، وأرسل إليه تاجه مقابل ما ينفقه على معاونته ، فاستجاب إليه وأمدّه بالمال والجند . وفي سنة ١٣٣٢ م ثار حاكم

«الفرنثيرة» النصراني ضد مليكه ألفونسو الحادى عشر ، وتحالف مع سلطان غرناطة وعاون بذلك فى رد النصارى عن جبل طارق ، وكانوا على وشك الاستيلاء عليه . ولما نشبت الثورة ضد ولده بيدرو القاسى (دون بطره) ونزع عن عرشه ، ونشبت بينه وبين خصومه موقعة مونتيل الفاصلة سنة ١٣٦٧ م ، كان إلى جانبه فرقة من الفرسان المسلمين ، أمدته بها حليفه الغنى بالله ملك غرناطة^(١) . وهكذا كان التعاون السياسى والحربى يجرى بين الفريقين من آونة إلى أخرى ، حتى فى تلك العصور التى مال فيها نجم الأندلس إلى الأفول ، ولم تكن تحول دون عقده عوامل القومية أو الدين ؛ وكانت العلائق التجارية أيام السلم تجرى بانتظام ، وتنظم بمعاهدات ودية بين الفريقين ، ومن ذلك معاهدة الصداقة والتحالف التى عقدها محمد بن يوسف ملك غرناطة مع مرتين ملك أراجون لتنظيم العلائق والمبادلات الحرة ، وتنظيم التحالف السياسى بين المملكتين (سنة ١٤٠٥ م)^(٢) .

هذا ويجب ألا ننسى ، ما كان هنالك من علائق المودة والتفاهم بين جماعات الفرسان من الفريقين ، وقد كانت الفروسية الإسبانية فى العصور الوسطى تقتبس كثيراً من تقاليد الفروسية الإسلامية وخلالها الرفيعة ، وتنظر إليها بعين التقدير والاحترام . وكانت مباريات الفروسية تجمع بين أنبل الفرسان من الجانبين ، وكثيراً ما كانت تعقد فى العاصمة الإسلامية فى جو من العطف والحماسة ، ويهرع إلى شهودها ألوف من المسلمين والنصارى ؛ وكانت هذه الاجتماعات المثالية البهجة التى تجمع بين العنصرين الحصيمين ، أبعد ما يكون عن الاعتبار القومية والدينية ، وقد كانت غرناطة التى اشتهرت بفروستها النبيلة البارعة ، مسرحاً لكثير من هذه المباريات الشهيرة .

تلك هى الصورة المتباينة ، التى تقدمها إلينا معركة السلطان والقوة ، ومعركة الحياة والموت ، والحرية والاستعباد ، بين الأندلس وإسبانيا النصرانية . ذلك أن بواعث الدين والقومية ، لم تكن دائماً كل شيء ، فى هذا الصراع المضطرم الطويل الأمد . ومع ذلك فقد كانت النزعة الدينية أو الصليبية ، تبدو كلما لاح شبح الخطر الداهم على كيان أحد الفريقين ، أو كلما اتخذ النضال بين الفريقين صبغة حاسمة . ولما شعرت إسبانيا النصرانية أنها أضحت بعد الاستيلاء على القواعد

(١) سوف نعود إلى تفصيل هذه الحوادث فى مواضعها بعد .

(٢) Dr. Lea: History of the Inquisition ; V. I. p. 52-55

الأندلسية الكبيرة ، وتضاؤل المملكة الإسلامية ، في مركز التفوق والغلبة ، لم يكن ثمة ما يدعو لأن تتخذ حرب الإسترداد التي تلت بعد ذلك ، بين اسبانيا النصرانية وبين مملكة غرناطة ، ألوانا دينية أو قومية عميقة . ذلك أن معركة السلطان قد بت فيها نهائيا بظفر اسبانيا النصرانية ، وأضحى القضاء على الأندلس مسألة وقت فقط . وكانت اسبانيا النصرانية كلما حاولت أن تتعجل تحقيق هذه الغاية القومية الخطيرة ، عاقتها المنازعات والثورات الداخلية ، أو ردها تدخل الدولة الإسلامية القوية فيما وراء البحر . على أنه ما كاد يبدو تفكك المملكة الإسلامية قويا واضحا ، وما كادت حرب الإسترداد تدخل في طورها الأخير ، حتى بدت النزعة القومية والدينية واضحة قوية ، في جهود اسبانيا النصرانية للقضاء على مملكة غرناطة . ولما اتحدت اسبانيا النصرانية نهائيا ، وتم اندماجها في مملكة موحدة بزواج فرناندو ملك أراجون وإيسابيلا ملكة قشتالة ، اتخذت حروب غرناطة الأخيرة لونا صليبيا عميقا ، يذكها ويزيد في ضرامها حماسة هذه الملكة الورعة المتعصبة ، ومن حولها الأحرار المتعصبون ، وأسبغ على فرناندو لقب « الكاثوليكي » وعلى إيسابيلا لقب « الكاثوليكية » ، وكان أول عمل قام به الحند القشتاليون حينما دخلوا غرناطة في الثاني من يناير سنة ١٤٩٢ ، أن رفعوا الصليب فوق أبراج الحمراء ، ورفعوا إلى جانب علم قشتالة علم القديس ياقب ، وأقام الرهبان القداس داخل قصر الحمراء ، ودفنت الملكة إيسابيلا وزوجها الملك فرناندو في كاتدرائية غرناطة التي أقيمت فوق أنقاض المسجد الجامع ، تنويعا بظفرهما على الإسلام . وكانت سياسة اسبانيا النصرانية لإزاء الأمة الأندلسية المغلوبة ، منذ إكراهها على التنصير في عصر فرناندو حتى مأساة النفي النهائي في عصر فيليب الثالث ، تقوم على بواعث دينية وصليبية محضة ، بصوغها ويمليها أحرار الكنيسة ، ويدعمها ديوان التحقيق بقضاائه الكنسي المروع ووسائله الدموية ؛ وعلى الحملة فقد كانت جهود اسبانيا النصرانية في القضاء على الأمة الأندلسية ، تمثل منذ بدايتها إلى نهايتها مأساة من أروع وأشنع مآسي التعصب الديني والقومي التي عرفها التاريخ .

وتلك المأساة التي استطالت منذ قيام مملكة غرناطة زهاء مائتين وخمسين عاماً هي التي نستعرض حوادثها وظروفها فيما يلي من فصول هذا الكتاب .

الفصل الخامس

تاريخ اسبانيا النصرانية

منذ أوائل القرن الحادى عشر حتى قيام مملكة غرناطة

انقسام اسبانيا النصرانية فى القرن الحادى عشر . تنافس الإمارات النصرانية . القضاء على مملكة ناثار وعودها . اتحاد قطلونية وأراجون . المهالك النصرانية خلال القرن الثانى عشر . تنافسها وتنازلهما . اجتماع كلمتها فى الصراع ضد المسلمين . قشتالة وأراجون . القيصر الفونسو ريمونديس . تحالف قشتالة وأراجون ضد ناثار . اختفاؤها كمملكة مستقلة . فرناندو الثالث ملك قشتالة . اندماج مملكة ليون فى قشتالة . غزو فرناندو الثالث للأراضى الإسلامية . استيلاؤه على أبدة وقرطبة ومرسية . غزوه لأراضى ابن الأحمر . استيلاؤه على إشبيلية . وفاته وتلقيه بالمقدس . مملكة أراجون . ملكها خايمى . غزوه للجزائر الشرقية . استيلاؤه على ميورقة . حصاره لبليسية وسقوطها . استيلاؤه على دانية . وفاته وتلقيه بالفتح .

- ١ -

لما انهارت الدولة الإسلامية الكبرى بالأندلس ، فى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى ، وانتشرت إلى عدة دول وإمارات صغيرة متنافسة هى دول الطوائف ، كانت اسبانيا النصرانية تجوز حالة مماثلة من تعدد الإمارات والدول ، وإن لم تبلغ ما بلغت اسبانيا المسلمة من الانقسام والتفرق . والحقيقة أن اسبانيا النصرانية كانت قد اتحدت فى أوائل القرن الحادى عشر تحت سلطان ملك قوى ، هو سانشو الثالث الملقب بسانشو الكبير (سانجيه) ملك ناثار (نبرة أو بلاد البشكنس) ، وكانت المملكة النصرانية تمتد يومئذ ، من جبال البرنيه شرقاً إلى شانت ياقب غرباً ، ومن خليج بسكونية شمالاً إلى نهر دويرة جنوباً . فلما توفى سانشو فى سنة ١٠٣٥ م ، قسمت مملكته الكبيرة بين أولاده الأربعة ، فاختص ولده فرناندو بقشتالة وغرسية بناثار ، وحكم راميرو رقعة ضيقة تمتد جنوباً بشرق باسم مملكة أراجون ، فكان هذا مولد هذه المملكة النصرانية التى نمت بسرعة ولعبت فيما بعد أعظم دور فى تاريخ النضال بين اسبانيا المسلمة واسبانيا النصرانية . وحكم ولده الرابع كوثالو ولاية سوبرابى فى أواسط البرنيه . وأما مملكة ليون وجليقية فى الغرب فكان يحكمها صهره برمودو الثالث . وكانت تقوم ثمة فى الشرق على

شاطيء البحر إمارة قطلونية المستقلة ويحكمها آل برنجير^(١). وهكذا انقسمت المملكة النصرانية إلى عدة وحدات متنافسة. وكان من حسن طالع المسلمين أن يقع هذا الانقسام، في الوقت الذي انهارت فيه الدولة الإسلامية الكبرى، وتقاسمت أشلاءها دول الطوائف الضعيفة، وبذا قام مدى حين نوع من التوازن بين القوتين المتداعيتين. على أنه بينما استمرت الأندلس فريسة الاضطراب والتفرق، إذا بإسبانيا النصرانية تسير بخطوات متعاقبة في سبيل الاتحاد والتوطد. ومع أن هذه الخطوات لم تكن دائماً ثابتة الأثر، فإنها كانت تعمل بمضي الزمن على توحيد قوى الممالك النصرانية لمواجهة العدو المشترك أعني إسبانيا المسلمة. وكانت قشتالة تعمل باستمرار لضم مملكة ليون إليها، وقد نجحت غير مرة في تحقيق مشروعها بالعنف لمدى قصير. وكانت أراجون تنوق إلى ضم إمارة قطلونية التي كانت تحجبها عن البحر، وكانت المملكتان تعملان معاً للقضاء على مملكة نافار الصغيرة، وقد ائتمرتا بالفعل على اقتسامها بالعنف، فاستولت قشتالة على القسم المحاذي لنهر إيبرو، واستولت أراجون على القسم الواقع على جبال البرنيه، وبذلك اختفت مملكة نافار مدى حين (١٠٧٦ م). ولكن هذه المملكة الصغيرة الباسلة عادت فاستردت استقلالها بعد ذلك بنحو ستين عاماً. وذلك أنه حينما توفي ألفونسو المحارب ملك أراجون وتولى الملك مكانه أخوه الراهب راميرو سنة ١١٣٤ م، رفع النافاريون على العرش أميراً من سلالة ملوكهم القدماء هو غرسية راميرس، وانفصلت نافار بذلك عن أراجون وقشتالة، واستأنفت حياتها المستقلة خفية أخرى. ولكن أراجون وقطلونية أتيح لهما أن يتحددا غير بعيد في مملكة موحدة، وذلك أن ريمون برنجير أمير قطلونية تزوج بترونلا ابنة راميرو ملك أراجون، ولما توفي راميرو دون عقب تولى ريمون برنجير أيضاً ملك أراجون واتحدت المملكتان تحت تاج واحد، وقامت مملكة أراجون الكبيرة من ذلك الحين (١١٣٧ م)^(٢)

كانت الممالك الإسبانية النصرانية خلال القرن الثاني عشر خمساً، هي قشتالة

(١) سبق أن فصلنا تاريخ إمارة قطلونية وحكامها من آل برنجير، في كتابنا «عصر المرابطين والموحدين» - القسم الأول - ص ٤٩٩ - ٥٠٢.

(٢) ذكرنا تفاصيل اتحاد قطلونية وأراجون في «عصر المرابطين والموحدين» - القسم

الأول ص ٤٩٨ و ٥١٠.

وليون وأراجون ونافار والبرتغال ، وكانت البرتغال قبل ذلك ولاية من ولايات جليقية أو إمارة تخضع لها ، ولم تفز باستقلالها إلا في منتصف القرن الثاني عشر ، في عهد أول ملوكها المستقلين ألفونسو هنريكي^(١) . وكانت هذه الممالك النصرانية الخمس دائمة الخلاف والتنافس ، هذا فضلاً عما كان يعانيه كل منها من الثورات والحروب الداخلية حول وراثة العرش . بيد أن هذه الممالك المتنافسة ، كانت تجتمع دائماً تحت علم واحد هو علم النضال ضد اسبانيا المسلمة ، فرى جيوشها تجتمع متحدة في موقعة الزلاقة للقاء الجيوش الإسلامية المتحدة (٥٤٧٩ هـ - ١٠٨٦ م) . وبالرغم من أن جيوش قشتالة بقيادة ألفونسو الثامن ، لقيت بمفردها جيوش الموحيدين بقيادة يعقوب المنصور في موقعة الأرك الشهيرة (٥٥٩٣ هـ - ١١٩٥ م) ، وهي التي ظفر الموحدون فيها بالنصر الباهر ، فإنه لم تمض خمسة عشر عاماً أخرى ، حتى عادت اسبانيا النصرانية تشعر كلها بشعور واحد ، هو شعور الخطر المشترك إزاء العدو المشترك . ومن ثم فإنه لما نشبت موقعة العقاب (٦٠٩ هـ - ١٢١٢ م) وهي ثلاثة المواقع العظيمة الحاسمة بين الإسلام والنصرانية في اسبانيا منذ الزلاقة ، اجتمعت جيوش الممالك الاسبانية النصرانية كلها - قشتالة وأراجون ونافار - في قواتهم ، ومعهم أمداد كبيرة من ليون ومن البرتغال ، للقاء الجيوش للموحدية بقيادة محمد الناصر ولد يعقوب المنصور ، وفيها أصيب المسلمون بهزيمة مروعة ، كانت بدء الانحلال العام في قوى الموحيدين وقوى الأندلس . وهكذا كانت اسبانيا النصرانية تبدو إزاء اسبانيا المسلمة ، كلما جدّ الخطر ، موحدة الرأي والقوى . على أن الممالك النصرانية كانت تشعر فوق ذلك ، أن هذا التقسيم الجغرافي المتعدد يفت في قواها ، ولا يلائم مصالحها القومية . وكانت قشتالة وجارتها الشرقية أراجون ، هما أقوى الممالك النصرانية وأكبرهما رقعة ، وكانت كلتاها تطمح إلى التوسع وضم ما يليها من أراضي الممالك الصغرى ، فكانت أراجون تطمح بعد انضمام قطلونية إليها ، إلى انتزاع ولايات نافار المجاورة لها ، وكانت قشتالة تطمح إلى ضم قرينتها وجارتها القديمة ليون ، وإلى انتزاع ما بقي من ولايات نافار المجاورة لها ، وهي ولايات البشكنس ، وكانت إمارة البرتغال

(٢) تحدثنا تفصيلاً عن قيام مملكة البرتغال وملكها ألفونسو هنريكي في « عصر المرابطين والموحيدين » القسم الأول - ص ٥٢١ - ٥٢٨ . ويعرف ألفونسو هنريكي في الرواية العربية ، بابن الرتق أو ابن الرثك تحريفاً لهنريكي أو إنريكي الإسبانية .

الصغيرة الناشئة تدافع عن كيائها واستقلالها بصعوبة ، خلال هذه الأطماع المضطربة ، وقد استطاع ملك قشتالة القوى ألفونسو ريمونديس (١١١٧ - ١١٥٧ م) الذى تلقب بالقيصر ، أن يسط على اسبانيا النصرانية فى أواخر حكمه حماية عامة ، على أنه لم يحكم بالفعل سوى قشتالة وليون وجليقية .

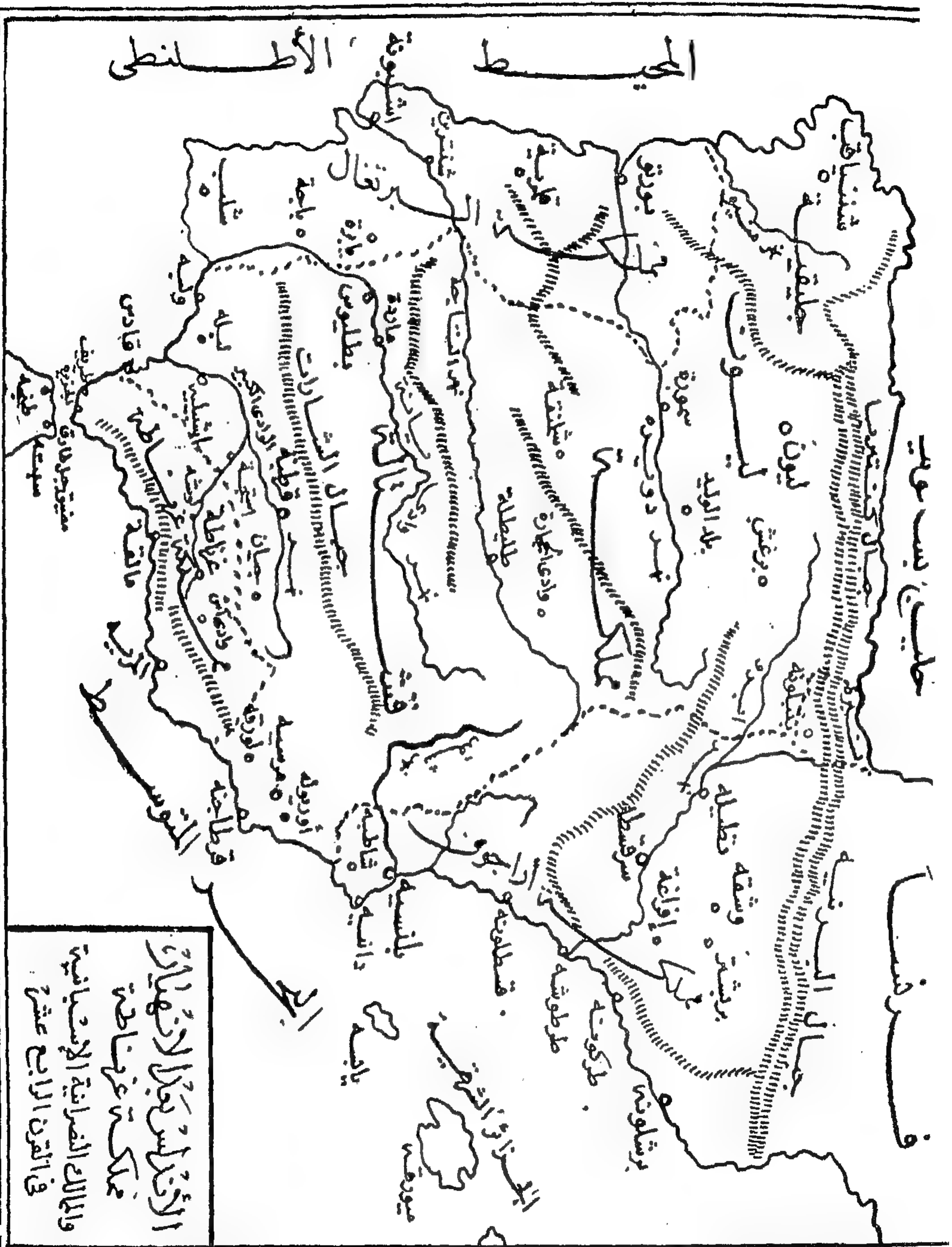
وفى أواخر القرن الثانى عشر ، عادت الحرب الأهلية تعصف بالممالك النصرانية ، وتضطرم بين نافار وبين قشتالة وأراجون . ونراها تضطرم عقب موقعة الأرك ، بين قشتالة وبين نافار وليون المتحالفين على قتالها . وكانت نافار المملكة الصغيرة الباسلة تدافع عن استقلالها إزاء أطماع جيرانها الأقوياء دفاعاً متواصلاً ، ولاسيما فى عهد ملكها سانشو السابع آخر ملوكها الأقوياء ، وكان سانشو ينظر إلى تحالف جارتيه قشتالة وأراجون بعين الخزع ، ويستشعر منه الخطر الداهم على ملكه واستقلال أمته ، ولم يكتف بالتحالف مع ليون وهى المملكة الصغيرة الأخرى التى تخشى على استقلالها من أطماع قشتالة ، بل حاول أن يستمد عون سلطان خليفة الموحدين الظاهر يعقوب المنصور ، وأن يعقد معه محالفة دفاعية ، وسار فى بطانته إلى إشبيلية محاول لقاءه ، ولكن الخليفة المنصور كان قد توفى فى ذلك الحين . ولما عاد سانشو ألتى جاريه القويين بيدرو الأول ملك أراجون وألفونسو الثامن ملك قشتالة ، قد انقضا فى غيابه على نافار محاولان اقتسامها ، وبالرغم مما أبداه النافاريون من الدفاع الباسل فقد استطاع ألفونسو أن ينتزع ولايات بسكونية وأن يضمها إلى مملكته (سنة ١٢٠٠ م) ، واستطاع بيدرو أن ينتزع بعض الأراضى المجاورة لأراجون ، ولم يبق من مملكة نافار القديمة سوى جزئها الشمالى . ولم تمض فترة قصيرة أخرى حتى ذهب هذا الجزء إلى حوزة حكام فرنسا الجنوبيين بطريق المصاهرة والوراثة (١٢٣٤ م) . وبذلك اختفت هذه المملكة الصغيرة الباسلة من بين ممالك اسبانيا النصرانية .

ولم يمض قليل على ذلك حتى اختفت مملكة ليون القديمة ، جارة قشتالة من الغرب . وذلك أنه لما توفى ألفونسو الثامن (النبيل) ملك قشتالة فى سنة ١٢١٤ م ، خلفه ولده الطفل هنرى ، وكانت كبرى بناته الأميرة برنجيريا قد تزوجت بألفونسو التاسع ملك ليون ، ثم طلقت منه بعد أن رزقت بعده أولاد أكبرهم فرناندو . وثار فى قشتالة مدى حين نزاع على وصاية الملك الطفل هنرى ، ثم توفى قبل أن يبلغ رشده قتيلاً فى حادث . وكان ألفونسو النبيل قد قرر فى وصيته أنه إذا انقرض

عقبه من الذكور ، فإن العرش يوثل عندئذ إلى ابنته الكبرى برنجيريا ثم إلى أعقابها الشرعيين ، وهكذا قدر لفرناندو ولد برنجيريا من ألفونسو التاسع ملك ليون ، أن يرقى عرش قشتالة باسم فرناندو الثالث ، وهو الذى غدا فيما بعد من أعظم ملوك قشتالة . ولما توفى أبوه ألفونسو التاسع ملك ليون وجليقية فى سنة ١٢٣٠ م ، خلفه أيضاً فى ملك ليون باعتباره وارث العرش الشرعى ، وبذلك اتحدت مملكتا قشتالة وليون تحت تاج واحد ، واختفت مملكة ليون وجليقية القديمة من عداد الممالك الإسبانية النصرانية ، وأضحت قشتالة بهذا الاتحاد أقوى الممالك الإسبانية ، وأوسعها رقعة وأغناها موارد ، واستطاع فرناندو الثالث بفضل أن يحرز التفوق على المسلمين ، وأن يفتح قواعد الأندلس العظيمة قرطبة وجيان وإشبيلية ، وهى التى عجز عن افتتاحها جميع أسلافه من الملوك النصارى .

وهكذا غدت الممالك الإسبانية النصرانية منذ أوائل القرن الثالث عشر ، ثلاثاً فقط ، هى قشتالة وأراجون والبرتغال ؛ وبينما قنعت البرتغال بالعمل على توطيد استقلالها وافتتاح الأراضى الإسلامية الواقعة فى جنوبها ، وهى التى تعرف بولاية الغرب ، إذا بقشتالة وأراجون تعملان معاً للمضى فى تحقيق الغاية القومية والدينية الكبرى ، التى تعمل لها اسبانيا النصرانية منذ قرون ، وهى القضاء على الدولة الإسلامية بالأندلس واستخلاص تراث الوطن القديم .

فى الوقت الذى انهارت فيه دولة الموحدين بالأندلس ، على أثر انهيارها فى المغرب ، وملك ابن هود مرسية وشرق الأندلس ، وغلب ابن الأحمر على بعض القواعد الجنوبية والوسطى ، مثل وادى آش وبسطة وجيان ، وغلب بعض الزعماء على إشبيلية وقواعد ولاية الغرب ، وأخذ هؤلاء الزعماء المسلمون يتربص بعضهم ببعض ويحاول كل منهم أن ينتزع ما فى يد الآخر من القواعد والحصون ، شعرت مملكة قشتالة المتحدة القوية بأن الفرصة قد سنحت لتسديد ضربتها المميتة إلى الأندلس وبإدار ملكها فرناندو الثالث بغزو الأراضى الإسلامية . وكانت معظم القواعد والحصون المتاخمة لقشتالة دون دفاع يذكر ، فافتتح عدداً من الحصون واستولى على مدينة ألبدة فى سنة ١٢٣٢ م (٦٣١ هـ) . وفى أوائل سنة ١٢٣٣ م سار فرناندو لغزو قرطبة عاصمة الخلافة القديمة ، وكانت أثناء الحرب الأهلية قد انضوت تحت لواء ابن هود ونادت بطاعته ، وهاجم القشتاليون قصبتها الشرقية بشدة ، وضربوا



الأندلس بعد الانهيار
ممالك غزنافية
والملك النصرية الإسلامية
في القرن الرابع عشر

حولها الحصار ، وكان ابن هود يضع خططه يومئذ لغزو بلنسية وقد وصله عندئذ صريخ أميرها زيان حينما هاجمه خايمي ملك أراجون ، فلم يشأ لإنجاد المدينة المحصورة بالرعم من مسيره إليها ، خصوصاً وقد علم أن النصارى هاجموا بقوات كبيرة ، فترك قرطبة لمصيرها ، ودافع أهل قرطبة عن مدينتهم أعظم دفاع ، واشتبكوا مع النصارى خارج المدينة وفي داخلها في عدة معارك دموية شديدة ، ولكن هذه البسالة لم تغن شيئاً ، وسقطت عاصمة الأندلس القديمة ، ودخلها القشتاليون في ٢٩ يونيه سنة ١٢٣٦ م (٢٣ شوال سنة ٦٣٣ هـ) ورفعوا الصليب في الحال فوق مسجدها الجامع تنوياً بظفر النصرانية ، وكان سقوط قرطبة نذيراً بما انتهت إليه الأندلس من بالغ الضعف والقوضى .

ولما اشتدت الحرب الأهلية بين المسلمين في شرقي الأندلس ، بعث فرناندو الثالث ولده ألفونسو إلى مرسية ، واستولى عليها صلحاً في سنة ١٢٤٣ م (٦٤٠ هـ) . ثم التفت إلى إمارة غرناطة الناشئة التي أخذت تنمو ويشتهد ساعدها في ظل ابن الأحمر فانتزع منها حصن أرجونة وعدة حصون أخرى ، ووصلت قواته إلى أحواز غرناطة ، ثم أرسل جيشه لمحاصرة جيّان في العام التالي (سنة ١٢٤٥ م) ، وشعر ابن الأحمر أنه عاجز عن صد هذا السيل الجارف ، فاضطر إلى عقد الصلح والانصواء تحت حماية ملك قشتالة حسبما فصلنا من قبل ، وبلغ فرناندو الثالث بذلك ذروة القوة والسلطان ، وأضحت الأندلس الجنوبية كلها تحت حمايته ورهن مشيئته .

وأخذ فرناندو في الوقت نفسه يتأهب لافتتاح إشبيلية أعظم قواعد الأندلس ، وفي سنة ١٢٤٧ م (٦٤٤ هـ) بث قواته في أحواز إشبيلية فاستولت على معظم الحصون القريبة منها ، وسير فرناندو في الوقت نفسه أسطولاً في مياه الوادي الكبير لكي يحول دون وصول الأمداد والمؤن إلى المدينة من ناحية البحر ، وكان يتولى الدفاع عن إشبيلية نفر من الزعماء البواسل . وأبدى المسلمون إصراراً وجلداً في الدفاع عن مدينتهم ، ولكن النصارى أحكموا حصارها ، واستمر الحصار طول الشتاء ، ثم حشد فرناندو في العام التالي حولها قوات جديدة ، وسارع إلى نجده كثير من المتطوعة النصارى من أراجون والبرتغال ومنهم كثير من الأحرار والرهبان ، واضطر ابن الأحمر صاحب غرناطة إلى معاونة حليفه وحاميه فرناندو ببعض قواته ، وذلك كله حسبما فصلناه من قبل . وفي النهاية اضطرت الحاضرة

الإسلامية الكبيرة إلى التسليم ، ودخلها النصارى فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٢٤٨ م (أوائل رمضان سنة ٦٤٦ هـ) ، وفى الحال حولوا مسجدھا الجامع إلى كنيسة جرياً على سنتهم ، وبذلك وقعت معظم القواعد الإسلامية الكبرى فى يد النصارى ، ولاح شبح الفناء للأندلس واضحاً منذراً .

وتوفى فرناندو الثالث فى مايو سنة ١٢٥٢ م ، بعد أن حكم قشتالة خمسة وثلاثين عاماً ، ودفن فى إشبيلية آخر فتوحه ، وقد غدت منذ افتتاحها عاصمة لقشتالة مكان طليطلة ؛ وقد أسبغت عليه فيما بعد صفة القداسة ، فسمى بسان فرناندو (القديس فرناندو) وذلك تنويهاً بما تم على يديه من ظفر عظيم للنصرانية .

* * *

وأما مملكة أراجون فقد تخلفت حيناً عن قرينتها قشتالة فى مناهضة المسلمين ، وكان ملكها بيدرو الثانى ، الذى خلف أباه ألفونسو على العرش فى سنة ١١٩٦ م ، أميراً وافر الشجاعة والفروسة ، ولكنه شغل بتنظيم شئون مملكته الداخلية ومقاومة سلطان الأشراف ، ثم حجج إلى رومة ليتلقى تاجه من يد البابا . ولما عاد إلى أراجون شغل حيناً بمحاربة الألبين وغيرهم من الملاحدة فى جنوب فرنسا ، وتوفى قتيلاً فى إحدى المعارك (سنة ١٢٢٤ م) . فخلفه ولده خايمى (يعقوب) طفلاً بالرغم من معارضة عمه سانشو وفرناندو ، وثار من جراء ذلك فى أراجون حرب أهلية استمرت عدة أعوام ، ولكنها انتهت بفوز خايمى وحزبه على الثوار ، فعاد إلى الجلوس على العرش دون منازع وذلك فى سنة ١٢٢٧ م .

وما كاد خايمى^(١) يستقر فى عرشه ، حتى اعتزم أن ينزل ميدان الحرب ضد المسلمين ، وأن يحاول الفوز بنصيبه من الأراضى الأندلسية ، فبدأ بغزو الجزائر الشرقية (جزائر البليار) القريبة من شواطئ أراجون ، وسير إليها فى سنة ١٢٢٩ م (٦٢٦ هـ) حملة بحرية قوية . وكانت ميورقة وباقي الجزائر الشرقية يومئذ تابعة لإمارة بلنسية التى يسيطر عليها الأمير أبو جميل زيان بن مدافع بن مردنيش ، وبحكمها من قبله أبو يحيى بن يحيى أو محمد بن على بن موسى وفق رواية أخرى ، فنزل النصارى إلى الجزيرة ، ولكنهم لقوا داخلها مقاومة عنيفة ، ودافع المسلمون

(١) خايمى وبالإسبانية Jaime ، تكتب أحياناً فى الرواية العربية « جايمس » (ابن الخطيب : الإحاطة ج ١ ص ٥٤٨ و ٥٥٩ و ٥٧٢ ، واللمحة البدرية ص ٨٣ و ١٠٧) . ورأيناها فى كثير من الوثائق العربية المحفوظة بمحفوظات أراجون تكتب هكذا : دون جيبي ، دون جقيى ، دون جاقمة .

عن جزيرتهم بمنتهى الشدة والبسالة ، ولكنهم اضطروا في النهاية إلى التسليم (صفر سنة ٦٢٧ هـ) . ومع ذلك فقد استمرت المقاومة في شعب الجزيرة بعد ذلك حيناً ، واضطر نخايي أن يعود إليها مرتين حتى أتم إخضاعها في سنة ١٢٣٣ م ؛ وسلمت منورقة وهي ثانية الجزائر للنصارى بعد ذلك ببضع سنين (١) .

وما كاد ملك أراجون يستولى على جزيرة ميورقة حتى وجه عنايته إلى فتح بلنسية ، وسار إلى غزوها في جيش ضخم في سنة ١٢٣٨ م ، (رمضان سنة ٦٣٥ هـ) واستطاع أن ينتزع الحصون الواقعة حولها تباعاً . وكانت بلنسية قد سادها الاضطراب والفوضى من جراء الحرب الأهلية ، ومع ذلك فقد تأهبت بقيادة أميرها أبي جميل زيان لمقاومة النصارى ، وطوق النصارى المدينة من البر والبحر ، وبعث الأمير أبو جميل وزيره وكتابه ابن الأبتار القضاعي إلى أمير إفريقية (تونس) أبي زكريا الحفصي يستغيث به ، وألقى ابن الأبتار بين يديه قصيدته الشهيرة التي مطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلساً إن السبيل إلى منجاتها درسا

وبادر الأمير أبو زكريا بإغاثة بلنسية : وبعث إليهم بعض الأمداد والمؤن في عدة سفن ، ولكنها لم توفق إلى الاتصال بالمدينة المحصورة ؛ واستمر الحصار أشهراً واشتد الكرب بالمسلمين ، وضاعف النصارى هجماتهم حتى اضطرت المدينة المحصورة في النهاية إلى التسليم بشرط أن يؤمن أهلها في النفس والمال ، وأن يغادرها من شاء منهم ؛ وكان سقوط بلنسية في يد النصارى في ٢٨ سبتمبر سنة ١٢٣٨ م (١٧ صفر سنة ٦٣٦ هـ) .

وعلى أثر سقوط بلنسية تابع نخايي غزواته لباقي الأراضي الإسلامية المجاورة لها ، واستولى على دانية ولقنت في سنة ١٢٤٤ م (٦٤١ هـ) . ثم استولى على شاطبة وأوريولة في سنة ١٢٤٦ م (آخر سنة ٦٤٤ هـ) . وقرر نخايي أن يجلي جميع السكان المسلمين عن الأراضي التي تم افتتاحها ، فهرعت منهم جموع غفيرة إلى مملكة غرناطة حتى ضاقت بسكانها ، وهاجر الكثير منهم إلى إفريقية ،

(١) تناولنا فتح الأراجونيين للجزائر الشرقية تفصيلاً في « عصر المرابطين والموحدين »
القسم الثاني ص ٤٠٢ - ٤٠٩ .

وأخذت القواعد والثغور الإسلامية القديمة تتحول تباعا إلى مدن نصرانية ،
وأخذت الكثرة المسلمة تتحول بسرعة إلى أقلية من المدجنين ، تعيش في ظل الحكم
الإسباني في ذلة وخضوع .

وعنى خايي بعد ذلك بإصلاح الشؤون الداخلية ، وتمت في عهده عدة
إصلاحات تشريعية خطيرة . ووضع مشروعا لتقسيم المملكة بعد وفاته بين أولاده
الأربعة ، ولكنه لم يتحقق لوفاة أكبر أولاده ألفونسو ، ولما أثاره من اضطراب
في أنحاء المملكة . وتوفي خايي بعد حكم طويل حافل في سنة ١٢٧٤ م ، وقد
أسبغت عليه فتوحاته في الأراضي الإسلامية لقب « الفاتح » .

الفصل السادس

مملكة غرناطة عقب وفاة ابن الأحمر

وعصر الجهاد المشترك بين بني الأحمر وبني مرين

ولاية محمد الفقيه . تربص النصارى بالأندلس . بنو مرين ومبدأ أمرهم . القتال بينهم وبين الموحدين . ولاية أبي يحيى المريني . ولاية أبي يوسف يعقوب . انهيار دولة الموحدين . استغاثة الأندلس ببني مرين . استجابة السلطان أبي يوسف لصريخ الأندلس . إرساله حملة إلى الأندلس ثم عبوره إليها . موقف بني أشقيلولة . غزو أبي يوسف لبسائط الفرنتيرة . موقعة إستجة وغزوات أبي يوسف . عوده إلى المغرب . توجس ابن الأحمر وعتابه لأبي يوسف . عبور أبي يوسف إلى الأندلس للمرة الثانية . توغله في أراضي النصارى . اللقاء بينه وبين ابن الأحمر . استيلاء ابن الأحمر على مالقة . تفاهمه مع ملك قشتالة . انتصار المغاربة في البحر . زحفهم على مربلة . القتال بينهم وبين ابن الأحمر . توجس أبي يوسف من المواقب . عود التفاهم بينه وبين ابن الأحمر . أثر غرناطة وبني مرين في شئون قشتالة . ألفونسو العالم ملك قشتالة . ثورة ولده سانشو عليه . التجاوزه إلى السلطان أبي يوسف المنصور . حبه والمنصور لنصرتة وغزوه لأراضي قشتالة . تفاهم ابن الأحمر مع سانشو . عود التفاهم بين ابن الأحمر والمنصور . توجس ابن الأحمر من المغاربة . عبور المنصور إلى الأندلس للمرة الرابعة . غزواته في أرض النصارى . سانشو ملك قشتالة يذعن للصلح . خطة مشيخة الغزاة . وفاة المنصور وولاية ولده أبي يعقوب . خروج أبي الحسن بن أشقيلولة في وادي آش . استرداد ابن الأحمر لوادي آش . إغارة ملك قشتالة على أراضي الأندلس . سير الجيوش المغربية إلى الأندلس . هزيمة المغاربة في البحر . عبور السلطان أبي يعقوب إلى الأندلس . غزوه لأراضي النصارى . توجس ابن الأحمر من نيات أبي يعقوب وتفاهمه مع ملك قشتالة . انتزاع سانشو لطريف من المغاربة . نكثه لعهوده لابن الأحمر . سعيه للتفاهم مع أبي يعقوب وعبوره إلى المغرب . معاهدة تحالف بين غرناطة وأراجون . وفاة ابن الأحمر وخلاله . ولاية محمد الملقب بالملخوع . غلبة وزيره ابن الحكيم عليه . اضطراب العلائق بين محمد والسلطان أبي يعقوب . استيلاء محمد على سبتة . مصرع أبي يعقوب . زحف عثمان بن أبي العلاء على المغرب . ولاية السلطان أبي ثابت لعرش المغرب . مسيره إلى الشمال ووفاته . ولاية السلطان أبي الربيع . هزيمة الأندلسيين ومقتل عثمان . الثورة في غرناطة . اضطراب الأحوال في عهد نصر . غزو القشتاليين لأرض الأندلس . مشروع فرناندو لغزو جبل طارق . حصار ألمرية وهزيمة النصارى . سقوط جبل طارق . الصلح بين ملك غرناطة وبني مرين . مصانعة نصر لملك قشتالة . تعهده بأداء الجزية . الثورة في غرناطة . هزيمة نصر وعزله .

لما توفي محمد بن الأحمر مؤسس مملكة غرناطة، خلفه في الملك ولده وولي عهده أبو عبد الله محمد بن محمد بن يوسف الملقب بالفقيه لعلمه وتقواه . وكان مولده بـغرناطة سنة ٥٣٣ هـ (١٢٣٥ م) . وهو الذي رتب رسوم الملك للدولة النصرية ،

ووضع ألقاب خدمتها ، ونظم دواوينها وجبايتها ، ونخلع عليها بذلك صفتها الملوكية الزاهية . وكان يتمتع بكثير من الخلال الحسنة ، من قوة العزم ، وبعد المهمة وسعة الأفق ، والبراعة السياسية . وكان عالماً أديباً يقرض الشعر ، ويؤثر مجالس العلماء ، والأدباء^(١). ولأول عهده نشط ملك قشتالة ألفونسو العاشر الملقب بالعالم أو الحكيم إلى محاربة المسلمين ، وكان مثل أبيه فرناندو الثالث ، يرى أن دولة الإسلام بالأندلس قد دنت نهايتها ، ويتربص الفرصة بالمملكة الإسلامية الفتية ، ويحاول أن يعمل كأبيه للقضاء عليها قبل استفحال أمرها . ولم يكن ملك غرناطة بغافل عن الخطر الذي يهدده من مشاريع قشتالة . وكان محمد بن الأحمر قد أوصى ولده بالحرص على مخالفة بني مرّين ، ملوك العدو والاستنجد بهم كلما لاح شبح الخطر الداهم^(٢). وكان بنو مرّين وهم الذين استولوا على ملك الموحدين بعد ذهاب دولتهم ، يومئذ في عنفوان قوتهم ، وكانت مملكتهم الفتية ، تشغل في نظر الأندلس ونظر إسبانيا النصرانية ، نفس الفراغ الذي تركه ذهاب دولة المرابطين ثم دولة الموحدين ، وكان من الطبيعي أن تؤدي هذه الدولة الجديدة في ميدان السياسة والحرب نحو الجزيرة الإسبانية ، نفس الدور الذي أدته المملكتان المغربيتان الداهبتان .

وبنو مرّين بطن من بطون قبيلة زناتة البربرية الشهيرة ، التي ينتمي إليها عدة من القبائل التي لعبت أدواراً بارزة في تاريخ المغرب ، مثل مغراوة ومغيلة ومديونة وجراوة وعبد الواد وغيرهم . ومع ذلك فإن بني مرّين يرجعون نسبهم إلى العرب المضرية ، وذلك بالانتساب إلى بر بن قيسر . عيلان بن مضر بن نزار . وجدهم الأعلى جرماط بن مرّين بن ورتاجي بن ماخوخ^(٣) . وكانت القبائل المرينية في بداية أمرها من العشائر البدوية المتنقلة ، تجول في صحارى المغرب الأوسط وهضابه وتسير نحو المغرب الأقصى أيام الصيف . وفي فاتحة القرن السابع الهجري ، نشبت الحرب بينهم وبين بني عبد الواد ، فتوغلوا في هضاب المغرب ، ونزلوا بوادي ملوية الواقع بين المغرب والصحراء وأقاموا هنالك حيناً . وكانت قوى الموحدين قد تضعفت منذ موقعة العقاب (٦٠٩ هـ)^(٤) ، وسرت إلى دولتهم عوامل

(١) الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٥٦٥ .

(٢) الذخيرة السنية ص ١٦٣ ؛ وابن خلدون ج ٧ ص ١٩١ .

(٣) الذخيرة السنية ص ١٠ و ١١ و ١٦ .

(٤) الذخيرة السنية ص ٥٢ و ٥٣ ؛ والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ٢ ص ٥٣ و ٥٤ .

التفكك والانحلال. ولما توفي ملكهم الناصر ، وهو المهزوم في موقعة العقاب ، سنة ٦١٠ هـ ، ولي بعده ولده يوسف المستنصر ، وكان فتي حدثاً ضعيف الهمة والخلال ، فأنكب على لهوه وساءت أمور المملكة وسرت إليها الفوضى . ففي تلك الآونة التي بدأ فيها ملك الموحدين يهتز في يد القدر ، نفذ بنو مرين إلى المغرب ، وتوغلوا في جنباته ، واشتبكوا مع الموحدين لأول مرة في سنة ٦١٣ هـ ، إذ حاول الملك المستنصر أن يقضى عليهم ، فأرسل جيوشه لقتالهم ولكنها هزمت ، ووصل بنو مرين إلى أحواز فاس ؛ وكان أمير بني مرين يومئذ أبو محمد عبد الحق بن خالد ابن محيو ، ولكنه قتل في بعض المواقع في سنة ٦١٤ هـ ، فخلفه في الإمارة ولده أبو سعيد عثمان ، واستمر يتقود قومه في ميدان النضال ضد الموحدين (١) .

وفي سنة ٦٣٩ هـ (١٢٤١ م) سير الرشيد خليفة الموحدين جيشاً لقتال بني مرين فهزم الموحدون هزيمة شديدة ، واستولى المريدون على معسكرهم . وتوفي الرشيد في العام التالي . فخلفه في الملك أخوه أبو الحسن السعيد ، واعزم أن يضاعف الجهد للقضاء على بني مرين ، فسير لقتالهم في سنة ٦٤٢ هـ (١٢٤٤ م) جيشاً ضخماً ونشبت بين الموحدين وبين بني مرين موقعة هائلة ، هزم فيها بنو مرين وقتل أميرهم أبو معروف محمد بن عبد الحق ، وكانت ضربة شديدة هدت من عزائمهم مدى حين . وتولى إمارة بني مرين بعد مقتل أبي معروف ، أخوه أبو بكر بن عبد الحق الملقب بأبي يحيى . وفي عهد اشتد ساعد بني مرين واستولوا على مكناسة (٦٤٣ هـ) ثم زحفوا على فاس واستولوا عليها بعد حصار شديد (٦٤٨ هـ - ١٢٥٠ م) . وكان سقوط فاس حاضرة المغرب القديمة ، أعظم ضربة أصابت دولة الموحدين ، وكان نذير الإنهيار النهائي . ثم استولوا على سجلماسة ودرعة (٦٥٥ هـ) . ولما توفي أبو يحيى سنة ٦٥٦ هـ ، تولى أخوه أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق من بعده رياسة بني مرين وجعل مدينة فاس حاضرة ملكه . وفي سنة ٦٥٧ هـ نشبت الحرب بين بني مرين وبين الأمير يغمراسن بن زيان ملك المغرب الأوسط وزعيم بني عبد الواد ، فهزم يغمراسن وارتد إلى تلمسان . وفي العام التالي (٦٥٨ هـ) هاجم النصاري (الإسبان) في سفنهم ثغر سلا فجأة ، وقتلوا وسبوا كثيراً من أهله ، فبادر أبو يوسف بإنجاده ، وحاصر النصاري بضعة أسابيع حتى جلوا عنه .

ثم كانت الموقعة الحاسمة بين الموحدين وبين بني مرين ، في أواخر سنة ٦٦٧ هـ

(١٢٦٩ م) سار الواصل بالله المعروف بأبي دبوس خليفة الموحدين من مراکش لقتال بني مرين ، والتقى الجمعان في وادي غفو بين فاس ومراكش ، فهزم الموحدون بعد معركة شديدة ، وقتل منهم عدد جرم في مقدمتهم الواصل ، واستولى أبو يوسف على معسكرهم وموئنتهم ونخراثهم ، ثم سار إلى مراکش فدخلها في التاسع من المحرم سنة ٦٦٨ هـ ، وتسمى بأمر المسلمين ، وبذلك انتهت دولة الموحدين في المغرب ، كما انتهت في الأندلس ، بعد أن عاشت زهاء قرن وثلاث قرن ، وقامت مكانها دولة بني مرين تسيطر على أنحاء المغرب الأقصى كله ، وتستقبل عهداً جديداً من القوة والسلطان (١) .

إلى تلك الدولة الجديدة الفتية ، كانت تتجه أنظار الأندلس كلما لاح لها شبح الخطر الداهم . وقد شاء القدر أن تلعب دولة بني مرين وريثة المرابطين والموحدين ، في حوادث الأندلس الداخلية والخارجية أعظم دور . ولم تفت مؤسس مملكة غرناطة أهمية التحالف مع بني مرين والاستئناس بهم ، فبعث قبيل وفاته بقليل حسبا رأينا إلى السلطان أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق الملقب بالمنصور يطلب إليه غوث الأندلس وإنجاده . وكان السلطان أبو يوسف حينما وصله صريح ابن الأحمر في سنة ٦٧٠ هـ يسير إلى غزو تلمسان ، فلما وقف من الرسل على حال الأندلس وما يهددها من الأخطار ، جمع أشياخ القبائل ، واتفق الجميع على وجوب إنجاد الأندلس والجهاد في سبيل الله ، وأرسل السلطان إلى الأمير يغمراسن صاحب تلمسان يعرض عليه عقد الصلح ، لكي يتمكن من العبور إلى الأندلس ، فأبى واقتتل الفريقان على مقربة من وجدة ، في شهر رجب سنة ٦٧٠ هـ (١٢٧٢ م) فهزم يغمراسن وفر جريحا (٢) ، وعاد أبو يوسف مظفراً إلى المغرب ، وهو يعتزم استجابة دعوة الأندلس وإنجاده .

على أنه مضى أكثر من عامين ، قبل أن تسنح له الفرصة المرجوة . فلما تولى محمد الفقيه ، أرسل عقب ولايته بقليل وفداً من أكابر الأندلس إلى ملك

(١) راجع في أصل بني مرين ونشأتهم ، الذخيرة السنية ص ١٠ و ١٦ و ٩٤ و ٩٩ و ١٢٣ و ١٢٤ ؛ والاستقصاء ج ٢ ص ١٣ و ١٤ ؛ وابن خلدون ج ٧ ص ١٦٦ - ١٨٠ . هذا وقد عثرنا في مكتبة مدريد الوطنية على قطعة صغيرة من مخطوطة عنوانها « ذكر الياقوتة الحلية في اللرية السعيدية المرينية المباركة العبدالحقية » وهي في أربعة عشرة صفحة تتناول نشأة بني مرين وسيرتهم حتى بداية السلطان أبي يوسف ، ولا يخرج ما ورد فيها عما قدمنا خلاصته .

(٢) الذخيرة السنية ص ١٤٨ ؛ والاستقصاء ج ٢ ص ١٦ .

المغرب يحمل إليه رسالة استغاثة مؤثرة ، فشرحوا له حال الأندلس من الضعف ونقص الأهبة ، وتكالب العدو القوي عليها ، واستصرخوه للغوث والجهاد ومما جاء في رسالة ابن الأحمر إلى أبي يوسف بعد الديباجة :

مرين جنود الله أكبر عصبه فهم في بني أعصارهم كالمواسم
مشنقة أسماهم لمسدائح مسورة إيمانهم بالصوارم
« تطول علينا بمعلوم حدك ومشهود جدك ، قد جعلك الله راحة تحي عيشها
بجيوشك السريعة ، ونخلفك سلماً إلى الخير وذريعة ، فقد تطاول العدو النصراني
على الإسلام ، واهتضم جناحه كل الإهتمام ، وقد استخلص قواعدها ، ومزق
بلدانها ، وقتل رجالها وسبي ذراريتها ونساءها ، وغنم أموالها . وقد جاء بإبراقه
وإرعاده ، وعدده وإيعاده ، وطلب منا أن نسلم له ما بقي بأيدينا من المنابر والصوامع
والمحاريب والجوامع ، ليقم بها الصليبان ، ويثبت بها الأقسمة والرهبان . وقد وطأ الله
لك ملكاً عظيماً شكرك الله على جهادك في سبيله ، وقيامك بحقه ، وإجهادك في نصر
دينه وتكميله ، ولديك من نية الخير ، فابعث باعث بعثك إلى نصر مناره ، واقتباس
نوره ، وعندك من جنود الله من يشتري الحنات بنفسه . فإن شئت الدنيا فالأندلس
قطوفها دانية ، وجنائها عالية ، وإن أردت الآخرة بها جهاد لا يفتر ، وهذه الحنة
ادخرها الله لظلال سيوفكم ، واحتمل معروفكم ، ونحن نستعين بالله العظيم
وبملائكته المسومين ، ثم بكم على الكافرين » (١) .

ثم تابعت رسل ابن الأحمر وبني أشقيلولة إلى السلطان أبي يوسف ، ينوهون
بالخطر الداهم الذي يهدد الأندلس ، ويلتمسون إليه المبادرة بالإسعاف والإمداد ،
فاستجاب السلطان أخيراً لدعوتهم ، وكتب إلى ابن الأحمر يطمئنه ، ويعرب عن
عزمه على الجواز إلى الأندلس في فاتحة سنة أربع وسبعين ، ومما جاء في رسالته :

« وإنا لنرجو أن نصلكم بنفوس صلح جهرها وسرها ، ونسقي بماء الثلج
واليقين غرها ، ونقدم عليكم بما يبسط نفوسكم ويسرها ، ويطلع لها الفرح من
المكارة ويذهب عسرها ، فلتطب نفوسكم برحمة الله وعونه ، ولتفرحوا بفضل
الله وصونه ، ونحن قادمون عليكم في إثر هذا إنشاء الله ، ووعدنا بوفاء يعين الله
على أعدائه » (٢) .

(١) راجع هذه الرسالة بأكملها في الذخيرة السنية ص ١٥٩ - ١٦١ .

(٢) راجع نص رسالة السلطان أبي يوسف بأكمله في الذخيرة السنية ص ١٦٢ و ١٦٣ .

وهكذا اعتزم السلطان أبو يوسف أن يؤدي رسالة المغرب التاريخية في إنجاد الأندلس ونصرتها ، وكان بنومرين في عنقوان دولتهم يجيشون بنزعة الجهاد الفتية . وخرج السلطان من فاس في رمضان سنة ٦٧٣هـ برسم الجهاد في الأندلس ، وأرسل للمرة الثانية إلى الأمير يغمُراسن صاحب تلمسان ، يعرض الصلح توحيداً للكلمة وتعصيماً للجهاد . فقبل يغمُراسن وتم الصلح . وبادر السلطان فجهز ولده أبازيان^(١) في خمسة آلاف مقاتل ، فعبر البحر من قصر الحجاز (قصر مصمودة) إلى الأندلس ، ونزل بثغر طريف في شهر ذي الحجة سنة ٦٧٣هـ (١٢٧٥ م) ، ونفذ إلى أرض النصرارى حتى شريش ، وعاث فيها وعاد مثقلاً بالسبي والغنائم ، وقدم إليه ابن هشام وزير ابن الأحمر ثغر الجزيرة فنزل فيه ، وجاز ابن هشام إلى العدو فلقى السلطان أبا يوسف في معسكره على مقربة من طنجة . وكان السلطان قد استكمل أهبته ، فعبر من قصر الحجاز إلى الأندلس في صفر سنة ٦٧٤هـ (يولييه ١٢٧٥ م) ، في جيش كثيف من البربر ، داعياً إلى الجهاد على سنة أسلافه المرابطين والموحدين . وكان أبو يوسف قد اشترط على ابن الأحمر حينما استنجد به ، أن ينزل له عن بعض الثغور والقواعد الساحلية ، لتنزل بها جنوده في الذهاب والإياب . فنزل له عن رندة وطريف والجزيرة ، ونزل أبو يوسف بجيشه في طريف ، وهرع ابن الأحمر وبنو أشقيلولة إلى لقائه ، واهزت الأندلس كلها لعبور ملك المغرب . ولكن ابن الأحمر ما لبث أن غادره مغضباً لما رأى من تدخله في شئون الأندلس بصورة مريبة . ذلك أن بنى أشقيلولة أصهار بنى الأحمر ، وفي مقدمتهم محمد بن أشقيلولة زعيم الأسرة وزوج أخت محمد بن الأحمر ، وأخوه أبو الحسن زوج ابنته ، كانوا يجيشون نحو عرش غرناطة بأطماع خفية . وكان أبو محمد ممتنعاً بمالقة مغاضباً لملك غرناطة حسباً قدمنا . فلما عبر أبو يوسف إلى الأندلس ، سار إليه وانصوى تحت لوائه ، ولم يفاجأ أبو يوسف في التوفيق بين ابن الأحمر وبين أصهاره ، ونخشي ابن الأحمر عاقبة هذا التحالف بين أصهاره وبين أبي يوسف ، فارتد إلى غرناطة حذراً متوجساً .

ونفذ السلطان أبو يوسف بجيشه إلى بسائط الفرنتيره^(٢) وكانت في يد النصرارى

(١) الذخيرة السنية ص ١٦٤ ، ولكن ابن خلدون يقول إن السلطان بعث الجند مع ولده منديل (ج ٧ ص ١١٩) ومنديل حفيد السلطان أبي يوسف .

(٢) الفرنتيره La Frontera هي السهل الواقع في غربي مثلث إسبانيا الجنوبي (الجزيرة) ويمتد من قادس جنوباً حتى طرف النار .

وعاث فيها . ثم توغل غازيا ينتسف الضياع والمروج ويسبي السكان ، حتى وصل إلى حصن المقورة وأبدة على مقربة من شرقي قرطبة . وعندئذ حول القشتاليون على لقائه دفاعا عن أراضيهم . وخرج القشتاليون في جيش ضخم ، تقدره الرواية الإسلامية بنحو تسعين ألف مقاتل^(١) ، وعلى رأسهم قائدهم الأشهر صهر ملك قشتالة الدون نونيو دى لارا ، الذى تسميه الرواية الإسلامية « دونونه أودننه أودنونه » . وكان أبو يوسف قد ارتد عندئذ بجيشه إلى ظاهر إستجة ، ومعه حشد عظيم من الغنائم والأسرى ، فأغلقت المدينة أبوابها ، واستعدت للقتال ، ووضع أبو يوسف الغنائم في ناحية تحت إمرة حرس خاص حتى لا تعيق حركاته ، وعقد لولده أنى يعقوب على مقدمته ، وخطب جنده وحثهم على الجهاد والموت في سبيل الله . ثم تقدم للملاقاة النصارى ، ومعه بعض قوات الأندلس برياسة بنى أشقيلولة . ووقع اللقاء بين المسلمين والنصارى ، على مقربة من إستجة جنوب غربى قرطبة ، في اليوم الخامس عشر من شهر ربيع الأول سنة ٦٧٤ هـ (٩ سبتمبر ١٢٧٥ م) ، فنشبت بين الفريقين معركة سريعة هائلة ، هزم النصارى على أثرها هزيمة شديدة ، وقتل قائدهم الدون نونيو دى لارا وعدة كبيرة منهم^(٢) . وكان نصراً عظيماً أعاد إلى الأذهان ، ذكريات موقعة الزلاقة وموقعة الأرك ، وكان أول نصر باهر يحرزه المسلمون على النصارى ، منذ موقعة العقاب ، ومنذ انهيار الدولة الإسلامية بالأندلس ، وسقوط قواعد العظيمة . وتبالغ الرواية الإسلامية في تقدير خسائر النصارى ، فتقول إنه قتل منهم في الموقعة ثمانية عشر ألفاً ، جمعت رؤوسهم وأذّن عليها المؤذن لصلاة العصر ، هذا في حين أنه وفقاً لقولها أيضاً ، لم يقتل من المسلمين سوى أربعة وعشرين رجلاً^(٣) .

وبعث السلطان أبو يوسف برأس دون نونيو إلى ابن الأحمر ، فقبل إنه بعثها بدوره إلى ملك قشتالة مضمخة بالطيب ، مصانعة له وتوددا إليه . وكتب أبو يوسف إلى العُدوة رسالة يشرح فيها حوادث الموقعة ، وما انتهت إليه من نصر باهر ، فقرئت على المنابر ، وكتب رسالة مماثلة إلى ابن الأحمر ، فرد عليه بالشكر والدعاء . ورفع

(١) الذخيرة السنية ص ١٦٩ و ١٧٠ .

(٢) ابن خلدون ج ٧ ص ١٩١ ؛ واللمحة البدرية ص ٤٤ ؛ والإحاطة ج ١ ص ٥٧٣ ؛ والذخيرة السنية ص ١٧٠ - ١٧٢ .

(٣) الذخيرة السنية ص ١٧٢ .

ابن أشقيلولة إلى أمير المسلمين أبي يوسف ، قصيدة يهنته فيها بالنصر وجاء فيها :

هبت بنصركم الرياح الأربع وسرت بسعدكم النجوم الطلع
وأنت لنصركم الملائك سيفاً حتى أضاق بها الفضاء الأوسع
واستبشر الفلك الأثير تيقناً أن الأمور إلى مرادك ترجع
وأمدك الرحمن بالفتح الذي ملأ البسيطة نوره المتشعشع

ولبت أبو يوسف بالجزيرة الخضراء بضعة أسبوع ، قسمت فيها الغنائم واستراحت الحند . ثم خرج للمرة الثانية في جمادى الأولى سنة ٦٧٤ هـ ، وتوغل غازياً في أراضي قشتالة حتى وصل إلى أحواز إشبيلية ، فأغلقت المدينة أبوابها . وعاث أبو يوسف في تلك الأنحاء ، ثم سار إلى شريش ف ضرب حولها الحصار ، فخرج إليه زعماء المدينة ورهبانها وطلبوا إليه الأمان والصلح ، فأجابهم إلى طلبهم وعاد إلى قواعده مثقلاً بالغنائم والسبي . وقضى بضعة أسابيع أخرى بالجزيرة الخضراء ، ثم عبر البحر إلى المغرب في أواخر شهر رجب ٦٧٤ هـ ، بعد أن قضى بالأندلس زهاء خمسة أشهر . على أن هذا النصر الباهر ، الذي أحرزه السلطان أبو يوسف المريني على النصارى ، لم يحدث أثره المنشود في بلاط الأندلس . ذلك أن محمد بن الأحمر ، جنح إلى الارتياح في نيات ملك المغرب ، وخصوصاً منذ أسبغ السلطان حمايته على بني أشقيلولة ، وغيرهم من الخوارج على ملك غرناطة ، ومثلت بذهنه مأساة الطوائف وغدر المرابطين بهم^(١) . وبعث ابن الأحمر إلى السلطان قبيل مغادرته الجزيرة ، يعاتبه على تصرفه في حقه بقصائد مؤثرة يستعطفه فيها ويستنصره ، والسلطان يجيبه عنها بقصائد مثلها . ومن ذلك قصيدة من نظم أبي عمران بن المرابط كاتب ابن الأحمر هذا مطلعها :

هل من معيني في الهوى أو منجدي من متهم في الأرض أو من منجد
هذا الهوى داع فهل من مسعف بإجابة وإنابة أو مسعد
ومنها في الاستغاثة :

أفلا تذوب قلوبكم لإخواننا مما دهانا من ردئ أو من ردى
أفلا تراعون الأذمة بيننا من حرمة ومحبة وتودد
أكذا يعيث الروم في إخوانكم وسيوفكم للشار لم تتقلد

يا حسرتي لحمية الإسلام قد خمدت وكانت من قبل ذا تتوقد
أبني مرين أنتم جيراننا وأحق من في صرخة بهم ابتدئ
أبني مرين والقبائل كلها في المغرب الأدنى لنا والأبعد
كتب الجهاد عليكم فتبادروا منه إلى القرض الأحق الأوكد
أنتم جيوش الله ملء فضائه تأسون للدين الغريب المفرد (١)

وفي أوائل سنة ٦٧٦ هـ توفي أبو محمد بن أشقيلولة صاحب مالقة ، فعبر ولده محمد إلى المغرب ونزل عنها للسلطان ، فبعث إليها السلطان حاكما من قبله ، فزاد ذلك في توجس ابن الأحمر ، وأرسل وزيره أبا سلطان عزيز الداني في بعض قواته إلى مالقة ، ليحاول الاستيلاء عليها ، فلم يوفق . ولم تمض أشهر قلائل على ذلك حتى عبر السلطان أبو يوسف المنصور البحر إلى الأندلس للمرة الثانية في سنة ٦٧٧ هـ (١٢٧٨ م) ، ونزل بمالقة فاحتفل به أهلها ، ثم توغل بجيشه في أرض النصارى يعيث فيها ، ومعه بنو أشقيلولة في جندهم ، حتى أحواز إشبيلية . واجتنب القشتاليون لقاءه . ثم دعا ابن الأحمر إلى لقائه ، فوافاه عند قرطبة والريب يملأ نفسه ، وتبادل الملكان عبارات العتاب والتعاطف ، ولكن ابن الأحمر لم تطمئن نفسه ، وعاد السلطان إلى المغرب دون أن تصفو القلوب .

وزاد توجس ابن الأحمر لحوادث مالقة وانحيازها إلى السلطان ، وجمال بخاطره أن التفاهم مع ملك قشتالة خير وأبقى . وفي أواخر سنة ٦٧٧ هـ استطاع ابن الأحمر أن يستولي أخيراً على مالقة ، وذلك بإغراء صاحبها بالنزول عنها ، والاستعاضة بالمنكب وشلوبانية (٢) . ثم سعى إلى التفاهم مع ملك قشتالة والتحالف معه ، على منع السلطان المنصور من العبور إلى الأندلس . ونزلت القوات القشتالية بالفعل في الجزيرة . وكاتب ابن الأحمر أيضاً الأمير يغمُراسن ملك المغرب الأوسط ، ونخضم السلطان المنصور ، يسأله العون والتحالف . وعلم المنصور بذلك فأراد العبور توا إلى

(١) نقل إلينا ابن خلدون هذه القصيدة بأكملها (ج ٧ ص ١٩٨ - ٢٠٠) وفيها كثير من المعاني التي وردت في مرثية أبي البقاء الرندي ، كما أشار إلى ردود السلطان أبي يوسف إشارة عابرة (ص ٢٠٠) .

(٢) المنكب ، وبالإسبانية *Almunecar* ، وشلوبانية وبالإسبانية *Salobrena* ، ثغران صغيران من ثغور مملكة غرناطة القديمة ، يقع كلاهما جنوبي غرناطة على البحر الأبيض المتوسط وتفصلهما عن بعضهما مسافة صغيرة .

الأندلس ، ولكن عاقته حوادث المغرب حيناً . وفي أوائل سنة ٦٧٨ هـ (١٢٧٩ م) بعث ولده الأمير أبا يعقوب إلى الأندلس في أسطول ضخم ، ونشبت بينه وبين أسطول النصارى المرباط شرق المضيق معركة هائلة ، هزم النصارى على أثرها واستولى المسلمون على سفنهم ، ونزلوا بالجزيرة ، فغادرها النصارى في الحال . وأراد الأمير أبو يعقوب أن يتبع نصره ، بعقد الصلح مع ملك قشتالة والتحالف معه على قتال ابن الأحمر ومهاجمة غرناطة ، فأنكر عليه أبوه السلطان ذلك ، ثم زحف جند المغرب على ثغر مريانة ، وهو من أملاك ابن الأحمر تريد الاستيلاء عليه ، فامتنع عليهم . وانتهز القشتاليون تلك الفرصة ، فزحفوا على غرناطة ومعهم بنو أشقيلولة ، فلقبهم ابن الأحمر وردهم على أعقابهم (٦٧٩ هـ) . بيد أنه بالرغم من هذا النصر المؤقت أخذ يشعر بدقة موقفه ، وخطورة القوى التي يواجهها ، سواء من جانب القشتاليين ، أو من جانب الجيوش المغربية ، التي استدعيت في الأصل لتكون له سنداً وغوثاً ، فانقلبت إلى مناوآته وقتاله . ومن جهة أخرى فقد كان السلطان المنصور يخشى عاقبة هذا التصرف على مصير المسلمين ، وعلى ذلك فقد بعث إلى ابن الأحمر في وجوب عقد المودة والتفاهم ، فلقى لديه مثل رغبته ، وبادر السلطان إلى عقد أواصر الصلح والتحالف بين المسلمين ، على أن ينزل ابن الأحمر عن مالقة للسلطان المنصور ، لتكون له قاعدة للعبور والغزو . وصفا جو العلائق على أثر ذلك بين ابن الأحمر وبنى مرين ، وشغل السلطان المنصور حيناً بمحاربة الخوارج عليه .

* * *

ولم يمض قليل على ذلك ، حتى عادت شئون الأندلس تستغرق اهتمام المنصور ، وكانت شئون الأندلس قد غدت في الواقع عنصراً بارزاً في سياسة بنى مرين ، وكانت مملكة غرناطة حتى في ذلك الوقت الذي انكمشت فيه الدولة الإسلامية في الأندلس ، تلعب دورها في شئون إسبانيا النصرانية كلما اضطربت فيها الحوادث . ولما سطع نجم الدولة المرينية فيما وراء البحر ، اتجه إليها اهتمام النصارى ، وكانت كلما وقعت في قشتالة حرب أهلية ، لجأ هذا الفريق أو ذاك إلى مؤازرة غرناطة أو بنى مرين ، على غرار ما كان يحدث في الماضي . ومن ذلك ما حدث في سنة ٦٦٩ هـ (١٢٧٠ م) من خزوج الإثفانت فيليب على أخيه ألفونسو العاشر مع جماعة من النبلاء ، والتجأهم إلى السلطان المنصور في طلب العون واستجابته

لدعوتهم ، واتخاذهم غرناطة قاعدة لجهودهم . وكادت تنشب من جراء ذلك حرب بين المسلمين والنصارى ، لولا تدخل قيولا ملكة قشتالة ، واسترضائها للخوارج بمختلف المنح . ولا بد لنا أن نذكر هنا أن القونسو العاشر ملك قشتالة هذا ، هو ألفونسو العالم أو الحكيم El Sabio ، وكانت له صلوات وثيقة بعلماء الأندلس ، ومنهم تلقى الكثير وتأثر بمناهجهم في التفكير والدرس . وقد وضع ألفونسو جداوله الفلكية الشهيرة المسماة بالجدول « الألفونسية » ، على يد جماعة من العلماء المسلمين واليهود



الملك ألفونسو العالم

والنصارى ، كما وضع تاريخاً عنوانه Crónica Gene al de España «تاريخ اسبانيا العام» وقد اعتمد فيه على مصادر عربية كثيرة . ومع أنه لا يخلو من كثير من الأساطير والروايات المغرقة ، فإنه يعتبر من أهم مصادر التاريخ الإسباني في العصور الوسطى . وكان ألفونسو العاشر يحب جيرانه المسلمين ، ويقدر علمهم ورفيع ثقافتهم ، وكان هذا من أسباب السخط عليه في مملكته . وكان من جراء اشتغاله بالعلوم والآداب ، في عصر لا تنهض الممالك فيه إلا بالحرب والسياسة ، أن اضطربت شئون المملكة .

وفي سنة ١٢٨٢م (أوائل ٦٨١ هـ) ثار عليه ولده سانشو وآزره معظم النبلاء ، واستطاع أن ينتزع العرش لنفسه . فاتجه أبوه الملك المخلوع إلى السلطان أبي يوسف المنصور ، وأرسل إليه بالمغرب وفدا من الأحرار يستمد منه الغوث والعون ضد ولده . فاستجاب السلطان لصريحه ، وعبر البحر في قواته إلى الأندلس في ربيع الثاني سنة ٦٨١ هـ ، وهرع ألفونسو إلى لقائه بمحلته بالجزيرة على مقربة من رندة ، مستجيراً به ، ملتسماً لنصبرته ، وقدم إليه تاجه رهناً لمعونته . فأمدده السلطان بمائة ألف من الذهب ، ليستعين بها على حشد الجند . قال ابن خلدون ، وقد رأى هذا التاج ببلاط بني مرين أيام أن كان في خدمتهم : « وبقي بيدهم فخراً للأعقاب لهذا العهد » (١) . وغزا أبو يوسف أراضي قشتالة وحاصر قرطبة ، ثم زحف على طليطلة ، وعاث في نواحيها ، ووصل في زحفه إلى حصن مجريط (٢) . وتحاشى ابن الأحمر في البداية لقاء السلطان لغتور العلائق بينهما ، ولتوجسه من مخالفته لألفونسو ، ورأى من جانبه أن يتفاهم مع سانشو ملك قشتالة الجديد ، وزحف على المنكب وهي من الثغور التي تحتلها قوات المغرب ، فغضب السلطان وارتد لقتاله . وكادت تنشب بين الملكين المسلمين فتنة مستطيرة ، لولا أن خشى ابن الأحمر العاقبة ، وعاد إلى التفاهم مع المنصور ، وصفا الحو بينهما نوعاً . وعاث المنصور في أراضي قشتالة مرة أخرى ، وغص جيشه بالنسي والغنائم ، ثم عاد إلى المغرب بعد أن ولى على الجزيرة حاكماً من قبله .

واستمرت الحرب الأهلية أثناء ذلك في قشتالة بين الإبن والأب ، ولبث هذا النضال الدموي زهاء عامين ، حتى توفي ألفونسو العاشر طريداً مهزوماً في سنة ١٢٨٤م (٦٨٣ هـ) ، فكان لوفاة وقع عميق في غرناطة والمغرب ، وأرسل كل من الملكين المسلمين عزاءه في الملك العالم المنكود إلى بلاط قشتالة . وكان موقف المملكتين الإسلاميتين غريباً إزاء حوادث قشتالة ، إذ كان ملك المغرب يوازر الملك المخلوع ، وكان ملك غرناطة بالرغم من عطفه على ألفونسو العاشر ، يوازر ولده الخارج عليه . والحقيقة أن ابن الأحمر كان يشهد تقاطر الجيوش البربرية إلى

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٢٠٥ ؛ والإحاطة ج ١ ص ٥٧٢ ؛ واللمعة البدرية ص ٤٣ ؛

وأزهار الرياض ج ١ ص ٦١ .

(٢) كانت محلة مجريط الإسلامية الحصينة تشغل موقفاً يقع بجوار موقع العاصمة الإسبانية

الحديثة مدريد .

الجزيرة الخضراء بعين الجزع ، ويتوجس شراً من وجودهم بها ، وقد كانوا يحتلون معاقلها وثغورها ، ويظاهرون الحوارج عليه في مألقة والمنكب وغيرهما من القواعد الجنوبية ، وكان يتوقع أسوأ العواقب من تدخل ملك المغرب في شئون الأندلس على هذا النحو ، وكان مثل المرابطين ومأساة الطوائف عبرة خالدة . تساوره دائماً ، وتذكى جزعه . على أن موت ألفونسو العاشر ، وانتهاء الحرب الأهلية في قشتالة ، خفف من هذا التوتر بين المملكتين . وكان ابن الأحمر يذكر في الوقت نفسه ، غدر ملك قشتالة ، وخطر النصارى على مملكته ، فيجئح بعد التأمل إلى إثارة التفاهم مع ملك المسلمين .

وفي صفر سنة ٦٨٤ هـ (١٢٨٥ م) عبر السلطان المنصور إلى الأندلس للمرة الرابعة ، وزحف على أراضي النصارى ، وغزا مدينة شريش ، وسار ولده أبو يعقوب إلى أحواز إشبيلية فعاث فيها . ثم زحف المنصور على قرمونة والوادي الكبير ، وخرّب جنده بسائط إشبيلية ولبلّة وإستجة والفرنثيرة . وسرّ ابن الأحمر لاجتياح أراضي قشتالة على هذا النحو ، وبعث إلى السلطان مدداً من غرناطة ، وجاءت الأساطيل المغربية ، فطاردت أساطيل العدو في مياه المضيق واحتلته . ورأى سانشو ملك قشتالة تفاقم الأمر وعقم المقاومة ، فجئح إلى طلب السلم ، وبعث إلى السلطان وفداً من الأحرار يطلب الصلح ، ويفوض السلطان في اشتراط ما يراه ، فاستجاب السلطان لرغبتهم ، واشترط عليهم مسالمة المسلمين كافة ، وأن يمتنع النصارى عن كل اعتداء على الأندلس ، وعلى أراضي المسلمين ومرافقهم ، وأن ترفع الضريبة عن التجار المسلمين بدار الحرب (بلاد الأعداء) ، وأن تنبذ قشتالة سياسة الدس بين الأمراء المسلمين ، فقبل النصارى جميع الشروط المطلوبة ، وتعهدوا بتنفيذها . وقدم سانشو بنفسه إلى معسكر السلطان ، فاستقبله المنصور بحفاوة ، وقدم إليه طائفة من الهدايا ، وتعهد سانشو بتحقيق شروط الصلح كاملة . وسأله السلطان أن يرسل إليه قدراً من الكتب العربية ، التي استولى عليها النصارى من القواعد الأندلسية ، فأرسل إليه « ثلاثة عشر حملاً » منها ، وأرسلها السلطان إلى فاس ، فكانت نواة المكتبة السلطانية . واتخذ المنصور أهباته الأخيرة نحو شئون الأندلس ، وندب ابنه الأمير أبا زيان للنظر على الثغور الأندلسية ، وأوصاه ألا يتدخل في شئون ابن الأحمر . وكان من آثار التفاهم بين ابن الأحمر والمنصور ، أن أفسح ابن الأحمر لقرابة السلطان من بني مرين النازحين إلى الأندلس مجالاً

السلطان والنفوذ في بلاطه . وكان عدة من هؤلاء من خاصة الفرسان ومشاهير الغزاة ، فأُسند ابن الأحمر إليهم رئاسة الجند في منصب عرف في الخطط الغرناطية « بمشيخة الغزاة » ، ويحتله بالأخص رئيس من بني العلاء المرينيين يسمى « شيخ الغزاة » ، وتولى بنو العلاء قيادة الحيوش الأندلسية عصراً ، وكانت لهم في ميدان الحرب والجهاد مواقف مشكورة (١) .

ولابد لنا أن نذكر كلمة عن أصل مشيخة الغزاة هذه ، التي لبثت عصراً أهم المناصب العسكرية في مملكة غرناطة ، ولبثت في الوقت نفسه دهرأً وقفاً على القادة من بني مرين . وذلك أنه لما اتجه بنو الأحمر إلى الاستنجاد بإخوانهم فيما وراء البحر ، ملوك بني مرين ، جرياً على سنة الأندلس القديمة منذ عهد المرابطين ، استجاب لندائهم عاهل بني مرين السلطان أبو يوسف بن عبد الحق ، وعبرت إلى الأندلس النجيدات المرينية الأولى بقيادة أبي معرف محمد بن إدريس بن عبد الحق وأخيه عامر ، وهما من خاصة قرابة السلطان ، وانتزعت مدينة شريش من النصاري ، وذلك حسبما تقدم ذكره . وكان السلطان أبو يوسف يخشى من انتقاض فريق من القرابة وأبناء العمومة ، تجديداً للخصومة القديمة بين فرعي بني مرين الملكيين ، وهما بنو عسكر وبنو حماسة ، فلم يجد خيراً من إرسال من يخشى بأسهم من هؤلاء إلى الأندلس باسم الجهاد ، وكان ابن الأحمر يستقبلهم بترحاب ومودة ، فاجتمع لديه عدة من أولاد بني عبد الحق ، وكان ابن الأحمر يعقد لهم على قيادة الغزاة المجاهدين من زناتة ، وبني مرين . وكان أول من عقد له القيادة منهم ، موسى ابن رحو ، ثم عقد لأخيه عبد الحق ، ثم لغيرهما من القرابة (٢) وكان أول من استعملهم لقيادة الغزاة على هذا النحو السلطان محمد بن الأحمر الملقب بالفقيه . ثم توالى عبور هؤلاء القادة إلى الأندلس . وكان معظمهم من قرابة السلطان والخارجين عليه . وكان في مقدمة من نزع إلى شبه الجزيرة ، أبو العلاء ورحو ابنا عبد الحق ، وأولاد أبي يحيى بن عبد الحق وأولاد عثمان بن عبد الحق . واستقروا ، جميعاً بالأندلس في كنف سلطان غرناطة ، وكانوا يرجعون في رياستهم إلى كبيرهم عبد الله بن أبي العلاء . وعقد له ابن الأحمر محمد الفقيه على جند زناتة إلى أن هلك في إحدى الغزوات ضد النصاري وذلك في سنة ٦٩٣ هـ ، ثم عقد ابن الأحمر ،

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٢٠٩ و ٢١٠ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦٣٩ .

(٢) ابن خلدون في كتاب العبر ج ٧ ص ٣٦٧ و ٣٦٨ .

السلطان أبو عبد الله المخلوع ، القيادة لأخيه عثمان بن أبي العلاء على حامية مالقة وغريبها ، وكانت لنظر الرئيس أبي سعيد فرج بن إسماعيل . فلبث في منصبه إلى أن وقع الخلاف بين ساطان غرناطة وسلطان المغرب أبي يوسف المريني ، وقام عثمان بن أبي العلاء في ذلك بدور كبير ، سوف نأتى على تفاصيله في موضعه (١) .

وقفل السلطان المنصور راجعاً إلى الجزيرة ليستجيم ثم يعود إلى المغرب ، ولكن لم تمض أشهر قلائل حتى أدركه المرض ، وتوفى بالجزيرة في المحرم سنة ٦٨٥ هـ (مارس سنة ١٢٨٥ م) ، بعد حياة حافلة بصنوف الجهاد المستمر ، سواء بالمغرب أو الأندلس .

وكان السلطان أبو يوسف المنصور من أعظم ملوك المغرب قاطبة ، وكان يعيد بشغفه بالجهاد ، ووفرة جيوشه وأهبتة الحربية ، ذكرى أسلافه العظام ، من أمثال يوسف بن تاشفين ، وعبد المؤمن ، ويعقوب المنصور . وقد وصفه مؤرخ معاصر فيما يلي : « أبيض اللون ، تام القد ، معتدل الجسم ، حسن الوجه ، واسع المنكبين ، كامل اللحية ، معتدلاً ، أشيب ، كأن لحيته من بياضها قطعة ثلج ، سمح الوجه ، كريم اللقاء ، شديد الصفح ، كثير العفو ، حلماً ، متواضعاً شفیعاً كريماً ، سمحاً ، جواداً ، مظفراً ، منصور الراية » (٢) .

* * *

فمخلفه على عرش المغرب ولده الأمير أبو يعقوب ، وكان مثل أبيه معنياً بشئون الأندلس خبيراً بها . واستمرت علائق بلاط غرناطة وبني مرين أعواماً أخرى على حالها من المودة والصفاء ، وزادت توطداً حينما قبل سلطان المغرب ، أن ينزل لابن الأحمر طوعاً عن وادى آش . وذلك أن محمداً الفقيه كان قد عين صهره أبا إسحاق ابن أبي الحسن بن أشقيلولة حاكماً على قمارش ووادى آش ، فلما توفى أبو إسحاق سنة ٦٨٢ هـ استرد ابن الأحمر قمارش ، وخرج عليه أبو الحسن والد أبي إسحاق في وادى آش ، وتحالف أولاً مع قشتالة ، فلما عقد السلم بين المسلمين والنصارى ، أعلن أبو الحسن انضواءه تحت لواء ملك المغرب ، وأغضى ابن الأحمر حيناً عن تصرفه . فلما اتصلت وشائج المودة من جديد ، بينه وبين السلطان أبي يعقوب ، سأله التنازل عن وادى آش ، فأجابه إلى سؤله ، ورحل عنها الناصر أبو الحسن إلى المغرب .

(١) كتاب العبر ج ٧ ص ٣٧٠ - ٣٧٢ .

(٢) نقلنا هذا الوصف من المخطوط المعنون : « الياقوتة الحلية » الذى سبقت الإشارة إليه .

ملتجئاً إلى بلاط فاس . وبذا استطاع ابن الأحمر أن يبسط سلطانه على الأندلس كلها (١). وفي أوائل سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) أغار سانشو ملك قشتالة على الثغور الأندلسية ناكثاً لعهدده ، فأرسل السلطان أبو يعقوب إلى قائده على الثغور أن يغزو شريش وأرض النصارى ، فزحف عليها وعاث فيها . وأعلن أبو يعقوب الجهاد ، وتقاطرت بعوث المجاهدين إلى الأندلس ، فبعث سانشو أسطوله إلى مياه المضيق ليحول دون وصول الأمداد ، فبعث السلطان أسطوله لمهاجمة السفن القشتالية ، ونشبت بين المسلمين والنصارى معركة بحرية هزم فيها المسلمون (أغسطس سنة ١٢٩١ م) . ولكن هذه الهزيمة لم تثن ملك المغرب عن عزمه ، فبعث أسطولا آخر لمقاتلة النصارى ، وانسحب النصارى هذه المرة . وعبر السلطان أبو يعقوب إلى الأندلس في قواته في رمضان سنة ٦٩٠ هـ ، واقتحم أرض النصارى ، وغزا شريش ووصل في زحفه حتى أحواز إشبيلية وعاث فيها ، ثم عاد إلى الجزيرة ، وارتد عائداً إلى المغرب في أوائل سنة ٦٩١ هـ .

وتوجس ملك قشتالة من مشاريع سلطان المغرب ، فسعى إلى مخالفة ابن الأحمر وحذره من نيات المغاربة ، واستيلائهم على الثغور الأندلسية ، ولا سيما طريف ومدخل الجزيرة ، وتفاهم الملكان على انتزاع هذا الثغر من المغاربة ، واشترط ابن الأحمر أن تسلم إليه طريف عقب انتزاعها . وسير سانشو أسطوله إلى مياه المضيق ليحاصر طريف من ناحية البحر ، وليحول دون وصول الأمداد إليها . وعسكر ابن الأحمر في قواته بمالقة على مقربة منها ، يعاون النصارى بالأمداد والمؤن ، وصمدت حامية طريف أربعة أشهر ، ولكنها اضطرت في النهاية إلى التسليم للنصارى (سبتمبر سنة ١٢٩٢ م) . وهنا طالب ابن الأحمر سانشو بتسليمها فأبى وأعرض عنه ، مع أنه نزل له مقابلها عن عدد من الحصون الهامة ، فأدرك ملك غرناطة عندئذ خطأه في الركون إلى وعود ملك قشتالة ، وفي مغاضبة ملك المغرب حليفه الطبيعي ، وسنده المخلص في رد عدوان النصارى .

وعاد ابن الأحمر بخطب ود بني مرين مرة أخرى ، وأوفد ابن عمه الرئيس أبا سعيد فرج بن اسماعيل ووزيره أبا سلطان عزيز الداني على رأس وفد من كبراء الأندلس ، إلى السلطان أبي يعقوب في طلب المودة ، وتجديد العهد ، والاعتذار عن مسلكه في شأن طريف ، فأكرم السلطان وفادتهم ، وأجابهم إلى طلب الصلح .

ولما عاد الوفد الى غرناطة ، سُر ابن الأحمر من كرم السلطان ونبل مسلكه ، واعتزم الرحلة للقائه بنفسه ، وتأكيده المودة والاعتذار ؛ فعبر البحر إلى العدو في أواخر سنة ٦٩٢ هـ (١٢٩٢ م) ومعه طائفة من الهدايا الفخمة ، ونزل بطنجة حيث استقبله بعض أبناء السلطان ، ثم جاء السلطان بنفسه إلى طنجة ، وتلقاه بمنتهى الإكرام والخفاوة ، ونزل له ابن الأحمر عن الجزيرة ورندة وأراضي الغربية ، وعدة من الحصون كانت من قبل في طاعة ملك المغرب . وعاد ابن الأحمر مغتبطاً بنجاح مهمته ؛ وأرسل السلطان معه حملة لغزو طريف بقيادة وزيره عمر بن السعود ، فحاصرتها حيناً ولكنها لم تنظر بافتتاحها^(١) .

وكان لمحمد الفقيه ، بالرغم من سمته العلمية ، وقائع طيبة في ميدان الجهاد ضد النصاري . ففي المحرم سنة ٦٩٥ هـ (أواخر ١٢٩٥ م) على أثر وفاة سانشو ملك قشتالة ، زحف جيشه على أراضي قشتالة ، وغزا منطقة جيان ، ونازل مدينة قيجاطة^(٢) واستولى عليها ، وعلى عدة من الحصون التابعة لها ، وأسكن بها المسلمين . وفي صيف سنة ٦٩٩ هـ (١٢٩٩ م) ، غزا أراضي قشتالة مرة أخرى ، وزحف على مدينة القبذاق الواقعة جنوب غربي جيان ، ودخل قصبتها وتملكها ، وأسكن بها المسلمين^(٣) .

واستمر محمد بن محمد بن الأحمر أو محمد الفقيه في حكم غرناطة أعواماً أخرى ، وهو ثابت العهد مقيم على صداقة بني مرين . ومما هو جدير بالذكر أنه قبيل وفاته بقليل عقد معاهدة صلح وتحالف مع ملك أراجون خايمي الثاني ضد قشتالة ، وذلك تجديداً وتعديلاً لمعاهدة صلح سابقة عقدت بينهما في سنة ٦٩٥ هـ (١٢٩٩ م) . وقد نص في هذه المعاهدة الجديدة على عقد « صلح ثابت وصحبة صادقة » وأن يلتزم كل من الفريقين عدم الإضرار بالآخر على يد أحد من رعاياه ، وأن تكون أراجون معادية لأعداء غرناطة سواء من المسلمين أو قشتالة ، وأن يفتح بلد كل من الفريقين لمن يقصده من تجار البلد الآخر مؤمنين في أنفسهم وأموالهم ، وأخيراً يتعهد ملك غرناطة بمعاونة أراجون ضد ملك قشتالة ، وألا يعقد معه صلحاً إلا

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٢١٧ .

(٢) مدينة قيجاطة هي بالإسبانية *Querada* وتقع شمال شرق مدينة جيان ، وجنوب شرق مدينة أبدة . والقبذاق هي بالإسبانية *Alcaudete* .

(٣) الإحاطة في أخبار غرناطة ج ١ ص ٥٦٩ .

بموافقة حليفه ، ويتعهد ملك أراجون لسلطان غرناطة بمثل ما تقدم ، كما يتعهد السلطان بمعاونة حليفه بفرسان من عنده في أرض مرسية إذا احتاج إلى هذا العون ، وألا يعترض سلطان غرناطة على ما يأخذه ملك أراجون من أراضي قشتالة ، إلا المواضع التي كانت لغرناطة ، فهذه ترد إليها . وقد وقعت هذه المعاهدة في آخر ربيع الثاني سنة ٧٠١ هـ (٣١ ديسمبر سنة ١٣٠١ م)^(١) ، ولم يمض على عقدها بضعة أشهر حتى توفي السلطان في شعبان سنة ٧٠١ هـ (مايو سنة ١٣٠٢ م) بعد أن حكم أكثر من ثلاثين عاماً ، وقد زاد ملك بني الأحمر في عهده توطداً واستقراراً ، بالرغم مما توالى فيه من الأحداث والخطوب . وكان وزيره في أواخر عهده الكاتب والشاعر الكبير أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن الحكيم اللخمي وهو من مشايخ رندة ، وكان من قبل من كتابه في ديوان الإنشاء ، وكان رجلاً وافر العزم قوى الشكيمة ، ولقب بلدى الوزارتين لجمعه بين الكتابة والوزارة ، وكان لحزمه وقوة نفسه أكبر أثر في استقرار الأمور في هذا العهد^(٢) .

— ٢ —

ونخلف محمداً الفقيه ولده أبو عبد الله محمد الملقب بالخلوع ، وكان ضريباً ، وكان ذا نباهة وعزم ، عالماً شاعراً يؤثر مجالس العلماء والشعراء ، ويصفى إليهم ويجزل صلاتهم ، محباً للإصلاح والإنشاء . وكان بين منشأته المسجد الأعظم بالحمام ، فهو الذي أمر ببنائه على أبداع طراز ، وزوده بالعمد والنقوش والثريات الفخمة ، ولكنه لم يحسن تدبير شئون الملك والسياسة ، وغلب عليه كاتبه ووزيره ووزير أبيه من قبل أبو عبد الله محمد بن الحكيم اللخمي ، فاستبد بالأمر دونه وحجر عليه ، فاضطربت الأمور ، وأخذت عوامل الانتفاض تجتمع وتبدو في الأفق . وفي عهده القصير ، اضطربت علائق مملكة غرناطة وبني مرين مرة أخرى . والواقع أنه حاول في بداية عهده ، أن يعمل على إحكام المودة بينه وبين بني مرين ،

(١) حصلنا على صور فتوغرافية لأصل هذه الوثيقة وسائر الوثائق الأخرى التي تتضمن معاهدات أو مراسلات تبودلت بين ملوك غرناطة وملوك أراجون من دار المحفوظات ببرشلونة المسماة «محفوظات التاج الأراجوني» *Archivo de la Corona de Aragón* ، وتحفظ هذه الوثيقة بها برقم ١٤٨ . ومن جهة أخرى فقد نشر نصها في مجموعة الوثائق الدبلوماسية التي أصدرها : *R. O. de Linares و Alarcón : Los Documentos Arabes diplomaticos del Archivo de la Corona de Aragón (No. 3)*

(٢) يترجم له ابن الخطيب بإفاضة في الإحاطة ج ٢ ص ٢٧٨ وما بعدها (طبعة قديمة) .

فأرسل وزير أبيه أبا سلطان عزيز الداني ووزيره ابن الحكيم إلى سلطان المغرب ، ليجددا عهد المودة والصداقة ، فوفدا عليه وهو بمعسكره محاصراً لتلمسان ، فأكرم وفادتهما وطلب إليهما إمداده ببعض جنده الأندلس الخبراء في منازلة الحصون ، فأرسلت إليه قوة منهم أدت مهمتها أحسن أداء . ولاح أن أواصر المودة أضحت أشد ما يكون توثقاً بين الفريقين ، ولكن ابن الأحمر عرض له فجأة أن يعدل عن مخالفة سلطان المغرب ، وأن يعود إلى مخالفة ملك قشتالة ، فغضب السلطان أبو يعقوب لذلك ، ورد جنده الأندلس (٧٠٣ هـ) . وبدأ ابن الأحمر أعمال العدوان ، بأن أوعز إلى عمه وصهره الرئيس أبي سعيد فرج بن إسماعيل صاحب مالقة ، أن يحرض أهل سبتة في الضفة الأخرى من البحر ، على خلع طاعة السلطان ، واستعد ابن الأحمر في الوقت نفسه لمحاربة السلطان ، إذا عن له أن يعبر إلى الأندلس ، وجهاز الرئيس أبو سعيد حملة بحرية في مياه مالقة بحجة مدافعة النصاري ، ثم سيرها فجأة إلى سبتة ، وذلك في شوال سنة ٧٠٥ هـ (١٣٠٦ م) . وكانت الحملة بقيادة عثمان بن أبي العلاء المريني . فاستولت على سبتة ، وجاء الرئيس أبو سعيد فاستبد بأمرها ، وأعلن انصواءها تحت لواء ابن الأحمر ، وقبض على ابن العز في حاكمها بن قبل السلطان وآله ، وأرسل إلى غرناطة . ووقف السلطان أبو يعقوب على هذه الحوادث وهو تحت أسوار تلمسان ، فوجد لذلك الغدر ، وبعث حملة بقيادة ولده أبي سالم إلى سبتة فحاصرها حيناً ، ولكنه أخفق في الاستيلاء عليها وارتد أدراجها ، وخرج في إثره عثمان بن أبي العلاء في جنده الأندلس ، وعاث في أحواز سبتة وما جاورها (سنة ٧٠٦ هـ) .

وكان لتطور الحوادث على هذا النحو أسوأ وقع في نفس السلطان أبي يعقوب ، فاعتزم أن يسير بنفسه إلى استرداد سبتة ، ولكن حدث بينما كان يجرد في الأهبة أن اغتاله كبير الحصيان ، في مؤامرة دبرها الحصيان للتخلص منه خوفاً من أن يبطش بهم ، فتوفي قتيلاً في ذي القعدة سنة ٧٠٦ هـ (أبريل سنة ١٣٠٧ م) ، ونشبت عقب مصرع السلطان حرب أهلية حول العرش بين ولديه أبي ثابت وأبي سالم ، هزم فيها أبو سالم وقتل ، واستقر أبو ثابت على العرش .

وفي ذلك الحين كان عثمان بن أبي العلاء المريني ، يتوغل بجنده في شمال المغرب ، وكان هذا الجندى الجريء يتجه بأطماعه نحو عرش المغرب ، ويعتمد في تحقيق مشروعه على أنه سليل بني مرين . ولما توغل بجنده جنوباً ، دعا لنفسه بالملك

واستولى على بعض الحصون ، وأيدته بعض القبائل ، وهزم عساكر السلطان أبي يعقوب حينما تصدت لوقفه وانتهز فرصة مصرع السلطان ونشوب الحرب الأهلية بين ولديه ، فزاد إقداما وتوغلا واستفحل أمره ، ولاح الخطر مهدد ملك بني مرين . وما كاد السلطان أبو ثابت يستقر في عرش أبيه ، حتى اعتزم أمره للقضاء على تلك الحركة الخطيرة ، واسترداد سبتة ، فسار إلى الشمال على رأس جيش ضخم في شهر ذي الحجة سنة ٧٠٧ هـ ؛ ولما شعر عثمان بن أبي العلاء بوفرة قوته وأهبطته ، بادر بالفرار مع جنده خشية لقائه ، وزحف السلطان على الحصون الخارجية عليه فأثنى فيها واستولى عليها ، ثم سار إلى طنجة ؛ وامتنع عثمان بن أبي العلاء بقواته في سبتة ، فسار إليها السلطان وضرب حولها الحصار الصارم ، وأمر ببناء بلدة تيطاوين (تطوان) لنزول عسكره ، ولكنه مرض أثناء ذلك وتوفي في صفر سنة ٧٠٨ هـ (يولييه سنة ١٣٠٨ م) (١) .

فمخلفه في الملك أخوه السلطان سليمان أبو الربيع ، وارتد بالخييش إلى فاس تاركا سبتة لمصيرها . فخرج في أثره عثمان بن أبي العلاء في قواته ، ونشبت بين الفريقين معركة هزم فيها عثمان ، وقتل من الأندلسيين عدد جهم ؛ وخشى عثمان العاقبة فعاد مع آله إلى الأندلس ولحق بغرناطة ، وتابع السلطان أبو الربيع سيره إلى فاس واستقام له الأمر .

ولم تمض على ذلك أشهر قلائل حتى وقعت بالأندلس حوادث هامة . ذلك أن عوامل الإنتفاض التي لبثت بضعة أعوام تعمل عملها في ظل محمد المخلوع ، تمخضت في النهاية عن نشوب الثورة . وكان مدبرها ومثير ضرامها أخوه أبو الجيوش نصر بن محمد الفقيه ، ومن ورائه رهط من أكابر الدولة ، سثموا نظام الطغيان الذي فرضه محمد المخلوع ووزيره ابن الحكيم . واضطربت الثورة في يوم عيد الفطر سنة ٧٠٨ هـ (أوائل سنة ١٣٠٩ م) . ووثب الخوارج بالوزير ابن الحكيم فقتلوه ، واعتقلوا السلطان محمداً ، وأرغموه على التنازل عن العرش . وتربع أخوه نصر مكانه في الملك ، ونفى السلطان المخلوع إلى حصن المنكب ، حيث قضى خمسة أعوام في أصفاد الأسر ، ثم أعيد بعد ذلك مريضاً إلى غرناطة حيث توفي في سنة ٧١٣ هـ (٢) . ووقف سلطان المغرب على حوادث الأندلس ؛ وبلغه أن أهل سبتة قد سثموا

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٢٣٧ .

(٢) الإحاطة ج ١ ص ٥٥٢ - ٥٦٤ ، واللمحة البدرية ص ٤٨ - ٥٤ .

نير الأندلسيين ، فبعث إليها حملة بقيادة تاشفين بن يعقوب ، فلما وصلت إليها
ثار أهل البلد ، وطردها منها جند ابن الأحمر وعماله ، ودخلتها في الحال جند
المغرب واستولوا عليها ، وذلك في شهر صفر سنة ٧٠٩ هـ (يولييه ١٣٠٩ م) .
واغتبط السلطان لانتهاه هذه المغامرة التي شغلت بني مرين بضعة أعوام .
وكان سلطان غرناطة الحديدي يوم جلوسه قتي في الثالثة والعشرين من عمره ،
وكان ولوعاً بالآلهة والمظاهر الملوكية . وكان في الوقت نفسه أديباً عالماً بارعاً في
الرياضة والفلك ، وقد وضع جداول فلكية قيمة . ولكنه لم يحسن السيرة ، ولم
يوفق في تدبير الأمور . وسرعان ما سقط عليه الشعب كما سقط على أخيه من قبل .
فاضطربت الأحوال ، وتوالى الأزمات ، وكانت حوادث سببها نذيراً بتفاقم
التوتر بين بلاط غرناطة وبلاط فاس . ومن جهة أخرى فقد ساءت العلاقات بين
غرناطة وقشتالة ، وانتهز القشتاليون كعادتهم فرصة اضطراب الأحوال في غرناطة ،
فغزوا أرض المسلمين في أوائل سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) ، ووضع فرناندو الرابع
ملك قشتالة مشروعاً جريئاً للاستيلاء على جبل طارق . وكانت الأمداد المغربية
قد انقطعت منذ استولى النصارى على طريف ، وشغل بنو مرين بالحوادث ،
والثورات الداخلية ، وساءت علائقهم ببني الأحمر . ورأى فرناندو الرابع أن
الفرصة سانحة ليضرب ضربته المفاجئة ، فغزا الجزيرة الخضراء ، وبعث أسطولاً
لحصار جبل طارق من البحر ، وأوعز في الوقت نفسه إلى نخامى ملك أراجون
أن يحاصر ثغر ألمرية لكي يشغل قوات الأندلس فاستجاب لتعريضه ، وذلك
بالرغم من معاهدة التحالف والصداقة التي كانت تربطه بسلطان غرناطة . وبدأ
حصار ألمرية وجبل طارق في وقت واحد في أوائل سنة ٧٠٩ هـ ، وبذل النصارى
للاستيلاء على ألمرية جهوداً فادحة ، ونصبوا على أسوارها الآلات الضخمة ،
وحفروا في أسفل السور نفقاً واسعاً لدخولها ، فلقبهم المسلمون تحت الأرض
وردوهم بخسرة فادحة ، ونشبت على مقربة من ألمرية معركة بين جند الأندلس
بقيادة عثمان بن أبي العلاء وجند أراجون ، فهزم النصارى واضطروا إلى رفع
الحصار ، ونجت ألمرية من خطر السقوط (١) . ولكن ثغر جبل طارق كان أسوأ
طالعا . فقد شدد النصارى حوله الحصار من البر والبحر ، وبالرغم من هزيمتهم
أمام المسلمين على مقربة من جبل طارق ، فقد لبثوا على حصاره بضعة أشهر حتى

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٢٤٠ ؛ واللغة البدرية ص ٦٢ .

أضنى الحصار المسلمين وأرغموا على التسليم . وسقط الثغر المنيع في يد النصارى في أواخر سنة ٧٠٩ هـ (مارس سنة ١٣١٠ م) فكان لسقوطه وقع عميق في الأندلس والمغرب معا ؛ فقد كان باب الأندلس من الجنوب ، وكان صلة الوصل المباشر بين المملكتين الإسلاميتين .

وأدرك ابن الأحمر على أثر هذه النكبة ، فداحة الخطأ الذى ارتكبه بمجافاة بنى مرين ، فبادر بإرسال رسله إلى السلطان أبى الربيع يبدى أسفه على ما سلف ، ويسأله الصفح والصلح ؛ فأجابه السلطان إلى طلبه ، ونزل ابن الأحمر للسلطان عن الجزيرة ورندة وحصونها ترضية له وترغيباً فى الجهاد ، واقرن بأخت السلطان توثيقاً لوشائج المودة ، وأرسل السلطان إليه المدد والأموال ، وعادت علائق التفاهم والتحالف بين غرناطة وفاس إلى سابق عهدها .

على أن هذا التحسن فى علائق المملكتين الإسلاميتين ، لم يثن النصارى عن مشاريعهم تجاه غرناطة . ذلك أن الجيوش المغربية لم تعد تعبر إلى الجزيرة بكثرة . وكانت أحوال المغرب تعوق بنى مرين عن استئناف الجهاد فى الأندلس على نطاق واسع ، وكانت أحوال غرناطة من جهة أخرى تشجع النصارى على التحرش بها والإغارة على أراضيها . ولما رأى السلطان نصر تفاقم الأمور واشتداد بأس النصارى ، لم ير وسيلة لاجتناب الخطر الذى يهدده سوى مصانعة فرناندو الرابع ملك قشتالة والتعهد له بأداء الجزية . وكان ذلك مما زاد فى سوء سيرته وفى منخط الشعب عليه . ولم تلبث أعراض الثورة أن ظهرت فى الجنوب حيث أعلن الرئيس أبو سعيد فرج بن إسماعيل النصرى صاحب مالقة وابن عم أبى السلطان ، الخروج والعصيان . ورشح الخوارج للملك مكان نصر ، أبا الوليد إسماعيل وهو حفيد لإسماعيل أخى محمد بن الأحمر رأس الأسرة النصرية . ولم يمض سوى قليل حتى استطاع أبو سعيد وشيعته التغلب على ألمرية وبلتش وغيرها من القواعد الجنوبية . وفى أوائل سنة ٧١٢ هـ (١٣١٣ م) سار فى قواته إلى غرناطة ، وهرع السلطان نصر إلى لقائه فكانت الهزيمة على نصر ، فلبجأ إلى غرناطة ؛ ولكنه لم يلبث أن أذعن واضطر إلى التنازل عن العرش ، وسار بأهله إلى وادى آش ، وتولى حكمها حتى توفى سنة ٧٢٢ هـ (١٣٢٢ م) ^(١) .

(١) الإحاطة ج ١ ص ٢٩٢ و ٢٩٤ ؛ واللمعة البدرية ص ٥٢ - ٦٣ .

الفصل السابع

مملكة غرناطة في النصف الأول من القرن الثامن الهجري

وذروة الصراع بين بنى مرين واسبانيا النصرانية

ولاية السلطان أبي الوليد اسماعيل . زحف القشتاليين على غرناطة . هزيمتهم ومقتل أمرائهم . سوء الأحوال في قشتالة . تجديد الصلح بين غرناطة وأراجون . غزوات المسلمين في أراضي النصارى . مقتل السلطان اسماعيل وخلاله . ولاية ولده أبي عبد الله محمد . بطشه بوزيره ابن المحروق . الخلاف بينه وبين شيوخ الغزاة . الحاجب أبو النعيم رضوان . استنجد ملك غرناطة بملك المغرب . أبو الحسن يرسل الأمداد مع ولده . غزو الأندلسيين للجزيرة الخضراء . حصارهم لجبل طارق واسترداده من النصارى . المؤامرة على السلطان ومصرعه . السلطان أبو الحجاج يوسف . نكبته لبني العلالة . الحاجب رضوان وخلاله . استنثاره بالسلطة . نفيه وعوده إلى الوزارة . الوزير ابن الجياب . بداية ظهور ابن الخطيب . تحرش القشتاليين بالمسلمين . قدوم الأمداد من المغرب . هزيمة المفاربة ومقتل قائدهم . هبور السلطان أبي الحسن إلى الأندلس . موقعة سالادو وهزيمة المسلمين . سقوط طريف والجزيرة الخضراء في يد النصارى . مسير السلطان أبي الحسن للمرة الثانية . هزيمته في البر والبحر . تبادل المكاتبه والسفارة بين أبي الحسن وسلطان مصر . تجديد الصلح مع أراجون . الوباء الكبير . عود القشتاليين إلى الغزو . حصارهم لجبل طارق . تفشى الوباء بين النصارى ومصرع ملك قشتالة . نجاة جبل طارق . أقوال ابن الخطيب . وصف ابن بطوطة لحوادث الأندلس وأحوالها . مصرع السلطان أبي الحجاج يوسف . وصف ابن الخطيب للحادث . خلال يوسف . استراض للعلائق بين بنى الأحمر وبنى مرين .

جلس السلطان أبو الوليد اسماعيل على عرش غرناطة في شوال سنة ٧١٣ هـ (١٣١٤م) ، وامتاز عصره بتوطد الملك ، واستقرار الأمور ، وحياء عهد الجهاد . وفي أوائل عهده غزا القشتاليون كعائهم بسائط غرناطة واستولوا على عدة من القواعد والحصون ، وهزموا المسلمين هزيمة شديدة في وادي فرتونة (٧١٦ هـ) . ولما رأى القشتاليون نجاح غزوتهم اعتزموا منازلة الجزيرة الخضراء والاستيلاء عليها ليحولوا دون وصول الأمداد إلى المسلمين من عدوة المغرب . ولكن السلطان اسماعيل بادر إلى تحصينها وجهاز الأساطيل لحمايتها من البحر ، فعدل القشتاليون عن مشروعهم ، وعولوا على مهاجمة الحاضرة الإسلامية ذاتها . وبادر ابن الأحمر بطلب الغوث والإمداد من السلطان أبي سعيد سلطان المغرب ، فنكل عن معاونته ،

وطالب بتسليم عثمان بن أبي العلاء لما كان منه في حق بني مرين ، فأبى ابن الأحمر خشية العواقب ؛ وزحف القشتاليون على غرناطة بجيش ضخم ، يقوده الدون بيدرو (دون بطره) والدون خوان الوصيان على ألفونسو الحادى عشر ملك قشتالة ، ومعهما عدة من الأمراء القشتاليين ، وفرقة من المتطوعة الإنجليز بقيادة أمير إنجليزى ، فبادر المسلمون إلى لقاءهم في هضبة إلبيرة على مقربة من غرناطة . وكان الجيش الغرناطى لا يجاوز ستة أو سبعة آلاف جندى منهم نحو ألف وخمسمائة فارس ، ولكنهم صفوة المقاتلة المسلمين ، وكان قائده شيخ الغزاة أبو سعيد عثمان بن أبي العلاء ، جندياً جريئاً وافر العزم والبسالة ، فلم ترعه كثرة الجيش المهاجم ، وعول في الحال على لقائه في معركة حاسمة . وفى ٢٠ من ربيع الثانى سنة ٥٧١٨ هـ (مايو سنة ١٣١٨ م) التقى فرسان الأندلس بطلائع النصارى وردوهم بخسارة فادحة . ثم زحف أبو سعيد في نخبة من جنده ، ونشبت بين الفريقين موقعة شديدة ، كانت الدائرة فيها على القشتاليين ، فزقوا شراً ممزقاً ، وقتل منهم عدد جم ، بينهم دون بيدرو ودون خوان ، ورهط كبير من الأمراء والنبلاء والأحبار ، وغرق منهم عند الفرار في نهر شنيل عدة كبيرة ، وأسر منهم بضعة آلاف ، واستمر القتال والأسر فيهم ثلاثة أيام . وخرج أهل غرناطة فرحين مستبشرين ، يجمعون الأسلاب والأسرى ، وظفر المسلمون بغنائم عظيمة ، منها مقادير كبيرة من الذهب والفضة . وكان على العموم نصراً مشهوداً أعاد ذكرى الجهاد المجيد . وكان معظم الفضل في إحرازه يرجع إلى الجند المغاربة وإلى شيوخهم بنى العلاء الذين تزعموا الجيوش الأندلسية ، وتولوا قيادتها في تلك الفترة حسبما أسلفنا . ويعلل ابن خلدون ظهور القادة والجند المغاربة في ميدان الجهاد بقرب عهدهم بالتقشف والبدادة . ووضع المسلمون جثة الدون بيدرو في تابوت من ذهب على سور الحمراء تنوياً بالنصر ، وتخليداً لذكرى الموقعة (١) .

والواقع أن مملكة قشتالة كانت في أوائل القرن الرابع عشر في حالة سيئة ، وقد نفدت مواردها من الرجال والأموال ، بسبب الحروب والثورات المتواصلة ، والمرض والقحط ؛ وكان إسراف البلاط وبذخ الحلائل ، واختلاس الموظفين ، ومطالب رجال الدين ، وجشع الأشراف ، تستنفد الأموال العامة ؛ وكانت

(١) راجع في تفاصيل هذه الموقعة الشهيرة ، ابن خلدون ج ٤ ص ١٧٢ ، وج ٧ ص ٢٥٠ ؛ والإحاطة ج ١ ص ٣٩٧ ؛ والمقرئ في نفح الطيب ج ١ ص ٢١٠ .

الإدارة المالية في يد اليهود ورجال الكنيسة وكلاهما يناوئ الآخر ، ويعمل على إحباط مساعيه ؛ وكانت الوصايات المتعاقبة ، وما تعمد إليه من اغتصاب الأموال ، وسوء استعمال السلطة ، وفساد القضاء ، وتطاول الخلائل الملكية ، وسحق الحقوق العامة والخاصة ، وتفشي الجريمة ، تثير غضب الشعب وسخطه ؛ وكان اللون الصليبي للحروب الإسبانية في ذلك العصر يوطد نفوذ جماعات الفرسان الدينية العديدة ، وهي التي كانت في الواقع توجه مصائر الحرب والسياسة ، بيد أنها كانت تخفي تحت ستار الدين ردائل كثيرة من الفجور والجشع والارتشاء وغيرها (١) .

وفي سنة ٧٢١ هـ (١٣٢١ م) جدد السلطان إسماعيل معاهدة الصلح مع ملك أراجون خايمي الثاني وذلك تحقيقاً لرغبته ؛ ونص في المعاهدة الجديدة على أن يعقد بين الفريقين صلح ثابت لمدة خمسة أعوام ، تؤمن خلالها أرض المسلمين بالأندلس وأرض أراجون تأميناً تاماً برأ وبحراً ، وأن تباح التجارة لرعايا كل من الفريقين في أرض الآخر ، وأن يتعهد كل من الملكين بمعادة من يعادى الآخر ، وأن لا يأوى له حدوداً أو بحمية ، وأن تكون سفن كل فريق وشواطئه ومراسيه آمنة ، وأن يسرح كل فريق من يؤسر في البحر من رعايا الفريق الآخر . وتضمنت المعاهدة أيضاً نصاً خاصاً بتعهد ملك أراجون ألا يمنع خروج المدجنين من أراضيه إلى أرض المسلمين بأهلهم وأولادهم وأموالهم ، وهو نص يلفت النظر ، إذ كان المدجنون في هذا العصر يؤلفون أقليات كبيرة في بلنسية ومرسية وشاطبة وغيرها من القواعد الشرقية ، وكان ملوك أراجون يحرصون على بقائهم وعدم هجرتهم لأسباب اقتصادية وعمرانية (٢) .

وعلى أثر موقعة البيرة تعاقبت غزوات المسلمين في أراضى النصارى وعادت الدولة الإسلامية الفتية تجوز عهداً من القوة بعد أن لاح أنها شارفت طور الفناء . ففي سنة ٧٢٤ هـ (١٣٢٤ م) زحف السلطان إسماعيل على مدينة بياسة الحصينة وحاصرها بشدة ، وأطلق المسلمون عليها الحديد والنار من آلات قاذفة تشبه المدافع حتى سلمت . وفي رجب من العام التالي (٧٢٥ هـ) سار إسماعيل إلى مرتش واستولى عليها عنوة ، وكانت أعظم غزواته ، وامتثلت أبدي المسلمين بالسبي والغنائم . ثم عاد السلطان إلى غرناطة مكللاً بغار النصر . بيد أنه لم تمض على عوده

(١) راجع : Scott : ibid ; V. II. p. 476-78

(٢) Archivo de la Corona de Aragón, No. 151

ثلاثة أيام حتى قتل بباب قصره غيلة ، وكان قاتله ابن عمه محمد بن إسماعيل صاحب الجزيرة ، وقد حقد عليه لأنه انتزع منه جارية رائعة الحسن ، ظفرها في موقعة مرتش ، وبعث بها إلى حريمه بالقصر . ولما عاتبه محمد رده بجفاء وأنذره بمغادرة البلاط ، فتربص به وطعنه بخنجره وهو بين وزرائه وحشده ، فحمل جريحاً حيث توفى على الأثر ، وكان مصرعه في السادس والعشرين من رجب سنة ٧٢٥ هـ (يونيه سنة ١٣٢٥ م) .

وكان السلطان إسماعيل يتمتع بخلال باهرة ، وكان يشتد في إخماد البدع وإقامة الحدود . وفي عهده حرمت المسكرات وطورد الفساد الأخلاقي ، وحرم جلوس الفتيات في ولائم الرجال ، وعومل اليهود بشيء من الشدة ، وألزموا أن يتخاؤوا لهم شعاراً خاصاً بهم ، هو عبارة عن العمام الصفراء (١) .

فخلفه ولده أبو عبد الله محمد وهو في يافع لم يجاوز الحادية عشرة من عمره ، وكانت أمه نصرانية تدعى علوة ، وأخذ له البيعة وزير أبيه أبو الحسن بن مسعود ، وقام بكفالاته بضعة أشهر حتى توفى ، ثم خلفه في الوزارة وكيل أبيه محمد بن أحمد ابن المحروق ، فاستبد بالأمور واستأثر بكل سلطة ، فحقد عليه السلطان الفتي وكان رغم حدائته مقداماً قوى النفس ، ولم يلبث أن بطش بوزيره المتغلب عليه ، فقتل بأمره في المحرم سنة ٧٢٩ هـ .

وكان من أوائل أعماله تجديد معاهدة الصداقة مع أراجون ، وكان ملكها خايمي الثاني قد أوفد إليه سفيره يطلب إليه تجديد معاهدة الصلح والصداقة التي عقدت بينه وبين أبيه ، وانقضى أجلها المحدد بانقضاء أعوامها الخمسة ، فوافق السلطان على تجديدها بسائر نصوصها وشروطها ، ووقعت المعاهدة الجديدة في جمادى الثانية سنة ٧٢٦ هـ (مايو سنة ١٣٢٦ م) (٢) .

ولأول عهده نشب الخلاف بينه وبين شيوخ الغزاة المغاربة ، وعلى رأسهم عثمان بن أبي العلاء ، وامتنعوا ببعض الثغور الجنوبية ولاسيما ألمرية ، وانضم إليهم عم السلطان ، محمد بن فرج بن إسماعيل ، فقاموا بدعوته ، ونشبت بين الفريقين عدة مواقع محلية ، كان النصر فيها سجلاً بينهما . وانتهز القشتاليون كعادتهم تلك

(١) الإحاطة ج ١ ص ٢٩٥ - ٤٠١ ؛ واللغة البدرية ص ٧١ - ٧٤ .

(٢) Archivo de la Corona de Aragón, No. 148

الفرصة ، فأثخنوا في الأراضي الإسلامية ، واستولوا على ثغريه وعدة من الحصون (١) .
ولما تفاقم عيث النصاري أثر السلطان التفاهم مع الخوارج عليه ، وعقدت بينهما
الهدنة على أن يستقروا بوادي آش باسمه وتحت طاعته . وتولى تدبير الأمور بعد
مقتل ابن المحروق ، الحاجب أبو النعيم رضوان النصري ، فهدأت الفتنة واستقرت
الأمور نوعاً . ولكن ابن الأحمر كان يتوجس شراً من اضطراب الأحوال في
مملكته ومن تربص النصاري بها ، ورأى أن يتجه بصريحه إلى بني مرين مرة أخرى ،
وكانت العلائق يومئذ على صفائها بين غرناطة وفاس . وكان بنو مرين حينما شغلوا
بشؤونهم الداخلية قد تركوا الجزيرة وحصونها لابن الأحمر (سنة ٧١٢ هـ) ، فلما
اشتدت وطأة النصاري على غرناطة ، عاد ابن الأحمر فنزل عن الجزيرة إلى ملك المغرب
السلطان أبي سعيد (سنة ٧٢٩ هـ) ، لتكون رهينة ومنزلاً للأمداد المرجوة من وراء
البحر ، ولكن النصاري استولوا على معظم حصونها ، وأضحى طريق الجواز
ولاسيما بعد ضياع جبل طارق عسيراً مخفوقاً بالمخاطر . وعبر ابن الأحمر البحر في
أواخر سنة ٧٣٢ هـ إلى عدوة المغرب ، وقصد إلى فاس مستنجداً بملك المغرب ،
السلطان أبي الحسن علي بن عثمان بن أبي يعقوب المريني ، فاستقبله السلطان بمنتهى
الحفاوة ، وشرح له ابن الأحمر ما انتهت إليه شئون الأندلس ، وما ترتب على
سقوط جبل طارق من قطع صلة الوصل بين المملكتين ، ورجاء الغوث والعون .
والواقع أن استيلاء النصاري على جبل طارق في سنة ٧٠٩ هـ (١٣١٠ م)
كان أعظم نكبة منيت بها الأندلس منذ سقوط قواعدها الكبرى . وقد شعرت
حكومة غرناطة بفداحة النكبة ، وازداد منذ وقوعها توجسها من المستقبل . ولقد
أتيح لنا أن نزور هذه الصخرة الهائلة ، وأن نشهد مبلغ روعتها ومنعتها . وكان
المسلمون قد جددوا تحصيناتها في منتصف القرن السادس الهجري حينما عبر إليها
خليفة الموحدين عبد المؤمن بن علي (٥٥٥ هـ) ، وأسمّاها جبل الفتح ، وأمر بتجديد
حصنها الذي ما يزال قائماً حتى اليوم فوق الصخرة من ناحيتها الشمالية . وكان سلطان
غرناطة يتوق إلى استرداد هذا المعقل المنيع درع مملكته من الجنوب . وكان السلطان
أبو الحسن مشغولاً بالجهاد واستئناف ما تصرم من أسبابه . وكان فوق اضطرامه
بعاطفة الجهاد ، يرى خطر إسبانيا النصرانية يلوح داهماً ليس على الأندلس فقط ،

(١) الإحاطة ج ١ ص ٥٤٤ . ويبره Vera بلدة حصينة تقع في شمال شرق ولاية ألمرية

على مقربة من البحر .

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي جعل في خلقه منافع لا تعد ولا تحصى
والصلاة والسلام على من لا نبي بعده
والله اعلم بالصواب
الحمد لله الذي جعل في خلقه منافع لا تعد ولا تحصى
والصلاة والسلام على من لا نبي بعده
والله اعلم بالصواب

سورة وثيقة عقدت بين السلطان . أبي عبد الله محمد بن إسماعيل وخايي الثاني ملك أراجون بتجديده مساعدة الصلح التي عقدت بين والده وخايي
في سنة ٧٢١ هـ مؤرخة في جاضي الثانية سنة ٧٢٦ هـ (١٣٢٩ م) وعقودته بدار محفظات اللجج الأراجونف ببرشلونة برقم ١٥٤ .

بل وعلى المغرب أيضاً . ذلك لأن الأندلس أخذت تبدو من ذلك الحين جناح المغرب ، وخطه الدفاعي الأول من الشمال ، ولا بد من تأمين هذا الخط والسهر على سلامته ، وذلك بدعم قوة الأندلس وتأييدها ، ورد خطر النصارى عنها . ومن ثم فقد استجاب أبو الحسن لدعوة ابن الأحمر وبعث معه الأمداد بقيادة ولده أبي مالك ، لمنازلة جبل طارق وافتتاحها ، وتلاحقت في أثرهم السفن تحمل المدد والعُدَد والمؤن . وحشد ابن الأحمر قواته ، وزحف على الجزيرة واستولى عليها . وطوق المسلمون جبل طارق من البر والبحر ، ورابط أسطول المغرب في مياه المضيق ليحول دون وصول الأمداد إلى النصارى ، وهرع ملك قشتالة (ألفونسو الحادى عشر) في قوة من الفرسان لإنجاد الحامية المحصورة ، فبادر ابن الأحمر إلى مهاجمة النصارى ، وهزمهم أمام جبل طارق تجاه البرزخ الإسباني . وكان أكبر الفضل في إحراز هذا النصر راجعاً إلى همة الحاجب رضوان النصرى وإقدامه وبراعته . ثم شدد المسلمون الحصار على الثغر ، وقطعوا كل صلته من البر والبحر ، فلم تمض بضعة أسابيع حتى ساءت حال الحامية النصرانية ، واضطرت إلى التسليم قبل مقدم الجيش القشتالى . وبذلك استعاد المسلمون الثغر المنيع في أواخر سنة ٧٣٣هـ (١٣٣٣ م) بعد أن لبث في حوزة النصارى أربعة وعشرين عاماً ، وكان أكبر الفضل في استرداده راجعاً إلى معاونة السلطان أبي الحسن في البر والبحر . ولما رابط المسلمون والنصارى في الميدان وجهاً لوجه ، ورأى ملك قشتالة أنه لا أمل في كسب معركة انتهت فعلاً بظفر المسلمين ، أثر الصلح ، وانتهى الأمر بعقد الهدنة بين الملكين^(١) . واعتزم السلطان محمد بن إسماعيل (ابن الأحمر) العودة بجنده إلى غرناطة ، ولكنه ما كاد يغادر جبل طارق في اليوم التالى عائداً إلى عاصمة ملكه ، حتى اغتاله في الطريق جماعة من المتآمرين بتحريض بنى أبي العلاء ، (ذى الحجة سنة ٧٣٣هـ) . وكان أولئك القواد المغاربة وعلى رأسهم شيخهم عثمان ابن أبي العلاء قد استفحل أمرهم في الدولة ، وأخذوا ينازعون السلطان في أمر تصرفاته ، ولما توفى شيخ الغزاة عثمان ابن أبي العلاء في سنة ٧٢٩هـ عين مكانه في المشيخة ولده أبو ثابت عامر ، فاستمر يمارس سلطان أبيه ونفوذه ، وتدخله في شئون الدولة ، وكان يؤازره إخوته إدريس ، ومنصور ، وسلطان . وبدأ ابن الأحمر

(١) الإحاطة ج ١ ص ٥٤٠ - ٥٥٢ ؛ واللمحة البدرية ص ٧٧ - ٨٢ ؛ وابن خلدون

يترم بتدخلهم واستبدادهم ، وكان حينها عبر السلطان أبو الحسن قد خاطبه في شأنهم وفي سبيل الخلاص منهم ، واستراب بنو العلاء منه وتوجسوا شراً ، فأتمروا به للتخلص منه قبل أن يبطش بهم ، ولحق به المتآمرون حين عودته واغتالوه طعناً بالرماح ، وتركت جثته في العراء حيناً حتى نقلت بعد ذلك إلى مالقة ودفنت بها^(١).

- ٢ -

وولى العرش من بعده أخوه أبو الحجاج يوسف بن أبي الوليد إسماعيل ، وهو فتي في السادسة عشرة . وكان من أعظم ملوك بني نصر وأبعدهم همة وأرفعهم خللاً . وكان عالماً شاعراً يحمى الآداب والفنون ، وهو الذي أضاف إلى قصر الحمراء أعظم منشآت وأروعها . وما كاد يتبوأ العرش حتى عني بتتبع بني أبي العلاء قتلة أخيه ، وتجريدهم من وظائفهم وتمزيق عصبتهم والقبض على شيوخهم ، وكان ذلك في الوقت نفسه تحقيقاً لرغبة السلطان أبي الحسن . ثم نفاهم في السفن إلى تونس ، وانتهت بذلك رياستهم بالآندلس ، بعد أن طالت زهاء نصف قرن ، ولما نزلوا على سلطان تونس أبي يحيى الحفصي ، طالب السلطان أبو الحسن بتسليمهم فأرسلهم إليه أبو يحيى ولكن مع طلب الشفاعة فيهم ، فعفا عنهم أبو الحسن ، وأكرم مشواهم مدى حين ، ولكنه عاد فقبض عليهم بتهمة التآمر عليه ، وأودعهم ظلام السجن^(٢).

وعهد السلطان أبو الحجاج بمشيخة الغزاة ، بعد سحق بني أبي العلاء على النحو المتقدم ، إلى زعيم آخر من قرابة بني مرين هو يحيى بن عمر بن رحو ، فاضطلع بها على خير وجه ، ولبت مضطلعاً بها طول عصر أبي الحجاج .

وقام بتدبير الأمور للسلطان أبي الحجاج وزير أخيه الحاجب أبو النعم رضوان ، وكان هذا الوزير القوي الذي لعب في تاريخ غرناطة دوراً ذا شأن ، من أصل نصراني قشتالي أوقطلوني ، وسبي طفلاً في بعض المواقع ، فأخذ إلى الدار السلطانية ، ونشأ في بلاط السلطان أبي الوليد إسماعيل^(٣) . وظهرت نجابته وصفاته الممتازة ، فعهد إليه بتربية ولده أبي عبد الله محمد . ولما تولى محمد الملك بعد أبيه تولى وزارته الحاجب رضوان ، فأظهر في تدبير الشئون كفاية ممتازة ، وقاد بعض

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٢٦٣ و ٢٦٤ و ٢٧٢ .

(٢) ابن خلدون ج ٧ ص ٢٦٤ .

(٣) الإحاطة ج ١ ص ٥١٥ .

الغزوات الناجحة إلى أرض النصارى ، فغزا في سنة ٧٣٢ هـ أراضى قشتالة شرقاً حتى لورقة ومرسية وعاث فيها ، وفي العام التالي غزا مدينة باغة واستولى عليها^(١) . ولما تولى الملك السلطان يوسف وقع الإجماع على اختياره للوزارة ، واستقرت الأمور في عهده وساد الأمن والرخاء . وينوه ابن الخطيب — وهو معاصر الحاجب وصديقه — بصفاته ومواهبه ويسميه « حسنة الدولة النصرانية » ، وفخر موالها « ويصفه فيما يلي : » وكان أصيل الرأي رصين العقل ، كثير التجمل ، عظيم الصبر ، قليل الخوف في العيئات ، ثابت القدم في الأزمات ، ميمون النقيبة ، عزيز النفس على الهمة ، بادي الحشمة ، آية في العفة ، مثلاً في النزاهة . وكان من أعظم مآثره إنشاء مدرسة (جامعة) غرناطة الشهيرة . فأقام لها صرحاً فخماً ، ووقف عليها أوقافاً جليلة وغدت غير بعيد من أعظم مناهل العلم في الأندلس والمغرب^(٢) ، وأمر ببناء السور الأعظم حول ربض البيازين ، وأنشأ عدداً كبيراً من الأبراج الدفاعية ، وأصلح كثيراً من الحصون الداخلية ؛ ولكنه كسائر المتغلبين على السلطان ، استبد بالامر واستأثر بكل سلطة . فلما شعر السلطان يوسف باشتداد وطأته ، وكثرت السعيات في حقه ، نكبه وأمر باعتقاله ونفيه إلى ألمرية ، وذلك في رجب سنة ٧٤٠ هـ . ولكنه اضطر إلى أن يعيده إلى الوزارة بعد ذلك ببضعة أشهر ، حينما شعر بالفراغ الذي أحدثته تنحيه عن تدبير الشئون ، فاستمر في منصبه حتى نهاية عهده^(٣) .

وكان من بين وزراء السلطان يوسف ، الكاتب والشاعر الكبير الرئيس أبو الحسن علي بن الجياب ؛ وقد تقلب في ديوان الإنشاء حتى ظفر برياسته . وكان من زملائه وأعوانه في ديوان الإنشاء عبد الله بن الخطيب والدلسان الدين . ولما توفي عبد الله خلفه في خدمة القصر ولده لسان الدين ، وغدا أميناً لابن الجياب . فلما توفي ابن الجياب سنة ٧٤٩ هـ في الوباء الكبير خلفه في الوزارة ، وبزغ نجم مجده من ذلك الحين . وفي عهد السلطان يوسف كثرت غزوات النصارى لأراضى المسلمين ، وكان ألفونسو الحادى عشر تحدوه نحو المملكة الإسلامية أطماع عظيمة . ولما شعر يوسف

(١) الإحاطة ج ١ ص ٥٤٨ و ٥٤٩ .

(٢) كانت مدرسة غرناطة تقوم إزاء المسجد الجامع وراء القيسرية . وقد أقيمت كتدرائية غرناطة مكان المسجد الجامع ، ولبثت المدرسة قائمة حتى القرن الثامن عشر ، ثم هدمت وأقيم مكانها بناء آخر ، ولم يبق منها إلا بعض أبنائها القديمة . ونقلت معظم زخارفها ونقوشها إلى متحف غرناطة . (٢) راجع الإحاطة ج ١ ص ٥١٨ وما بعدها .

باشتداد وطأة القشتاليين ، وضعف وسائله في الدفاع ، أرسل يستنجد بالسلطان أبي الحسن علي بن عثمان ملك المغرب ، فأرسل الأمداد للمرة الثانية إلى الأندلس مع ولده الأمير أبي مالك ، فاخترق سهول الجزيرة الخضراء معلناً الجهاد . وتوجست اسبانيا النصرانية من مقدم الجيوش المغربية شراً ، واعتزمت أن تواجه الغزاة في قواها المتحدة ، فسار أسطول مشترك من سفن قشتالة وأراجون والبرتغال ، إلى مياه جبل طارق ، بقيادة الدون جوفري تنوريو لمنع الأمداد عن جيوش المغرب ، وبارك البابا الحماة ، وسارت قوى اسبانيا المتحدة للقاء المسلمين . وكان أبو مالك في تلك الأثناء قد زحف إلى أراضي النصارى ، واجتاح سهل بجانة^(١) وحصل على غنائم لا تحصى ؛ وهنا فاجأه الإسبان قبل أن يستطيع الارتداد إلى أراضي المسلمين ، ونشبت بين الفريقين معركة دموية هزم فيها المسلمون هزيمة شديدة وقتل أبو مالك ، وكان ذلك في أواسط سنة ٧٤٠ هـ (١٣٣٩ م) .

وعندئذ عول السلطان أبو الحسن على العبور بنفسه إلى الأندلس ، ليثأر لتلك الهزيمة المؤلمة ، فجهز الجيوش والأساطيل الضخمة ، وبلغ أسطول المغرب يومئذ مائة وأربعين سفينة منها عدد كبير من السفن الحربية ، وجاز السلطان البحر إلى الأندلس في أوائل المحرم سنة ٧٤١ هـ (يولييه سنة ١٣٤٠ م) ونزل بسهل طريف ولحق به السلطان يوسف في قوات الأندلس . وكانت الجيوش الإسبانية قد نفذت يومئذ إلى أعماق مملكة غرناطة ، ووصلت إلى بسائط الجزيرة الخضراء ، ورابط الأسطول النصراني في مياه المضيق بين المغرب والأندلس ، لمنع قدوم الأمداد والمؤن ، وضرب النصارى الحصار حول ثغر طريف وتغلبوا على حاميته ، ومضت أشهر قبل أن يقع اللقاء الحاسم بين الفريقين ؛ فشحت الأقوات بين المسلمين ، ووهنت قواهم . وكان الجيش الإسلامي يربط عندئذ في السهل الواقع شمال غربي طريف على مقربة من نهر « سالادو » الصغير الذي يصب في المحيط الأطلنطي عند بلدة كونيل التي تبعد قليلاً عن رأس طرف الغار . وفي يوم ٣٠ أكتوبر سنة ١٣٤٠ (جمادى الأولى سنة ٧٤١ هـ) نشبت بين الفريقين معركة عامة على ضفاف نهر سالادو ، وتولى السلطان أبو الحسن قيادة جيشه بنفسه ، وتولى السلطان يوسف قيادة فرسان الأندلس ، ويقال إن الأندلسيين كانت لديهم في تلك الموقعة آلات تشبه المدافع ، وهي الآلات التي تطورت فيما بعد وكانت تسمى « بالأنفاظ » .

وتقدم ألفونسو الحادى عشر بجيشه لمهاجمة المغاربة ، فصد في البداية بقوة ، واشتبك فرسان الأندلس مع جيش البرتغال . ولكن حدث عندئذ أن تسلفت حامية طريف النصرانية من الجنوب وانقضت على مؤخرة الجيش الإسلامى ، فذب الخلل إلى صفوفه ، ونشبت بين الفريقين معركة هائلة سالت فيها الدماء غزيرة ، وقتل من المسلمين عدد جم ، وسقط معسكر سلطان المغرب الخاص في يد النصارى وفيه حرمة وحشمه وبعض أولاده ، فذبحوا جميعاً على الأثر بوحشية مروعة ، وانتشرت قوات المسلمين وبددت ؛ وفر السلطان أبو الحسن ، واستطاع أن يعبر إلى المغرب مع فلوله ، وارتد السلطان يوسف إلى غرناطة ، وكانت محنة عظيمة لم يشهد المسلمون مثلها منذ موقعة « العقاب » (١) وكان لها أعمق وقع في المغرب والأندلس (٢).

وانتهز ملك قشتالة فرصة ظفره وضعف المسلمين ، فغزا قلعة بنى سعيد أو قلعة محصب من أحواز غرناطة واستولى عليها بعد حصار قصير (٧٤٢ هـ) (٣). وكان ملك المغرب في أثناء ذلك يضطرم ظمأ للانتقام ، ويحشد قواته من جديد . ولما كملت أهبة أرسل أساطيله إلى مياه المضيق ، وسار بالجيش إلى سبتة ، وبادر ملك قشتالة من جانبه بإرسال أسطوله للقاء المسلمين ، ونشبت بين الفريقين معركة بحرية هزم فيها المسلمون ومزق أسطولهم (٧٤٣ هـ - ١٣٤٢ م) . وحاصر النصارى ثغر الجزيرة الخضراء ، وسار السلطان يوسف في جيشه لإنجاد الثغر المحصور ، وكان جيشه مجهزاً بالآلات القاذفة الحديدية التى تشبه المدافع ، ولكنه لم يفلح واضطر المسلمون إلى التسليم ، وبذلك أضحى الثغران الجنوبيان المشرفان على مضيق

(١) هي الموقعة التى نشبت بين الموحدين والنصارى في الأندلس على مقربة من أبدة في سنة ٦٠٩ هـ (١٢١٢ م) وفيها هزم الموحدون هزيمة شديدة . وتسمى موقعة العقاب وبالإسبانية Las Navas de Tolosa وقد سبقت الإشارة إليها .

(٢) راجع ابن خلدون ج ٧ ص ٢٦١ و ٢٦٢ ؛ والاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ج ٢ ص ٦٥ و ٦٦ ، والتمحة للبدرية ص ٩٢ و ٩٣ . ويوجد في متحف كتدرائية مدينة طليطلة علهان كبيران من أعلام السلطان أبي الحسن كانا ضمن غنائم النصارى في هذه الموقعة ، وقد نقش عليهما آيات قرآنية وأدعية وامم السلطان أبي الحسن .

(٣) قلعة محصب أو قلعة بنى سعيد هي بلدة حصينة تقع شمال غرناطة ، وجنوب غربى جيان . وسميت قلعة بنى سعيد لأنها كانت منزل أسرة بنى سعيد الكتاب والمؤرخين أصحاب كتاب « المغرب » . ومكانها اليوم بلدة Alcalá la Real (القلعة الملكية) الإسبانية .

جبل طارق وهما الجزيرة وطريف في أيدي النصارى ، ولم يبق في يد المسلمين سوى جبل طارق تؤدي مهمة الوصل بين المغرب والأندلس .

وكانت هذه الأحداث الخطيرة التي وقعت بالأندلس بين النصارى والسلطان أبي الحسن ، موضوعاً لمكاتبات سياسية ، بين بلاط مراکش وبلاط القاهرة . وكان ثمة بين ملوك مصر والمغرب منذ قيام دولة بني مرين سفارات ومكاتبات ودية متصلة . ففي سنة ٧٣٩ هـ أرسل السلطان أبو الحسن إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون ملك مصر والشام ، سفارة من بعض أكابر دولته ، وبرفقتهم والدة أخت السلطان الأميرة الحرة تريد الحج ، ومعهم هدية فخمة من عتاق الخيل ونفيس المتاع والحلى قدرت بأكثر من مائة ألف دينار ، ومصحف كتبه السلطان بيده ، وزين بماء الذهب ووضع في إطار فخم من الأبنوس والصندل ، ليودع في الحرم الشريف ، فاستقبلهم الملك الناصر بالقاهرة أعظم استقبال وجهزهم بكل ما يلزم ، وأرسل إلى ملك المغرب هدية جليلة^(١) . ثم عاد السلطان أبو الحسن ، فكتب على أثر هزائمه أمام النصارى في البر والبحر ، إلى سلطان مصر الملك الصالح بن الملك الناصر بن قلاوون ، كتاباً ينوه بما كان بينه وبين والد السلطان من رسائل الود ، ويبسط له ما وقع من استغاثة أهل الأندلس به وإعداده الأساطيل لقتال النصارى ، ثم مفاجأة النصارى لسفنه في البحر بأساطيل قوية ، وزحفهم على الجزيرة الخضراء ومحاولة إنجادها عبثاً ، ومعاونته لصاحب الأندلس بالمال والرجال ، واستطالة الحرب ونفاد الأقوات ، واضطراره إلى عقد الصلح مع النصارى على تسليم الجزيرة ، وما فتحه الله من أخذ جبل طارق قبل ذلك ، وأنه ما زال يتأهب للجهاد بعد عوده . وقد كتب هذا الكتاب في صفر سنة ٧٤٥ هـ (١٣٤٤ م) .

ورد ملك مصر على كتاب ملك المغرب ، في رمضان سنة ٧٤٥ هـ ، بكتاب رقيق يبيد فيه أسفه على سقوط الجزيرة الخضراء ، ويعزيه عن فقد أسطوله وما نزل به من هزائم ، ويقول إن الحرب سجال ، وإن في سلامته الكفاية ، وإن الله قد بمن عليه بالظفر مرة أخرى ، ويبيد اغتباطه لاستيلاء السلطان على ثغر جبل طارق^(٢) .

(١) المقريزي في السلوك في دول الملوك ج ٢ (٢) ص ٤٤٧ و ٤٤٨ ، ويصف المقريزي الأميرة الحرة بابنة السلطان ؛ وابن خلدون ج ٧ ص ٢٦٤ .

(٢) لم ينقل إلينا القلقشندي في صبح الأعشى نص هذين الكتابين . ولكن نقلهما إلينا المقري في نفع الطيب ج ٢ ص ٥٣٩ - ٥٤٦ .

ولم يخل عصر السلطان أبي الحجاج يوسف من عقد العلائق الدبلوماسية مع الدول النصرانية . وكان عقدها بالأخص مع مملكة أراجون التي كانت أقرب إلى مسالة مملكة غرناطة من زميلتها مملكة قشتالة . ففي سنة ٧٣٥ هـ (١٣٣٥ م) أرسل السلطان سفيره القائد أبا الحسن بن كُماشه إلى ألفونسو الرابع ملك أراجون ليطلب تجديد معاهدة الصلح المعقودة بين المملكتين ، فأجابه إلى ذلك وجددت المعاهدة .

وفي أواخر سنة ٧٤٥ هـ (١٣٤٥ م) عقد السلطان يوسف مع بيدرو الرابع ملك أراجون ، معاهدة صلح ومهادنة جديدة ، في البر والبحر ، لمدة عشرة أعوام على يد سفيره القائد المذكور ، وطلب إلى السلطان أبي الحسن المريني ، ملك المغرب ، أن يوافق على هذا الصلح فوافق عليه ، وأبرمه من جانبه ، بنفس الشروط ولنفس المدة التي يسرى فيها ، وذلك حسبما يدل عليه عهد الموافقة الذي أصدره بتاريخ صفر سنة ٧٤٦ هـ (يونيه ١٣٤٥ م) (١) .

وهنا طافت بالأندلس واسبانيا تلك النكبة المروعة التي عصفت بالشرق والمغرب معا ، ونعني بذلك الوباء الكبير الذي اجتاحت سائر الأمم الإسلامية وحوض البحر الأبيض المتوسط في سنة ٧٤٩ هـ - ٧٥٠ هـ (١٣٤٨ م) . وكان بدء ظهوره على ما يرجح في إيطاليا في ربيع هذا العام . وحمل من الأندلس كثيراً من سكانها ، وفي مقدمتهم عدة من رجالها البارزين من الكبراء والعلماء . وقد وصف لنا الوزير ابن الخطيب تلك المحنة التي كان معاصراً لها وشاهد عيان لروعها وفتكها في رسالة عنوانها : « مُقْنَعَةُ السَّائِلِ عَنِ الْمَرَضِ الْهَائِلِ » ، وكذلك وصف لنا عصف الوباء بثغر ألمرية شاعر ألمرية الكبير ابن خاتمة في رسالة عنوانها « تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد » (٢) .

ولبت ملك قشتالة أعواماً أخرى على خطته من إرهاب المملكة الإسلامية والعيث فيها ، والمسلمون يدافعون جهداً استطاعتهم ، وأمراء المغرب مشغولون عن نجدتهم بما أصابهم من هزائم متوالية ، وما شجر بينهم من خلاف . وفي سنة ٧٥٠ هـ (١٣٤٩ م) غزا النصارى سهول الجزيرة الخضراء مرة أخرى ، وكان ملك قشتالة يرمى بهذه الغزوة إلى غاية هامة هي الاستيلاء على جبل طارق . وكان هذا

(١) Archivo de la Corona de Aragón No. 52; Alarcón y Santón : Documentos

Arabes Diplomáticos, Nos. 41, 56, & 96

(٢) توجد هاتان الرسالتان ضمن مجموعة خطية تحفظ بمكتبة الإسكوريال برقم ١٧٨٥ وقد نشرت رسالة ابن الخطيب مع ترجمتها الألمانية في مجلة أكاديمية العلوم البنازية (سنة ١٨٦٣) .



صورة رسالة من السلطان يوسف أبي الحجاج إلى دون الماشة (ألفونسو) ملك أراجون بشكره فيها على حسن لقائه لسفيره ، ويقرر تجديد الصلح المعتود بينهما ، مؤرخة في ذى الحجة سنة ٧٣٥ هـ (يولييه ١٣٣٥ م) ، ومحفوظة بمخطوطات التاج الأراجوني ببرشلونة برقم ١٣٨ .

الشعر ما يزال منذ عصور أمتع ثغور المسلمين وأشدّها مراسا . فلما رأى النصارى استحالة أخذه عنوة ، ضربوا حوله الحصار الصارم ، وكانت تدافع عنه حامية مغربية قوية ، ورابط ملك غرناطة بجيشه في مؤخرة النصارى ؛ واستمر حصار جبل طارق زهاء عام كامل والمسلمون صامدون كالصخرة التي يدافعون عنها ، وقد حيل صبر الغزاة ودب الوهن إلى نفوسهم . ثم فشا الوباء في الجيش النصراني وهلك ملك قشتالة في مقدمة من هلك من جنده ، فكان ذلك نذيراً بخلاص الشعر المنيع والمدافعين عنه ، واضطر النصارى إلى رفع الحصار (٨٧٥١ - ١٣٥٠ م) . وأنقذ المسلمون بذلك من كارثة فادحة ، وأبدى المسلمون بهذه المناسبة ضروباً مؤثرة من تسامح القروسة ، فتركوا موكب الملك المتوفى ، يخترق طريقه إلى إشبيلية دون تعرض ، وارتدى كثير من أكابرهم شارة الحداد مجاملة وتكريماً ، وخلف ألفونسو على العرش في الحال ولده بيدرو (بطره) الملقب بالقاسي (١) .

ووصف ابن الخطيب كاتب الأندلس وشاعرها ، وقد كان يومئذ من كتاب السلطان يوسف ، هذه الأحداث الخطيرة في رسالة بعث بها السلطان إلى ملك المغرب ، وفيها يشير إلى مهاجمة العدو لجبل طارق وطمعه في الاستيلاء على الأندلس ويقول : « وانتهاز الفرصة بانقطاع الأسباب وانبهاً الأبواب ، والأمور التي لم تجر للمسلمين بالعدوتين على مألوف الحساب ، وتكالب التثليث على التوحيد ، وساءت الظنون في هذا القطر الوحيد ، المنقطع بين الأمة الكافرة ، والبحور الزاخرة والمرام البعيد » ثم يصف كيف تداركت رحمة الله الأندلس بعد ذلك فهزم العدو ولم يبلغ مرأما (٢) .

وكان لحصار جبل طارق ، ومصرع ملك قشتالة تحت أسواره ، صدى عميق في المغرب وفي أنحاء العالم الإسلامي . ويشير الرحالة الأشهر ابن بطوطة الطنجي الذي زار الأندلس بعد ذلك بقليل في رحلته إلى تلك الحوادث ، وإلى ما كان يتصوره ملك قشتالة ، من أنه أضحى على وشك الاستيلاء على ما بقي من بلاد الأندلس ، فأخذه الله من حيث لم يحتسب ومات بالوباء ، وقد كان من أشد الناس خوفاً منه ، ثم يصف لنا أهمية جبل طارق الدفاعية وما بدله السلطان أبو الحسن عقب استرداده من جهود فادحة لتحصينه ، وتجديد أسواره وحصونه ، وإنشائه لدار الصناعة ، وما قام به ولده السلطان أبو عنان بعد ذلك من تجديد تحصيناته ، وشحنه

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨٣ .

(٢) راجع هذه الرسالة في نفع الطيب ج ٢ ص ٥٧٠ و ٥٧١ .



صورة وثيقة صادرة من السلطان يوسف أبي الحجاج الداويزره القائد ابن كاشة التي أرسله مغيراً إلى بلاد الروم (دول بطره) ملك أراجون ليقوم بعقد الصلح بينه وبين السلطان أبي الحسن المريني ملك المغرب مؤرخة في شعبان سنة ٥٧٤٥ (ديسمبر ١٢٤٤م) ومحفوظة بمخطوطات التاج الأراجوني ببرشلونة برقم ١٥.

بالعدد والأقوات . ويصف لنا ابن بطوطة بعد ذلك ثغور الأندلس وقواعدها الأخرى التي طاف بها يومئذ ، مثل رندة ومربلة ومالقة وبلش ، وماشاهده فيها من الخيرات والصناعات الفريدة ، ولاسيما صناعة الخزف بمالقة ، ثم يعرج على غرناطة وينعتها بعروس الأندلس ، ويصف لنا رياضها وبساتينها الغراء ، ويشير إلى مذكبا في عهد دخوله إياها ، وهو السلطان أبو الحجاج يوسف ، ولم يوفق يومئذ إلى لقائه لمرض ألمّ به .

وتدلى أوصاف ابن بطوطة بأن الأندلس كانت يومئذ ، بالرغم من توالى غارات النصارى عليها وغيثهم في ربوعها ، بلاداً زاهرة نضرة ، تزخر بالخيرات والنعم ، وتموج بالملايين من سكانها النشطين الأذكياء ، وصناعاتها الممتازة ، وتحتشد فيها جمهرة كبيرة من العلماء والفتهاء والكتاب والشعراء مما يدل على أنها كانت في هذا العصر تجوز أيضاً نهضة أدبية زاهرة (١) . ولا غرو فقد كان هذا العصر هو الذي سطع فيه نجم ابن الخطيب أعظم كتاب الأندلس وشعرائها في المائة الثامنة ، وبلغ فيه الشعر والترسل يومئذ ذروة الروعة والبهاء .

واستمر أبو الحجاج يوسف في الحكم بضعة أعوام أخرى ، ساد فيها السلام والأمن ، ولكنه ما لبث أن قتل غيلة أثناء صلاته بالمسجد الأعظم في يوم عيد الفطر سنة ٨٧٥٥ (أكتوبر سنة ١٣٥٤م) ، قتله مخبول لم يفصح عن بواعثه وأغراضه ، فزق وأحرق بالنار على الأثر (٢) . وكان مقتله وهو في السابعة والثلاثين في عنفوان فتوته ومجده . ويصف لنا ابن الخطيب ، وقد كان من شهود هذا المنظر المؤسى ، مقتل السلطان ، في قوله من رسالة بعث بها إلى السلطان أبي عنان ملك المغرب « ولم يرحه وقد اطمأنت بذكر الله تعالى القلوب ، وخلصت الرغبات إلى فضله المطلوب ، إلا شقى قيضه الله تعالى لسعادته ، غير معروف ولا منسوب ، ونحيب لم يكن بمعبر ولا محسوب ، تخلل الصفوف المعقودة ، وتجاوز الأبواب المسدودة ، ونخاض الحموع المحشودة ، لا تدل العين عليه شارة ولا بزة ، ولا تحمل على الحذر من مثله أنفة ولا عزة ، وإنما هو نحيب ممرور وكلب عقور ، وآلة مصرفة لينفذ بها قدر مقدور ، فلما طعنه وأثبتته وأعلق به شرك الحين ، فما أفلته حتى قبض عليه من الخالصان الأولياء ، من خير ضميره وأحكم تقريره ، فلم يجب عند الاستفهام

(١) راجع رحلة ابن بطوطة (مصر) ج ٢ ص ١٨٢ - ١٨٨ .

(٢) اللوحة البدرية ص ٩٧ .



صورة وثيقة صادرة من السلطان أبي الحسن المريني ملك المغرب بالموافقة على الصلح الذي عقده باسمه سلطان غرناطة يوسف أبو الحجاج مع بيدرو الرابع (دون بطر) ملك أراجون مؤرخة في صفر سنة ٧٤٦هـ (يونيه ١٣٤٥ م) ومحفوظة بمحفوظات التاج الأرجوني برقم ٥٢ .

جواباً يعتمل ولا عثر على شيء عنه ينقل ، لطفاً من الله أفاد براءة الذم ، وتعاورته للحين أبدي التزيق . وأتبع شلوه بالتمحريق ^(١) . ودفن السلطان الشهيد في مقبرة الحمراء إلى جانب آبائه مبكياً عليه من شعبه بدموع غزيرة . وكان السلطان يوسف في الواقع أعظم ملوك غرناطة همة وعزماً ، وأبدعهم خللاً ، وكان فوق فروسته ونجدته عالماً أديباً ، شغوفاً بالعمارة وإقامة الصروح الباذخة ، وهو الذي شيد البرج الأعظم بقصر الحمراء ، وأنشأ به أفخم أجنحته وأبدعها ، وهو الذي أسبغ على هذا الصرح العظيم بمنشآت وزخارفه ، بهاء وروعته التي ما زال يحتفظ بلمحة منها . وفي عصره زهت العلوم والآداب ، وزاغت شهرة العلماء المسلمين ، ولا سيما في الفلك والكيمياء .

وهكذا لبث بلاط غرناطة حقبة يقف من دولة بني مرين مواقف متناقضة ، ويتردد بين سياسة التحالف والقطيعة ، وبين الثقة والتوجس ؛ وليس من شك في أن بني مرين كانوا عضداً قيمياً لمملكة غرناطة الناشئة ، وقد أدوا لها في ميدان الجهاد وفي مقاتلة النصارى خدمات جليلة ، وبذلوا في ذلك السبيل تضحيات جمة ، وأعادوا بانتصارهم على النصارى في غير موقعة حاسمة ، ذكريات الزلافة والأرك ؛ ولولا غوث بني مرين ، واشتغال مملكة قشتالة بمحوادتها الداخلية غير مرة ، لما اشتد ساعد بني الأحمر ، وسطعت دولتهم خلال هذه الفترة المليئة بالحوادث الجسام ، واستطالت أيام الإسلام بالأندلس زهاء مائة عام أخرى . وقد كان من سوء الطالع ألا يدرك بلاط غرناطة خطر الخلاف ، مع الحليف الطبيعي الذي رتبته القدر فيما وراء البحر ، لإنجاد الأندلس عند الخطر الداهم ، وأن ينجح من آن لآخر إلى محاصرة هذا الحليف ومحاربته ، كما حدث حينما استولى ابن الأحمر على سبتة . كذلك لم تخل سياسة بني مرين لإزاء مملكة غرناطة أحياناً ، من الالتواء وبث الشكوك في نفوس أمراء بني نصر ، بما كانت تجنح إليه من مداخل الخوارج عليهم . وهكذا كانت قوى الإسلام تبدد في معارك أهلية ، وقد كان حرياً أن تتضافر على مغالبة العدو المشترك . على أن الدولة المرينية ذاتها ، تدخل منذ وفاة السلطان أبي الحسن في سنة ٧٥٢ هـ (١٣٥١ م) في دور انحلالها ، وتنحدر إلى غمر الحرب الأهلية ، وتشغل بشئون الداخلية ، وتفقد غرناطة بذلك ، العضد

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٥٦٥ .

الوحيد ، الذى كانت تدخره وقت الشدائد . وقد استمرت العلائق بين غرناطة
وبنى مرين عصراً آخر ، ولكنها غدت غير بعيد علائق بلاط ، تغلب عليها
دسائس القصور ، وانقطعت الجيوش المغربية عن العبور إلى الأندلس لمقاتلة
النصارى ، كما كانت تفعل أيام أبى يوسف وأبى يعقوب وأبى الحسن ، ولم
تعب بعد ذلك سوى مرة واحدة لمعاونة الخوارج فى جبل طارق ضد ملك
غرناطة حسبما يجىء ؛ وتركت غرناطة من ذلك الحين إلى مصيرها داخل الجزيرة
الإسبانية ، تغالب قوى النصرانية بمفردها ، وقدر استطاعتها ، وكان ملاذها
الأخير فى اختلاف كلمة النصارى ، وانشغالهم بذلك الخلاف عن محاربتها .

الفصل الثامن

الأندلس بين المدّ والجزر

ولاية محمد الغنى بالله . وزيره ابن الخطيب . سفارته إلى السلطان أبي حنان . ثورة حاكم جبل طارق المرينى . الثورة في غرناطة . مقتل الحاجب رضوان . عزل الغنى بالله وفراره . ولاية أخيه اسماعيل . جواز الغنى بالله وابن الخطيب إلى المغرب . ترحيب ملك المغرب بهما . قصيدة ابن الخطيب . ابن الخطيب وابن خلدون . مصرع سلطان المغرب وتغلب الوزير عمر على الدولة . الثورة في غرناطة ومقتل السلطان اسماعيل . عبور الغنى بالله وابن الخطيب إلى الأندلس . استرداد الغنى بالله العرش . زيارة ابن خلدون للأندلس وسفارته إلى بلاط قشتالة . الحرب الأهلية في قشتالة . موقعة نجارا . موقعة مونتييل . مصرع بيدرو ملك قشتالة وولاية أخيه الكونت هنرى . رواية ابن الخطيب عن هذه الحوادث . وزارة ابن الخطيب الثانية . استنثاره بالسلطة وجنوحه إلى الاستبداد . تقلص نفوذه وفراره إلى المغرب . اتهامه بالزندقة ومقتله . بعد نظره السياسى . شعوره بمصير الأندلس . جهود الغنى بالله الإنشائية . توطد الصداقة بينه وبين بلاط مصر . معاهدة صداقة بينه وبين أراجون . سيادة السلام والأمن في عصره . غزواته في أرض النصارى . وفاته وولاية يوسف الثانى . وزيره خالد . عقد السلم بين الأندلس وقشتالة . ثورة محمد ولد يوسف . وفاة يوسف وولاية ولده محمد . اعتقاله لأخيه يوسف . الوزير ابن زمرك ومصرعه . الحرب بين المسلمين والنصارى . استنجاد الأندلس بملوك المغرب . غزو النصارى لأحواز وفلة . غزو المسلمين لأراضى قشتالة . الهدنة بين الفريقين . وفاة محمد . تنظيم العلاقات الدولية بين غرناطة وأراجون . ولاية يوسف الثالث . نقض القشتاليين للهدنة . زحفهم على أراضى غرناطة . سقوط أنتقيرة وهزيمة المسلمين . تجديد الهدنة . ثورة جبل طارق وإخادها . السلم بين المسلمين والنصارى . حفلات الفروسية الأندلسية . وفاة السلطان يوسف وولاية ولده محمد الأيسر . صرامته وتكبره . الوزير يوسف بن سراج . بنو سراج وأصلهم . تعاقب الفتن في غرناطة . غزوات النصارى . نشوب الثورة وسقوط الأيسر . ولاية محمد الزغير . خلاله وصفاته . مطاردته لبني سراج . التجاؤهم إلى بلاط قشتالة . السعى لإعادة الأيسر . زحفه على غرناطة ودخوله الحمراء . مصرع الزغير وولاية الأيسر الثانية . الحرب بين الأيسر والنصارى . الفتن والدسائس حول غرناطة . قيام يوسف بن المول بمعاونة النصارى . عهده بالخضوع لملك قشتالة . تغلبه على الأيسر وانتزاعه العرش . وفاته وولاية الأيسر الثالثة . الحرب بين المسلمين والنصارى . مهاجمة النصارى لجبل طارق وهزيمتهم . تطور الحوادث في غرناطة . ثورة محمد الأحنف وولايته . الأمير ابن إسماعيل وسعيه لانتزاع العرش . تدخل النصارى ودسائسهم . الحرب الأهلية في غرناطة . هزيمة الأحنف وولاية ابن إسماعيل . تضارب الرواية في شأن ولاية العرش . خلال ابن إسماعيل وصفاته . الخلاف بينه وبين قشتالة . غزو القشتاليين لغرناطة . سقوط جبل طارق . انحلال دولة بني مرين وقيام دولة بني وطاس . قصور المغرب عن إنجاد الأندلس . خضوع سلطان غرناطة لقشتالة . الصراع بين العرش والأسر الكبيرة . تفكك المملكة الإسلامية . ولاية السلطان سعد . الخلاف بينه وبين ولده أبي الحسن . رواية رحالة مصرى عن هذه الحوادث . فتح الترك لقسطنطينية وصدهاء في اسبانيا . إحياء النزعة الصليبية .

لم تمض ساعات قلائل على مصرع السلطان يوسف أبي الحجاج في صبيحة يوم عيد الفطر سنة ٧٥٥ هـ ، حتى خلفه في الملك ولده محمد الملقب بالغنى بالله ؛ وكان حسداً ثانياً يافعا ، فاستأثر بشئون الدولة حاجبه ومولى أبيه من قبل أبو النعم رضوان . وكانت غرناطة بعد ما توالى عليها من الخطوب والأزمات في أواخر عهد أبيه يوسف ، قد تنفست الصعداء نوعاً منذ وفاة ملك قشتالة . وكان من بين كتابه ثم وزرائه لسان الدين بن الخطيب ، مؤرخ الدولة النصرية وأعظم كتاب الأندلس وشعرائها يومئذ . وكان هذا المفكر البارع ، أحد رجلين عظيمين شغلا يومئذ في الغرب الإسلامي ، مركز الصدارة في التفكير والكتابة ، هما ابن خلدون وابن الخطيب . وكان مولد ابن الخطيب في لوشة^(١) من أعمال غرناطة في سنة ٧١٣ هـ (١٣١٣ م) ، ودرس اللغة والأدب والطب والفلسفة ، وبرز في الشعر والنظم^(٢) ، وخدم الدولة منذ حداثة ، فتولى ديوان الكتابة للسلطان أبي الحجاج ، ثم انتقل إلى خدمة ولده محمد ، فلم يلبث أن نال ثقته ورقاه إلى مرتبة الوزارة ، وأوفده بعد ولايته بقليل على رأس وفد من كبراء الأندلس سفيراً من قبله ، إلى ملك المغرب السلطان أبي عنان المريني (أواخر سنة ٧٥٥ هـ) يستنصره على مغالبة طاهية قشتالة ، وليؤكد بينهما عهد الصداقة والمودة ، جرياً على سنة أسلافه من ملوك بني الأحمر ، فاستقبله السلطان بحفاوة ، وأنشد بين يديه قصيدة هذا مطلعها :

خليفة الله ساعداً القدر علاك ملاح في الدجى قمر
ودافعت عنك كفى قدرته ما ليس يستطيع دفعه البشر

فتأثر السلطان لقصيدته ، ووعد بإجابة سائر مطالبه ؛ وهكذا أدى ابن الخطيب سفارته بنجاح ، وكان له فيما تلا من حوادث الأندلس أعظم نصيب^(٣) .

وفي أواخر سنة ٧٥٦ هـ (أواخر سنة ١٣٥٥ م) ، حاول حاكم جبل طارق المريني عيسى بن الحسن بن أبي منديل أن يثير ضرام الثورة ، وكانت محاولة خطيرة ربما أفسحت للنصارى ثغرة يضربون منها الأندلس وجحافل المغرب ، ولكن أهل جبل طارق نكلوا عن مؤازرة الثائر ، وأخذت ثورته في المهيد ، وقبض

(١) لوشة وبالإسبانية Loja تقع على مسافة خمسة وخمسين كيلومتراً من غرب غرناطة ، وهي اليوم بلدة متواضعة ، وقد كانت أيام الدولة الإسلامية بلدة زاهرة .

(٢) سنعود إلى ترجمة ابن الخطيب واستعراض حياته الأدبية بإفاضة في الكتاب الرابع .

(٣) راجع الإحاطة (المقدمة ص ٣٧) ؛ ونفح الطيب ج ٣ ص ٥٢ ؛ وابن خلدون ج ٧

عليه وعلى ولده . وأرسلا مصفدين إلى المغرب فقضى بإعدامهما ؛ وأرسل السلطان أبو عنان إلى جبل طارق ولده أبا بكر السعيد ومعه قوة من الفرسان ، لحماية الثغر وتجديد تحصيناته (١) .

وفي أوائل عهد السلطان محمد ، شغلت قشتالة بحروبها الداخلية ، فأمنت غرناطة شر العدوان مدى حين . ولكن الحوادث الداخلية كانت تؤذن بتطورات جديدة . ففي رمضان سنة ٧٦٠ هـ (١٣٥٩ م) نشبت في غرناطة ثورة فقد فيها الغنى بالله ملكه . وكان أخوه إسماعيل المعتقل في بعض أبراج الحمراء ، تؤازره جماعة من الزعماء ، وفي مقدمتهم صهره الرئيس عبد الله ، وتدعوا له سرا ، وترقب الفرص للوثوب بمحمد ؛ وكانت أمه المقيمة بالقصر تؤيد مشاريعه بالسعي والبذل الوفير ، وكان السلطان محمد قد تحول بولده إلى سكنى قصر جنة العريف الواقع شمال شرقي الحمراء ، فانتهاز المتآمرون ذات مساء فرصة ابتعاده عن دار الملك ، وهاجموا حصن الحمراء (٢٨ رمضان سنة ٧٦٠ هـ) ، ونقلوا إلى قصر الحاجب رضوان وقتلوه بين أهله وولده ، ونادوا بإسماعيل أخى السلطان ملكاً مكانه . وشعر محمد بعقم المدافعة ، ففر إلى وادي آش . وحاول ابن الخطيب مصانعة السلطان الجديد ، فاستبقاه في الوزارة لمدة قصير . ثم ارتاب في نياته وأمر باعتقاله ومصادرة أمواله ، وكذلك أمر السلطان الجديد بعزل شيخ الغزاة يحيى بن عمر ابن رحو من منصبه والقبض عليه ، وعين مكانه في مشيخة الغزاة ، لإدريس ابن عثمان بن أبي العلاء ، وكان وقت نكبة أسرته ، قد فر إلى أراجون واحتوى بملكها ، فاستدعاه السلطان الجديد ، وأسند إليه منصب أسرته القديم .

وكانت تربط السلطان المخلوع علائق مودة وصداقة بملك المغرب ، السلطان أبي سالم ولد السلطان أبي الحسن . وكان أبو سالم قد لجأ إليه حينما تغلب عليه أخوه السلطان أبو عنان ونفاه إلى الأندلس فأكرم محمد مثواه . ولما وقعت الفتنة وخلع محمد ، رعى له أبو سالم عهد الصداقة والوفاء ، وأرسل إلى غرناطة سفيراً يسعى لدى حكومتها ، في إجازة السلطان المخلوع ووزيره المعتقل إلى المغرب ، فنجح السفير في مهمته ، وعاد إلى المغرب ومعه محمد والوزير ابن الخطيب (المحرم سنة ٧٦١ هـ) . واستقبلهما أبو سالم في فاس أبخل استقبال ، واحتفل بقدميهما في يوم مشهود ، وأنشده ابن الخطيب يومئذ قصيدة رائعة ، يدعو فيها لنصرة

سلطانة وغوثه ، هذا مطلعها :

سلا هل لديها من مخبرة ذكر
وهل باكر الوسمي داراً على اللوى
بلادى التى عاطيت مشمولة الهوى
وجوى الذى ربي جناحي وكره
ومنها :

قصده ناك يا خير الملوك على النوى
وأنت الذى تدعى إذا دهم الردى
ومثلك من يرعى الدخيل ومن دعا
لتنصفنا مما جنى عبدك الدهر
وأنت الذى ترجى إذا أنخلف القطر
بيالمين جاءه العز والنصر
فكان لإنشاده أعظم وقع فى النفوس ، وتأثر السلطان لدعوته وندائه أما
تأثر (١) . ولبت السلطان المخلوع فى بلاط فاس حيناً ، وتوثقت بينه وبين المؤرخ
الفيلسوف ابن خلدون ، وهو يومئذ من أكابر رجال الدولة المرينية ، روابط المحبة
والصدقة ، وعقدت أيضاً بين المؤرخ وبين قرينه ابن الخطيب أواصر صداقة
نمت وتوثقت فيما بعد . وكان كلا المفكرين العظيمين يقدرهما صاحبهما ويحله
أسمى مقام ، وكان كلاهما أستاذ عصره وقطره فى التفكير والكتابة . وكان محمد
ابن الأحمر يؤمل أن يسترد ملكه المنزوع بمعاونة بيدرو الثانى (بطر) ملك قشتالة
تنفيذاً للاتفاق الذى عقد بينهما ، ولكنه لم يفعل شيئاً لتحقيق هذا الأمل . والواقع
أن ملك قشتالة كان مشغولاً بشئون مملكته وما يسودها من اضطراب ، فأثر أن
يعتمد السلم مع سلطان غرناطة الجديد . وفى أثناء ذلك حدث انقلاب لى فيه
السلطان أبو سالم مصرعه ، واستبد بالدولة الوزير عمر بن عبد الله ، فسعى لديه
ابن الأحمر ليعاونه على استرداد ملكه ، فاستجاب إليه الوزير ، وما زال محمد
يدبر أمره بمعاونته ، حتى تهيأت الفرصة بوقوع الثورة فى غرناطة ، ومقتل منافسه
السلطان إسماعيل ، على يده المتغلب عليه الرئيس أبى سعيد ، فجاز إلى الأندلس
ونزل بمالقة ، ثم سار إلى رندة ، وكانت عندئذ من أملاك بنى مرين ، وقد نزل
له عنها الوزير عمر بن عبد الله ، وسار منها فى صحبه وعصبته إلى غرناطة فاستولى
عليها ، وفر الرئيس أبو سعيد إلى ملك قشتالة ، واسترد محمد ملكه (جمادى الآخرة

(١) الإحاطة ، المقدمة ص ٣٨ - ٤٣ ؛ واللمحة البدرية ص ١٠٨ ؛ وابن خلدون

ج ٧ ص ٣٠٦ وما بعدها ؛ وأزهار الرياض ج ١ ص ١٩٤ و ١٩٥ .

سنة ٥٧٦٣هـ - ١٣٦١م) وما لبث أن لحق به وزيره ابن الخطيب استجابة لدعوته ، وعاد إلى سابق مكانته ونفوذه . وكان في مقدمة ما فعله الغنى بالله أن قبض على إدريس بن أبي العلاء وقرابته من الغزاة ، وأودعوا السجن ، ومحا خطة مشيخة الغزاة من بني مرين ، وأسندها لابنه وولي عهده الأمير يوسف ، فلبث مضطلعا بها زهاء ثلاثة أعوام . وكان علي بن بدر الدين بن موسى بن رحو ، مقدما على الغزاة في منطقة وادي آش ، وكان حينما فقد الغنى بالله ملكه ، قد صحبه في منفاه . ولما عاد إلى الأندلس ، عاد معه . فلما فكر الغنى بالله في إحياء مشيخة الغزاة ، وبحث عمن يسندها إليه ، وقع اختياره على علي بن بدر الدين هذا ، فعينه فيها (٧٦٧ هـ) ، ولكنه ما لبث أن توفي بعد عام فقط من تقلده إياها ، فعندئذ قرر الغنى بالله أن يمحو هذه الخطة نهائياً من خطط مملكته ، وصار أمر الغزاة والمجاهدين إلى السلطان مباشرة ، وعنى بشئونهم بنفسه ، وخص القرابة المضطلعين بها بعطفه وتكرمه . وانتهت بذلك رئاسة بني مرين لهذه الخطة الهامة من خطط ، مملكة غرناطة بعد أن اضطلعوا بها زهاء قرن (١) .

ووفد المؤرخ ابن خلدون بعد ذلك بقليل على غرناطة ، فاحتفى به السلطان وأكرم مثواه ، وأرسله سفيراً عنه إلى بيدرو ملك قشتالة ليوثق أواصر الصداقة بينهما (٧٦٥ هـ - ١٣٦٣ م) ؛ فقصد ابن خلدون إلى بلاط إشبيلية ومعه هدية فخمة ، وأدى سفارته ببراعة ، وحظى بعطف ملك قشتالة وإعجابه . وهو يعرض لنا حوادث هذه السفارة في « التعريف » بتفصيل شائق ، ويقول لنا إنه عاين آثار أسرته بإشبيلية ، وقد كانت منزل بني خلدون أيام الدولة الإسلامية ، وفيها سطع نجمهم حيناً ، وإن ملك قشتالة وقف على تاريخ أسرته ، وعرفه به وبمكانته طيب يهودى فى بلاطه يدعى إبراهيم بن زرور ، وكان قد تعرف به فى مجاس السلطان أبى عنان من قبل ، ثم يقول لنا إن ملك قشتالة عرض عليه عندئذ أن يبقى فى خدمته ، وأن يسعى لدى زعماء دولته ليرد إليه تراث أسرته بإشبيلية ، ولكنه أبى . ولما اعتزم ابن خلدون العودة بعد أن أتم مهمته ، وهبه ملك قشتالة « بغلة فارهة بمركب ثقيل ولحام ذهيبين » فأهداهما إلى السلطان . وسر السلطان لنجاحه وأقطعته قرية البيرة بمرج غرناطة ، وعاش فى بلاط السلطان فترة أخرى ، معززاً مكرماً (٢) .

(١) راجع كتاب البرج ٧ ص ٣٧٧ - ٣٧٩ .

(٢) راجع تفاصيل هذه السفارة فى ابن خلدون ، فى « التعريف » أو ترجمته لحياته فى -

ولم يمض قليل على ذلك حتى شغلت قشتالة مدي حين بمنازعاتها وحروبها الداخلية ، وتمتعت غرناطة خلال ذلك بهدنة قصيرة ؛ وكان بيدرو ملك قشتالة (دون بطره) الملقب بالقاسي ، الذي خلف أباه ألفونسو والحادي عشر في سنة ١٣٥٠م قد غلا في استبداده وقسوته ، حتى أنه لم يحجم عن قتل زوجته الملكة بلانش دي بوربون أخت ملكة فرنسا بالسّم ، ليتزوج من خليلته ، فسخط عليه الأمراء والأشراف لما نالهم من عسفه ؛ وخرج عليه أخوه غير الشرعي الكونت هنري دي تراسمارا ، ولد إلبنورا دي كزمان ، وفر إلى فرنسا ، وتحالف مع ملكها شارل الخامس ، على أن يجمع له جيشاً من المرتزقة يقوده إلى قشتالة ؛ وأشرف على تنفيذ المشروع الدوق دي جسكلان زعيم القروسية الفرنسية يومئذ . وقاد هنري جيشه إلى قشتالة (١٣٦٦م) ، فلم يقو بيدرو على مقاومته لاشتداد السخط عليه ، وتخلي الشعب عنه ، وفر إلى ولاية جويين الفرنسية فيما وراء البرنيه ، واستغاث بالأمير إدوارد ولي عهد إنجلترا ، وقد كان يحكم هذه الأنحاء المحتلة من فرنسا باسم أبيه ، فاستجاب الأمير الإنجليزي لدعوته ، وسار معه إلى قشتالة في قواته ، واستطاع الكونت هنري بمعاونة شعبه ، ومعاونة ملك أراجون ، أن يحشد جيشاً عظيماً . والتقى الفريقان في «نجارا» في الثالث من إبريل سنة ١٣٦٧ ، فهزم الكونت هنري بالرغم من وفرة جموعه ، وقتل عدد كبير من جيشه ، واسترد بيدرو عرشه . ولكنه لم يف بوعده إلى الأمير الإنجليزي ، ولم يؤد إليه الجزية المشرطة ، فسخط عليه وارتد بقواته إلى الشمال . وعندئذ عادت الثورة إلى الاضطرام في قشتالة ، ووثب الشعب بيدرو مرة أخرى ، وعاد أخوه الكونت هنري فغزا قشتالة في أنصاره ، ونشبت بين الفريقين في «مونتيل» موقعة أخرى هزم فيها بيدرو وقتل ، وجاس أخوه مكانه على العرش (سنة ١٣٦٨م) ^(١) . وكان بين قوات الملك القليل فرقة من حلفائه المسلمين ، تعاونه وتذود عنه .

وقد كان وراء هذه الحرب الأهلية ، فيما يبدو خطة نصرانية موضوعة للقضاء على المملكة الإسلامية بالأندلس . ولدينا ما يلقى الضياء على ذلك في رسالة للوزير ابن الخطيب ، بعث بها في تلك الآونة ، على لسان سلطانه الغني بالله ، إلى سلطان

= كتاب البير ج ٧ ص ٢١٢ ، والتعريف (طبعة لجنة التأليف والترجمة) ص ٨٤ و ٨٥ ؛ والإحاطة ج ٢ ص ١٥ (طبعة قديمة) .

(١) David Hume : History of England (1848) V. II p. 202-205

تلمسان الأمير أبي حمو عبد الرحمن بن موسى ، ففي هذه الرسالة التي وردت على بلاط تلمسان في شهر رمضان سنة ٧٦٧ هـ (يونيه سنة ١٣٦٦ م) ، والتي وجهها بلاط غرناطة بطلب المعاونة والإنجاد ، يقول لنا ابن الخطيب ، إن كبير دين النصرانية (يريد البابا) ، لما أعيته الحيلة في جمع كلمة النصرانية في قشتالة ، حرك من النصاري جموعاً عظيمة لتعين القند (الكونت) على أخيه ، فإذا انتصر واستقل بالملك ، تحالف النصاري الإسبان جميعاً ضد المسلمين ؛ وقسم البابا تراث المملكة الإسلامية (الأندلس) بين قشتالة وأراجون ، فتختص منها أراجون بما يلي الشاطئ الشرقي الجنوبي حتى ألمرية ، وتختص قشتالة بالباقي ، وتجتمع الأساطيل النصرانية فتحتل الساحل الجنوبي ، وتقطع ما بين المغرب والأندلس ، ويقوم النصاري بالعيش في أراضي المسلمين ، وإتلاف سائر الغلات والأقوات. ويتوجه بلاط غرناطة بعد شرح هذه الخطة إلى أمير تلمسان بطلب الغوث والإنجاد. وقد استجاب أبو حمو إلى هذا النداء ، وبعث إلى الأندلس بالأموال ، والسفن المشحونة بالخيول والسلاح والأقوات . واستوجبت هذه الأريحية توجيه رسالة أخرى من سلطان غرناطة إلى الأمير أبي حمو معرباً فيها عن خالص الشكر والعرفان^(١)

تلك هي الخطة التي يقول لنا ابن الخطيب في رسالته ، إنها وضعت عندئذ للقضاء على مملكة غرناطة . ولكنها خطة لم يكن لها أي حظ من التنفيذ ، وكانت مملكة غرناطة دائماً يقظة على أهبة النود والدفاع .

وقد فصل لنا ابن الخطيب حوادث الحرب الأهلية في قشتالة في تلك الفترة ، وقد كان معاصراً لها وقريباً من مسرحها . وروايته تدل على حسن اطلاعه ، ودقة فهمه لسير الحوادث ، فهو يقول لنا مثلاً بعد أن أشار إلى ثورة الكونت هنري على أخيه واستيلائه على العرش :

« ولما توسد له الأمر تحرك لاستئصال شأفة المخلوع ، فأجلى عن غليسية في البحر ، واستقر وراء دروب قشتالة ، وانتبذ عن الخطة القشتالية ، ولجأ إلى ابن صاحب الأنتكيرة (انجلترام) وهو المعروف بـرقسين ، وبين أرضه وبين قشتالة ثمانية أيام ، فقبله ولد السلطان المذكور بأول ما تلقاه من تلك الأرض ، وسفر

(١) وردت رسالة ابن الخطيب في كتاب « بنية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد » تأليف الوزير يحيى بن خلدون (طبع الجزائر ١٩١٠) ج ٢ ص ١٧٠ - ١٧٤ ، ووردت به الرسالة الثانية ، وهي أيضاً من إنشاء ابن الخطيب ، في ص ١٧٤ - ١٨١ .

بينه وبين أبيه ، فأنكر الأب استئذانه إياه والمراجعة في نصره ، حمية له وامتناعاً منه . ونحال هذه الأمة غريبة في الحماية الممزوجة بالوفاء ، والركة والاستهانة بالنفوس في سبيل الحمية ، عادة العرب الأول ، وأخبارهم في القتال غريبة ... وبعد انقضاء سبعة عشر يوماً ، كان رجوعه ورجوع الرئيس المذكور معه ، مصاحباً بأمراء كثيرين من أخذانه ، وبعد أن تسلموا ما لا كثيراً ... وكان اللقاء بين الفريقين يوم السبت سادس أبريل العجمي بموافقة شعبان من عام ثمانية وستين (أبريل ١٣٦٧ م) . وكان هذا الجمع الإفرنجي آتين من الأرض الكبيرة (فرنسا) وكان على مقدم القوم المذك (الدوق) أخو البرنس (Prince of Wales) ، وكان في مقدمة القند (الكونت) المستأثر بملك قشتالة أخوه شانجه (سانشو) ... الخ . ثم يحدثنا بعد ذلك عن هزيمة « القند » وفراره إلى فرنسا ، واستمرار الفتنة بينهم إلى وقت كتابة روايته (١)

تولى ابن الخطيب وزارة الغنى بالله للمرة الثانية ، وهو متمتع بأقصى مراتب العطف والثقة ، واستأثر في البلاط وفي الدولة بكل نفوذ وسلطة ، وقضى على نفوذ منافسه الوحيد في السطة وهو شيخ الغزاة عثمان بن يحيى ، وما زال بالسلطان حتى نكبه ، فخلا له الحو وتبوا ذروة القوة والسلطان . وكان من معاونيه في الوزارة تلميذه الكاتب والشاعر الكبير أبو عبد الله بن زمرّك ، وقد تولى كتابة السر في كنفه وتحت رعايته . وانظّاهر أن اجتماع السلطان والنفوذ في يد ابن الخطيب على هذا النحو كان سبباً في انحرافه عن جادة الاعتدال والروية ، فجنح إلى الاستبداد واتباع الهوى ، وبث حوله معتركا من البغضاء والخصومة ، وكثرت في حقه السعاية والوشاية ، واتهمه خصومه بالإلحاد والزندقة ، لما ورد في بعض كتاباته . وشعر ابن الخطيب في النهاية أن السعاية قد بدأت تحدث أثرها ، وأن عطف مليكه قد فتر ، ونخشي العاقبة على نفسه ، فعول على مغادرة الأندلس ، وسار إلى الثغور الغربية في نفر من خاصته بحجة تفقدها ، فلما وصل إلى جبل طارق عبر البحر فجأة إلى سبتة (٧٧٣ هـ) بتفاهم سابق بينه وبين ملك المغرب السلطان عبد العزيز المريني ، وكانت تربطه به مودة وثيقة . وهكذا غادر ابن الخطيب الوطن والأهل والسلطان ، بعد أن تربع في الوزارة للمرة الثانية زهاء عشرة أعوام . وخلفه في الوزارة تلميذه ابن زمرّك ، وكان قد انقلب عليه في أواخر أيامه ، وغدا من خصومه ومن أشدهم سعياً إلى نكته .

وقضى ابن الخطيب في منفاه زهاء ثلاثة أعوام ، واستقر في فاس معزراً مكرماً ، ولكن السلطان عبد العزيز ما لبث أن توفي ، وساءت الأمور في عهد ولده الطفل الملك السعيد ، ووقع انقلاب انتهى بجلوس السلطان أحمد بن أبي سالم على العرش ، وهو صديق الغنى بالله وحليفه . وكان بلاط غرناطة وخصوم ابن الخطيب في الأندلس يجدون في ملاحقته ومطاردته ، فسعوا عندئذ لدى بلاط فاس في القبض عليه واتهامه بالزندقة ، وكلل مسعاهم آخر الأمر بالنجاح ، واعتقل ابن الخطيب وأُتِيَ بعض الفقهاء المتعصبين بوجوب قتله تنفيذاً لحكم الدين ، ودس عليه الوزير سليمان بن داود بعض الأوغاد ، فقتلوه في سجنه ، وذلك في أوائل سنة ٧٧٦ هـ (أواخر ١٣٧٤ م) . وهكذا ذهب الكاتب والشاعر الكبير ضحية الغدر السياسي والتعصب الشائن (١) .

وكان ابن الخطيب سياسياً بعيد النظر ، وكان يرى في حوادث الأندلس شبح المستقبل الرهيب واضحاً ، ويستشف بنافذ بصيرته ما وراء الحجب ، من نهاية محتومة لهذا الوطن الذي مزقته الأهواء وأضنته الفتنة ، وكان يرى هذا المصير المحزن قبل وقوعه بأكثر من قرن ، ويهيب بقومه وإخوانه المسلمين فيما وراء البحر أن يبادروا إلى غوثه ونصرته ، وله في ذلك رسائل ونداءات عديدة مؤثرة تفيض قوة وبلاغة ، في الحث على اليقظة ، والذود عن الدين والوطن ، والنذير بما يهددهم ويهدد دينهم ووطنهم ، من خطر المحو والفناء ، إذا تقاعسوا أو تخاذلوا وافترقت كلمتهم (٢) .

وأبلغ من ذلك كله في الدلالة على شعور ابن الخطيب بخطر الفناء الذي ينتظر الأندلس ، ما وجهه في وصيته إلى أولاده من النصيح ، بعدم الإسراف في اقتناء العقارات بالأندلس إذ يقول لهم : « ومن رزق منكم ما لا بهذا الوطن القلق المهاد الذي لا يصلح لغير الجهاد ، فلا يستهلكه أجمع في العقار ، فيصبح عرضة للمذلة والاحتقار ، وماسعياً لنفسه أن يتغلب العدو على بلده في الافتضاح والافتقار ، ومغوقاً عن الانتقال

(١) تناولنا هذه الحوادث بالتفصيل عند كلامنا عن حياة ابن الخطيب في الكتاب الرابع . وراجع ابن خلدون ج ٧ ص ٣٤٠ و ٣٤١ . هذا وقد دون ابن الخطيب ما شهد في منفاه في المغرب لأول مرة من الحوادث في كتاب سماه « نفاضة الجراب في علالة الإغتراب » . ومنه نسخة مخطوطة في مكتبة الإسكوريال تحفظ برقم ١٧٥٥ الفيزري .

(٢) نقل إلينا المقرئ في نفح الطيب وأزهار الرياض كثيراً من هذه الرسائل . وراجع الإحاطة ج ٢ ص ٣١ - ٣٩ .

أمام النواب الثقال ، ولما كان رزق العبد على المولى فالإجمال في الطلب أولى» (١) .
وسلك الغنى بالله في حكمه مسلك القوة والحزم ، واشتهر بصرامته وعدله ،
وعنى بمشاريع الإنشاء والعمران ، فأمر ببناء المارستان الأعظم (المستشفى) في غرناطة ،
وأنفق عليه أموالاً عظيمة ، وعنى بتحسين الثغور وعمل على بث روح الجهاد
والحمية في النفوس ، للدفاع عن الدين والوطن ، وكان داعيته في ذلك وسفيره
إلى جمهور الأمة ، وزيره القوى البليغ ابن الخطيب ، فعمل على إذكاء الشعور
ببراعة ، واستمرت رسائله وخطبه المؤثرة في ذلك ترى أينما كان ، بالأندلس
أو المغرب ، حتى نهاية حياته .

وفي أواخر سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٦ م) نظم بعض الزعماء الخوارج مؤامرة
لخلع السلطان وإقامة بعض قرابته مكانه . وهاجم الخوارج قلعة الحمراء فمزقهم
الجنود وقبض على زعيمهم ، وزاد فشل المؤامرة مركز السلطان توطدا .
وفي عصر الغنى بالله توثقت أواصر الصداقة والمودة بين بلاط غرناطة وبلاط
القاهرة ، واتصلت بينهما السفارة والمكاتبة . ومما وقفنا عليه من ذلك رسالة بعث
بها « أمير المسلمين » بالأندلس محمد بن يوسف بن اسماعيل الغنى بالله ، إلى سلطان
مصر الأشرف شعبان ، وهي من إنشاء وزيره ابن الخطيب . وفيها يعرب سلطان
غرناطة عن اغتباطه بتلقى رسالة سلطان مصر ، ويشيد بموقف غرناطة كمرکز
للجهاد ، وتعرضها الدائم لمهاجمة العدو ، ويتقدم إلى السلطان الأشرف بالتهنئة على
ما أحرزت جنوده من نصر حاسم على الفرنج ، في موقعة الإسكندرية في سنة
٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) (٢) ، وأنه مما يزيد في غبطتهم أن هذا الحادث لا بد أن
يذكى شعور الإشفاق والعطف على الأندلس ، التي يدهمها الأعداء بشرهم من
البر والبحر بلا انقطاع (٣) .

وفيما يختص بالعلاقات الدبلوماسية ، فقد عقد الغنى بالله بالأصالة عن نفسه
وبالنيابة عن صديقه أبي فارس عبد العزيز سلطان المغرب ، مع بيدرو الرابع

(١) نقل إلينا المقرئ في نفع الطيب وصية ابن الخطيب كاملة ، وهي من أبدع الوصايا
الأبوية السياسية (بولاق ج ٤ ص ٨١٧ وما بعدها) ؛ وكذلك في أزهار الرياض ج ١ ص ٣٢ وما بعدها .
(٢) هاجمت خلة من الفرنج بقيادة لوسنيان ملك قبرص ثغر الإسكندرية في صفر سنة ٨٧٦٧ هـ ،
واحتل الفرنج الإسكندرية أياماً ، ولكنهم هزموا وطردوا بعد معارك شديدة .

(٣) يراجع نص هذه الرسالة بأكمله في صبح الأعشى ج ٨ ص ١٠٧ - ١١٥ ، وهي نموذج
بارز من أسلوب ابن الخطيب السياسي .

ملك أراجون معاهده صلح وصداقة لمدة ثلاثة أعوام من تاريخ عقدها وهو شهر رجب سنة ٧٦٨ هـ (مارس ١٣٦٧ م) ، وفيها يتعهد كل من الفريقين بأن يمتنع رعاياه عن الإضرار بالفريق الآخر في البر والبحر في السر أو الجهر ، وأن يكون لرعايا كل فريق حق التجول والمتاجرة بأرض الفريق الآخر ، والمرور في البر والبحر ، دون اعتراض أو مغارم غير عادية ، وأن تطلق أراجون حرية الهجرة للمدجنين ، وأن يمتنع كل فريق عن معاونة أعداء الفريق الآخر (١) .

واستطال حكم الغنى بالله حتى سنة ٧٩٣ هـ (١٣٩١ م) وساد الأمن والسلام في عصره ، وشغلت قشتالة عن محاربة المسلمين بحوادثها الداخلية وحروبها الأهلية ، وغلب التهادن في تلك الفترة بين غرناطة وقشتالة ، واستطاعت السياسة الغرناطية أن تنهز فرصة الحوادث الداخلية في المملكة النصرانية ، وأن تمد يد التحالف والحماية غير مرة للملك قشتالة المخلوع بيدرو القاسي ، إذكاء للحرب الأهلية بين النصراري .

ولم يخل عصر الغنى بالله من مواطن الجهاد واستئناف الصراع مع القشتاليين . وكانت القوات القشتالية ، قد تسربت من أطراف ولاية إشبيلية الجنوبية ، إلى أحواز رندة الشرقية ، واحتلت فيها موقعين حصينين من أراضي المسلمين هما برغة وجيرة (٢) ، واستطاعت بذلك أن تقطع الطريق بين رندة ومالقة ، ففي شعبان سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٦ م) ، زحف المسلمون على هذين المعتقلين من الشمال والجنوب واحتلوهما بعد قتال شديد . وفي الوقت نفسه استؤنفت حركة الغزو لأراضي النصراري ، ففي شعبان سنة ٧٦٨ هـ (١٣٦٧ م) ، زحف الغنى بالله في قواته على أراضي ولاية إشبيلية ، وغزا مدينة أطريرة الواقعة جنوب شرق إشبيلية ، وافتتح حصن أشر من معاقلها ، واستولى على كثير من الغنائم والسبي ، وعاث في أحواز إشبيلية ذاتها ، وهي يومئذ عاصمة قشتالة . وفي أواخر هذا العام سار الغنى بالله في قوة كبيرة إلى مدينة جيآن ، وحاصرها بشدة ، واقتحمها بعد معارك شديدة ، واستولى المسلمون على سائر ما فيها من الأموال والسلاح والنعم ، وأسروا جموعاً كثيرة ، ولكنهم لم يحتلوها ، لصعوبة الدفاع عنها ، وتعذر الاحتفاظ بها ، وهي

(١) Archivo de la Corona de Aragón, No. 152

(٢) برغة هي Burgo الحديثة ، وهي تقع على مقربة من شرق رندة ، وجيرة Quera ، وتقع في جنوب شرق رندة .

واقعة في قلب أراضي العدو. وكان ذلك في أواخر شهر المحرم سنة ٥٧٦٩ هـ (سبتمبر ١٣٦٧ م). ثم اقتحم الغزاة في طريقهم مدينة باغة، الواقعة على مقربة من جنوب غربى جيان، ونهبوها ودمروها. وفي شهر ربيع الأول من هذا العام، زحف الغنى بالله على مدينة أبتدة، شمال شرقى جيان، وافتتحها عنوة، ودمر صروحها وكنائسها، وأسوارها، وتركها خراباً بلقعا، وعاد إلى غرناطة مكللاً بغار الظفر^(١). وفي أواخر سنة ٥٧٦٩ هـ، سار الغنى بالله جنوباً إلى الجزيرة الخضراء، وحاصرها، وأرغم النصارى على إخلائها بعد قتال مرير، وبذا عاد الشجر القديم فترة أخرى إلى أيدي المسلمين. ثم رأى المسلمون أن يهدموا حصونها وصروحها ومعالمها، حتى لا تعود سليمة إلى أيدي النصارى، فهدمت وغدت قاعاً صفصفاً. وفي ربيع سنة ٥٧٧١ هـ (١٣٧٠ م) زحف المسلمون ثانية على أحواز إشبيلية، وحاصروا مدينة قرمونة الحصينة، مدى حين، واقتحموا مرساة الواقعة في جنوب شرقى قرمونة. وهكذا ظهرت المملكة الإسلامية في تلك الفترة بمظهر من القوة لم تعرفه منذ بعيد، وكان عصر الغنى بالله عصراً ذهبياً مليئاً بالسود والرخاء والدعة، لم تشهده الأمة الأندلسية منذ عصور.

— ٢ —

ولما توفى الغنى بالله سنة ٥٧٩٣ هـ (١٣٩١ م) خلفه ولده يوسف أبو الحجاج (يوسف الثانى)، وقام بأمر دولته خالد مولى أبيه، فاستبد بالأمر وقتل إخوة يوسف الثلاثة سعداً ومحمداً ونصراً في محبسهم؛ ثم نخط يوسف على وزيره وقتله، لما نعى إليه من أنه يحاول اغتياله بالسم بالتفاهم مع طبيبه يحيى بن الصائغ اليهودى، وزج الطبيب إلى السجن ثم قتل بعد ذلك^(٢). واستأثر يوسف بالسلطة، وكتب إلى ملك قشتالة في طلب المهادنة والسلام، وأطلق سراح عدد من الفرسان النصارى الذين أسروا في بعض المعارك السابقة، وأرسلهم مكرمين إلى بلاط إشبيلية، فاستجاب ملك قشتالة إلى دعوته وعقد السلم بين المملكتين.

(١) الإحاطة ج ٢ ص ٥٤ - ٥٨؛ والاستقصاء ج ٢ ص ١٣٢؛ وقد وصف ابن الخطيب هاتين الغزوتين، وكان من مرافقى الحملة، في رسالتين بعث بهما عن لسان سلطانه إلى السلطان عبدالعزيز المرىنى ملك المغرب، وقد وردتا في كتابه «ريحانة الكتاب ونجمة المنتاب» مخطوط بالإسكوريال (رقم ١٨٢٥ الغزيرى) - اللوحات ٣٧ - ٤٤.

(٢) الاستقصاء ج ٢ ص ١٤٢.

وحاول محمد ولد السلطان يوسف الثورة ضد أبيه ، إذ كان يؤثر أخاه الأكبر يوسف بمحبته وثقته ، وقد اختاره لولاية عهده ، وزحف بالفعل في أنصاره على الحمراء ، ولكن المحاولة فشلت ، وتفرق الثوار حين برز إليهم سفير المغرب وقد كان وقتئذ بالقصر ، وأنبهم على مسلكهم ، وأنصحهم بالتزام الهدوء والاتحاد ضد النصارى (١) .

وقام المسلمون في عهد يوسف بالإغارة على أراضي النصارى في أحواز مرسية ولورقة ، وعاث الفرسان النصارى من جانبهم في فحص غرناطة (المرج) La Vega فردهم المسلمون وأوقعوا بهم هزيمة شديدة . ثم عاد الفريقان إلى التهادن والسلم . وتوفي السلطان يوسف في أوائل سنة ٥٧٩٧ هـ (١٣٩٤ م) بعد حكم قصير لم يدم سوى ثلاثة أعوام وبضعة أشهر . وقيل إنه توفي مسموما على أثر مكيدة دبرها سلطان المغرب أبو العباس المريني لإهلاكه ، وذلك بأن أرسل إليه هدايا بينها معطف جميل منقوع في السم ، فلبسه يوسف ومسه أثناء ركوبه وهو عرقان ، فسرى إليه السم وتوفي ، وهي رواية تحمل طابع الخيال المغرق (٢) .

وخلف يوسف ولده محمد بعد أن دبر أمره مع الزعماء ورجال الدولة لإقصاء أخيه الأكبر يوسف عن العرش ، ثم قبض على أخيه يوسف وزجه إلى قلعة شلوبانية الحصينة على مقربة من ثغر المنكب ، وشدد في الحجر عليه حتى يأمن منازعته إياه على الملك . وكان محمد وافر العنف والجرأة بعيد الأطماع ، بيد أنه كان في الوقت نفسه أميرا موهوبا ، رفيع الخلال ، فياض العزم والشجاعة . ولأول ولابته استدعى الوزير أبا عبد الله بن زمرك لحجابه . وكان هذا الوزير الطاغية قد حلف أستاذه ابن الخطيب في وزارة الغنى بالله مدى أعوام طويلة ، فلما اشتد عيئه واستبداده نكبه الغنى بالله ونفاه من الحضرة ؛ ولم يمكث في الوزارة هذه المرة سوى أشهر قلائل أساء فيها السيرة وكثر خصومه ، وفي أواخر سنة ٧٩٧ هـ (١٣٩٥ م) دهمه جماعة من المتآمرين بمنزله وقتلوه وآله (٣) .

وسعى السلطان محمد إلى تجديد صلات المودة والتهادن بين غرناطة وقشتالة ،

(١) Condé : Historia de la Dominación de los Arabes en España; V. III. p. 169

(٢) Condé : ibid; V. III. p. 171 ؛ وراجع الاستقصاء حيث يردد هذه الرواية نقلا عن

مصدر إسباني آخر ، ج ٢ ص ١٤٢ .

(٣) نفح الطيب ج ٤ ص ٢٨٦ و ٢٩٠ ، وقد عرضنا إلى حياة الوزير ابن زمرك وآثاره الأدبية تفصيلا في الكتاب الخامس .

وعقدت الهدنة فعلا بين الفريقين . بيد أنه لم يمض قليل على ذلك حتى أغار القشتاليون على بسائط غرناطة وعاثوا فيها ، فحشد محمد قواته وغزا ولاية الغرب (١) وخرّبها ، واستولى على حصن أيامونتي (٢) ، وعاد مثقلا بالغنائم والسبي . وانتقم النصارى بالعود إلى غزو أراضي غرناطة . وكان هنري الثالث ملك قشتالة تحدوه نحو مملكة غرناطة أطماع عظيمة ، وكان يجد في الأهبة للحرب ويجهز الجيوش والأساطيل ، وكان محمد من جانبه يتأهب للدفاع ، ويراسل ملوك العدو لإنجاده ؛ وبعث ملك تونس وأمير تلمسان بالفعل إلى المسلمين نجدة من الوحدات البحرية ، ولكنها هزمت ومزقت تجاه جبل طارق . ثم عقد بين الفريقين اتفاق هدنة وتحكيم لتقدير الأضرار لمدة عامين (٦ أكتوبر سنة ١٤٠٦ م) (٣) . ولكن هنري الثالث توفي بعد ذلك بقليل (أواخر سنة ١٤٠٦ م) وخلفه على عرش قشتالة ولده خوان (يوحنا) طفلا تحت وصاية أمه وعمه فرناندو . ولم يحترم الوصي الجديد أحكام الهدنة المعقودة ، بل عمد إلى تنفيذ مشاريع قشتالة بمنتهى القوة والعزم ، فسار إلى غزو أراضي المسلمين ، واستولى على حصن الصخرة على مقربة من رندة ، واقتحم حصن باغة (٤) ، وعاث في تلك الأنحاء واسترد حصن أيامونتي من المسلمين . وبادر محمد من جانبه بغزو أراضي قشتالة من ناحية الشرق وعاث في ولاية جيان ، فاضطر فرناندو أن يسير إلى الشرق لإنجاد النصارى ، واستمرت المعارك بين الفريقين حيناً ، ثم انتهت بعقد الهدنة بينهما لمدة ثمانية أشهر (أوائل سنة ١٤٠٨ م) . ولما عاد محمد إلى غرناطة اشتد به المرض ولم يلبث أن توفي وذلك في سنة ٨١١ هـ (١٤٠٨ م) .

على أنه في الوقت الذي كانت الحرب تضطرم فيه بين غرناطة وقشتالة على هذا النحو بلا انقطاع ، كانت غرناطة ترتبط بمملكة أراجون منافسة قشتالة وخصيمنتها أحياناً ، بصلات المودة والصداقة . ففي ربيع الأول سنة ٨٠٨ هـ الموافق سبتمبر سنة ١٤٠٥ م ، عقدت بين السلطان محمد وبين مرتين ملك أراجون وولده مرتين ملك صقلية ، معاهدة صداقة وتحالف ، توضح لنا نصوصها الدقيقة الشاملة

(١) غرب الأندلس وهي بالإفرنجية Algarve محرفة عن كلمة الغرب .

(٢) أيامونتي Ayamonte مدينة صغيرة تقع على المحيط الأطلنطي ، وهي بلد الحدود بين إسبانيا والبرتغال .

(٣) Archivo General de Simancas : P.R. 11-1 ، ولدينا صورة فتوغرافية من

نصها القشتالي وفي ذيلها توقيع بالعربية لمندوب سلطان غرناطة .

(٤) وهي بالإسبانية Priego .

مجلد المسائل التي كانت في هذا العصر ، تشغل المسلمين والنصارى في شبه الجزيرة الإسبانية ؛

وتنص هذه المعاهدة على أن يعقد بين الدولتين « صالح ثابت » لمدة خمسة أعوام من تاريخ عقدها ، وأنه يحق لرعايا كل من الفريقين أن يتردد على أراضي الفريق الآخر ، آمنين في أنفسهم وأموالهم للتجارة والبيع والشراء ، وأنه متى احتاج ملك أراجون أو ملك صقلية إلى معاونة على أعدائهما ، فإن سلطان غرناطة ينجدهما بأربعمائة أو خمسمائة فارس على أن يتكفلاهما بنفقاتهم ، وذلك بشرط أن لا يكون هذا العدو صديقاً لمملكة غرناطة ، وأن يعامل الملكان سلطان غرناطة بالمثل فيقوموا بإعانتته بأربعة أو خمسة سفن مشحونة بالرجال والسلاح ، على أن يتكفل هو بنفقاتها ، وعلى ألا يكون هذا العدو صديقاً لمملكة أراجون ، وألا يساعد أحد من الفريقين الثوار الذين يخرجون على الفريق الآخر بأي نوع من أنواع المساعدة .

ونصت فيما يتعلق بالمسائل البحرية ، على أنه يسمح لسفن كل من الفريقين أن ترسو في موانئ الفريق الآخر ، وأن تزاول البيع والشراء آمنة ، وأن تتلقى سائر أوجه الإعانة المشروعة ، وألا تتعرض سفينة تابعة لأحد الفريقين للسفن الراسية في موانئ الآخر ، وأن يسمح للسفن التي تصاب بعطب من جراء العواصف أو غيرها ، وتكون تابعة لأحد الفريقين ، أن تصلح في موانئ الآخر ، وتعان على ذلك ، وأنه إذا استولى عدو على سفينة تابعة لأحد الفريقين ، وقصدت مياه الطرف الآخر ، فإنه لا يسمح لها بأن تبيع شيئاً من حمولتها فيه ، وكذلك يكون الحكم فيما يتعلق بالأشخاص أو السلع المأخوذة من أحد الطرفين .

ونصت فيما يتعلق بتسريح الرعايا ، على أنه إذا انتزع أحد الطرفين من عدوه مدينة أو موضعاً ما ، وكان فيه أحد من رعايا الطرف الآخر ، فإنه يسرح في الحال مؤمناً في نفسه وماله ، ويكون الحكم كذلك فيما يتعلق بالسفن التي يستولى عليها أحد الطرفين من عدوه ؛ وأنه إذا كان لدى أحد الطرفين أسرى من رعايا الطرف الآخر ، فإنه يفك أسرهم لقاء دفع مائة دينار ذهباً عن الشخص الواحد ، فإذا كان الأسير ملكاً لأحد من رعايا أي الطرفين ، فإنه يسمح بافتكاك أسره نظير دفع الثمن الذي اشترى به ، ويلتزم كل من الفريقين ألا يخفى أو يغيب أحداً من الأسرى ؛ وأنه إذا دخل مجاورون تابعون لأحد الطرفين في أرض الآخر واحتملوا منها أسرى أو بضائع ، فإنها تطلب ممن تستقر لديه ، ويأمر قائد الموضع الذي

به الأسرى والبضائع بردها لمن أخذت منهم ، وبالبعث عن الفاعلين ومعاقبتهم^(١) ولما توفي محمد خلفه في الملك أخوه يوسف (الثالث) ، وكان سجيناً طوال حكمه بقلعة شلوبانية كما قدمنا . ودخل يوسف غرناطة في حفل فخم ، واستقبله الشعب بحماسة . وكان يتمتع بخلال حسنة ، ويعلق عليه الشعب آمالاً كبيرة . وكان أول ما عني به أن يسعى إلى تجديد الهدنة مع قشتالة ، فاستجاب بلاط قشتالة إلى دعوته في البداية وعقدت الهدنة بين الفريقين لمدة عامين . ولكنه لما سعى بعد مضي العامين إلى تجديدهما أي القشتاليون ، وطلبوا إليه الخضوع لقشتالة إذا شاء استمرار السلم ، وأنذروه بإعلان الحرب ، فرفض وأخذ في الأهبة للقتال . وكان ملك قشتالة يومئذ خوان الثاني تحت وصاية أمه وعمه فرناندو ، فما كادت تنتهي الهدنة حتى زحف النصارى على أرض غرناطة بقيادة فرناندو الوصى ، وضربوا الحصار حول مدينة أنتقيرة في شمال غربي مالقة ، فهرع يوسف إلى لقاء الغزاة ، وحاولت حامية أنتقيرة أن تحطم الحصار ، وأنزلت بالمحاصرين خسائر فادحة ، ثم نشبت بين المسلمين والنصارى معركة كبيرة بجوار أنتقيرة ، وبذل المسلمون لإنقاذ المدينة المحصورة جهوداً رائعة ، ولكنهم هزموا أخيراً واضطرت المدينة إلى التسليم ، فدخلها النصارى (سنة ١٤١٢ م) وأسبغ على فاتحها فرناندو من ذلك الحين لقب « صاحب أنتقيرة » . وعاث النصارى بعد ذلك في أراضي المسلمين . وأخيراً رأى السلطان يوسف أن يسعى إلى عقد الهدنة مع قشتالة حقناً لدماء المسلمين ، واجتناباً لاستمرار هذه المعارك المخربة ، فارتضى بلاط قشتالة وعقد السلم بين الفريقين ، على أن يطلق ملك غرناطة سراح بضع مئات من الأسرى النصارى دون فدية .

وفي عهد يوسف ثار أهل جبل طارق ، ودعوا ملك المغرب أبا سعيد المريني إلى احتلال الشجر ، لاعتقادهم أنه أقدر على حمايتهم من غارات النصارى ، فبعث إليهم أبو سعيد أخاه عبد الله في الجند تخلصاً منه ، ولكن ابن الأحمر ما كاد يقف على هذه المؤامرة حتى أرسل المدد إلى حاكم جبل طارق ، واستطاع الغرناطيون أن يهزموا المغاربة في موقعة حاسمة ، وأسر زعيمهم عبد الله ، فأكرم ابن الأحمر وفادته ، ثم رده إلى المغرب ، وزوده بالمال وبعض الجند ليناهض أخاه ،

فهرعت القبائل لتأييده ، واستطاع أن ينتزع الملك لنفسه من أخيه (١) .
ولما عقدت الهدنة بين مملكتي قشتالة وغرناطة ، أخذت أواصر السلم تتوثق
بينهما ، وسادت بين بلاط غرناطة وبلاط إشبيلية علائق المودة والاحترام المتبادل ،
ولم تشهد غرناطة من قبل عهداً كعهد يوسف ساد فيه الوثام بين الأمتين الحصيمتين .
وكانت غرناطة يومئذ تغص بالفرسان والأشراف النصاري ، تجتذبهم خلال أميرها
وبهاء بلاطها وفروستها . وكانت حفلات المبارزات الرائعة تعقد بين الفرسان
المسلمين والنصارى في أعظم ساحات المدينة ، وتجرى طبقاً لأرفع رسوم الفروسية
الإسلامية ، ويشهدها أجمل وأشرف العقائل المسلمات سافرات ، وتبدو غرناطة
في تلك الأيام المشهودة في أروع الحلل وأبدع الزينات (٢) . وكانت الأمة الأندلسية
تتمتع يومئذ في ظل ملكها الرشيد العادل بنعم الرخاء والسكينة والأمن ، ولكنها
كانت تنحدر في نفس الوقت في ظل هذا السلم الخلب والترف الناعم ، إلى نوع
من الانحلال الخطر الذي يعصف بمنعتها وأهباتها الدفاعية .

وتوفي السلطان يوسف في سنة ٨٢٠ هـ (١٤١٧ م) بعد حكم دام نحو تسعة
أعوام ، وكان أميراً راجح العقل ، بارع السياسة ، عظيم الفروسية والنجدة ، محباً
لشعبه ، فكان حكمه القصير صفحة زاهية في تاريخ مملكة غرناطة .

— ٣ —

وتوالى على عرش غرناطة بعد السلطان يوسف عدة من الأمراء الضعاف ،
أولهم ولده أبو عبد الله محمد الملقب بالأيسر . وكان أميراً صارماً سيئ الخلال ، متعالياً
على أهل دولته ، بعيداً عن الاتصال بشعبه ، لا يكاد يبدو في أية مناسبة عامة ، وكان
وزيره يوسف بن سراج واسطته الوحيدة للاتصال بشعبه وكبراء دولته . وكان
هذا الوزير النابه ، وهو يومئذ زعيم أعظم وأشرف بيوت غرناطة ، يعمل ببراعته
ورقة خلاله ، لتلطيف حدة السخط العام على مليكه . بيد أنه كان يحاول أمراً صعباً .
ولا بد لنا أن نقول كلمة في التعريف ببني سراج ، وهم الذين يقرن اسمهم منذ الآن
بحوادث مملكة غرناطة ، والذين غدت سيرتهم فيما بعد مستقياً خصباً للقصص المفرق .
فهم بنو سراج من أعرق الأسر الأندلسية العربية ، ويرجع أصلهم حسبما يشير

(١) السلاوى في الاستقصاء ج ٢ ص ١٤٨ .

(٢) Condé: Ibid; V. III. p. 197 & 198 . وكذلك Lafuente Alcantra : Historia de

Granada (1906) V. III. p. 46

المقرى إلى منذ حج وطفىء من البطون العربية العريقة، التي وفد بنوها إلى الأندلس منذ الفتح، وكان منزلهم بقرطبة وقبل مرسية، بيد أنهم لم يظهروا على مسرح الحوادث في تاريخ الأندلس إلا في مرحلته الأخيرة أعنى في تاريخ غرناطة، وقد كانوا بقرطبة من أعظم ساداتها، وكانوا أندادا للعرش والسلطين^(١). ومنذ عهد السلطان الأيسر نرى بنى سراج في طليعة القادة والزعماء، الذين يأخذون في سير الحوادث بأعظم نصيب. وقد كان حكم السلطان الأيسر، بداية سلسلة من الاضطرابات والقلاقل المتعاقبة. وفي عهده ساءت الأحوال، واشتد سخط الشعب ولم تجد محاولات الوزير ابن سراج لتهذيب الأمور. وقامت ثورات متعاقبة، فقد فيها الأيسر عرشه ثم استرده غير مرة، وكان بلاط قشتالة يشجع هذه الانقلابات ويؤازرها، وكان الزعماء الثائرون يتطلعون دائماً إلى عون قشتالة ووحيا. وسرى فيما يلي كيف كانت دسائس قشتالة ومؤامراتها حول عرش غرناطة في تلك الفترة، من أعظم العوامل في انحلال المملكة الإسلامية والتعجيل بسقوطها.

وفي خلال حكم الأيسر المضطرب، كان النصارى يتربصون الفرص لغزو مملكة غرناطة، فزحفوا عليها في سنة ٨٣١ هـ (١٤٢٨ م) وتوغلوا في أرجائها، وعاثوا في بسائط وادى آش، فزادت الأمور في غرناطة اضطراباً، وازداد الشعب على الأيسر سخطاً، لأنه فوق غطرسته وتعاليه، لم يفلح في رد العدو عن أرض الوطن، وسرعان ما انفجر بركان الثورة وزحف الثوار على الحمراء، ونادوا بولاية الأمير محمد بن محمد بن يوسف الثالث، وهو ابن أخى الأيسر. وفي رواية أنه ولده، ومحمد هذا هو الملقب «بالزغير». وفر الأيسر في أهله ونفر من خاصته، وركب البحر إلى تونس مستظلاً بحماية سلطانها أبى فارس الحفصى. وجلس محمد «الزغير» أو أبو عبد الله الصغير، حسبما يسمى في بعض الوثائق الرسمية^(٢).

(١) راجع نفح الطيب ج ١ ص ١٢٨ حيث يشير إلى أصل بنى سراج إشارة عابرة. وقد ذكر البعض أن بنى سراج ينتمون إلى يوسف السراج، وأن السراج هذا هو وزير السلطان الأيسر. ولكن إشارة المقرى الصريحة إلى الاسم والمنبت تنفى هذا التحريف في الاسم. ويشغل بنو سراج في الأساطير الإسبانية التي كتبت عقب سقوط غرناطة فراغاً كبيراً، مما يدل على ما كان لهم في غرناطة من عظيم الشأن. وسنعود إلى ذكر هذه القصص والأساطير فيما بعد. وراجع المستشرق سيبولد في *Encyc. de l'Islam*.

تحت كلمة **Abencerrages**

(٢) راجع كتاب «وثائق عربية غرناطية» للمستشرق الغرناطى لويس سيكوى لوينا، وقد وردت في الوثيقة رقم ١٩ (ص ٤٠) إشارة إلى «دنانير من ضرب السلطان أبى عبد الله»

على عرش غرناطة . وكان أميراً بارع الحلال ، وافر الفروسية ، يعشق الآداب والفنون ، وكان يحاول اكتساب محبة الشعب ، بفيض من الحفلات ومباريات الفروسية ، ولكنه لم يوفق إلى إخماد الدسائس والفتن المستمرة . وكان بنو سراج ألد خصومه وأشدّهم مراسا ، قال عليهم وطاردهم وعول على سحقهم ، واستئصال نفوذهم القوي المتغلغل في أنحاء المملكة ؛ وغادر يوسف بن سراج غرناطة مع عدد كبير من السادة والفرسان من أفراد أسرته ، تفاديا لانتقام «الزغير» وبطشه ، وسار أولا إلى ولاية مرسية ثم سار إلى إشبيلية ملتجئاً إلى حماية ملك قشتالة خوان الثاني ، فرحب بهم وأكرم وفادتهم . واتفق يوسف بن سراج مع ملك قشتالة على العمل لرد السلطان الأيسر إلى العرش . واستدعى الأيسر من تونس فلي الدعوة ، وزوده السلطان أبو فارس بفرقة من الفرسان ، وهدايا ثمينة لملك قشتالة ، ونزل الأيسر في عصبته في ثغر ألمرية ، حيث استقبله الشعب بحفاوة ، ونودي به ملكا . ونمى الخبر إلى الزغير ، فأرسل بعض قواته لمقاتلة الأيسر والقبض عليه ، ولكن معظم جنده انضموا إلى الأيسر ؛ وسار الأيسر بعد ذلك إلى وادي آش حيث يحتشد أنصاره ، ثم زحف على غرناطة في قوة كبيرة ؛ ورأى محمد الزغير أنصاره ينفضون من حوله تباعا ، بيد أنه امتنع في عصبته القليلة بقلعة الحمراء ، معتزما الدفاع عن ملكه . ودخل الأيسر غرناطة ، واستقبل بحماسة وأعان ملكاً ، وحاصر الحمراء بشدة فسلمها إليه أنصار الزغير ، وفي رواية أن الأيسر قبض على الزغير وقطع رأسه ، وقبض على أولاده وأهله ، وفي رواية أخرى أنه قبض عليه ، واعتقله هو وأخاه الأمير أبا الحسن على بن يوسف في قلعة شلوبانية الحصينة وهي سجن الدولة الرسمي في عهد بني نصر . وهكذا انتهت مغامرة الزغير على هذا النحو المؤسى بعد أن حكم عامين وبضعة أشهر (سنة ١٤٣٠ م) (١) .

ونظم السلطان الأيسر الأمور ، وأعاد يوسف بن سراج إلى الوزارة ،

« الصغير » . والواقع أن « زغير » هي النطق العامي الأندلسي لكلمة « صغير » : Dozy : Suppl. aux : 595 Dict. Arabes Vol. I. p. 595 وذكر كوندى أن الزغير Zaqlr معناها السكير : Condé : 182 ibid. V. III. p. 182

Lafuente Alcantra : ibid.; V. III. p. 121 & 122 ; Condé ; ibid. ; V. III. (١)
p. 184 & 185 ورجع أيضاً مقال الاستاذ سيكودي لوثينا المعنون Las Campanas de Castilla
contra Oranda en el año 1481 المنشور في مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد (المجلد الرابع) ص ٨٠ .



صورة رسالة وجهها السلطان أبو عبد الله الأيسر إلى قادة وأشياخ حصن قمارش بوجوب البقطة والحرص على الدفاع عنه مؤرخه في شعبان سنة ٨٣١ هـ (١٤٢٨ م) ، وأوردها المستشرق ريمبرو في رساله Documentos Arabes de la Corte Nazari ، مقولة من مجموعة هرناندو

دي ثافرا H. de Zafra

وأرسل إلى ملك قشتالة خوان الثانى فى تجديد الهدنة ، فبعث إليه سفيره كونثالث دى لونا واشترط لتجديدها أن يؤدى الأيسر ما أنفق به بلاط قشتالة فى سبيل استرداد عرشه ، وأن يؤدى فوق ذلك جزية سنوية ضخمة اعترافاً منه بطاعة قشتالة ، وأن يفرج عن سائر الأسرى النصرارى الموجودين ببلاده ، فرفض الأيسر وهدد ملك قشتالة بالحرب. وبعث خوان الثانى كذلك سفراءه ومعهم هدايا نفيسة إلى أبى فارس الحفصى سلطان تونس ، وإلى سلطان فاس عبد الحق بن عثمان المرينى يرجو كلا منهما أن يبتعد عن التدخل فى شئون غرناطة ، فوعد كلاهما بتحقيق رغبته . وما كادت تنهى الفتنة الداخلية التى كانت يومئذ ناشئة فى قشتالة ، حتى أغار القشتاليون فى قواتهم من قرطبة وجيان واستجبه على أراضى المسلمين ، وقصدوا إلى احوار رندة ، فهرع الأيسر إلى لقائهم ، واستطاع أن يردهم فى البداية ، ولكن ملك قشتالة قدم بعدئذ بنفسه فى قوات كبيرة ، وزحف على حصن اللوز وأرشدوته ، وعاث فى تلك المنطقة ، ثم عاد إلى قرطبة ومعه كثير من السبي والغنائم (١٤٣١ م) .

وفى أثناء ذلك عاد الأيسر إلى غرناطة ، متوجساً من سير الحوادث فيها : وكانت الفتن الداخلية قد عادت تنذر بانقلابات جديدة ، وغداً عرش غرناطة مرة أخرى يضطرب فى يد القدر ؛ وانقسمت المملكة الإسلامية شيعاً وأحزاباً متنافسة متخاصمة ، وألقى النصرارى فرصتهم الباسخة لإذكاء الفتنة ، وبسط سيادتهم على مملكة يسودها الضعف والتفرق . وكان خصوم الأيسر قد اتفقوا حول أمير ينتمى إلى بيت الملك عن طريق أمه ، هو أبو الحجاج يوسف بن المول . وكانت أمه ابنة للسلطان محمد بن يوسف بن الغنى بالله ، وأبوه ابن المول من وزراء الدولة النصرانية : ودبرت مؤامرة جديدة لخلع الأيسر . وكان يوسف أميراً قوياً ، وافر الثراء والهيبة ، وكان ملك قشتالة ، خوان الثانى ، يعسكر يومئذ بجيشه على مقربة من غرناطة ، يتتبع سير الحوادث ، ويرقب الفرص . فقصد إليه يوسف ، وطلب إليه العون على انتزاع العرش لنفسه ، وتعهد بأن يحكم باسمه وتحت طاعته ، فلبى ملك قشتالة دعوته ، وعقد معه يوسف وثيقة بالخضوع ، يقرر فيها أنه من أتباع ملك قشتالة وخدامه ، وأنه إذا حصل على الملك ، فإنه يتعهد بتحرير جميع الأسرى النصرارى ، وبأن يدفع الملك قشتالة جزية سنوية قدرها عشرون ألف دينار من الذهب ، وأن يعاونه بألف وخمسمائة فارس لمحاربة أعدائه سواء أكانوا نصرارى أو مسلمين ،



صورة الجانب الأيسر من مصادرة التحالف وأنفوس التي عقدت بين يوسف بن النول (يوسف المراجع) وحوال الثاني ملك فشتاله ، وفوق بقعة أصغر من النص الغشالي للمصادرة . وهي مؤرخة في جادى الأول سنة ٨٢٥ هـ (يناير ١٤٣٢ م) وعقود بدار المخطوطات العامة *Archivo General de Simancas* برقم *P. R. 11-184*

وأن يحضر جلسات مجلس الكورتس (مجلس النواب القشتالي) بنفسه إن كان منعقداً جنوب طليطلة أو بإذابة أحد من أبنائه أو ذوى قرابته إن كان منعقداً داخل قشتالة . وتعهد ملك قشتالة من جانبه بأن يعقد الصلح مع يوسف طوال أيام حكمه وأيام أبنائه ، وبأن يعاونه على محاربة أعدائه من المسلمين والنصارى ، وألا يحمى من يلتجئ إليه من أعدائه . ووقع مشروع هذه المعاهدة بين الفريقين في السابع من المحرم سنة ٨٣٥ هـ (١٦ سبتمبر سنة ١٤٣١ م) ونفذت على الأثر ، إذ أرسل ملك قشتالة ، جنده فغزت مرج غرناطة ، وسار الأيسر على رأس قواته والتقى بالنصارى في بسائط البيرة ، ونشبت بين الفريقين موقعة شديدة ، ارتد الأيسر على أثرها منهزماً إلى غرناطة . أما يوسف فقد استطاع بمؤازرة النصارى أن يستولى على عدة قواعد اعترفت بطاعته ، مثل رندة ولوشة وحمه ن اللوز وغيرها . وأعلن ملك قشتالة انخيازه إلى يوسف ونودى به ملكاً ، وسار يوسف بعد ذلك في قواته إلى غرناطة فلقيته جنود الأيسر بقيادة الوزير ابن سراج فهزم ابن سراج وقتل ، ودخلت جنود يوسف العاصمة ، ونادت بطاعته معظم الجهات ، وانفض الأشراف من حول الأيسر بعد أن رأوا خسران قضيته ، فاعتزم الأيسر أمره وحمل أمواله وغادر غرناطة في أسرته ونفر من خاصته ، وقصد إلى مالقة التي بقيت على طاعته ، ودخل يوسف بن المول الحمراء ظافراً وتربع على العرش ، وذلك في أول يناير سنة ١٤٣٢ م .

وكان أول ما فعله يوسف أن جدد لملك قشتالة عهد الخضوع ، فوقعه باعتباره سلطان غرناطة في ٢٢ جمادى الأولى من نفس العام (٢٧ يناير سنة ١٤٣٢ م)^(١) . بيد أن حكمه لم يطل إذ كان شيخاً مريضاً ، فتوفي بعد سنة أشهر لم يفعل خلالها شيئاً سوى اعترافه بطاعة ملك قشتالة ، وهو ما كانت تسعى إليه قشتالة دائماً منذ قامت مملكة غرناطة .

ومن المدهش أن نجد تماثلاً غريباً بين نصوص المعاهدة التي عقدها محمد ابن الأحمر مؤسس مملكة غرناطة بالخضوع لفرناندو الثالث ، وبين عهد الخضوع للذي وقعه يوسف بن المول ، والذي قطعت به قشتالة أكبر خطوة في سبيل تحقيق

(١) Archivo General de Simancas; P.R. 11-129 . وقد حصلنا على صورة فتوغرافية لهذه الوثيقة بنسختها العربية والقشتالية ، ونشرنا النصين في بحث ظهر في صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدير (المجلد الثاني - ١٩٥٤) .

أمنيتها القديمة . والواقع أن هذا العهد المولم كان أشنع ما انتهت إليه الخلافات الداخلية والحروب الأهلية في مملكة غرناطة في تلك الفترة الدقيقة من حياتها .

وعلى أثر وفاة السلطان يوسف ، اتفقت الأحزاب كلها على رد الأمر للسلطان الأيسر ، فجلس على العرش للمرة الثالثة ، وبادر بالسعى إلى عقد السلم مع ملك قشتالة ، فعقدت الهدنة بين الفريقين لمدة عام ، ولكن القشتاليين ما لبثوا بالرغم من عقدها أن أغاروا على أراضي غرناطة الشرقية ، فردهم المسلمون بقيادة الوزير ابن عبد البر زعيم بني سراج ، ثم هزموهم ثانية عند مدينة أرشدونة ، وقتل وأسر منهم عدد كبير (٨٣٨ هـ - ١٤٣٤ م) .

وفي العام التالي سار السلطان الأيسر لقتال القشتاليين ، في أحواز غرناطة ووادي آش ، وهزمهم غير مرة ، ثم عاد النصارى فأغاروا على بسطة ووادي آش ، واحتلوا بعض الحصون والقرى المجاورة ، وزحفت قوة كبيرة من النصارى بقيادة حاكم لبلة ، على ثغر جبل طارق ، ولكن أهل الثغر باغتوا النصارى وهزموهم ، وقتل قائدهم وكثير منهم (٨٤٠ هـ - ١٤٣٦ م) . ثم نشبت بعد ذلك بين المسلمين والنصارى موقعة أخرى على مقربة من كازورلا ، أصيب الفريقان فيها بخسائر فادحة ، وانتهت بنصر المسلمين ، ولكن قائدهم الفارس ابن سراج وهو ولد الوزير السابق ، سقط قتيلًا في الموقعة ، فحزنت غرناطة لفقده ، وقد كان يخلب الشعب الغرناطي بظرفه وبارع فروسته (١) .

وهكذا استمر الصراع بضعة أعوام سجالاً بين المسلمين والنصارى . ولما رأى النصارى كثرة خسائريهم وعقم محاولاتهم ، لجأوا إلى السكينة حيناً . وأرسل السلطان الأيسر في أواخر عهده إلى مصر سفارة يرجو فيها سلطان مصر الإنجاد والغوث لما رآه من اشتداد وطأة النصارى على أراضي مملكته . وقد انتهت إلينا رواية مخطوطة مبتورة عن قصة هذه السفارة (٢) ، كما أشارت إليها التواريخ المصرية . وهذه أول مرة تنجيه فيها مملكة غرناطة إلى الاستنجاد بمصر ، وقد كانت حتى ذلك الحين تنجيه دائماً إلى ملوك العدو . وقد رأينا كيف لبث بنو مرين عصراً ملاذ

(١) Lafuente Alca. : ibld ; V, III. p. 147-150

(٢) عثر بهذه الأوراق المخطوطة صديق الأستاذ الدكتور عبد العزيز الأهواني في بعض محفوظات مكتبة مدريد الوطنية ؛ ونشر نصها ضمن بحث عنوانه « سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة في القرن التاسع الهجري » وذلك بمجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة (المجلد السادس عشر . الجزء الأول ص ٩٥ - ١٢١) .

غرناطة ، وساعدها الأيمن حين الخطر الداهم . ولكن الدولة المرينية ، كانت قد دخلت يومئذ في دور انحلالها ، ونجبت قواها التي انسابت مرارا إلى شبه الجزيرة ، ومن ثم فقد وجه سلطان غرناطة صريحه إلى مصر . وتضع الروايات المصرية تاريخ هذه السفارة في رجب سنة ٨٤٤ هـ ، وهو يوافق شهر ديسمبر سنة ١٤٤٠ م . ولكنها تضطرب في ذكر اسم سلطان غرناطة ، فيسميه المقرئ « الغالب بالله عبد الله بن محمد بن أبي الحيوش نصر » ، ويسميه السخاوي « عبد الله ابن محمد بن نصر »^(١) . وفي رأينا أن المرجح أن هذه السفارة صدرت عن السلطان أبي عبد الله محمد بن يوسف أي السلطان الأيسر ، لأنه حكم حتى أوائل سنة ١٤٤١ م ، وهناك احتمال بأن يكون مرسلها هو خلفه الشائر عليه السلطان محمد بن نصر بن محمد الغني بالله وهو المعروف بالأحنف حسبنا نذكر بعد ، ولعل خبر هذا الانقلاب لم يكن قد وصل إلى مصر حين وصل السفراء الغرناطيون إلى القاهرة ، وقد كان وصولهم إليها في نفس التاريخ الذي وقع فيه هذا الانقلاب بغرناطة ، وهو مما يرجح كون السلطان الأيسر هو مرسل هذه السفارة .

وعلى أي حال فقد وصل السفراء الغرناطيون وعددهم أربعة ، كما يستفاد من الرواية المخطوطة المشار إليها ، في شهر رجب سنة ٨٤٤ هـ ، وقدموا كتاب سلطانهم إلى سلطان مصر ، الظاهر جقمق ، وفيه يطلب الإنجاد من مصر . وقد رد سلطان مصر بأنه سوف يبعث إلى « ابن عثمان » أعني إلى سلطان قسطنطينية ، بأن ينجد الأندلس ، ولما أكد السفراء الغرناطيون أنهم يتوجهون بصريحهم إلى مصر ، اعتذر السلطان بأن بعد الشقة بحول دون إرسال الجند إلى الأندلس ، فطلب السفراء عندئذ أن تساهم مصر في المعونة بالمال والعدة ، فوعدهم السلطان بذلك .

وقدم السفراء الغرناطيون إلى السلطان هدية أندلسية من الفخار المائي والأنجبار الغرناطي ، ومن ثياب الخز الأندلسية ، فاستحسنها السلطان ، وفرقها بين مماليكه وحشمه وأهله . ولسنا نعرف شيئاً عن نتيجة هذه السفارة ولا عن موعد عودة السفراء الأندلسيين إلى غرناطة ، لأن الرواية المخطوطة تنتهي بوصف رحلة هؤلاء السفراء إلى الحجاز مع ركب الحاج لقضاء الفريضة ، وتقف عند وصف كاتبها للبقاع المقدسة ، بيد أننا نرجح أنها لم تسفر عن أية نتائج عملية .

(١) الأول في كتاب « السلوك في دول الملوك » . والثاني في كتاب « الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع » .

ولكن حوادث غرناطة كانت عندئذ تنذر بتطورات جديدة مزعجة . ذلك أن السلطان الأيسر بالرغم من حسن بلائه ضد النصارى لم يحسن السيرة في الداخل ، ولم ينجح في اجتذاب شعبه ، وكان فريق من خصومه من السادة الفرسان يلوذ بحماية ملك قشتالة ، وعلى رأسهم الأمير يوسف بن أحمد حفيد السلطان يوسف الثانى ، وابن عم الأيسر ، وهو المعروف في التواريخ القشتالية « بابن إسماعيل » وذلك لأن نسبه ينتهى إلى السلطان أبى الوليد إسماعيل الذى تولى العرش سنة ٨٧١٢ هـ . وكان ثمة فريق آخر من الزعماء الناقمين في ألمرية يناصر الأمير محمداً بن نصر بن محمد الغنى بالله وهو المعروف بالأحنف . وكان الأحنف قد نجح في دخول غرناطة سراً مع نفر كبير من أنصاره ، وأخذ يعمل على إذكاء الفتنة . فلما آنس سنوح الفرصة ، ثار في عصبته واستولى على الحمراء والحصون المحاور لها ، وقبض على الأيسر وآله وزجهم إلى السجن ، ونادى بنفسه ملكاً ، وذلك في أوائل سنة ١٤٤١ أو أوائل سنة ١٤٤٢ م ، حسبما تدل على ذلك وثيقة عربية ، هي عبارة عن خطاب موجه منه إلى ملك قشتالة في شهر ذى القعدة سنة ٨٤٦ هـ (مارس ١٤٤٣ م) . يشير فيه إلى بعض المشاكل القائمة بين البلدين ، ويطلب بإطلاق سراح سفيره المعتقل في قشتالة (١) .

ولكن الفتنة لم تهدأ ولم تستقر الأمور . وكان يعارض ولاية الأحنف فريق قوى من الزعماء والشعب ، ويزعم هذا الفريق المعارض الوزير ابن عبد البر زعيم بنى سراج . وكان يقيم في حصن مونتي فريو في شمال غربي غرناطة ، ويؤيد ولاية الأمير يوسف (ابن إسماعيل) المقيم في بلاط قشتالة . ولم يمض قليل حتى سار هذا الأمير من إشبيلية إلى غرناطة ومعه سرية من الفرسان النصارى أمده بها ملك قشتالة . والظاهر أن ابن إسماعيل استطاع التغلب عندئذ على الأحنف ، واحتل الحمراء ، ونحكم مدتي أشهر قلائل . ولكن الأحنف عاد فتغلب عليه واسترد عرشه (أوائل سنة ١٤٤٦ م) . ورد السلطان الأحنف من جانبه بأن غزا أراضي قشتالة وهاجم قلعة بنى موريل وقلعة ابن سلامة ، وقتل من فيهما من النصارى (١٤٤٦ م) وسير في الوقت نفسه جزءاً من قواته لمقاتلة خصمه ابن إسماعيل ، وانتهز الأحنف فرصة الخلاف القائم يومئذ بين أراجون وقشتالة ، فأرسل إلى ملك أراجون يعرض

(١) نشر نص هذا الخطاب مع صورته الفوتوغرافية في كتاب نبذة العصر في أخبار ملوك بنى نصر

(المنشور بناية معهد فرانكو بتطوان) ص ٧٦ - ٧٨ .

محالفته ضد قشتالة ، ونفذ هذا الحلف بأن غزا الأحنف أرض النصارى من ناحية أراضي مرسية ، والتقى بالقشتاليين قرب جنجالة وهزمهم هزيمة شديدة (١٤٥٠م) ثم عادت قواته تكرر الإغارة والعيث في أرض النصارى وتشغل قواتهم . وكان ابن إسماعيل يقيم أثناء ذلك في حصن مونتي فريو ، وقد أقرت بطاعته بعض البلاد والحصون المجاورة . وهكذا اتسع نطاق النضال ، وعصفت الحرب الأهلية من جهة ، وغزوات النصارى من جهة أخرى بقوى غرناطة . وكان السلطان الأحنف بالرغم من عزمه وقوة نفسه ، يثير غضب الشعب يطغيانه وقسوته وعنفه ، وكانت معظم الأسر الكبيرة تعمل لإسقاطه ، لما لقيت من بطشه وعدوانه ، وهكذا تهيأ الجو لانقلاب جديد . وهنا يحيق الغموض بولاية العرش الغرناطي ويختلف القول في شأنها . والرواية الإسلامية مقلدة في هذا الشأن ، ولم يصلنا منها عن حوادث هذه الفترة المضطربة من تاريخ غرناطة سوى القليل ، ومن ثم فإن جل اعتمادنا هنا على الروايات القشتالية . وفي بعض هذه الروايات أن ملك قشتالة عاد بعد أن سوى خلافه مع أراجون إلى التدخل في شئون غرناطة ، فزود ابن إسماعيل ببعض قواته ، وسار الأحنف لقتال منافسه ، ونشبت بين الفريقين في ظاهر غرناطة معركة شديدة ، انتهت بهزيمة الأحنف وفراره ، ودخل ابن إسماعيل غرناطة ، وجلس على العرش ، وكان ذلك في سنة ١٤٥٤م . وفي بعض الروايات الأخرى أن السلطان الأحنف استمر في الحكم حتى سنة ١٤٥٨م . ثم خلفه في الحكم الأمير سعد بن محمد حفيد السلطان يوسف الثاني ، واستمر في الحكم أربعة أعوام . ثم عزل في سنة ١٤٦٢م ، وأعيد السلطان يوسف الخامس (ابن إسماعيل) ، وحكم حتى أواخر سنة ١٤٦٣م^(١).

وكان السلطان ابن إسماعيل أمراً عاقلاً حازماً عادلاً ، محباً للإصلاح والأعمال الإنشائية ، فعكف على ضبط الأمور وتوطيد الأمن ، وإقامة الأبنية وتحصين القواعد والثغور . وكان فارساً بارعاً يشترك بنفسه أحياناً في مباريات الفروسية . ولأول عهده أرسل إلى ملك قشتالة خوان الثاني يؤكد طاعته ، وساد السلم فترة قصيرة بين المسلمين والنصارى . ولكن خوان الثاني توفي بعد أشهر قليلة ، وخلفه ولده هنري الرابع ، وأبي ابن إسماعيل أن يعترف بحماية ملك قشتالة

(١) Seco de Lucena : Una : وراجع أيضاً Condé : ibid; V. III. p. 201 & 202

Rectificación a la Historia de los últimos Nasries (Al-Andalus Vol. XVII, Fasc.1)

الجديد ، محاولا بذلك أن يكتسب الشعب إلى جانبه ، وأن يوطد مركزه ؛ وسير بعض قواته في نفس الوقت فأغارت على الأراضى القشتالية ، وأصر ملك قشتالة من جانبه على وجوب خضوع ملك غرناطة وطاعته ، واعتزم أن يتابع الضغط على المملكة الإسلامية الصغيرة دون هوادة ، فسار إلى أراضى غرناطة في جيش ضخم وعاث فيها ، وانتسف المروج والضياع ، وقتل وسبي من أهلها جموعا كبيرة ، ولقيه المسلمون في قوات صغيرة أنزلت بجيشه خسائر كبيرة . وعاد القشتاليون في العام التالي إلى عيهم في أراضى المسلمين ، وغزا المسلمون من جانبهم منطقة جيتان وأوقعوا هنالك بالنصارى ، واستمرت هذه المعارك مدى حين سجالا بين الفريقين . وكان النصارى قد استولوا في تلك الفترة المضطربة من حياة المملكة الإسلامية ، على عدة من القواعد والثغور الإسلامية ، بعضها اختيارا يتنازل سلاطين غرناطة والبعض الآخر بالفتح . وكانت أعظم ضربة أصابت مملكة غرناطة في عهد السلطان ابن إسماعيل ، سقوط ثغر جبل طارق في يد النصارى . في سنة ١٤٦٢ م (٨٦٧ هـ) سارت إليه قوة من القشتاليين بقيادة الدوق مدينا سيدونيا ، واستولت عليه بطريق المفاجأة . وكان سقوط هذا الثغر المنيع في يد النصارى ، أول خطوة ناجعة في سبيل قطع علائق مملكة غرناطة بحدود المغرب ، والحول دون قدوم الأمداد إليها من وراء البحر .

على أن خطر الفورات الإسلامية القوية فيما وراء البحر ، كان قد نبها منذ بعيد ، وأخذت دولة بنى مرين القوية تجوز مرحلة الانحلال والسقوط ، وكان آخر ملوكهم السلطان عبد الحق ، قد خلف أباه السلطان أبا سعيد المريني في سنة ٨٢٣ هـ (١٤١٥ م) . وفي عصره ساد الاضطراب والتفكك في أنحاء المملكة ، واستبد وزيره يحيى بن يحيى الوطاسى بالدولة . وكان بنو وطاس ينتمون إلى بطن من بطون بنى مرين ، وينافسونهم في طلب الرياسة والملك ، فلما اشتدت وطأتهم على السلطان عبد الحق ، بطش بهم وقتل معظم رؤسائهم ، وفي مقدمتهم وزيره يحيى ، ونجا البعض منهم وتفرقوا في مختلف الأنحاء . وأسلم عبد الحق زمام دولته إلى اليهود فبغوا وعاثوا في الدولة ؛ وغضب الشعب على مليكه ، واضطربت الثورة ، وعزل عبد الحق وقتل (٨٦٩ هـ - ١٤٦٤ م) ؛ وانتهت بمصرعه دولة بنى مرين بعد أن عاشت زهاء مائتي عام ، واستولى على تراث بنى مرين وملكهم ، بنو وطاس خصوصهم القدماء ، واستطاع زعيمهم محمد الشيخ أن يستولى على فاس في سنة

٨٧٦ هـ (١٤٧١ م)^(١) وبذا قامت بالمغرب دولة فتية جديدة ، بيد أنها لم تكن من المنعة والقوة بحيث تستطيع الإقدام على عبور البحر إلى الأندلس ، في سبيل الجهاد والنجدة ، أسوة بما كانت تعمله دولة بني مرين القوية الشاحخة .

وهكذا كانت الأمة الأندلسية تشعر بأنها أضحت فريدة ، في مواجهة عدوها القوي ، دون حليف ولا ناصر . ولم ير سلطان غرناطة بعد أن أضناه النضال ، بدأ من قبول ما فرضه عليه ملك قشتالة من الاعتراف بسلطانه ، وتأدية الجزية اغتناماً للمهادنة والسلم . وكانت مملكة غرناطة تجوز في هذه الآونة العصيبة ذاتها مرحلة من الاضطراب الداخلي ، وكان من أهم أسباب هذا الاضطراب الخطر ، اضطرام المنافسة بين العرش وبين الأسر النبيلة القوية ، مثل بني سراج وبني أضحى وبني الثغري وغيرهم^(٢) ، واضطرام المنافسة فيما بين هذه الأسر القوية ذاتها ، وغلبة نفوذ النساء في البلاط . وكان من أثر ذلك أن حدثت في سنة ١٤٦٢ م فتنة خطيرة من جراء محاولة السلطان ابن إسماعيل أن يقضى على نفوذ بني سراج أقوى هذه الأسر وأعرقها . وهكذا كانت تذر التفكك تعمل عملها المشثوم^(٣) . ومع أن غرناطة تمتعت بمزايا الهدنة الحادعة التي عقدتها مع قشتالة لمدة قصيرة ، فقد كان من الواضح أن المملكة الإسلامية كانت تنحدر سراعاً إلى نصيرها الخطر ، وتواجه شبح الانحلال الأخير .

(١) راجع الإستقصاء ج ٢ ص ١٤٨ و ١٥٠ و ١٥١ و ١٦٠ .

(٢) بنو أضحى أو بنو ضحى من سادة غرناطة ، وقد ذكرهم ابن الخطيب في الإحاطة مع من ذكر من الأسر الغرناطية ، ولكننا لم نعث في الرواية الإسلامية على أية إشارة تليق ضوءاً على أصل بني الثغري وهم الذين يسمون في الرواية النصرانية (Zegris) . ويقول المستشرق الإسباني جايثجوس مترجم نفع الطيب إن التسمية الفرنجية هي تحريف لكلمة الثغريين وهم الذين نزلوا من أراجون أو الثغر الأعلى (مملكة سرقسطة) إلى غرناطة بعد سقوطه في يد النصارى. (Mohammedan Dynasties in Spain; V. II. p. 541 & Alhambra; Intr. p. 15 Note) . وقد كانت كلمة الثغري فيما يبدو صفة أولياً لكثير من الأسر النازحة من الثغر الأعلى (أراجون) إلى مختلف أنحاء الأندلس ولا سيما منذ القرن السادس الهجري . ولهذا نجد عدداً من الزعماء يحمل هذا اللقب (راجع الخلة السيزاء لابن الأبار ص ٢١٧ و ٢١٨) - على أن هذا التعليل لا يكشف لنا لقب هذه الأسرة الغرناطية الحقيقي وإنما ينصرف إلى الصفة والشهرة . وهناك ما يدل على أن آل الثغري كانوا من البربر ومن قبيلة غمارية ؛ وقد كانت لهم كما سنرى مواقف مشهودة في حرب غرناطة الأخيرة .

(٣) يرى المستشرق جايثجوس أن منافسات بني سراج وبني الثغري ، كانت من أهم أسباب

التعجيل بسقوط غرناطة Gayangos; ibid; V. I. p. 315

ولم يمض قليل على ذلك حتى وقع انقلاب جديد في ولاية العرش الغرناطي .
ذلك أن الأمير سعداً عاد فهاجم الحمراء مع أنصاره وانتزع العرش لنفسه (١٤٦٣م)
وفر ابن إسماعيل ونخصوم السلطان الجديد . وهنا تلقى الرواية الإسلامية بعض
الضوء على ما تلا من الحوادث في غرناطة ، وهذه الرواية هي رواية مؤرخ ورحالة
مصرى زار المغرب والأندلس في هذه الفترة ، هو عبد الباسط بن خليل الحنفى ،
دونها في مؤلفه المسمى « كتاب الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم » (١) ؛
وهو يحدثنا عن بعض أخبار الأندلس التي سمعها أثناء زيارته للمغرب ثم بعد ذلك
أثناء زيارته لغرناطة (سنة ٨٧٠ هـ) ، ويروى لنا ما وقف عليه من الحوادث في
سنى ٨٦٧ - ٨٧٠ هـ ؛ ثم يستطرد فيما بعد فيروى لنا ما سمعه من أخبار الأندلس
حتى سنة ٨٨٧ هـ (١٤٨٢ م) .

ويقول لنا الرحالة المصرى إن سلطان الأندلس في سنة ٨٦٧ هـ (١٤٦٢ -
١٤٦٣ م) كان سعد بن محمد بن يوسف المستعين بالله المعروف بابن الأحمر ،
وإنه ما كاد يجلس على العرش حتى ثار عليه ولده أبو الحسن بتحرير بني سراج
وأخرجه عن غرناطة وامتلكها ؛ فسار سعد إلى مالقة ، وحكم أبو الحسن مكانه .
وفي العام التالى أعنى سنة ٨٦٨ هـ ، لما اشتد ضغط النصارى على الأندلس ، عاد
أبو الحسن فعقد الصلح مع أبيه ، وأطلق سراحه ، واختار سعد الإقامة في ألمرية
فلم يعترض ولده ، ولم يابث أن توفى في أواخر هذا العام ، وعندئذ نخلص العرش
لأبي الحسن .

ولكن حدثت بعد ذلك منازعات حول ولاية العرش بين أبي الحسن ،
وأخيه أبي الحجاج يوسف ، ولم ينته هذا النزاع إلا بوفاة يوسف بعد ذلك بقليل .
ويذكر لنا الرحالة أنه قابل السلطان أبا الحسن بحداء غرناطة في أواخر
جمادى الأولى سنة ٨٧٠ هـ (يناير سنة ١٤٦٦ م) (٢) .

(١) تحفظ نسخة مخطوطة وحيدة من هذا الكتاب بمكتبة القاتيكان الرسولية برقمى 728 8 729 Borg. ، وهي في مجلدين ، الأول يقع في ٢٥٩ ورقة كبيرة ، والثاني في ٦٦ ورقة . وترد أخبار الأندلس
مبعثرة في حوليات المجلدين المتواليين .

(٢) نقل العلامة المستشرق الأستاذ G. della Vida ما ورد في كتاب عبد الباسط عن أخبار
الأندلس ، ونشره مجتمعاً في مقال عنوانه : *Il Regno de Granata nel 1463-66 nei recordi di un viaggiatiero egiziano* وذلك بمجلة الأندلس (Al-Andalus Vol. I-1933-Fasc. II)

وهذه النبذ القليلة التي يقدمها إلينا الرحالة المصري ، تلقي ضوءاً حسناً على حوادث مملكة غرناطة في تلك الفترة الدقيقة من حياتها .

* * *

وفي ذلك الحين بالذات استولى محمد الفاتح جاهل الترك العثمانيين على قسطنطينية (سنة ١٤٥٣ م) وانهار هذا الصرح المنيع ، الذي كان يحمي أوروبا النصرانية من جهة الشرق ، من غزوات الإسلام ، وانساب تيار الفتح العثماني إلى جنوب شرق أوروبا ، يكتسح في طريقه كل مقاومة ، وروعت أوروبا النصرانية لهذا الخطر الجديد الذي يهدد حريتها وسلامها ، وأخذت النزعة الصليبية تضطرم من جديد بقوة مضاعفة . وتردد هذا الصدى في اسبانيا النصرانية ، حيث كانت مملكة غرناطة ما تزال بالرغم من صغرها وضعفها ، تمثل صولة الإسلام القديمة في اسبانيا وقد تغدو في الغرب نواة لهذا الخطر الإسلامي الداهم ، الذي بدت طلائعه في الشرق على يد الغزاة الترك ، ومن ثم فقد كان طبعياً أن تجهش اسبانيا النصرانية بفورة صليبية جديدة ، وأن يذكي هذا الخطر الجديد ، اهتمامها بالقضاء على مملكة غرناطة . وبالرغم مما كانت تجوزها مملكة غرناطة يومئذ من فن داخلية ، وما كان يفت في قواها من عوامل الانحلال السياسي والاجتماعي ، فقد كانت تعتبر دائماً في نظر اسبانيا النصرانية عدواً داخلياً له خطره . وكان أشد ما تخشاه اسبانيا النصرانية أن تغدو غرناطة قاعدة لفورة جديدة من الغزو الإسلامي تنساب من وراء البحر ، كما حدث في الحقبة الأخيرة غير مرة . والحقيقة أن حياة هذه المملكة الإسلامية الصغيرة ، قد استطالت أكثر مما كانت تقدره اسبانيا النصرانية . وكانت مملكة قشتالة في تلك الآونة بالذات تشغل بمنازعاتها الداخلية ، ومضى زهاء ربع قرن آخر قبل أن تتحد اسبانيا النصرانية في مملكة قوية موحدة . وقد كانت خلال الأحداث التي توالى عليها في تلك الفترة ، تجهش دائماً بنزعتها الصليبية الماثورة . فلما تحققت الوحدة واستقرت الأحوال واجتمعت الموارد ، أخذت فرصة القضاء الأخير على المملكة الإسلامية الصغيرة ، تبدو لخصيمتها القوية اسبانيا النصرانية ، في الأفق قوية سائحة .

الفصل التاسع

تاريخ اسبانيا النصرانية

منذ قيام مملكة غرناطة حتى اتحاد مملكتي قشتالة وأراجون

ألفونسو العاشر ملك قشتالة . مشاريعه نحو مملكة غرناطة . الحرب الأهلية في قشتالة . ولاية سانشو الباسل . الخلاف بينه وبين النبلاء . عقد الهدنة بين غرناطة وقشتالة . ولاية فرناندو الرابع ووصاية أمه . اضطراب الأحوال في قشتالة . توطد مركز فرناندو . غزو القشتاليين لأراضي الأندلس . استيلاؤهم على جبل طارق . ولاية ألفونسو الحادي عشر والوصاية عليه . زحف القشتاليين على غرناطة . هزيمتهم ومقتل زعمائهم . طغيان ألفونسو وعيظه . عبور سلطان المغرب إلى الأندلس . هزيمة المسلمين . غزو القشتاليين للجزيرة الخضراء . حصار جبل طارق وفشل النصاري . ولاية بيدرو القاسي . طغيانه وعنفه . الحرب الأهلية في قشتالة . انتصار الكونت هنري وارتقاؤه العرش . ازدهار قشتالة في عهده . ولاية خوان الأول . الخلاف بينه وبين البرتغاليين . مصرعه وولاية ولده هنري الثالث . توطد السلام والأمن في عهده . ولاية خوان الثاني والوصاية عليه . ضمفه ولحوه . فرناندو الوصي يدعى لولاية عرش أراجون . الصراع بين خوان والأشراف . التهادن بين قشتالة وغرناطة . ولاية هنري الرابع . اضطراب الأحوال في عصره . استيلاء القشتاليين على جبل طارق . بيدرو الثالث ملك أراجون . النزاع حول عرش نابل . افتتاحه لصقلية . ألفونسو الثالث . ضغط النبلاء عليه . خايي الثاني . الاستقرار في عهده . ألفونسو الرابع . طغيان النبلاء وامتيازاتهم . بيدرو الرابع . الحرب الأهلية بين العرش والنبلاء . استيلاء بيدرو على الجزائر الشرقية . استرداده لصقلية . ولاية خوان الأول . ولاية مرتين الأول . الصداقة بين أراجون وغرناطة . وفاة مرتين وجلوس فرناندو صاحب أنتقيرة على العرش . حكمه المطلق . ولده ألفونسو الخامس . افتتاحه لمملكة نابل . أخوه خوان يحكم أراجون . ازدهار مملكة نابل . ولاية خوان الثاني لعرش أراجون . الحرب الأهلية في أراجون . الحرب بين أراجون وفرنسا . وفاته وولاية ولده فرناندو . عود إلى تاريخ قشتالة . النزاع حول العرش بعد وفاة هنري الرابع . أخته الأميرة إيسابيلا . قصة زواجها من فرناندو الأراجوني . معارضة أخيها هنري . موافقتها على هذا الزواج . شروط الزواج وعقده . إعلان ولاية إيسابيلا عقب وفاة أخيها . خوانا ابنة الملك هنري . مشروع زواجها من ملك البرتغال . غزو ملك البرتغال لقشتالة . إرتداده وفشل مشروعه . ارتقاء فرناندو عرش أراجون . اتحاد مملكتي قشتالة وأراجون . اسبانيا النصرانية الموحدة . فرناندو الكاثوليكي وصفاته وخلاله . إيسابيلا الكاثوليكية وصفاتها وخلالها . انحلال مملكة غرناطة . عزم فرناندو وإيسابيلا على القضاء عليها .

١ - قشتالة

لما توفي فرناندو الثالث ملك قشتالة في شهر مايو سنة ١٢٥٢م ، خلفه في الملك ولده ألفونسو العاشر الملقب بالعالم أو الحكيم El Sabio لشغفه بالعلوم والآداب

حسبما أشرنا من قبل . وشغل ألفونسو بالشئون والإصلاحات الداخلية ، ولا سيما الإصلاحات التشريعية . وكان المجتمع الإسباني في هذا العصر يشعر بحاجة شديدة إلى تشريعات تتفق مع تطوراته ، وتقضى على ما كان يعتوره من شذوذ في تكوينه ، وتحد من طغيان الأشراف والسادة ، وتلطف من حدة التنافس والبغضاء بين الطوائف . وقد رأينا أن خايمي الفاتح ملك أراجون كان في الوقت نفسه يضطلع في مملكته بمثل هذا الدور الإصلاحى الهام . وكان ألفونسو تحذوه أطماع إمبراطورية ضخمة ، إذ كان يطمح إلى تاج الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وذلك بسبب انحدره من أم ألمانية من آل هوهنشتاوفن هي ابنة الإمبراطور فيليب ، وقد أنفق في سبيل هذا المشروع الخيالى أموالا طائلة ، واضطر لحاجته إلى المال أن يصدر نقداً زائفاً ، وأن يتخذ إجراءات ، كان لها أسوأ الأثر في سير الأحوال الاقتصادية .

وكان ألفونسو بالرغم من اشتغاله بالشئون الداخلية ، يجرى على خطه أسلافه في متابعة غزو الأراضى الإسلامية . وفي أوائل عهده استطاع أن ينتزع مدينة قادس من سكانها المسلمين ، بمعاونة خليفه ابن الأحمر صاحب غرناطة . بيد أن أمير غرناطة محمداً الفقيه ، لما شعر بعد ذلك بما يدبره ملك قشتالة من خطط للقضاء على المملكة الإسلامية ، عبر البحر إلى المغرب يطلب الغوث والعون ، من السلطان أبى يوسف يعقوب المنصور . وقد رأينا فيما تقدم كيف استجاب المنصور إلى صريخ الأندلس ، وعبر البحر إلى إسبانيا غير مرة وأثنى في جيوش قشتالة . وفي أواخر عهد ألفونسو العاشر ساءت الأحوال في قشتالة ، وثار الأشراف على العرش ، لمحاولته أن يقضى على سلطانهم وامتيازاتهم . ثم خرج على ألفونسو ولده سانشو منادياً بحقه في العرش ، وكونه أولى من ولد أخيه المتوفى المرشح لولاية العهد . واضطربت في قشتالة حرب أهلية خسر فيها ألفونسو عرشه ، والتجأ إلى السلطان أبى يوسف فأمدّه بالمال والجند حسبما فصلنا ذلك في موضعه . واستمرت الحرب الأهلية بين ألفونسو وولده سانشو ، حتى توفى ألفونسو في سنة ١٢٨٤م في إشبيلية ، منبوءاً مهزوماً ، وبذلك انتهت الحرب الأهلية في قشتالة .

واستمر ولده سانشو الملقب بالباسل El Bravo على عرش قشتالة مدى حين بلا منازع ، ولكنه لم يلبث أن اختلف مع النبلاء الذين آزره ضد أبيه من قبل ، ومع إخوته الأصاغر ، وكذلك مع أبناء أخيه الأكبر فرناندو الذى توفى قبل وفاة أبيه ، وثار حول عرش قشتالة من جديد منازعات واضطرابات لانهاية

لها . وعمد سانشو إلى الدس والغيلة للتخلص من خصومه ، وأبدى في مطاردتهم قسوة متناهية . وفي تلك الفترة التي اضطربت فيها شئون قشتالة ، أثر سانشو أن يستجيب إلى عقد السلم مع مملكة غرناطة ، وكان ابن الأحمر من جانبه يتوق إلى عقد مثل هذه الهدنة مع قشتالة ، لما كان يساوره من جزع من جراء تدخل سلطان المغرب أبي يوسف المنصور في شئون الأندلس ، بصورة خشي معها على سلطانه حسبما فصلنا ذلك في موضعه ، وعلى ذلك تمتعت غرناطة ببضعة أعوام من السكينة والسلام . ولما توفي سانشو في سنة ١٢٩٦ م ، خلفه ولده فرناندو الرابع طفلاً في السادسة من عمره ، وتولت الوصاية عليه أمه ماريادى مولينا ، وبالرغم مما أبدته أمه من الشجاعة في الذود عن العرش وعن الملك الطفل ، ومن براعة في تصريف الشئون ، فقد كان عهده عهد اضطراب وفوضى ، وعاد النبلاء والمتنافسون في طلب العرش إلى تدبير الثورات المتعاقبة ، واضطر الملك الطفل وأمه إلى الفرار من إشبيلية ، والالتجاء إلى حماية أهل آيلة الذين آزره واستقبلوه بترحاب وحماسة . ولما بلغ فرناندو أشده ، استطاع أن يعود إلى عرشه بمؤازرة أصدقائه وأنصاره ، ولكنه أبدى قصوراً وعجزاً في تسيير الشئون ، كما أبدى عقوقاً ونكراناً لأمه ، التي كفلته وحمته في طفولته . وفي عهد فرناندو ساءت العلاقات بين قشتالة ومملكة غرناطة ، وعاد النصارى إلى غزو أراضي المسلمين . وكان من أعظم الحوادث في هذا العهد ، استيلاء القشتاليين على ثغر جبل طارق ، وذلك في سنة ٧٠٩ هـ (١٣١٠ م) .

ولما توفي فرناندو خلفه على العرش ولده الطفل ألفونسو (الحادى عشر) ، ولما يبلغ الحول من عمره ، وتولى الوصاية عليه الدون بيدرو والدون خوان وهما زعما النبلاء . وبالرغم مما كان يسود قشتالة يومئذ من ضروب الاضطراب والفوضى ، فقد اعتزم رهط الأمراء والنبلاء المضى في غزو الأراضي الإسلامية ، وعاث الجند القشتاليون في بسائط غرناطة ، واستولوا على عدة من الحصون ، وهزموا المسلمين في موقعة شديدة (١٣١٧ م) . وكان ذلك في بداية عصر السلطان أبي الوليد إسماعيل . وبعد ذلك بعامين زحف الجند القشتاليون ، بقيادة الدون بيدرو والدون خوان الوصيين وعدد كبير من الأمراء ، على العاصمة الأندلسية ذاتها ، والتقى المسلمون والنصارى على مقربة من غرناطة ، وكانت موقعة هائلة كتب فيها النصر للمسلمين وقتل الدون بيدرو والدون خوان ومعظم الأمراء القشتاليين (١٣١٩ م) .

وانتهز المسلمون هذه الفرصة ، فقاموا بعدة غزوات ناجحة في أراضي قشتالة ، واستولوا على بعض القواعد والحصون حسبما فصلنا ذلك في موضعه . وفي خلال ذلك تفاقمّت الأمور في قشتالة واشتد النزاع بين النبلاء ، واستمرت هذه الحال طوال عهد الوصاية .

ولما بلغ الملك الطفل أشده ، وتولى أمور الملك بنفسه ، أخذت تتكشف صفاته المشيرة شيئاً فشيئاً . وبالرغم مما أبداه من مقدرة في ضبط المملكة وتسيير الشئون ، وما قام به من الإصلاحات الإدارية والقضائية ، لتوطيد النظم التي يقوم عليها المجتمع القشتالي ، فقد كان يلجأ إلى أشد أساليب العنف والقمع ، وكان القتل وسيلته المثلى لحماية العرش وصون الدولة ، وقد زهق على يديه كثير من الأمراء والنبلاء والزعماء ، دون إجراءات ودون محاكمة ، حتى لقب من أجل ذلك « بالمنتقم » . وكان البلاط القشتالي في عهده مرتعاً للفجور والإثم . وكانت الملكة الشرعية الأميرة ماريا البرتغالية تعيش منبوذة في عزلة مطبقة ، وتسيطر على القصر والدولة خليعة الملك إليونورا دى كزمان ، وقد رزق منها ألفونسو بعدة أبناء غير شرعيين . وهكذا كانت قشتالة تجوز يومئذ عهداً من الإرهاب ، والانحلال السياسي والاجتماعي .

ومع ذلك فقد كان ألفونسو الحادى عشر ملكاً قوى البأس والعزم . وكان يضطرم نحو المملكة الإسلامية بمشاريع خطيرة . وكانت غرناطة شعوراً منها بالخطر الذى يحدق بها . قد استعانت بجارتها القوية وراء البحر مرة أخرى ، وبعث السلطان أبو الحسن المرينى جيوشه لنجدة الأندلس ، واجتمعت جيوش الممالك النصرانية ، قشتالة وأراجون للقاء الجيوش المغربية وهزمتها في موقعة دموية في سنة ١٣٣٩ م ؛ فاعتزم السلطان أبو الحسن أن يثار لنفسه من تلك الهزيمة ، وجاز البحر بنفسه إلى الأندلس في أسطول وجيش عظيمين ، واجتمعت الجيوش النصرانية بقيادة ألفونسو الحادى عشر ، والتقت بجيوش الأندلس والمغرب على ضفاف نهر سالادو في الجزيرة الخضراء ، ونشبت بين الفريقين موقعة حاسمة هزم فيها المسلمون شرهزيمة وسقط معسكر سلطان المغرب ونخيمه في يد النصارى حسبما فصلنا في موضعه ، وكان ذلك في ٣٠ أكتوبر سنة ١٣٤٠ م (جمادى الأولى سنة ٧٤١ هـ) ، واستولى النصارى على طريف والجزيرة الخضراء .

واستمرت غزوات النصارى لأراضي غرناطة بضعة أعوام أخرى . وفي سنة

١٣٤٩ م زحف القشتاليون على سهول الجزيرة الخضراء . وكان ثغر جبل طارق الذي استولى عليه النصارى مدى حين قد عاد إلى المسلمين ، واعتزم ملك قشتالة أن يحاول استرداده ، فضرب حوله الحصار الصارم ، واستمر الحصار زهاء عام ، والمسلمون داخل الصخرة صامدين ، وملك غرناطة يربط بجيشه من وراء النصارى . ثم فشا الوباء في جيش النصارى ، وهلك منه عدد جم ، وكان ملك قشتالة في مقدمة الضحايا ، فاضطر النصارى إلى رفع الحصار ، وأنقذ جبل طارق بما يشبه المعجزة (سنة ١٣٥٠ م) .

وهكذا توفي ألفونسو الحادى عشر ملك قشتالة في إبان قوته ومجده ، ولما يبلغ الثامنة والثلاثين من عمره ، فخلفه والده بيدرو الثانى الملقب بالقاسى الذى تعرفه الرواية الإسلامية « بدون بطره » . وبيدرو شهير في الرواية الإسلامية أولا لأنه هو الملك الذى أوفد إليه المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون سفيراً من قبل ملك غرناطة ، ووصف لنا في التعريف سفارته لديه وإقامته في قشتالة^(١) . وثانيا لأنه معاصر للوزير ابن الخطيب مؤرخ غرناطة ، وقد تناول أخباره في تاريخه بتفصيل ووضوح .

ولجأ بيدور الثانى إلى نفس الأساليب الدموية التى لجأ إليها أبوه في توطيد سلطانه ، فأسرف في قتل خضومه ، وبسط على قشتالة حكم إرهاب مروع ، وقيل إنه لجأ إلى قتل زوجه الشرعية بلانش دى بوربون بالسّم ليتزوج من خليلته ، وعهد بإدارة حكومته إلى رهط من اليهود ارتبأوا منه في أبناء وطنه ، وأنشأ له حرساً من المدجنين . ونشب الخلاف بينه وبين إخوته غير الشرعيين أبناء إلبنورا دى كزمان ، ولا سيما كبيرهم الكونت هنرى دى تراسمارا . وانحاز الأشراف إليهم ، واضطربت قشتالة مدى أعوام بثورات داخلية ، ثم استعالت إلى حرب أهلية ضروس ، واستطاع الكونت هنرى أن يحصل على معاونة ملك فرنسا ، وأن ينتزع لنفسه عرش قشتالة ، وفر بيدرو واستغاث بالأمير أدوارد ولى عهد إنجلترا المعروف بالأمير الأسود ، فأمدّه بجنده واستطاع أن يسترد عرشه مدى حين . ولكن أخاه الكونت هنرى عاد إلى محاربته فهزم وقتل في موقعة مونتيل في سنة ١٣٦٨ م . وقد عرضنا إلى هذه الحوادث بالتفصيل في حديثنا عن عصر السلطان محمد الغنى بالله . وقد كانت تربطه ببيدرو الثانى معاهدة صداقة وتحالف ، وكانت

(١) راجع كتاب العبر ج ٧ ص ٣٠٦ وما بعدها .

غرناطة إلى جانبه في محنته ، وكان لهذه الحوادث صدى خاص في الرواية الإسلامية عرض إليه ابن الخطيب في كتابه « الإحاطة » على نحو ما قدمنا .
وعلى أثر موقعة مونتييل استقر الكونت هنري دى ترستمارا مكان أخيه على العرش (١٣٦٨ م) ، وبدأ بذلك ثبت جديد من ملوك قشتالة . وفي عهده استتب الهدوء والنظام في قشتالة ، وأقبل الأشراف على تأييده ، وكان للمدن التي آزرته في جهوده لنيل العرش امتيازات خاصة ، وكذلك ازدهر البرلمان القشتالي (الكورتيس) واشتد ساعده ، ولكنه لم يوفق إلى الحد من طغيان العرش . وأبدى الكونت هنري في تسير الشئون الداخلية مقدره ، وأصاب نجاحا يذكر ، واستطاع في ميدان الشئون الخارجية أن يرغم البرتغال على عقد الصلح ، وأن يهزم حملة بحرية في مياه لاروشل . وكان حكمه على العموم فترة رخاء وأمن . وفي عهده انتهزت مملكة غرناطة فرصة اشتغال قشتالة بشئونها الداخلية فنظمت قواها ، وأغارت غير مرة على أراضي قشتالة في غزوات ناجحة ، حسبما أشرنا إلى ذلك في موضعه .

ولما توفي الكونت هنري في سنة ١٣٧٩ م ، خلفه على العرش ولده خوان (يوحنا) الأول . وكان الأمير جون أوف جونت ولد إدوارد الثالث ملك إنجلترا قد تزوج كبرى بنات بيدرو الثاني ، وأخذ يطالب باسمها بعرش قشتالة ، وكادت تضطرم من أجل ذلك حرب أهلية جديدة ، ولكن خوان الأول استطاع أن يجتنب هذا الخطر بالتفاهم مع الأمير جون ، والاتفاق معه على أن يقترن ولده بالأميرة كونستانس كبرى بنات الأمير الإنجليزي ، وتم بذلك الزواج اتحاد فرعى ألفونسو الحادى عشر ، وزوال خطر الحرب الأهلية المترتب على خصومتهم . حول العرش ؛ وحاول خوان الأول من جهة أخرى أن يطالب بعرش البرتغال عقب وفاة ملكها فرناندو سنة ١٣٨٣ م باسم زوجته الأميرة بياتريس ، وهي الابنة الوحيدة للملك المتوفى ، وثار من جراء ذلك بين قشتالة والبرتغال حرب هزم فيها القشتاليون في موقعة « الجبرونا » في سنة ١٣٨٥ م ، واضطر ملك قشتالة أن ينزل عن دعواه .

وتوفي خوان الأول قتيلا على أثر سقوطه عن جواده (أكتوبر سنة ١٣٩٠ م) فخلفه على عرش قشتالة ولده هنري (إنريكي) الثالث حدثا . وكان سقيما عليلًا ، ولم يطل أمد حكمه حينما بلغ الرشد سوى أعوام قلائل . بيد أنه استطاع في حكمه القصير أن يوطد النظام والأمن داخل مملكته ، وأن يقضى على شغب الأشراف ،

وأن يسترد منهم كل الإقطاعات التي انتزعوها من العرش إبان طفولته . وفي عهده نشبت الحرب حيناً بين المسلمين والنصارى ، وانتهت بعقد الهدنة بين الفريقين ، ثم توفي شاباً في أواخر سنة ١٤٠٦ م .

فخلفه ولده خوان الثانى طفلاً فى نحو الثانية من عمره ، ووضع تحت وصاية أمه الملكة كونستانس الإنجليزية ، وعمه الأمير فرناندو الذى يعرف بفرناندو صاحب أنتقيرة ، نظراً لاستيلائه على هذه القاعدة من المسلمين فى سنة ١٤١٢ م . وطال حكم خوان الثانى زهاء نصف قرن ، وكان أميراً ضعيف الرأى والعزم سىء الخلال ، يعشق اللهو وينفق أوقاته فى حفلات الصيد والفروسة وقرض الشعر ، وكان عمه الوصى فرناندو فى الأعوام الأولى من طفولته ، يقبض على زمام الأمور بحزم وبصيرة . بيد أنه دعى منذ سنة ١٤١٢ م إلى تبوىء عرش أراجون بقرار من الكورتيس ، فترك قشتالة لمصيرها . وما كاد خوان الثانى يبلغ أشده ، حتى بدأ النضال بينه وبين الأشراف من أجل السلطة وفرض الضرائب ، وشغلت قشتالة مدى حين بأمر هذا النضال . وفوض الملك شئون الدولة إلى وزيره وصفيه ألبارو دى لونا ، فاستأثر بكل سلطة ، واستطاع أن يوطد نفوذ العرش ، وأن يحقق النظام والأمن . فلما اقترن خوان بزوجه الثانية إيسابيلا البرتغالية ، عملت على تحريره من نفوذ وزيره القوى ، وما زالت به حتى أسقطه وأقصاه . ويقال إن هذا التصرف الغادر نغص عليه حياته فى أعوامه الأخيرة . وتوفى خوان الثانى فى يولييه سنة ١٤٥٤ م فى بلد الوليد ، وقد رزق من زواجه الثانى بابنته إيسابيلا وهى التى تبوأَت العرش فيما بعد ، وعرفت بإيسابيلا الكاثوليكية ، وكان لها أعظم شأن فى تاريخ اسبانيا النصرانية .

وفى معظم عصره ساد نوع من السلام والتهادن بين غرناطة وقشتالة ، وكانت حفلات الفروسية الأندلسية الشهيرة تجمع بين الأشراف والسادة من الفريقين ، فى جو من التعاطف والمودة . ولكن غرناطة ما لبثت أن شغلت بثوراتها الداخلية التى تعاقبت حول العرش فى عصر السلطان الأيسر وخلفائه . وكان بلاط قشتالة يلعب عندئذ دوره المأثور ، فى إذكاء عوامل الخلاف بين المتنافسين من أمراء غرناطة ، وتغليب البعض على البعض الآخر ، والتمهيد بذلك لإضعاف مملكة غرناطة والقضاء عليها .

ونخلف خوان الثانى ولده هنرى (إنريكي) الرابع ، وكان كأيهِ أميراً ضعيفاً

منحل الحلال ، حتى أنه لقب « بالعاجز » . وكان عصره ركود وفوضى ، ومع ذلك فإن قشتالة لم تقعد في عهده عن المضي في غزو الأراضي الإسلامية ، وإرهاق مملكة غرناطة ، التي اضطربت شئونها وسادتها الخلافات الداخلية ، واضطر ملك غرناطة السلطان ابن إسماعيل أن يتعهد بتأدية الجزية لقشتالة . وكان من أعظم الحوادث في عصر هنري الرابع استيلاء القشتاليين نهائيا على ثغر جبل طارق (١٤٦٢ م) حسبما ذكرنا في موضعه . وتوفي الملك هنري في سنة ١٤٧٤ م . وعلى أثر وفاته عارض النبلاء في جلوس ابنته الوحيدة خوانا على العرش لما يحيط بنسبتها إليه من الريب . وهنا تقدمت أخته الأميرة إيسابيلا مطالبة بعرش قشتالة . وكانت قد تزوجت في سنة ١٤٦٩ م من ابن عمها الأمير فرناندو الأرجوني ، وذلك بالرغم من معارضة أخيها الملك هنري ، وكان لهذا الزواج أثر بعيد المدى في سير التاريخ الإسباني حسبما تفصل بعد .

٢ - أراجون

لما توفي خايمي الأول أوخايمي الفاتح ملك أراجون في سنة ١٢٧٤ م ، خلفه على العرش ولده بيدرو الثالث . وتبدأ منذ عهد هذا الملك صفحة جديدة في تاريخ أراجون ، حيث يمتد سلطان العرش الأرجوني وإسبانيا النصرانية فيما وراء البحر ، إلى صقلية وجنوبي إيطاليا (مملكة نابل) . وذلك أن بيدرو الثالث تزوج الأميرة كونستانس ابنة مانفرد دوق بنفونتوم وصاحب مملكة نابل وصقلية باعتباره سليل بيت هوهنشتاوفن الإمبراطوري . وكان البابا يريد التخلص من سلطان أولئك الأمراء الألمان ، فدعا شارل دانجو ولد ملك فرنسا إلى اعتلاء عرش نابل ، فاستجاب شارل إلى الدعوة وغزا نابل وقتل صاحبها مانفرد . وهنا تقدم بيدرو الثالث مطالبا بعرش نابل باسم زوجته ، ونشب بين الحزب الأرجوني وبين حزب شارل دانجو نزاع طويل الأمد . وفي النهاية استطاع بيدرو أن يغزو صقلية وأن ينتزعها من يد الفرنسيين ، وأسبغ عليه هذا الفتح لقب « الأكبر » . ولما حاول الفرنسيون غزو قطلونية تأييدا لشارل دانجو ، ردهم بيدرو وأخفقت المحاولة . وكان افتتاح صقلية أول خطوة في بسط السيادة الإسبانية على جنوبي إيطاليا فيما بعد . ولما توفي بيدرو الثالث في سنة ١٢٨٥ م ، كانت سيادة أراجون تمتد فضلا عن صقلية إلى بعض أنحاء بروفانس في جنوبي فرنسا .

وخلفه على العرش ولده ألفونسو الثالث ، وكان ضعيفاً سيئ الخلال ، ولم يطل أمد حكمه سوى بضعة أعوام . وفي عهده اشتدت وطأة النبلاء وكثرت مطالبهم ، وعجز ألفونسو عن مقاومتهم ، وكان تخاذل العرش أمام طغيان الأشراف على هذا النحو ، سبباً في اضطراب الأمور في مملكة أراجون .

وتوفي ألفونسو الثالث سنة ١٢٩١ م دون عقب لأنه لم يتزوج ، فخلفه على عرش أراجون أخوه الأصغر خايمي الثاني : وكان يتولى عرش صقلية منذ وفاة أبيه في سنة ١٢٨٥ م حتى وفاة أخيه الأكبر . ورأى خايمي أن يوفق بين أراجون وبين مملكة نابل ، فتزوج من بلانكا ابنة شارل دانجو ، وساد السلم حيناً بين أراجون وفرنسا . واستطال حكم خايمي حتى سنة ١٣٢٧ م ، وكان عهده إصلاح واستقرار . ثم خلفه في الملك ولده ألفونسو الرابع ، فحكم زهاء تسعة أعوام ، وكان أميراً ضعيفاً . وفي عهده زاد طغيان النبلاء ولاسيما في أراجون وبلنسية ، واشتد إرهابهم للعرش حتى انتهوا بإرغام ألفونسو على إصدار المرسوم المعروف بمرسوم الاتحاد ، وفيه يعترف العرش لهم بأنه لا تجوز معاقبتهم فيما يتعلق بالنفس أو المال إلا بحكم القانون ، وأن يكون لهم حق اختيار القاضي الأكبر الذي يصدر أحكامه مستقلاً عن مصادقة العرش ، وأن يقوموا بالدفاع المسلح عن أنفسهم حينما شعروا بما يهددهم . وكان في صدور هذا المرسوم افتئات لم يسبق له مثيل على سلطات العرش .

وكان بيدرو الرابع الذي خلف أباه ألفونسو على العرش سنة ١٣٣٦ م ، أميراً قوياً وافر العزم . وكان يتوق إلى كبح جماح أولئك النبلاء الذين طال طغيانهم ، وإلغاء ذلك المرسوم الذي أرغم أبوه على إصداره . ولكن النبلاء تمسكوا بموقفهم ، وتأهبوا للدفاع عن امتيازاتهم ، واضطربت أراجون بحرب أهلية بين العرش والنبلاء انتهت بفوز بيدرو الرابع على النبلاء الخوارج في موقعة آبله سنة ١٣٤٨ م . وأمعن بيدرو بعد ذلك في مطاردة خصومه وقتلهم ، وأرغم النبلاء على التنازل عن مرسوم الاتحاد ، وقام بنفسه بتمزيقه أمام مجلس النواب في سرقسطة ، وبلغ من تلفهه على تمزيقه أن جرح يده بخنجره ، وصاح عندئذ بأن الدم الملكي حقيق بأن يجري في سبيل إبطال مثل هذه الوثيقة ، وعرف من جراء ذلك « بصاحب الخنجر » . على أن بيدرو كان حكيماً في ظفـره ، فقد ترك للنبلاء الحق في أن يحاكموا بمقتضى القانون ، وأن تكفل حمايتهم من الأحكام التعسفية ، وأكد احترامه لاستقلال القضاء ، وترك للمدن حق الإعراب عن رأيها . وفي العام التالي (١٣٤٩ م)

استطاع بيدرو الرابع أن ينتزع الجزائر الشرقية (البليار) من ابن عمه خايمي الثالث ، بعد أن هزم وقتل في موقعة دموية ، وأعيدت الجزائر الشرقية إلى مملكة أراجون مرة أخرى ، وكان خايمي الفاتح قد تركها بمقتضى وصيته لخايمي أحد أولاده ، وقامت بها مملكة مستقلة مدى حين . ونشبت الحصومة بعد ذلك بين بيدرو ملك أراجون ، وبيدرو القاسى ملك قشتالة ، وانحاز ملك أراجون إلى الكونت هنرى دى تراسمارا المطالب بعرش قشتالة ، واستمر يعاونه بالمال والجند ، حتى انتهى أخيراً بالتغلب على أخيه بيدرو القاسى ، والجلوس على عرش قشتالة سنة ١٣٦٩ م حسبما فصلنا من قبل . وظفر بيدرو كذلك باسترداد صقلية فى سنة ١٣٧٧ م ، ولكنه منح حكمها لابنه مرتين ، وزوج بيدرو ابنته إلينور لخوان الأول ملك قشتالة ، فكان ذلك فيما بعد سبباً فى انتقال عرش أراجون إلى بيت قشتالة الملكى حينما انقرض عقبه من الذكور .

وتوفى بيدرو الرابع سنة ١٣٨٧ م ، وأراجون أوفر ما تكون قوة ، واستقراراً فخلفه ولده خوان (يوحنا) الأول . وكان أميراً ضعيف الحلال والعزم ، يعشق الأدب والشعر وتضجره مهام الملك ، ولم يطل أمد حكمه سوى بضعة أعوام ، إذ توفى فى حادث سقوطه عن جواده سنة ١٣٩٥ م .

فخلفه أخوه الأصغر مرتين الأول . وكان حكمه عهد هدوء واستقرار . ومنح عرش صقلية لولده مرتين . وفى عهده سادت علائق المودة والصداقة بين أراجون وغرناطة ، وعقدت بين المملكتين معاهدة صداقة وتحالف (سنة ١٤٠٥ م) . ولما توفى مرتين فى سنة ١٤١٠ م دون عقب ، ثارت حول وراثة عرش أراجون مشكلة دقيقة ، وتولى مجلس الكورتيس (البرلمان) حكم البلاد ، واستمر مدى عامين فى مباحثات ومناقشات مستمرة حول مسألة العرش ، وفى النهاية أصدر قراره باختيار الأمير فرناندو القشتالى ولد خوان الأول ملك قشتالة ، والمعروف بفرناندو صاحب أنتفيرة ، للجلوس على عرش أراجون ، وذلك باعتباره ولد الملكة إلينور ابنة بيدرو الرابع ملك أراجون وأخت الملك مرتين ، فلبى فرناندو الدعوة وتخلّى عن وصايته لابن أخيه خوان الثانى ملك قشتالة ، وجلس على عرش أراجون سنة ١٤١٢ م ، وبدأ بذلك ثبت جديد من ملوك أراجون .

ولم يطل أمد حكم الملك فرناندو سوى أربعة أعوام ، وكان أميراً قوى الحلال ذا مقدرة وفطنة فى تصريف الشئون ، ولكنه كان يضطرم بروح السلطان

المطلق التي ألفها في قشتالة ، ويتبرم بالحدود والقيود التي وضعها الدستور الأرجوني للحد من سلطان العرش . والواقع أن الحريات الدستورية كانت في أراجون ، أرسخ وأكثر نضوجاً منها في قشتالة ، وكان ذلك يرجع إلى طبيعة الشعب الأرجوني ، وشدة مراسه ، وتعلقه بمبادئ الحرية ، وهي صفات لم تكن تروق في تلك العصور للوكية رجعية ، تحرص على سلطانها المطلق .

ولما توفي فرناندو الأول في سنة ١٤١٦ م ، خلفه على عرش أراجون ، ولده ألفونسو الخامس المعروف بألفونسو « الشهم » El Magnánimo ؛ على أن ألفونسو الخامس لا يكاد يمثل في تاريخ أراجون ، وإنما يمثل بالأخص في تاريخ إيطاليا ومملكة نابل . وقد ورث ألفونسو عرش صقلية مع عرش أراجون ، واستطاع بعد حوادث وخطوب جمة أن يفتح مملكة نابل وأن يجلس على عرشها (١٤٤٢ م) . واستقر ألفونسو في نابل ، وترك حكم أراجون والأراضي التابعة لها لأخيه خوان (يوحنا) ، يحكمها باسمه ومن قبله . وبسط ألفونسو على نابل وصقلية حكمه الفخم ، وسطع بلاطه بين القصور الإيطالية ، وكان نصيراً للعلوم والآداب والفنون ، يأخذ في تعصيدها بقسط وافر ، شأن معاصريه من الأمراء والبابوات الذين ساهموا في بعث النهضة ، وسطعوا في عصر الإحياء (الرينسانس) . ولما توفي في سنة ١٤٥٨ م ، دون عقب شرعي ، ترك مملكة نابل لولده غير الشرعي فرناندو ، وجلس أخوه خوان على عرش أراجون باسم خوان الثاني . وكان خوان الثاني أميراً وافر العزم والمقدرة ، ولكنه كان في الوقت نفسه طاغية خطر الأدواء والأساليب . وشغل خوان عن شئون أراجون الداخلية ، بكفاحه في سبيل الحصول على عرش نافارا ، باعتباره زوجاً ووريثاً لملكها بلانش ، وكذلك شغلته ثورة ولده الأمير كارلوس المعروف بأمر قيانا مدى حين ، وكان ينافس أباه في الحصول على عرش نافارا ، ويرى أنه أحق منه بميراث أمه . وحاول خوان بتحريض زوجته الثانية چنه هنريكيز أن يحرم ولده من نيابة العرش ، فثار إلى جانبه فريق من الشعب الأرجوني ، ونشبت بين الأب والإبن عدة وقائع انتهت بوفاة الإبن في سنة ١٤٦١ م . وقيل إنه توفي مسموماً بيد زوج أبيه . وكذلك ثار الشعب القطلوني معلناً استقلاله . وشغل خوان بضعة أعوام حتى استطاع أن يخمّد هذه الثورة الخطيرة (١٤٧٢ م) . وكذلك نشبت الحرب بين أراجون وفرنسا ، من أجل ولاية روسييون الفرنسية ، وهزم خوان غير مرة . على أن

أعظم مهمة شغلت خوان في أواخر عهده ، هي السعى إلى تزويج ولده فرناندو من زوجته الثانية ، بالأميرة (إيسابيل) القشتالية^(١) ، وقد كلل سعيه بالنجاح في تحقيق هذا المشروع الخطير الذي كان إيذاناً باتحاد أراجون وقشتالة في مملكة اسبانية موحدة .

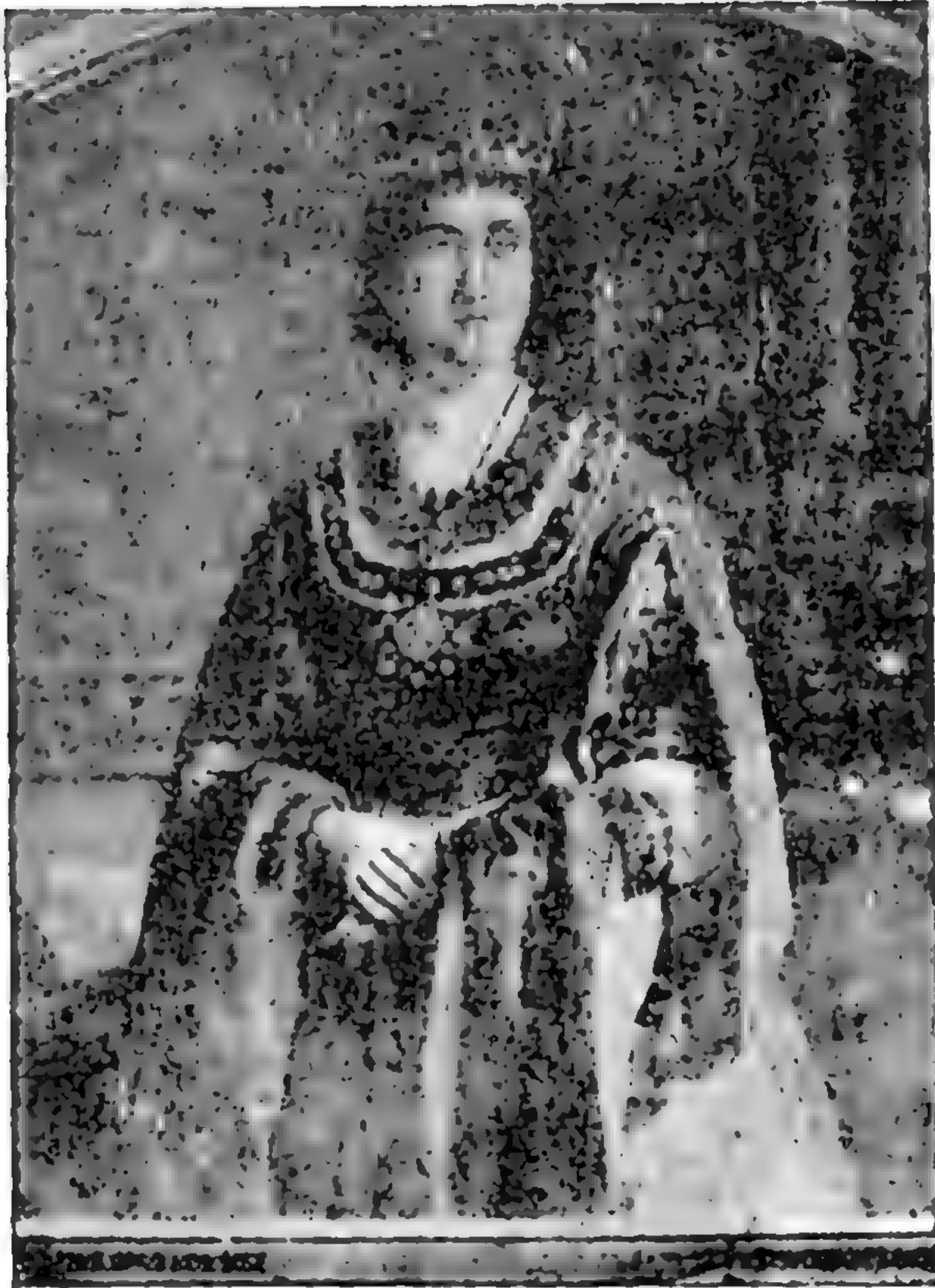
واستطال حكم خوان الثاني حتى سنة ١٤٧٩ م ، وقد بلغ الثمانين من عمره وكف بصره ، فترك العرش لولده فرناندو ، الذي قدر له أن يضطلع مع زوجته إيسابيل ، بأعظم دور في العمل لإنشاء اسبانيا الكبرى .

٣ - اسبانيا النصرانية المتحدة

لما توفي هنري الرابع ملك قشتالة في سنة ١٤٧٤ م ، ثارت حول وراثة العرش مشكلة دقيقة . ذلك أن الملك هنري لم يترك سوى ابنة طفلة هي خوانا (چنه) . وكانت مع ذلك يشك في نسبتها إليه ، وتنسب أبوتها إلى صديقه وصفيه الدوق بلتران دى لا كويثا ، ومن ثم كان اسمها الذائع خوانا بلترانيخا . وكان يناصرها فريق صغير من النبلاء . بيد أن الأميرة إيسابيل أخت الملك هنري ، كانت بالعكس تتمتع بعطف الشعب القشتالي ، ويناصر وراثتها للعرش فريق كبير من النبلاء ، وكان أخوها الملك هنري قد اعترف بحقها في العرش ، وأيدها الكورتيس (مجلس النواب) في ذلك ، عقب وفاة أخيها ألفونسو في سنة ١٤٦٨ م ، ومن ثم فقد كان حقها في وراثة العرش أمراً واضحاً .

وكانت الملكة إيسابيل قد تزوجت قبل وفاة أخيها ببضعة أعوام ، بابن عمها الأمير فرناندو الأرجوني ولد الملك خوان الثاني . ولهذا الزواج الذي مهد لتوحيد اسبانيا النصرانية قصة طريفة . فقد كانت الأميرة إيسابيل مذكبرت مطمح الأنظار لما يؤهلها لعرش قشتالة من الاحتمالات القوية . وكان خوان الثاني ملك أراجون يتوق إلى خطبتها لابنه فرناندو لما يربط أسرتي قشتالة وأراجون من أواصر القرى الوثيقة ، ويقرب سبل الإتحاد بين الفريقين . وكان فرناندو أول المتقدمين لخطبة الأميرة ، ولكن أخاها الملك هنري لم يكن راضياً عن ترشيحه ، وكان بنافسه في خطبتها عدة من الأمراء والنبلاء منهم كبير فرسان قلعة رباح ، وقد وافق أخوها

(١) هي في التواريخ القشتالية « دونيا إيسابيل » اي السيدة إيسابيل Dona Isabel ، أو Ysabel . ولكننا نؤثر تسميتها بإيسابيل تمثيلاً مع التواريخ الغربية .



الملكة إيسابلا الكاثوليكية
عن الصورة المحفوظة بمتحف سان تلمو بإشبيلية

الملك هنرى على زواجه منها ، ولكنه توفى قبل إتمامه ، وكذلك خطبها ألفونسو ملك البرتغال وأمراء آخرون ، ولكن إيسابيلا رغبت عنهم جميعا ، وآثرت بعد إمعان النظر أن تستجيب إلى دعوة ابن عمها فرناندو الأرجونى ، لنفس البواعث التى دعت إلى تقدمه إليها ، ولأنه يجمع بينهما من الجذب بيت ملكى واحد . ووُضعت شروط الزواج بين الفريقين سرّاً نظراً لمعارضة الملك هنرى ، وفيها يتعهد فرناندو بأن يحترم قوانين قشتالة وتقاليدها ، وأن يجعل مقر إقامته فيها ، وألا يغادرها دون إذن إيسابيلا ، وألا يجرى أى قرارات أو تعيينات فى المملكة دون إذنها ، وتعهد بالأخص بأن يتابع الحرب ضد المسلمين . وفى أكتوبر سنة ١٤٦٩ عقد الزواج فى مدينة بلد الوليد Valladolid ، حيث كانت تقيم الأميرة ، فى حفل خاص لم يشهده سوى قليل من الأصدقاء ، وأخطرت الأميرة أخاها بعقد الزواج ، بكتاب تشرح فيه البواعث التى حدث بها إلى إتمامه . وهكذا حققت أمنية ملك أرجون ، وأثبتت الحوادث التالية بعد نظره ، وخطورة مشروعه .

وأعلنت إيسابيلا عقب وفاة أخيها ملكة لقشتالة وليون ، فى شقوبية^(١) حيث كانت تقيم ، وذلك فى ديسمبر سنة ١٤٧٤ م ، وحدثت مدن أخرى حذو شقوبية ، ولكن الأمر لم يكن هيناً ، ذلك أنه كان ثمة فريق من النبلاء يناصر الأميرة خوانا ابنة الملك المتوفى ، وكان زوجها فرناندو يطمح فوق ذلك إلى انتزاع العرش لنفسه ، باعتباره آخر عقب من الذكور لبيت قشتالة الملكى ، ولكن إيسابيلا تمسكت بحقها ، وانتهى الأمر بينهما بالاتفاق على مزاولة الملك المشترك ، تعتبر فيه إيسابيلا ملكة أصلية لقشتالة ، لها الرأى الأول فى الحليل من الشئون ، ويجرى القضاء وتسك العملة باسميهما . وكان خصوم إيسابيلا فى ذلك الحين وعلى رأسهم مطران طليطلة ، قد تفاهموا مع ملك البرتغال ألفونسو الخامس ، على تأييد سعيهم فى تنصيب خوانا ملكة وهى ابنة أخته ، وعلى الاقتران بها . وفى مايو سنة ١٤٧٥ غزا ملك البرتغال قشتالة بقواته ، واخترق هضابها الشمالية حتى مدينة سمورة ، وبادر فرناندو وإيسابيلا بالسير فى قواتهما إلى لقائه ، واشتبك الفريقان على مقربة من تورو بجوار سمورة ، فارتد القشتاليون فى البداية ، ولكن ألفونسو لم يبادر إلى الاستفادة من تفوقه ، وطال الصراع بين الفريقين بضعة أشهر ، وفى النهاية رجحت كفة القشتاليين ، واضطر ملك البرتغال أن يرتد أدراجه (فبراير سنة ١٤٧٦ م) .

(١) هى بالإسبانية Segovia .



الملك فرناندو الخامس (الكاثوليكي)
عن الصورة المحفوظة بمتحف سان تلمو بإشبيلية

وهكذا انتصر فرناندو وإيسابيلا على خصومهما ، واستقرا معا على عرش قشتالة بلا منازع . وفي سنة ١٤٧٩ ارتقى فرناندو عرش أراجون على أثر وفاة أبيه نخوان الثاني ، وبذلك اتحدت المملكتان الإسبانيتان في ظل عرش واحد ، بعد أن فرقت بينهما المنافسات والخطوب أحقاداً ، واجتمعت كلمة اسبانيا النصرانية بعد أن طال افتراقها ؛ وبدأت اسبانيا في ظل فرناندو وإيسابيلا ، أوفى ظل الملكن الكاثوليكين حسبما لقبا بعد ، عصرأ من القوة والعظمة والسؤدد ، لم تشهده في تاريخها من قبل ، وهو بحق فاتحة عصرها الذهبي .

وكان فرناندو الخامس أو فرناندو الكاثوليكي من أعظم ملوك اسبانيا النصرانية وأوفرهم عزماً وهمة ؛ وكان يتمتع بمقدرة فائقة ، سواء في الإدارة أو في ميادين الحرب والسياسة . بيد أن هذا الجانب الحسن من خلاله ، كانت تغشاه صفات سيئة ، فقد كان فرناندو أميراً لا وازع له ، ينجح في سياسته إلى الغدر ، ومجانبة الوفاء ، وكان رجل الفرصة السانحة ، يلتمس إلى تحقيق أطماعه العظيمة أى الوسائل ، مهما كانت بجانب المبادئ الأخلاقية المقررة ، أو مقتضيات الفروسة والوفاء . وسوف نرى كيف تتجلى هذه الخلال البغيضة في تصرفاته وأساليبه في معاملة الأمة الأندلسية المغلوبة .

وكانت زوجته الملكة إيسابيلا تتمتع أيضاً بكثير من الذكاء والعزم . وكانت تثير برقتها وتبواضعها واحتشامها ، حب الشعب القشتالي وإعجابه . بيد أنها كانت تجيش بنزعة دينية عميقة ، تذهب أحياناً مذهب التعصب المضطرم ، وكانت تقع تحت تأثير الأخبار المتعصبين ، وتنزل عند تحريضهم وتوجيههم ؛ وكان مشروع غزو مملكة غرناطة والقضاء على الأمة الأندلسية ، يدكى في نفس هذه الملكة الورعة التي تنعت أيضاً « بالكاثوليكية » ، أشنع ضروب التعصب ، ويحملها على مؤازرة ديوان التحقيق الإسباني^(١) ، وإقرار كل ما جنح إلى ارتكابه باسم الدين ، من الأعمال والجرائم المشيرة .

وفي الوقت الذي جلس فيه فرناندو وإيسابيلا على عرش اسبانيا القوية الموحدة ، كانت مملكة غرناطة تدخل بعد سلسلة طويلة من الحروب الأهلية في مرحلة النزاع الأخيرة . وكان يجلس على عرشها وقتئذ السلطان على أبو الحسن ، ولد السلطان

(١) نريد هنا بديوان التحقيق (Inquisición) Inquisition المحاكم المعروفة خطأ باسم « محاكم التفتيش » .

سعد المستعين بالله . وكانت مملكتنا قشتالة وأراجون قد شغلنا مدى حين بطائفة من الإضطرابات والحروب الداخلية ، المتعلقة بوراثة العرش وغيرها ، مما سبق أن فصلناه في مواضعه ، فلم تسعفهما الفرص للاستمرار في محاربة المسلمين . ولكن عهد الفتنة والحصومات الداخلية انتهى بجلوس فرناندو وإسابيلا على عرش المملكة الإسبانية المتحدة . وكان شهر الحرب على مملكة غرناطة ، من أهم الأغراض القومية المشتركة التي تعاهد الملكان على الاضطلاع بها ، ومن ثم فإنه ما كادت تستقر شئون قشتالة الداخلية ، حتى أخذ الملكان « الكاثوليكيان » يستعدان لمحاربة المسلمين بكل ما أوتيا من قوة وعزم .

وهنا نقف في سرد تاريخ اسبانيا النصرانية ، لنعود إلى استئناف حديثنا عن مملكة غرناطة والمأساة الأندلسية .

الكتاب الثاني
نهاية
دولة الإسلام في الأندلس
٨٦٨ - ٨٩٧ هـ : ١٤٦٣ - ١٤٩٢ م

الفصل الأول

الأندلس على شفا المنحدر

انحلال مملكة غرناطة . ابن الخطيب وشعوره بمصير الأندلس . تشاؤم ابن خلدون . مملكة غرناطة وعون بني مرين . تربص اسبانيا النصرانية . ولاية السلطان أبي الحسن . أسرة بنيغش . استرداده لبعض الحصون . خروج أخيه أبي عبد الله الزغل عليه . عقد الصلح بينهما . اتحاد اسبانيا النصرانية . العلائق بين غرناطة وقشتالة . فرناندو يطالب بالجزية . أبو الحسن يغزو أرض النصارى . استيلاؤه على قلعة الصخرة . طفيلانه وانحرافه . زوجه عائشة الحرة والخلاف حول اسمها . اقترانه بثريا النصرانية . الزواج المختلط وأثره في انحلال المجتمع الأندلسي . التنافس بين الملكة الشرعية وثريا . اعتقال الأميرة عائشة وولديها . انقسام الزعماء والقادة . استئثار ثريا بالسلطة . سعيها لسحق أبي عبد الله ولد عائشة . فرار الأميرة عائشة وولديها . ظهور دعوتهم في وادي آش . الحرب بين المسلمين والنصارى . مهاجمة النصارى لمدينة الحامة واستيلاؤهم عليها . فشل أبي الحسن في إنقاذها . مهاجمة فرناندو لمدينة لوشة . إنجادها وهزيمة النصارى . الثورة في غرناطة . فرار أبي الحسن إلى مالقة . جلوس ولده أبي عبد الله على العرش . مسير النصارى إلى مالقة . هزيمتهم الفادحة . خروج أبي عبد الله إلى الغزو . هزيمة المسلمين عند حصن السانة . أسر النصارى لأبي عبد الله واقتياده إلى قرطبة . الاضطراب في غرناطة . نزول أبي الحسن عن العرش لأخيه أبي عبد الله الزغل . السعي إلى افتدائه أبي عبد الله . خطة ملكي قشتالة في استغلاله . معاهدة سرية بين الملكين وأبي عبد الله . تسريح أبي عبد الله والخلاف حوله . ضعف أبي عبد الله . زحف النصارى على رندة واستيلاؤهم عليها . هزيمتهم أمام حصن موكلين . الحرب الأهلية في غرناطة . ظهور أبي عبد الله في المنطقة الشرقية . دعوته إلى الصلح مع النصارى . مهاجمة النصارى للوشة واستيلاؤهم عليها . ما يقال عن اشتراك أبي عبد الله في الدفاع عنها . سقوط الحصون الإسلامية في يد النصارى . الأنفاس التي استعملت في حرب عبد الله وعمه الزغل . إمداد فرناندو لأبي عبد الله . مسير فرناندو إلى بلش مالقة . إسراع الزغل إلى إنجادها . سقوطها في يد النصارى . تأييد غرناطة لأبي عبد الله . ارتداد الزغل إلى وادي آش . انقسام مملكة غرناطة .

— ١ —

وهكذا كانت شمس الأندلس تؤذن بالغروب ، وكانت تغرب في الواقع بنحطى وثيدة ، ولكن مؤكدة .

ولم يك ثمة شك في أن هذه المملكة الإسلامية الصغيرة ، التي يسودها الخلاف والتفرق ، وتعصف بوحدها ومنعتها الحروب الداخلية ، كانت تنتحر ببطى ، وأن هذه الأمة الأندلسية ، التي أخذت تنكمش في مدنها وثغورها القليلة ، كانت

تنظر إلى المستقبل بعين التوجس والجزع ، وأن هذه الحياة الباهرة الساطعة التي كانت تحياها بين آن وآخر ، كلما تربع على العرش أمير قوى رفيع الخلال ، لم تكن إلا سويغات النعماء الأخيرة ، في حياة أمه عظيمة تالدة . وقد كان هذا الشعور يخالج رجالات الأندلس منذ بعيد ، حتى قبل أن تتفاقم الأمور ، وتغدو مملكة غرناطة ألوية في يد بلاط قشتالة ، وكانوا يستشفون من وراء ذلك خطر الفناء المحقق ، وكان ابن الخطيب وزير الأندلس ومفكرها الكبير ، أشدهم شعوراً بذلك الخطر الداهم ، وقد استشعر به قبل وقوعه بأكثر من قرن ، فعكف يهيب بقومه وإخوانه المسلمين فيما وراء البحر ، ويستنفرهم إلى الجهاد . ومما يخاطبهم به قوله : « أيها الناس رحمكم الله ، إخوانكم المسلمون بالأندلس قد دهم العدو قصمه الله ساحتهم ، ورام الكفر نخذه الله استباحتهم ، وزحفت أحزاب الطواغيت عليهم ، ومد الصليب ذراعه إليهم ، وأيديكم بعزة الله أقوى ، وأنتم المؤمنون أهل البر والتقوى ، وهى دينكم فانصروه ، وجواركم القريب فلا تخفروه ، وسبيل الرشيد قد وضح فلتبصروه . الجهاد الجهاد ، فقد تعين ، الجار الجار ، قد قرر الشرع حقه وبين ، الله الله في الإسلام ، الله الله في أمة محمد عليه السلام ، الله الله في المساجد المعمورة بذكر الله ، الله الله في وطن الجهاد في سبيل الله ، فقد استغاث الدين فأغيثوه ، قد تأكد عهد الله وحاشاكم أن تنكثوه ، أعينوا إخوانكم بما أمكن من الإعانة ، أعانكم الله عند الشدائد . جددوا عوائد الخير يصل الله لكم جميع العوائد ... أدركوا رمق الدين قبل أن يفوت ، بادروا عليل الإسلام قبل أن يموت ... » (١) ،

ويشير ابن الخطيب في إحدى رسائله إلى السلطان أبي سالم المريني ملك المغرب إلى ما تعانيه الأندلس من الحن والأخطار ، وينوه بانحدار الملوك النصراني على محاربتها والقضاء عليها في قوله : « فاعلموا أننا في هذه الأيام ندافع من العدو تياراً ، ونكابر بجرأ زخاراً ، ونتوقع إلا أن وفى الله تعالى خطوباً كباراً ، ونمد اليد إلى الله تعالى انتصاراً ، ونلجأ إليه اضطراراً ، ونستمد دعاء المسلمين بكل قطر ، استعداداً به واستطهاراً » (٢) .

(١) راجع نفح الطيب ج ٤ ص ٤١١ ؛ وأزهار الرياض ج ١ ص ٦٤ ؛ وابن الخطيب يتوجه هنا بندائه إلى أهل العدو وملوكهم من بني مرين .
(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ٥٧١ .

ثم يقول في رسالة أخرى ، مشيراً إلى ما يهدد الأندلس من جراء ذلك من خطر
الفناء المحقق : « وقد قرأت يا مولاي عين العبد بما رأت في هذا الوطن المراكشي ،
من وفور حشودكم ، وكثرة جنودكم ، وترادف أموالكم ، وعددكم ، زادكم الله
من فضله . ولا شك عند عاقل أنكم إن انحلت عروة تأميلكم ، وأعرضتم عن
ذلك الوطن ، استولت عليه يد عدوه » (١) .

ولإلى جانب رسائله المثورة ، كان ابن الخطيب ، يوجه إلى المسلمين بالمغرب
قصائد مؤثره في الاستنفار للجهاد وإغاثة الأندلس ، وإليك نموذج من هذه القصائد :

إخواننا لا تنسوا الفضل والعظما	فقد كاد نور الله بالكفر أن يطفأ
وإذ بلغ المساء الزبا فتداركوا	فقد بسط الدين الحنيف لكم كفا
تحكم في سكان أندلس العدا	فلهفاً على الإسلام ما بينهم لهفا
وقد مزجت أفواهها بدمائها	فإن ظمئت لا رى إلا الردى صرفا
أنوماً وإغفاءً على سنة الكزي	وما نام طرف في حماها ولا أغفا
أحاط بنا الأعداء من كل جانب	فلا وزرا عنهم وحدا ولا لهما
ثغور غدت مثل الثغور ضواحكا	أقام عليها الكفر يرشها رشفا
ومنها :	

وسيلتنا الإسلام وهو أخوة	من المثل الأعلى تقربنا زلفا
أخوفاً وقد لئنا بجاه من ارتضى	وذلاً وقد عدنا بعز من استعفا
فهل ناصر مستبصر في يقينه	يحير من استعدا ويكنى من استكفا
ومنتجز فينا من الله وعده	فلا نكث في وعد الإله ولا خلفا
وهل بائع فينا من الله نفسه	فلا مشتر أولى من الله أو أوفى
أفى الله شك بعد ما وضح الهدى	وكيف لضوء الصبح في الأفق أن يخفا
وكيف يعيث الكفر فينا ودوننا	قبائل منكم تعجز الحصر والوصفا
غيث نوال كلنا نسلوا التلى	لنوث نزال كلما حضروا الزحفا
فقوموا برسم الحق فينا فقد عفا	وهبوا لنصر الدين فينا فقد أشفا (٢)

ويبدى المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون ، تشاؤمه وتوجسه ، من مصير

(١) نفح الطيب ج ٣ ص ٢٣١ ، وأزهار الرياض ج ١ ص ٦٦ .
(٢) نقلنا هذه القصيدة من ديوان ابن الخطيب المخطوط المحفوظ بمكتبة جامع القرويين بفاس
المسمى « الصيب والجهم ، والماضي والكهام » .

الأندلس في أكثر من موطن ، وهو الخبير بتقلبات الدول ومصايرها ، وكان قد زار غرناطة وأقام بها مدى حين ، ودرس أحوالها وشؤونها^(١) .

وقد رأينا فيما تقدم كيف كانت مملكة غرناطة ، جرياً منها على السياسة الأندلسية الماثورة منذ أيام المرابطين والموحدين ، تنجيه كلما لاح لها شبح الخطر الداهم من عدوها القوي ، ببصرها إلى جارتها المسلمة القوية فيما وراء البحر ، أعنى دولة بنى مرين . وكانت صولة الإسلام في الضفة الأخرى من البحر ، تروع اسبانيا النصرانية ، وترد عدوانها عن الأندلس بين آونة وأخرى . ولكن صريخ بنى الأحمر إلى ملوك العدو ، لم يكن دائماً بعيداً عن التوجس والريب ، ولم يستجب بنو مرين دائماً إلى صريخ الأندلس المحتضرة ، وكانت لهم أحياناً مطامع ومشاريع في الأندلس وقواعدها الجنوبية ، تزهده في غوثهم ونصرتهم . وكانت اسبانيا النصرانية كلما آتست تصرم العلائق بين الدولتين الشقيقتين ، انقضت على الأندلس فاقتطعت منها أرضاً جديدة . ولما أشرفت دولة بنى مرين على الانهيار ، وشغلت عدوة المغرب بالفتن الداخلية ، نجبا أمل الأمة الأندلسية ، في تلقى الغوث والإمداد من تلك الناحية ، واضطرت مملكة غرناطة أن تعتمد في الذود عن حياتها ، على قواها ومواردها المحدودة ، وعلى ما يمكن أن تفيده من تطور الحوادث في اسبانيا النصرانية . ولم تأت فاتحة النصف الأخير من القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) ، حتى غدت غرناطة وقد انتزعت معظم أطرافها من الغرب والجنوب ، وأحاطت بها قوى النصرانية من كل صوب ، تدبر عدتها الأخيرة للقضاء عليها .

لما توفي السلطان سعد بن محمد بن يوسف النصرى في أواخر سنة ٨٦٨ هـ (١٤٦٣ م) كان ولده الأكبر على أبو الحسن الملقب بالغالب بالله^(٢) متربعاً على عرش غرناطة قبل ذلك بأكثر من عام ، وكان أبو الحسن يومئذ في نحو الثلاثين من عمره ، لأنه ولد قبل سنة ٨٤٠ هـ ، حسبما يحدثنا الرحالة المصرى الذى سبقته الإشارة إليه^(٣) . بيد أنه لم يستخلص الملك لنفسه إلا بعد نضال عنيف بينه وبين منافسيه ، وعلى رأسهم أخواه يوسف أبو الحجاج والسيد أبو عبد الله محمد

(١) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٧٨ ، وج ٧ ص ٣٧٩ .

(٢) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٦٠٧ .

(٣) راجع ما نقله الأستاذ دلافيدا في مجلة (Al-Andalus V.I. 1933 Fasc. -II) .

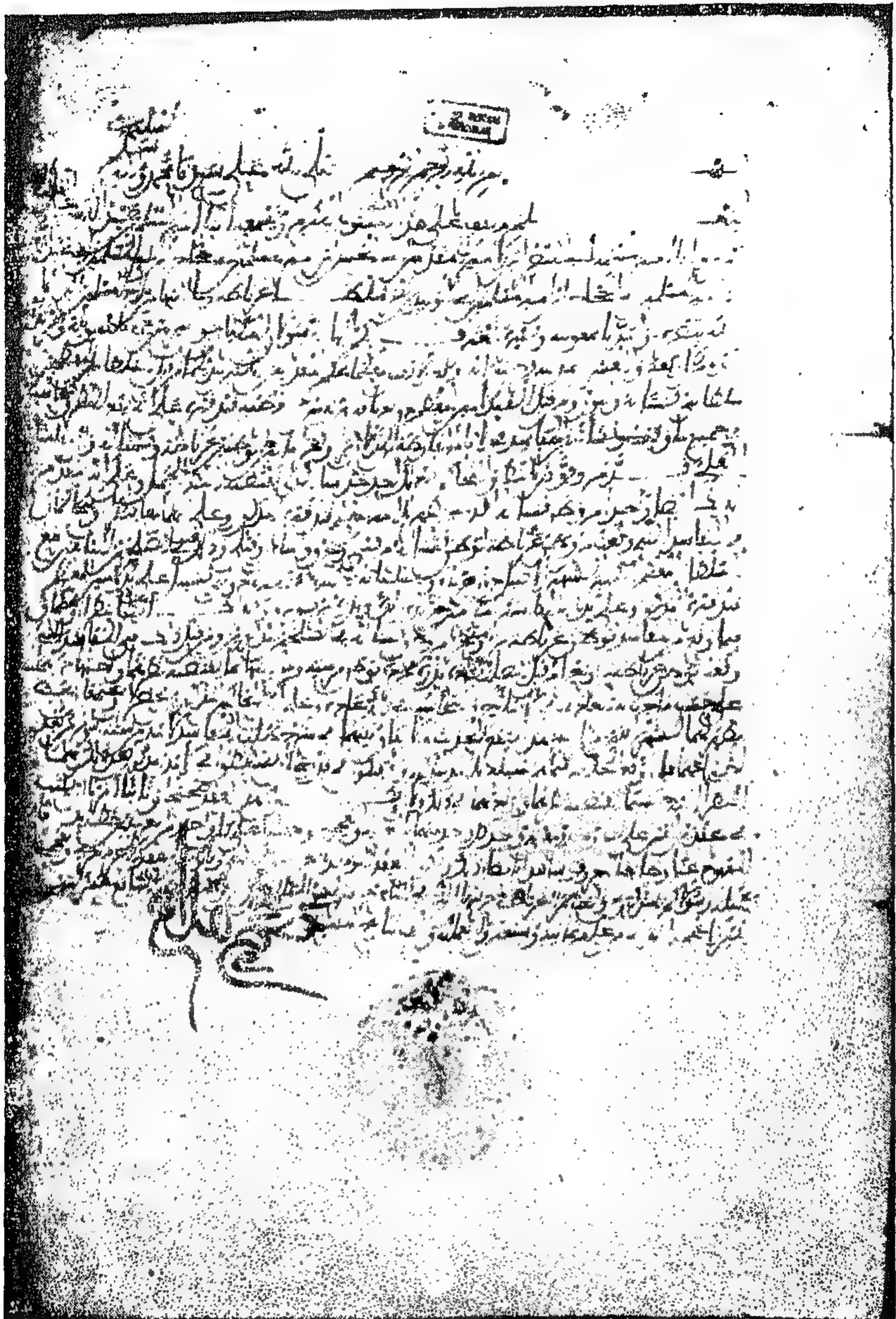
المعروف « بالزغل » ، وقد توفي يوسف قبل بعيد ، وبقى « الزغل » ليخوض حياة حافلة بالأحداث والحن . وكان أبو الحسن أميراً وافر الشجاعة والعزم ، يعشق الحرب والجهاد ، وكانت له أيام أبيه غزوات موفقة في أرض النصارى . وما كاد يستقر في عرشه ، حتى أبدى همة فائقة في تحصين المملكة ، وتنظيم شؤنها ، وبث فيها روحاً جديدة من القوة والطمأنينة ، واستطاع أن يسترد عادة من الحصون والقواعد التي استولى عليها النصارى . وتولى وزارته ، وزير أبيه من قبل ، القائد أبو القاسم بن رضوان بن تينغش^(١) . وكان هذا الوزير ، مثل سلفه الحاجب رضوان النصارى ، سليل أسرة نصرانية ، وأسر جده في بعض المعارك ، وربى في كنف الدار السلطانية ، وتبوأ أسرته بين الأسر الغرناطية مكانة رفيعة ، واشتركت في كثير من حوادث غرناطة السياسية ، وتولت الوزارة .

وفي أوائل حكمه خرج عليه أخوه أبو عبد الله « الزغل »^(٢) وكان يومئذ والياً لمالقة ، وكان يضارعه في الشجاعة والجرأة وحب النضال . ولجأ الزغل إلى عون ملك قشتالة هنري الرابع يستنصره على أخيه ، ولقيه في محلته في ظاهر أرشونة ، سنة ٨٧٤ هـ (١٤٦٩ م) فوعده بالعون والتأييد . وبادر السلطان أبو الحسن من جانبه بالإغارة على أراضي قشتالة (١٤٧٠ م) . ثم عاد في العام التالي فغزاها مرة أخرى ، وانتزع من النصارى بعض المواقع التي استولوا عليها . وشغل أبو الحسن في الأعوام الثلاثة التالية بمحاربة أخيه أبي عبد الله الزغل ، الثائر عليه . وكان النضال سجالات بينهما . وشغل أبو الحسن بذلك عن غزو أرض النصارى . وشغل القشتاليون أنفسهم بما نشب بينهم من الخلاف الداخلي ، وذلك حتى وفاة ملكهم هنري الرابع في سنة ١٤٧٤ م . وفي تلك الأثناء خرجت مالقة عن طاعة أبي الحسن ، حيث ثار بها القائد محمد الفرسوطي ، وانضم إليه كثير من القواد والأجناد ، فسار أبو الحسن إلى مالقة وحاصرها غير مرة ، ولكنه لم يفلح في إخماد الثورة ، واستدعى القواد الثائرون أخاه أبا عبد الله محمد بن سعد (الزغل) ، وكان يومئذ بقشتالة ، وأعلنوه ملكاً عليهم ، وانقسمت المملكة بذلك إلى شطرين متخاصمين^(٣) .

(١) تشغل أسرة بنيغش - وهو تحريف لاسمها الإسباني Los Venegas - في التواريخ القشتالية حيزاً ملحوظاً . وقد عاد بعض أفرادها إلى النصرانية عقب سقوط غرناطة ، وأحرزت أسرهم فيما بعد مكانة كبيرة بين الأرستقراطية الإسبانية ، ونبع فيها عدد من القادة ورجال الدين .

(٢) الزغل وزغل أعني الشجاع أو الباسل والمصدر « زغلة » . وسرى فيما بعد كيف ينطبق هذا المعنى على سيرة الزغل وصفاته أتم الانطباق . راجع دوزي Supp. aux Dict. arabes. V. II. p. 594

(٣) كتاب مرآة المحاسن لمؤلفه العربي القاسي (طبع فاس ١٣٢٤ هـ) ص ١٤٢ .



صورة مرسوم صادر من سلطان غرناطة على الغالب بالله (أبي الحسن) إلى رسول الملكين الكاثوليكين
فرناندو وإيسابيلا يقرر فيه قبول التحكيم فيما وقع من أعمال العدوان المتبادلة بين غرناطة وقشتالة ،
مؤرخ في ١٢ شوال سنة ٨٨٢ هـ (١٩ يناير ١٤٧٨ م) ، ومختوم بخاتمه الملكي ، ومحفوظ بدار

المحفوظات العامة (Archivo general de Simancas, No. P. R. II.4)

ولما تفاقم النزاع بين أبي الحسن وأخيه أبي عبد الله ، ولم يحسم بينهما السيف ووضحت لهما العواقب الخطيرة التي يمكن أن تترتب على هذه الحرب الأهلية ، جنح الفريقان إلى الروية وآثرا الصلح والتهادن ، فعقدت الهدنة بين الأخوين ، على أن تحترم الحالة القائمة ، فيبقى أبو عبد الله الزغل على استقلاله بمالقة وأحوازها ، ويستقر أبو الحسن في عرش غرناطة وما إليها ، وعقدت في نفس الوقت هدنة مؤقتة بين المسلمين والنصارى .

وفي هذه الآونة التي أخذت فيها عوامل التفرق تمزق أوصال المملكة الإسلامية الصغيرة ، كانت اسبانيا النصرانية تخطو خطواتها الأخيرة نحو الاتحاد النهائي ، وذلك باقتران فرناندو ولد خوان الثاني ملك أراجون بإيسابيلا أخت هنري الرابع ملك قشتالة ، ثم إعلانهما ملكين لقشتالة في سنة ١٤٧٩ ، وتبوء فرناندو بعد ذلك عرش أراجون حسبما فصلنا . وهكذا اتحدت المملكتان الإسبانيتان القديمتان بعد أحقاب طويلة من الخلاف والحروب الأهلية ، وأصبحت اسبانيا النصرانية قوة عظيمة موحدة ، وكان تفرقها من قبل يتيح للأندلس فترات من السلام والأمن ، ولكن الأندلس وقد صارت إلى ما صارت إليه من الانحلال والضعف ، أضحت تواجه أعظم قوة واجهتها في تاريخها .

وحاول السلطان أبو الحسن أن يجدد الهدنة مع القشتاليين ، ليتفرغ لأعمال التحصين والإنشاء ، وكان يلوح في البداية أن العلائق بين الفريقين تسير نحو التفاهم والسلم . وهناك ما يدل في الواقع على أنه كان يقوم يومئذ بين مملكة غرناطة ، وبين قشتالة ، صلح ثابت حسبما يؤيد ذلك اتفاق عقده يومئذ على إجراء التحكيم فيما وقع من كل منهما على أراضي الآخر من ضروب العدوان التي تترتب عليها القتل والأسر والحرق ، سواء في البر أو البحر . وقد انتهت إلينا وثيقة تحتوى النصين العربي والقشتالي لهذا الاتفاق الذي عقد بين السلطان أبي الحسن وبين فرناندو وإيسابيلا ملكي قشتالة وأراجون ، وهي مؤرخة في شوال سنة ٨٨٢ هـ (يناير سنة ١٤٧٨ م)^(١) . وعلى هذا فقد أرسل السلطان أبو الحسن في أوائل سنة ٨٨٣ هـ (١٤٧٨ م) إلى ملك قشتالة يطلب تجديد الهدنة القائمة بينهما . وكان فرناندو وإيسابيلا يقيمان يومئذ في إشبيلية ، فوافقا على ما طلبه أبو الحسن ، ولكن

(١) Archivo general de Simancas ; P. R. 11-4 ، وفيها يوصف فرناندو وإيسابيلا بما

يأتي : « السلطان المعظم الكبير للشهير الأصيل دون هرندة ، والسلطانة الكبيرة الشهيرة دونيى قشيل » .

بشرط أن تعترف مملكة غرناطة بطاعتها ، وأن تؤدي إلى قشتالة نفس الخزية من المال والأسرى التي كان يؤديها السلاطين السالفون . وأرسلا بالفعل سفيراً إلى السلطان أبي الحسن ، يطالبه بعهد الطاعة وتأدية الخزية ، فرفض أبو الحسن طلب الملكين النصرانيين بإيلاء ، وأنذر السفير القشتالي بأنه ليس لديه سوى الحرب والكفاح . ولم يمض سوى قليل حتى أغار القشتاليون على حصن بلنقة (ثيلا لونجا) واستولوا عليه ، وعاثوا في أحواز رندة ، ورد أبو الحسن على ذلك بإعلان الحرب على قشتالة ، وزحف توأ على بلدة « الصخرة » Zahara وهي قاعدة حصينة تقع على حدود الأندلس الغربية في شمال غربي مدينة رندة ، وكان قد انتزعها القشتاليون منذ عهد قريب ، فباغتها أبو الحسن ، واستولى عليها عنوة ، وقتل حاميتها ، وسبي سكانها (ديسمبر سنة ١٤٨١ م) . وبالرغم مما أحرزه أبو الحسن من الظفر في تلك المعركة الأولى ، وبالرغم مما بثه هذا الظفر في طوائف الشعب من الغبطة والحماسة ، فقد اعتبر بعض العقلاء تصرفه اعتداء لا مبرر له ، وتوجسوا شراً من عواقبه ، وتقول الرواية القشتالية إن فقيهاً زاهداً شيخاً عرف بنبوءاته ، كان بين الوفود التي ذهبت غداة هذا الانتصار إلى قصر الحمراء ، وأنه صاح في وجه السلطان قائلاً : « ويل لنا . لقد دنت ساعتك يا غرناطة ، ولسوف تسقط أنقاض الصخرة فوق رووسنا ، وقد حلت نهاية دولة الإسلام بالأندلس » (١) ، على أن هذا الظفر الموقت كان له أعظم الأثر في إحياء قوى الشعب المعنوية ، ولاح لإسبانيا النصرانية يومئذ أن الأندلس المحتضرة تكاد تبدأ حياة جديدة من القوة . ولكن هذا البعث الحلب لم يطل أمده . ذلك لأن أبا الحسن لم يلبث أن ركن إلى الدعة ، وأطلق العنان لأهوائه وملأذه ، وبذر حوله بذور السخط والغضب ، بما ارتكبه في حق الأكابر والقادة من صنوف العسف والشدة ، وما أساء إلى شئون الدولة والرعية ، وما أثقل به كاهلهم من صنوف المغارم ، وما أغرق فيه من ضروب اللهو والعبث ، وكان وزيره أبو القاسم بنيغش يجاريه في أهوائه وعسفه ، ويتظاهر أمام الشعب بغير ذلك . وهكذا عادت عوامل الفساد والانحلال والتفرق الحالدة ، تعمل عملها الهادم ، وتحدث آثارها الخطرة (٢) .

* * *

(١) Condé:ibid;V.III.p.910&911 وكذلك LafuenteAlcantara:ibid;V.III.p.202-205

(٢) راجع كتاب « أخبار مصر في انقضاء دولة بني نصر » (ص ٣) ، وهو الرواية الإسلامية =

وكان السلطان أبو الحسن قد اقترن بابنة عمه السلطان الأيسر^(١). ولا تفصح الرواية الإسلامية لنا عن اسم تلك الأميرة ، التي تمثل في تاريخ المأساة الأندلسية مثولا قوياً ، والتي تحيط الرواية شخصيتها بكثير من الأخبار والسير المشجية . فلم يذكره صاحب أخبار العصر ، ولم يذكره المقرئ الذي نقل روايته ، ولم تذكره الروايات القشتالية المعاصرة . ولكن مؤرخاً قشتالياً ، كتب روايته بعد ذلك بنحو قرن ، يذكر لنا أن اسمها عائشة . بل وأكثر من ذلك فهو ينقل إلينا صورة رسمية للمعاهدة السرية ، التي أصدرها الملك الكاثوليكيان عند تسليم غرناطة ، لأبي عبد الله ولد السلطان أبي الحسن ، والتي نتحدث عنها بعد ، وفيها يذكر صراحة اسم « الملكة عائشة والدته » أي والدته أبي عبد الله^(٢). وقد جرت سائر التواريخ اللاحقة بعد ذلك ، على تسميتها بهذا الاسم ، ولكن بعض البحوث الحديثة تحاول على ضوء بعض الوثائق الغرناطية أن تقرر لنا أن تسمية هذه السلطانة باسم عائشة ،

= الوحيدة التي انتهت إلينا عن حوادث سقوط غرناطة وما تلاها من تنصير المسلمين . وسيكون منذ الآن مرجعنا في كثير من حوادث هذه الفترة . ويقع هذا الكتاب في ست وخمسين صفحة فقط ، وقد وضعه مؤلف مجهول لم يذكر اسمه ، ولكنه يذكر في نهايته أنه كتب في جمادى الآخرة سنة ٩٤٧ هـ أعني بعد سقوط غرناطة بخمسين عاماً ، فروايته معاصرة تقريباً . ويدل وصفه للحوادث على أنه شهداها في بل وفي روايته ما يدل على أنه اشترك في بعض الوقائع الحربية التي وقعت قبل سقوط غرناطة بين المسلمين والنصارى وأنه كان من أنجاد الفرسان (ص ١٧ طبعة ميلر) . ولا بد أيضاً أنه تلقى كثيراً من تفاصيل الحوادث ، من أفواه الشيوخ الذين شاهدها . ويبدو أيضاً أن المؤلف من أشرف غرناطة الذين بقوا فيها وأرغموا على التنصر ، ولكنهم بقوا مسلمين في سرائرهم ، وأنه خشي أن يبوح باسمه لأنه يندب محظ الإسلام ، يندد بغدر النصارى وفظائعهم . وقد نشر المستشرق الألماني م . ي . ميلر هذا الكتاب عن النسخة الخطية الوحيدة التي كانت محفوظة بالإسكوريال وضاعت فيما بعد (جوتنجن سنة ١٨٦٣) مقرونة بترجمة ألمانية تحت عنوان « أيام غرناطة الأخيرة » ، *Die letzten Zeiten von Granada* . ثم نشر معهد فرانكو بتطوان (بعناية الأستاذ ألفريد البستاني) طبعة جديدة من هذا الكتاب عن مخطوطة أخرى بها بعض زيادات عن نزوح الأندلسيين من الأندلس بعد التنصير بعنوان : « نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر » وقرنت هذه الطبعة بترجمة إسبانية بقلم المستشرق الأب كارلوس كيروس (المرايش سنة ١٩٤٠) .

(١) أخبار العصر : ميلر ص ٦ - وطبعة تطوان ص ٥ .

(٢) هو المؤرخ Luis del Marmol Carvajal في كتابه عن ثورة المورييسكيين المسمى : *Historia del Rebelión y Castigo de los Moriscos de Granada* . (Lib. I; Capit. XII & XIX)

هي تسمية خاطئة ، وأن اسمها الحقيقي هو فاطمة ، وأنها لم تكن ابنة السلطان الأيسر وإنما كانت ابنة للسلطان الأحنف (١) .

بيد أننا وقد درسنا نصوص هذه الوثائق الجديدة ، لا نراها قاطعة في تقرير اسم السلطانة المذكورة ، ولا نرى من جهة أخرى ، سبباً يحملنا على الشك في رواية صاحب أخبار العصر ، وهي أنها كانت ابنة للسلطان الأيسر . وصاحب هذه الرواية مسلم معاصر ، كانت لديه سائر وسائل التحقيق والتثبت . وكذلك فإن المؤرخ القشتالي الذي يسميها بعائشة ، قد عاش قريباً من ذلك العصر ، واتصل بشيوخ الموريسكيين أو الأندلسيين المنتصرين بغرناطة ، ومن المرجح المعقول أن يكون هؤلاء على علم بحقيقة إسم هذه السلطانة ، التي عاصرها آباؤهم وكانت والددة لآخر ملوكهم . وهذا كله إلى الوثيقة التي يورد لنا هذا المؤرخ نصها ، وفيها القول القطع بأن والددة أبي عبد الله كانت تسمى عائشة .

ومن ثم فإننا على ضوء ما تقدم ، نميل إلى الاعتقاد بأن اسم عائشة هو الاسم الحقيقي ، لزوجة السلطان أبي الحسن ووالدة أبي عبد الله .

وتحتل شخصية عائشة الحرة في حوادث سقوط غرناطة مكانة بارزة . وليس ثمة في تاريخ تلك الفترة الأخيرة من المأساة الأندلسية شخصية تثير من الإعجاب والاحترام ، ومن الأسى والشجن ، قدر ما يثير ذكر هذه الأميرة النبيلة الساحرة ، التي تذكرنا خلالها البديعة ، ومواقفها الباهرة ، وشجاعتها المثلى إبان الخطوب المدهمة ، بما نقرأه في أساطير البطولة القديمة من روائع السير والمواقف .

(١) نشر صديقي المستشرق الفرناطي الأستاذ **Seco de Lucena** في مجلة الأندلس بحثاً عنوانه «السلطانة والدة أبي عبد الله» (**La Sultana Madre de Boabdil (Al-Andalus Vol XII, Fasc. II - 1947)**) أورد فيه نص وثيقتين عربيتين ، الأولى عقد بيع ملكي مؤرخ في سنة ٨٥٢ هـ (١٤٤٨ م) . والثانية أيضاً عقد بيع مؤرخ في سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م) ، ومنهما تتضح الوقائع الآتية : أن السلطان محمد الأحنف كان له فضلاً عن ابنته الكبرى أم الفتح ، ابنتان أخريان من زوجة أخرى هما عائشة وفاطمة ، وأن إحداهن وهي فاطمة تزوجت من سلطان ، وأن قرية الصغيرة التي ورثتها أم الفتح ، انتقلت بعد ذلك إلى أختها السلطانة فاطمة ، وأن هذه الأخيرة عاصرت تسليم غرناطة ، وأنه في ٣٠ أكتوبر سنة ١٤٩٢ أعني بعد سقوط غرناطة باعت السيدة فاطمة المذكورة ، وتوصف في الوثيقة المشار إليها «بالسيدة الحرة» قرية الصخيرة المذكورة إلى فارس نصراني ، بمبلغ ألفي وخمسمائة ريال من الفضة ، وجرور العقد بالنيابة عنها وكيل شئونها المسمى القائد محمد بن مقاتل .

ويرى الأستاذ دي لوسينا أن هذا النص قاطع ، في أن السلطانة والدة أبي عبد الله ، كانت تسمى «فاطمة» وليس عائشة ، وأنها وفقاً لنسبها المدون بالنص كانت ابنة للسلطان الأحنف .

والواقع أن حياة السلطانة « الحرة » ، تبدو لنا خلال الحوادث والخطوب ، كأنها صفحة من القصص المشجى ، أكثر مما تبدو كصفحة من التاريخ الحق ، وهذا اللون القصصى لا يرجع فقط إلى كونها أميرة أو امرأة ، تشترك في تدبير الملك ، وتدبير الشئون والحوادث ، ولكن يرجع بالأخص إلى شخصيتها القوية ، وإلى سمو روحها ورفيع مثلها ، وإلى جنانها الجرىء يواجه كل خطر ، ويسمو فوق كل خطب ومصاب . والرواية القشتالية ذاتها — وهى تسميها عائشة حسبها قدمنا — لا تضمن عليها بالتنبؤ والتقدير ، وهى التى تسبغ على شخصيتها وحياتها كثيراً من هذا اللون القصصى المشجى .

كانت عائشة « الحرة » ملكة غرناطة فى ظل ملك محتضر ، ومجد يشع بضوئه الأخير ليخبو ويغيب . وقد رزقت من زوجها السلطان أبى الحسن بوالدين هما : أبو عبد الله محمد وأبو الحجاج يوسف . وكانت روح العزم والتفانى ، التى سرت فى بداية هذا العهد إلى غرناطة ، تذكى بقية من الأمل فى إنقاذ هذا الملك التالد . وكانت عائشة ترى من الطبيعى أن يوثر الملك إلى ولدها ، ولكن حدث بعد ذلك ما يهدد هذا الأمل المشروع . ذلك أن السلطان أبى الحسن ركن فى أواخر أيامه إلى حياة الدعة ، واسترسل فى أهوائه وملأذه ، واقرن للمرة الثانية بفتاة نصرانية رائعة الحسن ، تعرفها الرواية الإسلامية باسم « ثريا » الرومية ، وتقول الرواية الإسبانية إن ثريا هذه واسمها النصرانى إيسابيللا ، وتعرفها الرواية أيضاً باسم « زريدة » ، كانت ابنة عظيم من عظماء اسبانيا وهو القائد « سانشو خنيس دى سوايس » وأنها أخذت أسيرة فى بعض المعارك ، وهى صبية فتية ، وألحقت وصيفة بقصر الحمراء فاعتنقت الإسلام ، وتسمت باسم ثريا أو كوكب الصباح ، فهام بها السلطان أبو الحسن ، ولم يلبث أن تزوجها ، واصطفها على زوجها الأميرة عائشة ، التى عرفت عندئذ « بالحره » تميزاً لها من الجارية الرومية ، أو إشادة بطهرها ورفيع خلالها^(١) . ويقول لنا المؤرخ المعاصر هرناندو دى بايثا ، إن السلطان أبى الحسن

(١) راجع Irving : Conquest of Granada حيث يورد أقوال الرواية الإسبانية عن شخصية ثريا (الفصل التاسع) . ويقول كوندى إن ثريا كانت ابنة حاكم مرتش النصرانى (Condé; ibid, V III.p. 242) . ولكن الرواية العربية تكفى بالقول بأن ثريا كانت جارية رومية (المقرئ فى نفع الطيب ج ٢ ص ٦٠٨ ، وأخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر طبعة ميلارص ٦) ويتفق برسكوت مع الرواية العربية فيقول إن ثريا كانت جارية يونانية ، أى رومية . راجع History of Ferdinand and Isabella, p. 219

كان يقيم يومئذ مع زوجته الفتية الحسناء في جناح الحمراء الكبير أو قصر قمارش ، وذلك بينما كانت تقيم الحرة وأولادها في جناح بهو السباع^(١) .

ولم يكن اقتران الأمير بفتاة نصرانية بدعة ، ولكنه تقليد قديم في قصور الأندلس . وقد ولد بعض خلفاء الأندلس وأمرائها العظام من أمهات من النصارى ، مثل عبد الرحمن الناصر وحفيده هشام المؤيد ، وكذلك ولد بعض الأمراء من بني نصر ملوك غرناطة من أمهات من النصارى مثل السلطان محمد بن اسماعيل النصرى^(٢) . ولم يكن الزواج المختلط نادراً في المجتمع الأندلسي الرفيع ، ولا سيما منذ أيام الطوائف ، وكان كثير من الأكابر والأشراف يتزوجون بفتيات من النصارى سواء كن من السبايا أم من الأحرار . ولم يكن العكس نادراً أيضاً . فنجد توالى سقوط القواعد والثغور الأندلسية في أيدي النصارى ، كثرة الزواج بين المدجنين وبين النصارى ، وفقد المدجنون بمضي الزمن دينهم ولغتهم ، واندمجوا في المجتمع النصراني . ونرى بين زعماء شرق الأندلس بعض أمراء يرجعون إلى أصل نصراني ، مثل محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش ملك بلنسية ومرسية ، وقد كان يتكلم القشتالية ، ويلبس الثياب القشتالية ، ويتقلد السلاح القشتالي ، وكان معظم ضباطه وجنده من النصارى ، وكان الإسبان يعرفونه بالملك « دون لوبي »^(٣) .

ولم يكن ثمة ريب في خطورة الآثار الاجتماعية ، التي يحدثها مثل هذا الامتزاج الوثيق ، وقد كانت فيما بعد من أهم العوامل التي أدت إلى انحلال المجتمع الإسلامي ، وانحلال عصبية الدولة الإسلامية . كذلك لم يكن ثمة ريب في أن هذه الآثار الهدامة ، كانت أعمق وقعاً وأشد خطراً وقت الانحلال العام .

وكان السلطان أبو الحسن قد شاخ يومئذ وأثقلته السنون ، وغدا أداة سهلة في يد زوجته الفتية الحسناء . وكانت ثرياً فضلاً عن حسنها الرائع ، فتاة كثيرة الدهاء والأطماع ، وكان وجود هذه الأميرة الأجنبية في قصر غرناطة ، واستئثارها بالسلطان والنفوذ في هذه الظروف العصبية ، التي تجوزها المملكة الإسلامية ،

(١) كتب هرناندو دي باينا **Hernando de Baeza** هذه الرواية المعاصرة بعنوان **Las Cosas de Granada** « شئون غرناطة » ، ونشرها المستشرق ميلر مع كتاب أخبار العصر (ص ٦٥) .

(٢) الإحاطة ج ١ ص ٥٤٦ .

(٣) راجع الإحاطة ج ٢ ص ٨٢ ؛ وكتابي عصر المرابطين والموحدين القسم الأول ص ٣٦٦

وكذلك **Dozy : Recherches (1881) V. I. p. 365** و **A. P. Ibars : Valencia Arabe**

(Valencia 1901) p. 516,

عاملا جديداً في إذكاء عوامل الحصومة والتنافس الخطرة . وكانت ثريا في الواقع تتطلع إلى أبعد من السيطرة على الملك الشيخ . ذلك أنها أنجبت من الأمير أبي الحسن كخصيمتها عائشة ولدين ، هما سعد ونصر ، وكانت ترجو أن يكون الملك لأحدهما . وقد بذلت كل ما استطاعت من صنوف الدس والإغراء لإبعاد خصيمتها الأميرة عائشة عن كل نفوذ وحظوة ، وحرمان ولديها محمد ويوسف من كل حق في الملك ، وكان أكبرهما أبو عبد الله محمد ولي العهد المرشح للعرش ، وكان أشرف غرناطة يوثرون ترشيح سليل بيت الملك ، على عقب الحارثية النصرانية . ولكن ثريا لم تيأس ولم تفتر همها ، فما زالت بأبي الحسن حتى نزل عند تحريضها ورغبتها ، وأقصى عائشة وولديها عن كل عطف ورعاية ، ثم ضاعفت ثريا سعيها ودسها حتى أمر السلطان باعتقالها ، وزجت عائشة مع ولديها إلى برج قمارش ، أمتع أبراج الحمراء ، وشدد في الحجر عليهم ، وعوملوا بمنهى الشدة والقسوة .

فأثار هذا التصرف غضب كثير من الكبراء الذين يوثرون الأميرة الشرعية وولديها بعطفهم وتأيدهم ، وكان نذير الاضطراب والخلاف في المجتمع الغرناطي . وانقسم الزعماء والقادة إلى فريقين خصيمين ، فريق يؤيد الأميرة الشرعية وولديها ، وفريق يؤيد السلطان وحظيته . واستأثر الفريق الأخير بالنفوذ مدى حين ، واضطربت الأهواء والشهوات والأحقاد ، واشتد السخط على أبي الحسن وحظيته التي أضحت سيدة غرناطة الحقيقية ، واستأثرت بكل سلطة ونفوذ . وذهبت ثريا في طغيانها إلى أبعد حد ، فحرضت الملك الشيخ على إزهاق ولده أبي عبد الله عثرة آمالها .

وكانت الأميرة عائشة امرأة وافرة العزم والشجاعة ، فلم تستسلم إلى قدرها الجائر ، بل عمدت إلى الاتصال بعصبتها وأنصارها ، وفي مقدمتهم بنو سراج أقوى أسر غرناطة ، وأخذت تدبر معهم وسائل الفرار والمقاومة ، ولم يغفر السلطان أبو الحسن لبني سراج هذا الموقف قط . ويقال إنه عمد فيما بعد إلى تدبير إهلاكهم في إحدى أبهاء الحمراء . ولما وقفت الأميرة عائشة من أصدقائها على نية أبي الحسن قررت أن تبادر بالعمل ، وأن تغادر قصر الحمراء مع ولديها بأية وسيلة . وفي ليلة من ليالي جمادى الثانية سنة ٨٨٧ هـ (١٤٨٢ م) استطاعت الأميرة أن تفر مع ولديها محمد ويوسف بمعاونة بعض الأصدقاء المخلصين . والرواية

الإسلامية تشير إلى فرار الأميرين فقط دون أمهما^(١) . ولكن الرواية القشتالية تحدثنا عن فرارها مع ولديها . وتقدم إلينا عن هذا الفرار صوراً شائقة ، فتقول إن بعض الخدم المخلصين ، كان ينتظر مع الجياد على مقربة من الحمراء على ضفة النهر (نهر حدره) مما يلي برج قمارش ، وإن الأميرة استعانت بأغطية الفراش على الهبوط من نوافذ البرج الشاهق في جوف الليل^(٢) ، وأنها هبطت بعد أن أدلت ولديها ، ثم اختفى الجميع تحت جناح الظلام .

وهكذا استطاعت هذه الأميرة الباسلة أن تفر من معتقلها في إقدام وجسارة بخلقان بأبطال الرجال ، واختفى الفارون حيناً حتى قويت دعوتهم وانضم إليهم كثير من أهل غرناطة ، وكان اسم عائشة ورفيع خلافاً ، وقصة فرارها الجريء ، تثير أعما عطف وإعجاب . وظهر ولدها الأمير الفتي أبو عبد الله محمد في وادي آش حيث جمع عصبته وأنصاره ، وكان السلطان أبو الحسن وقت فرار الأميرة وولديها بعيداً عن غرناطة ، يدافع النصارى عن أسوار لوثة ، وكانت الحوادث تسير بسرعة مؤذنة باضطرام عاصفة جديدة .

- ٣ -

وكان ملك قشتالة يرقب الحوادث في مملكة غرناطة بمنتهى الاهتمام . فلما اضطرمت نار الحرب الأهلية بين المسلمين ، ولاحت الفرصة للغزو سانحة ، قرر بدء الحرب ضد غرناطة . وكان يضطرم سخطاً لاستيلاء المسلمين على قلعة الصخرة بالرغم من قيام الهدنة ، وعجزه عن استرداد هذه القاعدة الهامة ، فسير حملة قوية إلى الأندلس سارت منحرفة من جهة الغرب . ورأى القواد القشتاليون أن يبدأوا بمهاجمة ألحامة (الحمة) التي في قلب الأندلس جنوب غربى غرناطة ، وذلك لما بلغهم من ضعف وسائل الدفاع عنها ، ولأن الاستيلاء عليها يمكنهم من تهديد غرناطة ومالقة معاً . وكانت ألحامة مدينة غنية ، ولها شهرة قديمة بحماماتها الشهيرة التي كانت يجتمع ملوك غرناطة وأمرائها . ونجحت الحطة واستطاع النصارى مفاجأة ألحامة والاستيلاء على قلعتها تحت جناح الظلام ، ثم استولوا على المدينة بالرغم من مقاومة أهلها الباسلة ، وأمعنوا في المسلمين قتلاً وأسراً وسبياً (المحرم سنة ٨٨٧ -

(١) أخبار مصر ص ١٢ ؛ ونفع الطيب ج ٢ ص ٦٠٩ .

(٢) L. del Marmol: ibid; I. Cap. XII. وقد كتب روايته بعد هذه الحوادث بنحو

قرن حسبما قدمنا .

فبراير سنة ١٤٨٢) . وهرع السلطان أبو الحسن في قواته لإنقاذ الحامة واستردادها وحاصرها بشدة ، ولكنه لم يستطع اقتحامها ، ولم يلبث أن اضطر إلى مغادرتها حينما علم أن ملك قشتالة يتقدم لإنجادها في جيش قوى ضخمة^(١) . ولم تمض أشهر قلائل حتى زحف ملك قشتالة على مدينة لوشة^(٢) الواقعة على نهر شنيل في شمال غرب الحامة وعلى مقربة منها وحاصرها ، ودافعت عنها حاميتها أروع دفاع بقيادة قائدها الأمير الشيخ ، على العطار ، وكان رغم شيخوخته من أشجع وأبرع فرسان غرناطة في ذلك العصر^(٣) . وسار أبو الحسن في قواته مسرعاً لإنجاد لوشة وانتهى الأمر بأن رُد النصارى بنخسرة فادحة في الرجال والعدد (جمادى الأولى ٨٨٧ - يولييه ١٤٨٢) . وكان مما استولى عليه المسلمون من النصارى ، بعض « الأنقاط » التي تستعمل لحصار المدن ، والتي سنتحدث عنها فيما بعد^(٤) .

وما كاد أبو الحسن يعود إلى عاصمة ملكه حتى تجهم الجو من حوله . وكانت سياسته الداخلية قد أثارت حوله كثيراً من السخط ، بالرغم مما أحرز من نجاح ، وسرعان ما نشبت الثورة في غرناطة ، وغلبت دعوة الأمير الفتى أبي عبد الله ، ولم يستطع أبو الحسن وصحبه مواجهة العاصفة ؛ ففر الملك الشيخ إلى مالقة ، وكان بها أخوه الأمير أبو عبد الله محمد بن سعد ، المعروف « بالزغل » أى الشجاع الباسل ، يدفع عنها جيشاً جراراً سيره ملك قشتالة لافتتاحها . وجلس أبو عبد الله محمد^(٥) مكان أبيه على عرش غرناطة (أواخر سنة ٨٨٧ هـ) . وأطاعته غرناطة ووادي آش ، وأعمالها . وبقيت مالقة وغرب الأندلس على طاعة أبيه ، وكان أبو عبد الله يومئذ فتى في نحو الخامسة والعشرين^(٦) .

* * *

(١) أخبار العصر ص ٦ و ٩ ؛ وكذلك : Prescott : ibid ; p. 206-210

(٢) هي بالإسبانية Loja وهي بلد الوزير ابن الخطيب .

(٣) تنوه الرواية القشتالية ببطولة هذا القائد المسلم وتعرفه باسم "Aiiatar" . راجع رواية Hernando de Baeza ، السالفة الذكر ، المنشورة بعناية المستشرق ميلر ضمن كتاب أخبار العصر (ص ٧٨)

(٤) أخبار العصر ص ١١ .

(٥) يعرف السلطان أبو عبد الله في الرواية القشتالية والإفرنجية بوجه عام باسم Boabdil محرفاً عن « أبي عبد الله » . وتورد الوثائق القشتالية الرسمية المتعلقة بسقوط غرناطة اسمه على النحو الآتي : Muley Baabdill-Baudili- Beaudili ويورد مارمول اسمه مصححاً

Abi Abdill, Abi Abdala, Abdilehi :

(٦) يشير المؤرخ المصرى عبد الباسط بن خليل في روايته التي سبقت الإشارة إليها إلى هذا

وكان فرناندو الخامس عقب هزيمته أمام لوشه ، قد سير جنده إلى مالقة لافتتاحها . وكانت مالقة أعظم الثغور الباقية بيد المسلمين . وكان النصارى يتوقون للاستيلاء عليها لإتمام تطويق الأندلس من الجنوب ، ولكن المسلمين كانوا على أتم أهبة للدفاع عن هذا الثغر المنيع . واشتبك المسلمون والنصارى في عدة مواقع دموية في المضارب الواقعة فيما بين مالقة وبلتش (Velez) ، فهزم النصارى في كل مكان وردوا بخسائر فادحة ، وخرج الأمير محمد بن سعد « الزغل » في قواته من مالقة ولقي النصارى على مقربة منها ، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة هزم فيها النصارى هزيمة ساحقة ، وقتل وأسر منهم عدة آلاف بينهم كثير من الزعماء والأكابر (صفر ٨٨٨ — مارس ١٤٨٣)^(١) . وتعرف هذه الموقعة « بالشرقية » لوقوعها في المنطقة المسماة بذلك في شرق مالقة . وكان منظم هذا الدفاع الباهر كله الأمير أبو عبد الله « الزغل » . وكان لانتصار المسلمين أعظم وقع في جنبات الأندلس ، فانتعشت الآمال وسرت الحماسة في كل مكان ، وهبت على غرناطة ريح جديدة من الاستبشار والنصر

واعتزم ملك غرناطة الفتي أبو عبد الله محمد ، أن يحذو حذو عمه الباسل في الجهاد والغزو ، وأن ينتهز فرصة اضطراب النصارى عقب الهزيمة ، فخرج في قواته في شهر ربيع الأول سنة ٨٨٨ (إبريل سنة ١٤٨٣) متجهاً نحو قرطبة ، شمال غربي غرناطة ، واجتاح في طريقه عدداً من الحصون والضياع ، وهزم النصارى في عدة معارك محلية . ثم ارتد مثقلاً بالغنائم في طريق العودة ، فأدركه النصارى في ظاهر قلعة اللسانة (Lucena)^(٢) وكان يزعم حصارها . ونشبت بين الجيشين معركة هائلة ارند فيها المسلمون إلى ضفاف نهر شنيل ، وقتل وأسر كثير من قادتهم وفرسانهم ، وكان بين الأسرى السلطان أبو عبد الله محمد نفسه^(٣) ، عرفه الجند النصارى بين الأسرى أو عرفتهم بنفسه خشية الاعتداء عليه ، فأخذوه إلى قائدهم الكونت دي كابر (قبره) فاستقبله بحفاوة وأدب ، وأنزله بإحدى

= الانقلاب ؛ ويندد بسلوك سلاطين غرناطة في الوثوب بعضهم على بعض بقوله : « وهو غالب عادتهم

بتلك البلاد مع الآباء والأولاد بل والأجداد » : (Al - Andalus ; Vol. I. 1933 ; Fasc. 2)

(١) أخبار العصر ص ١٣ .

(٢) هي بلدة صغيرة حصينة تقع اليوم في نطاق ولاية قرطبة ، جنوب شرق مدينة قرطبة .

(٣) أخبار العصر ص ١٤ . ويشير عبد الباسط بن خليل المصرى في حوارياته إلى هذه الموقعة

ويصفها ، « بالكائنة العظمى ، والداهية الطما » .

الحصون الغربية تحت حراسة قوية . وأخطر في الحال ملكي قشتالة بالنبا السعيد ، فأمر فرناندو أن يوثق بالأسير الملكي إلى قرطبة ، وأن يستقبل استقبال الأمراء ؛ فأخذ أبو عبد الله وأصحابه إلى قرطبة في حرس قوى ، واحتشد أهل قرطبة لرؤية موكب الملك المسلم ، وكان أبو عبد الله يرتدى ثوباً من القטיפ السوداء ، ويمتطي حصاناً أسود عليه سرج ثمين ، وكان وجهه يشع كآبة ، وأخذ الملك الأسير أولاً إلى دار الأسقف المواجهة للمسجد الجامع ، ثم أخذ بعد ذلك إلى أحد القلاع الحصينة ، وعومل هناك بإكرام وحفاوة ، وأقام في أسره مكتئباً ينتظر يوم الخلاص .

وعاد المسلمون إلى غرناطة دون ملكهم ، وقد مزقهم الهزيمة وفتت في عزائمهم ، فارتاعت العاصمة لهذه النكبة واضطرب الشعب ، وساد الوجوم قصر الحمراء ، وسرى الحزن الأسى إلى حرم الأمير وقرابته ، ولم يحتفظ فيها بهدوئه وسكينته سوى أمه الأميرة عائشة . واجتمع الكبراء والقادة وقرروا استدعاء أبي الحسن السلطان المخلوع ليجلس على العرش مكان ولده الأسير . ولكن أبا الحسن كان قد هدمه الإعياء والمرض وفقد بصره ، ولم يستطع أن يضطلع بأعباء الحكم طويلاً ، فنزل عن العرش لأخيه محمد أبي عبد الله « الزغل » حاكم مالقة ، وارتد إلى المنكب فأقام بها حيناً حتى توفي (٥٨٩٠ - ١٤٨٥ م) .

وجلس « الزغل » على العرش يدبر شئون المملكة ، وينظم الدفاع عن أطرافها . أما السلطان أبو عبد الله محمد فلبث يرسف في أسره عند النصاري . وأدرك ملكا قشتالة في الحال ما للأمير الأسير من الأهمية ، وأخذوا يدبران أفضل الوسائل للاستعانة به في تحقيق مآربهما في مملكة غرناطة ، وبعد إمعان البحث والتدبير روى أن يفرج عن الملك الأسير لقاء أفضل الشروط التي يمكن الحصول عليها ، لأن هذا الإفراج من شأنه أن يزيد في اضطرام الحرب الأهلية بين المسلمين ، وأن يعاون بذلك في إضعاف قواهم والتمهيد لسحقهم . وبذل أبو الحسن حين عوده إلى العرش جهده لاقتداء ولده ، لا يباعث الحب له والشفقة عليه ، ولكن لكي يحصل في يده ويأمن شره ومنافسته ، وعرض على فرناندو نظير تسليمه أن يدفع فدية كبيرة ، وأن يطلق عدداً من أكابر النصاري المأسورين عنده ، فأبى فرناندو وآثر أن يحتفظ بالأسير إلى حين . وبذلت الأميرة عائشة من جهة أخرى مجهوداً آخر لإنقاذ ولدها بمؤازرة الحزب الذي يناصره ، وأرسلت إلى ملك قشتالة ، سفارة على رأسها الوزير ابن كماشة ، ليفاوض في الإفراج عن الأسير

مقابل الشروط التي يرضاها : وانتهت المفاوضات بين الفريقين بعقد معاهدة سرية تتلخص نصوصها فيما يلي :

أن يعترف أبو عبد الله بطاعة الملك فرناندو وزوجه الملكة إيسابيلا ، وأن يدفع لهما جزية سنوية قدرها إثنا عشر ألف دويلا من الذهب ، وأن يفرج في الحال عن أربعمائة ، من أسرى النصراني الموجودين في غرناطة ، يختارهم ملكهم ، ثم يطلق بعد ذلك في كل عام ، سبعين أسيراً لمدة خمسة أعوام ، وأن يقدم أبو عبد الله ولده الأكبر رهينة مع عدد آخر من أبناء الأمراء والأكابر ضماناً بحسن وفائه . وتعهد الملكان الكاثوليكيان من جانبهما ، بالإفراج عن أبي عبد الله فوراً ، وألا يكلف في حكمه بأى أمر يخالف الشريعة الإسلامية ، وأن يعاوناه في افتتاح المدن الثائرة عليه في مملكة غرناطة ، وهذه المدن متى تم فتحها ، تغدو واقعة تحت طاعة ملك قشتالة ، وأن تستمر هذه الهدنة لمدة عامين ، من تاريخ الإفراج عن السلطان الأسير (١) ، وتختلف الرواية في تاريخ الإفراج عن أبي عبد الله ، فتقول بعض الروايات المعاصرة ، إنه أفرج عنه لأشهر قلائل من أسره ، في أوائل سبتمبر سنة ١٤٨٣ ، ولكن هناك رواية أخرى ، تقول بأن أبا عبد الله استمر في الأسر أكثر من عامين ، وأنه لم يفرج عنه إلا في أواخر سنة ١٤٨٥ أو أوائل سنة ١٤٨٦ (٢) ، وهذه رواية يؤيدها صاحب أخبار العصر ، إذ يقول لنا إن العدو أطلق سراح أبي عبد الله في أواخر سنة ٨٩٠ هـ (١٤٨٥ م) ، عقب انتصار المسلمين على النصراني في موقعة موكلين (٣) ، هذا فضلاً عن أنه يذكر لنا أن أبا عبد الله ، قد أسر مرة أخرى في موقعة لوثة حسبما يجيء ، وأنه لم يفرج عنه إلا في أواخر سنة ٨٩١ هـ (١٤٨٦ م) (٤) .

وعلى أى حال فقد أفرج عن أبي عبد الله ، بعد أن أخذ عليه ملكا قشتالة سائر العهود والمواثيق ، التي تكفل تحقيق سياستهما في القضاء على مملكة غرناطة ، وبعد أن أتى بالرهائن المشترك تسليمهم . وسار أبو عبد الله وصحبه الذين قدموا

(١) أورد العلامة المستشرق M. Gaspar y Remiro في كتابه *Documentos Arabes de la Corte Nazari de Granada* خلاصة واقعة لنصوص هذه المعاهدة السرية بالاستناد إلى المؤرخين القشتاليين المعاصرين (ص ٢١ و ٢٢) .

(٢) Gaspar y Remiro ; *ibid* ; p. 27

(٤) أخبار العصر ص ٢١ و ٢٢ .

(٣) أخبار العصر ص ١٨ .

لمرافقته ، ومعه سرية من الجند القشتاليين ، إلى بعض الحصون الشرقية النائية ،
التي قامت بدعوته (١) .

ولم يك ثمة شك في أن عقد هذه المعاهدة كان خطوة كبيرة في سبيل القضاء
على مملكة غرناطة . وقد وضع فرناندو برناجه المحكم لكي يستغل أسر ملك غرناطة ،
ويستعين به على تنفيذ برناجه المدمر . وكان أبو عبد الله أميراً ضعيف العزم والإرادة
قليل الخزم والخبرة ، ولم يكن يتمتع بشيء من تلك الحلال الباهرة التي امتاز بها
أسلافه وأجداده العظام من بني الأحمر . وكان الملك والحكم غايته يبتغيها بأي الأثمان
والوسائل . وقد ألنى ملك قشتالة القوى في ذلك الأمير الضعيف الطموح ، أداة
صالحة يوجهها كيفما شاء ، فاتخذته وسيلة لبث دعوته بين أنصاره ومؤيديه في
غرناطة وغيرها ، وليقنع المسلمين بأن الصالح مع ملك قشتالة خير وأبقى . وسير
ملك قشتالة في نفس الوقت قواته في أنحاء مملكة غرناطة ، لكي تنتزع أثناء الاضطراب
العام ، كل ما يمكن انتزاعه من القواعد والحصون الإسلامية . وزحف القشتاليون
على منطقة الغربية (غربي ولاية مالقة) في أوائل سنة ٨٩٠ هـ ، واستولوا على
حصن قرطبة ، وحصن ذكويين وعدة حصون أخرى تقع شمال غربي مالقة ، في
منتصف الطريق بينها وبين رندة ، وبذلك عزلت مدينة رندة ، وأصبح الطريق
ممهداً للاستيلاء عليها . وعلى أثر ذلك زحف القشتاليون على رندة وهي معقل
الأندلس في قاصية الغرب وهاجموها ، وضربوها بالأنفاس حتى هدمت أسوارها ،
وكانت حاميتها بقيادة حامد الثغري زعيم قبيلة غمارة ، ولم يستطع أهل رندة أن
يثبتوا طويلاً لعدم استعدادها للدفاع ، ولبعدهم عن العاصمة ، وبأسهم من تلقى
الأمداد السريعة ، فطلبوا الأمان ، وغادروا المدينة بأمعتهم ، واستولى القشتاليون
على رندة في جمادى الأولى سنة ٨٩٠ هـ (إبريل سنة ١٤٨٥ م) . ثم استولوا بعد ذلك
على سائر الأماكن والحصون الواقعة في تلك المنطقة . وكان سقوط هذه المدينة
الأندلسية الثالثة ضربة شديدة للمسلمين ، وبسقوطها انهارت كل وسيلة للدفاع
عن منطقة الغربية ، وأصبح القشتاليون بذلك مهددون ثغر مالقة من الغرب (٢) .
وحاول القشتاليون بعد ذلك مهاجمة حصن مكلين الواقع شمال غربي غرناطة ،
وكان به الأمير أبو عبد الله الزغل في قوة من الغرناطين ليصلح أسواره ويتم تحصينه

(١) أخبار العصر ص ١٨ .

(٢) أخبار العصر ص ١٥ .



أبو عبد الله محمد سلطان غرناطة (وآخر ملوك الأندلس) عن الصورة المحفوظة بمتحف Casa de los Tiros. (دار الرماية) بغرناطة . والمظنون أنها الصورة التي رسمت له أثناء إقامته أسيراً في قرطبة يدل على ذلك السلسلة الرمزية التي طوق بها عنقه .

ونشبت بين الفريقين معركة شديدة ، وكان القشتاليون بقيادة الكونت دى قبرة الظافر في موقعة اللسانة ، وكادت الدائرة تدور في البداية على المسلمين ، ولكنهم بذلوا جهداً مستميت بقيادة أميرهم الباسل ، وانتهت المعركة بأن رد النصارى بنجسائر فادحة في الرجال والعُدَد (شعبان سنة ٨٩٠هـ - يولييه ١٤٨٥م) ، وعاد الأمير وجنده إلى غرناطة فرحين مستبشرين^(١) .

ولكن كان من سوء الطالع ، أنه لم يمض قليل على ذلك ، حتى نشبت في غرناطة حرب أهلية جديدة . وكان الملك الكاثوليكيان قد أطلقا سراح أبي عبد الله في تلك الآونة بالذات ، بعد أن وقع معاهدة الخضوع والطاعة محسباً تقدم . والواقع أن الحرب الأهلية ، كانت تضطرم في الأندلس خلال أسر أبي عبد الله ، وكان الزغل ، بعد أن تربع على عرش غرناطة ، يحاول استخلاص الأندلس كلها لنفسه . وكان الأمير يوسف أبو الحجاج شقيق أبي عبد الله ، قد استقر في ألمرية يحاول منازعة عمه الزغل . فسار الزغل إلى ألمرية ، وثار بها أنصاره ، وغلبوا على خصومهم ، وفتحوا له أبواب المدينة ، وقتل يوسف أثناء ذلك . ويقال إن قتله كان بوحي من أبيه أبي الحسن أوعمه الزغل . وما كاد الزغل يعود إلى غرناطة ، حتى اضطربت الفتنة من جديد . وكان أبو عبد الله حينما أطلق سراحه ، قد سار إلى بعض الحصون الشرقية ، فقامت بدعوته ، ثم سار إلى منطقة بلكش^(٢) في شرقي بسطة ، وأعلن نفسه ملكاً ، وأخذ يثد دعوته ، ويشيد بمزايا الصلح المعقود مع ملكي قشتالة ، وأنه يضمن للمسلمين الاستقرار والسلم ، وأنه يطبق في سائر الأنحاء التي تدخل في طاعته .

وكان من الواضح أن اضطراب الفتنة في غرناطة ، في هذا الوقت بالذات ، لم يكن بعيداً عن وحي أبي عبد الله وحزبه ، وقام أهل ريبض البيتازين ، وهو حي غرناطة الشعبي ، الواقع في شمالها الشرقي تجاه مدينة الحمراء ، بدعوة أبي عبد الله . وكان أهل البيتازين دائماً ، عنصراً من عناصر الإضطراب والشغب ، وكان لهم دائماً ضلع بارز في كل ثورة وفتنة^(٣) ، وشغل ملك غرناطة أبو عبد الله الزغل ، بإخماد

(١) أخبار العصر ص ١٧ .

(٢) المقصود هنا بمنطقة بلش بلدتا بلج أو بالاسبانية « بلش الحساء » Vélez Rubio و « بلش الأبيض » Vélez Blanco ، وكلتاهما تقع على مقربة من الأخرى في شمال شرقي مدينة بسطة .

(٣) أخبار العصر ص ١٨ ؛ ونفع الطيب ج ٢ ص ٦١١ ؛ وكذلك Gaspar y Remiro ؛ ibid ; p. 23, 24 8 30 . ويسمى ريبض البيتازين بالإسبانية Albalcín ، وهو ما يزال قائماً في موقعه القديم ، ومحتفظاً بكثير من معالمه القديمة .

هذه الفتنة الجديدة ، عن مقاتلة النصارى . وبذلك تحقق الغرض الذى يرمى إليه ملكا قشتالة . وكان ذلك فى أوائل سنة ٨٩١ هـ (أوائل ١٤٨٦ م) . واشتدت الفتنة ، ونصب الزغل على البيازين المجانيق والأنفاظ ، ودافع أهل البيازين عن أنفسهم دفاعاً شديداً ، وكان أبو عبد الله خلال ذلك يبعث رسله إليهم ، ويعدهم بمقدمه . وطالت هذه الفتنة أكثر من شهرين ، ثم بدأت المفاوضات بين أبي عبد الله وبين عمه الزغل (ملك غرناطة) فى عقد الصلح ، وارتضى أبو عبد الله أن ينزل عن دعواه فى العرش ، وأن يدخل فى طاعة عمه (١) . وفى رواية أخرى أنهما اتفقا على تقسيم المملكة إلى قسمين ، فيختص الزغل بحكم غرناطة ومالقة والمرية وبلش مالقة والمنكب ، ويختص أبو عبد الله بحكم الأنحاء الشرقية (٢) .

وعلى أى حال فقد انتهز ملك قشتالة ، فرصة هذه الفتنة ، للزحف على مدينة لوشة . وهنا تتفق الروايات الإسلامية والقشتالية ، على أن أبا عبد الله ، حينما علم بتهديد النصارى للوشة ، سار إليها وتحصن بها ، مع نخبة من أنجادالفرسان . وهاجم النصارى مدينة لوشة للمرة الثانية ، وشددوا الحصار عليها ، وسلطوا على أسوارها الأنفاظ والعدد ، وأبدى المسلمون بسالة فائقة ، فى الدفاع عن مدينتهم . وتقول الرواية القشتالية إن أبا عبد الله بذل فى هذا الدفاع مجهوداً عظيماً ، وإنه جرح أثناء ذلك (٣) . ولكننا لم نعر على ما يؤيد ذلك فى الرواية الإسلامية . ويكتفى صاحب « أخبار العصر » بالقول بأن أبا عبد الله كان فى لوشة وقت حصارها (٤) . ويزيد المقرئ على ذلك بأن أهل غرناطة أذاعوا بأن أبا عبد الله ما جاء إلى لوشة إلا ليسلمها لملك قشتالة ، ويجعلها فداء له (٥) .

وعلى أى حال فإن بسالة المسلمين ، فى الدفاع عن لوشة ، لم تغن شيئاً أمام القوة القاهرة ، وفلك الأنفاظ والعدد الثقيلة ، فاضطروا إلى التسليم ، وذلك بالشروط الآتية :

(١) أخبار العصر ص ١٩ .

(٢) Gaspar y Remiro: ibid, p. 24

(٣) Gaspar y Remiro : ibid, p. 32 ; Irving : Conquest of Granada Ch.

XXXIV ; Lafuente Alcantra : ibid, V. II. p. 280

(٤) أخبار العصر ص ١٩ .

(٥) نفع الطيب ج ٢ ص ٦١١ .

أن يؤمن أهل لوشة الذين يرغبون مغادرتها في أنفسهم ، وفيما يستطيعون حمله من أموالهم ، وأن يسمح لمن شاء منهم ، أن يعيش في قشتالة أو أراجون أو بلنسية بذلك (١) ، وأن تسلم المدينة إلى ملك قشتالة مع سائر الأسرى النصارى . ودخل القشتاليون لوشة ، في ٢٦ جمادى الأولى سنة ٨٩١ هـ (مايو سنة ١٤٨٦) ، وسار معظم أهلها إلى غرناطة ، بأمعتهم وخيلهم وسلاحهم .

وأما فيما يتعلق بأبي عبد الله ، فتقول لنا الرواية القشتالية ، إن موقفه في الدفاع عن لوشة ، اعتبر منافياً لتعهداته للملكين الكاثوليكين ، ونكراناً لحسن الصنيعة ، ومع ذلك فقد ارتضيا الصفح عنه ، وأن يسمح له بالاحتفاظ بلقب ملك غرناطة ، وأن يمنح لقب « صاحب وادى آش » إذا استطاع أن يستولى عليها ؛ وإذا أراد أن يلتجئ إلى قشتالة ، فإنه يسمح له أن يعيش هنالك آمناً على نفسه ، وإن شاء العبور إلى المغرب ، أمدده ملك قشتالة بوسائل الانتقال (٢) . على أننا نرى على ضوء الرواية الإسلامية ، أن موقف أبي عبد الله من حوادث لوشة ، كان موقفاً مريباً . والواقع أنه كان يبذل جل جهده للدعوة إلى قضيته ، وإلى مقاومة عمه ونزعه عن العرش . وكان يمزج الدعوة لنفسه بالدعوة لملك قشتالة ، ويشيد بمزايا الصلح المعقود معه . ولم يكن خافياً أنه يستغل بمظاهرة النصارى وتأيندهم ، وأنه غدا آلة في يد ملك قشتالة يعمل بوجيه وتوجيهه .

ولما غادر ملك قشتالة مدينة لوشة أخذ معه أبي عبد الله إما أسيراً ، حسبما يقول صاحب أخبار العصر ، أو أنه سار معه ليستمد عونه في تنفيذ خطته للاستيلاء على عرش غرناطة ، وهى خطة يؤيدها ملك قشتالة ويشجعها ، لأنها تخدم أغراضه ومطامعه في القضاء على تلك المملكة الصغيرة التى مزقتها الحرب الأهلية .

ولم يغفل فرناندو تلك الفرصة الذهبية لانتزاع ما يمكن انتزاعه من أراضى مملكة غرناطة . فبينما الحرب الأهلية تضطرم في العاصمة وحولها ، إذ سار النصارى إلى حصن إليورة الواقع شمال غربى غرناطة وحاصروه وضربوه « بالأنفاط » حتى اضطروا أهلها إلى التسليم والخروج عنه ؛ ثم ساروا إلى حصن مكليين الواقع شمال شرق إليورة وهاجموه ونشبت بينهم وبين المدافعين عنه معركة عنيفة انتهت

(١) ان اختيار أراجون وبلنسية بالذات لإيواء المسلمين المهاجرين من القواعد المفتوحة ، يرجع إلى أنه كان يوجد عندئذ في أراجون وفي بلنسية بالأخص مجتمع كبير من المدجنين ، أو المسلمين القدماء الذين بقوا تحت حكم الاسبان .

يتحطم أسواره بفعل « الأنفاط » واستيلائهم عليه ، وخروج أهله عنه إلى غرناطة (١) ثم استولى النصارى بعد ذلك على حصن قلنبيرة الواقع شرقي مكليين بالأمان (٢) ، إذ رأى أهله ما نزل بغيرهم ففضلوا التسليم دون قتال ، واستولوا بعده على سلسلة أجرى من القلاع والحصون التي تحمي مشارف غرناطة ، وأصلحوها وشحنوها بالرجال والمؤن ، لتؤدي دورها فيما بعد من التضييق على العاصمة وتهديداتها (٣) . وهنا نقف قليلا لتساءل عن حقيقة هذه « الأنفاط » التي توالى ذكرها في سير هذه المعارك ، التي اضطربت بالأخص في لوشة وفي رندة وفي الحصون المحاورة ، والتي كانت فيما يبدو عمدة النصارى في التفوق على المسلمين ، في تحطيم هذه الحصون القوية . ولقد أشارت الرواية الإسلامية عن سقوط غرناطة ، وهي رواية صاحب « أخبار العصر » وهي التي كتبها بعد وقوع هذه الأحداث بنحو نصف قرن فقط وكان شاهداً لها ومشاركاً فيها ، إلى تلك « الأنفاط » في عدة مواضع ثم وصفها لنا فيما يأتي :

« وكان له (أى لملك قشتالة) أنفاط يرمى بها صخور من نار ، فتصعد في الهواء ، وتنزل على الموضع ، وهي تشتعل ناراً ، فهلك كل من نزلت عليه وتحرقه ، فكان تلك من حملة ما كان يخذل في أهل الموضع التي كان ينزل بها » (٤) . ونحن نعرف أن مسلمي المشرق كانوا منذ أيام الحروب الصليبية ، يخذلون استعمال الرمي بالنار والأنفاط ، وأن هذه الناركات ترمى من آلات قاذفة تعرف بالحراقات ، على حصون العدو ومعسكراته وسفنه في البحر فتفتك بها . وقد لعبت هذه النار دوراً هاماً في الحروب الصليبية ، وألفت فيها مصر سلاحاً منيعاً لرد عدوان الصليبيين وتمزيق حملاتهم . والظاهر أن هذا السلاح الذي استأثر به المسلمون مدى حين في المشرق ، قد عرفه مسلمو إفريقية والأندلس منذ منتصف القرن السابع الهجري ، واستعملوه في محاربة أعدائهم نصارى اسبانيا . ففي حصار لبلة (٦٥٥هـ - ١٢٥٧م) استعمل الموحدون من فوق الأسوار لدفع جيوش ألفونسو العاشر ملك

(١) ما تزال أنقاض هذا الحصن قائمة في مكانها . وقد زرناه وشاهدنا أثر الأنفاط في هدم بعض أبراجه وأسواره .

(٢) حصن إليوره أو بلدة إليوره هي بالإسبانية Illora ؛ ومكليين أو مكليين هي بالإسبانية Moclin ؛ وقلنبيرة هي Colomera ، وهي اليوم من بلاد منطقة غرناطة الشمالية الغربية .

(٣) أخبار العصر ص ٢٢ .

(٤) أخبار العصر ص ٢٢ .

قشتالة ، آلات تقذف حجارة ومواد ملتهبة يصحبها دوى كالرعد^(١) . وقد كان استعمال هذه النار أو الأنفاط الفتاكة يتطور بلا ريب مع العصور . ومنذ منتصف القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) نرى مسلمى الأندلس يستعملون لمقاتلة النصارى آلات تقذف اللهب والحجارة ، ويصحبها دوى مخيف^(٢) . وظهرت براعة الأندلسيين فى استعمال هذه الآلات فى عدة مواقع . فى حصار بياسة فى سنة ٧٢٤ هـ (١٣٢٤ م) فى عهد السلطان أبى الوليد اسماعيل ، أطلق المسلمون على المدينة الحديد والنار من آلات قاذفة تشبه المدافع ، واستعملت مثل هذه الآلات فى موقعة وادى لكه (ريو سليتو) سنة ١٣٤٠ م (٨٧٤٠ هـ) ، وفى الدفاع عن الجزيرة سنة ١٣٤٢ م (٧٤٢ هـ) وذلك فى عصر السلطان أبى الحجاج يوسف . والظاهر من وصف هذه الآلات أنها كانت نوعاً من المدافع الساذجة التى تحشى بالحديد والحجارة وبعض المواد الملهبة ، التى كانت فيما مضى عماد الحراقات أو الأنفاط الشرقية . وليس بعيداً أن يكون مسلمو الأندلس قد وقفوا فى هذا العصر أيضاً إلى العثور على سر البارود ، قبل أن يقف على سره القس الألمانى يرتولد شقارتز فى منتصف القرن الرابع عشر^(٣) . ومن المرجح أن للنصارى الإسبان قد نقلوا سر الأنفاط عن مسلمى الأندلس ، وحذقوا فى استعمالها مع الزمن . ولما غلب الضعف على مملكة غرناطة تضاءلت أهباتها الدفاعية ، ونقصت مواردها من السلاح والذخيرة ، خصوصاً بعد أن فقدت معظم قواعدها الصناعية . بيد أنه من المحقق أن المسلمين كانوا يستعملون الأنفاط أيضاً فى محاربة أعدائهم وإن يك ذلك بنسبة صغيرة تتفق مع ضالة مواردهم . أما القشتاليون فقد كانت لديهم « الأنفاط » بكثرة ، وكانت السلاح المفضل فى مهاجمة القواعد والحصون الإسلامية . وهنالك أيضاً ما يدل على أن هذه الأنفاط التى كان يستعملها القشتاليون لم تكن سوى المدفع فى صورته البدائية ، فالرواية الغريبة تحدثنا عن اهتمام ملك قشتالة بصنع « المدافع » لمحاربة المسلمين ، وتقول لنا إن هذه المدافع كانت

(١) راجع كتابى عصر المرابطين والموحدين القسم الثانى ص ٤٩٧ .

(٢) راجع كتابى « مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام » الطبعة الرابعة ص ١٢٨ و ١٢٩ .

(٣) ولدينا رواية موريسكية هى رواية ابن غانم الموريسكى الأندلسى مؤلف كتاب « العز والمنافع للمجاهدين بالمدافع » الذى سوف يأتى ذكره فى موضعه : وهو يقول لنا إن اختراع البارود وقع فى سنة ٧٦٨ هـ (١٣٦٦ م) ، ومن الواضح أن هذا التاريخ المتأخر لا يتفق مع ما قدمناه من شواهد وحوادث تاريخية تدل على أن البارود قد اخترع قبل ذلك بنحو نصف قرن .

تصنع في مدينة وشقه ، وإن كميات عظيمة من القنابل الخاصة بها كانت تصنع في « جبال قسنطينة »^(١). وتحدثنا الرواية الإسلامية المعاصرة عن « البارود » وتقول لنا إن النصاري حينما نشبت الثورة في ربض البيازين ، أمدوا فريقاً من الثوار « بالرجال والأنفاط والبارود »^(٢) إذ كاء منهم للفتنة بين المسلمين . وهكذا نرى أن الأنفاط التي تنوه الرواية الإسلامية بفتكها بحصون المسلمين وصفوفهم في معارك غرناطة ، إنما هي المدافع بذاتها ، وأن تفوق القشتاليين في استعمال هذا السلاح ، كان له أعظم الأثر في التعجيل بإخضاع مملكة غرناطة والقضاء عليها .

* * *

ولنعد إلى قصة الحرب الأهلية في غرناطة . فقد ثار أهل البيازين كما قدمنا بتحريض من دعاة أبي عبد الله وأمه الأميرة عائشة ، والتف معظم الشعب الغرناطي حول أميره أبي عبد الله الزغل ، واستمرت المعارك سجالاً بين الفريقين مدى أشهر . وفي أثناء ذلك استولى النصاري على لوثة وعلى كثير من الحصون الشمالية الغربية . وسار أبو عبد الله بعد سقوط لوثة مع ملك قشتالة ، ولم يمض سوى قليل حتى عاد إلى الأنحاء الشرقية ، إلى منطقة بلش ، وأخذ يدبر خطته . وفي أوائل شوال سنة ٨٩١ هـ (سبتمبر ١٤٨٦) غادر أبو عبد الله محمد الأنحاء الشرقية ، وظهر فجأة في ربض البيازين ، واجتمع حوله أنصاره من الثوار ، وأذاع أنه عقد الصلح مع النصاري ، وأمدّه فرناندو حليفه بالرجال والعدد والذخائر والمؤن ومنها الأنفاط^(٣) ، فزادت الفتنة اضطراباً . وشدد أبو عبد الله الزغل الضغط على أهل البيازين ، وبينما هو على وشك تمزيقهم وإبادتهم ، إذ بلغه أن ملك قشتالة قد سير قواته إلى مدينة بلش مالقة Vélez Málaga ، وذلك في ربيع الثاني سنة ٨٩٢ هـ (مارس ١٤٨٧)^(٤) . وكان طبيعياً أن ينتهز فرناندو الخامس فرصة اشتغال المسلمين بفتنهم القاضية . وكانت بلش حصن مالقة ، وسقوطها يعرض مالقة لأشد الأخطار . وأدرك مولاي الزغل في الحال أهمية بلش فهرع إليها في بعض قواته ، وترك البعض الآخر لقتال أبي عبد الله وأهل البيازين . ولكن إقدام الزغل وعزمه وشجاعته ، واستبسال أهل

(١) Sierra Constantina راجع : Prescott ; ibid ; p. 223

(٢) راجع أخبار مصر ص ٢٤ .

(٣) Gaspar y Remiro : ibid ; p. 42

(٤) أخبار مصر ص ٢٢ - ٢٤ ؛ ونفع الطيب ج ٢ ص ٦١٢ .

بلش في الدفاع عن مدينتهم لم تغن شيئاً ، وسقطت بلش مألقة في يد النصارى في جمادى الأولى سنة ٨٩٢ (أبريل سنة ١٤٨٧) وعاد الزغل يجنده ميمماً صوب غرناطة . ولكنه علم أثناء مسيره أن غرناطة قامت أثناء غيابه بدعوة أبي عبد الله ، وأنه دخلها وتبوأ العرش مكانه (٥ جمادى الأولى — ٢٨ أبريل) . وكان أهل غرناطة يحبون الزغل ، ويقدرون بطولته ووطنيته ، واستبسالة في مقاومة النصارى ، ولكنهم تحولوا عنه إلى تأييد أبي عبد الله لمخالفته للنصارى ، وأملهم بذلك في اتقاء عدوانهم على أرباضهم وقراهم ، وصون أنفسهم ومصالحهم . وهكذا أيقن الزغل عبث المحاولة ، وارتد بصحبه إلى وادى آش ، وامتنع فيها بقواته ، وبذلك انقسمت مملكة غرناطة الصغيرة إلى شطرين يتربص كل منهما بالآخر : غرناطة وأعمالها ويحكمها أبو عبد الله محمد ابن السلطان أبي الحسن ، ووادى آش وأعمالها ويحكمها عمه الأمير محمد بن سعد (أبو عبد الله الزغل) . وتحقق بذلك ما كان يبتغيه ملك قشتالة ، من تمزيق البقية من دولة الإسلام بالأندلس ، تمهيداً للقضاء عليها .

الفصل الثاني

بداية النهاية

أبو عبد الله محمد يرقى العرش للمرة الثانية . تمزق المملكة الإسلامية . خطط ملك قشتالة للقضاء عليها . زحف النصارى على مالقة وحصارها . سعى الزغل إلى إنقاذها . استنائه بملوك الإسلام . بسالة المسلمين في الدفاع عنها . شدة الحصار وأحواله . تسليمها للنصارى . نكث فرناندو بوعوده . استغاثة الأندلس بمصر . تتبع مصر لحوادث الأندلس . صدى محنة الأندلس في الشرق . رواية عن خطة مصر وتركيا لإنقاذ الأندلس . سفارة الأندلس إلى مصر . رواية ابن إياس عنها . مصر تلجأ إلى الوسائل الدبلوماسية . سفارة مصر إلى البابا وملك نابل وملكى اسبانيا . رد فرناندو وسفارته إلى ملك مصر . أثر سقوط مالقة . استيلاء النصارى على الأنحاء الشرقية . عهد فرناندو لأهل أشكر . حصار المنكب . تسليمها وعهد النصارى لأهلها . زحف فرناندو على مدينة بسطة . بسالة المسلمين في الدفاع عنها . حصارها وتسليمها . عهد النصارى ليحيى النيار زعيم بسطة وألمرية . الشروط التي منحت له . تسليم ألمرية وشروط التسليم . يأس مولاي الزغل وخضوعه لفرناندو . دخول النصارى وادي آش . نزول الزغل عن حقوقه . الشروط التي منحت له . جوازه إلى المغرب . رواية عن سلوك الزغل .

تبوأ أبو عبد الله محمد بن السلطان على أبي الحسن عرش غرناطة للمرة الثانية ، عقب عودة من الأسر بنحو عام ، ولكنه لم يكن يحكم تلك المرة سوى مملكة صغيرة ، وكان المفروض فوق ذلك أنه يحكمها باسم ملك قشتالة وتحت حمايته ، وكانت الخطوب والفتن التي توالى على مملكة غرناطة قد مزقتها ، ولم يبق منها بيد المسلمين سوى بضع مدن وقواعد متناثرة ، مختلفة الرأي والكلمة ، ينضوى بعضها تحت لوائه وتشمل الأنحاء الشمالية الغربية ، وينضوى البعض الآخر تحت لواء عمه محمد ابن سعد (الزغل) ، وتشمل الأنحاء الشرقية والجنوبية . وكان واضحاً أن مصر المملكة الإسلامية أصبح يهتز في يد القدر ، بعد أن نفذت جيوش النصرانية إلى قلبها ، واستولت على كثير من قواعدها وحصونها الداخلية ، مثل الحامة ورندة ولوشة وبلش مالقة وغيرها . وكان ملك قشتالة يحرص على المضى في تحقيق خطته لسحق البقية الباقية من دولة الإسلام في الأندلس قبل أن يعود إليها اتحاد الكلمة ، فيبعث إليها روحاً جديدة من العزم والمقاومة . وكان من الطبيعي أن يؤثر البدء بغزو القواعد الشرقية والجنوبية التي يسيطر عليها مولاي الزغل ، لأن الزغل

لم يكن يدين بطاعته ، وكان يبدي في مقاومته عزمًا لا يلين ولا ينحني ، ولأنه من جهة أخرى كان يرتبط بأمير غرناطة بصلح يمتد إلى عامين ، وقد أراد أن يسبغ على عهوده مسحة غادرة من الوفاء ، وأخيراً لأنه كان يريد أن يعزل غرناطة وأن يطوقها من كل صوب ، قبل أن يسدد إليها الضربة الأخيرة .

وقد رأينا كيف سقطت قاعدة بلش حصن مالقة من الشرق في يد النصاري ، بعد دفاع عنيف ، في جمادى الأولى سنة ٨٩٢ هـ (مايو ١٤٨٧ م) . وعلى أثر سقوطها غادرها معظم أهلها ، وتفرقوا في أنحاء الأندلس الأخرى الباقية بيد المسلمين ، وجزا كثير منهم إلى عدوة المغرب ، واستولى النصاري على جميع الحصون والقرى المجاورة ومنها حصن قمارش وحصن مونتيمور ، واستطاعوا بذلك أن يشرفوا على مالقة من كل صوب . وكانت مالقة ما تزال أمان ثغور الأندلس ، وقد أضحت بعد سقوط جبل طارق عقد صلحتها الأخيرة بعدوة المغرب ، وكان فرناندو يحرص على أن يقطع كل وسيلة ناجعة لقدم الأمداد من إفريقية وقت الصراع الأخير . وكان الاستيلاء على مالقة يحقق هذه الغاية . ومن ثم فإنه ماكاد النصاري يظفرون بالاستيلاء على بلش والحصون المجاورة ، حتى زحفوا على مالقة وطوقوها من البر والبحر بقوات كثيفة ، وذلك في جمادى الثانية سنة ٨٩٢ هـ (يونيه ١٤٨٧ م) وأمنع المسلمون داخل مدينتهم ، وكانت تموج بالمدافعين وعلى رأسهم نخبة مختارة من أكابر الفرسان ، ومعهم بعض الأنفاط والعدد الثقيلة . وكانت مالقة تدين بالطاعة للأمير محمد بن سعد (الزغل) صاحب وادي آش ، ولكنه لم يستطيع أن يسير إلى إنجاءها بقواته خوفاً من غدر ابن أخيه أمير غرناطة ، فترك مالقة إلى مصيرها وهو يذوب تحسراً وأسى . ولكنه فكر في وسيلة أخيرة لحملها تجدي في إنقاذ الأندلس من خطر الفناء الداهم ، هي أن يستغيث بملوك الإسلام لآخر مرة ، فأرسل رسلاً إلى أمراء إفريقية وإلى سلطان مصر الأشرف قايتباي . ولم يكن من المنتظر إزاء بعد المسافة أن تصبر مالقة على ضغط النصاري حتى يأتيها المدد المنشود ، وكان يتولى الدفاع عن الثغر المحصور جند غمارة وزعيمهم حامد الثغري . وأبدي المسلمون في الدفاع عن ثغرهم أروع ضروب البسالة والجلد ، وحاولوا غير مرة تحطيم الحصار المضروب عليهم ، وفتكوا بالنصاري في بضع مواقع محلية ، ومع ذلك فقد ثابر النصاري على ضغطهم وتشديد نطاقهم ، حتى قطعت كل علاقة للمدينة المحصورة مع الخارج ، ومنعت عنها سائر الأمداد والأقوات ، وعانى المسلمون

داخل مدينتهم أهوال الحصار المروع ، واستنفدوا كل ما وصلت إليه أيديهم من الأقوات ، وأكلوا الجلود وأوراق الشجر ، وفتك بهم الجوع والإعياء والمرض ، ومات كثيرون من أنجاد فرسانهم ، ولم يجدوا في النهاية لهم ملاذاً سوى التسليم على أن يؤمنوا في أنفسهم وأموالهم . وهكذا سقطت مالقة بعد دفاع مجيد استطال ثلاثة أشهر في أيدي النصارى ، وذلك في أواخر شعبان سنة ٨٩٢ هـ (أغسطس ١٤٨٧ م) . ولم يحافظ فرناندو على ما بذله لأهلها من عهود لتأمين النفس والمال ، وأصدر قراراً ملكياً باعتبار أهلها المسلمين رقيقاً يجب عليهم افتداء أنفسهم ومتاعهم ، ويهرص على كل مسلم أو مسلمة مهما كان السن والظروف ، الأحرار منهم والعبيد الذين في خدمتهم ، فدية للنفس والمتاع ، قدرها ثلاثون دوبلا من الذهب الوازن اثنين وعشرين قيراطاً ، أو ما يوازي هذا القدر من الذهب والفضة والآلات والحلى والحرير ؛ وأنه يسمح لمن أدوا هذه الفدية ، إذا شاءوا ، بالعبور إلى المغرب وتقدم السفن لنقلهم ، وأنه لا يسمح للمسلمين ذكوراً أو أنثاءً بالعيش أو الإقامة في مملكة غرناطة ، ولكن يسمح لهم أن يعيشوا أحراراً آمنين في أية ناحية من نواحي قشتالة ، وأنه لا يتمتع بهذه المنح بنو الثغرى وزوجاتهم وأولادهم ، وبعض أفراد أشار إليهم القرار^(١) . ودخل النصارى المدينة دخول الفاتحين ، وعاثوا فيها وسبوا النساء والأطفال ، ونهبوا الأموال والمتاع ، وفر من استطاع من المسلمين إلى غرناطة أو وادي آش أو جاز إلى العدو . وكان هذا التصرف نموذجاً لما يضمه ملك النصارى نحو معاملة المسلمين المغلوبين ، ولما تنطوى عليه سياسته من نكث للوعود والعهود . وتقول الرواية الإسلامية المعاصرة في وصف محنة أهل مالقة « وكان مصابهم مصاباً عظيماً تحزن له القلوب وتذهل له النفوس ، وتبكي لمصابهم العيون »^(٢) .

- ٢ -

ولنعد الآن إلى قصة السفارات التي أوفدها أبو عبد الله الزغل إلى ملوك إفريقية ومصر وقسطنطينية يستغيث بهم ، ويلتمس نصرتهم . والتجاء الأندلس إلى ملوك العدو في طلب الغوث والنجدة أمر طبيعي وتقليد أندلسي قديم ، أشرنا إليه مراراً فيما تقدم . ولكن دول المغرب كانت يومئذ يسودها الضعف والتفرق ، ولم يكن

(١) هذا ما ورد ضمن وثيقة محفوظة بدار المحفوظات الإسبانية العامة Archivo General de

Simaneas; P. R. 11-5

(٢) أخبار مصر ص ٢٧ و ٢٨ .

في استطاعتها أن تهرع إلى انجاء الأندلس ، كما فعلت في الماضي غير مرة . ولم يلب نداء مولاي الزغل سوى شراذم ضئيلة من المجاهدين المتطوعين ، جازت البحر إلى الأندلس ، واشتركت في نضالها الأخير .

وأما استغاثة الأندلس بمصر فلم تقع إلا في عهد متأخر ، وذلك حينما ضعف أمر بني مرين ملوك العدو الأقوياء ، وانقطعوا عن العبور إلى الأندلس ، وشغلوا بأمر الدفاع عن أنفسهم . وقد ذكرنا فيما تقدم قصة السفارة الأندلسية التي بعث بها السلطان أبو عبد الله الأيسر إلى سلطان مصر الظاهر جقمق في سنة ٨٤٤ هـ (١٤٤٠ م) ، وكيف أنها لم تسفر عن أية نتائج عملية . على أنه لم يكن ثمة ريب في أن الحوادث الأندلسية المفجعة ، كانت قد ذاعت يومئذ في أنحاء العالم الإسلامي ، واهتز لمصابها أمراء الإسلام قاطبة . وكان صداها يتردد في بلاط القاهرة وغيره من قصور المشرق ، وكان أمراء الأندلس وزعمائها مذلاح لهم شبح الخطر الداهم ، يتجهون بأبصارهم إلى دول المغرب والمشرق معاً ، وكانت كتبهم ونداءاتهم في تلك الآونة العصبية تترى على فاس والقاهرة وقسطنطينية . وفي صحف العصر ما يدل على أن مصر كانت بنوع خاص ، تتبع حوادث الأندلس باهتمام وجزع ، فإن ابن إياس مؤرخ مصر في ذلك العصر لم يفته أن يدون في حولياته هذه الحوادث تباعاً ، فراه يقول في حوادث ذي الحجة سنة ٨٨٦ هـ (١٤٨١ م) ، ما يأتي : « وفيه جاءت الأخبار من بلاد الغرب أن أبا عبد الله محمد بن أبي الحسن علي بن سعد ابن الأحمر قد ثار على أبيه الغالب بالله صاحب غرناطة وملكها من أبيه ، وجرت بينهما أمور يطول شرحها ، وآل الأمر بعد ذلك إلى خروج الأندلس عن المسلمين ، وملكها الفرنج والأمر لله في ذلك » . وفي حوادث رجب سنة ٨٩٠ هـ (١٤٨٥ م) . « وفي رجب جاءت الأخبار بوفاة ملك الأندلس صاحب غرناطة ، وهو الغالب بالله أبو الحسن » . وفي حوادث جمادى الآخرة سنة ٨٩١ هـ (١٤٨٦ م) « إن صاحب غرناطة (أبا عبد الله) توجه إلى عمه يسأله أن يرسل له نجدة تعينه على قتال صاحب قشتالة ، وإن الفتن هناك قائمة والأمر لله »^(١) . وهكذا كانت حوادث الأندلس تتردد رغم بعد المسافة وصعوبة المواصلات في مصر ، ويدونها مؤرخ مصر المعاصر ، وإن كان في إيرادها تنقصه الدقة والوضوح .

وكانت مصر ترتبط يومئذ مع ثغور الأندلس ولاسيما مالقة والمرية بعلاقات

(١) راجع ابن إياس : تاريخ مصر (بولاقي) ج ٢ ص ٢١٦ و ٢٣٠ و ٢٣٧ .

تجارية وثيقة . وكان لمصر هيبتها التالدة بين الدول النصرانية منذ الحروب الصليبية وبالأخص لأنها تحكم البقاع النصرانية المقدسة ، وبين رعاياها ملايين من النصارى . ولم يكن غريباً في تلك الآونة أن تفكر الأندلس إبان محنتها القاسية مرة أخرى ، في الإستغاثة بمصر بعد أن رأت قصور الدول المغربية عن إنجاده . وكان من الطبيعي أن تهتم دول الإسلام من أقصاها إلى أقصاها بمصير الأمة الأندلسية ، وأن تفكر في التماس السبيل إلى غوثها إن استطاعت إلى ذلك سبيلاً . ولا تشير المصادر الإسلامية إلى فكرة أو سياسة معينة ، وضعتها أو اعزمتها الدول الإسلامية لتحقيق هذه الغاية ، ولكنها تشير فقط إلى سفارة أندلسية وفدت على بلاط مصر . على أن المصادر الغربية تشير بالعكس إلى أن خطة كهذه قد وضعت ونظمت . وخلاصة ما تقوله في ذلك هو أن المشرق كله اهتز لحوادث الأندلس ، وسقوط قواعدها السريع في يد النصارى ، وأن بايزيد الثاني سلطان الترك والأشرف قايتباي سلطان مصر ، تهادنا مؤقتاً الرغم مما كان بينهما من خصومات مضطربة وحروب دموية ، وعقدا محالفة لإنجاد الأندلس وإنقاذ دولة الإسلام فيها ، ووضعاً لذلك خطة مشتركة خلاصتها أن يرسل بايزيد الثاني أسطولاً قوياً لغزو جزيرة صقلية التي كانت يومئذ من أملاك إسبانيا ، ليشغل بذلك اهتمام فرناندو وإيسابيلا ، وأن تبعث سرديات كبيرة من الجند من مصر وإفريقية ، تجوز البحر إلى الأندلس ، لتجند جيوشها وقواعدها^(١) . ومن الصعب أن نعتقد بأن مثل هذه الخطة الموحدة ، يمكن أن يتفق عليها بين مصر وقسطنطينية في مثل الظروف التي كانت تجوزها علائق البلدان يومئذ ؛ فقد كانت علائق جفاء وقطيعة ، وكان الترك يتربصون بمصر ويطمحون إلى غزوها ، وكانت مصر تخشى العدوان ويسودها التوجس والحذر ، وكان انفصام العلائق بين تركيا ومصر على هذا النحو أبعد من أن يسمح بعقد مثل هذا التحالف بينهما . وكل ما يمكن قوله في هذا الشأن هو أن فكرة إنجاد الأندلس كانت تلقى في بلاط القاهرة وقسطنطينية نفس العطف ، وإن لم يتفاهما في ذلك على خطة موحدة .

وعلى أي حال فمن الحق الذي لا ريب فيه أن مصر قد تلقت استغاثة الأندلس ، ووضعت خطة دبلوماسية خاصة لإسعافها وإنجاده . وقد وصلت سفارة الأندلس إلى مصر في أواخر سنة ٨٩٢ هـ (نوفمبر سنة ١٤٨٧ م) . ويصف ابن إياس هذه

السفارة فيما يأتي : « وفي ذى القعدة (سنة ٨٩٢ هـ) جاء قاصد من عند ملك الغرب صاحب الأندلس ، وعلى يده مكانبة من مرسله تتضمن أن السلطان يرسل له تجريدة تعيينه على قتال الفرنج ، فإنهم أشرفوا على أخذ غرناطة وهو في المحاصرة معهم . فلما سمع السلطان ذلك ، اقتضى رأيته أن يبعث إلى القسوس الذين بالقائمة التي بالقدس بأن يرسلوا كتاباً على يد قسيس من أعيانهم ، إلى ملك الفرنج صاحب نابل ، بأن يكتب صاحب إشبيلية بأن يحل عن أهل مدينة غرناطة ويرحل عنهم ، وإلا يشوش السلطان على أهل القمامة ، ويقبض على أعيانهم ، ويمنع جميع طوائف الفرنج من الدخول إلى القمامة ويهدمها ، فأرسلوا قاصدهم وعلى يده كتاب إلى صاحب نابل ، كما أشار السلطان ، فلم يقد ذلك شيئاً وملك الفرنج مدينة غرناطة فيما بعد^(١) . وفي رواية ابن إياس شيء من اللبس . ذلك أن حصار النصارى الأخير لغرناطة ، لم يبدأ إلا في مارس سنة ١٤٩١ الموافق جمادى الثانية سنة ٨٩٦ هـ ، فالأمر لم يكن متعلقاً إذاً بإنقاذ غرناطة . وكانت جيوش فرناندو وإسبيللا منذ بداية سنة ٨٩٢ هـ تتدفق حسب رأيها على أراضي مولاي الزغل لكي تنزع منه الثغور الجنوبية . وقد استولت على بلس مالقة في جمادى الأولى من هذا العام (مايو ١٤٨٧) ، ثم زحفت نوا على مالقة ، وضربت حولها الحصار في جمادى الثانية (يونيو سنة ١٤٨٧ م) . وقد وصل صريخ الأندلس إلى مصر في أواخر سنة ٨٩٢ هـ ، وذلك بعد أن سقطت مالقة في يد النصارى بنحو ثلاثة أشهر . وإذا فن الواضح أن هذا الصريخ كان متعلقاً بإنقاذ مالقة ، وأنه كان صادراً من مولاي الزغل بطل الأندلس والمدافع عنها يومئذ ، والمشفق عليها من السقوط ، ولم يصدر من صاحب غرناطة وهو ابن أخيه أبو عبد الله محمد ، وقد كان يومئذ يعيش آمناً في ظل الهدنة الغادرة التي عقدها مع النصارى .

ولم يكن من الميسور على مصر أن تلبى نداء الأندلس بطريقة فعالة ، فترسل إليها الأمداد أو المساعدات المادية على ما بينهما من بعد الشقة ، وعلى ما كان يشغل مصر يومئذ من الحوادث الداخلية ، وتوجسها من عدوان الترك على حدودها الشمالية . ولكن مصر حاولت مع ذلك أن تعاون الأندلس بطريق الدبلوماسية ، والضغط السياسي . وسلك بلاط القاهرة في ذلك خطة تدلي بكائه وحزمه ، وتدلي بالأنخص بوقوفه على مجرى الشئون الخارجية ، وتطور العلائق الدبلوماسية في هذا العصر .

ذلك أن سلطان مصر الملك الأشرف ، أجاب عن سفارة الأندلس بتوجيه سفارة
مصرية إلى البابا وملوك النصرانية . واختار لأدائها راهبين من رعاياه النصراني ،
أحدهما القس أنطونيو ميلان رئيس دير القديس فرنسيس في بيت المقدس ، وعهد
إلهمما بكتب إلى البابا وهو يومئذ إنوصان الثامن ، وإلى ملك نابل (نابولي) فرناندو
الأول ، وإلى فرناندو وإيسابيلا ملكي قشتالة وأراجون . وفي هذه الكتب يعاتب
سلطان مصر ملوك النصراني على ما يزل بأبناء دينه المسلمين في مملكة غرناطة ،
وعلى توالي الإعتداء عليهم ، وغزو أراضيهم ، وسفك دمائهم ، في حين أن رعاياه
النصارى في مصر وبيت المقدس ، وهم ملايين ، يتمتعون بجميع الحريات ،
والحمايات ، آمنين على أنفسهم وعقائدهم وأملاكهم . ولهذا فهو يطلب إلى ملكي
قشتالة وأراجون الكف عن هذا الاعتداء ، والرحيل عن أراضي المسلمين ، وعدم
التعرض لهم ، ورد ما أخذ من أراضيهم ، ويطلب إلى البابا وملك نابل أن يتدخل
لدى ملكي قشتالة وأراجون ، لردهما عن إيذاء المسلمين والبطش بهم ، هذا
وإلا فإن ملك مصر سوف يضطر إزاء هذا العدوان ، أن يتبع نحو رعاياه النصراني
سياسة التنكيل والقصاص ، ويبطش بكبار الأحرار في بيت المقدس ، ويمنع
دخول النصراني كافة إلى الأراضي المقدسة ، بل ويهدم قبر المسيح ذاته وكل
الأديار والمعابد والآثار النصرانية المقدسة (١) .

وغادر القس أنطونيو ميلان وزميله الديار المصرية ، لتأدية سفارة مصر إلى
ملوك النصرانية . ولسنا نعرف موعد هذا الرحيل بالضبط ، ولكن السفيرين وصلا
إلى إسبانيا في خريف سنة ١٤٨٩ م ، أعني لنحو عام ونصف من وصول صربخ
الأندلس إلى القاهرة . وكانت مألقة قد سقطت في يد النصراني منذ عامين واستولوا
على طائفة أخرى من الحصون والقواعد ، ثم تحولوا بعد ذلك إلى بسطة حسبما يجيء ،
وضرب فرناندو حولها الحصار . وهناك أمام أسوار بسطة وفد القس أنطونيو ميلان
وزميله إلى معسكر النصراني في أواخر سنة ١٤٨٩ م ، فاستقبلهما فرناندو بحفاوة
وترحاب ، واستلم كتاب السلطان ، واستمع إلى رسالتهما بعناية . وكان السفيران
قد عرجا في طريقهما على رومة ونابل أولا ، وقدا كتبا السلطان إلى البابا

(١) ابن إياس في تاريخ مصر ج ٣ ص ٢٤٦ و Prescott: Ferdinand and Isabella p.272
و Irving: ibid. p. 227 . و ظاهر أن في رواية ابن إياس عن تأليف سفارة مصر بعض النقص ،
ولكن ملخصه لمحتويات الكتب السلطانية في منتهى الدقة .

إنوصان الثامن وإلى ملك نابل ، فكتب البابا إلى فرناندو وإيسابيلا يسألها عما يجب به على مطالب السلطان ووعيده ، وكتب ملك نابل (فرناندو الأول) إليهما يستفهم عن سير الحرب الأندلسية ، ويلومهما على اضطهاد المسلمين ، وينصح بالكف عنه حتى لا يتعرض نصارى المشرق إلى قصاص السلطان . ويرجع تدخل ملك نابل على هذا النحو ، إلى خلاف بينه وبين ملك أراجون على حقوق عرش نابل ، وإلى تخوفه من أن يرتد فرناندو إلى محاربتة متى تم ظفريه بفتح الأندلس . ثم زار القسسان أيضاً مدينة جيان حيث كانت الملكة إيسابيلا ، وأبلغاها موضوع سفارتهما ولقيا منها نفس الحفاوة والترحاب (١) .

ولم ير فرناندو وإيسابيلا في مطالب السلطان ووعيده ما يحملهما على تغيير خطتهما ، في الوقت الذى أخذت فيه قواعد الأندلس الباقية تسقط تباعاً في أيديهما واقترب فيه أجل الظفر النهائى ؛ ولكنهما رأيا مع ذلك إجابة السلطان ، فكتبتا إليه في أدب ومجاملة ، « أنهما لا يفرقان في المعاملة بين رعاياهما المسلمين والنصارى ، ولكنهما لا يستطيعان صبراً على ترك أرض الآباء والأجداد في يد الأجانب ، وأن المسلمين إذا شاءوا حياة في ظل حكمهما راضين مخلصين ، فانهم سوف يلقون منهما نفس ما يلقاه الرعايا الآخرون من الرعاية » ، وبذا ارتد القسسان إلى المشرق يحملان جواب الملكين إلى السلطان ، ومعهما طائفة من التحف والهدايا .

ولسنا نعرف ماذا كان مصير هذه الرسالة ، ولكننا نرجع أنها وصلت إلى بلاط القاهرة ، وإن كنا لا نلمس لها أثراً في حوادث هذا العصر . وليس في تصرفات حكومة مصر يومئذ ما يدل على أن السلطان نفذ وعيده ، باتخاذ إجراءات معينة ضد النصارى أو ضد الآثار النصرانية المقدسة . والواقع أن بلاط القاهرة كان يشغل عندئذ بحركات بايزيد الثانى ، وصد غاراته المتكررة على الحدود الشمالية . وكان الاضطراب من جهة أخرى يسود شئون مصر الداخلية ، ومن ثم فإنه يبدو أن محاولة مصر إنقاذ الأندلس قد وقفت عند هذا الحد . ولم تتعد قيام مصر بمظاهرة دولية تقوم على استغلال الظروف والمؤثرات الدينية . وهكذا فشلت هذه المحاولة الدبلوماسية الفطنة التى بذلتها مصر ، وتركت الأندلس إلى قضائها المحتوم .

وكان سقوط مالقة أمنع الثغور الأندلسية في يد النصارى ضربة أليمة للمملكة

الإسلامية الممزقة ، يحرمها من كثير من ضروب الإمداد والغوث التي كانت تأتيها من وراء البحر ، وكان واضحاً أن ملك قشتالة كان يرمى إلى قطع هذه الأمداد بكل الوسائل . ولم يكن باقياً بعد ضياع جبل طارق ومالقة ، بيد المسلمين من الثغور سوى ألمرية والمنكب ، وإليهما كانت تفد جموع المتطوعة والمجاهدين ، بالرغم من بعدهما عن شواطئ العدو ، وكان لابد من الاستيلاء عليهما ، قبل أن تقطع كل صلة للأندلس نهائياً بعدوة المغرب وشمال إفريقيا . وقضى فرناندو قبل تنفيذ هذه الخطة زهاء عام ، بعمل على تطهير منطقة مالقة ، والاستيلاء على ما بقي من الحصون الشرقية والغربية ، حتى استولى عليها جميعاً ولم يبق منها بيد المسلمين شيء .

وفي ربيع سنة ١٤٨٨ م (٨٩٣ هـ) زحف فرناندو على أطراف مملكة غرناطة الشرقية ، وكانت لبعدها عن العاصمة ، أقل استعداداً للدفاع ، وانتهت هذه الحملة باستيلاء النصاري على بيرة ، والبليش وأشكر^(١) وغيرها من القواعد الشمالية الشرقية ، وذلك بالرغم من كون أهلها كانوا داخلين في الصلح المعقود مع أبي عبد الله ، وكان على ملك قشتالة لو أنه أوفى بعهوده ، أن يتركهم حتى ينتهي أمد الصلح المذكور^(٢) . وقد عثرنا على نص العهد الذي أصدره الملك الكاثوليكيان لأهل أشكر ، وهو نموذج للعهود التي صدرت لباقي البلاد المفتوحة في هذه المنطقة ، وفيه يتعهد الملكان ، بقبول أهل أشكر بين رعاياهما وتحت حمايتهما ، وأن لا يؤخذ شيء من أمتعتهم أو يصيبهم أي مكروه ، وألا يدفعوا من الضرائب إلا ما كانوا يؤدونه لملوكهم المسلمين ، وألا يرغموا على محاربة إخوانهم مسلمي غرناطة ، وأن يسمح لهم باستبقاء زعمائهم وفقهائهم ، وعوائلهم وشريعتهم ، وأنه يحق لهم الإقامة في أي جزء من أراضي مملكة قشتالة ، كما يحق لهم العبور إلى المغرب أحراراً ودون أي قيد ، وأن يعامل السكان جميعاً ذكوراً أو أنثاء ، بالرفق والكرامة وألا يغصبهم أحد في دورهم ، أو يسىء إليهم أو يتلف شيئاً من أمتعتهم أو محاصيلهم ، وألا يعاشر نصراني مسلمة ، أو مسلم نصرانية ، ومن فعل ذلك يعاقب بالموت وتصادر أملاكه ، وأن يدفع الكراء العادل لمن يطلب منهم للعمل في بناء حصن

(١) بيرة وبالإسبانية Vera تقع شمال شرق ألمرية على مقربة من البحر المتوسط ، والبليش هما بليج أو « بليش الحساء » Velez Rubio ، و « بليش البيضاء » Velez Blanco ، وهما تقمان شمال شرق مدينة بسطة Baza ، وأشكر وهي بالإسبانية Huescar تقع شمال غرب البليش .

(٢) Gaspar y Remiro : ibld ; p. 43

المدينة (١) . وسنرى فيما يلي من الحوادث أن الملكين الكاثوليكين ، يغدقان أمثال هذه العهود لسائر البلاد المفتوحة ، ولكن دون أية نية صادقة في الوفاء بها .

وفي الوقت الذي اقتربت فيه القوات القشتالية ، من مدينة بسطة ، أُمِنَ قاعدة في ولايات غرناطة الشرقية ، لتضرب حولها الحصار ، سار فرناندو في بعض قواته إلى ثغر المنكب (٢) ، الواقع في منتصف المسافة بين مالقة وألمرية ، وحاصره ، وكان يدافع عنه القائد محمد بن الحاج . ومع أنه لم يك ثمة شك في النتيجة المحتومة ، فقد دافع المسلمون عن ثغرهم ، واعتصموا به نحو ثلاثة أشهر ، وكبدوا القشتاليين بعض الخسائر . ثم وقعت المفاوضة في التسليم ، وأصدر الملكان الكاثوليكيان للقائد ابن الحاج ومعاونيه الفقيه أبي عبد الله الزليخى ، عهداً خلاصته ، أنه إذا سلم القصبية وكل حصونها في ظرف تسعة أيام ، فإنه يقبل هو وولده وصحبه وقرباه ، كما يقبل الوزراء والقواد والفقهاء وسائر أهل المنكب بين رعايا قشتالة ، وأنهم يتركون آمنين في ديارهم وأنفسهم وأموالهم ، ويحتكمون إلى شريعتهم ، وتترك لهم مساجدهم وصوامعهم ، ولا يؤخذ منهم نخلهم أو سلاحهم إلا طلاقات البارود ، وأنه إذا تم التسليم في الموعد المذكور ، فإنه تقدم إلى القائد المذكور هبة قدرها ثلاثة آلاف دوقلا قشتاليا ، وأنه إذا شاء العبور إلى المغرب مع ولده وأسرته ، فإنه تقدم إليه سفينة حسنة للجواز فيها مع سائر متاعه دون كراء أو مغرم ، وأنه لا تمس أملاك الأهالي ، ولهم بيعها أو قبض ريعها إذا عبروا إلى المغرب ، وهكذا سلم ثغر المنكب إلى القشتاليين ، في شهر ديسمبر سنة ١٤٨٩ (المحرم سنة ٨٩٥ هـ) . ولم يبق للمسلمين من الثغور سوى ألمرية ، التي طوقها العدو في نفس الوقت بقواته ، وأصبحت تحت رحمة وشيكة التسليم .

ولما تم قطع علائق الأندلس على هذا النحو مع عدوة المغرب وشمال إفريقيا ، بدأ فرناندو في تنفيذ خطته النهائية للقضاء على ما بقي في الداخل من المملكة الإسلامية وكانت مملكة غرناطة قد انقسمت كما رأينا إلى شطرين ، الأنحاء الشرقية وتشمل وادى آش وأعمالها وبحكمها الأمير محمد بن سعد أبو عبد الله الزغل ، والأنحاء الغربية

(١) تحفظ هذه الوثيقة ببلدية « أشكر » Archivo del Ayuntamiento de Huescar ،

وقد نقلناها عن مجموعة : Documentos Inéditos para la Historia de España Vol. III ،

p. 170-173

(٢) وهي بالإسبانية Almunecar

وتشمل مدينة غرناطة وأعمالها ، وبحكمها الأمير أبو عبد الله محمد بن علي . فقرر فرناندو أن يبدأ بإتمام الاستيلاء على الأنحاء الشرقية ، وأن يقضي أولاً على سلطان أبي عبد الله الزغل لما كان نخشاه من عزمه وشديده بأسه ، فأكاد ينتهي من إخضاع ثغر المنكب وتطويق ثغر ألمرية حتى قرر تضيق الخناق على مدينة بسطة ، وكانت قواته تطوقها حسبما تقدم ، وكانت الملكة إيسابيلا مع حاشيتها في جيان على مقربة من الجيش الفاتح ؛ وكانت بسطة أهم القواعد الشرقية التي يسيطر عليها مولاي الزغل بعد وادي آش مقر حكمه ؛ ولم يستطع الزغل أن يغادر معقله في وادي آش للدفاع عن بسطة ، خشية أن يهاجمه ابن أخيه أبو عبد الله في غيبته ، فأرسل إليها حامية مختارة من أنجاد الفرسان بقيادة صهره الأمير يحيى النيار الذي تعرفه التوارينخ القشتالية « بسيدى يحيى » . وحاول القشتاليون الإطباق على بسطة ومحاصرتها فردهم المسلمون عن أسوارها غير مرة ، ونشبت بين الفريقين خارج الأسوار عدة معارك حامية منى فيها النصرارى بنسائر فادحة ؛ ومع أن النصرارى بدأوا هجومهم على بسطة في شهر رجب سنة ٨٩٤ هـ (يونيو سنة ١٤٨٩ م) فإنهم لم يستطيعوا تطويقها ومحاصرتها بصورة فعلية إلا بعد ذلك بثلاثة أشهر ، وهنا امتنع المسلمون داخل المدينة بعد أن أئخنوا في عدوهم غير مرة ، واستنفدوا أقواتهم المدخرة . وضيق النصرارى الحصار على بسطة مدى ثلاثة أشهر أخرى ، حتى ضاق أهلها بالحصار ذرعاً ، وقلت الأقوات واشتد الكرب ، ولما رأى المسلمون أنه لم يبق في الدفاع ثمة أمل ، وقد تقدت المؤن ، وفتك الجوع والمرض بالعامه ، اعزموا بمفاوضة القشتاليين في التسليم ؛ وبالرغم مما أبداه زعيمهم يحيى النيار في البداية من براعة في تنظيم الدفاع عن بسطة وألمرية ، وبالرغم مما أبداه من بسالة في المعارك التي نشبت مع القشتاليين ، فإنه رأى في النهاية أن يترك هذا الصراع اليائس ، وأن يفوز من المعركة بأحسن ما يستطيع لنفسه وذويه . وقد حصلنا على نص الوثيقة التي عقدها القائد يحيى مع مندوب الملك فرناندو ، الدون جوتيرى دى كارديناس ، وهي تعرض لنا بمحتوياتها المثيرة ، صورة من ذلك الدرك المؤلم الذي يدفع اليأس إليه أولئك القادة الذين يغدون بعد حياة حافلة بالإخلاص والبسالة ، تحت إغراء العدو وهباته ، خونة مارقين مرتدين .

وقد حررت هذه الوثيقة في المعسكر الملكي قرب مدينة ألمرية في ٢٥ ديسمبر سنة ١٤٨٩ ، وفيها يؤكد فرناندو للقائد يحيى النيار زعيم بسطة وألمرية ، بأنه

سوف يستقبله تحت حمايته هو وولده وأبناء عمه ، وينزلهم في داره ، ويعاملهم بما يليق بهم معاملة أشرف مملكته ، ويدافع عنهم وعن أملاكهم وأتباعهم ، ثم يقول ملك قشتالة مخاطباً يحيى :

« وأنه إذا صحت عزيمتكم حقاً على اعتناق النصرانية ، وعلى أن تخدمنى وتعاوننى برجالك ، فإننى سوف أكرم ذلك طول مدة الفتح ، حتى لا يتقول عليك رجالك ، ولهذا فإنك تستقبل التعميد المقدس سرّاً في غرفتى ، حتى لا يعرفه المسلمون إلا بعد تسليم وادى آش .

« وأن الكروم والقرى والحصون التى تؤول إليك بالميراث عن والدك أمير ألمرية ، أهلها لك لتملكها وتتصرف فيها كما تشاء ، وعهدى لك بذلك أنا والملكة زوجى .

« وأنه لن تدفع أنت وابنك وأبناء عمك وأعقابك وحشمك ، أى مغرم أو جزية في سائر مملكتى إلى الأبد .

« وأنه تشریفاً لشخصك يسمح لك بأن يصبحك عشرون فارساً مسلحون بكل ما يرغبون ، وأن تتجول بهم حيث شئت في أنحاء مملكتى ، ويتمتع ولدك بمثل ذلك .

« وأنه إذا تنازل صهرك ملك وادى آش عن نصف الملاحات التى أهلها إليه ، فإننى أهل بك دخلاً قدره خمسمائة وخمسون ألف مرافيدى في ملاحات دلالة ، وفضلاً عن ذلك ، فإنه إذا تم تسليم وادى آش في الموعد المتفق عليه ، فإننى مكافأة لك على جهودك في خدمتى لدى ملك وادى آش وغيره من القادة ، أهل بك عشرة آلاف ريال ، وأقدم لك سائر البراعات اللازمة بما تقدم» (١) .

وتعهد الملكان الكاثوليكيان في نفس الوقت لأهل بسطة ، بإقرار ما طلبوا من الشروط ، وفي مقدمتها أن يؤمنوا في النفس والمال ، وأن يحتفظوا بدينهم وشريعتهم وعوائدهم . وهكذا سلمت بسطة ، ودخلها النصارى في العاشر من محرم سنة ٨٩٥هـ (أوائل ديسمبر سنة ١٤٨٩م) وغادرها معظم أهلها إلى وادى آش ، حاملين ما استطاعوا من أمتعتهم وأموالهم ، وهرعت جميع الحصون والمحلات القريبة إلى التسليم والدخول في طاعة ملك النصارى ، وسلمت ألمرية بعد ذلك بقليل في فبراير سنة ١٤٩٠م (ربيع الأول سنة ٨٩٥هـ) ، ومنحت للتسليم شروطاً خلاصتها

أن يحتفظ المسلمون بدينهم وشريعتهم وأموالهم ، وأن تخفف عنهم أعباء الضرائب ،
و ألا يولى عليهم يهودى ، وألا يدخل نصراني في « الجماعة » ، وأن يختار الأولاد
الذين يولدون من أمهات من النصارى لأنفسهم ، الدين الذى يريدون عند البلوغ ،
وغير ذلك من المنح المغربية الخادعة التى بذلت لسائر البلاد المفتوحة . وهكذا بسط
فرناندو سلطانه على قواعد الأندلس الشرقية كلها من البحر إلى الشمال ، ولم يبق
خارجاً عن طاعته ، سوى مدينة وادى آش مقر مولاي الزغل .

ولم تمض أسابيع قلائل على ذلك ، حتى أثمرت خيانة يحيى النيار ثمرتها ، لدى
صهره أبى عبد الله الزغل ، فسارع بدوره إلى الانضواء تحت لواء ملك النصارى ،
وكان الزغل منذ التجأ إلى وادى آش ، يرقب سير الحوادث بجزع ، ويرى قواعد
الأندلس تسقط بالتعاقب ، ودون أن ينجدها منجد ، ويرى أمل الإنقاذ يخبو
تباعاً . فلما سقطت بسطة آخر القواعد التى يسيطر عليها ، واتجه النصارى نحو
وادى آش معقله الوحيد الباقى ، ورأى بالرغم من شجاعته وبسالته أنه يغالب
المستحيل ، وأن جيوش النصرانية تحيط به من كل صوب ، اعتزم أمره ، وسار
إلى معسكر ملك النصارى يعرض عليه طاعته ، والانضواء تحت لوائه ، فأجابه
فرناندو إلى مطالبه ، وبايعه الزغل وسائر قاداته بالخضوع والطاعة ، ودخل
النصارى مدينة وادى آش فى أوائل صفر سنة ٥٨٩٥ (٣٠ ديسمبر سنة ١٤٨٩) .
وعقد الزغل مع ملكى قشتالة معاهدة سرية على نمط المعاهدة التى عقدها صهره
يحيى ، ونص فيها على طائفة من المنح والإميازات ، خلاصتها أن يستقر الزغل
سيداً فى مدينة أندرش وما إليها ، وأن يكون له ألفا تابع من بنى وطنه ، وأن يمنح
معاشاً سنوياً كبيراً ، وأن يمنح دخل نصف ملاحات بلدة الملاحة ، وأن يرسل
فى استحضار أبنائه الأمراء من غرناطة نظراً لخصومته مع ملكها ، وأن تكون
جميع أملاكه وأملاك ذويه فى غرناطة حرة من كل حق ومغرم ، وأن تكون هذه
العهود ملزمة للملكى قشتالة ولعقبهما من بعدهما ، وأخيراً أن يوافق البابا على هذه
العهود^(١) . بيد أنه لم يمض قليل على ذلك حتى شعر مولاي الزغل أنه يستحيل
عليه الاستمرار فى ذلك الوضع المهين ، فنزل لفرناندو عن حقوقه وإميازاته
لقاء مبلغ ضخم ، وجاز البحر إلى المغرب ، ونزل فى وهران أولاً ثم انتقل إلى

(١) Archivo General de Simancas, P. R. 11-12 . وراجع أيضاً : Gaspar y

Remiro : ibid ; p. 48 :

تلمسان ، واستقر يقضى بها بقية حياته فى غمر من الحسرات والندم ، ولبت عقبه هنالك عصوراً يعرفون ببني سلطان الأندلس ؛ وجاز معه كثيرون من الكبراء الذين أيقنوا أن نهاية الإسلام بالأندلس قد غدت قضاء محتوماً (١) .

وقد نقل إلينا صاحب أخبار العصر رواية مفادها أن تسليم مولاي الزغل لملك قشتالة كانت نوعاً من الخيانة المقصودة ، وأنه تنازل هو وقواده عن البلاد التى كانت تحت أيديهم طوعاً مقابل قبض ثمنها ، وذلك لكى ينتقم الزغل من ولد أخيه الأمير أبى عبد الله محمد بن على صاحب غرناطة ، فتصبح بعد خضوع سائر أنحاء الأندلس وحيدة تحت رحمة النصارى ، وترغم على التسليم إليهم ، وينتهى بذلك إمارة أميرها وحكمه (٢) ، وهى رواية لا تتفق فى نظرنا مع ما أثر عن مولاي الزغل من ضروب العزم والبسالة والشهامة والغيرة الإسلامية ، التى رأيناها ماثلة خلال هذه الحوادث المؤسفة ، وإنما استسلم الزغل وخضع ، وحاول إنقاذاً ما يمكن لإنقاذه ، نزولاً على حكم ظروف القاهرة لم ير إلى مغالبتها سبيلاً .

(١) أخبار المصر من ٣١ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦١٣ و ٦١٤ . وراجع Prescott: ibid; p. 285

(٢) أخبار المصر من ٣٢ .

الفصل الثالث

الصراع الأخير

تجديد الصلح بين الملكين الكاثوليكين وأبي عبد الله . مطالبة الملكين بتسليم غرناطة . ثورة أبي عبد الله . الحماسة في غرناطة . غزو فرناندو لبسائط غرناطة . رد المسلمين للنصارى . خروج أبي عبد الله للغزو . المعارك بين المسلمين والنصارى . محاولة أبي عبد الله استرداد المنكب . حوادث وادى آش . فرناندو يعلن الأمان . هجرة المسلمين من القواعد الذاهبة . تأهب فرناندو لافتتاح غرناطة . زحفه عليها . عيث النصارى في المروج . محاصرة النصارى لغرناطة . فرناندو ينشئ أمامها مدينة شنتى . موقف غرناطة وأحوالها . بسالتها في الدفاع . موسى بن أبي القسان فارس غرناطة . يثير حماسة الشعب . يقود الفرسان ويزعج النصارى . تنظيم الدفاع داخل المدينة . اشتداد الحصار وانقطاع الأمداد . تقرير حاكم المدينة . تصميم موسى على الدفاع . فرناندو يزحف على المدينة . خروج المسلمين للقائه . هزيمة المسلمين وارتدادهم . أهوال الحصار . اجتماع السلطان والقادة . تقرير التسليم . اعتراض موسى . نذب الوزير أبي القاسم عبد الملك للمقاومة . رواية عن التسليم . وثيقة تؤيد هذه الرواية . موقف أبي عبد الله والقادة . مفاوضات التسليم . شروط التسليم وضماناته . معاهدة سرية بضمان حقوق أبي عبد الله وتقرير مصيره . حلف الملكين باحترام الشروط . توقيع وثيقة التسليم . ارتياب موسى ونذيره . إذعان أبي عبد الله والجماعة . أقوال موسى ونبوءته . مغادرته لغرناطة . مصيره الغامض . الحزن واليأس في غرناطة . التعجيل بإجراءات التسليم . إرسال الرهائن إلى فرناندو . دخول القشتاليين غرناطة . يرفعون الصليب فوق الحمراء . رواية عربية معاصرة عن دخول فرناندو غرناطة . أهبة أبي عبد الله لمغادرة عاصمة ملكه . المناظر المؤسفة والركب الباكي . قصيدة شوق في وصفها . اللقاء بين أبي عبد الله وفرناندو . « زفرة العرب الأخيرة » . رثاء الأندلس .

لم يبق على ملكى قشتالة وأراجون ، فرناندو وإيسابيلا ، بعد أن دانت لهما سائر الشغور والقواعد الأندلسية الجنوبية والشرقية ، لإتمام خططهما في القضاء على دولة الإسلام بالأندلس ، سوى الاستيلاء على غرناطة آخر القواعد الباقية بيد المسلمين ؛ ولم تكن غرناطة يومئذ مملكة أو دولة ، بل كانت رمزاً فقط للمملكة الإسلامية الذاهبة ، وكانت واسطة عقد تصرمت سائر حباته ، وكانت كالمصباح المرتجف ينخبو ضوءه سراعاً ، فلم يكن يقتضى إطفاءه سوى الضربة الأخيرة .

وقد رأى فرناندو وإيسابيلا أن الوقت قد حان لتسديد هذه الضربة ، عقب استسلام مولاي الزغل وسقوط وادى آش وبسطة ألمرية . ونحن نعرف أنه على أثر سقوط مدينة لوشة في يد النصارى في شهر مايو سنة ١٤٨٦ ، وحصول

أبي عبد الله في أيدي الملكين الكاثوليكين للمرة الثانية ، عقد أبو عبد الله معهما معاهدة صلح جديدة لمدة عامين ، تطبق في غرناطة والبلاد التي تدخل في طاعة أبي عبد الله . وفي ظل هذا الصلح المسموم دخل أبو عبد الله غرناطة ، واسترد العرش ومن ورائه تأييد فرناندو وعونه . ومن الواضح أن فرناندو قد اقتضى في نصوص هذا الصلح ، ثمن هذا التأييد والعون . والظاهر أن هذا الصلح قد تجدد لمدة عامين آخرين ، حسبما تدل على ذلك وثيقة صادرة عن أبي عبد الله نفسه في المحرم سنة ٨٩٥ هـ (ديسمبر سنة ١٤٨٩) ، وهي عبارة عن خطاب موجه منه إلى قادة وأشياخ بلدة أجييجر ، وفيه ينوه أبو عبد الله بهذا « الصلح السعيد » المعقود لعامين ، ويدعو إلى الدخول فيه ، وينعى على معارضيه موافقهم ، التي انتهت بسقوط بسطة « التي أفجعت المسلمين وفلت غرب الدين » (١) .

وبالرغم من أننا لا نعرف نصوص هذا الصلح مفصلة ، فإن بعض الروايات القشتالية تذكر لنا أن أبا عبد الله ، قد تعهد في هذا الصلح ، بأن يسلم مدينة غرناطة للملكين الكاثوليكين ، متى تم تسليم بسطة وألمرية ووادي آش (٢) . وعلى أي حال ففي فاتحة سنة ١٤٩٠ م (أوائل صفر ٨٩٥ هـ) أرسل الملكان الكاثوليكيان إلى السلطان أبي عبد الله ، سفارة على يد فارسين ، هما كونثالو فرنانديث قائد حصن إليورة ، ومرتين ألاكون قائد حصن موكلين ، ليخاطباه في موضوع التسليم (٣) . وتقول الرواية الإسلامية المعاصرة ، إن ملك قشتالة لم يطلب تسليم غرناطة ذاتها ، ولكنه اكتفى بأن طلب إلى أبي عبد الله تسليم مدينة الحمراء وأقصور الحمراء مقر الملك والحكم ، وأن يبقى مقبياً في غرناطة ، في طاعته وتحت حمايته ، أسوة بما فعلته سائر نواحي الأندلس (٤) ، أو أن يقطعه أية مدينة أخرى من مدن الأندلس يختار الإقامة فيها ، وأن يمده بمال جزيل (٥) .

(١) نشر هذه الوثيقة الأستاذ جيسبار ريميرو في كتابه الذي سبقت الإشارة إليه *Documentos Arabes de la Corte Nazari de Granada* وقد استخرجها مع وثائق أخرى صادرة عن أبي عبد الله من مجموعة فرناندو دي ثافرا سكرتير الملكين الكاثوليكين .

(٢) *Prescott : Ferdinand and Isabella, p. 284*

(٣) راجع رواية *Hernando de Baeza* القشتالية المنشورة بعناية المستشرق ميلر ضمن أخبار العصر (ص ٩٢) .

(٤) أخبار العصر ص ٣٣ .

(٥) نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٤ .

فإذا كان جواب أبي عبد الله ؟ لقد كان في سابق موافقه ، وممالاته لملك قشتالة ، ومحالفته إياه ودخوله في طاعته ، وما يدين له به من تغلبه على عمه ومنافسه الزغل ، وجلوسه على العرش ، ما يحمل الملكين الكاثوليكين ، على توقع استسلامه وخضوعه . ولكن حدث عكس ما توقعه الملكان . ولدينا وثيقة توضح لنا موقف أبي عبد الله في هذه المناسبة ، هي عبارة عن خطاب صادر منه إلى الملكين الكاثوليكين ، يشير فيه إلى قدوم « القائد غنزال والقائد مرتين » بكتبهما إليه ، وأنه يرسل إليهما خديمه ، القائد أبا القاسم المليح ، ليحدثهما في هذا الموضوع . وبالرغم من اللهجة المهذبة ، المقرونة بعبارات الخضوع والطاعة ، التي اختتمت بها الرسالة ، فقد كان جواب أبي عبد الله للملكين الكاثوليكين ، رفضاً لما طلباه . وتاريخ هذه الرسالة هو ٢٩ صفر سنة ٨٩٥ هـ (٢٢ يناير سنة ١٤٩٠م) (١) . والظاهر أن رسول أبي عبد الله لم ينجح في مهمته ، وعاد إلى مليكه بخبره بإصرار الملكين الكاثوليكين على طلبهما . وهنا تقول الرواية القشتالية ، إن أبا عبد الله اشتدت دهشته ، لإصرار الملكين الكاثوليكين ، واعتزم أن يشهر عليهما الحرب ، لولا أن نصحه بعض الأكابر بالروية والتريث . وعلى ذلك فقد أرسل أبو عبد الله وزيره يوسف بن كماشه ، ومعه تاجر كبير من سراة غرناطة ، له علائق طيبة مع النصراني ، يدعى إبراهيم القيسى ، إلى الملكين الكاثوليكين في إشبيلية ، لإقناعهما بالعدول عن مطلبهما ، ولكنهما عادا خائبين . وعلى ذلك فقد استوثقت الحرب بين المسلمين والنصارى (٢) .

وهنا نقف قليلاً لتأمل هذا الموقف الحديدي ، من جانب أبي عبد الله . أجل كانت الخطوب والحن التي جازتها الأندلس في هذه الأعوام المليئة بالحوادث ، قد جعلت من أبي عبد الله رجلاً آخر ، وكان هذا الأمير الضعيف يرقب سير الحوادث جزعاً ، ويستشف من ورائها القدر المحتوم ، وكان قد تخلص بانسحاب عمه من الميدان من منافسه القوى ، ولكنه فقد في الوقت نفسه أقوى عضد يمكن الاعتماد عليه في الدفاع والمقاومة ، وكانت سائر قواعد الأندلس الأخرى قد غدت نهائياً من أملاك مملكة قشتالة ، وعين لهاحكام من النصراني ، وتدجن من بقي من أهلها أو غدوا مدجنين Mudéjares يدينون بطاعة ملك النصراني .

(١) نشرت هذه الرسالة ضمن المجموعة التي نشرها الأستاذ جيسار ريميروف في كتابه السالف الذكر .

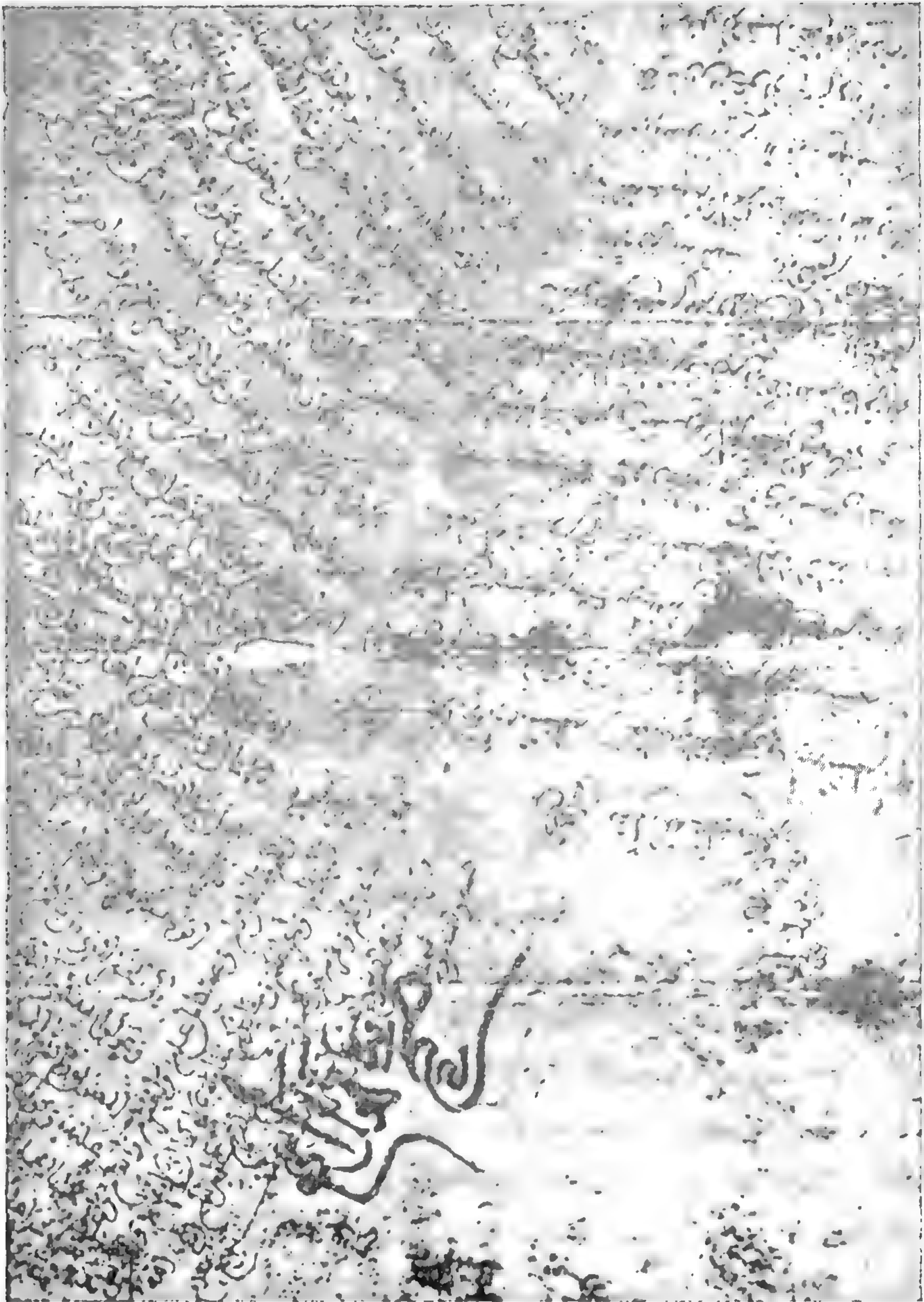
(٢) راجع رواية Hernando de Baeza المنشورة في أخبار العصر (ص ٩٣) .

وذاعت بها الدعوة النصرانية ، وارتد كثير من المسلمين حرصاً على أوطانهم ومصالحهم أو اتقاء الريب والمطاردة ، ولكن كثيراً منهم ممن أشفقوا على أنفسهم ودينهم ، جازوا البحر إلى المغرب ، وهرعت جموع غفيرة أخرى منهم إلى غرناطة معقل الإسلام الوحيد الباقي ، حتى غدت الحاضرة تموج بسكانها الجدد ، وحتى أصبحت تضم بين أسوارها وأرباضها أكثر من أربعمئة ألف نفس . وكانت موجة عامة من اليأس والنقمة تغمر هذه الألوف ، التي أوديت في الأوطان والأنفس والولد والمال ، دون أن تجنى ذنباً أو جريرة ، وكانت فكرة التسليم للعدو الباغي أو مهادنته ، تلقى استنكاراً عاماً . ولم يكن أبو عبد الله يجهل هذا الاتجاه العام ، فلما وفد إليه سفيرا ملكي قشتالة في طلب التسليم ، ثارت نفسه لهذا الغدر والتجنى ، وأدرك وربما لأول مرة ، فداحة الخطأ الذي ارتكبه في مخالفة هذا الملك الغادر ، ومعاونته على بنى وطنه ودينه ؛ ولما أصر فرناندو على تجنيبه جمع أبو عبد الله الكبراء والقادة فأجمعوا على رفض ما طلبه الملكان النصرانيان ، وأعلنوا عزمهم الراسخ على الدفاع حتى الموت عن وطنهم ودينهم^(١) ، وأبلغ أبو عبد الله ملك قشتالة بأنه لم يعد له القول والفصل في هذا الأمر ، وأن الشعب الغرناطي يأبى كل تسليم أو مهادنة ، ويصمم على المقاومة والدفاع^(٢) .

هكذا كان جواب أبي عبد الله للملكي قشتالة ، وهكذا حمل الأمير الضعيف بعزم شعبه ، من الاستكانة والمهادنة إلى التحدى والمقاومة . وهنا يبدو لنا أبو عبد الله شخصية أخرى تنزع عنها صفات الخور والاستسلام والخضوع الذي يدنو إلى الخيانة ، لتتشع بثوب من العزة والكرامة ، والحمية الدينية والوطنية . أجل دوت غرناطة بصيحة الحرب والجهاد ، وخرجت سرديات من الجند المسلمين ، لتعيث في الأراضى النصرانية القريبة . وفي ربيع سنة ١٤٩٠ (٨٩٥ هـ) خرج ملك قشتالة في قواته وهو يضطرم سخطاً ، وزحف على بسائط غرناطة فعاث فيها ، وانتسف الزروع واستاق الماشية ، وخرب الضياع والقرى ، ووصل في عيته وتخريبه حتى أسوار الحاضرة ذاتها ، وبرز المسلمون لقتاله وعلى رأسهم أميرهم أبو عبد الله ، ووقعت بين الفريقين في ظاهر غرناطة ، عدة ملاحم دموية ارتحل النصراني على أثرها ، ولم يستطيعوا الدنو من المدينة (رجب ٨٩٥ هـ - يولييه ١٤٩٠ م) .

(١) أخبار مصر ص ٣٤ ؛ ونفع الطيب ج ٢ ص ٦١٤ .

(٢) Prescott : ibid ; p. 290



صورة خطاب مرسل من السلطان أبي عبد الله محمد إلى قائد وأشياخ بلدة أجيجر يدعوهم فيه إلى طاعته والدخول في الصلح الذي عقده مع الملك فرناندو الكاثوليكي ، مؤرخ في المحرم سنة ٨٩٥ هـ (ديسمبر ١٤٨٩ م) ، ومحفوطة بمحفوظات بلدية غرناطة .

وعمد فرناندو حين العودة إلى تحصين بعض الحصون القريبة من غرناطة ، مثل برج الملاحة وبرج رومة وغيرهما ، وشحنها بالرجال والعدد استعداداً للمعارك القادمة .

وعلى أثر ارتحال القشتاليين ، خرج أبو عبد الله في قواته محاول استرداد بعض الحصون والمراكز القريبة ، فاستولى على قرية البذول عنوة ، ثم استولى على غيرها من القرى ، ودبت في المسلمين في تلك الأنحاء روح جديدة ، وثار أهل البشرات (البشرة) وما حولها على حكامهم النصاري ، وثار أهل وادي آش في الوقت نفسه واضطرموا لما رأوه من وثبة أبي عبد الله وعزمه بنزعة جديدة إلى المقاومة ، وبعثوا إليه يطلبون عونه . وسار أبو عبد الله في قواته يريد حصن أندرش^(١) لما علمه من ثورة المسلمين هنالك ، وكان عمه الأمير محمد بن سعد (الزغل) لا يزال به ، فلما سمع بمقدمه خرج مع صحبه إلى ألمرية ، وبقي بها إلى أن جاز البحر إلى المغرب قدمنا ، واستولى أبو عبد الله على أندرش وغيرها من المحلات والحصون القريبة منها^(٢) ، ورتب بها حاميات من المسلمين للدفاع عنها (شعبان ٨٩٥ هـ) .

واستمرت هذه المعارك المحلية مدى حين سجلاً بين المسلمين والنصارى ، فاسترد النصارى حصن أندرش لأسابيع قليلة من فقده ، وغادره الفرسان المسلمون إذ كانوا قلة لم تستطع للعدو دفعاً . وفي شهر رمضان سنة ٨٩٥ هـ (أغسطس ١٤٩٠) خرج أبو عبد الله في قواته إلى قرية همدان القريبة^(٣) ، فافتتحها واخترق المسلمون أبراجها الكثيفة ، وكانوا يخشون أن تمتنع عليهم لخصائنها ، واغتنموا منها مقادير وفيرة من الدخائر والأطعمة ، وأسروا من حاميتها نحو مائتين ، وعاد المسلمون إلى غرناطة فرحين ظافرين ، وغمرت الحاضرة المسلمة موجة من البشر والتفاؤل وفي أواخر رمضان خرج أبو عبد الله في قواته يريد افتتاح ثغر المنكب ، وإعادة الصلة بين الأندلس وشواطئ المغرب ، وهي صلة يعلق عليها المسلمون أهمية خاصة ، ويعتبرونها من أبواب الغوث والإنقاذ ، واستولى أبو عبد الله في طريقه على حصن شلوبانية^(٤) الواقع شرقي المنكب بعد قتال عنيف ، وعلم النصارى بمحاولة

(١) تقع أندرش Andarax جنوب شرق غرناطة على مقربة من البحر الأبيض المتوسط .

(٢) أخبار العصر ص ٣٦ و ٣٧ .

(٣) تقع قرية همدان Alhendin ، جنوب غربي غرناطة على قيد بضعة كيلومترات منها . وتراجع مواقع هذه الأماكن جميعاً في خريطة مملكة غرناطة المفصلة التي أثبتت في أول الكتاب .

(٤) وبالإسبانية Salobrena ، وقد سبق التعريف بها .

أبى عبد الله ، فهرعت حاميات بلش ومالقة إلى المنكب لإنجادهما . ورأى أبو عبد الله أنه لا يستطيع مهاجمتها ، وترامت إليه الأنباء بأن ملك قشتالة قد عاد بجنده إلى مرج غرناطة يعيث فيه فساداً وتخريباً ، فارتد أدراجيه . وكان فرناندو قد هاله ما حدث من الاضطراب والتصدع في المناطق المفتوحة ، فاعتزم السير من قرطبة بجيشه إلى تلك الأنحاء . والواقع أن بوادر الانتفاض والثورة كانت قد اشتدت في وادي آش وما حولها من الضياع والقرى ، وأخذ ظفر المسلمين في تلك المعارك المحلية يذكي عزم الثوار ويشجعهم ؛ ونحشى النصارى حواقب هذه الحركة ، فضاءعنوا قوى الحاميات في تلك الأنحاء ، واحتالوا على أهل وادي آش فأخرجوا معظمهم من المدينة إلى السهول المجاورة^(١) . واستجاب أبو عبد الله إلى نداء أهل وادي آش وعاونهم بالرجال والدواب على نقل أمتعتهم وأموالهم ، وعلى الرحيل بالأهل والولد إلى غرناطة ، ونقل من تلك القرى والضياع مقادير وافرة من الحبوب والأطعمة وغيرها . وما كادت جموع المسلمين ترتد راجعة إلى غرناطة ، حتى ظهر فرناندو بجيشه أمام وادي آش ، ورأى أن يأخذ الأمر باللين والرفق ، فأذاع الأمان لمن عاد إلى وطنه ، وأذن لمن شاء بالرحيل ، وغادر المسلمون وادي آش وأعمالها . وحدث مثل ذلك في ألمرية وبسطة ، فترك المسلمون بيوتهم وأوطانهم حاملين ما استطاعوا من أمتعتهم وأموالهم ، وسارت منهم جموع غفيرة إلى غرناطة ، وجازت جموع أخرى البحر إلى المغرب ، وأقفر تلك الأنحاء من معظم سكانها المسلمين ، وبعث إليها ملك قشتالة بجموع من النصارى لتعيرها ، وانتهاز أبو عبد الله فرصة هذا الاضطراب ، فاستولى على حصن أندَرش للمرة الثانية ، واستولى على عدد آخر من الحصون الهامة^(٢) .

وهنا أيقن ملك قشتالة أنه لا بد لاستتباب الأمور في المناطق الإسلامية المفتوحة ، من الاستيلاء على غرناطة ، التي مازالت تثير بملها وصلابتها روح الثورة في تلك الأوطان المغلوبة على أمرها ، فقضى الشتاء كله (سنة ١٤٩٠) في الاستعداد والأهبة . وفي أوائل سنة ١٤٩١ خرج فرناندو في قواته معزماً أن يقاتل الحاضرة الإسلامية حتى ترغم على التسليم . ويقدر بعض المؤرخين هذا

(١) Lafuente Aicantara : ibid ; V. III. p. 53

(٢) أخبار مصر ص ٣٨ - ٤٨ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦١٤ . وراجع أيضاً : Prescott
ibid ; p. 290 & 291 ، ويوجد فرق يسير في التفاصيل بين الروايتين الإسلامية والنصرانية .

الجيش الذى أعد لافتتاح غرناطة بخمسين ألف مقاتل من الفرسان والمشاة ، ويقدره البعض الآخر بثمانين ألفاً^(١) ، وزود فرناندو جيشه بالمدافع والعدد الضخمة ، والنخائر والأقوات الوفيرة . وأشرف ملك قشتالة بجيشه على فحص غرناطة La Vega الواقع جنوب غربى الحاضرة الإسلامية ، فى اليوم الثالث والعشرين من ابريل سنة ١٤٩١ م (١٢ جمادى الثانية سنة ٨٩٦ هـ) وعسكر على ضفاف نهر شتيل ، على قيد فرسخين من غرناطة ، فى ظاهر قرية تسمى «عتقة» . وأرسل فى الحال بعض جنده إلى حقول البشرات القريبة التى تمتد غرناطة بالمون فأتلفوا زروعها ، وهدموا قراها ، وأمعنوا فى أهلها قتلا وأسرأ ، وحولوا المرج الأنخضر إلى بسيط من القفر الموحش ، وقطعوا بذلك عن غرناطة مورداً من أهم مواردها^(٢) .

وضرب فرناندو حول الحاضرة الإسلامية الحصار الصارم ، وصمم على متابعته حتى تفتح أو تستسلم ، وقرر تأكيداً لهذا العزم أن ينشئ بجيشه فى المكان الذى عسكر فيه ، مدينة مسورة تقيه برد الشتاء إذا ما حل ، وتم بناء هذه المدينة الجديدة فى ثلاثة أشهر ، وأسماها الملكة إيسابيلا (سانتا فيه) Santa Fé وبالعربية (شنتى) أو الإيمان المقدس ، وذلك تنوياً بالمغزى الدينى لهذه الحرب الصليبية ، وما زالت هذه المدينة التاريخية تقوم حتى اليوم ، فى المكان الذى أنشئت فيه على قيد مسافة قريبة من جنوب غربى غرناطة . ويصفها المؤرخ الإسبانى بأنها « المدينة الإسبانية الوحيدة التى لم تطأها قط قدم مسلم »^(٣) .

وهكذا بدأ الفصل الأخير فى الصراع بين النصرانية والإسلام فى اسبانيا ، ولم يك ثمة شك فى نتيجة هذا الصراع ، الذى أعدت له اسبانيا النصرانية عدتها الحاصمة ، ومهدت له جميع الوسائل والسبل . بلد إسلامى وحيد هو البقية الباقية من دولة عظيمة تالدة ، يحيط به العدو كالموج الزاخر من كل ناحية ، مزوداً بالعدد والمون الموفرة ، وقد قطعت كل موارده وصلاته مع الخارج . كان هذا موقف غرناطة آخر الحواضر الإسلامية بالأندلس فى صيف سنة ١٤٩١ م . على

(١) Prescott : ibid ; p. 291

(٢) أخبار مصر ص ٤٤ و Prescott : ibid ; p. 294

(٣) Prescott : ibid ; p. 295

أن غرناطة لم تكن مع ذلك غنيا سهلا ، فقد كانت منيعة بموقعها وظروفها ، تحميها من الشرق آكام جبل شبلير (سيرا نقادا) الشامخة ، وتحميها من الجنوب أعني من الجانب المواجه للمعسكر النصراني ، أسوار وأبراج في منتهى الكثافة والمناعة . وكانت غرناطة تموج يومئذ بالوافدين إليها من مختلف القواعد الإسلامية الذاهبة ، وتضم بين أسوارها من السكان أكثر من أربعمئة ألف نفس ، ومع أن هذا العدد الضخم من الأنفس كان عبئا ثقيلا على مواردها المحدودة ، فقد كان من بينهم على الأقل زهاء عشرين ألفاً من الصفوة المختارة من الفروسة الأندلسية ، التي ألقت ملاذها الأخير في العاصمة المحصورة . ومن جهة أخرى فقد كانت الحاضرة الإسلامية منذ بعيد تلمح شبح الخطر الداهم يتربص بها دائماً ، وكانت تعيش في أهبة دائمة لمواجهة ، وتجمع ما استطاعت من الأقوات والمؤن . فلما دهمها الحصار كانت على أهبة تامة للدفاع طويل الأمد .

كانت غرناطة تستشعر قدرها المحتوم ، ولكنها لم ترد أن تستسلم إلى هذا القدر القاهر ، قبل أن تستنفذ في اجتنابه كل وسيلة بشرية ، ومن ثم كان دفاعها من أجد ما عُرف في تاريخ المدن المحصورة والقواعد الذاهبة ، ولم يكن هذا الدفاع قاصراً على تحمل ويلات الحصار مدى أشهر ، بل كان يتعداه إلى ضروب رائعة من الإقدام والبراعة ، فقد خرج المسلمون خلال الحصار ، لقتال العدو المحاصر مراراً عديدة ، بهاجمونه ويشخنون في محلاته ، ويفسدون عليه خططه وتدابره . وتشير الرواية الإسلامية كما تشير الرواية النصرانية إلى هذه المعارك الأخيرة التي وقعت في بسائط غرناطة بين المسلمين والنصارى^(١) . وتنوّه الرواية النصرانية بما كان يبدیه الفرسان المسلمون من الشجاعة والإقدام والبراعة ، أولئك الأنجاد البواسل هم البقية الباقية من الفروسة الأندلسية ، التي لبثت قروناً زهرة الفروسية في العصور الوسطى . وكان روح الفروسة المسلمة في تلك الآونة العصبية فارس رفيع المنبت والحلال ، وافر العزم والبراعة ، هو موسى بن أبي الغسان^(٢) وهو سليل إحدى

(١) أخبار مصر ص ٤٥ ؛ وكذلك Irving : *ibid* ; p. 293 & foll .

(٢) لم تذكر في المصادر العربية التي بين أيدينا على ذكر لموسى أو أعماله ؛ ومرجعنا في ذلك هو المؤرخ الإسباني كوندى (Condé : *ibid* ; V. III. p. 254) ، ويقول كوندى إنه نقل روايته عن مصادر عربية ؛ ولكنه كما دلت لم يذكر لنا هذه المصادر . وأشار الوزير محمد بن عبد الوهاب الغساني في رحلته إلى من يدعى « موسى أغنى السلطان حسن المتغلب عليه بغرناطة » (رحلة الوزير =

الأسر العريقة التي تتصل بيت الملك ، وأحد هذه الأصول العربية القديمة التي عرفت برائع فروستها ، وعميق بغضها للنصارى ، والتي كانت ترى الموت خيراً ألف مرة من أن يصبح الوطن العزيز مهاداً للكفر . ولم يكن بين أنجاد غرناطة يومئذ من هو أبرع من موسى في الطعان والفروسية ، وكان مذتبواً أبو عبد الله محمد عرش غرناطة ، ينقم منه استكاثته ونخضوعه لملك النصارى ، ويعمل بكل ما وسع لإذكاء روح الحماسة والجهاد ، وتنظيم الفروسة الغرناطية وتدريبها ، وقيادة السرايا إلى أراضي العدو ، ومفاجأة حصونه وحامياته في الأنحاء المجاورة . ولما بعث فرناندو الخامس إلى أبي عبد الله يطلب تسليم الحمراء ، كان موسى من أشد المعارضين في إجابة هذا المطلب المهين ، وكان لعزمه وحماسه أكبر أثر في تطور الموقف ، وحمل الأمير والشعب على اعتزام الجهاد ، والدفاع إلى آخر رمق ، وكان قوله المأثور يومئذ : « ليعلم ملك النصارى أن العربي قد ولد للجواد والرمح ، فإذا طمح إلى سيوفنا فليكسها ، وليكسها غالية . أما أنا فخير لي قبر تحت أنقاض غرناطة ، في المكان الذي أموت مدافعاً عنه ، من أفخم قصور نغمها بالخضوع لأعداء الدين » .

وهكذا دوت غرناطة بصيحة الحرب . ولما أشرف ملك قشتالة بمجموعه على مرج غرناطة ، كان موسى معبود الجند والشعب ، وكان زعيم الفروسة المسلمة يقودها كلما سنحت الفرصة إلى الحصون والقلاع النصرانية المجاورة فتشن فيها ، وكانت عوداته الظافرة تثير في الشعب أعما حماسة ، وكان فرناندو يرسل جنده لإتلاف المزارع والحقول المجاورة ، فكان موسى ينظم السرايا لإزعاج قواته ، وقطع مواصلاته وانزاع مؤته ، ولكن جيوش النصارى ما لبثت أن ملأت فحوص شنيل (La Vega) وطوقت غرناطة ، وشدت في حصارها ، واضطر المسلمون إلى الامتناع بمدينتهم صابرين جلودين . وقسم الدفاع عن المدينة بين

— المنشورة بعناية معهد فرانكو ص ١٣) . ولكن الرواية الإسلامية المعاصرة لا تذكر لنا أن السلطان أبا الحسن كان له أخ يسمى بهذا الاسم . وعلى أي حال فإن قصة موسى تشغل حيزاً كبيراً في الروايات الإسبانية التي كتبت عن فتح غرناطة . ومن أشهرها رواية القس أنطونيو أجاييدا Antonio Agapida ، المخطوطة المحفوظة بمكتبة الإسكوريال ، وهي التي اتخذها واشنطن إيرفينج أساساً لكتابه *Conquest of Granada* . وقد وردت خلال هذه الرواية كثير من الأقوال والروايات الشعبية المتعلقة بحوادث سقوط غرناطة . ونحن ننقل هنا أقوال الرواية القشتالية عن موسى وفروسيته لعل أنها محققة من الناحية التاريخية ، ولكن لأنها تقدم لنا صورة رائعة لدفاع المسلمين عن دينهم ووطنهم وآخر قواعدهم .

زعماء الجيش والأسر ، فتولى موسى قيادة الفرسان يعاونه نعيم بن رضوان ومحمد ابن زائدة . وتولى آل الثغرى حراسة الأسوار ، وتولى زعماء القصبية والحمراء حماية الحصون . ولم تكن المعارك الحريثة التي كان يخوضها المسلمون خارج الأسوار من آن لآخر ، سوى عنوان أخير لفروستهم وبسالتهم ولكنها لم تكن لتغنى شيئاً ، أمام ضغط العدو وتفوقه وتصميمه .

ذلك أن ملك قشتالة لم يترك وسيلة لإحكام الحصار وإرهاق المدينة المحصورة ، وإرغامها على التسليم ؛ فقطع جميع علاقتها مع الخارج سواء من البر أو البحر ، ورابطت السفن الإسبانية في مضيق جبل طارق ، وعلى مقربة من الثغور الجنوبية ، لتحول دون وصول أية أمداد من إفريقية . والواقع أنه لم يكن ثمة أمام الغرناطين أى أمل في الغوث والإنقاذ من هذه الناحية . ذلك أن معظم ثغور المغرب الشمالية والغربية ، ومنها سبتة وطنجة ، كانت قد سقطت في أيدي البرتغاليين ، وكانت دولة بني وطّاس التي قامت يومئذ في المغرب الأقصى ما تزال ضعيفة في بدايتها ، وكانت أبعد عن التفكير في القيام بأى عمل حربي خطير ضد النصاري . هذا إلى أن إمارات المغرب الواقعة في الضفة الأخرى ، كانت كلها في حالة ضعف وتفكك وكانت تخشى بأس قوة اسبانيا البحرية وتسعى إلى كسب صداقتها وحمايتها . وعلى ذلك فقد كان حصار غرناطة محكماً من البر والبحر ، ولم يبق أمامها سوى طريق البشرات الجنوبية من ناحية جبل شلير (سيراً نقاداً) تجلب منها بعض الأقوات والمؤن بصعوبة^(١) . ولبثت المدينة المحصورة تعاني مصائب الحصار صابرة جلدة ، حتى دخل الشتاء ، وغصت هذه الوهاد والشعب بالثلوج ، واشتد الجوع والبلاء بالمحصورين . عندئذ تقدم حاكم المدينة أبو القاسم عبد الملك ذات يوم إلى مجلس الحكم ، وقرر أن المؤن الباقية لا تكفي إلا لأمد قصير ، وأن اليأس قد دب إلى قلوب الجند والعمامة ، وأن الاستمرار في الدفاع عبث لا يجدي^(٢) . ولكن موسى ابن أبي الغسان اعترض كعادته بشدة ، وقرر أن الدفاع ممكن وواجب ، وبث بادرة جديدة من الحماسة في الرؤساء والقادة . فاستسلم السلطان أبو عبد الله محمد إلى تلك الروح ، وسلم إلى القادة أمر الدفاع ، وتولى موسى كعادته قيادة الفرسان ؛ وكان في مقدمة مساعديه فارسان من أنجاد العصر هما نعيم بن رضوان ومحمد بن زائدة .

(١) أخبار العصر ص ٤٦ .

(٢) Lafuente Alcantara : ibid ; V, III. p. 67

ثم أمر بفتح الأبواب ، وأعد فرسانه أمامها ليل نهار ، فإذا اقتربت سرية من النصارى دهمها الفرسان المسلمون ، وأثخنوا فيها ، ومزقت على هذا النحو صفوف من النصارى . وكان موسى يقول لفرسانه « لم يبق لنا سوى الأرض التي نقف عليها فإذا فقدناها فقدنا الإسم والوطن » .

وأخيراً رأى ملك قشتالة أن يزحف بقواته على أسوار المدينة ، فخرج المسلمون إلى لقائه وعلى رأسهم أبو عبد الله وموسى ، ونشبت بين الفريقين في فحص غرناطة عدة معارك دموية ، وكان الفرسان المسلمون وعلى رأسهم موسى روح المعركة وقوامها ، وكان أبو عبد الله يقود الحرس الملكى ، وكان القتال رائعاً خضب فيه كل شبر من الأرض بدماء الفريقين ، ولكن المشاة المسلمين كانوا ضعافاً لا يعتمد عليهم فزقوا بسرعة ، وتبعهم فرسان الحرس الملكى إلى أبواب المدينة وعلى رأسهم أبو عبد الله ، وعبثاً حاول موسى أن يجمع شمل الجند ، وأن يدعوهم للذود عن أوطانهم ونسائهم وكل ما هو مقدس لديهم ، وألقى نفسه وحيداً في الميدان مع فرسانه المخلصين ، وقد تضاعل عددهم وأثخن الباقون منهم جراحاً ، فاضطر عندئذ أن يرتد إلى المدينة وهو يرتجف غضباً ويأساً .

وهنا أوصد المسلمون أبواب المدينة وامتنعوا بأسوارها جزعين مكتئبين ، يرون شبح النهاية المحتومة ماثلاً ، فلم يبق سوى أيام أو أسابيع قلائل ، حتى يصبح سقوط الوطن العزيز في يد العدو أمراً واقعاً ، وحتى تصبح أنفسهم وأموالهم وحریاتهم ودينهم رهناً في يد القدر . وكان قد مضى على حصار غرناطة منذ بدأ الربيع حتى دخول الشتاء زهاء سبعة أشهر ، والمسلمون يغالبون أهوال الحصار ، وتتفاقم محنتهم شيئاً فشيئاً . فلما جاءت خاتمة المعارك مبددة لكل أمل في الإنقاذ ، واشتد فتك الجوع والحرمان والمرض ، ودب اليأس إلى قلوب الناس جميعاً ، لم يبق مناص من إعادة النظر في الموقف . فدعا أبو عبد الله مجلساً من كبار الجند والفقهاء والأعيان ، فاجتمعوا في بهو الحمراء الكبير (بهو قمارش) ، واليأس باد في وجوههم ، وشرح لهم أبو القاسم عبد الملك كيف وصل الخطب إلى ذروته ، فهلكك أنجاد الفرسان ، ونخبت قوى الدفاع ، ونضبت الأقوات والمؤن ، واشتد البلاء بالناس ، وغاض كل أمل في تلقى الأمداد من عدوة المغرب . وصرح « الجماعة » بأن الشعب لا يقوى بعد على تحمل ويلات الدفاع ، وأنه لم يبق سوى التسليم أو الموت

واتفق الجميع على وجوب التسليم^(١) . ولم يرتفع بالاعتراض سوى صوت واحد هو صوت موسى بن أبي الغسان ، فقد حاول كعادته أن يبيث بكلماته الملتهبة قيساً أخيراً من الحماسة ؛ وكان مما قال : « لم تنضب كل مواردنا بعد ، فما زال لنا مورد هائل للقوة كثيراً ما أدى المعجزات : ذلك هو يأسنا ، فلنعمل على إثارة الشعب ، ولنضع السلاح في يده ، ولنقاتل العدو حتى آخر نسمة ، وإنه لخير لي أن أحصى بين الذين ماتوا دفاعاً عن غرناطة ، من أن أحصى بين الذين شهدوا تسليمها » .

على أن كلماته لم تؤثر في هذه المرة ، فقد كان يخاطب رجلاً نصب الأمل في قلوبهم ، وغازت كل حماسة ، ووصلوا إلى حالة من اليأس لا تنجع فيها البطولة ، ولا يحسب للأبطال حساب ، بل يعلو نصيح الشيوخ ويغلب . وهكذا حدث فإن السلطان أبا عبد الله فوض الأمر للجماعة ، واتفق الجماعة من خاصة وعامة على مفاوضة ملك قشتالة في التسليم ، واختير الوزير القائد أبو القاسم عبد الملك للقيام بتلك المهمة ؛ وكان ذلك في أكتوبر سنة ١٤٩١ (أواخر سنة ٨٩٦ هـ) .

وهنا يسدل الستار على تلك المناظر الرائعة المؤثرة ، التي تقدمها الرواية لنا عن رسالة المسلمين في الدفاع عن مدينتهم ، وعلى ذلك الموقف الباهر الذي اتخذه أبو عبد الله مدى حين ، واتشح فيه بثوب البطل المدافع عن ملكه وأمه ودينه ، وتبرز لنا طائفة من الحقائق المؤلمة التي تصم أولئك الزعماء والقادة ، الذين جنحوا في النهاية إلى المساومة بحقوق أمتهم ، واستغلالها لمآربهم الخاصة .

يقول لنا صاحب أخبار العصر ، إن كثيراً من الناس زعموا أن أمير غرناطة ووزيره وقواده كان قد تقدم الكلام بينهم وبين ملك قشتالة سراً في تسليم غرناطة ، ولم يجرأوا على المجاهرة بعزمهم خشية انتقاص الشعب ، وأنهم لبثوا حيناً يلاطفون الشعب ويملقونه ، حتى ألفوا السبيل ممهداً للعمل برضاء الشعب وموافقته ، ويستشهد أصحاب هذه الرواية بما حدث من انقطاع المعارك بين المسلمين والنصارى حيناً قبل بدء المفاوضة في التسليم . وتزيد الرواية على ذلك بأن القواد المسلمين الذين اضطلحوا بهذه المفاوضة تلقوا تحفاً وأموالاً جزيلة من ملك قشتالة^(٢) .

وقد كنا نميل في البداية إلى الارتياب في صحة هذه الرواية ونأبى أن نعتقد

(١) أخبار العصر ص ٤٨ و ٤٩ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦١٥ .

(٢) أخبار العصر ص ٤٨ ، ٤٩ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦١٥ .

في صحة هذه الوقائع المشينة المنسوبة إلى زعماء غرناطة ، وهم الذين تشيد الرواية النصرانية ذاتها بحماستهم وشجاعتهم وبسالتهم ، في الذود عن وطنهم ومدينتهم . بيد أننا وقفنا بعد ذلك على ما يؤيد صحة الرواية الإسلامية ودقتها فيما تشير إليه من حقائق مؤئلة . ذلك أنه في نفس الوقت الذي اتجه فيه رأى الجماعة إلى المفاوضة في التسليم ، كانت تبذل في الخفاء مساع أخرى لتحقيق ما يمكن تحقيقه من الضمانات والمغانم الخاصة لأبي عبد الله وأفراد أسرته ووزرائه ، وكان الملك الكاثوليكيان يرميان إلى استخلاص غرناطة بأي ثمن غير الحرب ، ولا بدخرا وسعاً في بذل أية تضحية أو منحة لإغراء الزعماء والقادة لتذليل هذه المهمة . وهكذا كللت هذه المساعي الخفية بالنجاح ، وفي نفس الوقت الذي عقدت فيه معاهدة التسليم ، عقدت معاهدة سرية أخرى يمنح فيها أبو عبد الله وأفراد أسرته ووزراؤه منحاً خاصة بين ضياع وأموال نقدية وحقوق مالية وغيرها . وقد أقيمت هذه المعاهدة في طي الكتمان ، ولم يقف عليها سوى نفر من الخاصة . وهذا هو ما يشير إليه صاحب أخبار العصر .

وهناك فوق ذلك ما يدل على أن أبا عبد الله وكثيراً من الوزراء والقادة ، قد حاولوا منذ تجهمت الحوادث ، وبدأ حصار غرناطة ، التصرف في أملاكهم ، وباع أبو عبد الله عن يد وكيله القائد أبي القاسم بن سودة حديقته المعروفة بجنة عصام ، خارج غرناطة ، وذلك في جمادى الأولى سنة ٨٩٦ هـ (أوائل أبريل ١٤٩١ م) . وباع بعض وزراء وفرسان آخرين أملاكهم في نفس هذه المنطقة ، وفي نفس هذا التاريخ ، وباع الوزير عبد الله بن أبي الفرج قرية مملكتها في ضاحية المدينة ، في أواخر المحرم سنة ٨٩٧ هـ (أواخر نوفمبر ١٤٩١ م) (١) .

على أنه يبدو من التعسف والمبالغة مع تقرير هذه الحقائق المؤئلة ، أن نلجأ إلى اتهام أبي عبد الله ووزرائه بالخيانة المقصودة ، ففي غمار المحنة الطاحنة التي كان يعانيها الشعب والقادة ، وإزاء الظروف القاهرة التي لم يكن من حكمها محيص ، وفي اللحظة التي انقطع فيها كل أمل في الغوث والإنقاذ ، لم يك ثمة سبيل سوى الموت أو مفاوضة العدو الظافر . وقد اختار زعماء غرناطة هذا السبيل الأخير ، ولو أنهم

(١) راجع كتاب « وثائق عربية غرناطية » التي سبقت الإشارة إليه ، الوثيقة رقم ٦٥ (ص ١١١) ، والوثيقة رقم ٧٣ (ص ١٢١) . والوثائق رقم ٧٤ و ٧٥ و ٧٦ ، و ٧٧ (ص ١٢٢ - ١٢٥) .

اختاروا الموت تحت أنقاض مدينتهم دفاعاً عنها لأحرزوا لذكرهم الخلود وإعجاب التاريخ ، ولكن يبدو أنه لم يكن ثمة من موقف الشعب الغرناطي وبأسه وتبرمه بما أصابه من ويلات الحصار ، ما يشجع على المضي في دفاع لا يجدى . وتلقى الرواية القشتالية ذاتها ضوئاً على الظروف التي حملت أبا عبد الله ووزرائه على السعى إلى مفاوضة ملك قشتالة ، فيقول لنا مارمول الذي كتب روايته بعد ذلك بنحو سبعين عاماً ما يأتي :

« ولما رأى الزغبى (أبو عبد الله) أن مدينة غرناطة لا تستطيع دفاعاً ، ولا تأمل الغوث والإمداد ، ونزولا على رغبة السواد الأعظم من الشعب ، الذي لم يعد يصبر على هذا الأمر الفادح ، أرسل يطلب الهدنة من الملكين الكاثوليكين لكي يستطيع خلالها أن يتفاهم على شروط الصلح التي يمكن التسليم بمقتضاها »^(١) ، ويقول لافونتي ألقنطرة : « اشتدت وطأة الجوع على المحصورين ، وأصبحت الجماهير الصاخبة تجوب أنحاء المدينة تنذر الأغنياء بالويل ، وتبعث الرجفة إلى أبي عبد الله وأعوانه . وإزاء هذا التهديد دعا الأمير مجلساً من الزعماء والقادة ، وطلب إليهم البحث فيما يمكن عمله لتجنب الأخطار التي تهدد المدينة في الداخل والخارج ، وقال الشيوخ والفقهاء إنه لم يبق سبيل سوى التسليم أو الموت ، وأشار أهل الرأي بأن يقوم أبو القاسم بإذن من أبي عبد الله بمفاوضة النصارى »^(٢) . والحلاصة أنه لا مجال هنا للتحدث عن الخيانة في وصف ذلك الموقف المريب الذي وقفه أبو عبد الله ووزرائه ، وحاولوا أن يحققوا لأنفسهم فيه مغايم خاصة ؛ ولكننا نستطيع أن نتحدث عن الأثرة والخور والضعف الإنساني ، والتعلق بأسباب السلامة ، وانتهاز الفرص .

سار القائد أبو القاسم عبد الملك ، مندوب أبي عبد الله إلى معسكر الملكين الكاثوليكين ليؤدي مهمته الأثمة . وقد اضطلع هذا القائد ، فضلاً عن المفاوضة في تسليم غرناطة ، بالمفاوضة في سائر الاتفاقات اللاحقة التي عقدت بين أبي عبد الله ، وبين ملكي قشتالة ، ونرى اسمه مذكوراً في معظم الوثائق القشتالية الغرناطية التي أبرمت في هذه الفترة ، باعتباره دائماً مندوب أبي عبد الله المفوض .

Luis del Marmol: *ibid* ; Lib. I., Cap. XIX (١)

Lafuente Alcantara: *ibid* ; V. III, p. 97 (٢)

ولم نعر على تفاصيل تختص بشخصية هذا الوزير أو نشأته ، ولكن الذى يبدو لنا من مواقفه وتصرفاته أنه كان سياسياً عملياً يؤمن إيماناً قوياً بسياسة التسليم والخضوع للنصارى ، وانتهازيا يرى انتهاء الفرص بأى الأثمان (١) . واستقبل فرناندو مندوب ملك غرناطة بحفاوة . وندب لمفاوضته أمينه فرناندو دى ثافرا ، وقائده جونزالفو دى كُردبا ، وكان خبيراً بالشئون الإسلامية ، عارفاً باللغة العربية ، وجرت المفاوضات بين الفريقين بمنتهى التكم ، أحياناً فى غرناطة وأحياناً فى قرية جريلانة (٢) القريبة الواقعة جنوب شرق سانتافيه . ويبدو من الخطابات التى تبودلت بين أبى عبدالله وبين الملكين الكاثوليكين فى تلك الفترة الدقيقة من حياة الأمة الأندلسية ، أن حديث المفاوضات قد بدأ بين الفريقين فى أوائل سبتمبر سنة ١٤٩١ ، وأن القائد أبا القاسم بن عبد الملك كان يعاونه فى المفاوضات الوزير يوسف بن كُماشه ، وقد كان مثله من خاصة أبى عبد الله ومن أنصار سياسة التسليم ، وأن أبا عبد الله طلب فى خطاب أرسله إلى الملكين الكاثوليكين أن تكون المفاوضات سرية حتى تتحقق غايتها المرجوة ، وذلك خشية من انتفاض الشعب الغرناطى ونزعاته ؛ هذا إلى أن الوزيرين الغرناطين كتباً إلى الملكين الكاثوليكين خطاباً يؤكدان فيه إخلاصهما وولاءهما ، واستعدادهما لخدمتهما حتى تتحقق رغباتهما كاملة ، وفى ذلك كله ما يلقى ضوءاً واضحاً على الموقف المريب الذى وقفه أبو عبد الله ووزراؤه من مسألة التسليم (٣) .

واستمرت المفاوضات بضعة أسابيع ، وانتهى الفريقان إلى وضع معاهدة للتسليم وافق عليها الملكان ، ووقعت فى اليوم الخامس والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٤٩١ (٢١ محرم سنة ٨٩٧ هـ) .

وقد تضمنت هذه الوثيقة الشهيرة ، التى قررت مصير آخر القواعد الأندلسية ومصير الأمة الأندلسية ، شروطاً عديدة بلغت ستة وخمسين مادة . وقد لخصت

(١) يذكر اسم أبى القاسم عبد الملك فى الوثائق القشتالية عرقاً : أبو القاسم عبد المليح أو أبو القاسم المليخ ، وهو الأكثر شيوعاً : *Bulcacia Bulcasem el Muléh* . ومن الغريب أن هذا التحريف غالب فيما بعد على كتابة اسمه بالعربية ، فراه يكتب فى بعض الوثائق أبو القاسم المليخ . (٢) هى اليوم قرية *Churiana* ، وهى من ضواحي غرناطة .

(٣) تحفظ الصور القشتالية لهذه الخطابات ضمن مجموعة فرناندو دى ثافرا ببلدية غرناطة ، وقد نشرها العلامة *Garrido Atienza* فى مجموعة الوثائق الخاصة بتسليم غرناطة المسماة :

Las Capitulaciones para la Entrega de Granada (Granada 1910) p. 200-217

لنا الرواية الإسلامية معظم محتوياتها مع شيء من التحريف^(١) ولكننا ننقل الآن ولأول مرة ، إلى العربية ، محتويات هذه المعاهدة عن نصوصها القشتالية الرسمية في توسع وإفاضة . وإليك مضمون هذه المحتويات أن يتعهد ملك غرناطة ، والقادة ، والفقهاء والوزراء والعلماء ، وكافة للناس ، سواء في غرناطة والبيازين وأرباضهما ، بأن يسلموا طواعية واختياراً ، وذلك في ظرف ستين يوماً تبدأ من تاريخ هذه المعاهدة ، قلاع الحمراء والحصن ، وأبوابها وأبراجها ، وأبواب غرناطة والبيازين ، إلى الملكين الكاثوليكين ، أو إلى من يندبانه من رجالهما ، على ألا يسمح لنصراني أن يصعد إلى الأسوار القائمة بين القصبة والبيازين ، حتى لا يكشف أحوال المسلمين ، وأن يعاقب من يفعل ذلك . وضماناً لسلامة هذا التسليم ، يقدم الملك المذكور مولاي أبو عبد الله والقادة المذكورون ، إلى جلالتهما ، قبل تسلم الحمراء بيوم واحد ، خمسمائة شخص صحبة الوزير ابن كماشه ، من أبناء وإخوة زعماء غرناطة والبيازين ، ليكونوا رهائن في يديهما لمدة عشرة أيام ، تُصلح خلالها الحمراء . وفي نهاية هذا الأجل يرد أولئك الرهائن أحراراً . وأن يقبل جلالتهما ، ملك غرناطة وسائر القادة والزعماء ، وسكان غرناطة والبشرات وغيرهما من الأراضى ، رعايا وأتباعاً تحت حمايتهما ورعايتهما (١) .

وأنه حينما يرسل جلالتهما رجالهما لتسلم الحمراء المذكورة ، فعليهم أن يدخلوا من باب العشار ومن باب نجدة ، ومن طريق الحقول الخارجية ، وألا يسبروا إليها من داخل المدينة ، حينما يأتون لتسلمها وقت التسليم (٢) . وأنه متى تم تسليم الحمراء والحصن ، يرد إلى الملك المذكور مولاي أبي عبد الله ولده المأخوذ رهينة لديهما ، وكذلك يرد سائر الرهائن المسلمين الذين معه ، وسائر حشمه الذين لم يعتنقوا النصرانية (٣) . ويتعهد جلالتهما ، وخلفاؤهما إلى الأبد ، بأن يترك الملك المذكور أبو عبد الله والقادة ، والوزراء ، والعلماء ، والفقهاء ، والفرسان ، وسائر الشعب ، تحت حكم شريعهم ، وألا يؤمروا بترك شيء من مساجدهم وصوامعهم ، وأن تترك لهذه المساجد مواردها كما هي ، وأن يقضى بينهم وفق شريعهم وعلى يد قضائهم ، وأن يحتفظوا بتقاليدهم وعوائدهم (٤) .

(١) أخبار العصر ص ٤٨ و ٥٠ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٦١٥ و ٦١٦ .

وألا يؤخذ منهم خيلهم أو سلاحهم الآن أو فيما بعد ، سوى المدافع الكبيرة والصغيرة فإنها تسلم (٥) .

وأنه يحق لسائر سكان غرناطة والبيازين وغيرهما ، الذين يريدون العبور إلى المغرب ، أن يبيعوا أموالهم المنقولة لمن شاءوا ، وأنه يحق للملكين شراءها بمالها الخاص (٦) . وأنه يحق للسكان المذكورين أن يعبروا إلى المغرب ، أو يذهبوا أحراراً إلى أية ناحية أخرى ، حاملين أمتعتهم وسلعهم ، وحليهم من الذهب والفضة وغيرها . ويلتزم المملكان بأن يجهزا في بحر ستين يوماً من تاريخه ، عشر سفن في موانئهما يعبر فيها الذين يريدون الذهاب إلى المغرب . وأن يقدموا خلال الأعوام الثلاثة التالية السفن ، لمن شاء العبور ، وتبقى السفن خلال هذه المدة تحت طلب الراغبين فيه ، ولا يقتضى منهم خلال هذه المدة أى أجر أو مغرم ، وأنه يحق العبور لمن يشاء بعد ذلك ، نظير دفع مبلغ « دويل » واحد عن كل شخص ، وأنه يحق لمن لم يتمكن من بيع أملاكه ، أن يوكل لإدارتها ، وأن يقتضى ريعها حيثما كان (٧) . وألا يرغم أحد من المسلمين أو أعقابهم ، الآن أو فيما بعد ، على تقلد شارة خاصة بهم (٨) .

وأن ينزل المملكان ، للملك أبى عبد الله المذكور ، ولسكان غرناطة والبيازين وأرباضهما ، لمدة ثلاث سنوات تبدأ من تاريخه ، عن سائر الحقوق التى يجب عليهم أدائها عن دورهم ومواشيهم (٩) .

وأنه يجب على الملك أبى عبد الله ، وسكان غرناطة والبيازين وأرباضهما والبشرات وأراضيهما ، أن يسلموا وقت تسليم المدينة طواعية ودون أية فدية ، سائر الأسرى النصارى الذين تحت أيديهم (١٠) .

وأنه لا يسمح لنصرانى ، أن يدخل مكاناً لعبادة المسلمين دون ترخيص ، ويعاقب من يفعل ذلك (١٢) .

وألا يولى على المسلمين مباشر يهودى ، أو يمنح أية سلطة أو ولاية عليهم (١٣) . وأن يعامل الملك أبو عبد الله المذكور ، وسائر السكان المسلمين ، برفق وكرامة ، وأن يحتفظوا بعوائدهم وتقاليدهم ، وأن يؤدى للفقهاء حقوقهم المأثورة وفقاً للقواعد المرعية (١٤) .

وأنه إذا قام نزاع بين المسلمين ، فصل فيه وفقاً لأحكام شريعتهم ، وتولاه قضائهم (١٥) .

وَأَلَّا يَكْلَفُوا بِإِيوَاءِ ضَيْفٍ أَوْ تَوَيْخُدٍ مِنْهُمْ ثِيَابٍ أَوْ دَوَاجِنَ أَوْ أَطْعَمَةً أَوْ مَاشِيَةً أَوْ غَيْرَهَا دُونَ إِرَادَتِهِمْ (١٦) .

وَأَنَّهُ إِذَا دَخَلَ نَصْرَانِي مَنَزَلَ مُسْلِمٍ قَهْرًا عَنْهُ ، عَوَّقَ عَلَى فَعْلِهِ (١٧) .
وَأَنَّهُ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِشُؤْنِ الْمِيرَاثِ ، يَحْتَفِظُ الْمُسْلِمُونَ بِنَظْمِهِمْ ، وَيَحْتَكُمُونَ إِلَى فَقَهَائِهِمْ وَفَقًّا لِسُنَنِ الْمُسْلِمِينَ (١٨) .

وَأَنَّهُ يَحِقُّ لِسَائِرِ سُكَّانِ غَرْنَاطَةِ وَالْبِشْرَاتِ وَغَيْرِهِمَا الدَّاخِلِينَ فِي هَذَا الْعَهْدِ ، الَّذِينَ يَعلنُونَ الْوَلَاءَ بِجَلَالَتِهِمَا ، فِي ظَرْفِ ثَلَاثِينَ يَوْمًا مِنَ التَّسْلِيمِ ، أَنْ يَتَمَتَّعُوا بِالْإِعْفَاءَاتِ الْمَمْنُوحَةِ ، مَدَى السَّنَوَاتِ الثَّلَاثِ (١٩) .

وَأَنْ يَبْقَى دَخْلُ الْجَوَامِعِ وَالْهَيْئَاتِ الدِّينِيَةِ أَوْ أَيْةِ أَشْيَاءٍ أُخْرَى مَرْصُودَةً عَلَى الْخَيْرِ ، وَكَذَا دَخْلُ الْمَدَارِسِ ، مَتْرُوكًا لِنَظَرِ الْفُقَهَاءِ ، وَأَلَّا يَتَدَخَّلَ جَلَالَتُهُمَا بِأَيِّ صُورَةٍ ، فِي شَأْنِ هَذِهِ الصَّدَقَاتِ أَوْ بِأَمْرَانِ بِأَخْذِهَا فِي أَيِّ وَقْتٍ (٢٠) .

وَأَنَّهُ لَا يُؤْخَذُ أَيُّ مُسْلِمٍ بِذَنْبِ ارْتِكَابِهِ شَخْصٍ آخَرَ ، فَلَا يُؤْخَذُ وَالِدٌ بِذَنْبِ وَلَدِهِ أَوْ وَلَدٌ بِذَنْبِ وَالِدِهِ ، أَوْ أَخٌ بِذَنْبِ أَخٍ ، أَوْ وَلَدٌ عَنْهُمُ بِذَنْبِ وَلَدِهِمْ ، وَلَا يَعاقَبُ إِلَّا مَنْ ارْتَكَبَ الْجَرَمَ (٢١) .

وَأَنَّهُ إِذَا كَانَ مُسْلِمٌ أُسِيرًا ، وَفُرِيَ إِلَى مَدِينَةِ غَرْنَاطَةِ أَوِ الْبِيَازِينَ أَوْ أَرِبَاضِهِمَا أَوْ غَيْرِهِمَا ، فَلَإِنَّهُ يُعْتَبَرُ حُرًّا ، وَلَا يُسْمَحُ لِأَحَدٍ بِمُطَارَدَتِهِ إِلَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْعَبِيدِ أَوْ مِنَ الْجَزَائِرِ (٢٤) .

وَأَلَّا يَدْفَعَ الْمُسْلِمُونَ مِنَ الضَّرَائِبِ أَكْثَرُ مَا كَانُوا يَدْفَعُونَ لِلْمُلُوكِ الْمُسْلِمِينَ (٢٥)
وَأَنَّهُ يَحِقُّ لِسُكَّانِ غَرْنَاطَةِ وَالْبِيَازِينَ وَالْبِشْرَاتِ وَغَيْرِهِمَا ، مِمَّنْ عَبَرُوا إِلَى الْمَغْرِبِ ، أَنْ يَعُودُوا خِلَالَ الْأَعْوَامِ الثَّلَاثَةِ التَّالِيَةِ ، وَأَنْ يَتَمَتَّعُوا بِكُلِّ مَا يَحْتَوِيهِ هَذَا الْإِتْفَاقُ (٢٦) .

كَمَا يَحِقُّ لِمَنْ عَبَرَ مِنْهُمْ إِلَى الْمَغْرِبِ ، وَلَمْ تَرْضَهِ الْإِقَامَةُ هُنَاكَ ، أَنْ يَعُودَ خِلَالَ الْأَعْوَامِ الثَّلَاثَةِ ، وَأَنْ يَتَمَتَّعَ بِكُلِّ مَا فِي هَذَا الْإِتْفَاقِ (٢٨) .

وَأَنَّهُ يَحِقُّ لِتِجَارَةِ غَرْنَاطَةِ وَأَرِبَاضِهَا وَالْبِشْرَاتِ وَسَائِرِ أَرَاضِيهَا ، أَنْ يَتَعَامَلُوا فِي سِلْعِهِمْ آمِنِينَ ، عَابِرِينَ إِلَى الْمَغْرِبِ وَعَائِدِينَ ، كَمَا يَحِقُّ لَهُمْ دَخُولُ سَائِرِ النُّوَاحِي التَّابِعَةِ لِجَلَالَتِهِمَا ، وَأَلَّا يَدْفَعُوا مِنَ الضَّرَائِبِ سِوَى الَّتِي يَدْفَعُهَا النَّصَارَى (٢٩) .

وَأَنَّهُ إِذَا كَانَ أَحَدٌ مِنَ النَّصَارَى — ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى — اعْتَنَقَ الْإِسْلَامَ ، فَلَا يَحِقُّ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَهْدِدَهُ أَوْ يُؤْذِيَهُ بِأَيِّ صُورَةٍ ، وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ يَعاقَبُ (٣٠) .

وأنه إذا كان مسلم قد تزوج بنصرانية واعتنقت الإسلام ، فلا ترغم على العودة إلى النصرانية ، بل تسأل في ذلك أمام المسلمين والنصارى ، وألا يرغم أولاد « الروميات » ذكوراً أو إناثاً ، على اعتناق النصرانية (٣١) .
وأنه لا يرغم مسلم أو مسلمة قط على اعتناق النصرانية (٣٢) .

وأنه إذا شئت مسلمة متزوجة أو أرملة أو بكر اعتناق النصرانية بدافع الحب ، فلا يقبل ذلك منها ، حتى تستل وتوعظ وفقاً للقانون ، وإذا كانت قد استولت بخلسة على حلى أو غيرها من دار أهلها أو أى شيء آخر ، فلها ترد لصاحبها ، وتتخذ الإجراءات ضد المستول (٣٣) .

وألا يطلب المملكان ، أو يسمحا بأن يُطلب إلى الملك المذكور مولاي أبي عبد الله ، أو خدمه أو أحد من أهل غرناطة أو البيازين وأرباضهما والبشرات وغيرهما ، من الداخلة في هذا العهد ، بأن يردوا ما أخذوه أيام الحرب من النصارى أو المدجنين ، من الخيل أو الماشية أو الثياب أو الفضة أو الذهب أو غيرها ، أو من الأشياء الموروثة ، ولا يحق لأحد يعلم بشيء من ذلك أن يطلب به (٣٤) .
وألا يُطلب إلى أى مسلم ، يكون قد هدد أو جرح أو قتل أسيراً أو أسيرة نصرانية ، ليس أو ليست في حوزته ، رده أو ردها الآن أو فيما بعد (٣٥) .

وألا يدفع عن الأملاك والأراضي السلطانية ، بعد انتهاء السنوات الثلاث الحرة ، من الضرائب إلا وفقاً لقيمتها ، وعلى مثل الأراضي العادية (٣٦) .
وأن يطبق ذلك أيضاً على أملاك الفرسان والقادة المسلمين ، فلا يدفع عنها أكثر مما يدفع عن الأملاك العادية (٣٧) .

وأن يتمتع اليهود من أهل غرناطة والبيازين وأرباضهما ، والأراضي التابعة لها ، بما في هذا العهد من الامتيازات ، وأن يسمح لهم بالعبور إلى المغرب خلال ثلاثة أشهر ، تبدأ من يوم ١٨ ديسمبر (٣٨) .

وأن يكون الحكام والقواد والقضاة ، الذين يعينون لغرناطة والبيازين والأراضي التابعة لهما ، ممن يعاملون الناس بالكرامة والحسنى ، ويحافظون على الامتيازات الممنوحة ، فإذا أخل أحدهم بالواجب ، عوقب وأحل مكانه من يتصرف بالحق (٣٩) .

وأنه لا يحق للملكين أو لأعقابهما إلى الأبد ، أن يسألوا الملك المذكور أبي عبد الله ، أو أحداً من المسلمين المذكورين بأية صورة ، عن أى شيء يكونوا

قد عملوه ، حتى حلول يوم تسليم الحمراء المذكورة ، وهي فترة الستين يوماً المنصوص عليها (٤٠) .

وأنه لا يُولى عليهم أحد من الفرسان أو القادة أو الخدم ، الذين كانوا تابعين لملك وادى آش^(١) (٤١) .

وأنه إذا وقع نزاع بين نصراني أو نصرانية ومسلم أو مسلمة ، فإنه ينظر أمام قاضي نصراني وآخر مسلم ، حتى لا يتظلم أحد مما يقضى به (٤٢) .

وأن يقوم الملكان بالإفراج عن الأسرى المسلمين ذكوراً وإناثاً ، من أهل غرناطة والبيازين وأرباضهما وأراضيهما ، إفراجاً حراً دون أية نفقة من فدية أو غيرها ، وأن يكون الإفراج عن كان من هؤلاء الأسرى بالأندلس في ظرف خمسة الأشهر التالية ، وأما الأسرى الذين بقشتالة فيفرج عنهم خلال الثمانية أشهر التالية . وبعد يومين من تسليم الأسرى النصراني لجلالتيهما يفرج عن مائتين من الأسرى المسلمين ، منهم مائة من الرهائن ومائة أخرى (٤٤) .

وأنه إذا دخلت أية محلة من نواحي البشرات في طاعة جلالتيهما ، فإنها يجب أن تسلم إليهما كل الأسرى النصراني ذكوراً وإناثاً ، في ظرف خمسة عشر يوماً من تاريخ الانضمام ، وذلك دون أية نفقة (٤٦) .

وأن تعطى الضمانات للسفن المغربية الراحية الآن في مملكة غرناطة ، لكي تسافر في أمان ، على ألا تكون حاملة أى أسير نصراني ، وألا يحدث لها أحد ضرراً أو إتلافاً ، وألا يؤخذ منها شيء ، ولا ضمان لمن تحمل منها أسرى من النصراني ، ويحق لجلالتيهما إرسال من يقوم بتفتيشها لذلك الغرض (٤٧) .

وألا يُدعى أو يؤخذ أحد من المسلمين للحرب رغم إرادته ، وإذا شاء جلالتهما استدعاء الفرسان ، الذين لهم خيول وسلاح ، للعمل في نواحي الأندلس فيجب أن يدفع لهم الأجر من يوم الرحيل حتى يوم العودة (٤٨) .

وأنه يجب على كل من عليه دين أو تعهد ، أن يؤديه لصاحب الحق ؛ ولا يحق لهم التحرر من هذه الحقوق (٥٢) .

وأن يكون المأمورون القضائيون الذين يعينون لحاكم المسلمين ، مسلمين ، الآن وإلى الأبد (٥٣) .

(١) المقصود هنا هو مولاي الزغل .

وأن يكون المتولون لوظائف الحسبة الخاصة بالمسلمين ، أيضاً مسلمين ،
وآلا يتولاها نصراني الآن وفي أى وقت (٥٤) .

وأن يقوم الملكان في اليوم الذى تسلم إليهما فيه الحمراء والحصن والأبواب
كما تقدم ، بإصدار مراسيم الإمتيازات ، للملك أبى عبد الله وللمدينة المذكورة ،
ممهورة بتوقيعهما ، ومختومة بخاتمهما الرصاص ذى الأهداب الحريرية ، وأن
يصدق عليهما ولدهما الأمير ، والكردينال المحترم دسينا ، ورؤساء الهيئات الدينية ،
والعظماء والدوقات والمركيزون والكونتات والروثساء ، حتى تكون ثابتة وصحيحة
للآن ، وفي كل وقت (٥٦ ثافرا) (٤٣ سيمانقا) .

وقد ذيلت المعاهدة ، بنبذة خلاصتها ، أن ملكي قشتالة يوكدان ويضمنان
بدينهما وشرفهما الملكى ، القيام بكل ما يحتويه هذا العهد من النصوص ، ويوقعانه
باسميهما وبمهرانه بخاتميهما ، وعليها تاريخ تحريرها وهو يوم ٢٥ نوفمبر سنة ١٤٩١ (١)
ثم ذيلت بعد ذلك ، بتاريخ لاحق هو يوم ٣٠ ديسمبر سنة ١٤٩٢ ،
أعنى بعد تسليم غرناطة بعام ، بتوكيد جديد يأمر فيه الملكان ولدهما الأمير ،
وسائر عظماء المملكة بالمحافظة على محتويات هذا العهد ، وآلا يعمل ضده شئ ،
أو ينقص منه شئ ، الآن وإلى الأبد ، وأنهما يوكدان ويقسمان بدينهما وشرفهما
الملكى بأن يحافظا ، ويأمران بالمحافظة على كل ما يحتويه بندا بندا إلى الأبد ، وقد
ذيل هذا التوكيد بتوقيع الملكين ، وتوقيع ولدهما وجمع كبير من الأمراء والأجبار
والأشراف والعظماء (٢) .

* * *

وفي نفس اليوم الذى وقعت فيه معاهدة تسليم غرناطة ، وهو يوم ٢٥ نوفمبر

(١) رجعنا في ترجمة وتلخيص نصوص معاهدة التسليم إلى الوثيقتين الرسميتين اللتين تضمنتا
نصوص هذه المعاهدة ، وهما أولاً ، الوثيقة المحفوظة بدار المحفوظات العامة في سيمانقا **Archivo general de Simancas** ، وتحمل رقم **P.R. 11-207** ضمن مجموعة **Capitulaciones con Moros y Caballeros de Castilla** . وهى تملأ إحدى عشرة لوحة كبيرة ومحررة بالقشتالية القديمة ولدينا منها
صورة فتوغرافية . وثانياً ، الوثيقة المعروفة بوثيقة فرناندو دى ثافرا ، أمين الملكين الكاثوليكين
وتحفظ بمجموعة دى ثافرا ببلدية غرناطة ، وقد نشرت ضمن مجموعة وثائق تسليم غرناطة .

Las Capitulaciones para la Entrega de Granada, por Miguel Garrido Atienza
(Granada 1910) p. 269 - 295

(٢) راجع مجموعة وثائق تسليم غرناطة السالفة الذكر (ص ٢٨٩ و ٢٩٠) .

سنة ١٤٩١م ، وفي نفس المكان الذي وقعت فيه ، وهو المعسكر الملكي بمرج غرناطة ، أبرمت معاهدة أخرى أو ملحق مسمى للمعاهدة الأولى ، يتضمن الحقوق والامتيازات والمنح ، التي تعطى للسلطان أبي عبد الله ، ولأفراد أسرته وحاشيته ، وذلك متى نفذ تعهداته التي تضمنتها المعاهدة من تسليم غرناطة والحمراء ، وحصونها .

وتتلخص هذه الحقوق والامتيازات والمنح فيما يأتي :
أن يمنح الملكان الكاثوليكيان لأبي عبد الله ولأولاده وأحفاده وورثته إلى الأبد ، حق الملكية الأبدية ، فيما يملكانه من محلات وضياع في بلاد برجة ، ودلاية ومرشانة ، ولوشار ، وأندرش ، وأجيغر ، وأرجبة ، وبضعة بلاد أخرى مجاورة ، وكل ما ينحصر من الضرائب وحقوق الربيع ، وما بها من الدور والأماكن والقلاع والأبراج ، لتكون كلها له ولأولاده وأعقابهم وورثته بحق الملكية الأبدية ، يتمتع بكل ريعها وعشورها وحقوقها ، وأن يتولى القضاء في النواحي المذكورة باعتباره سيدها ، وباعتباره في الوقت نفسه تابعاً وخاضعاً لجلالتهما ، وله حق بيع الأعيان المذكورة ورهنها ، وأن يفعل بها ما يشاء ومتى شاء ، وأنه متى أراد بيعها ، فإنه يعرض ذلك أولاً على جلالتهما فإذا لم يريداهما ، فله أن يبيعها لمن شاء .

وأن يحتفظ جلالتهما بقلعة أدرة ، وسائر القلاع الواقعة على الشاطئ .
وأن يعطى جلالتهما إلى الملك المذكور مولاي أبي عبد الله ، هبة قدرها ثلاثون ألف جنيه قشتالي من الذهب (كاستيليانو) ، يبعثان بها إليه ، عقب تسليم الحمراء ، وقلاع غرناطة الأخرى التي يجب تسليمها ، وذلك في الموعد المحدد .
وأن يهب جلالتهما للملك المذكور ، كل الأراضي والرحى والحدائق ، والمزارع التي كان يملكها أيام أبيه السلطان أبي الحسن ، سواء في غرناطة أو في البشرات ، لتكون ملكاً له ولأولاده ولعقبه وورثته ، ملكية أبدية ، وله أن يبيعها أو يرهنها وأن يتصرف فيها كيفما شاء .

وأن يهب جلالتهما أيضاً ، إلى الملكات والدته وإخواته وزوجته ، وإلى زوجة أبي الحسن ، كل الحدائق والمزارع والأراضي والطواحين والحمامات ، التي يملكها في غرناطة والبشرات ، تكون ملكاً لهن ولأعقابهن إلى الأبد ، ولهن بيعها ورهنها والتمتع بها وفقاً لما تقدم .

وأن تكون سائر الأراضي الخاصة بالملك المذكور والملكات المذكورات ، وزوجة مولاي أبي الحسن ، معفاة من الضرائب والحقوق الآن وإلى الأبد .
وإذا طلب جلالتهما أو أعقابهما إلى ملك غرناطة أو حشمه أو خدمه رد ما أخذوه في أيامهم سواء من النصارى أو المسلمين من الأموال والأراضي .
وأنه إذا شاء الملك المذكور أبو عبد الله ، والملكات المذكورات ، وزوجة مولاي أبي الحسن وأولادهم وأحفادهم وأعقابهم ، وقوادهم وخدمهم وأهل دارهم ، وفرسانهم وغيرهم ، صغاراً وكباراً ، العبور إلى المغرب ، فإن جلالتهما يجهزان الآن أو في أى وقت سفينتين لعبور الأشخاص المذكورين ، متى شاءوا ، تحملهم وكل أمتعتهم وماشيئهم وسلاحهم ، وذلك دون أية أجر أو نفقة .
وأنه إذا لم يتمكن الملك المذكور وأولاده وأحفاده وأعقابهم ، والملكات المذكورات ، وزوجة مولاي أبي الحسن . والقواد والحشم والخدم ، وقت عبورهم إلى المغرب ، من بيع أملاكهم المشار إليها ، فإن لهم أن يوكلوا من شاءوا لقبض ريعها ، وإرساله حيث شاءوا دون أى قيد أو مغرم .
وأنه يحق للملك المذكور متى شاء ، أن يرسل من يرى ، من خدمه أو قاداته إلى المغرب بسلع أو غيرها من إراداته ، وذلك دون قيد أو مغرم .
وأنه يحق للملك المذكور ، متى خرج من غرناطة ، أن يسكن أو يقيم متى شاء ، في الأراضي التي أقطعت له ، وأن يخرج هو وخدمه وقواده وعلماؤه وقضاته وفرسانه ، الذين يريدون الخروج معه ، بخيلهم وماشيئهم متقلدين أسلحتهم ، وكذلك نساؤهم وخدمهم ، وألا يؤخذ منهم شيء سوى المدافع ، وألا يفرض عليهم الآن أو في أى وقت ، وضع علامة خاصة في ثيابهم أو بأية صورة ، وأن يتمتعوا بسائر الإمتيازات المقررة في عهد تسليم غرناطة .
وأنه في اليوم الذى يتم فيه تسليم الحمراء وحصونها ، يصدر جلالتهما المراسيم اللازمة بالمنح المذكورة ، موقعة ومختومة ، ومصدق عليها من ابنهما الأمير والكردينال وسائر العظماء (١) .

* * *

تلك هي الشروط التي وضعت لتسليم آخر القواعد الأندلسية ، وتلك هي

(١) تحفظ النسخة القشتالية لهذه المعاهدة السرية التي عقدت بين الملكين الكاثوليكيين وأبي عبد الله بدار المحفوظات العامة في سيمانكا Archivo general de Simancas وتحمل رقم P.R. Leg. II. Fol. 206 وقد حصلنا منها على صورة فتوغرافية .



الصفحة الأخيرة من معاهدة التسليم التي أصدرها الملكيان الكاثوليكيان لأبي عبد الله وأهل فرلطة ،
مؤرخة في ٢٥ نوفمبر سنة ١٤٩١ م (٢١ محرم ٨٩٧ هـ) ، وعليها توقيع فرناندو وإسabella ،
وتوقيع سكرتيرهما فرناندو دي تافرا ، وختم ملكة قشتالة . والأصل محفوظ بدار المخطوطات العامة
في سيبانقا ويحمل رقم P. R. 11. 207

الإمتيازات والمنح التي منحت لآخر ملوك الأندلس . فأما فيما يتعلق بغرناطة ومصاير الأمة المغلوبة ، فقد كانت هذه الشروط المسببة ، والتي اشتملت على سائر الضمانات المتعلقة بتأمين النفس والمال ، وسائر الحقوق المادية ، وصون الدين والشعائر ، والكرامة الشخصية ، أفضل ما يمكن الحصول عليه في مثل هذه المحنة ، لو أخلص العدو الظافر في عهوده . ولكن هذه العهود لم تكن في الواقع ، حسبما أيدت الحوادث فيما بعد ، سوى ستار الغدر والخيانة ، وقد نقضت هذه الشروط الخلابية كلها لأعوام قلائل من تسليم غرناطة ، ولم يتردد المؤرخ الغربي نفسه في أن يصفها « بأنها أفضل مادة لتقدير مدى الغدر الإسباني فيما تلا من العصور » (١) . وقد بذل فرناندو ما بذل من عهود و ضمانات و امتيازات لأهل غرناطة ، بعد ما لقيت جيوشه من الصعاب ، وما منيت به من الخسائر الفادحة ، أمام أسوار مالقة وبسطة ، ولأنه كان يعلم أن الحاضرة الأندلسية الأخيرة ، تموج بعشرات الألوف من المدافعين ، وأنه يقتضي لأخذها عنوة بذل جهود مضنية ، وتحمل تضحيات عظيمة ، وقد لجأ فرناندو ، إلى جانب إرهاب غرناطة بالحصار الصارم ، إلى البذل والرشوة لإغراء الزعماء والقادة ، وعلى رأسهم أبو عبد الله ، وذلك لكي يصل إلى تحقيق غايته المنشودة بطريق سلمية مأمونة ، وجاءت نصوص المعاهدة السرية مؤيدة لما أشارت إليه الرواية الإسلامية المعاصرة ، من ريب وشكوك تحيط بموقف أبي عبد الله ووزرائه وقادته .

وعاد أبو القاسم عبد الملك والوزير ابن كماشة يحملان شروط التسليم ، وصحبهما فرناندو دي ثافرا أمين ملك قشتالة ومبعوثه ، وأدخل سراً إلى قصر الحمراء ، وجمع أبو عبد الله الفقهاء وأكابر الجماعة في بهو الحمراء الكبير (بهو قمارش) ، وبعد مناقشات طويلة حاصفة ، تمت الموافقة على المعاهدة ، وحملها دي ثافرا ممهورة بتوقيع أبي عبد الله إلى معسكر ملك قشتالة .

وقد انتهت إلينا عن هذه الجلسة الحاسمة في تاريخ الأمة الأندلسية ، وعن موقف فارس غرناطة موسى بن أبي الغسان ، رواية قشتالية مؤثرة ، قد تصطبغ بلون الأسطورة ، ومع ذلك فإنها تنم عن روح الانتفاض والسخط ، التي كانت تضطرم بها بعض النفوس الأبية الكريمة التي كانت ترى الموت خيراً من التسليم لأعداء الوطن والدين .

تقول الرواية المذكورة ، إنه حينما اجتمع الزعماء في بهو الحمراء الكبير ، ليوقعوا عهد التسليم ، وليحكموا على دولتهم بالذهاب ، وعلى أمتهم بالفناء والمحو ، عندئذ لم يملك كثير منهم نفسه من البكاء والعويل . ولكن موسى لبث وحده صامتاً عابساً وقال : « أتركوا العويل للنساء والأطفال ، فنحن رجال لنا قلوب لم تخلق لإرسال الدمع ولكن لتقطر الدماء ، وإنى لأرى روح الشعب قد خبت حتى ليستحيل علينا أن ننقذ غرناطة ؛ ولكن ما زال ثمة بديل للنفوس النبيلة . ذلك هو موت مجيد ، فلنمت دفاعاً عن حرياتنا وانتقاماً لمصائب غرناطة ، وسوف تحتضن أمنا للغبراء أبناءها أحراراً من أغلال الفاتح وعسفه ؛ ولئن لم يظفر أحدنا بقبر يستر رفاته ، فإنه لن يعدم سماء تغطيه ، وحاشا الله أن يقال إن أشراف غرناطة خافوا أن يموتوا دفاعاً عنها » (١) .

ثم صمت موسى ، وساد المجلس سكون الموت ، وسرح أبو عبد الله البصر حوله ، فإذا اليأس مائل في تلك الوجوه التي أضناها الألم ، وإذا كل عزم قد غاض في تلك القلوب الكسيرة الدامية . عندئذ صاح « الله أكبر لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، ولا راد لقضاء الله . تالله لقد كتب عليّ أن أكون شقيماً ، وأن يذهب الملك على يدي » . وصاحت الجماعة على أثره « الله أكبر ولا راد لقضاء الله » ، وكرروا جميعاً أنها إرادة الله ولتكن ، وأنه لا مفر من قضائه ولا مهرب ، وأن شروط ملك النصارى أفضل ما يمكن الحصول عليه . فلما رأى موسى أن اعتراضه عبث لا يجدى وأن الجماعة قد أخذت فعلاً في توقيع صك التسليم ، نهض مغضباً وصاح : « لا تتخذوا أنفسكم ، ولا تظنوا أن النصارى سيوفون بعهدهم ، ولا تركنوا إلى شهامة ملكهم . إن الموت أقل ما نخشى ، فأمامنا نهب مدننا وتدميرها ، وتدنيس مساجدنا ، وتخريب بيوتنا ، وهتك نساتنا وبناتنا ، وأمامنا البحور الفاحش ، والتعصب الوحشي ، والسياط والأغلال ، وأمامنا السجون والأنطاع والمحارق . هذا ما سوف نعاني من مصائب وعسف ، وهذا ما سوف تراه على الأقل تلك النفوس الوضيعة ، التي تخشى الآن الموت الشريف . أما أنا فوالله لن أراه » . ثم غادر المجلس واخترق بهو الأسود (كورة السباع) عابساً حزيناً ، وجاز إلى أبهاء الحمراء الخارجية ، دون أن يرمق أحداً أو يفوه بكلمة ، ثم ذهب إلى داره وغطى نفسه بسلاحه ، واقتعد غارب جواده المحبوب ، واخترق

شوارع غرناطة ، حتى غادرها من باب البيرة ، ولم يره إنسان أو يسمع به بعد ذلك قط .

هذا ما تقوله الرواية القشتالية عن نهاية موسى بن أبي الغسان (١) . ولكن مؤرخاً اسبانياً قديماً هو القس أنطونيو أجاييدا يحاول أن يلتقي ضياء على مصيره ، فيقول إن سرية من الفرسان النصاري تبلغ نحو الخمسة عشر ، التقت في ذلك المساء بعينه ، على ضفة نهر « شنيل » بفارس مسلم قد دججه السلاح من رأسه إلى قدمه ، وكان مغلقاً خوذته شاهراً رمحاً ، وكان جواده غارقاً مثله في رداء من الصلب . فلما رأوه مقبلاً عليهم طلبوا إليه أن يقف وأن يعرف بنفسه ، فلم يجب الفارس المسلم ، ولكنه وثب إلى وسطهم وطعن أحدهم برمح وانزعه عن سرجه فألقاه إلى الأرض ، ثم انقض على الباقيين يشخن فيهم طعناً ، وكانت ضرباته ثائرة قاتلة ، وكأنه لم يشعر بما أثخنه من جراح ، ولم يرد إلا أن يقتل وأن يسيل الدم ، وكأنه إنما يقاتل للانتقام فقط ، وكأنما يتوق إلى أن يقتل دون أن يعيش لينعم بظفره . وهكذا لبث يبطش بالفرسان النصاري حتى أفنى معظمهم ، غير أنه أصيب في النهاية بجرح خطر ، ثم سقط جواده من تحته بطعنة أخرى ، فسقط إلى الأرض ، ولكنه ركم على ركبتيه واستل خنجره ، وأخذ يناضل عن نفسه . فلما رأى أن قواه قد نضبت ، ولم يرد أن يقع أسيراً في يد خصومه ، ارتد إلى ما ورائه بوثة أخيرة ، وألقى بنفسه إلى مياه النهر ، فابتلعتة افوره ، ودفعه سلاحه الثقيل إلى الأعماق .

يقول الراوية المذكور ، إن هذا الفارس المثلّم هو موسى بن أبي الغسان ، وإن بعض العرب المنتصرين في المعسكر الإسباني ، عرفوا جواده المقتول ، وهي رواية لا بأس بها ، غير أن الحقيقة لم تعرف قط (٢) .

- ٤ -

وما كادت أنباء الموافقة على عهد التسليم تزداع حتى عم الحزن ربوع غرناطة ، وتسربت في الوقت نفسه بعض أنباء غامضة عن المعاهدة السرية ، وعمّا حققه أبو عبد الله ووزراؤه لأنفسهم من المغنم الخاصة ، وسرى الهمس بين العامة ، واضطرم سواد الشعب يأساً ومغطاً على قادته ، ولا سيما أبي عبد الله الذي اعتبر

(١) هذه رواية كوندى فيما نقل من مصادر عربية غير معروفة Condé: ibid. V. III. p. 257

(٢) راجع هذه الرواية في : Irving: Conquest of Granada ; Ch. 97

مصدر كل مصائبه ومحنه ، وتعالى النداء بوجوب الدفاع عن المدينة حتى آخر نسمة . وحدثت حركة انتفاض ، خشى أبو عبد الله والقادة ، أن تقضى على خططهم وتدابيرهم ، ولكنها انهارت قبل أن تنتظم ، وأضحى كل يفكر في مصيره . واستقبل المسلمون عهود ملك قشتالة في تردد وتوجس ، والشك يساورهم في إخلاص أعدائهم ، وإزاء ذلك أعلن الملك الكاثوليكيان ، في يوم ٢٩ نوفمبر مع قسم رسمي بالله ، أن جميع المسلمين سيكون لهم مطلق الحرية في العمل في أراضيهم أو حيث شاءوا ، وأن يحتفظوا بشعائر دينهم ومساجدهم كما كانوا ، وأن يسمح لمن شاء منهم بالهجرة إلى المغرب . ولكن الإيمان والعهود لم تكن حسبا تقدم ، عند ملكي قشتالة ، سوى ذريعة الحياة والغدر ، ووسيلة لتحقيق المآرب بطريق الخديعة الشائنة . وقد كانت هذه أبرز صفات فرناندو الكاثوليكي ، فهو لم يتردد قط في أن يعمل لتحقيق غايته بأي الوسائل ، أو أن يقطع أى عهد أو يقدم أى تأكيد ، دون أن ينوى قط الوفاء بما تعهد .

ولكن الشعب الغرناطي استمر في وجومه وتوجسه ويأسه ، ولم تهدأ الخواطر المضطربة ، وكان أبو عبد الله والقادة يخشون تفاقم الأحوال ، وإفلات الأمر من أيديهم ، فاعزموا العمل على التعجيل بالتسليم ، حرصاً على سلامة المدينة وسلامة الزعماء ، وألا ينتظروا مرور السنين يوماً التي نصت عليها المعاهدة . وفي يوم ٢٠ ديسمبر أرسل أبو عبد الله وزيره يوسف بن كماشه إلى فرناندو مع خمسمائة من الرهائن من الوجوه والأعيان ، تنفيذاً لنص المعاهدة ، وليعرب له عن حسن نية مليكه واستعداده ، كما حمل إليه هدية تتألف من سيف ملوكي وجوادين عربيين مسرجين بعدد ثمينه . واتفق مع ملك قشتالة على تسليم المدينة في الثاني من يناير سنة ١٤٩٢م (الثاني من ربيع الأول ٨٩٧هـ) أى لتسع وثلاثين يوماً فقط من توقيع عهد التسليم^(١) .

(١) تملظ معظم الروايات الإسلامية بين تاريخ توقيع المسلمين عهد تسليم غرناطة ، وبين تاريخ استيلاء النصارى الفعل عليها . وهي تضع هذا التاريخ في الثاني من ربيع الأول سنة ٨٩٧هـ (٢ يناير سنة ١٤٩٢) (أخبار العصر ص ٥٠ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦١٥ ؛ وأزهار الرياض ج ١ ص ٦٥) . والواقع أن عهد التسليم وقع كما رأينا في ٢٥ نوفمبر سنة ١٤٩١م (٢١ محرم سنة ٨٩٧هـ) وهو يعتبر تاريخ سقوط غرناطة الرسمي في يد النصارى ، وذلك بعد تخل المسلمين عن الدفاع عنها ؛ ولم نجد بين الروايات الإسلامية سوى رواية واحدة هي رواية الوادى آشى تتفق مع الرواية النصرانية في هذا التفريق فهو يقول إن استيلاء النصارى على غرناطة وقع في المحرم سنة ٨٩٧هـ ، وهو تاريخ توقيع عهد التسليم (راجع أزهار الرياض ج ١ ص ٦١) .

وقد وصلت إلينا روايات عديدة عن حوادث هذا اليوم المؤسى ومناظره — يوم احتلال القشتاليين لمدينة غرناطة ، آخر الحواضر الإسلامية بالأندلس — ، والرواية الغالبة التى يتفق عليها معظم المؤرخين الإسبان تقدم إلينا التفاصيل الآتية عن حوادث هذا اليوم المشهود .

فى صباح هذا اليوم ، كان المعسكر النصرانى فى شنتفى بموج بالضجيج والابتهاج . وكانت الأوامر قد صدرت ، والأهبة قد اتخذت لاحتلال المدينة . وكان قد اتفق بين أبى عبد الله والملك فرناندو أن تطلق من الحمراء ثلاثة مدافع تكون إيداناً بالاستعداد للتسليم . ولم يشأ فرناندو أن يسير إلى الحاضرة الإسلامية بنفسه ، قبل التحقق من خضوعها التام ، واستتباب الأمن والسلامة فيها . فأرسل إليها قوة من ثلاثة آلاف جندي وسرية من الفرسان ، وعلى رأسها الكردينال بيدرو دى مندوسا مطران اسبانيا الأكبر . وكان من المتفق عايه أيضاً بين فرناندو وأبى عبد الله ألا يخترق الجيش النصرانى شوارع المدينة ، بل يسير توالاً إلى قصبة الحمراء ، حتى لا يقع حادث أو شغب . ومن ثم فقد اخترق الجند القشتاليون الفحص إلى ضاحية أرميليا Armilla (أرملة) الواقعة جنوبى غرناطة ، ثم عبروا نهر شنيل ، واتجهوا توالاً إلى قصر الحمراء من ناحية التل المسمى « تل الرّحى » Questa de los Molinos ، الواقع غربى المدينة وجنوبى غربى الحمراء .

وسار الملك فرناندو فى الوقت نفسه فى قوة أخرى ، ورابط على ضفة شنيل ، ومن حوله أكابر الفرسان والخاصة فى ثيابهم الزاهية ، حتى يمهد الكردينال الطريق لمقدم الركب الملكى . وانتظرت الملكة إيسابيلا فى سرية أخرى من الفرسان فى أرميليا ، على قيد مسافة قريبة .

ووصل الجند القشتاليون إلى مدينة غرناطة من هذه الطريق المنحرفة نحو الظهر ، وكانت أبواب الحمراء قد فتحت وأُخلت أبوابها استعداداً للساعة الحاسمة . وهنا تختلف الرواية . فىقال إن الذى استقبل الكردينال مندوسا وصحبه هو الوزير ابن كماشه ، الذى ندب للقيام بتلك المهمة المؤملة ، وسلم الحرس المسلمون السلاح والأبراج . وكان يسود المدينة كلها ، ويسود القصبة والقصر ، وما إليه ، سكوت الموت . .

وفى رواية أخرى أن أبى عبد الله قد شهد بنفسه تسليم الحمراء ، وأنه حينما تقدم القشتاليون من تل الرّحى صاعدين نحو الحمراء ، تقدم أبى عبد الله من

باب الطبايق السبع راجلا ، يتبعه خمسون من فرسانه وحشمه . فلما عرف الكردينال أبا عبد الله ، ترجل عن جواده ، وتقدم إلى لقائه ، وحياه باحترام وحفاوة ، ثم ابتعد الرجلان قليلا ، وتحدثا برهة على انفراد . ثم قال أبو عبد الله بصوت مسموع : (١) «ها يا سيدى ، فى هذه الساعة الطيبة ، وتسلم هذه القصور - قصورى - باسم الملكين العظمين اللذين أراد لهما الله القادر أن يستوليا عليها ، لفضائلهما ، وزلات المسلمين» .

فوجه الكردينال إلى أبى عبد الله بعض عبارات المواساة ، ودعاه لأن يقيم فى نхимته فى المعسكر الملكى طيلة الوقت الذى يمكنه فى شنتفى ، فقبل أبو عبد الله شاكرآ . ثم سار فى فرسانه وحشمه للقاء الملك الكاثوليكي .

وتم تسليم القصور الملكية والأبراج على يد الوزير ابن كماشه ، الذى ندبه أبو عبد الله للقيام بهذه المهمة . وما كاد الكردينال وصحبه يجوزون إلى داخل القصر الإسلامى المنيف ، حتى رفعوا فوق برجه الأعلى ، وهو المسمى برج الحراسة Torre de la Vela صليبا فضيا كبيرا ، هو الذى كان يحمله الملك فرناندو خلال حرب غرناطة ، كما رفعوا إلى جانبه علم قشتالة وعلم القديس ياقب ، وأعلن المنادى من فوق البرج بصوت جهورى ثلاثا أن غرناطة أصبحت ملكا للملكين الكاثوليكين ، وأطلقت المدافع تدوى فى الفضاء . ثم انطلقت فرقة الرهبان الملكية ترتل صلاة « الحمد لله » Te Deum laudamus ، على أنغام الموسيقى . وهكذا كان كل ما هنالك يؤكد الصفة الصليبية العميقة لهذه الحرب التى شهرتها اسبانيا النصرانية على الأمة الأندلسية ، وعلى الإسلام فى اسبانيا .

وفى أثناء ذلك كان أبو عبد الله ، فى طريقه إلى لقاء الملك الكاثوليكي . وكان فرناندو يربط كما قدمنا على ضفة نهر شنيل ، على مقربة من المسجد ، الذى حول فيما بعد إلى كنيسة « سان سبستيان » . وهنالك لقي أبو عبد الله عدوه الظافر ، وسلمه مفاتيح الحمراء . وسوف نصف منظر هذا اللقاء المؤثر فيما بعد .

وكذلك قدم أبو عبد الله خاتمه الذهبى ، الذى كان يوقع به على الأوامر الرسمية ، إلى الكونت دى تندليا الذى عين محافظا للمدينة .

وسار فى صحبه بعد ذلك فى طريق شنتفى ، يتبعه أهله ، أمه وزوجته وإخوانه ، وكان موكبا مؤسبا . وخرج فى طريقه على محلة الملكة إيسابيلا فى أرميليا . فاستقبلته

(١) المفروض أن أبا عبد الله كان يتحدث بالقشتالية ، وهى لغة كان يجيد التكلم بها .

وأسرتة برقة ومجاملة ، وحاولت تخفيف آلامه ، وسلمته ولده الصغير الذى كان ضمن رهائن التسليم .

وهنا تعود الرواية فتختلف اختلافاً بيناً . فيقول البعض إن الملكين الكاثوليكين دخلا قصر الحمراء فى نفس اليوم . وينفى البعض الآخر ذلك ، ومنهم صاحب « أخبار العصر » ، ويقول إنهما لم يدخلا إلا بعد ذلك ببضعة أيام .

تقول الرواية الأولى ، إن الملكة إيسابيلا ، سارت على أثر استقبالها لأبي عبد الله ، وانضمت بصحبها إلى الملك فرناندو ، ثم سار الإثنان إلى الحمراء ، بينما انتشر القشتاليون فى الساحة المحاورة . ودخل الملكان من « باب الشريعة » ، حيث استقبلهما الكردينال مندوسا والوزير ابن كماشه . وأعطى مفاتيح الحمراء إلى اللدون ديجو دى مندوسا الذى عين حاكماً للمدينة . وبعد أن تجول الملكان قليلاً فى القصر ، وشهدا جماله وروعته ، عادا إلى شنتى . وبقي الكونت دى تندليا فى الحمراء مع حامية قوية من خمسمائة جندى .

ثم عاد الملكان فزارا الحمراء زيارتهما الرسمية فى يوم ٦ يناير ، وسارا فى موكب فخم من الأمراء والكبراء وأشراف العقائل ، ودخلا غرناطة من باب البيرة ، ثم جازا إلى الحمراء من طريق مرتفع غمارة ، ودخلا قصر الحمراء وجلسا فى بهو قمارش أو المشور^(١) حيث كان يجلس الملوك المسلمون فى نفس المكان على عرشهم ، على عرش أعده الكونت دى تندليا ، وهناك أقبل أشراف قشتالة للتهنئة ، وكذلك بعض الفرسان المسلمين ، الذين أتوا ليقدموا شعائر التحية والتجلة لسادتهم الجدد .

وفى خلال ذلك كان الملكان الكاثوليكيان ، قد أفرجا عن رهائن المسلمين الخمسمائة ، وفى مقدمتها ولد أبى عبد الله ، وأفرج المسلمون من جانبهم عن الأسرى النصراني ، وعددهم نحو سبعمائة أسير رجالاً ونساء . وتعهد القشتاليون من جانبهم ، أن يطلقوا سراح الأسرى المسلمين فى سائر مملكة قشتالة ، فى ظرف خمسة أشهر بالنسبة للأسرى الموجودين بالأندلس ، وثمانية أشهر بالنسبة للأسرى الموجودين فى بقية أراضى قشتالة .

تلك خلاصة الرواية القشتالية عن تسليم غرناطة ومدينة الحمراء للملكين الكاثوليكين . بيد أن هنالك رواية أخرى لشاهد عيان ، كتبها فارس فرنسى كان يقاتل فى صفوف الجيش القشتالى ، وشهد بنفسه حفلات التسليم ، ونشرت

(١) وهو المسمى أيضاً بهو السفراء ، وسوف نعود إلى وصفه عند الكلام على قصر الحمراء .

روايته في القرن السادس عشر ضمن مؤلف عنوانه *La Mar de las Historias* « بحر التواريخ » . وهذه خلاصتها :

أن الذي أوفده الملكان الكاثوليكيان لاستلام الحمراء في يوم ٢ يناير ، هو الأستاذ الأعظم رئيس جمعية شنت ياقب ، جوتيرى دى كارديناس ، وليس الكاردينال مندوسا حسبما تروى التواريخ القشتالية . وأنه تسلم القصر والأبراج وأخرج منها الحرس المسلمين ، ووضع بها الحرس النصارى ، وأنه رفع الصليب الكبير فوق برج الحراسة ثلاث مرات ، والمسلمون من أسفل يصعدون الزفرات ويلدرفون الدموع ، ثم لوح بعد ذلك بعلم شنت ياقب ثلاث مرات ، ونُصب إلى جانب الصليب ، وصاح المنادى بعد ذلك : القديس يعقوب ثلاثاً . قشتالة ثلاثاً . غرناطة لسيدنا الدون فرناندو ودونيا إيسابيل ثلاثاً .

وأن الملك فرناندو لما رأى الصليب ، وهو في بجنده من أسفل ، ترجل وجثا على ركبتيه ، وجثا الحند جميعاً شكراً لله . ثم أطلقت المدافع ابتهاجاً . وفي اليوم التالى الثالث من يناير ، سار الكاردينال مندوسا والكونت دى تنديلا ، الذى عين محافظاً للحمراء ، إلى قصبة الحمراء في نحو ألف فارس وألفى راجل ، وسلم إليه الأستاذ الأعظم مفاتيح القصر والحصن .

وفي اليوم الثامن من يناير ، سار الملكان الكاثوليكيان إلى غرناطة ، في موكب محافل من الأمراء والأكابر والأجبار والأشراف ، وتسلم الملكان مدينة الحمراء بصفة رسمية . وأقيم القداس في الجامع الأعظم ، وحول الجامع منذ ذلك اليوم إلى كاتدرائية غرناطة .

وفي ذلك اليوم أقيمت مأدبة عظيمة في قصر الحمراء ، ومدت الموائد الجافلة في أهباء القصر العظيمة ، وجلس إليها الملكان والأمراء والعطاء ، وكانت مأدبة رائعة . ويستخلص من هذه الزوايا ، التى يؤيدها مؤرخون آخرون ، أن أبا عبد الله لم يستقبل الملكين الكاثوليكين ولا مندوبيهما وقت التسليم ، ولم تقع بينه وبين الكاردينال ولا بين الملكين ، الأحاديث التى سبقت الإشارة إليها .

وإلى جانب ذلك يرى بعض النقدة المحدثين ، أن أبا عبد الله حينما خرج للقاء الملكين الكاثوليكين ، قد فعل ذلك وهو فى صحبه وحشمه فقط دون أهله ، وأنه خرج يومئذ من داره الملكية الخاصة بحى البيازين ، ولم يخرج من قصر الحمراء ، وأنه كان يعيش فى هذه الدار مع أهله وولده مذ عاد من الأسر ،

حتى أعلن الخلاف والحرب على الملكين الكاثوليكيين^(١) ، وأنه كان يشعر وهو في هذه الدار ، أنه بين أنصاره ومؤيديه ، وأخيراً أنه كان قد أمر بإخلاء قصر الحمراء ، وندب من يقوم بمهمة التسليم في اليوم الثاني من يناير . وفي هذا اليوم خرج في نفر من صحبه ، ليقدم إلى الملكين الكاثوليكيين شعائر التحية والخضوع ، ثم عاد إلى داره فبقى بها أياماً ، حتى سويت مسألة مصيره مع الملكين الكاثوليكيين على أنه يبدو لنا من تتبع حوادث حصار غرناطة ، وما تلاه من مفاوضات على التسليم ، أن الرواية الراجحة في هذا الشأن ، هو أن أبا عبدالله ، حتى مع افتراض أنه لم يشهد رسوم التسليم ، ولم يقيم بها بنفسه ، كان يقيم بقصر الحمراء ، يحيط به وزراؤه وقواده طيلة هذه الأحداث الخطيرة ، أو على الأقل بدأ مفاوضات التسليم بينه وبين الملكين الكاثوليكيين ، ومنذ أبرمت بينهما معاهدة التسليم ، حتى يوم الحسم النهائي الذي تم فيه ذلك التسليم ، وأنه خرج في ذلك اليوم المشهود من الحمراء للقاء عدوه الظافر . ومن المعقول أن تكون الحمراء قد أخلت قبل ذلك استعداداً لتسليمها لسادتها الجدد ، وذلك حسبما يشير إليه صاحب «أخبار العصر»^(٢) . هذا وتلقى الرواية الإسلامية المعاصرة ضوءاً على دخول ملك قشتالة مدينة غرناطة ، وتصفه على النحو الآتي :

« فلما كان اليوم الثاني لربيع الأول عام سبعة وتسعين وثمانمائة (٢ يناير سنة ١٤٩٢) أقبل ملك الروم بجيوشه حتى قرب من البلد ، وبعث جناحاً من جيشه فدخلوا مدينة الحمراء ، وأقام هو ببقية الجيوش خارج البلد ، لأنه كان يخاف من الغدر ، وكان طلب من أهل البلد حين وقع الاتفاق على ما ذكر ، رهوناً من أهل البلد ليطمئن بذلك ، فأعطوه خمسمائة رجل منهم ، وأقعدهم بمحلته . فلما اطمأن من أهل البلد ، ولم ير منهم غدراً ، سرح جنوده لدخول البلد والحمراء ، فدخل منهم خلق كثير وبقى هو خارج البلد ، وأشحن الحمراء بكثير من الدقيق والطعام والعدة ، وترك فيها قائداً من قواده ، وانصرف راجعاً إلى محله .. ثم إن ملك الروم

(١) راجع في روايات تسليم غرناطة : Lafuente Alcantara (y citaciones); *Ibid*, V-III : p. 72 & 73; Mamol: *Historia del Rebelión y Castigo de los Moriscos del Reino de Granada*, Lib. I. Cap. XX; Gaspar y Remiro : *Entrada de los Reyes Católicos en Granada al Tiempo de su Rendición*. (Revista del Centro de Estudios históricos de Granada y su Reino - Año I., Num. I, p. 7 - 24)

(٢) أخبار العصر ص ٥٠ .

سرح الناس الذين كانوا عنده مرتين ، ومؤمنين في أموالهم وأنفسهم مكرمين . وأقبل في جيوشه حين اطمأن ، فدخل مدينة الحمراء في بعض خواصه ، وبقى الحند خارج البلد ، وبقى يتنزه في الحمراء في القصور والمنارة المشيدة إلى آخر النهار ، ثم خرج بجنوده وصار إلى محله . فن غدا أخذ في بناء الحمراء وتشيدتها ، وتحصينها وإصلاح شأنها ، وفتح طرقها ، وهو مع ذلك يتردد إلى الحمراء بالنهار ويرجع بالليل لمحله ، فلم يزل كذلك إلى أن اطمأنت نفسه من غدر المسلمين ، فحينئذ دخل البلد ، ودار فيه في نفر من قومه وحشمه ...» (١) .

* * *

وهكذا اختتمت المأساة الأندلسية ، واستولى القشتاليون على غرناطة آخر الحواضر الإسلامية في اسبانيا ، وخفق علم النصرانية ظافراً فوق صرح الإسلام للمغلوب ، وانتهت بذلك دولة الإسلام بالأندلس ، وطويت إلى الأبد تلك الصفحة المحيطة المؤثرة من تاريخ الإسلام ، وقضى على الحضارة الأندلسية الباهرة ، وآدابها وعلومها وفنونها ، وكل ذلك التراث الشامخ ، بالفناء والمحو .

شهد المسلمون احتلال العدو الظافر لحاضرهم ودار ملكهم ، وموطن آبائهم وأجدادهم ، وقلوبهم تنفطر حزناً وأسى . على أن هذه المناظر المحزنة ، كانت تحجب مأساة أليمة أخرى ؛ تلك هي مأساة الملك التمس أبى عبد الله آخر ملوك بني الأحمر وآخر ملوك الإسلام بالأندلس .

فقد تقرر مصيره ، وبينت حقوقه وامتيازاته وفقاً للمعاهدة السرية التي عقدت بينه وبين الملكين الكاثوليكين . وقد نصت المعاهدة المذكورة على أن يقطع أبو عبد الله طائفة من الأراضي والضياح في برجة ودلاية وأندرش وأجيجر وأرجبة ولوشار وبضعة بلاد أخرى من أعمال منطقة البشريات ، وهذه البلاد يقع بعضها في جنوب غربي ولاية ألمرية ، والبعض الآخر قبالتها في جنوب شرقي ولاية غرناطة ، وأن يحكم أبو عبد الله في هذه المنطقة باسم ملك قشتالة وتحت حمايته ، ويتمتع بدخلها وسائر غلاتها وحقوقها . وقد حددت إقامته ، أو اختار هو الإقامة في إحداها وهي بلدة أندرش الواقعة على النهر الأخضر شمالي ثغر أدرة الصغير .

ولما اقترب اليوم المروع — يوم التسليم — قام أبو عبد الله باتخاذ أهله للرحيل مع أهله وحشمه وخاصته . وفي صباح اليوم الثاني من يناير سنة ١٤٩٢ ، في الوقت

للذى اقرب فيه النصرارى من أسوار غرناطة ، كان أبو عبد الله قد غادر قصره وموطن عزه ومجد آبائه إلى الأبد ، فى مناظر تثير الأسى والشجن .
وهناك روايتان ، فهل خرج أبو عبد الله عندئذ لآخر مرة من الحمراء مع أهله وحشمه وأمتعته ؟ أم هل خرج بمفرده فى صحبه من الحمراء للقاء الملكين الكاثوليكين ، ثم لحق به بعد ذلك ركب أهله وأمتعته ؟ وهل سار تواء إلى طريق البشرات حيث تعين محل إقامته ، أم عرج على المعسكر القشتالى الملكى فى شنتفى فلبث فيه مع أهله أياماً ، ثم سار بعد ذلك إلى البشرات ؟
أما الرواية الأولى ، وهى أكثر الروايات ذبوعاً لدى المؤرخين القشتالين ، فتجربى على النحو الآتى :

فى فجر اليوم الثانى من يناير ، وهو اليوم الذى حدد لتسليم الحمراء ، كان رنين البكاء يردد فى غرف قصر الحمراء وأبناؤه ، وكانت الحاشية منهمكة فى حزم أمتعة الملك المخلوع وآله ، وقد ساد الوجوم كل محيا ، واحتبست الزفرات فى الصدور . وما كادت تبشير الصبح تبدو ، حتى غادر القصر ، ركب قائم موثر هو ركب الملك المنفى ، يحمل أمواله وأمتعته ، ومن ورائه أهله وصحبه القلائل ، وحوله كوكبة من الفرسان المخلصين . وكانت أمه الأميرة عائشة تمتطى صهوة جوادها ، يشع الحزن من محياها الوقور ، وكان باقى السيدات من آلله وحشمه ، يرسلن الزفرات العميقة والدموع السخينة . واخترق الركب غرناطة فى صمت البكور وسريره ؛ وحين بلغ الباب الذى سيغادر منه المدينة إلى الأبد ، ضج الحراس بالبكاء لرؤية ذلك المنظر المؤلم ؛ ثم اتجه الركب صوب نهر شنيل فى طريق البشرات .
وليس أبلغ فى وصف هذه المناظر المؤسفة من قول شوقى طيب الله ثراه : (١)

مشت الحادثات فى غرف الحمه	راء مبشى النعش فى دار عرس
هتكت عزه الحجاب وفضت	سدة الباب من سمير وأنس
عرصات تخلت الخيل عنها	واستراحت من احتراس وعس
ومغارة على الليالى وضاء	لم تجد للعشى تكرار مس

* * *

آخر العهد بالجزيرة كانت	بعد عرك من الزمان وخرس
فراها تقول راية جيش	باد بالأمس بين أسر وحس

(١) من قصيدته السينية الأندلسية الشهيرة ، التى ينحدر فيها نحو البحرى فى سفينته .

ومفاتيحها مقاليد ملك باعها الوارث المضيع ببخس
خرج القوم في كتائب صم عن حفاظ كوكب الدفن خرس
ركبوا بالبحار نعشا وكانت تحت آبائهم هي العرش أمس

* * *

وأما أبو عبد الله ، فقد اتجه إلى وجهة أخرى ليتجرع كأسه المرة إلى الثمالة ، وكان قد تقرر اللقاء في صباح ذلك اليوم بينه وبين ملك قشتالة ، فخرج من باب مدينة الحمراء المسمى باب الطباق السبع Siete Suelos ، في طريقه إلى لقاء عدوه الظافر ، وسيد الحديد ، في نفر من الفرسان والخاصة . فاستقبله فرناندو بترحاب وحفاوة في محلته على ضفة نهر شنيل . وتصف لنا الرواية القشتالية هذا المنظر المؤثر فتقول إن أبا عبد الله حين لمح فرناندو هم بترك جواده ، ولكن فرناندو بادر بمنعه وعانقه بعطف ومودة ، فقبل أبو عبد الله ذراعه اليمنى إيماءة الخضوع . ثم قدم إليه مفتاحي البابين الرئيسيين للحمراء قائلا : « إنهما مفتاحي هذه الحنة ، وهما الأثر الأخير لدولة المسلمين في اسبانيا ، وقد أصبحت أيها الملك سيد تراثنا وديارنا وأشخاصنا . وهكذا قضى الله ، فكن في ظفرك رجيا عادلا » . وتضيف الرواية القشتالية إلى ذلك أن فرناندو تناول المفتاحين قائلا : « لا تشك في وعودنا ، ولا تعوزنك الثقة خلال الحنة ، وسوف تعوض لك صداقتنا ما سلبه القدر منك »^(١) . بيد أن مؤرخاً قشتالياً عاش قريباً من ذلك العصر ، يقدم إلينا رواية أخرى ربما كانت أقرب إلى الصحة والمعقول ، وهي أن مفاتيح الحمراء قدمها القائد ابن كماشه مأمور التسليم إلى الملك فرناندو حينما وصل إلى الباب الرئيسي ، وأن فرناندو ناو لها بدوره إلى قائده لويس دي مندوسا (كونت تندليا) الذي عينه حاكماً عسكرياً لغرناطة^(٢) . وسار أبو عبد الله بعد ذلك صحبة فرناندو ، إلى حيث كانت الملكة إيسابيلا في ضاحية أرمليا ، فقدم إليها تحياته وطاعته . ثم ارتد إلى طريق البشرات ليلحق بأسرته وخاصته . وهنا تقول الرواية القشتالية إن أبا عبد الله

(١) تردد معظم التواريخ القشتالية اللاحقة وصف هذا المنظر الذي يصطبغ بلون الأسطورة . وقد خلده ريشة المصور الإسباني في أكثر من لوحة شهيرة تعرض في المتاحف الإسبانية ، وحفرته يد الفنان في داخل كنيسة طليطلة العظمى . راجع في ذلك : L. Alcantara : ibid ; V. III p. 73 .

(٢) Luis del Marmol : Rebelión y Castigo de los Moriscos de Granada ,

أشرف أثناء مسيره في شعب تل البذول (بادول) على منظر غرناطة ، فوقف يسرح بصره لآخر مرة في هاتيك الربوع العزيزة التي ترعرع فيها ، وشهدت مواطن عزه وسلطانه ، فانهمر في الحال دمعته ، وأجهش بالبكاء . فصاحت به أمه عائشة ؛ « أجل فلتبك كالنساء ، ملكاً لم تستطع أن تدافع عنه كالرجال » . وتعرف الرواية الإسبانية تلك الأكمة التي كانت مسرحاً لذلك المنظر المحزن باسم شعري مؤثر هو « زفرة العربي الأخيرة » *El último Suspiro del Moro* ، وما تزال قائمة معروفة حتى اليوم ، يعينها سكان تلك المنطقة للسائح المتجول . ثم تقول الرواية أيضاً إن باب الحمراء الذي خرج منه أبو عبد الله لآخر مرة ، وهو باب الطباق السبع قد سد عقب خروجه برجاء منه إلى ملك قشتالة ، وبني مكانه ، حتى لا يجوزه من بعده إنسان^(١) . وما زالت الرواية تعين لنا مكان هذا الباب بين الأطلال الدارسة . وهو يقع في طرف الهضبة في الجنوب الشرقي منها على مقربة من « برج الماء » . وقد رأيناه ، وقد سد فراغه حقيقة بالبناء . وأما الرواية الأخرى ، وهي الأقل ذيوماً ، فخلاصتها أن أبا عبد الله خرج من الحمراء في صبيحة يوم التسليم بمفرده وفي نفر من صحبه إلى لقاء الملكين الكاثوليكين وخرج بعد ذلك ركب أهله وأمتعته من الدار الملكية بحى البيازين ليلتقى به بعد انتهاء مهمته ، وأنه لم يسر بعد ذلك توطاً إلى البشرات ، بل سار بأهله وأمتعته إلى المعسكر القشتالي في شنتي ، ف قضى به أياماً ، حتى سويت المسائل المتعلقة بمصيره ، ثم سار الجميع بعد ذلك إلى أندرش التي اختارها أبو عبد الله مستقراً ومقاماً .

* * *

وقد كان لمحنة الأندلس المؤلمة ونهايتها المحزنة ، وقع عميق في جنبات العالم الإسلامي ، ولا سيما في أمم المغرب ، في الضفة الأخرى من البحر . غير أن هذه المحنة الغامرة لم تثر وحى الشعر ، كما أثاره من قبل سقوط الثغور والقواعد الأندلسية ، أيام أن كان للدولة الإسلامية بقية من القوة والأمل . ذلك أن دولة الشعر الأندلسي كانت قد انهارت منذ بعيد ، وتحطمت الأقلام ، وعقدت المحنة الغامرة كل لسان . ومع ذلك فقد صدرت في رثاء الأندلس نغفات قوية مؤثرة تهز أوتار القلوب ، معظمها من الضفة الأخرى من البحر من شعراء المغرب . ومن أشهر المراثي التي نظمت في رثاء الأندلس عقب المحنة بقليل ، رثاء طويل

Marmol:ibid; Lib. I ; Cap. XX ; L. Alcantara; ibid;V. III. p. 80. (١)

موثر لشاعر أندلسي مجهول ، يبدو أنه عاصر حوادث المحنة من بدايتها حتى نهايتها .
واليك مقتطفات من تلك المراثية المشجية التي رتبت وفقاً للوقائع والتواريخ :

أحقاً خبا من جو رندة نورها وقد كسفت بعد الشمس بدورها
وقد أظلمت أرجاؤها وتزلزلت منازلها ذات العلا وقصورها
فيا ساكني تلك الديار كريمة سقى عهدكم مزن يصبوب نبرها
أحقاً أخلائي القضاء أبادكم ودارت عليكم بالصروف دهورها
فقتل وأسر لا يفادي وفرقة لدى عرصات الحشر يأتي سفيرها

* * *

فواحسرتا كم من مساجد حولت وكانت إلى البيت الحرام شطورها
ووالأسفا كم من صوامع أوحشت وقد كان معتاد الأذان يزورها
فحراها يشكو المنبرها الجوى وآياتها تشكو الفراق وسورها
وكم طفلة حسناء فيها مصونة إذا أسفرت يسبي العقول سفورها
فأضحت بأيدي الكافرين رهينة وقد هتكت بالرغم منها ستورها (١)
وكم فيهم من مهجة ذات ضجة ترد لو انضمت عليها قبورها
لها روعة من وقعة البين دائم أساها وعين لا يكف هديرها
وكم من صغير في حجر أمه فأكبادها حراء لفح هجيرها
وكم من صغير بذل الدهر دينه وهل يتبع الشيطان إلا صغيرها

* * *

لأندلس ارتجت لها وتضعضت وحق لديها محوها ودثورها
منازلها مصدورة وبطاحها بدائها موتورة وثغورها
تهانمها مفجوعة ونجودها وأحجارها مصدوعة وصخورها
وقد لبست ثوب الحداد ومزقت ملابس حسن كان يزهو حبورها
فأحياؤها تبدى الأسى وجادها يكاد لفرط الحزن يبدو ضميرها
فالقلة الحسناء ثكلى أسيفة قد استفرغت ذبحاً وقتلا حجورها
وجزت نواصيا وشلت يمينها وبذل الويل المبين سرورها

(١) يكرر الشاعر في هذه الأبيات نفس المعاني التي وردت في مراثية أبي الطيب الرندي الشهيرة .

وقد كانت الغربية الجفن التي
وبلش قطعت رجلها بيمينها
وضحت على تلك الثنيات حجرها
وبالله إن جئت المنكب فاعتبر
ألا ولتقف ركب الأسى بمعالم
بدار العلا حيث الصفات كأنها
محل قرار الملك غرناطة التي
ترى الأسى أعلامها وهي نخشع
ومأمومها ساهى الحجب وإمامها
وبسطة ذات البسط ما شعرت بما
وما أنس لا أنس المريّة إنها
منازل آبائي الكرام ومنشئ
ثم يشير الشاعر بعد هذا الترتيب التاريخي لسقوط قواعد الأندلس ، إلى
محاولة الإسبانية تنصير المسلمين لأول مرة ، وما ترتب على ذلك من قيام الثورة
في بعض الجهات :

وجاءت إلى استئصال شأفة ديننا
علامات أخذ مالنا قبل بها
فلا تنمحي إلا بمحو أصولها
معاشر أهل الدين هبوا لصعقة
أصاب منار الدين فأنهد ركنه
إلا واستعدوا للجهاد عزائماً
بأنفس صدق موقنات بأنها
تروم إلى دار السلام عرائساً
جيوش كموج هبت دبورها
جنايات أخذ قد جناها مثيرها
ولا تتجلى حتى تخط أصولها
وصاعقة وارى الجسوم ظهورها
وزعزع من أكنافه مستطيرها
يلوح على ليل الوغى مستنيرها
إلى الله من تحت السيوف مصيرها
على الله في ذاك النعيم مهورها^(٢)

(١) يبدو من هذا البيت أن الشاعر كان من أهل المرية ونشأ بها .

(٢) نشر هذه المراثية وهي في أكثر من مائة بيت أحد أدباء الجزائر ، مقرونة بترجمة فرنسية تحت عنوان : Une Elégie andalouse sur la guerre de Grenade وذكر الناشر وهو صويلح محمد ، أنه نقلها عن مخطوط محفوظ بمكتبة الجزائر ومؤرخ في شعبان سنة ٨٩٧ هـ (يونيه سنة ١٤٩٢ م) أعني بعد سقوط غرناطة ببضعة أشهر . والظاهر أنه حيناً وضعت هذه القصيدة كان الإسبان قد بدأوا محاولتهم الأولى لتنصير المسلمين .

هذا وقد صدرت عن أدباء المغرب ، في الضفة الأخرى من البحر ، طائفة كبيرة من المرائى البليغة ، في نعي الأندلس والإشادة بفضائلها ، وفداحة الخطب فيها . وكان شعراء المغرب لقربهم من مسرح الحوادث ، ووقوفهم على كثير من الأخبار والسير المفجعة عن إخوانهم بالأندلس ، أشد من غيرهم تأثراً بالحنة ، وأكثرهم إفاضة في ندب ويلاتها^(١) .

(١) نقل إلينا المقرئ في أزهار الرياض بعض هذه المرائى المغربية ، ومن ذلك قصيدة أبي العباس أحمد بن محمد الصنهاجى المشهور بالنقون . (ج ١ ص ١٠٤ وما بعدها) .

الفصل الرابع ختم المأساة

وقع محنة الأندلس في العالم الإسلامي . سفارة فرناندو إلى بلاط مصر . موضوع هذه السفارة حسبما دونها بيتر ومارتيري . صدى المأساة في المغرب . مسير أبي عبد الله إلى أندلس وحياته فيها . خطة الملكين الكاثوليكين لإبعاده عن الأندلس . الاتفاق على بيع حقوقه وجوازه إلى المغرب . نص قبول أبي عبد الله . جوازه إلى فاس والتجازه إلى ملكها . دفاع أبي عبد الله المسمى بالروض العاطر الأنفاس . الوزير المقييل كاتب هذا الدفاع . بعض ما ورد في الدفاع من المنظوم . بعض ما ورد فيه من المتنوع . اعتذار أبي عبد الله ودفعه لتهمة التفريط والحياة . استعراض لموقفه وتصرفاته . معترك الفتنة الذي أودى بمملكة غرناطة . تبعة أبي عبد الله . حياته بمدينة فاس . وفاته وعقبه . حمراء غرناطة . تاريخها وأوصافها . ما بقى من أبنيتها وأبائها . تشويه الإسبان لحماها الأثري . روعتها وتراثها القصصي . تغدو مسرحاً لحوادث غرناطة . ما يدور حولها من الأساطير . الأساطير الفرامية . أصل هذه الأساطير ومغزاها . قصيدة شوقي في رثاء الحمراء .

لم يكن سقوط غرناطة في يد النصارى حادثاً فجائياً ، بل كان بالعكس نتيجة طبيعية ، لما تقدمه من الحوادث الأندلسية ، وكان خاتمة محتومة لاستشهاد طويل الأمد . ومع ذلك فقد كان لسقوط غرناطة أوبعبارة أخرى لانهاء دولة الإسلام في الأندلس ، وقع عميق في الضفة الأخرى من البحر ، في أمم المغرب التي لبثت عصوراً ترتبط بالأندلس بأوثق الروابط ، وفي سائر أنحاء العالم الإسلامي .

وكان للحدث أيضاً وقعه العميق في سائر الأمم النصرانية ؛ فقد ابتهجته له أمما ابتهاج ، واعتبرته من بعض الوجوه عوضاً لسقوط قسطنطينية في قبضة الإسلام قبل ذلك بأربعين عاماً . وخلدت ذكرى الحادث في رومة بإقامة قداس أعظم ، واستمر ابتهاج الشعب أياماً . ورحبت سائر قصور أوروبا بالنبأ ، وأقامت لإحيائه الحفلات الدينية والمدنية ، منوهة بفضل فرناندو وإيسابيلا في تحقيق هذه الأمنية العظيمة (١) .

وقد كانت الأندلس تثير منذ البداية جزع الأمم الإسلامية وعطفها . ولكن الأمم الإسلامية لم تستطع أن تبذل أى مجهود عملي لإنقاذ الأندلس من قدرها المحتوم ،

ولم يتحقق من جهة أخرى ما كانت ترجوه مصر بتدخلها السياسى لدى ملوك النصرانية من أثر ملطف فى سير الحوادث الأندلسية . وقد كانت مصر بالرغم من بعدها تتبع أحوال الأندلس باهتمام خاص ، لم ينتقص منه سوى اضطراب شئونها الداخلية فى ذلك الحين . ولما استولى النصارى على غرناطة ، وحقت بذلك أمانة اسبانيا التاريخية كاملة شاملة ، لم ينس ملك قشتالة ما جاء فى سفارة سلطان مصر من وعيد بأن ينكل برعاياه النصارى ، ولم يقنع بالخطاب الذى وجهه إليه على يد سفيره الراهبين . فلما استقرت الأمور وخضعت سائر الأراضى الإسلامية ، رأى فرناندو أن يسعى إلى إقناع سلطان مصر ، بما يلقاه مسلمو الأندلس من الرعاية والرفق فى ظل الحكم الجديد ، فأوفد إلى بلاط القاهرة سفارة جديدة . وكان سفيره إلى السلطان هو پيترو مارتيرى دى أنجلريا ، وهو حبر نابه ، وكاتب ومؤرخ كبير ، وكان من مستشارى الملك . ندبه فرناندو لهذه السفارة فى أغسطس سنة ١٥٠١ ، وزوده بالكتب والوثائق اللازمة . ووصل مارتيرى إلى الإسكندرية بعد رحلة بحرية شاقة عن طريق إيطاليا واليونان فى أواخر شهر ديسمبر ، ثم وصل إلى القاهرة فى آخر يناير ، وكان سلطان مصر فى ذلك الحين الملك الأشرف جان بلاط ، فاستقبل سفير الملكين الكاثوليكين عقب وصوله برفق ورعاية ، ولكن نقلت إليه على أثر ذلك أقاويل كثيرة من بعض الأشراف والمغاربة والأندلسيين المنفيين ، الذين استنكروا مسلكه وتكريمه لسفير ملك استولى على أراضى المسلمين فى الأندلس ، وهو الآن يسومهم الخسف والعذاب . فبعث إلى السفير يرجوه الانصراف من حيث أتى خوفاً من سوء العواقب ، ولكن مارتيرى بعث إلى السلطان يشرح له خطورة الأمر ، ويصف عظمة ملكيه ، وروعة سلطانهما الباذخ الذى يمتد حتى أواسط البحر الأبيض المتوسط ، وكونهما يستطيعان الانتقام والإضرار بمن يسىء إليهما . فعاد السلطان واستقبله فى مقابلة سرية خاصة استمرت من الصباح إلى الظهر . وكان ذاك فى السادس من فبراير سنة ١٥٠٢ (شعبان سنة ٩٠٧ هـ) ، وألقى مارتيرى بين يديه خطاباً ضافياً فند فيه ما ينسب لملكه من الاستيلاء ظلماً على غرناطة ، واضطهاده للمسلمين ، وقهرهم على التنصير ، وبين مارتيرى حق سيده فى الفتح ، وكونه يحكم مئات الألوف من الرعايا المسلمين الذين يعيشون فى بلنسية وأراجون ، وهم جميعاً يتمتعون بشعائهم أحراراً ، واستطاع بكياسته وبراعته ، أن يقنع السلطان بصدق رسالته ، وحسن نيات ملكيه ، وقدم إلى

السلطان شهادات من حكام الثغور المغربية ، تفيد بأن المسلمين المهاجرين إلى المغرب يصلون إلى الشواطئ مع نسائهم وأولادهم في أمن وسلام ، ويلتقون من مندوبي الملكين كل رفق ورعاية^(١) ، واستطاع فوق ذلك بذلاقتة أن يقنع السلطان بأن يجيب مطالبه في إعفاء نصارى بيت المقدس من طائفة من المغارم والقروض . ويصف لنا مارتيرى قصر السلطان بأنه يقوم على ربوة ، على نمط قصر القاتيكان في رومة ، وقصر الحمراء في غرناطة ؛ ويصف السلطان بأنه رجل في نحو الخمسين من عمره ، ذو لحية كعادة أهل البلاد ، ولكن صغيرة نحيلة ، وهو مهيب الطلعة ذو وجه عبل أسمر ، وهيئة حوشية نوعاً ، وعينين صغيرتين غائرتين ؛ وحركاته ثقيلة ، وقوامه فوق المتوسط حسبما يبدو من جلسته ، وهو يرتدى ثوباً لا يختلف كثيراً عما يسميه أهل غرناطة « بالحية » .

ويورد مارتيرى أثناء وصف حوادث سفارته نبذة طويلة عن تاريخ مصر الإسلامية ، ووصفاً ضافياً للقاهرة والنيل والأهرام ، ووصفه قوى شائق^(٢) . وهكذا كان الصدى الأليم الذى أثارته حوادث الأندلس في الأمم الإسلامية نجو شيئاً فشيئاً . ولم تمض أعوام قلائل حتى أسدل عليها في المشرق حجاب من النسيان ولكن ذكرى الأندلس وحوادثها ، لبثت حية قوية في عدوة المغرب عصوراً أخرى . ذلك أن المأساة الأندلسية لم تنته بسقوط غرناطة ، بل كان عليها أن تجوز ثمة فصولاً مفاجئة أخرى ، قبل أن تصل إلى نهايتها . وكانت هذه الفواجع أول ما تلقى صداها العميق في الضفة الأخرى من البحر ، حيث كانت العدو دائماً ملاذ الضحايا الأخير .

— ٢ —

ولنبداً الحديث عن مصير الملك المنكود أبى عبد الله محمد بن على آخر ملوك الأندلس ، فقد غادر غرناطة ، ساعة استيلاء النصارى عليها ، وسار مع آله وصحبه وحشمه إلى منطقة البشرات ، واستقر هنالك في بلدة أندرش ، وهى إحدى

(١) Marmol : ibid ; Lib. I. Cap. XXVI

(٢) بيتر مارتيرى دى أنجلريا Pietro Martiri de Angleria إيطالى النشأة ، ولد سنة ١٤٥٥ وتوفى سنة ١٥٢٥ . وكان حبراً وكاتباً كبيراً . شهد حرب غرناطة الأخيرة إلى جانب فرناندو . وكتب عن سفارته إلى مصر باللاتينية كتاباً خاصاً عنوانه Legatio Babylonice ؛ وقد ترجم إلى الإسبانية بعنوان Una Embajada de los Reyes Catolicos a Egipto (سفارة من الملكين الكاثوليكين إلى مصر) وقد نقلنا منه ملخص هذه السفارة حسبما تقدم . ولما تيرى مؤلفات أخرى في تاريخ اسبانيا في ذلك العصر .

البلاد التي أقطعت له في تلك المنطقة ، ليقم فيها في ظل ملك قشتالة وتحت حمايته ، وصحبه إلى وطنه الجديد ، كثير من الفرسان والسادة والفقهاء ، وفي مقدمتهم وزيراه يوسف بن كماشه ، وأبو القاسم عبد الملك (المليخ) ، وكانا ألصق الناس به ، وأقربهم إلى ثقته . وكانت أسرة السلطان المنى تتألف من والدته السلطانة عائشة ، وأختها عائشة ، وزوجه مريم (أو مريم) وولده الصغير^(١) . أما أخوه الأصغر يوسف فكان قد قتل في ألمرية أيام الفتنة بتحريض أبيه السلطان أبي الحسن حسبما قدمنا .

وكان أبو عبد الله عندئذ ، فتي في نحو الثلاثين من عمره . وبالرغم من أننا لا نعرف بالضبط تاريخ مولده ، فإن صديقه المؤرخ القشتالي هرناندو دي بايثا ، يقول لنا إنه كان في نحو العشرين ، يوم استطاع الفرار من سجن أبيه السلطان أبي الحسن في سنة ١٤٨٢ (٨٨٧ هـ) ، وبذلك يكون سنة وقت تسليم غرناطة نحو الثلاثين^(٢) .

وقد تركت لنا الرواية القشتالية المعاصرة أيضاً ، وصفاً لشخص أبي عبد الله ، خلاصته أنه كان ممشوق القد ، حسن الطلعة ، شاحب اللون ، له عينان سوداوان نجلاوان ، ولحية قوية^(٣) .

وعاش أبو عبد الله وآله وصحبه ، في تلك المملكة الصغيرة الذليلة حيناً ،

(١) تشير بعض الوثائق المعقودة بين المكيين الكاثوليكين وأبي عبد الله إلى « إخواته » مما يدل على أنه كانت له أكثر من أخت . والمرجح أن عائشة كانت كبراهن .

(٢) راجع رواية Hernando de Baeza القشتالية المنشورة ضمن كتاب أخبار العصر ص ٦٣ .

(٣) Lafuente Alcantara: ibid, V. III, p. 74 . هذا وقد انتهت إلينا عن أبي عبد الله

صورتان إسبانيتان ، كانت تحفظ إحداها من قبل ، بمتحف قصر جنة الريف قبل إلغائه ، وفيها يبدو أبو عبد الله بوجه وسيم ولون جميل وشعر كثيف أصفر ولحية مفروقة . ويرتدي ثوباً أصفر ، يظله حرير أسود ، وعلى رأسه فلنسوة عالية . وقد نقلت هذه الصورة فيما بعد إلى إيطاليا ، وأضحت ملكاً لبعض الأسر الخاصة . والصورة الثانية تحفظ اليوم بمتحف غرناطة المسمى Casa de los Tiros والمعروف أنها رسمت لأبي عبد الله حيناً كان في أسر الملكين الكاثوليكين ، عقب موقعة اللسانة ، وهي عبارة عن لوحة صغيرة الحجم ، وفيها يبدو أبو عبد الله فتي في عتوانه ، بوجه عريض وأنف منسق ، وعينين خضراوين ، ونظرات حادة ، تغشاها الكآبة ، وشعر كستني غزير ، ولحية صغيرة مفروقة . وقد رسمت حول عنقه حلقة رمزية لوقوعه في الأسر . وقد شهدنا هذه الصورة ، أثناء وجودنا بغرناطة ، ونقلنا عنها صورة فتوغرافية هي التي نشرناها من قبل (في ص ٢٠٧) .



أبو عبد الله محمد آخر ملوك الأندلس
عن الصورة التي كانت محفوظة من قبل بمتحف جنة المريف بفرناطة .

وأنشأ له في أندرش بلاطاً صغيراً . وتقول لنا الرواية القشتالية ، إنه كان يعيش هنالك في ترف ورغد ، وإنه كان يعشق الصيد ويقضى فيه كثيراً من أوقاته ، ويجوب أطراف مملكته الصغيرة فوق جواده^(١) .

وكان فرناندو وإيسابيلا ، بالرغم من انتصارهما الشامل ، وقضائهما الأخير على المملكة الأندلسية ، قد لبثا يتوجسان في أعماق نفسيهما ، من بقاء السلطان المخلوع في الأراضي الإسبانية ، ويخشيان أن يكون مثار القلاقل والفتن ، ويتوقان إلى إبعاده وحاشيته عنها ، مبالغة في الحيلة ، واتقاء لكل خطر ، وكان يفرضان على أبي عبد الله رقابة صارمة ، ويتلقيان أدق التقارير والأنباء ، عن حركاته وسكناته ، وكانت عينيهما الساهرة على رقبته ، الوزيران الماكران يوسف بن كماشه وأبو القاسم عبد الملك^(٢) . ولم يمض على إقامة أبي عبد الله في أندرش زهاء عام ، حتى بدأ الملكان الكاثوليكيان يسيان سرّاً ، في تحقيق غايتهم الأخيرة ، وكان سيبلهما إلى ذلك أيضاً ابن كماشه وأبا القاسم . ففي مارس سنة ١٤٩٣ وقعت مفاوضات جديدة بين الوزيرين ، وبين فرناندو دي ثافرا أمين الملكين الكاثوليكين ، في شأن مغادرة أبي عبد الله الأراضي الإسبانية ، والعبور إلى المغرب . ويقال إن أبا عبد الله لم يأذن لوزيريه في إجراء هذه المفاوضات ، ولم يعلم بأمرها حتى تمخضت عن مشروع جديد ، يقرر فيه أبو عبد الله بتنازله عن جميع حقوقه وأملكه ، نظير ثمن معين ، ويتعهد بالعبور إلى المغرب . ويقال إن الملك المنكود ، حينما عرض عليه ابن كماشه هذا الاتفاق ، ثار لعقده ، وكاد يبطش بوزيره ، ولكنه عاد فاستمع إلى شرح الوزير ونصحه ، بأن البقاء في أرض العدو ، وفي ظل العبودية والهوان ، لم يبق له محل ، وأنه ليس مكفول السلامة والطمأنينة ، وأن العبور إلى أرض الإسلام خير وأبقى . هذا ولعل أبو عبد الله نفسه قد أدرك ، كما أدرك عمه مولاي الزغل من قبل ، أن تلك الحياة الدليلة التي فرضت عليه ، لا تخلق به ولا تجمل ، وأنه يستحيل عليه البقاء في هذا الوضع المؤلم ، كتابع للملك قشتالة . وعلى أي حال فقد اقتنع أبو عبد الله ، بوجهة نظر وزيره . ولكنه أرسل أمينه ومدير شئون أبي القاسم عبد الملك (المليخ) ، ليسعى إلى تعديل الاتفاق لمصلحته . وبعد مفاوضات جديدة ، وضع الاتفاق النهائي ، الذي قبله السلطان

Lafuente Alcantara: ibld; V. III. p. 80 (١)

Lafuente Alcantara : ibld, V. III. p. 81 (٢)

المخلوع . ونخلاصته أنه يتعهد بالعبور إلى المغرب ، في موعد أقصاه نهاية شهر أكتوبر سنة ١٤٩٣ ، وأنه يتنازل عن سائر ضياعه ، في أندرش ولوشار وبرشينا وغيرها ، وكذلك عن أملاكه الأخرى بغرناطة ، بالبيع للملكين الكاثوليكين ، وذلك نظير ثمن إجمالى قدره واحد وعشرون ألف جنيه قشتالى (كاستليانو) من الذهب الحر ، أو الدوقات المضروبة ، من الذهب الخالص . كما يتنازل أبو عبد الله عن اختصاصه المدنى والجنائى . ويحمل إليه المال قبل رحيله بثمانية أيام ، ويقدم إليه الملكان عربتين لحمل متاعه ، وسفناً ينتقل عليها مع صحبه ، إلى المغرب ، ويتضمن الاتفاق نصوصاً أخرى ببيع الأميرات لأملاكهن ، إلى الملكين الكاثوليكين ، وكذلك ببيع الوزير ابن كماشه والوزير أبى القاسم كل لأملاكه ، نظير مقادير من المال ، وبنفس الشروط .

تلك خلاصة الإتفاق الأخير ، الذى عقد بين الملكين الكاثوليكين ، وبين آخر ملوك الأندلس ، للتنازل عن سائر حقوقه وحقوق آله وصحبه ، ومغادرته لأرض الوطن القديم ، بصورة نهائية . ويحمل هذا الاتفاق ، تاريخ ١٥ ابريل سنة ١٤٩٣ ، وتملاً نسخته القشتالية عشر صفحات كبيرة . وهو ممتاز دون سائر الوثائق القشتالية الأخرى ، التى تتعلق بهذه الفترة ، بأنه يحمل فى ذيله موافقة أبى عبد الله بالعربية ممهورة بتوقيعه وخاتمه ، وإلى القارئ نص هذه الموافقة ، التى تدلى ألفاظها ومعانيها بكثير من العبر الموثلة: (١)

« الحمد لله إلى السلطان والسلطانة أضيافى ، أنا الأمير محمد بن على بن نصر خديمكم ، واصلتى من مقامكم العلى ، العقيد وفيها جميع الفصول ، الذى عقدها عنى وبكم التقديم ، من خديمى القائد أبو القاسم المليخ ، ووصلت بخط يدكم الكريمة عليها ، وبطابعكم العزيز ، كيف هيت مذكورة بهذا الذى هى تصلكم . وإنى نوفى ونحلف أنى رضيت بها ، بكلام الوفا مثل خديم جيد . وترى هذا خط يدى وطابعى أرقيته عليها ، لتظهر صحة قولى . ووصلت بتاريخ الثالث والعشرين من شهر رمضان المعظم عام ثمانية وتسعون وثمانمائة . أنا كاتبه محمد بن على بن نصر

(١) حصلنا على صورة فتوغرافية لهذه الوثيقة ، وهى تحفظ بدار المحفوظات العامة فى سيمانكا Archivo general de Simancas برقم 3 - 11 P. R. ، وتعرض الصفحة الأخيرة ، التى تضمنت خط أبى عبد الله ، فى قاعة المعرض بدار المحفوظات ، كما تعرض صورة مكبرة من موافقة أبى عبد الله ، بمتحف مدريد الحربى مقرونة بترجمة قشتالية .

رضيت وقبلت جميع ما في هذا المكتوب الثابت ، وتقبل بيدي ، إلى أضيافى
السلطان والسلطانة مدّ لي هنا كما .

وهكذا اعتزم أبو عبد الله أمره ، وعول في النهاية على مغادرة الوطن المغلوب
وتوفيت زوجته أثناء ذلك ، فلم يحل الرزء دون مضيه ، في اتخاذ أهبة الرحيل .
وفي أوائل شهر أكتوبر سنة ١٤٩٣ ، غادر أبو عبد الله الوطن القديم ، في غمر
من الحشرات والأسى ، وجاز البحر إلى المغرب ، بأسرته وأمواله وحشمه ، من
ثغر أدرة الصغيرة الواقع جنوبي برجة ، في سفينة كبيرة أعدت لجوازه ، وعبر في
نفس الوقت من ثغر المنكب ؛ عدد كبير من الوزراء والقادة والأكابر ، من صحبه
ممن آثروا الرحيل ، وبلغ جميع الذين عبروا مع الملك المخلوع ألفاً ومائة وثلاثين
شخصاً (١) .

ونزل أبو عبد الله أولاً في مليلة ثم قصد إلى فاس واستقر بها (٢) . وتقدم
إلى ملكها السلطان أبي عبد الله محمد الشيخ ، زعيم بني وطّاس (٣) الذين خلفوا
بني مرين في الملك ، مستجيراً به ، مستظلاً بلوائه ورعايته ، معترفاً عما أصاب الإسلام
في الأندلس على يده ، متبرثاً بما نسب إليه من إثم وتفريط في حق الوطن والدين .
وهذا الدفاع الشهير الذي يقدمه إلينا أبو عبد الله عن موقفه وتصرفه ، هو قطعة
رائعة من الفصاحة السياسية والبيان الساحر ، وهو يدل في روحه وقوته وروعته ،
على فداحة التبعة التي شعر آخر ملوك الأندلس أنه يحملها أمام الله والتاريخ ، وأمام
الأمم الإسلامية والأجيال القادمة كلها ، وعلى أن هذا الأمير المنكود لم يرد أن ينحدر
إلى غمر النسيان والعدم ، محكوماً عليه دون أن يبسط للتاريخ قضيته ، فيصير
حكمه فيها على ضوء أقواله ودفاعه .

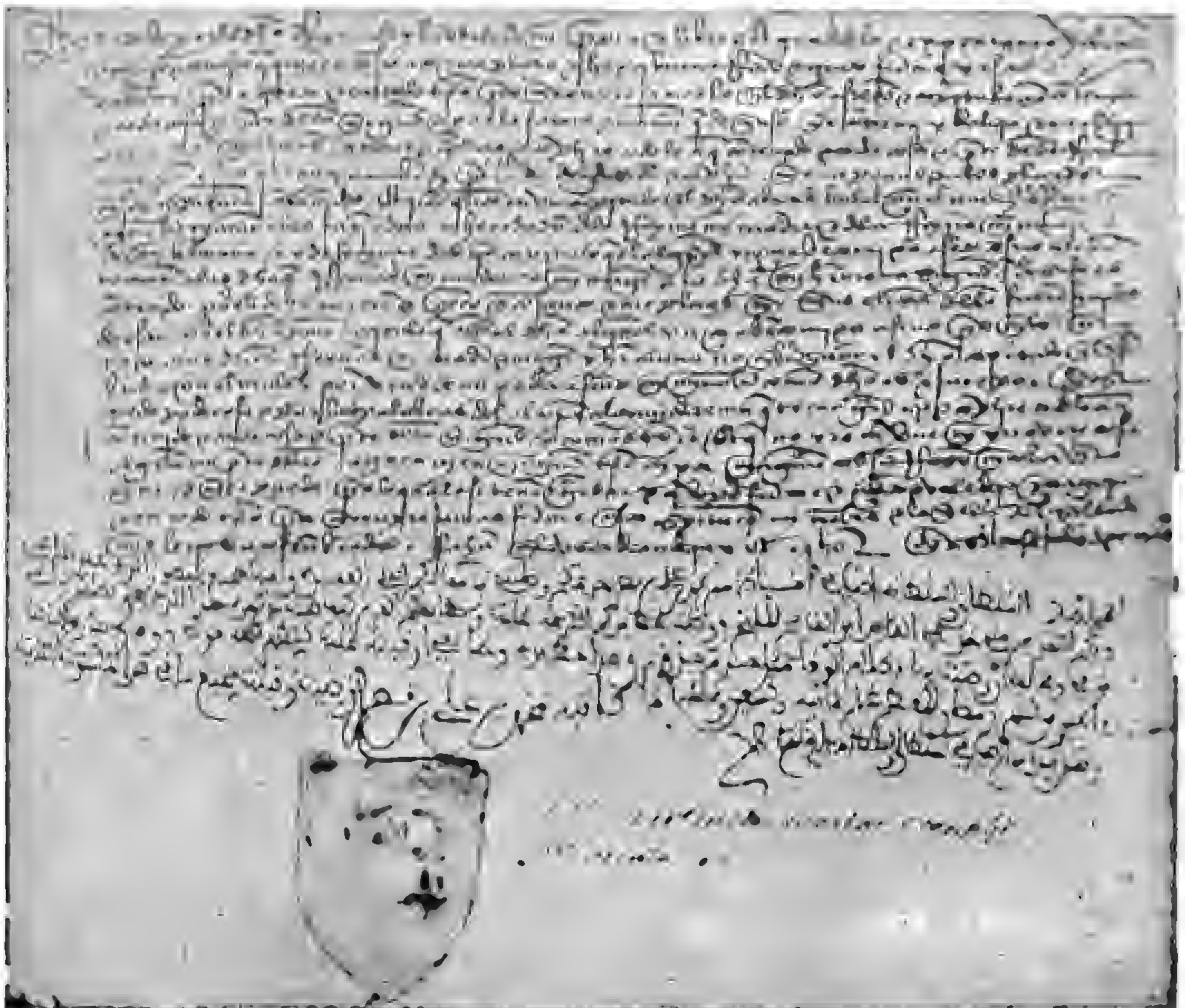
وقد كتب هذا الدفاع الشهير ، الفريد في التاريخ الإسلامي ، على لسان أبي عبد الله

(١) Lafuente Alcantara: ibid, V. III. p. 81 . ويقول صاحب أخبار العصر إن

الذين رحلوا مع أبي عبد الله بلغوا نحو سبعمائة فقط (طبعة تطوان ص ٤٧) .

(٢) أزهار الرياض ج ١ ص ٦٧ و ٧١ .

(٣) هم بطن من بطون بني مرين . وقد ظهوروا في بداية أمرهم بتولى الوزارة ، ونشأت بينهم
وبين بني مرين فيما بعد خصومة ومنافسة . وقام كبيرهم ومؤسس دولتهم أبو عبد الله محمد الشيخ بن زكريا
أولاً في ثغر أصيلا ، واستفحل أمره ثم زحف على فاس واستولى عليها في سنة ٨٧٦ هـ (١٤٧٢ م)
ثم غلب على سائر الجهات والقبائل المحيطة بها ، وقامت فوق أنقاض ملك بني مرين دولة مغربية جديدة .



ذيل المعاهدة النهائية التي عقدت بين الملكين الكاثوليكين وأبي عبد الله بتاريخ ١٥ أبريل سنة ١٤٩٣ وفيها يتعهد بين أبله
ومقادرة اسبانيا نهائياً . وقد ذيل عليها أبو عبد الله بخطه بالقبول ، وبصمها بخاتمه وذلك بتاريخ ٢٣ رمضان سنة ٨٩٨
(٧ أغسطس سنة ١٤٩٣) . والأصل محفوظ بدار المحفوظات العامة في سميانقا برقم P.R. 11-3

وزيره وكاتبه ، محمد بن عبد الله العربي العقيلي ، في رسالة مستفيضة قوية مؤثرة ، موجهة إلى ملك فاس ، وجعل لها عنواناً شعرياً مشجياً هو : « الروض العاطر الأنفاس في التوسل إلى المولى الإمام سلطان فاس » . وقد كان العقيلي من أعلام البلاغة في هذا العصر .

ولما عول أبو عبد الله على الرحيل إلى المغرب جاز العقيلي البحر مع أميره ، وجازت قبل ستموطه غرناطة وبعده إلى المغرب جمهرة كبيرة من أقطاب العلم والأدب ، هم البقية الباقية من مجتمع الأندلس الفكرى^(١) . وللعقيلي آثار في النظم والنثر ، تبدو لروعتها كأنها نفثات أخيرة ، لأدب الأندلس المحتضرة ، وكان دفاع أبي عبد الله من أبدعها وأروعها .

ونقل إلينا المقرئ مؤرخ الأندلس هذا الدفاع الشهير بنصه في مؤلفه الجامع « نفح الطيب » ، وكذلك في كتابه « أزهار الرياض »^(٢) . وقد قدم له كاتبه بعد الديباجة بقصيدة رائعة جاء في مطلعها :

مولى الملوك ملوك العرب والعجم	رعيا لما مثله يرعى من الذم
بك استجرنا وأنت نعم الحار لمن	جار الزمان عليه جور منتقم
حتى غدا ملكه بالرغم مستلباً	وأفطع الخطب ما يأتي على الرغم
حكم من الله ختم لا مرد له	وهل مرد لحكم منه منحتم
وهي الليالي وقاك الله صولتها	تصول حتى على الآساد في الأجهم
كنا ملوكاً لنا في أرضنا دول	نمنا بها تحت أفنان من النعم
فأيقظتنا سهام للردى صيباً	يرمى بأفجع حف من بهن رمي
فلا تم تحت ظل الملك نومتنا	وأى ملك بظل الملك لم ينم
يبكى عليه الذى كان يعرفه	بأدمع مزجت أمواهها بدم

ومنها في التوسل والاعتذار وهو لب موضوعها :

وصل أواصر قد كانت لنا اشتبكت	فالملك بين ملوك الأرض كالرحم
وابسط لنا الخلق المرجو باسطه	واعطف ولا تنحرف واعذر ولا تلم
لا تأخذنا بأقوال الوشاة ولم	نذنب ولو كثرت أقوال ذى الوخم
فما أطقنا دفاعاً للقضاء وما	ارادت انفسنا ما حل من نقم

(١) راجع أزهار الرياض ج ١ ص ٧١ .

(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٧ - ٦٢٨ ، وأزهار الرياض ج ١ ص ٧٢ - ١٠٢ .

ولا ركوباً بإزعاج لساخنة
والمرء ما لم يعنه الله أضيع من
وكل ما كان غير الله يحرسه

* * *

ولا تعاتب على أشياء قد قدرت
وعدّ عما مضى إذ لا ارتجاع له
إيه حنانيك يابن الأكرمين على
فأنت أنت ولولا أنت ما نهضت
رحماك يا راحماً ينمى إلى رُحما
فكم مواقف صدق في الجهاد لنا
والسيف ينخضب بالمحمر من علق
ولا ترى صدر غضب غير منقصف
حتى دهمنا بدهيا لا اقتدار بها

* * *

تالله ما أضمرت غشا ضمائرنا
لكن طلبنا من الأمر الذي طلبت
فخاننا عنده الحدّ الخثون ومن
فاسود ما اخضر من عيش دهمته عدأ
وشتت البين شملاً كان منتظماً
فرب مبنى شديد قد أناخ به
قمنا لديه أصـيـلانا نسائله
وما ظننا بأن نبقى إلى زمن
لكن رضاً بالقضا الحارى وإن طويت
لبيك يا من دعانا نحو حضرته
وأعطى الأمن الذى رصت قواعده
خليفة الله وافاك العبيد فكن
وبين أسلافنا ما قد علمت به
وأنت منهم كأصل مطلع غصنا

ولا طوت صحة منها على سقم
ولاتنا قبلنا فى الأعصر الدهم
تقعد به نكبات الدهر لم يقم
بالأسمر اللدن أو بالأبيض الخدم
والبين أقطع للموصول من جلّم
ركب البلا فقرته أدمع الدّم
أعيا جوابا وما بالربع من أرم
نرى به غرر الأحباب كالحشم
منا الضلوع على برح من الألم
دعاء إبراهيم الحجاج للحرم
على أساس وفاء غير منهدم
فى كل فضل وطول عند ظنهم
من اعتقاد بحكم الإرث مقتسم
أو كالشراك الذى قد قد من أدم

وقد خطوت خطاهم في مآثرهم فلم يُذموا إذن فيها ولم تُذم
وهي طويلة في أكثر من مائة بيت ، وفيها يعطف الشاعر بعد ذلك على
مديح ملوك فاس ، وجهادهم في الأندلس ، والإشادة بعلائقهم القديمة مع
بنى الأحمر ملوك غرناطة ، ومما يقول في ذلك :

أهل الحفيظة يوم الروع يحفظهم	من عصمة الله ما يربى على العصم
بأس تطير شرار منه محرقه	لكل مدرع بالخزم محترق
هم بطائفة التليث قد فتكوا	كمثل ما يفتك السرحان بالغنم
وإن يلثمهم يوم الوغى رهج	أنسوك ما ذكروه عن ذوى اللثم
تضيء آراؤهم في كل معضلة	إضاءة السرج في داج من الظلم
هذا ولو من حياء ذاب محتشم	لذاب منهم حياء كل محتشم
طابت مدائحهم إذ طابت أنفسهم	فاشتقت النسبات اسما من التسم

وفي مديح السلطان القائم أبي عبد الله الوطاسي قوله :

أنسى الخلائف في حلم وفي شرف	وفي مناء وفي علم وفي فهم
فجاز معتمداً منهم ومعتمداً	وامتاز عن قائم منهم ومعتم
وناصر الدين في الإقبال فاق وفي	عجة العلم أزرى بابنه الحكم
أفعال أعدائه معتلة أبداً	متى يرم جزمها بالخلف تنجزم

ويلي هذه القصيدة الطويلة دفاع أبي عبد الله المثور ، في أسلوب يفيض قوة
وبياناً ، وفيه يشير أبو عبد الله إلى حوادث الأندلس ، ويعتذر عن محنته ، ويعترف
بخطئه في عبارات مؤثرة ، ويقول بعد الديباجة موجهاً خطابه إلى سلطان فاس :
« هذا مقام العائد بمقامكم ، المتعلق بأسباب ذمامكم ، المترجى لعواطف
قلوبكم ، وعوارف إنعامكم ، المقبل الأرض تحت أقدامكم ، المتلجلج اللسان عند
محاولة مفاتيح كلامكم . وماذا الذي يقول من وجهه نخجل ، وفؤاده وجل ،
وقضيته المقضية عن التنصل والاعتذار تجل . بيد أني أقول لكم ما أقوله لربي ،
واجترأى عليه أكثر ، واجترأى إليه أكبر : اللهم لا برىء فأعتذر ، ولا قوى
فأنتصر ، لكنى مستقبل مستنيل ، مستعيب مستغفر ، وما أبرئ نفسي إن النفس
لأماراة بالسوء . »

« على أنى لا أنكر عيوبى ، فأنا معدن العيوب ، ولا أجحد ذنوبى فأنا جبل
الذنوب ، إلى الله أشكر عجرى وبُجرى وسقطاتى وغلطاتى ... » .

بيد أنه يدفع عن نفسه تهم التفریط والزيف والحياة ويقول :
 « فثلى كان يفعل أمثالها ، ويحمل من الأوزار المضاعفة أحمالها ، ويهلك نفسه
 ويحيط أعمالها ، عياداً بالله من تحسران الدين : وإيثار الجاحدين والمعتدين ،
 قد ضللت إذن وما أنا من المهتدين . وايم الله لو علمت شعرة في فودي تميل إلى
 تلك الجهة لقلعتها ، بل لتطقت ما تحت عمامتي من هامتي وقطعتها . غير أن الرعاع
 في كل وقت وأوان ، للملك أعداء وعليه أحزاب وأعوان ... وأكثر ما تسمعه
 الكذب ، وطبع جمهور الخلق إلا من عصمه الله إليه منجذب ، ولقد قذفنا من
 الأباطيل بأحجار ، ورمينا بما لا يرمى به الكفار ، فضلاً عن الفجار ، وجرى من
 الأمر المنقول على لسان زيد وعمرو ، ما لكم منه حفظ الجبار ... أكثر المكثرون ،
 وجهد في تعثرنا المتعثرون ، ورمونا عن قوس واحدة ، ونظمونا في سلك
 الملاحدة . أكفراً أيضاً كفراً ، غفراً اللهم غفراً . وهل زدنا على أن طلبنا حقنا
 ممن رام محقه ومحققنا ، فطار دنا في سبيله عداة كانوا لنا غائطين ، فانفتق علينا فتق
 لم يمكننا له رتق ، وما كنا للغيب حافظين . »

ثم يقول أبو عبد الله ، لئن كان قد نزل به القضاء فثلى عرشه ، ونكس لواؤه ،
 ومليك مثواه ، فهو ميثل من سواه في ذلك . ولئن كان مروءاً مصير غرناطة ومصير
 ملكها وأنجاده ، فإنها لم تنفرد بين قواعد الإسلام بذلك المصير الحزن . ألم يقتحم
 التار بغداد ، عروس الإسلام ومثوى الخلافة ، ومهد العلوم ، ويستبيحوا ذمارها
 وحرمها ، ويسحقوا الخلافة وكل معالمها ورسومها ؟ وماذا كانت تستطيع غرناطة
 إزاء قدر محتوم ، وقضاء لا مرد له ؟ « والقضاء لا يرد ولا يصد ، ولا يغالب
 ولا يطالب ، والدائرات تدور ، ولا بد من نقص وكمال للبدور ، والعبد مطيع
 لا مطاع ، وليس يطاع إلا المستطاع ، والخالق القدير جلت قدرته ، في خلقته
 علم غيب ، للأذهان عن مداه انقطاع . »

ثم يعطف إلى التجائه إلى ساحة السلطان بقوله : « وأبها لقد أرهقتنا إرهاقاً ،
 وجرعتنا من صاب الأوصاب كأساً دهاقاً ، ولم تفرع إلى غير بابكم المنيع الجنب ،
 المتفتح حين سدت الأبواب : ولم نلبس غير لباس نعمائكم ، حين خلعنا ما ألبسنا
 الملك من الأثواب . وإلى أمه يلجأ الطفل لحأ اللهفان ، وعند الشدائد تمتاز السيوف
 من الأجفان ، ووجه الله تعالى يبق ، وكل من عليها فان . »

ويشير أبو عبد الله إلى رفضه لما عرضه عليه ملك اسبانيا ، من الإقامة في كنفه

وتحت حمايته فيقول : « ولقد عرض علينا صاحب قشتالة مواضع معتبرة خير فيها ، وأعطى من أمانه ، المؤكد فيه خطه بإيمانه ، ما يقنع النفوس ويكفيها ، فلم نرو نحن من سلالة الأحمر مجاورة الصُفُر ، ولا سوغ لنا الإيمان ، الإقامة بين ، ظهراني الكفر ما وجدنا عن ذلك مندوحة ولو شاسعة ، وأمنّا من المطالب للمشغب ، حمة شر لنا لاسعة . »

ثم يشير إلى أنه تلقى كذلك دعوات كريمة من المشرق للذهاب والإقامة ، ولكنه أثر الجواز إلى المغرب ، دار آبائه من قبل ، وملاذمهم دائماً عند النواثب ، ولم يرتض سوى الانضواء إلا لذلك الجنب ، أعنى سلاطين المغرب ، الذين أوصى آباؤه وأجداده بالانضواء إليهم ، وقت الخطر الداهم .

ويختم أبو عبد الله دفاعه برثاء مؤثر للملكه ومصيره فيقول : « ثم عزاء حسناً وصبراً جميلاً ، عن أرض أورثها من شاء من عباده ، معقباً لهم ومديلاً ، سادلاً عليهم من ستور الإملاء الطويلة سدولاً ، « سنة الله التي قد نخلت من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً » ، فليطر طائر الوسواس المرفرف مطيراً ، كان ذلك في الكتاب مسطوراً ، ولم نستطع عن مورده صدوراً ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً . » ويعود أبو عبد الله بعد هذا الدفاع المستفيض المؤثر ، إلى الإشادة بخلال سلاطين فاس ومآثرهم ، ويقرر أنه يضع نفسه تحت حماية السلطان ورعايته منتظماً في سلك أوليائه ، متشرفاً بخدمة عليائه ، ليقضى بقية عمره في كنفه مصوناً من المخاطر والضميم .

* * *

تلك خلاصة الدفاع الشهير الذي تركته آخر ملوك الأندلس للخلف من بعده . وهو دفاع حار مؤثر يذكرنا بتلك الاعتذارات الشهيرة (أبولوچيا) ، التي لجأ إليها الأقدمون في ظروف مختلفة ، لتبرير بعض المواقف والآراء . وفيه يقف أبو عبد الله موقف المذنب البريء معاً ، فهو لا يتنصل من جميع الأخطاء ، ولكنه يتنصل من تبعة ما حدث ، ويصور نفسه قبل كل شيء ضحية القدر ، ويدفع عن نفسه بالأخص تهمة التفريط والخيانة والزيف . فإلى أي حد تتفق هذه الصورة مع الحقيقة ، ومع منطق الحوادث والظروف التي وقعت فيها المأساة ؟ لقد تبوأ أبو عبد الله عرش غرناطة لأول مرة وهو فتى في الحادية والعشرين ، ثم عاد إلى تبوئه بعد ذلك بعدة أعوام ، وكان جلوسه في كل مرة نتيجة حرب أهلية مخربة

طاحنة . وقد نشأ هذا الأمير الضعيف في بلاط منحل ، يضطرم بصنوف الدس والخصومة ، ولم تهينه تربيته وصفاته للاضطلاع بمهام الملك الخطيرة ، ولا سيما في مثل تلك الظروف الدقيقة ، التي كانت تجوزها مملكة محتضرة . أجل كانت الأندلس تسير إلى قدرها المحتوم ، قبل المأساة ببعيد ، ولم يك ثمة شك في مصير غرناطة ، بعد أن سقطت جميع القواعد الأندلسية الأخرى في يد العدو القوي الظافر ؛ ولكن ليس من شك أيضاً في أن الأواخر من ملوك غرناطة ، يحملون كثيراً من التبعة ، في التعجيل بوقوع المأساة . فنحن نراهم ينجحون إلى الدعة والحمول ، ويتركون شئون الدفاع عن المملكة ، وينجحون إلى حروب أهلية يمزق فيها بعضهم بعضاً ، والعدو من ورائهم متربص ومتوثب يرقب الفرص . وقد كان هذا شأن مملكة غرناطة وشأن بني الأحمر ، ولا سيما منذ أوائل القرن التاسع الهجري أو أوائل القرن الرابع عشر الميلادي . ومنذ عهد الأمير علي أبي الحسن ، تبلغ الحرب الأهلية ذروتها الخطيرة ، ويغدو مصير المملكة الإسلامية رهين رحمة القدر ، وقد شاء القدر أن يكون السلطان أبو الحسن ، وأخوه الأمير محمد بن سعد المعروف بالزغل ، وولده أبو عبد الله محمد أبطال المأساة الأخيرة ، حملتهم نفس الأطماع والأهواء الخطيرة ، فالتحدروا إلى معترك الحرب الأهلية ، وشغلتهم الحرب الأهلية طول الوقت عن أن يقدرُوا حقائق الموقف ، وأن يستشعروا الخطر الداهم ، وأن يستجمعوا قواهم المشتركة لمواجهة العدو المشترك ، والتحدروا أبو عبد الله إلى أخطر ما في هذه المعركة المميتة من وسائل الإغراء والتفوق ، فجنح إلى مخالفة العدو الخالد ، ولم يحجم عن أن يستعدي ملك النصارى على أبيه وعمه ، كي ينتزع الملك لنفسه ، فلما ظفر بعرش غرناطة بموازرة ملك قشتالة ، لم يكن سوى صنيعته وأسير وحيه . وكان عمه الزغل قد بسط سلطانه على الأنحاء الشرقية والجنوبية ، فلم يحجم عن مهاجمته في نفس الوقت الذي هاجمه فيه ملك النصارى لينتزع منه ما تحت يده ، وكان الزغل في الوقع بطل المعركة الأخيرة ، وقد أبدى في مقاومة العدو بسالة رائعة خللتها سير العصر ؛ ولم يشعر أبو عبد الله بفداحة خطئه ، إلا حينما تحول إليه حليفه الغادر ملك قشتالة بجيشه الضخم ، ليمحاصر غرناطة ويضربها الضربة الأخيرة ، وكانت قوى غرناطة ومواردها قد بددت في حروب أهلية عقيمة ، فلم يغن دفاعها شيئاً أمام القوة القاهرة والقدر المحتوم ، فكانت النكبة ، وكانت الخاتمة المؤسفة .

ولم يكن موقف أنى عبد الله خلال تلك اللحظات الحاسمة في مصيره ومصير أمته ، سوى موقف الأمير الضعيف المتخاذل ، الذى يسعى إلى سلامة نفسه وإنقاذ ما يمكن إنقاذه من ذلك التراث العريض الذى أصبح وشيك الزوال ، وهو موقف لم يكن بلا شك مشرفاً ، ولا متفقاً مع مقتضيات البسالة والتضحية والشهامة .

أليس لنا بعد ذلك أن نحكم على آخر ملوك الأندلس ؟ إن أبا عبد الله يحمل أمام الله والتاريخ تبعة لا ريب فيها . بيد أنه من الحق أيضاً أن نقول إنها ليست تبعة الخيانة المقصودة أو الجريمة العمد ، بل هى تبعة « التفريط » ، والتخاذل ، والخطأ ، وعدم التبصر في العواقب .

على أن أبا عبد الله ، مع ما يستحقه من لوم التاريخ وإدانته على النحو المتقدم ، يستحق في نظرنا تقديرأ خاصاً ، لما وفق إليه من الاحتفاظ بدينه ودين آبائه وأجداده . والواقع أن فداحة المحنة التى نزلت به ، وظروف الإغراء التى كانت تحيط به ، والى حملت بعض أكابر الزعماء والقادة المسلمين على التنصر ، حسبما نوضح بعد ، وسعى الملكين الكاثوليكين المتعصبين إلى تنصير من يمكن تنصيره من الزعماء المسلمين بكل الوسائل : هذه الظروف كلها كانت خليقة بأن تحمل أنى عبد الله على الاستجابة إلى دواعى التحريض والإغراء فتزل قدمه إلى الدرك السحيق الذى انحدر إليه بعض قاداته ووزرائه ، ولكنه استطاع أن يخرج من هذه الغمار معتصماً بدينه المتين ، وهو ما يشير إليه بحرارة في دفاعه المتقدم .

* * *

استقر أبو عبد الله بعد جوازه إلى فاس في ظل بنى وطّاس ، وشيد بها قصوراً على طراز الأندلس ، رآها وتجول فيها المقرئ مؤرخ الأندلس بعد ذلك بنحو قرن وربع (١٠٢٧ هـ - ١٦١٨ م) (١) . ويروى أنه لما نزل أبو عبد الله وصحبه مدينة فاس ، أصابت الناس بها شدة عظيمة من الجوع والغلاء والوباء ، حتى غادرها كثير من أهلها ، ورجع بعض الأندلسيين إلى بلادهم ، وتقاعد كثير منهم عن الجواز إلى المغرب خوف الشدة والفاقة (٢) . وعاش الملك المخلوع في منفاه طويلاً يجمع كأسه المرة حتى الثمالة ، ويتقلب في غمر الحسرات والذكريات المفجعة ، ويشهد خلال هذه الفترة المؤلمة ، جهود السياسة الإسبانية في سحق

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٧ .

(٢) أزهار الرياض ج ١ ص ٦٨ .

الإسلام بالأندلس ، وسمي مدنيته وكل رسومه وآثاره ، ويشهد يد الفناء والحو ،
تعمل لاستئصال هذا الشعب الأندلسي النبيل التالد ، من الأرض التي لبث
يرعاها ثمانية قرون ، وينثر في أرجائها فيض عبقريته .

وتختلف الرواية في تاريخ وفاة أبي عبد الله اختلافاً بيناً . فيقول لنا المقرئ في
« نفح الطيب » ، إنه توفي بفاس سنة أربعين وتسعمائة (١٥٣٤ م) وإنه « دفن
بإزاء المصلى خارج باب الشريعة »^(١) . ثم يعود في « أزهار الرياض » فيقول إنه
توفي بفاس في سنة أربعة وعشرين وتسعمائة (١٥١٨ م)^(٢) . وتذكر لنا الرواية
القشتالية القريبة من ذلك العصر أن أبا عبد الله توفي قتيلاً في موقعة أبي عقبة الشهيرة
التي نشبت بين السلطان أحمد أبي العباس الوطاسي حفيد أبي عبد الله محمد الوطاسي ،
وبين خصومه السعديين الأشراف الخوارج عليه ، واشترك فيها أبو عبد الله محارباً
إلى جانب أصدقائه وحماة الوطاسيين . وقد حدثت هذه الموقعة في سنة ٩٤٣ هـ
(١٥٣٦ م) وهزم فيها بنو وطاس هزيمة شديدة^(٣) ، فإذا صححت هذه الرواية^(٤) ،
فإن أبا عبد الله يكون قد توفي في نحو الخامسة والسبعين من عمره . بيد أننا نرجح
رواية المقرئ الأولى ، وهي أن أبا عبد الله توفي بقصره في فاس سنة ٩٤٠ هـ .
أما روايته الثانية ، وهي أنه توفي في سنة ٩٢٤ هـ ، فالمرجح أنها تحريف رقمي
للأولى . وترك أبو عبد الله ولدين هما أحمد ويوسف ، واستمر عقبه متصلاً معروفاً
بفاس مدى أحقاب ، ولكنهم انحدروا قبل بعيد إلى هاوية البؤس والفاقة . ويذكر
لنا المقرئ أنه رآهم وتبع أخبارهم حتى سنة ١٠٣٧ هـ (١٦٢٨ م) ، وأنهم كانوا
معدمين يعيشون من أموال الصدقات^(٥) .

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٧ ؛ ويتابع السلاوي المقرئ في روايته (الإستقصاء ج ٢
ص ١٦٨) .

(٢) أزهار الرياض ج ٢ ص ١٦٨ .

(٣) الإستقصاء ج ٢ ص ١٧٧ .

(٤) هذه هي رواية Luis del Marmol في كتابه *Rebellón y Castigo de los Moriscos* .

Lib. I. Cap. XXI ، ويعلق هذا المؤرخ على هذه الرواية قائلاً : « ومن سخرية القدر أن يموت هذا الملك
دفاعاً عن مملكة أخرى ، بينما هو لم يجرؤ أن يموت دفاعاً عن مملكته » . وينقل هذه الرواية عنه كثير من
المؤرخين الإسبان والبرتغاليين . راجع Lafuente Alcantara; *ibid*; V. III. p. 84 . وينقل صاحب
الإستقصاء هذه الرواية عن مؤرخ برتغالي (ج ٢ ص ١٦٨) . وينقلها واشنطن إيرفينج في الملحق الخاص

بأبي عبد الله في آخر كتابه : *Conquest of Granada* .

(٥) نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٧ .

ولم نعثّر على تاريخ وفاة الأميرة الباسلة عائشة الحرة والدة أبي عبد الله ، ولا بد أنها توفيت قبله بمدة طويلة .

ويعرف أبو عبد الله محمد آخر ملوك الأندلس بأبي عبد الله ، الغالب بالله وهي شعار سائر ملوك غرناطة ، ويعرف في الرواية الإسبانية ، بمحمد الحادي عشر ، وبالمملك الصغير El Rey Chico ، تمييزاً له من عمه أبي عبد الله الزغل ، ويلقب أيضاً بالزغبى ومعناها المنكود أو عاثر الجدد ، تنويعاً بأحداث حياته المؤسسية . وبما أصاب الإسلام على يديه من الخطوب والمحن (١) .

— ٣ —

ولا بد لنا قبل أن نختم الكلام على تلك الصفحة المؤسسية من تاريخ الأندلس ، أن نتحدث عن ذلك الصرح الخالد الذي مازال رمزاً حياً لتلك المأساة المفجعة ، التي اختتمت بين جدران الصامته ، واقترنت باسمه إلى الأبد ، ونعني بذلك حمراء غرناطة ، ذلك الصرح الذي يمثل في تاريخ الأندلس عصرآ بأسره ، وحضارة بأسرها ، والذي ما يزال يشير بجلاله وروعته ، كثيراً من المواقف والذكريات الخالدة . لبثت حمراء غرناطة زهاء قرنين عنواناً لمجد الإسلام ودولته ، وملاذاً ساطعاً للحضارة الأندلسية ، التي كانت أنوارها الباهرة تشع في أرجاء أوربا ، خلال حلك العصور الوسطى ، فلما أشرفت الدولة الإسلامية على الفناء ، غدت حمراء غرناطة قبرها الأخير ، وطوت بين جدرانها صفحاتها المحيطة . وما زالت الحمراء وساحاتها الشاسعة ، وأبهاؤها الفخمة ، وأبراجها الشاحنة ، منذ أكثر من أربعة قرون عنواناً للمجد الذاهب ، وشاهداً صامتاً لتحليل الحوادث والذكريات .

وتاريخ الحمراء هو تاريخ الصروح والهياكل العظيمة ، التي تقبوا مقامها الراسخ في تاريخ الدول التي شادتها ، والعصور التي شهدتها ، فهو جزء لا ينفصل من تاريخ الأندلس ، كما أن قصر القاتيك كان جزء لا ينفصل من تاريخ البابوية . وما تاريخ الحمراء وسير بناتها وساداتها ، إلا تاريخ مملكة غرناطة ، وما الحمراء ذاتها ، وما تعرضه من روعة في الصنع والإنشاء ، وما تحوى من بدائع الفن والزخرف ، إلا صفحة جامعة من تاريخ الحضارة الأندلسية ، فالسائح المتأمل في جنبات هذا

(١) الزغبى مصغر « زغبى » ، ومعناها في لغة أهل غرناطة : المنكود أو التمس . ومعناها وفقاً لما رمول « التمس الصغير » « الرجل المسكين » Le petit Malheureux : Le pauvre Homme (راجع دوزى . 594 . Supp. aux Dict. arabes) .

الصرح الخالد ، لا يسعه إلا أن يرتد بذهنه إلى الماضي البعيد ، فيذكر قصة أمة مجيدة ، كانت سيدة هذه الأرض والمهاد ، وحضارة زاهرة كانت تفيض على هذه الأرض والمهاد ، عظمة ونعماء ونوراً .

وللحمراء تاريخ قديم يرجع إلى القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) أيام الدولة الإسلامية الكبرى . وقد كانت يومئذ قلعة متواضعة . وتتحدث الرواية الأندلسية المعاصرة عن قلعة بنيت على ضفة نهر حدره El Darro اليسرى ، تسمى قلعة الحمراء ، وتذكرها بالأخص أيام الحروب الأهلية التي اضطربت في منطقة غرناطة ، بين المولدين والبطون العربية ، ومما قاله شاعر من شعراء ذلك العصر هو عبد الله العبلي ، في الإشارة إلى فتن غرناطة وإلى قلعة الحمراء :

منازلهم منهم قفسار بلاقع تجارى السفا فيها الرياح الزعازع
وفي القلعة الحمراء تبديد جمعهم وفيها عليهم تستدير الوقائع
كما جدلت آباءهم في خلائها أسنتها والمرهفات القواطع
ولما تولى باديس بن خبوس زعيم البربر حكم غرناطة ، واتخذها قاعدة للملكة في أوائل القرن الخامس الهجري ، أنشأ سوراً ضخماً حول التل الذي تقع عليه القلعة المذكورة ، وأنشأ في داخله قصبة (قلعة) اتخذها مقاماً له ، ومركزاً لحكومته ، وسميت بالقلعة الحمراء ، تجديداً لاسمها القديم . ثم زيد في القلعة ، واتسع نطاقها بمضى الزمن ، وغدت حصن غرناطة وقصبتها أو بعبارة أخرى معقلها الرئيسي . ولما غلب محمد بن الأحمر على غرناطة في سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٨ م) ، أنشأ فوق هذا الموقع القديم ، وداخل الأسوار ، حصنه أو قصره الذي أطلق عليه اسم الحمراء ، وجلب له الماء من نهر حدره ، واتخذة قاعدة للملك ، وأنشأ فيه عدة أبراج منيعة منها البرج الكبير المسمى برج الحراسة Torre de la Vela ، والبرج المقابل له ، وأنشأ له سوراً ضخماً يمتد حتى مستوى الهضبة . والظاهر أنه بنى مسكنه في الجنوب الغربي من الحصن ، أعنى في نفس المكان الذي يقوم عليه قصر الإمبراطور شارلكان . ومن المرجح أن اسم الحمراء يرجع إلى قيام قصر ابن الأحمر فوق أطلال قلعة الحمراء القديمة ، وليس إلى تسميته باسمه . وقد ذكر البعض أن إطلاق اسم الحمراء على صرح غرناطة الملكي يرجع إلى احمرار أبراجه الشاهقة ، أو إلى لون الآجر الأحمر الذي بنيت به الأسوار الخارجية . وقيل أيضاً إن التسمية ترجع إلى لون المشاعل الحمراء التي كان يجري البناء ليلاً على ضوءها . ولكننا نؤثر الأخذ

بالتعليل الأول فهو أقوى وأرجح . وما زالت ثمة بجوار قصر الحمراء أطلال القلعة القديمة تحمل إلى اليوم اسم « قلعة الأبراج الحمراء » *Castillo de Torres bermejas* وهو ما يؤيد صحة هذا التعليل لاسم « الحمراء »^(١) .

واستمر في البناء من بعد محمد بن الأحمر ، ولده محمد الفقيه الملقب بالغالب بالله ، فأنشأ الحصن والقصر الملكي في أواخر القرن السابع الهجري ، وأنشأ حفيده محمد إلى جانب القصر في الجنوب الشرقي منه ، مسجداً بديعاً افتن في تزيينه وزخرفته^(٢) في المكان الذي تحتله اليوم كنيسة سانتا ماريا ، التي بنيت في القرن السابع عشر ، ولم يبق اليوم من آثار مسجد الحمراء سوى مصباح برونزي فخم محفوظ بمتحف مدريد الوطني .

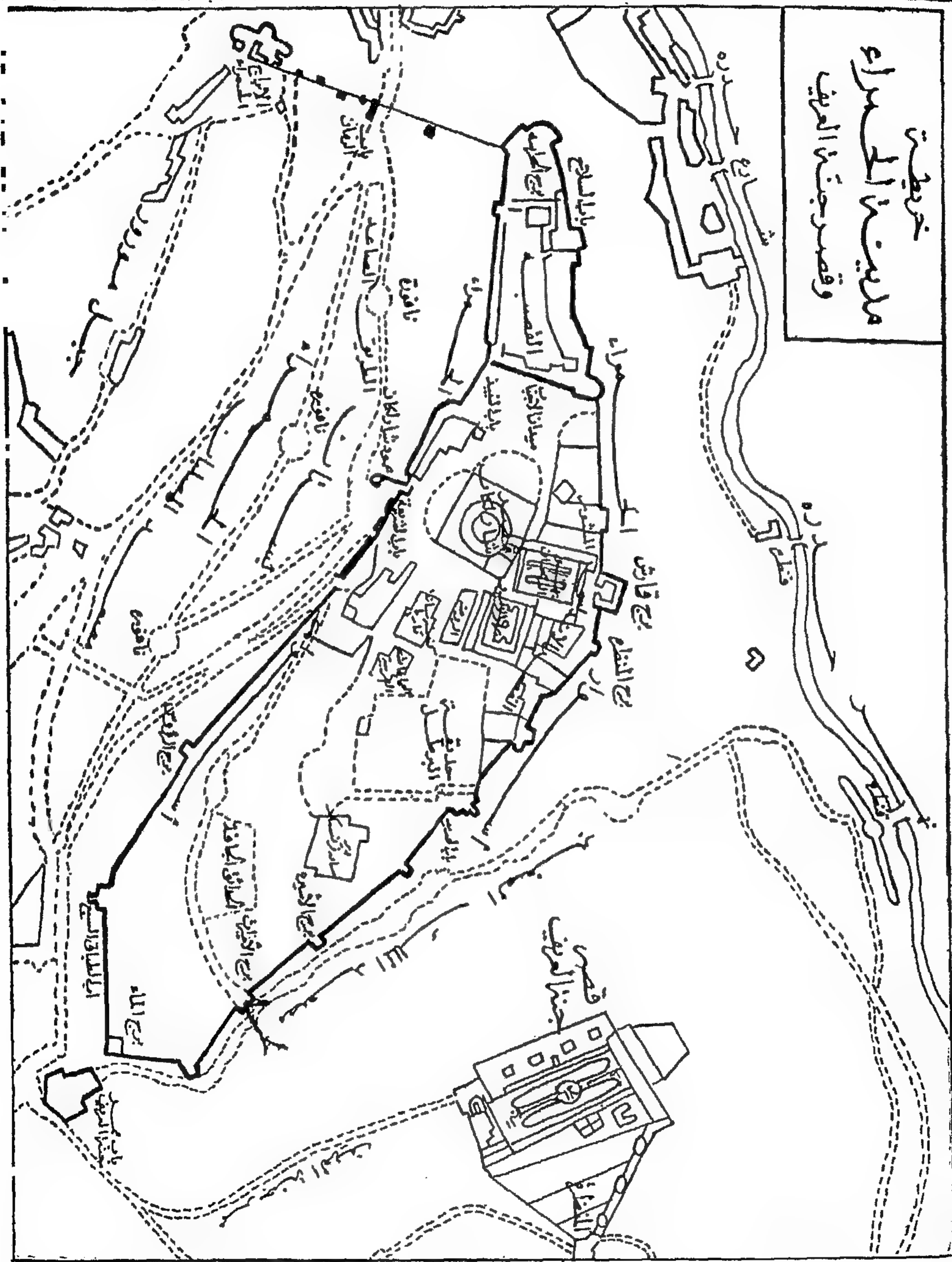
وقد بنيت معظم أجنحة الحمراء الملكية في القرن الرابع عشر في عهد السلطان أبي الوليد إسماعيل ، وولده يوسف أبي الحجاج ، وابنه محمد الغني بالله . ولسنا نعرف شيئاً محققاً عن المهندسين أو الفنانين الذين قاموا على إنشائها . وتدين الحمراء بفخامتها الرائعة إلى السلطان يوسف أبي الحجاج ، الملك الشاعر والفنان الموهوب ، فقد زاد في القصر زيادة كبيرة ، وأكمل به قمارش الضخم ، والبرج الشاهق الذي يعلوه ، وأسبغ عليه روائع الفن والزخرف ، وأنشأ العقد الشاهق الذي يكون مدخل القصر الرئيسي ، وهو المسمى « باب الشريعة » وهو يحمل فوق عقده ، اسمه وتاريخ إنشائه (٧٤٩ هـ - ١٣٤٨ م) . وكان اسم الحمراء يطلق على هذه المجموعة الملكية الفخمة كلها .

وتقع أبنية الحمراء فوق هضبة مرتفعة يبلغ طولها ٧٣٦ متراً وعرضها نحو مائتي متر ، وتشغل نحو خمسة وثلاثين فداناً . ويحيط بالحمراء سور ضخم يتخلله ثلاثة عشر برجاً ، بقى منها إلى اليوم عدة ، منها برج قمارش وهو أعظمها ، وبرج السلاح ، وبرج المتزين ، وبرج العقائل ، وبرج الأسيرة وغيرها^(٣) . ويجري

(١) راجع المغرب في حلى المغرب لابن سعيد ج ٢ ص ١٢٥ ، ومقدمة المستشرق جاينجوس لأطلس « الحمراء » *Alhambra* الذي تقدمت الإشارة إليه ، ص ٥ الهامش وص ٧ و ٨ . وراجع أيضاً المستشرق سيبولد في *Ency. de l'Islam* تحت كلمة *Alhambra*

(١) اللوحة البدرية ص ٥٠ . وراجع الإحاطة في أخبار غرناطة ج ١ ص ٥٥٤ و ٥٥٥ .
(٢) وهي بالإسبانية على التوالي *'Torre de Comares'* *'T. de las Armas'* *'T. del Peinador'* *'T. de las Damas'* *'T. de la Cautiva'* وفيما عدا برج قمارش ، فإن هذه الأسماء كلها من تسمية الإسبان .

خريطة
مليك من الممراء
وقصر جنت المريف



نهر حدره في الوادي الواقع في غربها ، وقد جف اليوم مجراه وغطى معظمه . وموقع الحمراء ذو جمال طبيعي نادر ، فهي تشرف من الشمال والغرب إشرافاً شاملاً على المدينة وعلى فحص غرناطة La Vega ، وتشرف من الشرق والجنوب على آكام جبال سيراً نقادا (جبل شلير) . ولم يبق اليوم من قلعة الحمراء التي كانت تشغل منحدر الهضبة في الشمال الغربي ، سوى أسوارها الخارجية وأبراجها . وأما القصر الملكي فقد بقيت معظم أجزائه . ويعتبر قصر الحمراء من أبداع الآثار الإسلامية التي أبقت عليها حوادث الزمن ، وليس له مثيل في الحسن والروعة من حيث عمده الرخامية الرائعة ، وعقوده ، وسقوفه ذات الزخرف البديع ، ويغمره الضوء والهواء بوفرة ، ويبدو في مجموعه في منتهى الظرف والإناقة . ويقع إلى جنوب الهضبة وشرقها بستان عظيم من صنع الإسبان ، تتخلله طرق حديثة صاعدة ، وقد كان مكانه أيام المسلمين الساحة المعروفة بالسبيكة ، وهو يغص أيام الربيع والصيف باللباب ، ويتخلله خريز الماء المتدفق عن عدد كبير من الجداول والنوافير ، وكان يجاور الحمراء أيام المسلمين حدائق منزرعة بأشجار البرتقال والورود والريحان . ويدخل إلى هضبة الحمراء من بابها الرئيسي المسمى « باب الرمان » Puerta de Granadas وهو من صنع الإسبان ، وقد بنى أيام الإمبراطور شارلكان ، وهو عبارة عن عقد حجري ضخيم ، نصبت في أعلاه ثلاث رمانات صخرية على هيئة مثلث . ثم تسير في طريق صاعدة حتى « باب الشريعة » وهو مدخل الحمراء ، وهو عقد ضخيم يبلغ ارتفاعه خمسة عشر متراً .

ويفضي باب الشريعة إلى مجاز معقود ، ثم إلى درب صغير صاعد ، ينتهي إلى ميدان أطلق عليه الإسبان اسم « ميدان الأجياب » Plaza de los Aljibis ومنه ترى لأول مرة مجموعة الصروح والأماكن الأثرية التي تضمها قصبة الحمراء . فإلى يمينك ترى القصر الذي أنشأه الإمبراطور شارلكان جنوبي قصر الحمراء ، وعلى موقع بعض أجزائه ، وإلى يسارك ترى الساحة التي يطلق عليها اسم القصبة أو الحصن ، وفي نهايتها البرج الضخم المسمى « برج الحراسة » Torre de la Vela وهو يشرف عالياً على مرج غرناطة كله ، وهذا البرج هو الذي اختاره الإسبان عند دخولهم غرناطة لرفع الصليب ، وما يزال هذا الصليب الذي وضع يوم دخول الإسبان قائماً في مكانه ، وهو صليب خشبي كبير وضع في الزاوية الشمالية الغربية .



غريانة : منظر عام لمدينة الحمرام وقد ظهرت من ورائها جبال سين انقادا مجلة بالبلوج .

وأمامك ترى جانباً من قصر الحمراء ، وهو الذى يسميه الإسبان « القصر العربى » Palacio Arabe .

ويمكن أن نقسم أبنية قصر الحمراء إلى مجموعتين أو جناحين كبيرين ، الأول قصر قمارش ، الذى يضم البهو المسمى بهذا الاسم وبرجه الشاهق ، وقد كان هذا الجناح هو المقام الرسمى للوك غرناطة ، وسمى بقصر قمارش نسبة إلى البهو الفخم الذى يقع تحت برج قمارش ، والذى كان يعقد فيه السلطان مجالسه الرسمية ، وكان به مجلس العرش .
والثانى قصر السباع ، وهو الذى يتوسطه بهو الأسود أو بهو السباع ونافورته الشهيرة .

١ - قصر قمارش

والجناح الأول هو أول ما يرى الزائر ، تتقدمه الساحة المعروفة « بفناء البركة » Patio de Al-Berca ، أو فناء الريحان ، وهى عبارة عن فناء كبير مستطيل مكشوف ، تتوسطه بركة من الماء تظللها أشجار الريحان .

ويفضى فناء الريحان من ناحيته الشمالية ، إلى بهو صغير به قبلة زينب بنقوش بديعة ، ويفضى هذا البهو الصغير بدوره إلى أعظم وأفخم أبهاء الحمراء ، وهو بهو قمارش ، أو بهو السفراء Salón de Embajadores كما يسميه الإسبان .

وهو قمارش ، هو عبارة عن بهو مستطيل ، طوله ثمانية عشر متراً وعرضه أحد عشر ، تعلوه قبة خشبية شاهقة يبلغ ارتفاعها ثلاثة وعشرون متراً ، وقد حفرت زخارفها على شكل النجوم ، وزخرفت جدرانها على نفس الطراز ، وفى هذا البهو كان يعقد مجلس العرش ، ولهذا سمي أيضاً بالمشور . ويعلو بهو قمارش ، البرج المسمى بهذا الاسم وهو برج شاهق فى مثل مساحته .

وقد بدأ بإنشاء بهو قمارش ، السلطان أبو اليد إسماعيل ، فى أوائل القرن الثامن للهجرة (أوائل الرابع عشر الميلادى) وأكمله ولده السلطان يوسف أبو الحجاج . وأروع ما فيه زخارف قبة التى احتفظت بنقوشها الأصلية ، أما نقوش الجدران ، فلأنها مع جمالها ليست إلا تجديداً مقلداً لنقوشها القديمة ، قام به الفنانون الإسبان . وقد وردت فيها العبارة الآتية مكررة « عزملولانا السلطان أبى الحجاج » ، وتخللها فى سائر جوانبها شعار بنى نصر المشهور ، وهو « ولا غالب إلا الله » .



المسراة : من زخارف بهو السقراء (بهو قمارش) .

ويفضى بهو البركة من ناحيته اليمنى إلى فناء سفلى يعرف بفناء السرو ،
وقد زرعت فيه بالفعل بعض أشجار السرو . وليس لهذا الفناء أهمية أثرية تذكر ،
وهو من صنع الإسبان ، وإلى جانبه يقع جناح الحمامات السلطانية .
وتقع شرق فناء البركة ، قاعة الأختين Sala de las dos Hermanas ،
وقد سميت بهذا الاسم لأن أرضها تحتوى على قطعتين متساويتين من الرخام ،
فريدتين في ضخامة الحجم .

٢ - قصر السباع

وتفضى قاعة الأختين من بابها الجنوبي ، إلى أجمل وأشهر أجنحة الحمراء ،
ونعنى بهو السباع ، أو بهو الأسود وما إليه .
ويعتبر فناء السباع أو كورة السباع Patio de los Leones ، أجمل وأرشق
أبهاء الحمراء . وقد قام بإنشائه السلطان محمد الغنى بالله ، الذى حكم من سنة
١٣٥٤ - ١٣٩١ م ، وما زال اسمه ماثلاً في مواضع كثيرة من هذا الجناح .
وهو عبارة عن فناء مستطيل مكشوف ، طوله خمسة وثلاثون متراً ، وعرضه
عشرون ، تحيط به من الجوانب الأربع مشرفيات أو أروقة ذات عقود ، تحملها
مائة وأربعة وعشرون عموداً من الرخام الأبيض ، صغيرة الحجم ، متناهية في
الجمال والرشاقة ، وعليها أربع قباب مضلعة ، تقع كل واحدة منها وسط ضلع
من أضلاع المستطيل .

وفي وسط الفناء نافورة الأسود الشهيرة ، وهى عبارة عن نافورة ماء ، يحمل
حوضها المرمى المستدير الضخم ، اثنا عشر أسداً على شكل دائرة ، وقد نقش
فوق دائرة هذا الحوض اثنتى عشر بيتاً من قصيدة ابن زمرك الشهيرة في وصف
الحمراء ، أمام كل أسد بيت منها ، وهذا مطلعها :

تبارك من أعطى الإمام محمداً مغانٍ زانت بالجمال المغانيسا

والا فهذا الروض فيه بدائع أبى الله أن يلقى لها الحسن ثانيا

وفي منتصف الناحية الجنوبية من بهو السباع ، يوجد مدخل قاعة بنى سراج
Sala de los Abencerrajes ، وهو اسم الأسرة الغرناطية الشهيرة ، التى لعبت
دوراً كبيراً في حوادث غرناطة الأخيرة . وهى عبارة عن مستطيل طوله اثنا عشر
متراً وعرضه ثمانية ، وفوقه قبة عالية مضلعة ، وفي وسطه حوض نافورة مرمى



نافورة الأسود ومن ورائها الشرفة الوسطى لبهو الأسود .

مستدير ، وفي قاعه بقع داكنة ثابتة ، تزعم الأسطورة أنها آثار من دماء بنى سراج ، الذين دبر لهم السلطان كميناً ، واستدرجهم إلى الحمراء ، ودبر مقتلهم في هذه القاعة واحداً بعد الآخر .

وفي الناحية الشرقية لفناء الأسود ، يوجد مدخل القاعة التي تسمى قاعة الملوك Sala de los Reyes أو قاعة العدل ، وبها ثلاث عقود أو حنايا ، رسمت في سقف الحنية الوسطى منها ، صور عشرة فرسان مسلمين ، يلبسون العمامم ويجلسون على وسائل ، وهيئاتهم تشع بالوقار والعزة ، ويقول بعض الباحثين إن هذه هي صور ملوك غرناطة العشرة ، الذين سبقوا أبي عبد الله في تولى العرش .

وفي شمال فناء الأسود يقع البهو المسمى «منظرة اللندراخا» : Mirador de Lindar. j. ويوجد بين قاعة الأختين وبين منظرة اللندراخا ، باب يفضى إلى ساحة مستطيلة لم تكن من أبنية الحمراء الأصلية ، ولكنها أنشئت أيام الإمبراطور شارلكان . ويتصل بهذه الساحة رواق ضيق يفضى إلى متزين الملكة Peinador de la Reina ، وهو عبارة عن بهو صغير منخفض ، وقد أنشئ في القرن السادس عشر ، ورسمت على جدرانها صور وزخارف نصرانية من طراز عصر الأحياء .

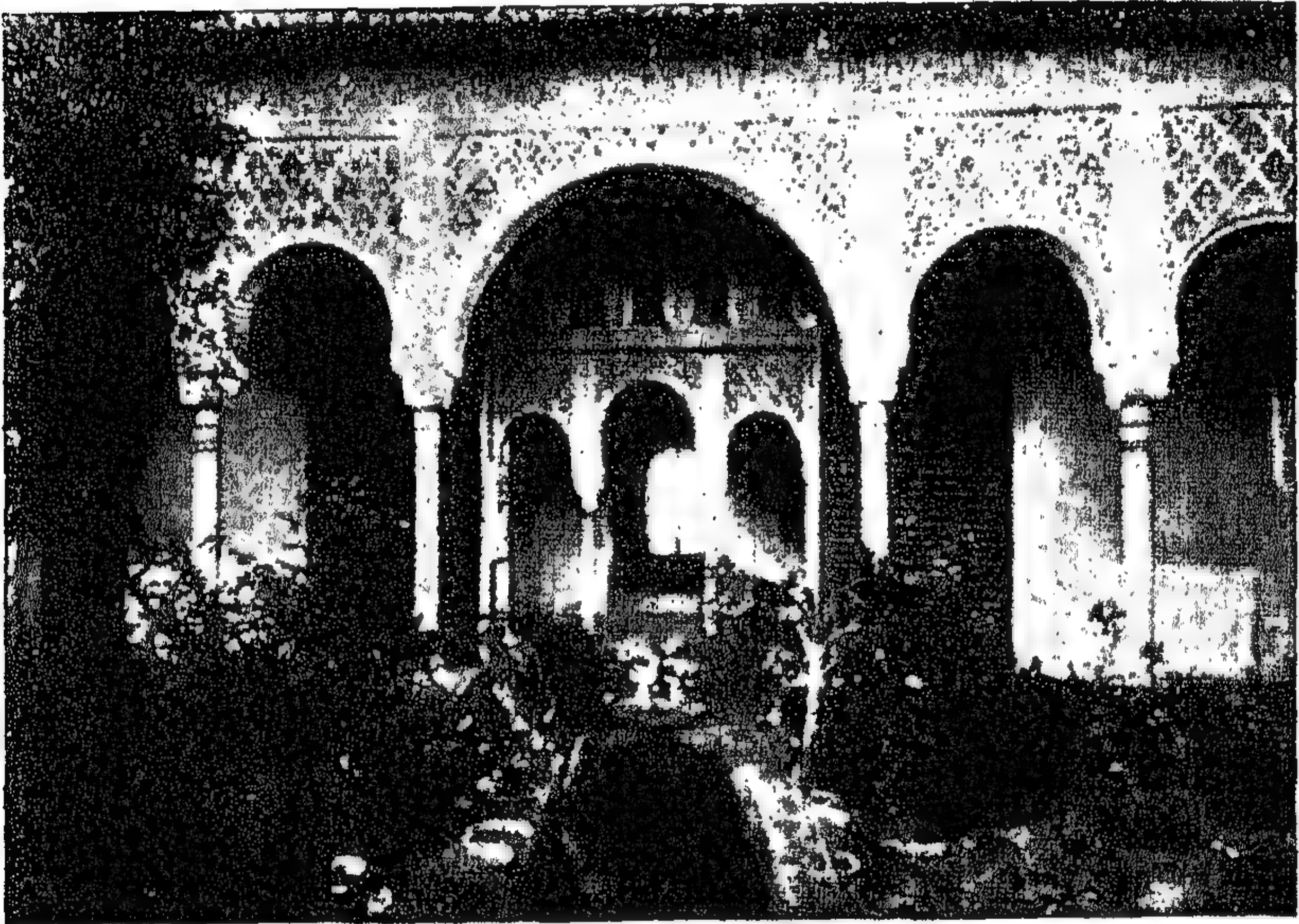
تلك هي محتويات قصر الحمراء ؛ ولا يتسع المقام هنا لنقل إلى القارئ ، ما نقش على جدرانها ، وما في قبابه من النقوش والقصائد العديدة . ولكن الذي يلفت النظر بنوع خاص ، أن شعار بنى نصر وهو «ولا غالب إلا الله» ، قد نقش في كل ركن من أركانها ، وكل ناحية من نواحيه . وتكرار هذا الشعار على هذا النحو يبعث إلى النفوس شعور النبوة والنذير ، ويذكرها بالمأساة الخالدة ، التي توالى حوادثها بين هذه الجدران الصامتة ، التي يكاد الأسى يرسم على زخارفها العربية ونقوشها الإسلامية (١) .

وهناك على مقربة من قصر الحمراء ، يقع أثر أندلسي آخر هو قصر جنة العريف El Generalife ، وهو يقوم على ربوة مستقلة عالية ، تقع في ركن منعزل في شمال شرق الهضبة ، ويشرف من ربوته العالية على صروح قصبة الحمراء ، وتبدو من ورائه آكام جبال سيرا نقادا الشاخنة (جبل الثلج) . وهو عبارة عن صرح صغير أنيق المنظر ، قد اختلطت أوضاعه العربية السفلى ، بما أنشأه الملوك

(١) يجد القارئ وصفاً زائفاً لقصر الحمراء ومنشأته ، ونقوشه ، في كتابي «الآثار الأندلسية

الإسبان فوقها من أبنية دخيلة ، وتجاوز إليه من مدخل بسيط متواضع ، يفضى إلى ساحة فسيحة ، قد أقيم على جانبها رواقان ضيقان طويلا ، وفي وسطها بركة ماء ، وقد غرست حولها الرياحين والزهور الساحرة .
وقد كان قصر جنة العريف فيما يبدو مصيفاً أو منزلاً لسلطين غرناطة ، يؤمنونه للاستجمام والراحة ، والاستمتاع بجمال موقعه ، وروعة المناظر الطبيعية التي تحيط به .

* * *



واجهة قصر جنة العريف

ولم ينج هذا الأثر الإسلامي العظيم ، عنوان الحضارة الأندلسية الباهرة ، من يد العدوان والتشويه المنظم . فقد كان مثل بناته المغلوبين ضحية للسياسة الإسبانية الغاشمة ، وقد عمل الإسبان منذ سقوط غرناطة على محو جمال الحمراء الرائع بأعمال تخريب وتشويه متتالية ، فسخوا الزخارف والنقوش أو محوها ، ونقلوا الأثاث والرياش أو أتلّفوه ، وبنى الإمبراطور شارلكان في سنة ١٥٢٦ إلى جانب الحمراء في الجنوب الغربي منها قصراً جديداً ، وهدم معظم القصر الشتوي القديم ليفسح مكاناً للقصر الجديد . وعمل فيليب الخامس (١٧٠٠ - ٤٦) على مسح طراز الغرف العربي ، واستبداله بالطراز الإيطالي ، وأتم تشويه القصر بإقامة حواجز

سدت المنافذ والطرق بين مختلف الأجنحة . وعلى الحملة فقد تركت الحكومات الإسبانية المتعاقبة هذا الأثر الإسلامى العظيم فى زوايا الإهمال ، وأسلمته إلى يد العفاء والتخريب ، ولم تكن بإصلاحه وترميمه فى العصور الأولى إلا مرة واحدة ، فى أواسط القرن السادس عشر . وفى سنة ١٥٩٠ وقع بالحمراء حريق تسبب عن انفجار مصنع بارود مجاور ، فأصابها بأضرار كبيرة . ومنذ القرن السابع عشر تغلب مظاهر الخراب على الحمراء ، ويسودها النسيان والوحشة . وفى سنة ١٨٠٢ — أيام الغزو النابليونى — نسف الفرنسيون بعض أبراجها ولم ينج القصر إلا بأعجوبة . وفى أواسط القرن التاسع عشر ، أفاقت الحكومة الإسبانية من سباتها الطويل ، وعينت بإصلاح الحمراء وترميمها ، واستمر الترميم والإصلاح فيها زهاء نصف قرن ، وتبدو الحمراء اليوم فى ثوبها المجدد ، وقد جددت الزخارف والنقوش القديمة فى معظم الأبهاء ، وفقاً لأوضاعها ونصوصها القديمة ، ولكن تتخللها أخطاء المطابقة والنقل فى مواطن كثيرة .

ولكن الحمراء مازالت بالرغم من كل ما أصابها من ضروب التشويه والإهمال ، تعتبر أعظم الآثار الأندلسية الباقية ، كما تعتبر أكمل نموذج للفن الأندلسى فى تطوره النهائى ، بعد تحرره من أثر الفن البيزنطى . وهى اليوم علم على غرناطة تشتهر بها عاصمة الأندلس القديمة فى سائر الآفاق ، ويهرع إليها الرواد من كل صوب ليصعدوا إلى هضبة الحمراء ، ويقضون لحظات فى تأمل صرحها الرائع (١) .

* * *

وقد لبثت الحمراء بأبراجها المنيعه ، وأجنحتها الملوكية البديعة ، زهاء قرنين مقاماً فخماً للملوك غرناطة ، وحصناً أميناً يعتصمون به وقت الخطر والأزمات العامة ، حتى شهدت فى النهاية ذهاب ملكهم ، كما شهدت من قبل عظمتهم وسلطانهم . وإلى جانب الحوادث التاريخية التى كانت الحمراء مسرحها ، والتى فصلناها فى مواضعها ، تتبوأ القصص والأسطورة فى تاريخ الحمراء مكاناً كبيراً ، وتقدم للقصصى مادة شائقة مؤثرة . ويرجع معظم هذا القصص إلى الفترة الأخيرة من حياة مملكة غرناطة ، وإلى حوادث مصرعها النهائى ، وقد كانت الحمراء كما رأينا مسرح كثير من حوادث المأساة ، وكانت بالأخص مسرح فصلها الختامى .

(١) هذا وقد رجعنا فى كتابة هذا الفصل أيضاً إلى كتاب Alhambra المنشور بعناية السنيور

• M. Gomez - Moreno فى سلسلة El Arte en Espana .

أجل إن للحمراء إلى جانب تاريخها الحافل ، تراثها من القصص والأساطير ، وهو تراث يمتزج أحياناً بالتاريخ الحق ، ويجنح أحياناً إلى الأسطورة الشائقة . بيد أنه يثير الشجن دائماً ، وينفث الإعجاب والسحر . ذلك أنه مستمد من الحوادث والذكريات العظيمة ، التي ترتبط بتاريخ غرناطة ، ومن الروايات المؤثرة التي ذاعت عن مصرعها ، وعن بسالة فروستها ، حين المعركة الحاسمة ، وعن خلال مجتمعها ، ومخاوفه وهواجسه وآماله . وإذا كان المؤرخ لا يجد في هذا التراث دائماً ، مادة وثيقة يستطيع الوقوف بها ، فإنه يجد على الأقل صوراً مؤثرة مما تسبغه الروايات المعاصرة ، على تلك الحوادث العظيمة ، من ألوان الروع والشجن والأسى .

وفي هذه الحوادث المشجية يغلب التاريخ على الرواية والقصة . ولكن توجد إلى جانب ذلك طائفة من الأساطير الشائقة ، التي أحاطت بها الرواية الإسبانية قصة الحمراء ، وقصة أبهائها وأبراجها . وأول ما يروى في ذلك أن منشى قصر الحمراء السلطان محمد الغالب بالله (ابن الأحمر) (٦٧١-٧٠١ هـ) كان ساحراً ، وأنه استعان بالسحر والشياطين في إنشاء الحصن والقصر ، ومن ثم استطاعت الجدران والأبراج المنيعة أن تغالب فعل الحوادث والعواصف والزلازل حتى يومنا ، دون أن تنصدع أو تنهار . والسحر في ذلك يرجع إلى الطلاس والتعاويذ السحرية التي تحمي البناء من كل شر . وتقول الأسطورة إن الحمراء لن تهدم أو تسقط إلا حين يميل اللسان المثبت في أسفل البرج الخارجى ، ويصل إلى موضع القفل ، فعندئذ تنهار الحمراء دفعة واحدة ، وتنكشف جميع الكنوز التي أودعها المسلمون في أعماقها . وعلى ذكر هذه الكنوز تقول الأسطورة إن المسلمين عندما سقطت غرناطة في أيدي النصارى ، كانوا يعتقدون أن سقوطها حادث مؤقت ، وأن دولة المسلمين في الأندلس لن تلبث أن تعود قوية عزيزة ، وأن بعدهم عن أوطانهم لن يطول ، ولذلك عمدوا إلى إخفاء ذخائرهم وحليهم وأموالهم في أعماق الحمراء ، في جوانب متعددة منها ، وأنهم لجأوا في حفظها وحمايتها إلى السحر ، فرصدوا لحفظها الطلاس والأسماء . وقد يبدو حراسها أحياناً في صور مرده أو وحوش ، أو فرسان مسلمين مدججين بالسلاح ، يسهرون عليها أبد الدهر جامدين لا يغمض لهم طرف . وليس في الحمراء برج أو بهو أو قاعة ، إلا اقترن ذكرها بقصة هذه الكنوز الخفية ، وكانت الأسطورة تضطرم من عصر إلى آخر ، ولا سيما في جنوبي اسبانيا ،

كلما كشفت المباحث الأثرية في أنحاء الحمراء أو حولها ، عن بعض النقود والتحف الإسلامية .

وتقدم إلينا الرواية بعض الأساطير المروعة عن « بهو السباع » والبهو الذي يقاتله وهو المسمى بهو بنى سراج . فأما بهو السباع فتزعم الرواية أنه كان مسرحاً دمويّاً لمصرع بعض أبناء السلطان أبي الحسن . وأما بهو بنى سراج فتقول الرواية إنه كان مسرحاً لمصرع بنى سراج أعرق الأسر الغرناطية وأوفرها جاهاً وفروسة ، وكانت في أواخر عهد السلطان أبي الحسن قد انتظمت إلى جانب خصومه ، وأمعنت في مناوآته ، فقرر إهلاكهم^(١) . وقيل إن عميدهم محمد بن سراج ، وهو من أكابر الفرسان والسادة ، هام بحب أميرة من البيت المالك ، فوجد عليه السلطان وقرر سحق الأسرة كلها ، ودبر كميناً لإهلاكهم ، فدعا أكابرهم ذات مساء إلى حفل أقامه ، وأدخلوا واحداً بعد واحد بترتيب معين ، من باب البهو المذكور ، وكلما دخل أحدهم بادره القتلة ونحروه على حافة الحوض الرخامي الواقع وسطها ، حتى أعدموا جميعاً ، وفقدت الأسرة كل أنجاده . وسمى المكان من ذلك الحين « بهو بى سراج » . وما زالت ثمة بقع داكنة في قاع الحوض الذي سالت فيه دماء القتلى تقول الرواية إنها بقع من دمائهم ، وأنها لن تمحى قط ، وتزيد الأسطورة على ذلك أنه ما زالت تسمع في ذلك البهو في بعض الليالي أنات خافتة ، وقعقة سلاح ، وأنه حدث أكثر من مرة أي رأى حراس الحمراء في جوف الليل ، بعض الحند المسلمين ، وقد لمعت أثوابهم الزاهية وأسلحتهم البراقة ، يقطعون البهو جيئة وذهاباً^(٢) . وهناك طائفة كبيرة من الأساطير الغرامية ، تروى عن الملوك والسادة الذين

(١) راجع رواية هرناندو دي بايثا المنشورة ضمن « أخبار العصر » ص ٦٦ .

(٢) يلاحظ أن الرواية الإسلامية لا تحدثنا عن هذه المأساة بشيء . ولكن الرواية والأغاني الإسبانية تكثر الحديث عنها . ويشير الوزير محمد بن عبد الوهاب النساني سفير ملك المغرب إلى ملك اسبانيا في أواخر القرن السابع عشر إلى تلك الأسطورة في رحلته نقلاً عن التواريخ لإسبانية (راجع رحلة الوزير في افتكالك الأسير ص ٢٤) . وقد كانت حوادث هذه المأساة المزعومة وما اقترن بها من الأساطير مستقى خصباً لكتاب القصص . وقد وضع الكاتب الفرنسي شاتوبريان عن بنى سراج قصة عنوانها مغامرات آخر بنى سراج (*Aventures du dernier Abencérages*) يحدثنا فيها عن فتى أندلسي هو آخر سليل لبني سراج ، وكانت الأسرة قد نزحت إلى تونس عقب سقوط غرناطة ، وعاشت هناك في فقر وضعة ، فاعزم الفتى أن يهج إلى غرناطة موطن آبائه القديم ، وهناك هام حباً بفتاة إسبانية رائعة الحسن ، وهامت بحبه ، ولكن اختلاف الدين حال دون زواجهما ، فارتد الفتى المسلم إلى الصحرَاء وانقطع أثره ، وعاشت حبيبته في عزلة محتفظة بحبه وذكره .

سكنوا الحمراء، وعن أبهائها الفخمة وأبراجها القائمة، ويقال إن كثيراً من الأميرات والغيد الحسن الذين استحقوا اللعنة الملكية زجوا إلى أقيبتها أو أبراجها السحبية وأعدموها في ظلماها . ومن ذلك ما تزعمه الأسطورة من أن سلطاناً مستبداً من سلاطين غرناطة سجن بناته الثلاث في أحد أبراج الحمراء، ولم يك يسمح لهن إلا بالتريض ليلاً في بعض التلال المحاورة بحيث لا يراهن إنسان قط، وأن أولئك الأميرات الثلاث ما زلن يظهرن في بعض الليالي القمرية في هاتيك التلال، يمتطين جياذهن الفخمة، وتسطع حلين النفيسة تحت أشعة القمر، فإذا حاول إنسان أن يخاطبهن أو يزعجهن، اختفين في الحال تحت جناح الظلام .

وقد ذاعت هذه الأساطير عن الحمراء وعن ملوكها، ودونت عقب سقوط غرناطة، في بعض التواريخ والقصص المغرق . ومن ذلك كتاب ظهر في أواخر القرن السادس عشر عنوانه «حروب غرناطة الأهلية» *Guerras civiles de Granada* وزعم مؤلفه، وهو إسباني من أهل مرسية يدعى خينس بيرث دي إيتا *Gines Perez de Hita* أنه نقله عن مؤلف لكاتب أندلسي يدعى ابن أمين، وهو مزيج من بعض الوقائع التاريخية المحرفة، وكثير من القصص الخرافية، ويدور معظمه حول حوادث غرناطة الأخيرة ومعاركها الأهلية، وأحوال بلاطها وما يقع فيه من مكائد ودسائس سياسية وغرامية، ومنافسات بني سراج وبني الثغرى وغيرهم من أنجاد غرناطة . وقد ذاع هذا المؤلف في إسبانيا ولاسيما في ريف الأندلس، وترجم إلى لغات عديدة . بيد أنه يبدو من سياقه أنه لا يمكن أن يكون ترجمة لرواية عربية، وكل ما هنالك أنه مزيج من بعض الأساطير النصرانية والشعبية، التي ذاعت في ذلك العصر عن حوادث غرناطة، وأذكأها خيال الأخبار، والفرسان، وأذكتها بالأخص عوامل دينية وسياسية خاصة .

هذا بعض ما يروى من قصص الحمراء وأساطيرها . وإذا كان المؤرخ لا يستطيع أن يقف بهذا التراث المغرق من القصص والأساطير، فإنه يستطيع على الأقل أن يستخرج منه مغزى بليغاً، وهو مغزى ينم في كثير من الأحيان عما كان للأندلس المسلمة في إسبانيا وفي الغرب، من عظيم الهيبة والشأن، وما كان لذكريات غرناطة وحمرائها من بالغ الروع والسحر والإجلال^(١) .

* * *

(١) جمع الكاتب الأمريكي واشنطن إيرفينج *W. Irving* طائفة من الأساطير والقصص التي تتعلق بالحمراء وكنوزها وملوكها في كتابه : *Tales of the Alhambra*

ورحم الله شوقي إذ يقول في سينيته الأندلسية الشهيرة في رثاء الحمراء :
لا ترى غير وافدين على التـسا
نقلوا الطرف في نصارة آس
وقباب من لازورد وتبر
ونخطوط تكفلت للمعانى
وترى مجلس السباع خلاء
لا « الثريا » ولا جوارى الثريا
مرمر قامت الأسود عليه
تنثر الماء في الحياض جمانا
آخر العهد بالجزيرة كانت
ياديأراً نزلت كالخلد ظلا
لا تحس العيون فوق رباها
كسيت أفرنخي بظلك ريشا
هم بنو مصر لا الجميل لديهم
من لسان على ثنائك وقف
حسبهم هذه الطلول عظات
وإذا فاتك التفات إلى المـسا
ريخ ساعين في خشوع ونكس
من نقوش وفي عصارة ورس
كالرني الشم بين ظل وشمس
ولألفاظها بأزين لبس
مقفر القاع من طباء وخدس
ينزلن فيه أقمار أنس
كلة الظفر لينات المجس
يتزى على ترائب ملس
بعد عرك من الزمان وخرس
وجننى دانياً وسلسال أنس
غير حور حمو المراشف لعس
وربا في رباك واشتد غرسي
بمضاع ولا الصنيع بمنسي
وجنان على ولائك حبس
من جديد على الدهور ودرس
ضى فقد غاب عنك وجه التأسى

مأساة المورييسكيين
أو العرب المتنصرين
٨٩٧ - ١٠١٨ هـ : ١٤٩٢ - ١٦٠٩ م

الكتاب الثالث

مراحل الاضطرهاد والتنصير

الفصل الأول

بدء التحول في حياة المغلوب

نقص الروايات العربية عن المأساة الأندلسية . علة هذا النقص . اهتمام الرواية الإسبانية بالإفافة فيها . هجرة الأندلسيين إلى المغرب . إنشاؤهم لمدينة تطوان . بداية عصر الإستعباد . السياسة الإسبانية ومصير المسلمين . أقوال الرواية القشتالية . اتجاه ملكي اسبانيا إلى النكث . تعليق النقد الحديث . بدء الاضطهاد . تحوير المعاهدة . خميس يحاول تنصير المسلمين . بعض من تنصر من أكابرهم . إحراق الكتب العربية . تعليق النقد الحديث على هذا العمل . الروايات الإسلامية عن مأساة التنصير . صدى المحنة في مصر . نفي المسلمين من البرتغال . أمة الموريسكيين أو العرب المتنصرين . قرار مجلس الدولة . الثورة في بعض النواحي . التنصير المصوب . نشاط فرناندو وإيسابيلا . إستغاثة المسلمين بملك مصر . سفارة فرناندو إليه . الثورة في فليبا لونجا وهزيمة الإسبان . جنوح فرناندو إلى اللين . أقوال الرواية الإسلامية من هذه الحوادث . حشد المسلمين والمتنصرين في أحياء خاصة . تحريم إحراز السلاح عليهم . حظر هجرتهم إلى غرناطة . تحريم بيع الأملاك .

لم يكن ظفر اسبانيا النصرانية بالاستيلاء على غرناطة ، وسحق دولة الإسلام في الأندلس ، سوى بداية النهاية في مصير الأمة الأندلسية ؛ ولم يكن فقد السيادة القومية ، وفقد الإستقلال والحرية ، والذلة السياسية ، والاضطهاد الديني والاجتماعي ، وهي المحن التي تنزل عادة بالأثم المغلوبة ، سوى لحظة يسيرة مما كتب على الأمة الأندلسية أن تعانيه على يد اسبانيا النصرانية . أجل كان مصير مسلمي الأندلس بعد فقد دولتهم وزوال مملكتهم ، من أروع ما عرفت الأمم الكريمة المغلوبة ، وكان مأساة من أبلغ مآسي التاريخ .

تلك هي مأساة الموريسكيين أو العرب المتنصرين ، ومن الأسف أن الرواية الإسلامية لم تخص تاريخ الأمة الأندلسية بعد سقوط غرناطة بكثير من عنايتها ، ولم ينته إلينا عن تلك المأساة سوى رسائل وشدور يسيرة ، بل لم ينته إلينا سوى القليل عن مراحل التاريخ الأندلسي الأخيرة قبل سقوط غرناطة ، ولا توجد لدينا عن تلك المرحلة سوى رواية إسلامية واحدة هي كتاب « أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر » الذي سبقت الإشارة إليه غير مرة ، والذي كتبه في سنة ٩٤٧ هـ (١٥٤٠ م) أعني بعد سقوط غرناطة بخمسين سنة ، كاتب مجهول كان فيما يبدو

من أشرف غرناطة الذين بقوا فيها ، وأرغموا على التنصر ، ولكنهم بقوا مع ذلك مسلمين في روحهم وسريرتهم . وقد كانت هذه الرواية أساساً لكل ما كتبه المسلمون المتأخرون عن سقوط غرناطة . ولم تصل إلينا إلى جانب هذه الرواية الوحيدة ، سوى رسائل وشذور وقصائد نقلها إلينا المقرئ مؤرخ الأندلس في مؤلفه « أزهار الرياض » ، ومعظمها مما كتبه أدباء المغرب عقب وقوع المأساة بقليل .

ونستطيع أن نرجع هذا النقص في الرواية الإسلامية عن حوادث المأساة الأندلسية إلى عاملين : الأول هو أنه في عصور الإنحلال والسقوط تخمد الحركات الأدبية والذكورية ، وتقل العناية بالتدوين التاريخي ، كما تقل في جميع نواحي التفكير والأدب ، وأن نظام الطغيان المطبق والاضطهاد المروع ، الذي فرض على العرب المنتصرين ، كان كفيلاً بإخماد كل صوت وتحطيم كل قلم . والثاني وهو ما نرجحه ، هو فقد معظم الكتب والوثائق العربية التي وضعت في هذا الوقت ، والتي استطاع المقرئ أن ينقل إلينا شذوراً منها ، مما يدل على أن بعضها كان موجوداً حتى عصره أعني في القرن السابع عشر . ومن الغريب أن صاحب « أخبار العصر » لم يقدم إلينا عن مأساة العرب المنتصرين سوى نبذة يسيرة ، مع أنه عاصر معظم حوادثها ، وشهد لها على الأغلب . ولسنا نجد ما يفسر به هذا الصمت من جانب الرواية الإسلامية الوحيدة ، التي انتهت إلينا عن سقوط غرناطة ، وما تلاه من الحوادث والخطوب ، إلا نظام الإرهاب الشامل ، الذي سحق كل متنفس للشعب المغلوب .

على أن هذه المرحلة المؤلمة من تاريخ الأمة الأندلسية ، تشغل بالعكس في تاريخ اسبانيا القوي حيزاً كبيراً يمتد زهاء قرن وربع ، وتخصه الرواية الإسبانية بكثير من عنايتها . ولكن الرواية الإسبانية تتأثر دائماً بالعوامل القومية والديلية إلى أبعد حد ، وتنظر دائماً إلى ذلك الاستشهاد المفجع ، الذي فرضته اسبانيا على العرب المنتصرين ، وإلى تلك الأعمال المروعة التي كانت ترتكبها محاكم التحقيق (١) باسم الدين ، وإلى تلك الوسائل البربرية ، التي اتخذت لتشريد العرب المنتصرين وإبادتهم ، بعين الكبرياء والرضى ، وترى فيها دائماً نوعاً من الإنقاذ القومي ، وتطهيراً للدين والوطن من آثار الإسلام الأخيرة . وهي تحيط هذه المرحلة من تاريخ اسبانيا ، بكثير من القصص والأساطير الحماسية ، التي تشيد بظفر اسبانيا

(١) هي المعروفة خطأ « بمحاكم التفتيش » Inquisition, Inquisición ، وسنورد إل الكلام عليها .

النصرانية ، وبما أسبغته العناية الإلهية على نخطها وسياستها ، في إبادة تراث الإسلام والعرب المنتصرين ، وفي القضاء إلى الأبد على آثار تلك الدولة الإسلامية المجيدة ، التي ازدهرت في اسبانيا زهاء ثمانية قرون ، وعلى حضارتها وآدابها ، وكل ذلك التراث العظيم الباهر .

على أن الرواية الإسبانية بالرغم من تأثيرها العميق بالعوامل القومية والدينية ، تعرض علينا حوادث هذا النضال الأخير في أسلوب مؤثر . وقد لا تضن في بعض المواطن والمواقف بعطفها ، وأحياناً بإعجابها ، على تلك الأمة المغلوبة الباسلة ، التي لبثت تناضل حتى الرمق الأخير عن كرامتها ، وعن تراثها القومي والروحي .

- ٢ -

لبثت السياسة الإسبانية بعد سقوط غرناطة ، وبعد أن حققت اسبانيا النصرانية بالقضاء على دولة الإسلام في الأندلس ، أعظم أمانها القومية ، مدى حين تلتزم جانب الرواية والاعتدال .

ولما غادر فرناندو وإيسابيلا غرناطة بعد دخولها ، أوصيا حاكمها الجديد الكونت تندليا (المركيز دي مونتخار فيما بعد) بالرفق في معاملة الرهايا الجدد ، والعمل على التقريب بين العناصر . وكان من أثر ذلك في البداية أن رغب الكثيرون في البقاء ، واشتروا الرباع العظيمة من الراحلين بأجنس الأثمان^(١) . وهناك من جهة أخرى ما يدل على أنه ما كاد يتم تسليم غرناطة حتى بدأ أعيان المسلمين في بيع أملاكهم وضياعهم إلى القادة والأشراف القشتاليين الذين قدموا للتوطن في المدينة المفتوحة ، فمثلاً باع القائد أبو عبد الله محمد الينشتي إلى القائد القشتالي أندريس قلديرون حديقته ومنزله بباب الفخارين ، وذلك في جمادى الثانية سنة ٨٩٧ هـ (مارس ١٤٩٢ م) ؛ وباعت فاطمة بنت أبي القاسم الأبار إلى نفس القائد القشتالي حديقته الكائنة بربض باب الفخارين ، وذلك في نفس التاريخ ، وباع عدة آخرون من المسلمين أملاكهم في مرج غرناطة وفي عين الدمع ، إلى بعض أعيان القشتاليين ، وذلك في نفس السنة (١٤٩٢ م)^(٢) . واتخذت الأهبة من جهة أخرى لنقل المسلمين الراغبين في الهجرة إلى المغرب ، وهاجر كثير من أشراف غرناطة ، وفي مقدمتهم

(١) أزهار الرياض ، ج ١ ص ٦٧ .

(٢) راجع : « وثائق عربية غرناطية » الوثائق رقم ١٨١ (ص ١٣٠) ، ورقم ١٨٤

(ص ١٣٤) ورقم ٨٥ (ص ١٣٥) .

بنو سراج وغيرهم من أنجاد غرناطة القدماء ، وأقفرت مناطق بأسرها من أعيان المسلمين ، ولا سيما منطقة البشرات . وكان تدفق سيل المهاجرين دليلاً على أن الشعب المغلوب ، لم يكن واثقاً في ولاء سادته الحدد ، وأنه كان ينظر إلى المستقبل بعين التوجس والريب .

ويفصل لنا صاحب أخبار العصر بعض حركات الهجرة التي وقعت على أثر سقوط غرناطة ، فيقول لنا إن من بقي من المسلمين في مالقة عبروا البحر إلى باديس وعبر أهل ألمرية إلى تلمسان ، وعبر أهل الجزيرة الخضراء إلى طنجة ، وعبر أهل رندة وبسطة وحصن موجر وقرية قردوش وحصن مرتيل إلى تطوان وأحوازها ، وعبر أهل لوثة وقرية الفخار وبعض أهل غرناطة ومرشانة وأهل البشارة إلى أراضي قبيلة غمارة ، وعبر أهل بيرة وبرجة وأندرش إلى ما بين طنجة وتطوان ، وعبر أهل بلش إلى سلا ، وخرج كثير من أهل غرناطة إلى بجاية ووهران وقابس وصفاقص وسوسة ، وخرج أهل مدينة طريف إلى آسني وأزمور (١) .

وقد كان ممن هاجر من غرناطة إلى العدو عقب سقوطها بقليل جماعة من أهلها برياسة زعيم جندي هو أبو الحسن علي المنظري (أو المندري) وكان من أكابر جند الجيش الغرناطي ، فزلوا في موقع قرية مرتيل (أو مرتين) الواقع على البحر على مقربة من تطوان ، وكانت يومئذ خربة مهجورة ، فاستأذن الأندلسيون سلطان فاس ، محمداً الشيخ الوطاسي ، في تعميرها وسكنائها ، فأذن لهم ، فأقاموا فوق موقعها القديم محلة حصينة بها مسجد وقصبة ، وكان ذلك في سنة ٨٩٨ هـ (أواخر سنة ١٤٩٢ م) . وفي رواية أخرى أن الأندلسيين الذين عمروا تطوان لأول مرة ، وفدوا إلى العدو قبل سقوط غرناطة ببضعة أعوام في سنة ٨٨٨ هـ (١٤٨٣ م) ، وأنهم كانوا نحو ستين أو ثمانين . ثم جاء من بعدهم عقب سقوط غرناطة قوم آخرون ، قاموا بتوسيعها وتحصينها ، وعلى أي حال فإن المرجح أن هجرة المنظري وقومه كانت عقب سقوط غرناطة ، وأن هذا الفوج من المهاجرين الأندلسيين هو الذي يجب أن يحسب حسابه في تعمير تطوان وتحصينها . ومن ذلك الحين تغدو تطوان ملاذاً لكثير من الأسر الأندلسية التي أرغمت على التنصير ، ثم أثرت الهجرة إلى دار الإسلام فراراً من اضطهاد الإسبان ومحاكم التحقيق ، وعادت إلى دينها القديم ، وما تزال بها أعقابهم إلى اليوم (٢) .

(١) أخبار العصر (طبعة العرايش) ص ٤٨ .

(٢) راجع الإستقصاء للسلوى (ج ٢ ص ١٦٢) ، ومختصر تاريخ تطوان للسيد محمد داود -

وهكذا أبدى فرناندو وإسبيللا في الأعوام الأولى رفقا ولينا في معاملة المسلمين ، ولاح مدى حين أن اسبانيا النصرانية تنوى أن تحافظ على العهد التي قطعت ، وعاش المسلمون بضعة أعوام في نوع من السكينة والاطمئنان .

ولكن السياسة الإسبانية كانت تخشى دائماً ذلك الشعب الذكي النابه ، وكانت الكنيسة تجيش دائماً بنزعتها الصليبية القديمة ، وتضطرم رغبة في القضاء على البقية الباقية من الأمة الإسلامية في اسبانيا ؛ وكانت مملكة غرناطة القديمة ما تزال تضم كتلة مسلمة كبيرة ، تربطها بثغور المغرب صلات وثيقة ، هذا عدا ما كان من جموع المدجنين في منطقة بلنسية ، وفي منطقة سرقسطة وغيرها من بلاد أراجون ، وكان كثير من أولئك المدجنين ، إلى ما بعد سقوط غرناطة بأعوام عديدة ، يحتفظون بدينهم الإسلامى . وكان وجود هذه الكتلة المسلمة في قلب اسبانيا النصرانية ، شغلا شاغلا للسياسة الإسبانية .

والظاهر أن السياسة الإسبانية ، لبثت مدى حين مترددة في انتهاج المسلك الذى تسلكه إزاء المسلمين ، وقد كانوا من أهم عوامل النشاط والرخاء والعرفان في اسبانيا ، وكانت براعتهم قدوة في الزراعة والصناعة والعلوم والفنون ، وخلالهم قدوة في النشاط والمثابرة والزهد والعفة والرفق ، وكانوا على الحملة من أفضل

= (ص ١٤ - ١٧) . وقد أتيج لى أن أزور تطوان غير مرة ، أن أنجول في ربوعها القديمة ، وهى اليوم تكون القسم الشرقى والشمالى من مدينة تطوان الحديثة ، وما تزال بها بقايا المسجد والقصة المنسوبين لأبى الحسن المنظرى . وقد علمت من صديق العلامة السيد محمد داود مؤرخ تطوان ، أنه ما يزال يوجد بها إلى اليوم كثير من أعقاب الأسر الموريسكية القديمة ، ما تزال تحمل أسماءها الموريسكية معربة لا تبغى بها بدلا لأنها عنوان الأرومة الأندلسية . وإليك طائفة من هذه الأسماء نوردتها كما تثبت بالعربية ، ونورد مقابلها الإسباني :

ملينة (Molina) . أولاد مرتين (Martin) . مدينة (Medina) . مراريش (Morales) .
الطريس (Las Torres) . صالص (Salas) . برميخو (Bermejo) . مرشينة (Marchina) . قسطيلية (Castillo) . بايص (Paez) . الركينة (Requina) . لوقش (Lucas) . راغون (Aragon) .

وفي معظم مدن المغرب الأخرى مثل الرباط وسلا والدار البيضاء ومراكش وفاس وغيرها ، يوجد أعقاب كثير من الأسر الموريسكية . يحملون حتى اليوم ألقابهم الموريسكية القديمة معربة . وقد أورد لنا صاحب كتاب « مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح » جملة كبيرة منها ، مثل أسر بركاش . وبلافريج . ونكيطو . وملاط . ودنية . والرندة . وملين . ومرينو . واشكلانط . وبلانيو . وإبيرو . ولباريس . وكريسبو . وكيلطو . ومريش . ورودياس . وبلامينو . وباينة . وبونو . والقسطالى . وفرتون . وقديره . وفلوريش . وغيرها (الكتاب المذكور ص ٢١٥) .

العناصر الذين يمكن أن تضمهم دولة متمدة^(١) . ولكن الكنيسة كانت تضطرم حماسه في سبيل تحقيق مثلها ، ولم تكن السياسة الإسبانية في تلك الفترة من تاريخ اسبانيا سوى أداة لينة في يد الكنيسة ، التي بلغت عندئذ ذروة قوتها ونفوذها . ويصف لنا مؤرخ اسباني عاش قريباً من ذلك العصر ، نيات الكنيسة نحو المسلمين في قوله : « إنه منذ استولى فرناندو على غرناطة ، كان الأجبار يطلبون إليه بإلحاح ، أن يعمل على سحق طائفة محمد من اسبانيا ، وأن يطلب إلى المسلمين الذين يودون البقاء ، إما التنصير ، أو بيع أملاكهم والعبور إلى المغرب ؛ وأنه ليس في ذلك خرق للعهود المقطوعة لهم ، بل فيه إنقاذ لأرواحهم ، وحفظ لسلام المملكة ، لأنه من المستحيل أن يعيش المسلمون في صفاء وسلام مع النصارى ، أو يحافظون على ولائهم للملوك ، ما بقوا على الإسلام ، وهو يحتم على مقت النصارى أعداء دينهم »^(٢) .

ولم تكن هذه السياسة في الواقع بعيدة عما يخالج ملكى اسبانيا، فرناندو الخامس وزوجه الملكة المتعصبة إيسابيلا الكاثوليكية ، من شعور نحو المسلمين ، ولم تكن المعهود التي قطعت للمسلمين بتأمينهم في أنفسهم وأموالهم ، واحترام دينهم وشعائهم ، لتحول دون تحقيق أغراض السياسة القومية . ذلك أن فرناندو لم يحجم قط عن أن يقطع العهود والمواثيق متى كانت سبيلا لتحقيق مآربه ، وأن يسبغ على سياسته الغادرة ثوب الدين والورع ، ولكنه لم يعتبر نفسه قط ملزماً بعهود يقطعها متى أصبحت تعارض سياسته وغاياته .

ويعلق النقد الغربى الحديث على ذلك بقوله : « ولو نفذت هذه العهود (العهود التي قطعت لمسلمى غرناطة) بولاء ، لتغير مستقبل اسبانيا كل التغيير ، ولجمع الامتزاج الرفيق بين الأجناس ، ولغاض الإسلام مع الزمن ، ولتفرقت المملكة الإسبانية في فنون الحرب والسلم ، وتوطدت قوتها ورنخاؤها . ولكن ذلك كان غريباً على روح العصر الذى انقضى ، وأفضى التعصب والحشع إلى المطاردة والظلم ، وأنزلت الكبرياء القشتالية بالمغلوبين ذلة مروعة ، فاتسعت الهوة بين الأجناس على كرا الزمن ، حتى استعصى الموقف ، وأدى إلى علاج كان من جرائه أن تحطم رنخاء اسبانيا »^(٣) .

Dr. Lea : The Moriscos ; p. 7 (١)

Luis del Marmol : Rebellón y Castigo de los Moriscos de Granada ; (٢)

Lib. I Cap. XXII

Dr. Lea : The Moriscos, p. 22 (٣)

وأخذت سياسة الإرهاب تجرف في طريقها كل شيء ، ونشط ديوان التحقيق ، (Inquisition) أو الديوان المقدس ، يدعمه وحى الكنيسة وتأييد العرش ، إلى مزاوله قضائه المدمر . وكانت مهمة هذه المحاكم الكنسية المروعة أن تعمل على حماية الدين (الكثلكة) ، ومطاردة الكفر والزيف بكل ما وسعت ، وكان جل ضحاياها في البداية من اليهود والمسلمين ، ثم الموريسكيين أو العرب المنتصرين . وسنعرض في فصل خاص إلى تاريخ هذه المحاكم وإجراءاتها ووسائلها ، التي تنافى كل عدالة وكل قضاء متمدن .

وهكذا فإنه لم تمض بضعة أعوام على تسليم غرناطة ، حتى بدت نيات السياسة الإسبانية واضحة نحو المسلمين ، وكانت الكنيسة تحاول خلال ذلك أن تعمل لتحقيق غايتها أعنى تنصير المسلمين بالوعظ والإقناع ، ومختلف وسائل التأثير المادية ، ولكن هذه الجهود لم تسفر عن نتائج تذكر ، فجنحت الكنيسة عندئذ إلى سياسة العنف والمطاردة ، وأذعنت السياسة الإسبانية لوحى الكنيسة ، ولم تذكر ما قطعت من عهود مؤكدة للمسلمين باحترام دينهم وشعائهم . وكان روح هذه السياسة العنيفة حبران كبيران ، هما الكردينال خنيس مطران طليطلة ، ورأس الكنيسة الإسبانية ، والدون ديجو ديسا « المحقق العام » لديوان التحقيق (١) .

وحاولت السياسة الإسبانية من جانبها أن تسبغ على هذه التصرفات ثوب الحق والعدالة ، فأخذت في تحوير العهود والنصوص التي تضمنتها معاهدة التسليم ، وتعديلها وتفسيرها بطريق التعسف والتحكم ، ثم خرقها نصاً فنصاً ، واستلاب الحقوق والضمانات الممنوحة تبعاً ، فأغلقت المساجد ، وحظر على المسلمين إقامة شعائهم ، وانتهكت عقائدهم وشريعتهم (٢) . وأدرك المسلمون ما ترمى إليه السياسة الكنسية من محو دينهم ولغتهم وشخصيتهم ، ودوت في آذانهم تلك الكلمة الخالدة والنبوءة الصادقة ، التي ألقاها إليهم فارس غرناطة يوم اعتزموا التسليم للعدو : « أعتقدون أن القشتاليين يحفظون عهودهم ، وأن يكون لهذا الملاك الظافر من الشهامة والكرم ما له من حسن الطالع ؟ لشبد ما تخطئون . إنهم جميعاً ظمئون إلى دمنا ، والموت خير ما تلقون منهم ، إن ما ينتظركم شر الإهانات ، والانتهاك والرق ،

(١) كان المحقق العام General Inquisitor وهو قاضى قضاة الديوان ، يمثل به منذ أعظم السلطات الدينية والقضائية في اسبانيا .

(٢) أخبار العصر ص ٥٤ .

ينتظركم نهب منازلكم ، واغتصاب نسائكم وبناتكم ، وتدنيس مساجدكم ، تنتظركم المحارق الملهبة ، لتجعل منكم حطاماً هشياً .

وكان فرناندو يخشى في البداية عواقب التسرع في تنفيذ هذه السياسة ، لأن الأمن لم يكن قد توطد بعد في المناطق المفتوحة ، ولأن المسلمين لم ينزع سلاحهم تماماً ، وقد يؤدي الضغط إلى الثورة ، فتعود الحرب كما كانت . ولكنه انتهى إلى الخضوع لرأى الكنيسة ، واستدعى الكردينال خنيس إلى غرناطة ليعمل على تحقيق مهمة تنصير المسلمين ، فوفد عليها في شهر يولييه سنة ١٤٩٩ (٨٩٠٥ هـ) ، ودعا أسقفها الدون تالافيرا إلى اتخاذ وسائل فعالة لتنصير المسلمين ، وأمر بجمع فقهاء المدينة ودعاهم إلى اعتناق النصرانية ، وأغدق عليهم التحف والهدايا ، فأقبل بعضهم على التنصير ، وتبعهم جماعة كبيرة من العامة ، واستعمل الوعد والوعيد والبدل والإرغام ، في تنصير بعض أعيان المسلمين .

وكان قد اعتنق النصرانية قبيل سقوط غرناطة وبعدها ، جماعة من الأمراء والوزراء ، وفي مقدمتهم الأميران سعد ونصر ، ولدا السلطان أبي الحسن من زوجه النصرانية اليزابيث دي سوليس المعروفة باسم ثريا ، فقد تنصرا ومنحا ضياعاً في أرجبة ، وتسمى أحدهما باسم « الدوق فرناندو دي جرانادا » (أي صاحب غرناطة) ، وخدم قائداً في الجيش القشتالي ، واشتهر بغيرته في خدمة العرش ، وتسمى الثاني باسم « دون خوان دي جرانادا »^(١) . وتنصر سيدي يحيى النبار قائد ألمرية وابن عم مولاي الزغل ، عقب تسليمه لألمرية ، وتسمى باسم « الدون بيدرو دي جرانادا » وتنصرت زوجته السيدة مريم ابنة الوزير بنيغش ، وتنصر ابنه علي ، باسم « الدون ألونسو دي جرانادا فينجاس » ، وتزوج من دونيا خوانا دي مندوثا وصيفة الملكة . وتنصر الوزير أبو القاسم بن رضوان بنيغش ، ومعظم أفراد أسرته ، وعادت أسرته تحمل لقبها القشتالي القديم Los Venegas ، واشتهرت في تاريخ اسبانيا الحديث ، وأنجبت كثيراً من أكابر القادة والأجبار . ونصر آل الثغرى الذين اشتهروا في الدفاع عن مالقة وغرناطة قسراً ، وسمى عميدهم باسم « جوثالفو فرنانديث ثجري » ، وتنصر الوزير يوسف بن كماشه وانتظم في سلك الرهبان . وهكذا اجتاحت موجة التنصير كثيراً من الأكابر والعامة معاً . وتمركزت حركة التنصير في غرناطة بالأخص في حي البيتازين ، حيث حول

مسجده في الحال إلى كنيسة سميت باسم « سان سلبادور »^(١). واحتج بعض أكابر المسلمين على هذه الأعمال ، ولكن ذهب احتجاجهم وتمسكهم بالعهود المقطوعة مدى . وثار أهل البيازين وتحصنوا بحبهم ، ونددوا بخرق العهود ، فبذل الكردينال خنيس وحاكم المدينة ، جهوداً فادحة لإقناعهم بالهدوء والسكينة ، وبذلا لهم من التأكيدات والضمانات الكلامية ما شاعوا^(٢) .

ولم يقف الكردينال خنيس عند تنظيم هذه الحركة الإرهابية ، التي انتهت بتوقيع التنصير المغضوب ، على عشرات الألوف من المسلمين ، ولكنه قرنها بارتكاب عمل بربري شائن ، هو أنه أمر بجمع كل ما يستطيع جمعه من الكتب العربية من أهالي غرناطة وأرباضها ، ونظمت أكادساً هائلة في ميدان باب الرملة ، أعظم ساحات المدينة ، ومنها كثير من المصاحف البديعة الزخرف ، وآلاف من كتب الآداب والعلوم ، وأضرمت النيران فيها جميعاً ، ولم يستثن منها سوى ثلاثمائة من كتب الطب والعلوم ، حملت إلى الجامعة التي أنشأها في مدينة الكالا دي هنارس^(٣) ، وذهبت ضحية هذا الإجراء الهمجى عشرات ألوف من الكتب العربية ، هي خلاصة ما بقي من تراث التفكير الإسلامي في الأندلس^(٤) .

ولسنا نحن فقط الذين نصف عمل خنيس بالبربرية والهمجية ، بل قالها ويقولها مفكرو الغرب أنفسهم ، فمثلاً يشير العلامة الإيطالي الأب سكيابريلى Schiaparelli في مقدمة إحدى كتبه إلى « التعصب الكاثوليكي ، وثورات خنيس

(١) ما تزال كنيسة « سان سلبادور » San Salvador ، تقوم حتى اليوم على موقع مسجد البيازين القدم ، وما تزال توجد في مؤخرتها بعض عقود المسجد القديمة .

(٢) Luis del Marmol : ibid, I. Cap. XXIII

(٣) Alcalá de Henares ، وتسمى في الرواية العربية بقلعة عبد السلام أو قلعة النهر لوقوعها على نهر هنارس ، أحد أفرع نهر التاجه ، وهي تقع في جنوب غربي وادي الحجارة في منتصف المسافة بينها وبين مدريد .

(٤) مختلف المؤرخون الإسبان في تقدير عدد الكتب العربية التي ذهبت ضحية هذا الإجراء ، فيقدرها دي روبلس E. de Robles ، الذي كتب بعد ذلك بقرن كتاباً عن حياة الكردينال خنيس ، Compenido de la Vida y Hazanas del Cardinal Ximenez ، بمليون وخمسة آلاف كتاب . ويقدرها برمنث دي بدرازا B. de Pedraza الذي كتب بعده بقليل ، بمائة وخمسة وعشرين ألفاً في كتابه Historia Eclesiastica de Granada ، ويقدرها البعض الآخر بخمسة آلاف فقط ، ويقدرها كوندى بئانن ألفاً ، وربما كان تقديره أقرب إلى المعقول . راجع Prescott : Ferd.

and Isabella .p 451-53 & notes.



الکر دینال خنیش دی میسنیروس

البربرية ، التي ترتب عليها حرق المصاحف والكتب الإسلامية الأخرى لمسلمي غرناطة ، وذلك لكي يتوسل بذلك إلى تنصيرهم » .

ويقول المؤرخ الأمريكي ولیم پرسكوت : « إن هذا العمل المحزن لم يقم به همجي جاهل ، وإنما حبر مثقف ، وقد وقع لا في ظلام العصور الوسطى ، ولكن في فجر القرن السادس عشر ، وفي قلب أمة مستنيرة ، تدين إلى أعظم حد بتقدمها إلى خزائن الحكمة العربية ذاتها » (١) .

ثم يشير إلى ما ترتب على هذا العمل بقوله : « لقد غدت الآداب العربية فادرة في مكتبات نفس البلد الذي نشأت فيه ، وإن الدراسات العربية التي كانت من قبل زاهرة في اسبانيا ، حتى في العصور الأقل لمعاناً ، انهارت لأنها عدمت غذاء يوثدها ؛ وهكذا كانت النتائج المحزنة للمطاردة الأدبية ، التي يراها البعض أشد تقويضاً من تلك التي توجه إلى الحياة ذاتها » .

على أن هذا العمل الذي يثير غضب النقد الغربي الحديث وزيارته ، يجد مع ذلك بين العلماء الإسبان من يبرره بل ويمجده . وقد تولى المستشرق سيمونيت الدفاع عن الكردينال خنيس ، الذي يصفه بأنه أحد أجداد الكنيسة الإسبانية ، في رسالة عنوانها : « الكردينال خنيس دي سيسنيروس والمخطوطات العربية الغرناطية » (٢) يقول فيها ، إن ما قام به الكردينال من حرق الكتب أمر لا غبار عليه ، إذ هو إعدام للشيء الضار ، وهو بالعكس أمر محمود ، كما تعمد عناصر العدوى وقت الوباء ، وإن الملكين الكاثوليكين قد أمرا عقب تنصير المسلمين أن تؤخذ منهم كتب الشريعة والدين ، لكي تحرق في سائر مملكة غرناطة ، وألا يبقى لديهم سوى الكتب التي لا علاقة لها بالدين الذي نبذوه ، وإن تأجيل تنفيذ هذا الأمر حتى عهد الملكة خوانا ، كان تسامحاً وتساهلاً ، وقد استشارت الملكة مجلسها ، وأصدرت بتاريخ ٢٠ يونيو سنة ١٥١١ أمراً ملكياً ، تلزم فيه جميع السكان الذين تنصروا حديثاً ، سواء في غرناطة أو غيرها من نواحي مملكة غرناطة ، أن يسلموا سائر الكتب العربية التي لديهم سواء في الدين أو الشريعة أو كتب الطب والفلسفة والتاريخ أو غيرها إلى قاضي الجهة ، وذلك في ظرف خمسين يوماً من تاريخ هذا الأمر ،

(١) W. Prescott : ibid, p. 453 & 454

(٢) F.Javier Simonet : El Cardinal Ximenez de Cisneros y los Manuscritos

لكى يفحصها القضية ، وتؤخذ منها كتب الدين والسنة ، ويرخص القضية بعد ذلك بحيازة غيرها .

ويدافع سيمونيت عن تصرف الكردينال خميس بحماسة ، ويقول إن إحراقه للكتب ، يمكن أن يقارن بما وقع من أعمال مماثلة خلال الثورات الحديثة ، منذ البروتستانتية الإنجليزية والألمانية إلى الثورة الفرنسية ، وأنه خلال هذه الثورات ، قد أحرق أو أتلّف كثير من الآثار الأدبية والفنية في كثير من البلاد الأوروبية ، وأنه لا يمكن مقارنة عمل خميس ، بما وقع من إحراق مكتبة الإسكندرية (المرعوم) ، بأمر الخليفة عمر ، وأن معظم الكتب العربية قد أخرج من اسبانيا مع الهجرة ، ومع من هاجروا من المسلمين من القواعد الأندلسية المختلفة ، وأخيراً أن كثيراً منها قد جمع أيام الملك فيليب الثاني وأودع بقصر الإسكوريال^(١) .

ذلك هو ملخص رسالة المستشرق سيمونيت في الدفاع عن تصرف الكردينال خميس ، وهو دفاع يبدو ركيكاً مصطنعاً إزاء أحكام النقد الغربي المستنير ، وتطبعه نزعة تحيز وتعصب واضحة ، تبدو في كل ما كتبه هذا العلامة الإسباني عن الأمة الأندلسية ، وهو لا يمكن مهما أسبغ عليه من المقارنات ، أن يزيل أثر هذه البصمة المشينة من حياة خميس ، أو من التاريخ الإسباني .

ولنعد إلى حديث تنصير المسلمين ، فنقول إن ما حدث في غرناطة ، حدث في باقي البلاد والنواحي الأخرى ، فنصر أهل البشّرات وألمرية وبسطة ووادي آش في العام التالي ، أعنى في سنة ١٥٠٠ ، وعم التنصير سائر أنحاء مملكة غرناطة . على أن هذه الحركة التي نظمت لتنصير بقية الأمة الأندلسية والتي لم تدخر فيها أساليب الوعود والوعيد والإغراء والإكراه ، لم تقع دون قلائل واضطرابات عديدة حسبها نفصل بعد .

وكان الإغراء بالتنصير يتخذ أحياناً ، شكل هبات ومنح جماعية لبلدة أو منطقة بأسرها ، كما حدث بالنسبة لأهل وادي الكريين (الإقليم) ولانخرون والبشّرات ، فتمد أصدر الملك الكاثوليكيان مرسوماً (في ٣٠ يولييه سنة ١٥٠٠) بإبراء سائر أهالي النواحي المذكورة ، الذين تنصروا أو يتنصرون ، من جميع الحقوق والتعهدات المفروضة على الموريسكيين لصالح العرش ، ورفعها عن منازلهم وأراضيهم وسائر أملاكهم المنقولة والثابتة ، وهبتها لهم ، وإلغاء ضريبة الرأس

كان له أثره في الإنتاج العظيم الذي امتازت به مروج بلنسية وغرناطة ؛ ثم تابعوا بنسج الأصواف والحرائر ، وصنع الورق والجلود المدبوغة ، وهي صناعات برع الموريسكيون فيها أما براعة ، وانتهوا بمزاولة الحرف الميكانيكية ، وهي حرف كان الإسبان لكسلهم وتكبرهم يحتقرونها ، ومن ثم فقد احتكرها الموريكيون واختصوها بها . وقد عانى كل شيء من نقص في السواعد وفي البراعة ، وهو نقص جعلت المفاجأة من المستحيل تداركه ، ثم غدا بعد ذلك ملوؤه مهبطاً بطيئاً صعباً .

« ويقول نفس المؤرخ البلنسى الذي شهد النفي ، وكتب عقب إتمامه ، إنه ترتب على ذلك أن بلنسية ، وهي حديقة اسبانيا الغناء ، استحالت إلى قفر جاف موحش . وحدث هنالك كما حدث في قشتالة ، وفي باقي البلاد ، أن بدا شبح الجوع الداهم ؛ وبالرغم من أنه قد جرى بسكان جدد إلى الأماكن التي هجرها الموريسكيون ، لكي يتدربوا على العمل في الحقول والمصانع والمعامل ، إلى جانب أولئك القلائل الذين ارتضوا البقاء (وهو اعتراف مخجل بلاريب) . على أن مثل هذا التمرن لم يوث نتائج سريعة ، والتدرب والدأب ليسا من الفضائل التي ترتجل ، ولم يكن من السهل أن يعوض مثل هذا الجنس من البشر ، وهو الذي استطاع بعبقريته ، ومركزه الخاص في البلاد ، ووفرة براعته ، وجلده ، أن يحقق ما يشبه قهر الطبيعة ، واستغلالها لسائر مبتكراته . وهكذا حل مكان ضجيج القرى ، الصمت الموحش في الأماكن المهجورة ، وبدلاً من السيل المستمر من العمال والصناع في الطرق ، حل خطر لقاء الأشرار الذين يذرعونها ، ويحشمون في أطلال القرى المهجورة . وإذا كان ثمة بعض السادة الإقطاعيين قد غنموا من تراث المنفيين ، فقد كان عدد الذين خسروا أعظم بكثير ، وبلغ الأمر بالبعض أن طلبوا نفقات للطعام . أما الذين غنموا ، فقد كانوا بلاشك هم الدوق دي ليرما وأسرته وقد استولوا على نصيب مما تحصل من بيع منازل الموريسكيين .

« ومن ثم فقد اعتبر نفى الموريسكيين من الناحية الاقتصادية ، بالنسبة إلى اسبانيا أفدح إجراء مخرب ممكن تصوره . ولأنه لم يكن أن نغض الطرف عن المبالغة التي دفعت بأحد الساسة الأجانب ، وهو الكردينال ريشليو ، أن يسميه « أعرق إجراء في الجرأة والبربرية مما عرفه التاريخ في أي عصر سابق » والحق أن الصدع الذي أصاب ثروة اسبانيا العامة من جرائه ، كان من الفداحة بحيث أنه ليس من المبالغة أن نقول إنه لم يبرأ حتى عصرنا .

أولادهم وبناتهم يعبدون الصليبان ، ويسجدون للأوثان ، ويأكلون الخنزير والميتات ، ويشربون الخمر التي هي أم الجبائث والمنكرات ، فلا يتدرون على منعهم ولا على نهيمهم ، ولا على زجرهم ، ومن فعل ذلك عوقب بأشد العقاب ، فيألفها من فجيرة ما أمرها ، ومصيبة ما أعظمها ، وطامة ما أكبرها . ثم يختم بقوله : « وانظروا من الأندلس الإسلام والإيمان ، فعلى هذا فليكن الباكون ، ولينتحب المنتحبون ، فإننا لله وإنا إليه راجعون ، كان ذلك في الكتاب مسطورا ، وكان أمر الله قدراً مقدورا » (١) .

ونقل إلينا المقرئ نبذة من رسالة أخرى ، يشير كاتبها إلى تنصير مسلمي الأندلس فيما يلي :

« وتعرفنا من غير طريق ، وعلى لسان غير فريق ، أن قطر الأندلس طرق أهلها خطب لم يجد في سالف الدهر . وذلك أنهم أكرهوا بالقتل إن لم يقع منهم النطق بما يقتضي في الظاهر الكفر ، ولم يقبل منهم الأسر . وكان الابتداء في ذلك من أهل غرناطة ، وخصوصاً أهل واسطتها لقلة الناس ، وكونهم من الرعية الدهماء ، مع عدم العصبية بسبب اختلاف الأجناس ، وعلم النصارى بأن من بقى بها من المسلمين إنما هم أسارى في أيديهم ، وعيال عليهم ، وبعد أن انتزعوا منهم الأسلحة والمعاقل ، وعتوا فيهم بالخروج والحلاء ، فلم يبق من المسلمين طائل ، ونقض اللعين طاغية النصارى عهوده ، ونشر بمحض الغدر بنوده الخ » (٢) .

وجاء في رواية أخرى هذا الوصف لمأساة التنصير : « إن طاغية قشتالة وأرغون صدم غرناطة صدمة ، وأكره على الكفر من بقى بها من الأمة ، بعد أن هيض جناحهم ، وركدت رياحهم ، وجعل بعد جنده الخاسر على جميع جهات الأندلس ينثال ، والطاغية يزدهى في الكفر ويختال ، ودين الإسلام تنثر بالأندلس نجومه ، وتطمس معالمه ورسومه ؛ فلو رأيتم ما صنع الكفر بالإسلام بالأندلس وأهليه ، لكان كل مسلم يندبه ويبيكه ، فقد عبث البلاء برسومه ، وعفى على أقماره ونجومه ، ولو حضرتم من جبر بالقتل على الإسلام ، وتوعد بالنكال والمهالك العظام ، ومن كان يعذب في الله بأنواع العذاب ، ويدخل به من الشدة في باب ويخرج من باب ، لأنساكم مصرعه ، وساءكم منقطعه ، وسيوف النصارى

(١) أخبار العصر ص ٥٤ و ٥٥ و ٥٦ .

(٢) أزهار الرياض ج ١ ص ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ .

إذ ذاك على رؤوس الشرذمة القليلة من المسلمين مسالوة ، وأفواه الذاهلين محلولة ، وهم يقولون : ليس لأحد بالتنصر إن يمتل ، ولا يلبث حيناً ولا يمهل ، وهم يكابدون تلك الأهوال ، يطلبون لطف الله على كل حال .

وقد تردد صدى هذه المحنة التي نزلت بمسلمي الأندلس بسرعة سائر في جنبات العالم الإسلامي ، فرى ابن إياس مؤرخ مصر ، وهو راوية معاصر ، يدون في حوادث صفر سنة ٩٠٦ هـ (أغسطس سنة ١٥٠٠ م) أعنى عقب محنة التنصير بأشهر قلائل ما يأتي : « وفيه جاءت الأخبار من المغرب بأن الفرنج قد استولوا على غرناطة التي هي دار ملك الأندلس ، ووضعوا فيها السيف بالمسلمين ، وقالوا من دخل ديننا تركناه ، ومن لم يدخل قتلناه ، فدخل في دينهم جماعة كثيرة من المغاربة خوفاً على أنفسهم من القتل ، ثم ثار عليهم المسلمون ثانياً وانتصفوا عليهم بعض شيء ، واستمر الحرب ثائراً بينهم ، والأمر لله تعالى في ذلك » (١) .

أما المسلمون الذين بقوا في مملكة البرتغال ، فقد كان مصيرهم فيما يبدو أفضل من مصير إخوانهم مسلمي الأندلس ، فقد قضى العرش البرتغالي بإخراجهم من أراضي المملكة في سنة ١٤٩٦ م ، والسماح لهم بالعبور إلى المغرب أو إلى حيث شاءوا ، ونظراً لما لقوه من صعاب في اختراق الأراضي الإسبانية ، فقد أصدر الملكان الكاثوليكيان ، تحقيقاً لرغبة ملك البرتغال ، مرسوماً (في إبريل سنة ١٤٩٧) يصرح فيه للمسلمين البرتغاليين ونسائهم وأولادهم وخدمهم ، أن يخترقوا أراضي مملكة قشتالة ، وأن يذهبوا بأموالهم وأمتعتهم إلى البلاد الأخرى ، وأن يبقوا في أراضي قشتالة الوقت الذي يرغبون ثم يغادرونها بأموالهم متى شاءوا ، وفقط لا يسمح لهم بحمل الذهب والفضة إلى الخارج ، ويؤمنون في أنفسهم وأموالهم ضد كل اعتداء ولا يؤخذ منهم شيء بلا حق (٢) .

* * *

تلك هي المأساة التي استحوطت فيها بقية الأمة الأندلسية بالتنصير المفروض ، إلى طائفة جديدة ، عرفت من ذلك التاريخ بالموريسكيين Moriscos ، أو المسلمين الأصاغر أو العرب المتنصرين (٣) . وقد فرض التنصير على المسلمين فرضاً ، ولم تحجم

(١) ابن إياس (بولاق) ج ٢ ص ٣٩٢ .

(٢) Arch. gen. de Simancas, P.R. Leg. 28 Fol. 3

(٣) Moriscos هي تصغير كلمة Moro ، ومعناها المسلمون أو العرب الأصاغر ، رمزاً إلى ما انتهت إليه الأمة الأندلسية من السقوط والانحلال .

السلطات الكنسية والمدنية ، عن اتخاذ أشد وسائل العنف . ولم يستكن المسلمون إلى هذا العنف دون تدمير ودون مقاومة ، وسرت إليهم أعراض الثورة ولا سيما في المناطق الجبلية ، حيث كان ما يزال ثمة قبس من الحماسة الدينية . وكانت السياسة الإسبانية تلتزم الوسيلة للتخلص نهائياً من العهود المقطوعة ، فألفت في التدمير والمقاومة سندها ، وقرر مجلس الدولة بأن المسلمين أصبحوا خطراً على الدين والدولة ، ولا سيما بعد ما تبين من جنوحهم إلى الثورة ، ومحاولتهم الاتصال بإخوانهم في المغرب ومصر وقسطنطينية ، وقضى بوجوب اعتناق المسلمين للنصرانية ، ونفى المخالفين منهم من الأراضي الإسبانية . وهكذا حاول مجلس الدولة أن يسبغ صفة الحق والعدالة على التنصير المغصوب ، وعلى كل ما يتخذ لتحقيقه من إجراءات العسف والإرهاق .

وقع هذا القرار على المسلمين وقع الصاعقة ، وسرعان ما سرت إليهم الحمية القديمة ، فاعلنوا الثورة في معظم نواحي غرناطة ، وفي ربض البيتازين وفي البشرات واشتد الهياج بالأخص في بلفيق ، وفي أندرش حيث نسف حاكم البلدة مسجدها بالبارود ، وفي نيبخار وجوبنخار وغيرها ، واعتزم المسلمون الموت في سبيل دينهم وحريتهم ، ولكنهم كانوا عزلاً ، وكانت جنود النصرانية صارمة شديدة الوطأة فمزقتهم بلا رأفة ، وكثر بينهم القتل ، وسبيت نساؤهم ، وقضى بالموت على مناطق بأسرها ، ما عدا الأطفال الذين دون الحادية عشرة ، فقد حولوا إلى نصارى . وحمل التعلق بالوطن وخوف الفاقة وهموم الأسرة ، كثيراً منهم على الإذعان والتسليم ، فقبلوا التنصير المغصوب ملاذاً للنجاة ؛ ولحات الحكومة بعد إخماد الهياج في غرناطة والبيتازين إلى أساليب الرفق ، فبعثت بالعمال والقسس في مختلف الأنحاء ، ولم يدخر هؤلاء وسعاً في اجتذاب المسلمين بالوعيد والوعود ، وهكذا ذاع التنصير في سائر مملكة غرناطة القديمة (١) .

وفي الوقت نفسه اضطرب المسلمون المدجنون في آبله وسمورة ، وبلاد أخرى في جليقية ، إلى اعتناق النصرانية ، وكانوا حتى ذلك الوقت يحتفظون بدينهم القديم . ونشط فرناندو إلى إخماد الهياج حيث يقع . وفي الوقت الذي غدا فيه التنصير أمراً محتوماً ، وأضحى فرناندو يعتبر نفسه في حل من عهوده المقطوعة للمسلمين ، تقدم إليه ديسا المحقق العام بوجوب إنشاء ديوان للتحقيق في غرناطة ، لكي يعاون على

مطاردة الزيغ بوسائله الفعالة : فألفت لجنة ملكية للتحقيق في حوادث غرناطة ، وقبض على كثير من المسلمين بتهمة التحريض ، وهزع آلاف آخر منهم إلى اعتناق النصرانية خوفاً السجن والمطاردة . وعارض فرناندو وإيسابيلا في إنشاء ديوان التحقيق في غرناطة ذاتها ، واقترحا أن تحال شئونها إلى اختصاص ديوان التحقيق في قرطبة ، وألا يقدم المسلمون أو الموريسكيون إلى الديوان إلا لتهم خطيرة ، ولكن الكنيسة لم تقنع باتخاذ الإجراءات الجزئية ، ومضت تعمل لغايتها الشاملة . وكان فرناندو من جهة أخرى لا يزال يتوجس من المسلمين شراً ، ويرى في منطق الكنيسة قوة ، وهو أن احتفاظ المسلمين بدينهم يقوى الروابط بينهم وبين إخوانهم في إفريقية ، وأن إسبانيا ما تزال تضم بين جوانحها هدواً يخشى بأسه ، وأن في تنصير المسلمين أو إخراجهم من إسبانيا ، سلام إسبانيا ونقاء دينها .

وكانت الكلمة للكنيسة دائماً ، ففي ٢٠ يولييه سنة ١٥٠١ أصدر فرناندو وإيسابيلا أمراً ملكياً خلاصته « أنه لما كان الله قد اختارهما لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة » فإنه يحظر وجود المسلمين فيها ، فإذا كان بها بعضهم فإنه يحظر عليهم أن يتصلوا بغيرهم ، خوفاً من أن يتأخر تنصيرهم ، أو بأولئك الذين نصرروا لثلا يفسدوا إيمانهم ، ويعاقب المخالفون بالموت أو مصادرة الأموال .

وحاول المسلمون في بأسهم أن يلجأوا إلى معاونة سلطان مصر ، فأرسلوا إليه كتبهم يصفون إكراههم على التنصير ، ويطلبون إليه أن ينذر ملك إسبانيا بأنه سوف ينكل بالنصارى المقيمين في مملكته ، إذا لم يكف عنهم ، فنزل سلطان مصر عند هذه الرغبة ، وأرسل إلى فرناندو يخبره بما تقدم ، وانتهز فرناندو هذه الفرصة فأوفد إلى بلاط القاهرة (سنة ١٥٠١) سفارته التي تحدثنا عنها فيما تقدم والتي كان سفيره فيها بيتر مارتيري الخبير الكاتب والمؤرخ . فأدى مارتيري سفارته ببراعة ، واستطاع أن يقنع السلطان بما يلقاه مسلمو الأندلس من الرعاية ، وأن يطمئنه على مصيرهم (١) .

وهكذا نجت آمال المسلمين تباعاً ، ولم تصمد الثورة إلا في المنطقة الجبلية الواقعة بين آكام قليا لونيكا وسيرا فرمليا (الجبال الحمراء) بجوار رندة ، حيث احتشدت بعض البطون المغربية ، وحيث استطاع الثوار أن يقتحموا شعب الجبال ، وأن يفتكوا بعمال الحكومة وجندها . وسير فرناندو إلى تلك المنطقة حملة قوية تحت

(١) راجع : Prescott : Ibid ; p. 287 ؛ وكذلك Dr. Lea : The Moriscos, p. 36

إمرة قائد، الشهير ألونسو دي آجيلار دوق قرطبة ، ونفذ الحند الإسباني إلى شعب قُلبا لونيكا ، ووقعت الواقعة الحاسمة بين المسلمين والنصارى ، فهزم النصارى هزيمة فادحة وقتل منهم عدد جم ، وكان قائدهم آجيلار وعدة آخرون من السادة الأكابر ، في مقدمة القتلى (مارس سنة ١٥٠١) .

فكان لهذه النكبة التي نزلت بالجنود الإسباني وقوادهم ، أعظم وقع في البلاط الإسباني . وهرع فرناندو إلى غرناطة ، ورأى بالرغم مما كان يحذوه من عوامل السخط والانتقام ، أن ينجح إلى اللين والمساملة ، فأعلن العفو عن الثوار بشرط أن يعتنقوا النصرانية في ظرف ثلاثة أشهر ، أو يغادروا إسبانيا تاركين أملاكهم للدولة ، فأثر معظمهم النفي والجواز إلى إفريقية ، وهاجرت منهم جموع كبيرة إلى فاس ووهران وبجاية وتونس وطرابلس وغيرها ، وقدمت الحكومة الإسبانية السفن اللازمة لنقلهم مغتظة لرحيلهم^(١) ، إذ كانوا أشد العناصر مراساً وأكثرها نزوعاً إلى الثورة . واستقر الباقون وهم الكثرة الغالبة من المسلمين في البلاد خاضعين مستسلمين ، وقد وصفهم دي پدراثا ، وهو مؤرخ من أحبار الكنيسة عاش قريباً من ذلك العصر بقوله : إنهم شعب ذو مبادئ أخلاقية متينة ، أشرف في معاملاتهم وتعاقدهم ، ليس بينهم عاطل ، وكلهم عامل ، يعطفون أشد العطف على فقرائهم^(٢) .

ولم يفت الرواية الإسلامية أن تشير إلى هذه الصفحة الأخيرة من جهاد المسلمين الباسل في سبيل دينهم ، فقد نقل إلينا المقرئ عنها ما يأتي :

« وبالجملة فإنهم (أى أهل غرناطة) تنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة ، وامتنع قوم عن التنصر ، واعتزلوا النصارى فلم ينفعهم ذلك ، وامتنعت قرى وأماكن كذلك منها بلفيق وأندرش وغيرها ، فجمع لهم العدو الجموع واستأصلهم عن آخرهم قتلاً وسبياً ، إلا ما كان من جبل بلنقة (أى قُلبا لونيكا) ، فإن الله تعالى أعانهم على عدوهم ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، مات فيها صاحب قرطبة ، وأخرجوا على الأمان إلى فاس بعيالهم وما خف من أموالهم دون الذخائر . ثم بعد هذا كله كان من أظهر التنصير من المسلمين ، يعبد الله خفية ويصلي ، فشدد عليهم النصارى في البحث ، حتى أنهم أحرقوا منهم كثيراً بسبب ذلك ، ومنعواهم من

(١) Prescott : ibid ; p. 467

(٢) P. Longàs (Cit. B. de Pedraza : Hist. Ecclesiastica) : Vida Religiosa de los

Moriscos (p. LII).

حمل السكين الصغيرة ، فضلاً عن غيرها من الحديد ، وقاموا في بعض الجبال على النصارى مراراً ، ولم يقيض الله تعالى لهم ناصراً» (١) .

ومضت السياسة الإسبانية في اضطهادها المسلمين والموريسكيين بمختلف الفروض والوسائل . وكان من الإجراءات الشاذة التي اتخذت في هذا السبيل ، تشريع أصدره فرناندو بإلزام المسلمين والموريسكيين في المدن ، بالسكنى في أحياء خاصة بهم ، على نحو ما كان متبعاً نحو اليهود في العصور الوسطى . ونفذ هذا التشريع في غرناطة عقب حركة التنصير الشامل ، وأُفرد بها للمسلمين والمتنصرين حيان ، أحدهما يضم نحو خمسمائة منزل وهو الحى الصغير وهو داخل المدينة ، والثانى يضم نحو خمسة آلاف منزل ، ويشمل ضاحية البيازين . وكانت الأحياء التى يشغلها المسلمون أو المتنصرون في المدن الأندلسية تسمى « موريريا » Moreria أو أحياء الموريسكيين ، على نحو ما كانت أحياء اليهود الخاصة تسمى « الجيتو » Ghetto . وكانت تفصل بينها وبين أحياء النصارى أسوار كبيرة ، وكان عدد المسلمين الذين بقوا في غرناطة يبلغ في ذلك الحين نحو أربعين ألفاً (٢) .

وصدر في نفس الوقت في سبتمبر سنة ١٥٠١ ، قانون يحرم على المسلمين إحراز السلاح علناً أو سراً ، وينص على معاقبة المخالفين لأول مرة بالحبس والمصادرة ، ثم بالموت بعد ذلك ، وهو قانون تكرر صدوره بعد ذلك غير مرة ، في ظروف وعصور مختلفة ، وكان يطبق بصرامة بالأخص كلما حدث من الموريسكيين هياج أو مقاومة مسلحة تخشى عواقبها .

وكانت السياسة الإسبانية تخشى احتشاد الموريسكيين وتجمعاتهم في مملكة غرناطة ، ولهذا صدر في فبراير سنة ١٥١٥ مرسوم ملكى أعلن في طليطلة ، وفيه يحرم بتاتاً على المسلمين المتنصرين حديثاً ، والمدجنين من أى جهة من مملكة قشتالة ،

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٦ و ٦١٧ . وراجع أخبار العصر ص ٥٥ .

(٢) Dr. Lea : The Moriscos; p. 31, 151 & 152 . ويبدو هذا الالتزام بسكنى المسلمين في أحياء خاصة في غرناطة وغيرها من المدن الأندلسية القديمة في كثير من المراسم الملكية التى صدرت منذ سنة ١٥٠٠ . مثال ذلك المرسوم الصادر بالإعفاء لأهل بسطة ، والذي أشرنا إليه من قبل Arch. gen. P.R. 11 — 107 ، والمرسوم الصادر بالعموعن سكان « حى المسلمين » Moreria في غرناطة الذى سبقت الإشارة إليه أيضاً (ص ٣٢٠) .

أن محرقوا أراضي مملكة غرناطة ، ويعاقب المخالفون بالموت والمصادرة . ونص هذا المرسوم أيضاً بأنه محرم بتاتاً على المتنصرين حديثاً في مملكة غرناطة أو في أية جهة أخرى من المملكة ، أن يبيعوا أملاكهم لأى شخص دون ترخيص سابق ، ومن فعل عوقب بالموت والمصادرة ، وذلك لأنه تبين كما ورد في المرسوم ، أن كثيراً من المسلمين المتنصرين يبيعون أملاكهم ، ويحصلون على أثمانها ، ثم يعبرون إلى المغرب ، وهناك يعودون إلى الإسلام (١) .

الفصل الثاني

ديوان التحقيق الإسباني

ومهمته في إبادة الأمة الأندلسية

أصل الفكرة في محاكم التحقيق الأولى . إجراءاتها وعقوباتها . التوسع في اختصاصاتها . قيام محاكم التحقيق في أراجون . النزعة الصليبية في إسبانيا . مطاردة اليهود المتنصرين . محاولة البابوية إقامة الديوان في قشتالة . معارضة فرناندو وإيسابيلا . مساعي الأحبار والقس تركيمادا . موافقة فرناندو وإيسابيلا . صدور المرسوم البابوي بإنشاء ديوان التحقيق في قشتالة . قيام ديوان التحقيق الإسباني . بداية نشاطه في إشبيلية . اتساع نطاق أعماله . إنشاء المجلس الأعلى أو السوبريما . المحقق العام . جهود تركيمادا في تنظيم الديوان . إجراءات ديوان التحقيق . التبليغ وطرقه وآثاره . الأحبار المقررون . القبض على المتهم . سجون الديوان . المحاكمة وإجراءاتها . الإحالة على التعذيب . أحكام التعذيب . تعليق الدون لورنتي . أنواع التعذيب وإجراءاته . الاستجواب . الدفاع والمرافعات . الأحكام . تنفيذ العقوبة . حكم الإعدام . الأوتو دافي . محاكمة الغائبين والمتوفين . أثر الأحكام . بطش الديوان وحصانة المحققين . موقف العرش . خميس وجهوده في إصلاح الديوان . شارل الخامس وموقفه من الديوان . بدء مطاردة المدجنين والموريسكيين . مهمة محاكم التحقيق . فكرة القضاء على الأمة الأندلسية . ديوان التحقيق يفضطلع بهذه المهمة . اضطهاد الموريسكيين وريب الكنيسة في إخلاصهم . تخرجهم من دينهم الجديد . أقوال الرواية القشتالية . وثيقة عربية تؤيد تمسكهم سرّاً بدينهم القديم ، وتحايلهم على نبذ شعائر النصرانية . السياسة الإسبانية نحو الموريسكيين . إجراءات القمع . ذرائع الإتهام . الشبهات الخطرة . لموريسكيون في غرناطة وبلنسية . استغاثة الموريسكيين بالسلطان بايزيد الثاني . وثيقة عربية عن أحوالهم وآلامهم .

قام ديوان التحقيق (La Inquisición) في مطاردة الموريسكيين بأعظم دور ، وترك في مأساتهم أعمق الأثر ، ومن ثم فإنه يجدر بنا أن نتحدث عن تاريخ هذه المحاكم الشهيرة ، ونظمها وأعمالها الرهيبة .

ويرجع قيام محاكم التحقيق إلى فكرة الرقابة القديمة على العقيدة ، والتحقيق من سلامتها ونقاؤها . وقد ظهرت فكرة التحقيق في أمر العقائد في الكنيسة الرومانية في عصر مبكر جداً ، وبدئ بتطبيقها منذ أوائل القرن الثالث عشر ، فكان البابا يعهد إلى الأساقفة وإلى الآباء الدومنيكيين ، في تعقب المارقين والكفرة ومعاقبتهم . وطبق هذا النظام منذ البداية في إيطاليا وألمانيا وفرنسا . وكان مندوبو البابوية

يتجولون في مختلف الأنحاء، لتقصي أخبار الكفرة والتقبض عليهم ومعاقبتهم، وكانت تعتمد لذلك مجالس كنسية مؤقتة كانت هي النواة الأولى لمحاكم التحقيق، تعمل حيث يوجد الكفرة والملاحدة: ثم تحل متى تمت مهمة مطاردتهم والقضاء عليهم.

ثم أنشئت بعد ذلك مراكز ثابتة لمحاكم التحقيق، أقيم معظمها في أديار الآباء الدومنيكيين والفرنسيسكانيين. ولم تكن ثمة في هذه العصور سجون خاصة أو مراكز خاصة لمحاكم التحقيق، وإنما كان يتخذ من أى مكان صالح مركزاً أو سجناً. وكان الأساقفة يتولون رئاسة هذه المحاكم، ولهم سلطة مطلقة. وكانت التحقيقات والمرافعات تجري بطريقة سرية، وتصدر الأحكام على المتهمين نهائية غير قابلة للطعن. وكان يسمح للنساء والصبية والعبيد بالشهادة ضد المتهم وليس له، ويؤخذ الاعتراف من المتهم بالحديقة والتعذيب. وكان التعذيب يعتبر طبقاً للقوانين الكنسية وسيلة غير مشروعة للاعتراف، ولكن البابوية لم تجد بأساً من إقرار هذه الوسيلة. وكانت السجون التي يستعملها ديوان التحقيق مظلمة رهيبة: يموت فيها الكثيرون من المرض والآلام النفسية. وكان السجناء يصفقون عادة بالأغلال الثقيلة. وكانت العقوبات الرئيسية هي السجن المؤبد والإعدام والمصادرة. وكانت السلطات الدينية والبابوية تحصل على أوفر نصيب من الأموال المصادرة، وتحصل السلطات المدنية أيضاً على نصيبها منها. وألغى ديوان التحقيق ميداناً خصباً لنشاطه في مطاردة الألبين^(١) وغيرهم من الملاحدة الذين ظهروا منذ أوائل القرن الثالث عشر في جنوب فرنسا. وفي عهد لويس التاسع ملك فرنسا وضع أول قانون ينظم إجراءات هذه المحاكم الكنسية الجديدة: وكان ديوان التحقيق في تلك العصور يصدر أيضاً أحكامه ضد الكتب المحرمة، ويأمر بإحراقها، ومن ذلك أحكام صدرت بإحراق التلمود وبعض كتب أرسطو وغيرها من كتب الفلسفة في العهد القديم.

ثم اتسع اختصاص محاكم التحقيق بمضى الزمن، فلم تبق مهمتها قاصرة على مطاردة الكفر، والزيف في العقيدة، بل تعدته إلى مطاردة السحر والسحرة والعرافة والعرافين، وشبه هؤلاء بالكفرة. وجاء بعد ذلك دور اليهود، فاتهموا بسب النصرانية وأنخذت عليهم مزاولة الربا، وتبعهم ديوان التحقيق بالمطاردة والعقاب. على أن الديوان لم ينس دائماً أن مهمته الأصلية تنحصر في مطاردة الكفر والزيف، والمحافظة على سلامة العقيدة الكاثوليكية ونقائها.

(١) نسبة إلى «ألبى» وهي مدينة بجنوبي فرنسا، وكانت من أهم مراكز هذه الطائفة الملحدة.

تلك هي الظروف التي قامت فيها محاكم التحقيق الأولى ، في مختلف أنحاء أوروبا ، في إيطاليا وألمانيا وفرنسا . ويرجع قيام ديوان التحقيق الإسباني إلى نفس البواعث الدينية ، ولكنه نشأ مع ذلك نشأة مستقلة ، وأحاطت بقيامه ظروف خاصة .

وقد أنشئت محاكم التحقيق في مملكة أراجون منذ أوائل القرن الثالث عشر ، ووضعت لها في سنة ١٢٤٢م إجراءات جديدة ، كان لها فيما بعد أكبر الأثر في صوغ نظم ديوان التحقيق الإسباني . وعرف هذا الديوان الأراجوني بالديوان القديم وعكف حيناً على مطاردة طوائف الألبين ، وإخماد دعوتهم في أراجون ، ولم يلبث أن غدا سلطانه ، وغدت وسائله وإجراءاته مثار الرهبة والروع .

على أن هذه لم تكن سوى بداية محدودة المدى لنشاط ديوان التحقيق الإسباني . ذلك أن ظروف اسبانيا النصرانية في ذلك العصر ، واضطرام الصراع الأخير بينها وبين اسبانيا المسلمة ، ورجحان كفتها في ميدان الحرب والسياسة ، كانت كلها تذكي النزعة الصليبية ، التي كانت تجيش بها اسبانيا دائماً . وكانت الأمة الأندلسية قد استعالت منذ القرن الرابع عشر ، إلى طوائف كبيرة من المدجنين في مهاد عزها القديم ، في قشتالة وأراجون ، ولم تبق منها سوى بقية أخيرة تحتشد في مملكة غرناطة الصغيرة ، التي كان مصيرها المحتوم يلوح قوياً في الأفق . وكان تفوق اسبانيا النصرانية ونصرها المضطرد ، يذكي عوامل التعصب الديني الذي تبثه الكنيسة وترعاه ، وتتخذ اسبانيا الظافرة يومئذ شعارها الفضل في ميدان السياسة . وكانت موجة من التعصب تضطرم في هذا الوقت بالذات ، حول طوائف المنتصرين من اليهود (Conversos) ؛ وكان أولئك المحدثون في النصرانية ، قد سما شأنهم ووصل كثير منهم إلى المناصب الكنسية الكبيرة ، وإلى مجلس الملك ، وتبوأوا بأموالهم ونفوذهم مكانة قوية في الدولة والمجتمع ، وكان أئبار الكنيسة ينظرون إليهم بعين الريب ، ويعتبرونهم شراً من اليهود الخالص أنفسهم ، ويتهمونهم بالإلحاد والزيف ، ومزاولة شعائهم القديمة سراً . ولما تفاقم الإتهام من حولهم صدر في سنة ١٤٦٥م في عهد الملك هنري الرابع ملك قشتالة ، أمر ملكي إلى الأساقفة ، بالاستقصاء والبحث في دوائرهم ، وتتبع هذا اللون من المروق والزيف ومعاقبة المارقين ، وتلا ذلك موجة من الاضطهاد اتخذت صورة المحاكمات الدينية ،

وأحرق عدد من أولئك المنتصرين . ولكن قشتالة التي شغلت يومئذ بمشاكلها الداخلية ، لم تعن بأمر المنتصرين ولم تزعجهم . وهنا تدخل البابا سكستوس الرابع ، وحاول أن يدخل نظام التحقيق في قشتالة ، فأرسل إليها مبعوثاً بابوياً مزوداً بكل السلطات ، للتحقيق والقبض على المارقين ومعاقبتهم . ولكن فرناندو وإسabella وقفا في وجه هذه المحاولة حرصاً على سلطانهما ، وحداً من سلطة الكنيسة ، وأغضت إسabella مدى حين عن تحريض الأحرار ، على مطاردة الكبراء المنتمين إلى أصل يهودي إذ كانت تثق بهم وببصادق نياتهم وغيرتهم في خدمة الدولة والعرش .

على أن هذه المقاومة لم تلبث طويلاً . ذلك أن كل الظروف كانت تمهد لظفر السياسة الكنسية ، فلم تلبث أن غلبت مساعي الأحرار ، وقبل الملك إنشاء ديوان التحقيق في قشتالة ، ليضطلع بمثل المهام الخطيرة التي يضطلع بها في أراجون . وهنا يقال إن الفضل في إقناع الملكة إسabella بتحقيق هذه الفكرة يرجع إلى القس توماس دى توركيدادا رئيس دير الآباء الدومنيكان في سانتا كروث بشقوبية ، وقد كان معترف الملكة وله عليها نفوذ قوى ، فقبل إنه استطاع أن يحصل منها قبل اعتقالها العرش ، على وعد بأنها متى ظفرت بالملك ، فإنها تكرر حياتها لسحق الكفر وحماية الكاثوليكية ، وأنه كان أكثر العاملين على إقناعها بالموافقة على إنشاء ديوان التحقيق . وفي سنة ١٤٧٨ أرسل فرناندو وإسabella سفيرهما إلى البابا ، للحصول على المرسوم البابوي ، وصدر المرسوم بالفعل في نوفمبر من هذا العام بالتصريح بإنشاء ديوان التحقيق في قشتالة ، وتعيين المحققين « لمطاردة الكفر ومحاكمة المارقين » ، واتخذت الخطوة الحاسمة لتنفيذ المرسوم في سبتمبر سنة ١٤٨٠ ، حيث ندب المحققون الثلاثة الأول ، وأنشئت محكمة التحقيق الأولى في إشبيلية . وهكذا بدأ ديوان التحقيق الإسباني نشاطه المروع في قشتالة .

وبدأ الديوان أعماله في إشبيلية بإصدار قرارات بحث فيها كل شخص أن يساعد الديوان ، في البحث عن الملاحدين والكفرة ، وكل من في عقيدتهم زيغ ، وفي جمع الأدلة على إدانتهم ، وفي التبليغ عنهم بأية وسيلة ، وانقضت العاصفة بالأنحص على اليهود المنتصرين ، وكانت منهم طائفة كبيرة في إشبيلية ، فلم يمض عام حتى بلغت ضحاياهم ألوفاً أحرق منهم عدد كبير ، وعوقب الكثيرون بالسجن والغرامات الفادحة ، والمصادرة والتجريد من الحقوق المدنية .

وحاول كثير من المنتصرين النجاة بالفرار إلى ضياع الأشراف ، فصدر أمر ملكي بتسليم الهاربين إلى محكمة التحقيق ، وهدد الأشراف بتمدد وظائفهم والنفي من الكنيسة ، إذا تخلوا عن تنفيذ الأمر . وحاول بعض أكابر المنتصرين في الوقت نفسه تدبير مؤامرة ، لمقاومة محكمة التحقيق والفتك بأعضائها ، ولكن المؤامرة اكتشفت وقبض على كثير منهم ، وقضى بإعدام البعض حرقاً ، وبذا سقطت كل مقاومة لنشاط الديوان الجديد .

واتسع نشاط الديوان بسرعة ، واستصدر الملكان من البابا مرسوماً بتعيين سبعة من « المحققين » الجدد (فبراير سنة ١٤٨٢) ، وأنشئت على أثر ذلك محاكم التحقيق في قرطبة وجيان وشتموبية وطليطلة وبلد الوليد ، وشمل نشاط الديوان سائر أنحاء المملكة الإسبانية (قشتالة وأراجون) .

وكان فرناندو وإسبيللا يرميان إلى أن تسبغ الصفة القومية على ديوان التحقيق ، وأن يكون سلطانه مستمداً من العرش ، أكثر مما هو مستمد من البابوية . ولتحقيق هذه الغاية روى أن ينظم الديوان على أسس جديدة . وكان الديوان قد غدا في الواقع أداة هامة مرهوبة الجانب ، ولا بد لهذه الأداة من سلطة عليا تقوم بالتوجيه والإرشاد . ومن ثم فقد صدر المرسوم البابوي في سنة ١٤٨٣ بإنشاء مجلس أعلى للديوان التحقيق (Suprema) له اختصاص مطلق في كل ما يتعلق بشئون الدين ، ويتألف من أربعة أعضاء منهم الرئيس ، وأطلق على منصب الرئيس منصب « المحقق العام » - Inquisitor General ، وصدر المرسوم البابوي في أكتوبر سنة ١٤٨٣ بتعيين القس توماس دي تركيادا معترف الملكين ، في هذا المنصب الخطير ، ونحوّل في الوقت نفسه سلطة مطلقة في وضع دستور جديد للديوان المقدس .

وكان تركيادا حبراً شديداً التعصب ، وافر البأس والعزم ، فبذل في تنظيم الديوان وتوطيد سلطانه جهوداً عظيمة ، وبث إليه روحاً من الصرامة . وكان جل غايته أن يجعل من ديوان التحقيق الإسباني ، أداة قومية تعمل وفقاً لحاجات إسبانيا ، وقد وفق في تحقيق هذه الغاية إلى أبعد حد . وبدئ بوضع دستور الديوان الجديد في سنة ١٤٨٥ ، على يد جمعية من المحققين العامين عقدت في إشبيلية ، ووضعت طائفة من القرارات واللوائح ، ثم عقدت بعد ذلك جمعية أخرى في بلد الوليد سنة ١٤٨٨ ووضعت عدة لوائح جديدة ، وعقدت جمعية ثالثة في آبله سنة ١٤٩٨ . وتولى المجلس الأعلى (السوبريما) بعد ذلك صياغة اللوائح وتنقيحها . وكان هذا

التنظيم عظيم الأثر في تطور ديوان التحقيق الإسباني . ذلك أنه غدا من ذلك الحين محكمة قومية مستقلة ، وغدا سلطة يخافها أعظم العظماء في اسبانيا ، ويرتجف لذكرها الفرد العادي ، وأضحى نشاطها الرهيب ، وقضاؤها المدمر ، عنصراً بارزاً في التاريخ الإسباني ، يقوم بدوره الفعال في دفع اسبانيا إلى شفا المنحدر ، الذي لبث تتردى في غمره زهاء ثلاثة قرون .

ولبث تركيماًدا في منصب المحقق العام حتى توفي في سنة ١٤٩٨ . وفي عهده اشتد نشاط محاكم التحقيق واتسعت أعمالها ، وكان هذا القس المتعصب بالرغم من تقشفه ، يعتبر بعد العرش أعظم سلطة في اسبانيا ، ويعيش في قصور باذخة ، وله حرس كبير من الفرسان والمشاة . وكان من جراء شدته وعسفه أن ندب البابا سنة ١٤٩٤ إلى جانبه خمسة من المحققين العامين ، يتمتع كل منهم بنفس سلطته . ولما توفي خلفه في منصب المحقق العام ديجو ديسا أنسقف جيان ، واستمر في منصبه حتى سنة ١٥٠٧ م .

— ٤ —

ونقدم الآن عرضاً موجزاً لإجراءات ديوان التحقيق . وسرى أنها بأصولها وتفصيلها ، أبعد ما يكون عن مبادئ المنطق والعدالة ، وأشد ما يكون عسفاً وقسوة وهمجية .

تبدأ قضايا الديوان أو محاكماته الفرعية ، بالتبليغ أو ما يقوم مقامه ، كورود عبارة في قضية منظورة تلقى شبهة على أحد ما . ولا فرق بين أن يكون التبليغ من شخص معين أو يكون غفلاً . ففي الحالة الأولى يدعى المبلغ ويذكر أقواله وشهوده ، وتعتبر أقوال المبالغ وشهوده « تحقيقاً تمهيدياً » . كذلك يمكن التبليغ بواسطة « الاعتراف » الذي يتلقاه القسس ، ولهم أن يبلغوا عما يقعون عليه من حالات الإشباه في العقائد ، ولا توضح لهم الوقائع التي يُسئلون عنها بل يسئلون بصفة عامة ، عما إذا كانوا قد رأوا أو سمعوا شيئاً يناقض الدين الكاثوليكي أو حقوق الديوان . ويقوم الديوان في الوقت نفسه بإجراء التحريات السرية المحلية عن المبلغ ضده . ثم تعرض نتيجة التحقيق التمهيدى على « الأحبار المقررين » ليقرروا ما إذا كانت الوقائع والأقوال المنسوبة إلى المبلغ ضده تجعله مرتكباً لجرمة الكفر أو تلقى عليه فقط شبهة ارتكابها . وقرارهم يحدد الطريقة التي تتبع في سير القضية . ويقسم المقررون يمين الكتمان أيضاً ، وكان معظم أولئك المقررين من القسس الجهلاء المتعصبين ، ومن ثم فقد كانت

أخلاقهم وآراؤهم ، بل ذمتهم وشرفهم مثاراً للريب ، وكان رأيهم الإدانة دائماً إلا في أحوال نادرة .

وعلى أثر صدور هذا التقرير ، يصدر النائب أمره بالقبض على المبلغ ضده وزجه إلى سجن الديوان السرى . وكانت سجون الديوان المخصصة لاعتقال المتهمين بالكفر أو الزيف ، وهى المعروفة بالسجون السرية ، غاية في الشناعة والروعة ، تتصل مباشرة بغرف التحقيق والعذاب ، عميقة مظلمة رطبة تغص بالحشرات والجرذان . ويصفه المتهمون بالأغلال^(١) . ويقول لورنتي مؤرخ ديوان التحقيق الإسباني إن أفظع ما في أمر هذه السجون هو أن من يزج إليها ، يسقط في الحال في نظر الرأى العام ، وتلحقه وصمة لا تلحقه من أى سجن آخر مدنى أو دينى ، وفيها يسقط في غمار حزن لا يوصف وعزلة عميقة دائمة ، ولا يعرف إلى أى مدى وصلت قضيته ، ولا ينعم بتعزية مدافع عنه . غير أن لورنتي ينفى تصفيد المتهمين بالأغلال الثقيلة في أرجلهم وأيديهم وأعناقهم ، ويقول إن هذا الإجراء لم يكن يتبع إلا في أحوال نادرة^(٢) . ويقول الدكتور لى : « كان القبض الذى يجريه ديوان التحقيق في ذاته عقوبة خطيرة . ذلك أن أملاك السجين كلها تصدر وتصفى على الفور ، وتقطع جميع علاقاته بالعالم حتى تنهى محاكمته . وتستغرق المحاكمة عادة من عام إلى ثلاثة ، لا يعرف السجين أو أسرته خلالها شيئاً عن مصيره ، وتدفع نفقات سجنه من ثمن أملاكه المصفاة ، وكثيراً ما تستغرقه المحاكمة »^(٣) .

ولا يخطر المتهم بالتم المنسوبة إليه ، ولكنه يمنح عقب القبض عليه ثلاث جلسات في ثلاثة أيام متوالية ، تعرف بجلسات الرأى أو الإنذار ، وفيها يطلب إليه أن يقرر الحقيقة ، ويوعد بالرفاة إذا قرر وفق ما ينسب إليه ، وينذر بالشدة والنكال إذا كذب أو أنكر ، لأن « الديوان المقدس » لا يقبض على أحد دون قيام الأدلة الكافية على إدانته ، وهى طريقة غادرة محيرة . فإذا اعترف المتهم بما ينسب إليه ولو كان بريئاً ، اختصرت الإجراءات وقضى عليه بعقوبة أخف ، ولكنه إذا اعترف بأنه كافر مطبق ، فإنه

(١) Dr. Lea : History of the Inquisition of Spain, V.I. Chap. IV

(٢) Don S.A.Llorente : Historia Crítica de la Inquisición de España (1815-1817)

وهو مؤلف فقدى ضخماً ويمتاز بكون مؤلفه إسباني ، وهو حبر خدم ديوان التحقيق أعواماً طويلة . وكان في أواخر حياته يشغل فيه منصب السكرتير العام .

(٣) Dr. Lea : The Moriscos of Spain

لا ينجو من عقوبة الموت ، مهما كانت الوعود التي بذلت له بالرفقة والعفو . فإذا أبل المتهم الاعتراف بعد الجلسات الثلاث ، وضع النائب له قرار الإتهام طبقاً لما ورد في التحقيق من الوقائع ، وذلك مهما كانت الأدلة المقدمة من الركاكة والضعف . بيد أن أفزع ما يحتويه القرار هو إحالة المتهم على التعذيب ، وغالباً ما يطلب النائب هذه الإحالة ، وذلك بالرغم من اعتراف المتهم بما ينسب إليه ، لأنه يفترض دائماً أنه أخفى أو كذب في اعترافه . وتصدر المحكمة قرار التعذيب مجتمعة بهيئة غرفة مشورة . وكان قرار التعذيب في العصور الأولى يصدر عقب الاشتباه والقبض فوراً . وقد استعمل التعذيب في محاكم التحقيق للحصول على الاعتراف ، منذ منتصف القرن الثالث عشر . وكان التعذيب في قشتالة إجراء يسوغه القضاء العادي ، وكان يعتبر وسيلة مشروعة لنيل الاعتراف ، فلم يكن غريباً أن يدعي ديوان التحقيق في دستوره . وقد نوه كثير من المؤرخين بروعة الإجراءات والوسائل التي كانت تلجأ إليها محاكم التحقيق في توقيع العذاب . ويعلق عليها دون لورنتي بقوله : « لست أقف لأصف ضروب التعذيب التي كان يوقعها ديوان التحقيق على المتهمين ، فتمد رواها بما تستحق من الدقة كثير من المؤرخين ، ولكني أصرح أن أحداً منهم لا يمكن أن يتهم بالمبالغة فيما روى . ولقد تلوذ كثيراً من القضايا ، فارتجفت لها اشمئزاً وروعاً ، ولم أر في « المحققين » الذين التجأوا إلى تلك الوسيلة إلا رجلاً بالغ جمودهم حد الوحشية » (١) . بيد أن مؤرخاً حديثاً لديوان التحقيق هو الدكتور لي يرى في هذه الأفعال مبالغة ، ويقول لنا إن ديوان التحقيق لم يكن في إجراءاته الخاصة بالتعذيب ، أكثر قسوة أو إرهاباً من القضاء العادي ، وأن ديوان التحقيق الروماني ، كان في إجراءاته أشد قسوة وفظاعة من الديوان الإسباني (٢) .

وكانت معظم أنواع التعذيب المعروفة في العصور الوسطى ، تستعمل في محاكم التحقيق ، ومنها تعذيب الماء ، وهو عبارة عن توثيق المتهم فوق أداة تشبه السلم وربط ساقيه وذراعيه إليها ، مع خفض رأسه إلى أسفل ، ثم توضع في فمه من زلعة جرعات كبيرة ، وهو يكاد يختنق ، وقد يصل ما يتجرعه إلى عدة لترات . وتعذيب « الحاروكا » وهو عبارة عن ربط يدي المتهم وراء ظهره ، وربطه بحبل حول راحتيه وبطنه ، ورفع وخفضه معلقاً ، سواء مفردة أو مع أثقال تربط معه ،

Llorente : ibid. (١)

Dr. Lea: The History of the Inquisition ; V. III. Ch. VII. (٢)

وتعذيب الأسياخ المحمية للقدم ، والقوالب المحمية للبطن والعجز ، وسحق العظام
بآلات ضاغطة ، وتمزيق الأرجل ، وفسخ الفك ، وغيرها من الوسائل البربرية المشيرة .
ولم يك ثمة حدود مرسومة لروعة التعذيب وآلامه . ولما كان التعذيب يعتبر
خطراً لا تؤمن عواقبه ، نظراً لاختلاف المتهمين في قوة البنية والاحتمال المادى والعقلى ،
فإنه لم يك ثمة قواعد معينة تتبع في إجراء التعذيب ، بل كان الأمر يترك لتقدير
القضاة وحكمهم وضائرتهم^(١) . ولا يحضر التعذيب سوى الجلاد والأخبار المحققون ،
والطبيب إذا اقتضى الأمر ، ولا يخطر المتهم بأسباب إحالته على التعذيب ، ولا يستل
ليقرر وقائع معينة ، بل يعذب ليقرر ما شاء ، ويمكن الطعن في القرار بطريق
الاستئناف أمام المجلس الأعلى (السوبريما) إلا في أحوال استثنائية . ولكن الطعن
لا يقبل ولا ينظر ، حيثما كان القانون صريحاً في وجوب إجراء التعذيب . وقد يأمر
الطبيب بوقف التعذيب إذا رأى حياة المتهم في خطر ، ولكن التعذيب يستأنف متى
عاد المتهم إلى رشده أو جف دمه ، فإذا اعترف المتهم واعتبر القضية اعترافه صحيحاً ،
بمعنى أنه يتضمن عنصر التوبة ، كف عن تعذيبه ، وإذا استطاع المتهم احتمال العذاب
وأصر على الإنكار ، لم يفده ذلك شيئاً ، لأن القضاة يتخذون غالباً من الوقائع
المنسوبة للمتهم أدلة على الإدانة ، ويحكم عليه طبقاً لهذا الاعتبار . ويجب أن يؤيد
المعترف ما قاله وقت التعذيب ، باعتراف حريقره في اليوم التالى ، وذلك حتى
يؤكد صحة الاعتراف ، فإذا أنكر أو غير شيئاً أعيد إلى التعذيب .

وبعد انتهاء التعذيب يحمل المتهم ممزقاً دائماً إلى قاعة الجلسة ، ليجيب عن
التهمة التى توجه إليه لأول مرة ، ويسئل عند تلاوة كل تهمة عن جوابه عنها مباشرة ،
ثم يسئل عن دفاعه . وكان مبدأ الدفاع أمراً مقررأ من الوجهة النظرية ، فإن كان له
دفاع ، اختارت المحكمة له محامياً من المقيدين في سجل الديوان للدفاع عنه ، وقد يسمح
للمتهم باختيار محام من الخارج في بعض الأحوال الاستثنائية ، ويقسم المحامى اليمين
بأن يؤدي مهمته بأمانة ، وألا يعرقل الإجراءات بسوء نية ، وأن يتخلى عن موكله
إذا تبين له في أية مرحلة من مراحل الدعوى ، أن الحق ليس في جانبه . على أن
الدفاع لم يكن في الغالب سوى ضرب من السخرية ، ولم يكن عملاً مأمون العاقبة ،
ولم يكن يسمح للمحامى أن يطلع على أوراق القضية الأصلية ، أو يتصل بالمتهم

على انفراد ، بل تقدم إليه خلاصة التحقيق مرفقة بقرار الإحالة وقرار الإتهام .
وكان المحامي الذى يبدى فى تأدية مهمته غير خاصة ، بخاطر بأن يقع تحت سخط
الديوان .

وبعد الرافعة واستجواب المتهم ، تحال القضية على الأحبار المقررين ليدوا
فيها رأيهم من جديد . وكانت هذه خطوة حاسمة فى الواقع ، لأنها تمهيد إلى الحكم
النهائى . ويصدر الأحبار المقررون قرارهم ، وقلمًا كان يختلف عن القرار الأول .
فإذا كان الحكم بالإدانة ، كان للمتهم فرصة الاستئناف أمام المجلس الأعلى
(السوبريما) . بيد أنها كانت على الأغلب فرصة عقيمة ، إذ قلمًا كان المجلس الأعلى
ينقض حكماً من الأحكام . وكان للمتهم أيضاً أن يلتمس العفو من الكرسي
الرسولى . وكانت الخزانة البابوية تغنم من هذه الإلتماسات أموالاً طائلة ، فكانت
فرصة لا يستفيد منها سوى ذوى الغنى الطائل .

وقلمًا كان يصدر حكم البراءة أو « الإقالة » ، إذ أن أقل شك فى براءة المتهم
براءة مطلقة ، كان يوجب اعتباره مذنباً من النوع الخفيف de Levi ، وعندئذ
تصدر عليه عقوبات تتناسب مع ذنبه ، ويقضى عليه أن يتطهر من كل شبهة للكفر
وفقاً لإجراءات معينة . وإذا قضى بالبراءة وهو ما يندر وقوعه ، أطلق سراح
المتهم ، وأعطيت له شهادة بطهارته من الذنوب ، وهى كل ما يعرض به ،
عما أصابه فى شخصه وفى شرفه وماله ، من ضروب الأذى والألم .

وأما إذا قضى بالإدانة ، فإن الحكم لا يبلغ إلى المتهم إلا عند التنفيذ ، وهو
أجراء من أشنع الإجراءات الجنائية التى عرفت ، فيؤخذ المتهم من السجن دون أن
يدرى مصيره الحقيقى ، ويجوز رسوم الإيمان « الأوتودافى » Auto-da-fé وهى الرسوم
الدينية التى تسبق التنفيذ ، وخلاصتها أن يلبس الثوب المقدس ، ويوضع فى عنقه
حبل وفى يده شمعة ، ويؤخذ إلى الكنيسة ليجوز رسوم التوبة ، ثم يؤخذ إلى ساحة
التنفيذ ، وهناك يتلى عليه الحكم لأول مرة . وقد يكون الحكم فى حالة التهم الخطيرة
بالسجن المؤبد والمصادرة ، أو بالإعدام حرقاً فى حالة « الكفر الصريح » ، وقد يكون
فى حالة الذنوب الخفيفة ، بالسجن لمدة محدودة أو بالغرامة ، وهو ما يسمى حكم
« التوفيق » . وكانت أحكام الإعدام ، هى الغالبة فى عصور الديوان الأولى فى قضايا
الكفر . وكان التنفيذ يقع فى ساحات المدن الكبيرة ، وفى احتفال رسمى يشهده
الأحبار والكبراء بأثوابهم الرسمية ، وقد يشهده الملك . وكان يقع على الأغلب جملة ،

فينفذ حكم الحرق في عدد من المحكوم عليهم ، قد يبلغ العشرات أحياناً ، وينتظم الضحايا في موكب (الأوتودافى) Auto-da-fé التى اشتهرت في اسبانيا منذ القرن الخامس عشر ، والتى كانت بالرغم من مناظرها الرهيبة من الحفلات العامة ، التى تهرع لشهوها جموع الشعب . ومما يذكر في ذلك ، أن فرناندو الكاثوليكي كان من عشاق هذه المواكب الرهيبة ، وكان يسره أن يشهد حفلات الإحراق ، وكان يمتدح الأخبار المحققين كلما نظمت حفلة منها (١) .

وكان قضاء محاكم التحقيق بطيئاً ، يبت اليأس في النفوس ، وكان الأمر يترك لهرى القضاة في تحديد مواعيد دعوة المتهم ، والسير بإجراءات الدعوى ، وكانت الإجراءات والمرافعات تستغرق وقتاً طويلاً ، وقد تستغرق الأعوام أحياناً ، وقد يموت المتهم في سجنه قبل أن يصدر الحكم في قضيته .

وكان دستور ديوان التحقيق يحجز محاكمة الموتى والغائبين . وتصدر الأحكام في حقهم وتوقع العقوبات عليهم كالأحياء ، فتصادر أموالهم وتعمل لهم تماثيل تنفذ فيها عقوبة الحرق ، أو تنبش قبورهم وتستخرج رفاتهم ، لتحرق في موكب «الأوتودافى» ، وكذلك يتعدى أثر الأحكام الصادرة بالإدانة من المحكوم عليه إلى أسرته وولده ، فيتمضي بحرمانهم من تولى الوظائف العامة ، وامتهان بعض المهن الخاصة ، وبذا يؤخذ الأبرياء بذنب المحكوم عليه (٢) .

— ٥ —

هذا استعراض موجز لإجراءات تلك المحاكم الكنسية الشهيرة ، التى سودت بقضائها المروع صحف التاريخ الإسباني زهاء ثلاثة قرون .

وقد بث ديوان التحقيق منذ قيامه بتضائيه وأساليبه ، حوله جواً من الرهبة والروع . ولما ذاع بطشه وعسفه ، عمد كثير من النصارى المحدثين من يهود ومسلمين إلى الفرار ، حتى اضطرت الحكومة إلى أن تصدر في سنة ١٥٠٢ ، قراراً يحرم على ربان أية سفينة وأى تاجر ، أن ينقل معه نصرانياً محدثاً دون ترخيص خاص ، وقبض بهذه الصورة على كثيرين من النصارى المحدثين ، في مختلف الثغور الإسبانية ، وأحيلوا إلى محاكم التحقيق .

(١) Dr. Lea : Ibid ; V.I.

(٢) رجعت في معظم ما ورد عن دستور ديوان التحقيق وإجراءاته ، إلى كتابي « ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى » الفصل الأول ص ٢٤ - ٣٢ .

وكان أعضاء محاكم التحقيق يتمتعون بحصانة خارقة ، وسلطان مطلق تنحني أمامه أية سلطة ، وتحمي أشخاصهم وتنفذ أوامرهم بكل وسيلة . وكان من جراء هذه السلطة المطلقة ، وهذا التحلل من كل مسئولية ، أن ذاع في هذه المحاكم العسف وسوء استعمال السلطة ، والقبض على الأبرياء دون حرج ، بل كثيراً ما وجد بين المحققين رجال من طراز إجرامى ، لا يتورعون عن ارتكاب الغصب والرشوة وغيرها لملء جيوبهم ، وكانت أحكام الغرامة والمصادرة أخصب مورد ، لاختلاس المحققين والمأمورين وعمال الديوان وقضاته ، وكانت الخزينة الملكية ذاتها تغنم مئآت الألوف من هذا المورد ، هذا بينما يموت أصحاب هذه الأموال الطائلة في السجن جوعاً^(١) .

وكان يبلغ من عسف الديوان أحياناً أن يبسط حكم الإرهاب في بعض المناطق ، وهذا ما حدث في قرطبة على يد المحقق العام لوسيرو ، الذى يعتبر من أشد المحققين قسوة وإجراماً . ففي عهده ذاعت جرائم النهب واغتصاب البنات والزوجات ، وتعالى الصيحة بالشكوى من هذا العدوان الفظيع ، الذى يجرى باسم الديوان المقدس ، وفى ظله ، والذى يصم اسم الديوان والحكومة ، واستغاث كبراء قرطبة بالملك ، وجرت فى الموضوع تحقيقات طويلة انتهت بالقبض على المحقق العام وعزله^(٢) .

وكان العرش يعلم بأمر هذه الآثام المثيرة ، التى تصم سمعة الديوان والمحققين ، ولا يستطيع دفعاً لها ، لما بلغه الديوان من السلطان الذى لا يناهضه سلطان آخر ، ولأن العرش كان يرى فيه فى الوقت نفسه ، أصلح أداة لتنفيذ سياسته فى إبادة الموريسكيين . وفى الوصية التى تركها فرناندو الكاثوليكي عند وفاته فى يناير سنة ١٥١٦ ، لحفيده شارل الخامس (كارلوس كنتو أو شرلكان) ، ما يلقي ضياء على هذه الحقائق ، فقها بحث على حماية الكشاكسة والكنيسة ، واختيار المحققين ذوى الضمائر الذين يخشون الله ، لكى يعملوا فى عدل وحزم ، لخدمة الله وتوطيد الدين الكاثوليكي ، كما يجب أن يضطرموا حماسة لسحق طائفة محمد^(٣) .

ولما توفى فرناندو ، كان المحقق العام هو الكردينال خنيس مطران طليطلة ، الذى أبدى من الحماسة فى مطاردة المسلمين وتنصيرهم ، ما سبقت الإشارة إليه ، وقد حاول خنيس أن يظهر قضاء الديوان وسمعته ، فعزل كثيراً من المحققين الذين

Dr. Lea : ibid ; V.I. p. 190-192 (١)

Dr. Lea : ibid ; V.I. p. 210 (٢)

Dr. Lea : ibid ; cit. Mariana; V.I. p. 215 (٣)

لا يُترغب فيهم ، ولكنه لم يعيش طويلاً ليتم برنامج في الإصلاح ، فعادت المساوي القديمة أشد ما كانت ، وسار الديوان في قضائه المدمر وأساليبه المثيرة ، لا يلوى على شيء . ولما جلس شارل الخامس على العرش كتب إليه مجلس قشتالة يقول : إن سلام المملكة وتوطيد سلطانه ، يتوقفان على تأييده الديوان التحقيق . ولم ير شارل بعد فترة من التردد ، إلا أن ينزل عند هذا النصيح ، وأن يفسح الطريق لسلطان الديوان القاهر ، وذهبت كل الجهود للحد من عسف الديوان وعيئه سدى ، وتوطد سلطان الديوان بقشتالة مدى قرون ثلاثة ، كانت في الواقع أخطر ما في حياة الشعب الإسباني^(١)

وقد رأينا كيف أنشئ ديوان التحقيق الإسباني في الأصل ، لمطاردة الكفر وحماية الكشلكة من شبه المروق والزيف ، وكان إنشاؤه في قشتالة قبيل انهيار مملكة غرناطة بقليل ، وكان اليهود الذين تمتعوا عصوراً بالحرية والأمن ، في ظل الحكم الإسلامي ، أول ضحايا سياسية الإرهاب والمحو التي رسمتها إسبانيا الجديدة . ذلك أنه ما كادت تسقط غرناطة في أيدي الملكين الكاثوليكين وما كاد اليهود ينتقلون إلى الحكم الجديد ، حتى شهرت عليهم السياسة الإسبانية حربها الصليبية ، وأصدر الملكان قرارهما الشهير في ٣٠ مارس سنة ١٤٩٢ ، وهو يقضى بأن يغادر سائر اليهود — الذين لم يتنصروا — من أي سن وظرف ، أراضي مملكة قشتالة في ظرف أربعة أشهر من تاريخ القرار ، وألا يعودوا إليها قط ، ويعاقب المخالفون بالموت والمصادرة ، ويجب ألا يقوم أحد من سكان مملكة قشتالة على حماية أو إيواء أي يهودي أو يهودية سراً أو جهراً متى انتهى هذا الأجل ، ولليهود أن يبيعوا أملاكهم خلال هذه المدة ، وأن يتصرفوا فيها وفق مشيئتهم^(٢) . فأذعن كثير من اليهود للتنصير إشفافاً على الوطن والمال ، وهلك كثير منهم في سجون الديوان المقدس ومحارقه ، أو شردوا في مختلف الأقطار بعد التجريد والحرمان . بل لم ينج المتنصرون منهم ، من المطاردة والإرهاب لأقل الشبه حسباً قدمنا . ولقيت طوائف المدجنين من بقايا الأمة الأندلسية ، وهي التي بقيت في بعض مدن قشتالة وأراجون في ظل الحكم النصراني ، نفس المصير الحزن . وبدأ ديوان التحقيق نشاطه في قشتالة منذ

(١) D.: Lea : ibid; V. I. p. 250

(٢) Archivo general de Simancas : P. R. Legajo 28 ; Fol. 6

سنة ١٤٨٠ ، قبيل انهيار مملكة غرناطة بقليل ، وأقيمت محارقه الأولى في إشبيلية عاصمة المملكة . فلما سقطت غرناطة ، وطويت بسقوطها صفحة الدولة الإسلامية في الأندلس . ووقع ملايين المسلمين في قبضة اسبانيا النصرانية ، ولما أكره المسلمون على التنصير ، واستحالت بقايا الأمة الأندلسية إلى طوائف الموريسكيين ، ألقي ديوان التحقيق في هذا المجتمع النصراني المحدث أنحصب ميدان لنشاطه ، وغدت محاكم التحقيق يد الكنيسة القوية في تحقيق غايتها البعيدة . ذلك أن هذه المحاكم الشهيرة كانت تضطاع بمهمة مزدوجة دينية وسياسية معاً ، فكانت تعمل باسم الدين لتحقيق أغراض السياسة ، وكان للسياسة الإسبانية بعد ظفرها النهائي بإخضاع الأمة الأندلسية أمنية أخطر وأبعد مدى ، هي القضاء على بقايا هذه الأمة المسلمة ، وبتحق دينها وكل خواصها الجنسية والاجتماعية ، وإدماجها في المجتمع النصراني . ولم تشأ السياسة الإسبانية ، أن تترك تحقيق هذه الغاية لفعل الزمن والتطور التاريخي . بل رأت نزولاً على وحي الكنيسة وتوجيهها المباشر ، أن تعجل بإجراءات التنصير والقمع ، وأن تذهب في ذلك إلى حدود من الإسراف والغلو ، هي التي أسبغت على مأساة الموريسكيين أو العرب المنتصرين صبغتها المفجعة ، كما أسبغت على السياسة الإسبانية المعاصرة وصمة عار ، لم يمحها إلى اليوم كرا الأجيال والعصور .

وقد اضطلع ديوان التحقيق الإسباني بأعظم قسط من هذه الإجراءات الهمجية التي أريد بها تنفيذ حكم الإعدام في أمة بأسرها ، وأخضعت غرناطة لقضاء ديوان التحقيق منذ سنة ١٤٩٩ ، أعني منذ أكره المسلمون على التنصير ، ولكنها جعلت من اختصاص محكمة التحقيق في قرطبة ، وهكذا بدأ الديوان المقدس أعماله في غرناطة ، بحماسة يذكها احتشاد الضحايا من حوله . ولم تغفل الرواية الإسلامية أن تشير إلى محارق ديوان التحقيق ، أو إحراق المسلمين بتهمة المروق أو الزيغ ، ولم يجد المسلمون الذين آثروا البقاء في الوطن القديم ، وأكروهوا على التنصير واعتناق الدين الجديد ، ملاذاً أو عاصماً من الإضطهاد والمطاردة . ذلك أن الموريسكيين أو العرب المنتصرين لبثوا دائماً موضع البغض والريب ، وأبت اسبانيا النصرانية بعد أن أرغمتهم على اعتناق دينها ، أن تضمهم إلى حظيرتها ، وأبت الكنيسة الإسبانية أن تؤمن بإخلاصهم لدينهم الجديد ، ولبثت تتوجس من رجعتهم وحنانهم لدينهم القديم ، وترى فيهم دائماً منافقين مارقين . وهكذا كانت السياسة الإسبانية ، كما كانت الكنيسة الإسبانية ، أبعد من أن تقنع بتنصير المسلمين الظاهري ، وإنما كانت

ترمى إلى إبادتهم ، ومحو آثارهم ودينهم وحضارتهم ، وكل ذكرياتهم .
والواقع أن الموريسكيين لبثوا بالرغم من تنصرهم ، نزولا على حكم القوة
والإرهاب ، مخلصين في سرائرهم لدينهم القديم ، ولم تستطع الكنيسة بالرغم من
جهودها الفادحة أن تحملهم على الولاء لدين قاسوا في سبيل اعتناقه ضروبا مروعة
من الآلام النفسية والاضطهاد المضي ، وإليك ما يقوله في ذلك مؤرخ إسباني
كتب قريبا من ذلك العصر ، وأدرك الموريسكيين وعاش بينهم حيناً في غرناطة :
« كانوا يشعرون دائماً بالحرج من الدين الجديد ، فإذا ذهبوا إلى القداس
أيام الآحاد ، فذلك فقط من باب مراعاة العرف والنظام ، وهم لم يقولوا الحقائق
قط خلال الاعتراف . وفي يوم الجمعة يحتجبون ويغتسلون ويقيمون الصلاة في
منازلهم المغلقة ، وفي أيام الآحاد يحتجبون ويعملون . وإذا عمد أطفالهم ، عادوا
فغسلوهم سرّاً بالماء الحار ، ويسمون أولادهم بأسماء عربية ، وفي حفلات الزواج
متى عادت العروس من الكنيسة بعد تلقى البركة ، تنزع ثيابها النصرانية وترتدي
الثياب العربية ، ويقيمون حفلاتهم وفقاً للتقاليد العربية » (١) .

وقد انتهت إلينا وثيقة عربية هامة تلقى ضوءاً كبيراً على أحوال الموريسكيين
في ظل التنصير ، وتعلقهم بدينهم القديم ، وكيف كانوا يتحيلون لمزاولة شعائرهم
الإسلامية خفية ، ويلتمسون من جهة أخرى سائر الوسائل والأعداد الشرعية
التي يمكن أن تبرر مسلكهم ، وتشفع لهم لدى ربهم ، مما يرغبون على اتباعه
من الشعائر النصرانية .

وهذه الوثيقة هي عبارة عن رسالة وجهت من أحد فقهاء المغرب إلى جماعة
العرب المتنصرين ممن يسميهم « الغرباء » يقدم إليهم بعض النصائح التي يعاون
اتباعها على تنفيذ أحكام الإسلام خفية ، وبطريق التورية والتستر . وتاريخ هذه
الرسالة هو غرة رجب سنة ٩١٠ هـ ، (٢٨ نوفمبر سنة ١٥٠٤) . وإليك نص
هذه الوثيقة :

« الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً .
إخواننا القابضين على دينهم ، كالقابض على الحمر ، من أجزل الله ثوابهم ،
فيما لقوا في ذاته ، وصبروا النفوس والأولاد في مرضاته ، الغرباء القرباء إن شاء
الله ، من مجاورة نبيه في الفردوس الأعلى من جناته ، وارثو سبيل السلف الصالح ،

في تحمل المشاق ، وإن بلغت النفوس إلى التراق ، نسأل الله أن يلفظ بنا ، وأن يعيننا وإياكم على مراعات حقه ، بحسن إيمان وصدق ، وأن يجعل لنا ولكم من الأمور فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً . بعد السلام عليكم ، من كاتبه إليكم ، من عبيد الله أصغر عبيده ، وأحوجهم إلى عفوه ، ومزيده ، عبيد الله تعالى أحمد ابن بوجمة المغراوي ثم الوهراني ، كان الله للجميع بلطفه وستره ، سائلاً من إخلاصكم وغربتكم حسن الدعاء ، بحسن الخاتمة والنجاة من أهوال هذه الدار ، والحشر مع الذين أنعم الله عليهم (F. 2) من الأبرار ، وموكداً عليكم في ملازمة دين الإسلام أمرين به من بلغ من أولادكم . إن لم تخافوا دخول شر عليكم من إعلام عدوكم بطويتكم ، فطوبى للغرباء الذين يصلحون إذا فسد الناس ، وإن ذاكر الله بين الغافلين كالخى بين الموتى ؛ فاعلموا أن الأصنام خشب منجور ، وحجر جلمود لا يضر ولا ينفع ، وأن الملك ملك الله ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله . فاعبدوه ، واصطبروا لعبادته ، فالصلاة ولو بالإيماء ، والزكاة ولو كأنها هدية لفقيركم أو رياء ؛ لأن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن إلى قلوبكم ، والغسل من الحنابة ولو عوماً في البحور ، وإن منعم بالصلاة قضاء بالليل لحق النهار ، وتسقط في الحكم طهارة الماء ؛ وعليكم بالتيمم ولو مسحاً بالأيدي للحيطان ، فإن لم يمكن فالمشهور سقوط الصلاة وقضاؤها لعدم الماء (F. 3-1) والصعيد إلا أن يمكنكم الإشارة إليه بالأيدي والوجه إلى تراب طاهر أو حجر أو شجر مما يتيمم به ، فاقصدوا بالإيماء ، نقله ابن ناجي في شرح الرسالة لقوله عليه السلام : فأتوا منه ما استطعتم . وإن أكرهوكم في وقت صلاة إلى السجود للأصنام أو حضور صلاتهم فأحرموا بالنية ، وانووا صلاتكم المشروعة ، وأشيروا لما يشيرون إليه من صنم ، ومقصودكم الله ، وإن كان لغير القبلة تسقط في حقكم كصلاة الخوف عند الالتحام ؛ وإن أجبروكم على شرب خمر ، فاشربوه لا بنية استعماله ، وإن كلفوا عليكم خنزيراً فكلوه ناكرين إياه بقلوبكم ، ومعتقدين تحريمه ، وكذا إن أكرهوكم على محرم ، وإن زوجوكم بناتهم ، فجائز لكونهم أهل الكتاب ، وإن أكرهوكم (F. 3-2) على إنكاح بناتكم منهم ، فاعتقدوا تحريمه لولا الإكراه ، وأنكم ناكرون لذلك بقلوبكم ، ولو وجدتم قوة لغريتموه . وكذا إن أكرهوكم على رباً أو حرام فافعلوا منكرين بقلوبكم ، ثم ليس عليكم إلا رعوس أموالكم ، وتتصدقون بالباقي ، إن تبتم لله تعالى . وإن أكرهوكم على كلمة الكفر ، فإن أمكنكم التورية والإلغاز

فافعلوا ، وإلا فكونوا مطمئني القلوب بالإيمان إن نطقتم بها فاكبرين لذلك ، وإن قالوا اشتهموا محمداً فإنهم يقولون له مُجَدِّدٌ ، فاشتموا مُسْتَدَّاءً ، ناوين أنه الشيطان أو ممد اليهود فكثير بهم اسمه . وإن قالوا عيسى ابن الله ، فقولوها إن أكرهوكم ، وانووا إستمات مضاف أي عبد الإله مريم معبود بحق . وإن قالوا قولوا المسيح ابن الله فقولوها إكراهاً ، وانووا بالإضافة للملك كبيت الله لا يلزم أن يسكنه أو يحل به ؛ وإن قالوا قولوا مريم زوجة له فانووا بالضمير ابن عمها الذي تزوجها في بني إسرائيل ثم فارقتها قبل البناء . قاله السهيلي في تفسير المبهم من الرجال في القرآن . أو زوجها الله منه بقضائه وقدره . وإن قالوا عيسى توفي بالصلب ، فانووا من التوفية والكمال والتشريف من هذه ، وإماتته وصلبه وإنشاد ذكره ، وإظهار الشناء عليه بين الناس ، وأنه استوفاه الله برفعه إلى العلو ، وما يعسر عليكم فابعثوا (F. 4. I) فيه إلينا نرشدكم إن شاء الله على حسب ماتكتبون به ، وأنا أسأل الله أن يديل الكره للإسلام حتى تعبدوا الله ظاهراً بحول الله من غير محنة ولا وجلة ، بل بصدمة الترك الكرام . ونحن نشهد لكم بن يدي الله أنكم صدقتم الله ورضيتم به . ولا بد من جوابكم . والسلام عليكم جميعاً . بتاريخ غرة رجب عام عشرة وتسع مائة ، عرف الله خبره .

« يصل إلى الغرباء إن شاء الله تعالى » (١) .

ومن ثم فقد لبث الموريكيون ، شغلا شاعلا للكنيسة وللسياسة الإسبانية ، فهم عنصر بغيفض في المجتمع الإسباني ، وهم خطر على الدولة وعلى الوطن ، وهم بالرغم من ردتهم مازالوا خونة مارقين ، وما زالوا أعداء للدين في سريرتهم . وكان يدكى هذا البغض والتحامل ضد الموريكيين كل تدمير من جانبهم . فلما دفعهم اليأس إلى الثورة في مفاوز البشرات ، ولما آتست السياسة الإسبانية أن هذه البقية الممزقة من الأمة الأندلسية القديمة ، ما زالت تجيش برمق من الحياة والكرامة ،

(١) عثرت على هذه الوثيقة خلال بحوثي في مكتبة الفاتيكان الرسولية برومة . وهي تقع ضمن مجموعة خطية من المخطوطات البورجوانية (Borgiani) . وقد وصف هذا المخطوط في فهرس مكتبة الفاتيكان (فهرس دلافيدا) بأنه « المقدمة القرطبية » . وفي صفحة عنوانه بأنه « كتاب نزهة المستمعين » . وتشغل هذه الوثيقة في المخطوط المشار إليه أربع صفحات (١٣٦ - ١٣٩) ومن جهة أخرى فقد عثرت بنص هذه الوثيقة مثبتا في إحدى خطوط الأنعميادو المحفوظة بمكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد (مجموعة سافدرا) . وتوجد ترجمتها القشتالية في كتاب :

رأت أن تضاعف إجراءات القمع والمطاردة، ضد هذا الشعب المهين الأعزل ، حتى لا ينبض بالحياة مرة أخرى .

وكانت ثورة البشرات نذير فورة جديدة، من هجرة الموريسكيين إلى ما وراء البحر ، فجازت منهم إلى إفريقية جموع عظيمة كما قدمنا ، ولكن الكثرة الغالبة منهم بقيت في الوطن القديم، هدفاً للاضطهاد المنظم ، والقمع الذريع المدني والديني ، فإلى جانب الأوامر الملكية بمنع الهجرة ، وحظر التصرف في الأملاك أو حمل السلاح وغيرها من القوانين المقيدة للحقوق والحريات ، كان ديوان التحقيق من جانبه ، يشدد الوطأة على الموريسكيين ، ويرقب كل حركاتهم وسكناتهم ، ويغمرهم بشكوكه وريبه ، ويتخذ من أقل الأمور والمصادفات ذرائع لاتهامهم بالكفر والزيف ، ومعاقبتهم بأشد العقوبات وأبلغها . وقد نقل إلينا الدون لورنتي مؤرخ ديوان التحقيق الإسباني ، وثيقة من أغرب الوثائق القضائية، تضمنت طائفة من القواعد والأصول التي رأى الديوان المقدس أن يأخذ بها العرب المنتصرين ، في تهمة الكفر والمروق ، وإليك ما ورد في تلك الوثيقة الغريبة :

« يعتبر الموريسكي أو العربي المنتصر قد عاد إلى الإسلام ، إذا امتدح دين محمد ، أو قال إن يسوع المسيح ليس إلهاً ، وليس إلا رسولا ، أو أن صفات العذراء أو اسمها لا تناسب أمه ، ويجب على كل نصراني أن يبلغ عن ذلك ، ويجب عليه أيضاً أن يبلغ عما إذا كان قد رأى أو سمع ، بأن أحداً من الموريسكيين يباشر بعض العادات الإسلامية ، ومنها أن يأكل اللحم في يوم الجمعة ، وهو يعتقد أن ذلك مباح ، وأن يحتفل يوم الجمعة بأن يرتدى ثياباً أنظف من ثيابه العادية ، أو يستقبل المشرق قائلاً بسم الله ، أو يوثق أرجل الماشية قبل ذبحها ، أو يرفض أكل تلك التي لم تذبح ، أو ذبحتها امرأة ، أو يحن أولاده أو يسميهم بأسماء عربية ، أو يعرب عن رغبته في اتباع هذه العادة ، أو يقول إنه يجب ألا يعتقد إلا في الله وفي رسوله محمد ، أو يقسم بأيمان القرآن، أو يصوم رمضان ويتصدق خلاله ، ولا يأكل ولا يشرب إلا عند الغروب ، أو يتناول الطعام قبل الفجر (السحور) ، أو يمتنع عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر ، أو يقوم بالوضوء والصلاة ، بأن يوجه وجهه نحو الشرق ويركع ويسجد ويتلو سوراً من القرآن، أو أن يتزوج طبقاً لرسوم الشريعة الإسلامية ، أو ينشد الأغاني العربية ، أو يقيم حفلات الرقص والموسيقى العربية ، أو أن يستعمل النساء الحضاب في أيديهن أو شعورهن ، أو يتبع

قواعد محمد الخمس ، أو يملس بيديه على رؤوس أولاده أو غيرهم تنفيذاً لهذه القواعد ، أو يغسل الموتى ويكفّنهم في أثواب جديدة ، أو يدفّنهم في أرض بكر ، أو يغطى قبورهم بالأغصان الخضراء ، أو أن يستغيث بمحمد وقت الحاجة منعماً إياه بالنبي ورسول الله ، أو يقول إن الكعبة أول معابد الله ، أو يقول إنه لم ينصر إيماناً بالدين المقدس ، أو إن آباءه وأجداده قد غنموا رحمة الله لأنهم ماتوا مسلمين ... الخ» (١) .

كانت هذه الشبه وأمثالها ، تتخذ ذريعة للتنكيل بالموريسكيين ، بالرغم من تنصرهم وانتمائهم إلى دين ساداتهم الجدد . ومن الطبيعي أن يكون موقف المسلمين الذين آثروا الاحتفاظ بدينهم أدق وأخطر ، وكانت قد بقيت منهم جماعات كبيرة في غرناطة وبلنسية وغيرها ، يعيشون في غمرة من الجزع الدائم ، وكانت محارق ديوان التحقيق تلتهم الكثير من هؤلاء وهؤلاء ، لأقل الشبه والوشايات . ولقد كان الإسراف في مطاردة المسلمين والموريسكيين ، نذير السخط والثورة ، ولكن الثورة أخذت ، ولم تعدل السياسة الإسبانية عن مسلكها ، وضاعفت محاكم التحقيق إجراءات القمع والتنكيل . وقد انتهت إلينا عن تلك الفترة الدقيقة من تاريخ الموريسكيين وثيقة عربية ذات أهمية خاصة ، كتبها فيما يظهر أندلسي متنصر (موريسكى) إلى بايزيد الثانى سلطان الترك العثمانيين ، يستغيث به ويستصرخه ، لنصرة إخوانه العرب المتنصرين ، ويصف له في شعر ركيك ولكن قوى التعبير ، ما تنزله إسبانيا النصرانية برعاياها الجدد ، وما يصيب المتنصرين من عسف ديوان التحقيق ، ورائع مطاردته وعقوباته . وإليك بعض ما ورد في تلك القصيدة المؤثرة ، في وصف أنواع الاضطهاد والعسف ، التى نزلت بالعرب المتنصرين ، وذلك بعد ديباجة نثرية قصيرة ، وديباجة شعرية طويلة في تحية السلطان بايزيد :

فلما دخلنا تحت عقد ذمامهم	بدا غدرهم فينا بنقض العزيمة
ونحن عهوداً كان قد غرّنا بها	ونصرنا كرهاً بعنف ووسطوة
وكل كتاب كان في أمر ديننا	فى النار ألقوه بهزء وحقرة
ولم يتركوا فيها كتاباً لمسلم	ولا مصحفاً يخلى به للقراءة
ومن صام أو صلى ويعلم حاله	فى النار يلقوه على كل حالة

ومن لم يجئ منا لموضع كفرهم
ويلطم خديده ويأخذ ماله
وفي رمضان يفسدون صيامنا
وقد أمرونا أن نسب نينا
وقد سمعوا قوماً يغنون باسمه
وعاقبهم حكاهم وولاتهم
وقد بدلت أسماؤنا وتحولت
فأها على تبديل دين محمد
وأها على تلك الصوامع علفت
وأها على تلك البلاد وحسنا
وصارت لعبادة الصليب معاقلا
وصرنا عبيداً لا أسارى نفتدى
فلو أبصرت عيناك ما صار حالنا
فياولنا يا بؤس ما قد أصابنا
يعاقبسه اللبساط شر العقوبة
ويجعله في السجن في سوء حالة
بأكل وشرب مرة بعد مرة
ولا نذكره في رخاء وشدة
فأدركهم منهم أليم المضرة
بضرب وتغريم وسجن وذلة
بغير رضا منا وغير إرادة
بدين كلاب الروم شر البرية
نواقيسهم بها نظير الشهادة
لقد أظلمت بالكفر أعظم ظلمة
وقد أمنوا فيها وقوع الإغارة
ولا مسلمين نطقهم بالشهادة
إليه لحادث بالدموع الغزيرة
من الضر والبلوى وثوب المذلة (١)

وهذه الأبيات تم بالرغم من ركاكتها عن دقة مدهشة، في تتبع أعمال السياسة الإسبانية، لمطاردة العرب المنتصرين، وفي وصف إجراءات محاكم التحقيق وعقوباتها. والظاهر أن صاحبها كان من الكبراء المتصلين بالشئون العامة. والمرجح أن هذه الرسالة وجهت إلى السلطان بايزيد الثاني، عقب ثورة البشراة وما تلاها من إجراءات القمع المشددة ضد العرب المنتصرين، وذلك حوالي سنة ١٥٠٥، وقد توفي السلطان بايزيد الثاني سنة ١٥١٢، فلا بد أن تكون الرسالة قد وجهت إليه قبل ذلك. ونحن نعرف أنها لم تكن أول رسالة من نوعها، وجهها مسلمو الأندلس والعرب المنتصرون إلى قصور قسطنطينية ومصر والمغرب، فقد أشرنا فيما تقدم إلى سفارة السلطان أبي عبد الله الأيسر إلى سلطان مصر الملك الظاهر جقمق يستمد عونه، ثم إلى سفارة مولاي الزغل سلطان غرناطة إلى بلاط مصر وبلاط قسطنطينية، يستغيث بهما ويستصرخهما لإنجاده، وإلى ما قام به بلاط مصر من توجيه سفارته إلى فرناندو الخامس، يحذره من المضي في إرهاب المسلمين، وينذره باضطهاد النصاري الذين

(١) أورد لنا المقرئ في أزهار الرياض تلك القصيدة بأكملها، وهي طويلة في نحو مائة بيت

يعيشون في المملكة المصرية ، وما كان من تكرار نذيره إلى ملك اسبانيا ، حينما اشتدت وطأة التنصير على مسلمى الأندلس ؛ ولكن تدخل مصر وقسطنطينية على هذا النحو لم يغن شيئاً ، وهذا ما يشير إليه صاحب القصيدة المذكورة في قوله مخاطباً السلطان بايزيد :

وقد بلغ المكتوب منكم إليهم	فلم يعملوا منه جميعاً بكلمة
وما زادهم إلا اعتداء وجسارة	علينا وإقداماً بكل مساءة
وقد بلغت إرسال مصر إليهم	وما نالهم غدر وهتك حرمة
وقالوا لتلك الرسل عنا بأنفسنا	رضينا بدين الكفر من غير قهرة
لقد كذبوا في قولهم وكلامهم	علينا بهذا القول أكبر فرية
ولكن خوف القتل والحرق ردنا	نقول كما قالوه من غير نية

وقد كانت السياسة الإسبانية تتخذ من هذه الرسائل ، التي يوجهها العرب المنتصرون إلى إخوانهم المسلمين فيما وراء البحر ، كلما تفاقت آلامهم ومحنهم ، ذريعة للاشتداد في مطاردتهم ، واعتبارهم خطراً على سلامة الدولة ، لأنهم يأتُمرون بها مع ملوك الدول الإسلامية أعداء اسبانيا النصرانية .

الفصل الثالث

ذروة الاضطهاد وثورة المورييسكيين

نظرة اسبانيا إلى المورييسكيين . وفاة فرناندو الكاثوليكي وخلاله . سياسة الرفق في عهد شارل الخامس . عود الاضطهاد . قرار المحكمة الملكية في ظلامة المسلمين . تعليق المؤرخ كوندى . ثورة المسلمين في سرقسطة وبلنسية . تنصير المسلمين في أراجون . القوانين والقرارات المرفقة . مساعى المورييسكيين في بلنسية وغرناطة . مراسم جديدة ضد المورييسكيين . تحريم الهجرة إلى الثفور . قرار بالعمو عن المورييسكيين في مدينة دلكامبو . التردد بين الشدة والرفق في عهد شارل الخامس . ولده فيليب الثاني . التنصر يعم المورييسكيين . تحريض الكنيسة لفيليب الثاني . تحريم السلاح على المورييسكيين . تحريم استعمال اللغة العربية والثياب والتقاليد العربية . إعلان القانون في غرناطة . سخط المورييسكيين . فشل السعى إلى التخفيف . اضطراب الخواطر في غرناطة . العزم على الثورة . خطة ابن فرج لإضرارها . قصيدة عربية في وصف آلام المورييسكيين . استغاثتهم بأمراء المغرب . نذير الانفجار . محاولة ابن فرج لإثارة غرناطة . ارتداده إلى الهضاب الجنوبية . انتشار الثورة . فتك المورييسكيين بالنصارى . فرناندو دى فالور أو محمد بن أمية سلطان المورييسكيين . الفتك بالنصارى في منطقة البشرات . أهبة الإسبان لقمع الثورة . سير المركيز منديخار لمقاتلة المورييسكيين . اتساع نطاق الثورة . هزيمة المورييسكيين وفرار محمد بن أمية . معركة دامية أخرى . الفتك بالمورييسكيين في غرناطة . عود محمد بن أمية . استغاثته بأمراء المغرب وسلطان الترك . تشريد المورييسكيين في البيازين . مصرع محمد بن أمية . ابن عبور أو مولا عبدالله يخلفه في الرياسة . غارات المورييسكيين على أحواز غرناطة . تعيين دون خوان قائداً عاماً لغرناطة . سيره إلى مقاتلة الثوار . الممارك الطاحنة بين الفريقين . الحكومة الإسبانية تجنح إلى اللين . محاولات الإسبان لعقد الصلح . المفاوضات بين الفريقين . خطاب لابن عبو . تصميم مولاى عبد الله على القتال . اجتياح الإسبان للمناطق الثائرة . مرسوم بنى المورييسكيين إلى الداخل . الحوادث الدموية . قوانين جديدة مرفقة . مصرع مولاى عبد الله . انهيار الثورة المورييسكية .

لبث المورييسكيون في عهد فرناندو الخامس (الكاثوليكي) زهاء عشرين عاماً ، يترأصون بين الرجاء واليأس ، ويرزحون تحت غمر المطاردة المنظمة . وكان هذا الشعب المهيبض الذى أدخل قسراً في حظيرة النصرانية ، والذى أنكرته مع ذلك اسبانيا سيدهته الجديدة ، وأنكرته الكنيسة التى عمات على تنصيره ، يحاول أن يروض نفسه على حياته الجديدة ، وأن يتقبل مصيره المنكود بإباء وجلد . ولكن اسبانيا النصرانية ، لبثت ترى في هذه البقية الباقية من الأمة الأندلسية ، عدوها القديم الخالد ، وتتصور أن هذا المجتمع المهيبض الأعزل ، الذى أحكمت أغلالها في عنقه ،

ما يزال مصدر خطر دائم على سلامتها وطمأنينتها ، ومن ثم كان هذا الإمعان في مطاردته وإرهاقه ، بمختلف الفروض والقيود والمغارم ، وفي انتهاك عواطفه وحرماته ، وفي تعذيبه وتشريده ، وكان يلوح أن ليس لهذا الإستشهاد الطويل المؤثر من آخر سوى الفناء ذاته .

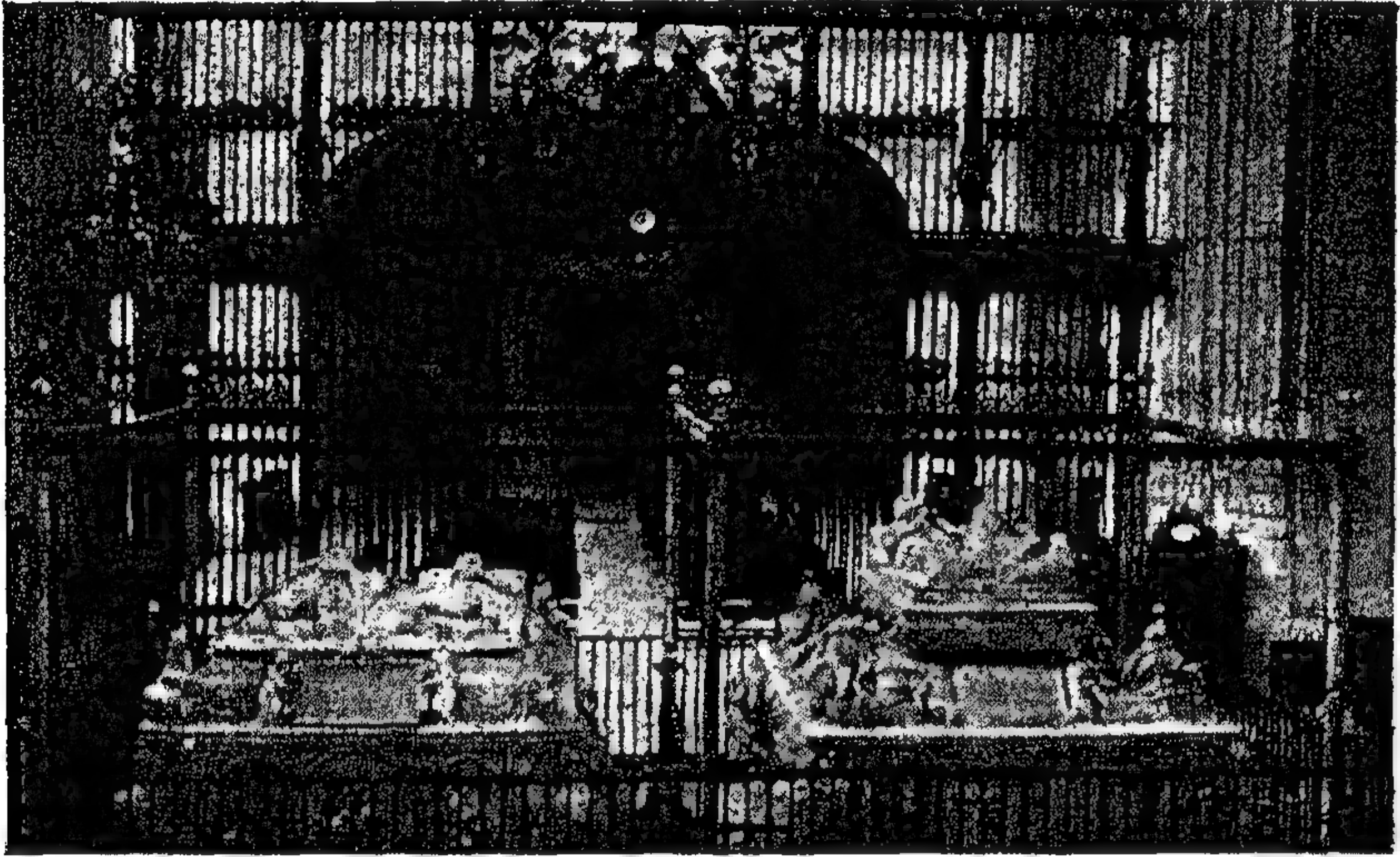
توفي فرناندو الكاثوليكي في ٢٣ يناير سنة ١٥١٦ ، بعد أن عانت بقية الأمة الأندلسية من غدره وعسفه ما عانت ؛ وكانت زوجته الملكة إيسابيلا قد سبقته إلى القبر ، قبل ذلك بأحد عشر عاماً ، في ٢٦ نوفمبر سنة ١٥٠٤ ، ودفنت تحقيقاً لرغبتها في غرناطة ، في دير سان فرنسيسكو القائم فوق هضبة الحمراء ، ودفن فرناندو إلى جانب زوجته بالحمراء ، تحقيقاً لوصيته ، ثم نقل رفاتهما فيما بعد إلى كنيسة غرناطة العظمى ، التي أقيمت فوق موقع مسجد غرناطة الجامع ، في عهد حفيدهما الإمبراطور شارلكان ، وأقيم لهما فيها ضريح رخامي فخيم ، ما يزال حتى اليوم في مقدمة مزارات غرناطة النصرانية . وفي دفن فاتحي غرناطة الإسلامية في حرم جامع غرناطة القديم ، مغزى خاص ينطوى على تنويه ظاهر بظفر اسبانيا ، وظفر النصرانية على الإسلام .

وقد كان الغدر والرياء ، أبرز صفات هذا الملك العظيم المظفر ، الذي أتبع له القضاء على دولة الإسلام بالأندلس . وقد نوه بهذه الصفة الذميمة أكابر المؤرخين المعاصرين واللاحقين ، ومنهم المؤرخون القشتاليون أنفسهم^(١) . ويقول معاصره الفيلسوف السياسي مكيا فيللي في حقه : « إن فرناندو الأرجوني غزا غرناطة في بداية حكمه ، وكان هذا المشروع دعامة سلطانه . وقد استطاع . بمال الكنيسة والشعب أن يمد جيوشه ، وأن يضع بهذه الحرب أسس البراعة العسكرية التي امتاز بها بعد ذلك ، وقد كان دائماً يستعمل الدين ذريعة ليقوم بمشاريع أعظم ، وقد كرس نفسه بقسوة تسترها التقوى لإخراج المسلمين من مملكته وتطهيرها منهم ، وبمثل هذه الذريعة غزا إفريقية ، ثم هبط إلى إيطاليا ، ثم هاجم فرنسا... »^(٢) .

(١) مثلاً يقول المؤرخ ثوريتا Zurita ، وهو من أكابر المؤرخين الإسبان في القرن السادس عشر في وصفة : « وكان مشهوراً لا بين الأجانب فقط ، ولكن بين مواطنيه أيضاً ، بأنه لا يحافظ على الصدق ، ولا يرضى عهداً قطعه ، وأنه كان يفضل دائماً تحقيق صالحه الخاص ، على كل ما هو عدل وحق » . راجع : Prescott, cit. Zurita (Anales) ; ibid ; p. 697 (note) .

(٢) Machiavelli : The Prince (Everyman), p. 177 & 178 .

وكانت سياسة فرناناندو الكاثوليكي مثال الغدر المثير في جميع ما اتخذته نحو معاملة المسلمين عقب تسليم غرناطة ، وما تلاه من حوادث تنصيرهم قسراً ، ثم اضطهادهم ، ومطاردتهم بأقصى الوسائل ، وأشدّها إيلاًماً لمشاعرهم وأرواحهم . فلما توفي فرناناندو ، وخلفه حفيده شارل أو كارلوس الخامس (الإمبراطور شارل كان) بعد فترة قصيرة من وصاية الكردينال خنيس على العرش ، تنفس المورييسكيون الصعداء ، وهبت عليهم ريح جديدة من الأمل ، ورجوا أن يكون العهد الجديد خيراً من سابقه . وأبدى الملك الجديد في الواقع شيئاً من اللين والتسامح ،



ضريح فرناندو وإيسابيلا بكنيسة غرناطة العظمى

نحو المسلمين والمورييسكيين ، وجنحت محاكم التحقيق إلى نوع من الاعتدال في مطاردتهم ، وكفت عن التعرض لهم في أراجون بسعى النبلاء والسادة ، الذين يعمل المسلمون في ضياعهم . ولكن هذه السياسة المعتدلة لم تدم سوى بضعة أعوام ، وعادت العناصر الرجعية في البلاط وفي الكنيسة ، فغلبت كلمتها ، وصدر مرسوم جديد في ١٢ مارس سنة ١٥٢٤ يحتم تنصير كل مسلم بقي على دينه ، وإخراج كل من أبي النصرانية من اسبانيا ، وأن يعاقب كل مسلم أبي التنصير أو الخروج في المهلة الممنوحة بالرق مدى الحياة ، وأن تحول جميع المساجد الباقية إلى كنائس . عندئذ استغاث المسلمون بالإمبراطور ، والتمسوا عدله وحمايته ، على يد وفد

منهم يعثوه إلى مدريد ، ليشرح للمليك ظلامتهم وآلامهم (سنة ١٥٢٦) . فندب الإمبراطور محكمة كبرى من النواب والأحبار والقادة وقضاة التحقيق ، برئاسة المحقق العام لتنظر في ظلامة المسلمين ، ولتقرر بالأخص ما إذا كان التنصير الذي وقع على المسلمين بالإكراه ، يعتبر صحيحاً ملزماً ، بمعنى أنه يحتم عقاب المخالف بالموت ، أم يطبق القرار الحديدي عليهم كمسلمين . وقد أصدرت المحكمة قرارها بعد مناقشات طويلة ، بأن التنصير الذي وقع على المسلمين صحيح لا تشوبه شائبة ، لأنهم سارعوا بقبوله اتقاء لما هو شر منه ، فكانوا بذلك أحراراً في قبوله . ويعلق المؤرخ الغربي النصراني على ذلك القرار بقوله : « وهكذا اعتبر التنصير الذي فرضه القوى على الضعيف ، والظافر على المغلوب ، والسيد على العبد ، منشئاً لصفة لا يمكن لإرادة معارضة أن تزيلها » (١) . وعلى أثر ذلك صدر أمر ملكي بأن يرغم سائر المسلمين الذين نصرؤا كرهاً ، على البقاء في اسبانيا ، باعتبارهم نصارى ، وأن ينصر كل أولادهم ، فإذا ارتدوا عن النصرانية ، قضى عليهم بالموت والمصادرة ، وقضى الأمر في الوقت نفسه ، بأن تحول جميع المساجد الباقية في الحال إلى كنائس . فكان لهذه القرارات لدى المسلمين أسوأ وقع ، وما لبثت الثورة أن نشبت في معظم الأنحاء التي يقطنها المسلمون ، في أحواز سرقسطة وفي منطقة بلنسية وغيرها ، وأخذت هذه الثورات المحلية الضئيلة تتباعاً . ولكن بلنسية كان لها شأن آخر . ذلك أنها كانت تضم حشداً كبيراً من المسلمين ، يبلغ زهاء سبعة وعشرين ألف أسرة (٢) ، وكان وقوعها على البحر يمهّد للمسلمين سبل الإتصال بإخوانهم في المغرب ، ومن ثم فقد كانت دائماً في طليعة المناطق النائرة ، وكانت الحكومة الإسبانية تنظر إليها باهتمام خاص ؛ فلما فرض التنصير العام أبدي المسلمون في بلنسية مقاومة عنيفة ، وبلحات جموع كبيرة منهم إلى ضاحية (بنى وزير) Benaguacil ، واضطرت الحكومة أن تجرد عليهم قوة كبيرة مزودة بالمدافع ، وأرغم المسلمون في النهاية على التسليم والخضوع ، وأرسل إليهم الإمبراطور إعلان الأمان على أن ينصروا ، وعدلت عقوبة الرق إلى الغرامة (٣) .

(١) راجع تاريخ De Mariés الذي وضعه بالانتباس من تاريخ كوندى : Hist. de la

Domination des Arabes en Espagne ; V. III. p. 389

Llorente ; ibid. (٢)

Dr. Lea : The Moriscos ; p. 91 & 92 (٣)

وفي باقى ولايات أراجون ، أشفق السادة والنبلاء على مصالحهم وضياعهم من الخراب ، إذا اضطهد المسلمون ومزقوا كما حدث فى بلنسية ، فأوضحوا للإمبراطور خطأ هذه السياسة ، وأكدوا له أن المسلمين فى أراجون جماعة هادئة عاملة ذلولة ، لم ترتكب جرماً قط ، ولم تبدر منهم خطيئة دينية أو سياسية ، ومعظمهم زراع فى أراضي الملك والسادة ، ومنهم صناع مهرة ، فأخراجهم من أراجون بخسارة



شارل الخامس (الإمبراطور شارلكان)

فادحة ، ولا داعى لإرغامهم على التنصير ، لأن ذلك لا يعنى إخلاصهم للدين الجديد ، ومن الخير أن يتركوا فى سلام ؛ ولكن مساعى السادة فى هذا السبيل ذهبت عبثاً ، وأصر الإمبراطور على أن يطبق التشريع الجديد على جميع مسلمى أراجون ، وأصدر أوامره إلى ديوان التحقيق أن يقوم بتلك المهمة ، فأذعن المسلمون إلى التنصير راغمين ، وتم بذلك تنصيرهم جميعاً (سنة ١٥٢٦) .

وتوالت الأوامر والقوانين المرهقة ، فصدر قانون يحظر على الموريسكيين بيع الحرير والذهب والفضة والحلى والأحجار الكريمة ، وحتم على كل مسلم بقى على

دينه أن يحمل شارة زرقاء في قبعته ، وحظر عليهم حمل السلاح إطلاقاً ، وإلا عوقب المخالفون بالجلد ، وأمروا بأن يسجدوا في الشوارع متى مر كبير الأحبار . وفي بلنسية صدر قرار بأن يغادر المسلمون الأراضي الإسبانية من طريق الشمال ، وحظر على السادة أن يبقوهم في ضياعهم ، وإلا عوقبوا بالغرامة الفادحة . فعاد المسلمون في بلنسية إلى الثورة ، وقاوموا جند الحكومة حيناً ، ولكن الثورة ما لبثت أن أخمدت ، وتقدم المسلمون خاضعين على يد وفد منهم مثل في البلاط ، يعرضون الدخول في النصرانية ، على أن تحقق لهم بعض المطالب والظروف المخففة ، فلا عتد إليهم قضاء ديوان التحقيق مدى أربعين عاماً ، لا في أنفسهم ولا في أموالهم ، وأن يحتفظوا خلال هذه المدة بلغتهم وملابسهم القومية ، وبعض حقوقهم في الزواج والميراث طبقاً لتقاليدهم ، وأن ينفق على من كان منهم من الفقهاء من دخل الأراضي التي وقفها المسلمون لأغراض البر ، ويرصد الباقي لإنشاء الكنائس الجديدة ، وأن يسمح لهم بحمل السلاح وتخفيض الضرائب^(١) . ولكن مجلس الدولة رأى أن يطبق عليهم سائر الأوامر ، التي طبقت على الموريسكيين في غرناطة وغيرها ، وأن يسمح لهم بالاحتفاظ بلغتهم وأزيائهم مدى عشرة أعوام فقط ، وأن يمنحوا بعض الإمتيازات فيما يتعلق بالزواج ودفع الضرائب . وكانت هذه المنح أفضل مما يمكن نيله في هذه الظروف ، فأقبل المسلمون في منطقة بلنسية على التنصير أفواجا ، عدا أقلية صغيرة آثرت المضي في المقاومة ، ومزقتها جند الإمبراطور بعد قليل ، وألفت محاكم التحقيق غير بعيد ، في مجتمع الموريسكيين في بلنسية ، ميداناً خصباً لنشاطها .

وحذا الموريسكيون في غرناطة حذو إخوانهم في بلنسية ، فسعوا لدى البلاط في تخفيف الأوامر والقوانين المرهقة التي فرضت عليهم ، وانتهزوا فرصة زيارة الإمبراطور لغرناطة (سنة ١٥٢٦) فقدموا إليه على يد ثلاثة من أكابرهم ، هم الدون فرناندو بنجاس والدون ميشيل داراجون وديجو لويز بنشارا ، وهم من سلالة أمراء غرناطة الذين نصرروا منذ الفتح ، مذكرة يشرحون فيها ظلامتهم ، وما يعانونه من آلام المطاردة والإرهاق المستمر ، ولا سيما من أعمال القسوس والقضاء الديني ؛ فندب الإمبراطور لجنة محلية للتحقيق في أمر الموريسكيين في سائر أنحاء غرناطة ، ثم عرضت نتائج بحثها على مجلس ديني قرر ما يأتي : أن يترك الموريسكيون استعمال لغتهم العربية وثيابهم القومية ، وأن يتركوا استعمال الحمامات ،

وأن تفتح أبواب منازلهم أيام الحفلات وأيام الجمع والسبت ، وألا يقيموا رسوم المسلمين أيام الحفلات ، وألا يتسموا بأسماء عربية . ولكن تنفيذ هذه القرارات أرجئ بأمر الإمبراطور ؛ ثم أعيد إصدارها ، ثم أرجئ تنفيذها مرة أخرى .

وصدرت عدة أوامر ملكية بالعفو عن الموريسكيين فيما تقدم من الذنوب ، فإذا عادوا طبقت عليهم أشد القوانين والفروض ، فأذعن الموريسكيون لكل ما فرض عليهم ، ولكنهم افتدوا من الإمبراطور بمبلغ طائل من المال ، حتى ارتداء ملابسهم القومية ، وحقق الإعفاء من المطاردة إذا اتهموا بالردة (١) .

وكان الإمبراطور شارل كان حينما أصدر قراره بتنصير المسلمين ، قد وعد بتحقيق المساواة بينهم وبين النصارى في الحقوق والواجبات ، ولكن هذه المساواة لم تحتمق قط ، وشعر العرب المنتصرون منذ الساعة الأولى ، أنهم مازالوا موضع الريب والاضطهاد ، وفرضت عليهم فروض وضرائب كثيرة لا يخضع لها النصارى ، وكانت وطأة الحياة تثقل عليهم شيئاً فشيئاً ، وتترى ضدهم السعائيات والإتهامات ، وقد غدوا في الواقع أشبه بالرقيق منهم بالرعايا الأحرار . ولما شعرت السلطات بميل الموريسكيين إلى الهجرة ، وفشت فيهم هذه الرغبة ، صدر قرار في سنة ١٥٤١ ، يحرم عليهم تغيير مساكنهم ، كما حرم عليهم الزواج إلى بلنسية ، التي كانت دائماً طريقهم المفضل إلى ركوب البحر ، ثم صدر قرار بتحريم الهجرة من أي الثغور إلا بترخيص ملكي نظير رسم قادح . وكانت السياسة الإسبانية تخشى دائماً اتصال الموريسكيين بمسلمي المغرب ، وكان ديوان التحقيق يسهر على حركة الهجرة ويعمل على قمعها بمنتهى الشدة ، ومع ذلك فقد كانت الأنباء تأتي من سفراء اسبانيا في البندقية وغيرها من الثغور الإيطالية ، بأن كثيراً من الموريسكيين الفارين ، يمرون بها في طريقهم إلى إفريقية والشرق الإسلامي (٢) .

وخلال هذا الاضطهاد للغامر ، كانت السياسة الإسبانية في بعض الأحيان ، تنجح إلى شيء من الرفق ، فرى الإمبراطور في سنة ١٥٤٣ يبلغ « المحققين العامين » بأنه تحقيقاً لرغبة مطران طليطلة والمحقق العام ، قد أصدر أمره بالعفو عن المسلمين المنتصرين من أهل « مدينة دلكامبو » و « أريقالو » فيما ارتكبه من ذنوب الكفر والمروق ، وأنه يكتفي بأن يطلب إليهم الاعتراف بذنوبهم أمام الديوان

Dr. Lea : The Moriscos; p. 214 & 215 و P. Longas: ibid; p. XLIII (١)

Dr. Lea: ibid ; p. 187 & 189 (٢)

(ديوان التحقيق) ، ثم ترد إليهم أملاكهم الثابتة والمنقولة التي أخذت منهم إلى الأحياء منهم ، ويسمح لهم بتزويج أبنائهم وبناتهم من النصراني الخالص ، ولا تصادر المهور التي دفعوها للخزينة بسبب الذنوب التي ارتكبوها ، بل تبقى هذه المهور للأولاد الذين يولدون من هذا الزواج ، وأن يتمتع بهذا الإمتياز النصرانيات الخالص اللاتي يتزوجن من الموريسكيين ، بالنسبة للأملاك التي يقدمها الأزواج الموريسكيون برسم الزواج أو الميراث (١) .

وهكذا لبثت السياسة الإسبانية أيام الإمبراطور شارلكان (١٥١٦-١٥٥٥) إزاء الموريسكيين ، تردد بين الإقدام والإحجام ، واللين والشدّة . بيد أنها كانت على وجه العموم أقلّ عسفاً وأكثر اعتدالاً ، منها أيام فرناندو وإسabella . وفي عهده نال الموريسكيون كثيراً من ضروب الإعفاء والتسامح الرفيعة نوعاً ، ولكنهم لبثوا في جميع الأحوال موضع القطيعة والريب ، عرضة للإرهاق والمطاردة ، ولبثت محاكم التحقيق تجد فيهم دائماً ميدان نشاطها المفضل .

- ٢ -

على أن هذه السياسة المعتدلة نوعاً ، لم يتح لها الاستمرار في عهد ولده وخلفه فيليب الثاني (١٥٥٥-١٥٩٨) . وكان التنصر قد عم الموريسكيين يومئذ ، وغاضت منهم كل مظاهر الإسلام والعروبة ، ولكن قبساً دفيناً من دين الآباء والأجداد ، كان لا يزال يجم في قراره هذه النفوس الأبية الكليمة ، ولم تنجح اسبانيا النصرانية بسياستها البربرية في اكتساب شيء من ولائها المغضوب . وكان الموريسكيون يحشدون جماعات كبيرة وصغيرة في غرناطة وفي بساططها ، وفي منطقة البشّرات الجبلية ، تتوسطها الحاميات الإسبانية والكنائس ، لتسهر الأولى على حركاتهم ، وتسهر الثانية على إيمانهم وضمايرهم ، وكانوا يشتغلون بالأخص بالزراعة والتجارة ، ولهم صلات تجارية واجتماعية وثيقة بثغور المغرب ، وهو ما كانت ترقبه السلطات الإسبانية دائماً بكثير من الحذر والريب .

وكانت بقية من التقاليد والمظاهر القديمة ، ما زالت تربط هذا الشعب الذي زادته المحن والخطوب اتحاداً ، وتعلقاً بترائثه القوي والروحي ، وكانت الكنيسة تحيط هذا الشعب العاق ، الذي لم تنجح تعاليمها في النفاذ إلى أعماق نفسه ، بكثير من البغضاء والحقد . فلما تولى فيليب الثاني ألفت فرصتها في إذكاء عوامل الاضطهاد

والتعصب ، التي خبت نوعاً في عهد أبيه شارل الخامس . وكان هذا الملك المتعصب حبراً في قرارة نفسه ، يخضع لوجي الأحبار والكنيسة ، ويرى في الموريسكيين ما تصوره الكنيسة والسياسة الرجعية ، عنصراً بغيضاً خطراً دخيلاً على المجتمع الإسباني ، فلم تمض أعوام قلائل على تبوئه الملك ، حتى ظهرت بوادر التعصب والتحريض ضد الموريسكيين ، في طائفة من القوانين والفروض المرهقة .

وكانت مسألة السلاح في مقدمة المسائل ، التي كانت موضع الاهتمام والتشدد ، وقد عنت السياسة الإسبانية منذ البداية بتجريد الموريسكيين من السلاح ، واتخذت أيام فرناند وإجراءات لينة نوعاً ، فكان يسمح بحمل أنواع معينة من السلاح المنزلي كالمسكين وغيرها ، وذلك بترخيص ورسوم معينة . ولكن الحكومة خشيت بعد ذلك عواقب هذا التسامح ، فأخذت تشدد في الترخيص ، وجرد المسلمون في بلنسية من سلاحهم جملة ، وقيل لهم حينئذ أذعنوا للتنصير ، أنهم سيعاملون كالنصارى في سائر الحقوق والواجبات ويرد لهم سلاحهم ، ولكن الحكومة لم تف بعهدتها . وفي سنة ١٥٤٥ صدر قرار بمنع حمل السلاح كافة ، ولكنه نفذ بشيء من اللين . وفي سنة ١٥٦٣ ، في عهد فيليب الثاني ، صدر قانون جديد يحرم حمل السلاح على الموريسكيين ، إلا بترخيص من الحاكم العام ، وأحيط تنفيذه بمنتهى الشدة ، فأثار صدوره منقط الموريسكيين ، وكان السلاح ضرورياً للدفاع عن أنفسهم في محلاتهم المنعزلة النائية ، بيد أن قانون تحريم السلاح ، لم يكن سوى مقدمة لقانون أقسى وأشد إيلاماً ، هو القانون الخاص بتحريم استعمال اللغة العربية ، وارتداء الثياب العربية ، على الموريسكيين . وقد لبثت اللغة والتقاليد العربية في الواقع للموريسكيين ، أوثق الروابط بماضيهم وتراثهم ، وكانت عماد قوتهم المعنوية ، ومن ثم كانت عناية السياسة الإسبانية ، بالعمل على محوها بطريق التشريع الصارم ، والقضاء بذلك على آخر الروابط التي تربط الموريسكيين ، بماضيهم وتراثهم القومي . وقد فكر بعض أحبار الكنيسة أن يتعلم القسس الذين يقومون بحركة التنصير اللغة العربية ، لكي يستطيعوا إقناع الموريسكيين بلغتهم ، والنفوذ إلى أعماق نفوسهم ، ولكن فيليب الثاني لم يوافق على هذا الرأي ، وآثر أن تعلم القشتالية لأبناء الموريسكيين منذ طفولتهم ، وكانت السياسة الإسبانية قد حاولت تنفيذ مشروعها منذ عهد الإمبراطور شارل كان ، فصدر في سنة ١٥٢٦ قانون يحرم على الموريسكيين التخاطب باللغة العربية . وارتداء الثياب العربية ، واستعمال الحمامات ، وإقامة الحفلات على الطريقة الإسلامية ، ولكنه لم ينفذ بشدة ،

والتمس الموريسكيون في بلنسية وغرناطة وقف تنفيذه أربعين عاماً ، يحتفظون خلالها بلغتهم وثيابهم القومية ، وقرنوا ملتصقين بمطالب أخرى تتعلق بتطبيق شريعتهم وتقاليدهم ، وتخفيف الضرائب عن كاهلهم ، وبالرغم من أن مطالبهم لم تجب يومئذ كلها ، فإن قانون تحريم اللغة والثياب القومية ، أرجىء تنفيذه مرة بعد أخرى ، وأجيز للموريسكيين استعمال اللغة والثياب القومية ، نظير ضريبة معينة ، واستمر هذا المنح سارياً حتى عهد فيليب الثاني ، وكان يجمع من هذه الضريبة مبلغ طائل . ولكن فيليب الثاني كان ملكاً شديداً التعصب ، كثير التأثير بنفوذ الأحرار ، وكانت الكنيسة ترى أن بقاء اللغة العربية من أشد العوامل لمنع تغلغل النصرانية في نفوس الوريثيين ، وأنه لا بد من القضاء على ذلك الحاجز الصخري الذي تتحطم عليه جهود الكنيسة ؛ وكانت قد مضت فوق ذلك أربعون عاماً منذ صدر قانون التحريم في عهد الإمبراطور شارلكان ، ولم يبق للموريسكيين بذلك حجة ولا ملتصق ، وانتهت الكنيسة كالعادة بإقناع الملك بصواب رأيها ، فلم يلبث أن استجاب لتحريرها ، وأمر في مايو سنة ١٥٦٦ بأن يحدد القانون القديم بتحريم اللغة والثياب العربية ، وهكذا حاول بطريق التشريع أن يسدد الضربة الأخيرة للغة الموريسكيين وتقاليدهم العربية ، فأصدر هذا القانون الهمجي الذي لم يسمع بصدر مثله في تاريخ المجتمعات المتعدنة .

ويقضى هذا القانون بأن يمنح الموريسكيون ثلاثة أعوام لتعلم اللغة القشتالية ، ثم لا يسمح بعد ذلك لأحد أن يتكلم أو يكتب أو يقرأ بالعربية أو يتخاطب بها ، سواء بصفة عامة أو بصفة خاصة ، وكل معاملات أو عقود تجرى بالعربية تكون باطلة ولا يعتد بها لدى القضاء أو غيره . ويجب أن تسلم الكتب العربية ، من أية مادة في ظرف ثلاثين يوماً إلى رئيس المجلس الملكي في غرناطة ، لتفحص وتقرأ ، ثم يرد غير الممنوع منها إلى أصحابها لتحفظ لديهم مدى الأعوام الثلاثة فقط . وأما الثياب فيمنع أن يصنع منها أي جديد مما كان يستعمل أيام المسلمين ، ولا يصنع منها إلا ما كان مطابقاً لأزياء النصارى ، وحتى لا يتلف منها ما كان من زى المسلمين فإنه يسمح بارتداء الثياب الحريرية منها لمدة عام ، والصوفية لمدة عامين ، ثم لا يسمح باستعمالها بعد ذلك . ويحظر التحجب على النساء الموريسكيات وعليهن أن يكشفن وجوههن ، وأن يرتدين عند الخروج المعاطف والقبعات على نحو ما تفعل النساء الموريسكيات في أراجون . ويحظر في الحفلات إجراء أية رسوم



الملك فلبس العرب
صورة «سانشيث كويليو» المحفوظة بمتحف «سانشيث كويليو»

إسلامية ، ويجب أن يجرى كل ما فيها طبقاً لعرف الكنيسة وعرف النصارى ، ويجب أن تفتح المنازل أثناء الاحتفال ، وكذلك أيام الجمعة وأيام الأعياد، ليستطيع القسس ورجال السلطة أن يروا ما يقع بداخلها من المظاهر والرسوم المحرمة . ويحرم إنشاد الأغاني القومية ، ولا يشهر الزمر (الرقص العربي) أو ليالى الطرب بالآلات ، أو غيرها من العوائد الموريسكية ، ويحرم الخضاب بالحناء . ولا يسمح بالاستحمام في الحمامات ، ويجب أن تهدم سائر الحمامات العامة والخاصة . ويحرم استعمال الأسماء والألقاب العربية ، ومن يحملها يجب عليه أن يبادر بتركها . ويجب أخيراً على الموريسكيين الذين يستخدمون العبيد السود أن يقدموا رخصهم باستخدامهم للنظر فيما إذا كان حرياً بأن يسمح لهم باستبقائهم^(١).

هذه هي نصوص ذلك القانون الممجى الذى أريد به تسديد الضربة القاتلة لبقايا الأمة الأندلسية ، وذلك بتجريدتها من مقوماتها القومية الأخيرة . وقد فرضت على المخالف عقوبات فادحة ، تختلف من السجن إلى النفي والإعدام ، وكان إحراز الكتب والأوراق العربية ولا سيما القرآن ، يعتبر في نظر السلطات من أقوى الأدلة على الردة ، ويعرض المتهم لأقسى أنواع العذاب والعقاب .

أعلن هذا القانون المروع في غرناطة في يوم أول يناير سنة ١٥٦٧ ، وهو اليوم الذى سقطت فيه غرناطة ، واتخذته اسبانيا عيداً قومياً تحتفل به في كل عام ، وأمر ديسا رئيس المجلس الملكى بإذاعته في غرناطة ، وسائر أنحاء مملكها القديمة ، وتولى إذاعته موكب من القضاة شق المدينة ، ومن حوله الطبل والزمر ، وعلق في ميدان باب البنود أعظم ميادينها القديمة ، وفي سائر ميادينها الأخرى ، وفي ربض البيازين ، فوق لدى الموريسكيين وقع الصاعقة ، وفاضت قلوبهم الكسيرة سخطاً وأسى ويأساً ، وأحيط تنفيذه بمنتهى الشدة ، فحطمت الحمامات ثباعاً . واجتمع زعماء الموريسكيين وتباحثوا فيما يجب عمله إزاء هذه المحنة الجديدة ، وحاولوا أن يسعوا بالضراعة والحسنى لإلغاء هذا القانون أو على الأقل لتخفيف وطأته ، ورفعوا احتجاجهم أولاً إلى الرئيس ديسا ، عن يد رئيس جماعتهم مولاي فرنسيسكو نونيز ، فخاطب الرئيس ديسا ، وبين له ما في القانون من شدة وتناقض وخرق للعهود ، وطلب إرجاء تنفيذه . ثم قرروا التظلم للعرش . وحمل رسالتهم

(١) نقلنا نصوص هذا القانون عن مarmol ، وقد عاصر صدوره . انظر : Marmol: ibid;

Lib. II. Cap. VI. . وراجع أيضاً : P. Longas: ibid; p. XLV.XLVI :

إلى فيليب الثاني ، وإلى وزيره الطاغية الكردينال اسبينوسا ، سيد اسباني نبيل من أعيان غرناطة يدعى الدون خوان هنريكس ، وكان يعطف على هذا الشعب المنكود ، ويرى خطر السياسة التي اتبعت لإبادته ، وسار معه إلى مدريد اثنان من أكابرهم هما خوان هرناندث من أعيان غرناطة ، وهرناندو الحبتي من أعيان وادي آش ، والتمس الوفد إلى الملك إرجاء تنفيذ القانون كما حدث أيام أبيه ، وبعث الدون هنريكس بمذكرة إلى جميع أعضاء مجلس الملك يبين فيها ما يترتب على تنفيذ القانون من حرج واضطراب ، ولكن مساعيه كلها ذهبت عبثاً ، وأجاب الكردينال اسبينوسا ، بأن جلالته مصمم على تنفيذ القانون ، وأنه أصبح أمراً واقعاً . وكذا عرض المركيز دي موندنخار حاكم غرناطة على الملك اعتراض الموريسكيين ، وأوضح له خطورة الموقف ، وأن اليأس قد يدفعهم إلى الثورة ، وأن الترك ، أصبحوا في شواطئ المغرب على مقربة من اسبانيا ، وأن الموريسكيين شعب عدو لا يدين بالولاء ، فلم تفد هذه الاعتراضات شيئاً ، وقيل إن الموريسكيين شعب جبان ، ولا سلاح لديه ولا حصون . وهكذا حملت سياسة العنف والتعصب في طريقها كل شيء ، ونفذت الأحكام الجديدة في المواعيد التي حددت لها ، ولم تبد السلطات في تنفيذها أي رفق أو مهادنة^(١) .

ولم يحظ بلمحة من الرفق سوى الموريسكيين في بلنسية ، وكان زعيمهم وكبير أشرفهم كوزمي بن عامر من المقربين إلى البلاط ، فسعى للتخفيف عنهم ، وكللت مساعيه بالنجاح في بعض التواحي ، وهو أن يعامل الموريسكيون بالرفق في حالة الإتهام بالردة ، ولا تنزع أملاكهم بتهمة المروق ، وذلك على أن يدفعوا إتاوة سنوية قدرها ألفان وخمسمائة مثقال لديوان التحقيق^(٢) .

وأما في غرناطة فقد بلغ اليأس بالموريسكيين ذروته ، فتهامسوا على المقاومة والثورة ، والذود عن أنفسهم إزاء هذا العنف المفضي ، أو الموت قبل أن تنطفيء في قلوبهم وضمائرهم ، آخر جذوة من الكرامة والعزة ، وقبل أن تقطع آخر صلاتهم بالماضي المحيد والتراث العزيز ، وكانت نفوسهم ماتزال تضطرم ببقية من شغف النضال والدفاع عن النفس ، وكانوا يرون في المناطق الجبلية القريبة ملاذاً للثورة ،

Prescott : Philip II of Spain; V. III. p. 12-29; Marmol: ibid; II. Cap. (١)

Dr. Lea : The Moriscos p. 150, 151 & 230.240 IX & XII وكذلك

Dr. Lea : ibid; p. 126 (٢)

ويؤملون أن يصلوا بالمقاومة إلى إلغاء هذا القانون الهمجي أو تخفيفه .
وهنا يبدأ الصراع الأخير بين الموريسكيين واسبانيا النصرانية . ومن الأسف
أننا لم نتلق عن هذه المرحلة المؤسسية والأخيرة من تاريخ الأمة الأندلسية ، شيئاً من
الروايات العربية ، وهى تقف كما رأينا عند محنة التنصير الأولى عقب سقوط
غرناطة ، فلا بد لنا هنا من أن نرجع إلى الرواية النصرانية دون سواها .

سرى إلى الموريسكيين يأس بالغ يذكيه السخط العميق فعولوا على الثورة ،
مؤثرين الموت على ذلك الإستشهاد المعنوى الهائل . ونبتت فكرة الثورة أولاً في
غرناطة حيث يقيم أعيان الموريسكيين ، وحيث كانت جمهرة كبيرة منهم تحتشد
في ضاحية « البيازين » . وكان زعيم الفكرة ومثير ضرامها موريسكى يدعى
فرج بن فرج ، وكان فرج صباغاً بمهنته ، ولكنه حسماً تصفه الرواية القشتالية ،
كان رجلاً جريئاً وافر العزم والحماسة ، يضطرم بغضاً للنصارى ، ويتوق إلى
الانتقام الذريع منهم ، ولاغرو فقد كان ينتسب إلى بنى سراج ، وهم كما رأينا
من أشرف غرناطة وفرسانها الأنجاد أيام الدولة الإسلامية . وكان ابن فرج كثير
التردد على أنحاء البشريات ، وثيق الصلة بمواطنيه ، فاتفق الزعماء على أن يتولى
حشد قوة كبيرة منهم ، تزحف سراً إلى غرناطة ، وتجاوز إليها من ضاحية
البيازين ، ثم تفاجئ حامية الحمراء وتسحقها ، وتستولى على المدينة ، وحددوا
للتفديد « يوم الخميس المقدس » من شهر ابريل سنة ١٥٦٨ ، إذ يشغل النصارى
يومئذ باحتفالاتهم وصلواتهم . ولكن أنباء هذا المشروع الخطير تسربت إلى السلطات
منذ البداية ، فاتخذت التحركات لدرثه ، وعززت حامية غرناطة وحاميات المغور ،
واضطر الموريسكيون لإزاء هذه الأهبة ، أن يرجثوا مشروعاتهم إلى فرصة أخرى .
ووضع أديب من زعماء الثورة يدعى باسمه المسلم محمد بن محمد بن داود ،
قصيدة ملتهبة يصف فيها آلام بنى وطنه ، ويستمد فيها الغوث والعون من الله ونبيه ،
فضبطت معه في ثغر أدرة ، وأرسلت إلى البلاط مع ترجمتها القشتالية ، وإليك
ملخص ما ورد في هذه القصيدة التى تعتبر كأنها صرخة ألم أخيرة لشعب شهيد :

تفتتح القصيدة بحمد الله والثناء عليه والتنويه بقدرته ، وخضوع جميع الناس
والأشياء لحكمه ، ثم يقول أن استمعوا إلى قصة الأندلس الحزنة ، وهى تلك الأمة
العظيمة ، التى غدت اليوم ضعيفة مهيبضة ، يحيط بها الكفرة من كل صوب ،
وأضحى أبناؤها كالأغنام الذين لا راعى لهم .

وفي كل يوم نسام سوء العذاب ، ولا حيلة لنا سوى المصانعة ، حتى ينقذنا الموت مما هو شر وأدهى .

وقد حكموا فينا اليهود الذين لا عهد لهم ولا ذمام ، وفي كل يوم يبحثون عن ضلالات وأكاذيب ونخدع وانتقامات جديدة .

ونرغم على مزاوله الشعائر النصرانية وعبادة الصور ، وهي مسخ للواحد القهار ، ولايجروا أحد على التذمر أوالكلام . وإذا ما قرع الناقوس ألقى القس عظته بصوت أجش ، وفيها يشيد بالنبيذ ولحم الخنزير ، ثم تتحنى الجماعة أمام الأوثان دون حياء ولاخجل ...

ومن عبّد الله بلغته قضي عليه بالهلاك ، ومن ضبط ألقى إلى السجن وعذب ليل نهار حتى يرضخ لباطلهم .

ثم يصف وسائل إرهابهم والتضييق عليهم ، من التسجيل والتفتيش وغيرها ، وما يفرض عليهم من الضرائب الفادحة ، وكيف تؤدي عن الحى والميت ، والكبير والصغير والغنى والفقير ، وكيف يرهقهم القضاة الظلمة ، ولا يفلت من ظلمهم كائن ، وكيف يلتقى بهم في السجن ، ويرغمون على التنصير بالاعتقال والتعذيب ، وكيف تهشم أوصال الفرائس ، ثم تحمل إلى الميدان لتحرق أمام الجمع الحاشد . وكيف تكلس المظالم على رؤوسهم تكديساً ، ويسومهم الخسف أصاغر النصارى ، وكل منهم يفتن في ضروب الإضطهاد .

ثم يقول : ولقد علقوا يوم العيد (عيد سقوط غرناطة) ، في ميدان باب البنود ، قانوناً جديداً ، وأخذوا يدهمون الناس في نومهم ، ويفتحون كل باب ، يزعمون تجريدنا من ثيابنا وقديم عاداتنا ، ويمزقون الثياب ويحطمون الحمامات .

ونحن إذ نياس من عدل الإنسان نستغيث بالنبي ، معتمدين على ثواب الآخرة ، وقد حثنا شيوننا على الصلاة والصوم ، وأن نقصد وجه الله ، فهو الذى يرحمنا في نهاية الأمر^(١) .

وضبط في نفس الوقت مع ابن داود خطاب موجه من أحد زعماء البيازين إلى رؤساء المغرب وإخوانهم في الدين . وكان هذا الكتاب واحداً من كتب عديدة وجهت خفية ، إلى أمراء الثغور في المغرب ، يطلبون إليهم الغوث والعون ، فحمل

(١) أورد مarmol ترجمة قشتالية كاملة لهذه القصيدة ومنها لخصنا ماتقدم . راجع :

الكتاب إلى حاكم غرناطة ، وفيه يناشد كاتبه إخوانه بالمغرب ، ويستحلفهم الغوث بحق روابط الدين والدم ، ويصف ماقرره النصارى « من إرغامهم على ترك اللغة ، وتركها فقد للشرية ، وكشف الوجوه الحية المحتشمة ، وفتح الأبواب ، وما أنزل بهم من محن السجن والأسر ونهب الأملاك » ويطلب إليهم أن يبلغوا استغاثتهم إلى سلطان المشرق ، قاهر أعدائه ، ثم يقول : « لقد غمرتنا الهوم وأعداؤنا يحيطون بنا إحاطة النار المهلكة . إن مصائبنا لأعظم من أن تحتمل ، ولقد كتبنا إليكم في ليال تفيض بالعذاب والدمع ، وفي قلوبنا قبس من الأمل ، إذا كانت ثمة بقية من الأمل في أعماق الروح المعذب^(١) ، ولكن الحكومات المغربية كانت مشغولة بمشاكلها الداخلية ، فلم يلب داعى الغوث سوى جماعة من المتطوعين ، الذين نقلوا سرّاً إلى إخوانهم في البشرات ، ومنهم كثيرون من البحارة المجاهدين ، الذين كانوا حرباً عواناً على الثغور والسفن الإسبانية في ذلك العصر .

واستمر الموريسكيون على عزمهم وأهبتهم ، وأرسلت خطابات عديدة من ابن فرج وزملائه إلى مختلف الأنحاء يدعون فيها إخوانهم إلى التأهب وإخطار سائر إخوانهم . وفي شهر ديسمبر سنة ١٥٦٨ وقع حادث كان نذير الانفجار ، إذ اعتدى الموريسكيون على بعض المأمورين والقضاة الإسبانين في طريقهم إلى غرناطة ، ووثبت جماعة منهم في نفس الوقت بشرذمة من الحند ، كانت تحمل كمية كبيرة من البنادق ، ومثلت بهم جميعاً . وفي الحال سار ابن فرج على رأس مائتين من أتباعه ، ونقل إلى المدينة ليلاً ، وحاول تحريض مواطنيه في « البيازين » على نصرته ، ولكنهم أبوا أن يشتركوا في مثل هذه المغامرة الجنونية . ولقد كان موقفهم حرجاً في الواقع ، لأنهم يعيشون إلى جانب النصارى على مقربة من الحامية ، وهم أعيان الطائفة ولهم في غرناطة مصالح عظيمة ، يخشون عليها من انتقام الإسبان . بيد أنهم كانوا يؤيدون الثورة : يؤيدونها برعايتهم ونصحهم ومالهم ؛ فارتد ابن فرج على أعقابهم واجتاز شعب جبل شلير (سيراً نقاداً) إلى الهضاب الجنوبية ، فيما بين بلتش والمرية . فلم تمض بضعة أيام ، حتى عم ضرام الثورة جميع الدساكر والقرى الموريسكية في أنحاء البشرات ، وهرعت الجموع المسلحة إلى ابن فرج ، ووثب الموريسكيون بالنصارى القاطنين فيما بينهم ، ففتكوا بهم ومزقوهم شر تمزيق .

(١) أورد مرمول أيضاً ترجمة قشتالية كاملة لهذا الخطاب . راجع : Marmol : ibid

اندلع لهيب الثورة في أنحاء الأندلس، ودوت بصيحة الحرب القديمة، وأعلن الموريكيون استقلالهم، واستعدوا لخوض معركة الحياة أو الموت. وبدأ الزعماء باختيار أمير يلتفون حوله، ويكون رمز مُلكهم القديم، فوقع اختيارهم على فتي من أهل البيازين يدعى الدون فرناندو دى كاردوبا وقالور^(١). وكان هذا الاسم النصراني القشتالي، بحجب نسبة عربية إسلامية رفيعة. ذلك أن فرناندو دى قالور كان ينتمى في الواقع إلى بني أمية، وكان سليل الملوك والخلفاء، الذي سطعت في ظلهم الدولة الإسلامية في الأندلس، زهاء ثلاثة قرون. وكان فتي في العشرين تنوه الرواية القشتالية المعاصرة بوسامته ونبل طلعه، وكان قبل انتظامه في سلك الثوار مستشاراً ببلدية غرناطة، ذا مال ووجاهة. وكان الأمير الجديد يعرف خطر المهمة التي انتدب لها، وكان يضطرم حماسة وجراءة وإقداماً. ففي الحال غادر غرناطة سراً إلى الجبال، ولجأ إلى شيعته آل قالور في قرية برذنار Beznar، فهرعت إليه الريفود، والجموع من كل ناحية، واحتفل الموريكيون بتتويجه في التاسع والعشرين من ديسمبر (سنة ١٥٦٨) في احتفال بسيط موثر، فرشت فيه على الأرض أعلام إسلامية ذات أهلة، فصلى عليها الأمير متجهاً صوب مكة، وقبل أجد أتباعه الأرض رمزاً بالخضوع والطاعة؛ وأقسم الأمير أن يموت في سبيل دينه وأمته، وتسمى باسم ملوكي عربي هو محمد بن أمية صاحب الأندلس وغرناطة، واختار عمه المسمى فرناندو الزغوير (الصغير)، واسمه المسلم ابن جوهر قائداً عاماً لحيشه، وقد كان صاحب الفضل الأكبر في اختياره للرياسة، وانتخب ابن فرج كبيراً للوزراء، ثم بعثه على رأس بعض قواته إلى هضاب البشرات، ليجمع ما استطاع من أموال الكنائس؛ واتخذ مقامه في أعماق الجبال في مواقع منبجة، وبعث رسله في جميع الأنحاء، يدعون الموريكيين إلى خلع طاعة النصارى والعود إلى دينهم القديم^(٢).

وقعت نقمة الموريكيين بادئ ذي بدء، على النصارى المقيمين بين ظهرانيهم في أنحاء البشرات، ولأسباب القسوس وعمال الحكومة، وكان هؤلاء يقيمون في محلات متفرقة سادة قساة، يعاملون الموريكيين بمنتهى الصرامة والزرارية، وكان

(١) كاردوبا أى قرطبة، وقالور قرية غرناطية تقع على مقربة من أجيجر.

(٢) Marmol : ibid ; IV, Cap. VII

المقسس بالأخص سبب بلائهم ومصائبهم ، ومن ثم فقد كانوا أصحابا الثورة الأولى . وانقض ابن فرج ورجاله على النصارى فى تلك الأنحاء ومزقوهم تمزيقاً ، وقتلوا المقسس وعمال الحكومة ، ومثلوا بهم أشنع تمثيل ؛ وكانت حسبما تقول الروايات القشتالية مذبحة عامة ، لم ينج منها حتى النساء والأطفال والشيوخ . وذاعت أنباء المذبحة الهائلة فى غرناطة ، فوجم لها الموريسكيون والنصارى معاً ، وكل يخشى عواقبها الوخيمة ؛ وكان الموريسكيون يخشون أن يبطش النصارى بهم انتقاماً لمواطنيهم ، وكان النصارى يخشون أن يزحف جيش الموريسكيين على غرناطة ، فتسقط المدينة فى أيديهم ، وعندئذ يحل بهم النكال الرائع . بيد أن الرواية القشتالية تنصف هنا محمد بن أمية ، فتقول إنه لم يحرض على هذه المذابح ، ولم يوافق عليها ، بل لقد ثار لها وحاول أن يحول دون وقوعها ، وعزل نائبه ابن فرج عن القيادة ، فزل راضياً واندمج فى صفوف المجاهدين . وهنا يخفى ذكره ولا يبدو على مسرح الحوادث بعد^(١) .

- ٤ -

وكانت غرناطة فى أثناء ذلك ترتجف سخطاً وروعاً ، وكان حاكمها المريكز دى منديخار يتخذ الأبهة لقمع الثورة منذ الساعة الأولى . بيد أنه لم يكن يقدر مدى الانفجار الحقيقى ، فغصت غرناطة بالخذ ، ووضع الموريسكيون أهل البيازين تحت الرقابة ، رغم احتجاجاتهم وتوكيدهم بأن لا علاقة لهم بالثائرين من مواطنيهم ؛ ونخرج منديخار من غرناطة بقواته فى ٢ يناير سنة ١٥٦٩ ، تاركاً حكم المدينة لابنه الكونت تندليا ، وعبر جبل شلير (سيراً نقاداً) ، وسارتوا إلى أعماق البشرات حيث يحشد جيش الثوار . وكانت الثورة الموريسكية فى تلك الأثناء قد عمت أنحاء البشرات الشرقية والجنوبية ، واضطربت فى أجيغر وبرجة وأدرة وأندرش ودلاية ولوشار ومرشانة وشلوبانية وغيرها من البلاد والقرى . واستطاع الموريسكيون أن يتغلبوا بسهولة على معظم الحاميات الإسبانية المتفرقة فى تلك الأنحاء ، بل لقد سرت الثورة إلى أطراف مملكة غرناطة القديمة ، حيث اندلع لهيبها فى وادى المنصورة فى قراه ودساكره ، ولم يتخلف عن الاشتراك فى الثورة سوى رندة ومربلة ومالقة ، وكانت بها حاميات إسبانية قوية ، ونشبت الثورة

(١) Prescott: Philip II; V. III. Ch. II. وكذلك ؛ Dr. Lea: The Moriscos p. 337

في معظم أنحاء ألمرية ، وهكذا عمت الثورة الموريسكية معظم أنحاء الأندلس ، واشتد الأمر بنوع خاص في بسطة ووادي آش وألمرية (١) .

وكان محمد بن أمية متحصناً بقواته في آكام بوكيرا الوعرة ، وكان الموريسكيون رغم نقص مواردهم وسلاحهم ، قد حذقوا حرب الجبال ومفاجأتها ، فما كاد الإسبان يقتربون حتى انقضوا عليهم ، ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة ، ارتد الموريسكيون على أثرها إلى سهل بطرنة ، وتخلف كثيرون منهم ولاسيما النساء ، ففتك الإسبان بهم فتكاً ذريعاً ، وحاول منديخار أن يتفاهم مع الثائرين على العفو ، وأن يخلدوا إلى السكينة ، وبعث إليهم بعض المسلمين من مواطنيهم . وكتب الدون ألونسو فنيغاس (بنيغش) سليل الأسرة الغرناطية القديمة إلى ابن أمية يعاتبه ، وأنه قد جانب العقل والحزم في القيام بهذه الحركة التي تعرضه وتعرض أمته للهلاك ، ونصحه بالتوبة والتماس العفو . وكان محمد بن أمية يميل إلى الصلح والتفاهم ، وتبودلت بالفعل المكاتبة بينه وبين المركيز دي منديخار في أمر التسليم ، ولكن المتطرفين من أنصاره ولاسيما المتطوعين المغاربة ، رفضوا الصلح ، فاستؤنفت المعارك ، ورجحت كفة الإسبان ، وهزم الموريسكيون مرة أخرى ، وأعلن المركيز دي منديخار أن الأسرى الموريسكيين يعتبرون رقيقاً ، وفر محمد بن أمية ، وأسرت أمه وزوجه وأخواته . وأصيب الإسبان بهزيمة شديدة في آكام «جواخاريس» وقتل منهم مائة وخمسون جندياً مع ضباطهم ، ولكن الموريسكيين آثروا الارتداد ، وقتل الإسبان من تخلف منهم أشنع قتل ، وكان ممن تخلف منهم زعيم باسل يدعى «الزمار» أسره الإسبان مع ابنته الصغيرة ، وأرسلوه إلى غرناطة حيث عذبوه عذاباً وحشياً إذ نزع لحمه من عظامه حياً ، ثم مزقت أشلاؤه . وهكذا كانت أساليب الإسبان ومحاكم التحقيق إزاء العرب المنتصرين . واختفى محمد بن أمية مدى حين في منزل قريبه «ابن عبو» ، وكان من أنجاد الزعماء أيضاً ، وطارده الإسبان دون أن يظفروا به . على أن هذه الهزائم لم تنل من عزم الموريسكيين ، فقد احتشدوا في شرقي البشرات في جموع عظيمة ، وأخذوا يهددون ألمرية ، فسار إليهم المركيز «لوس قبيليس» على رأس جيش آخر ، ووقعت بين الفريقين عدة معارك شديدة ، قتل فيها كثير من الفريقين ، ومزق الموريسكيون ، وفتك الإسبان كعادتهم بالأسرى ، وقتلوا النساء والأطفال قتلاً ذريعاً .

ووقعت في نفس الوقت في غرناطة مذبحه مروعة أخرى ، فقد كان في سجنها العام نحو مائة وخمسين من أعيان الموريسكيين ، اعتقلوا رهينة وكفالة بالطاعة ، فأذاع الإسبان أن الموريسكيين سيهاجمون غرناطة لإنقاذ السجناء ، بموازنة مواطنهم في البيازين ، وعلى ذلك صدر الأمر بإعدام السجناء ، فانقض الجند عليهم وذبحوهم في مناظر مروعة من السفك الأثيم .

وكان لهذه الحوادث الأخيرة أثر في إذكاء الثورة ، وكان نذيراً جديداً للموريسكيين بأن الموت في ساحة الحرب خير مصير يلقون ، فسرى إليهم لبث الثورة بأشد من قبل ، وطافت بهم صيحة الانتقام ، فانقضوا على الحاميات الإسبانية المبعثرة في أنحاء البشريات ومزقوها تمزيقاً ، ودمروا قوة إسبانية تصدت لقتالهم ، واحتشدت جموعهم مرة أخرى تملأ الهضاب والسهل ، وعاد محمد بن أمية ثانية إلى تبوى عرشه الخطر ، والتف حوله الموريسكيون أضعاف ما كانوا ، وبعث أخاه عبدالله إلى قسطنطينية بطلب العون من سلطانها ، وأرسل في نفس الوقت إلى أمير الجزائر وإلى سلطان مراکش الشريف يطلب الإنجاد والغوث ، ولكن سلاطين قسطنطينية لم يلبوا ضراعة الموريسكيين بالرغم من تكرارها منذ سقوط غرناطة ، وأرسل أمير الجزائر مشجعاً ومعتذراً عن عدم إمكان إرسال السفن ، ووعد سلطان مراکش بالمساعدة والغوث ، ولكن هذا الصريح المتكرر من جانب الموريسكيين لم ينتج أثره المنشود ، ولم يلبه غير إخوانهم المجاهدين في إفريقية ، فقد استطاعت جموع جريئة مخاطرة ، أن تجوز إلى الشواطئ الإسبانية ، ومنهم فرقة من الترك المرتزقة ، وأن تهرع إلى نصرة المنكوبين .

وهكذا عاد النضال إلى أشده ، ونحش الإسبان من احتشاد الموريسكيين في البيازين ضاحية غرناطة ، فصدر قرار بتشريدهم في بعض الأنحاء الشمالية . وكانت مأساة جديدة مزقت فيها هذه الأسر التعسة ، وفرق فيها بين الآباء والأبناء والأزواج والزوجات ، في مناظر مؤثرة تذيب القلب ، وسار المركز لوس فيليس في نفس الوقت إلى مقاتلة الموريسكيين ، في سهول المنصورة على مقربة من أراضي مرسية ، ونشبت بينه وبينهم وقائع غير حاسمة ، ولم يستطع متابعة القتال لنقص في الأهبة والمؤن ، وكان بينه وبين زميله منديخار خصومة ومنافسة ، كانتا سبباً في اضطراب الخطط المشتركة . واتهم منديخار بالعطف على الموريسكيين فاستدعى إلى مدريد ، وأقيل من القيادة ، واتخذت مدريد خطواتها الجديدة الحاسمة في هذا الصراع الذي لا رحمة فيه ولا هوادة .

بينما كانت هذه الحوادث والمعارك الدموية تضطرم في هضاب الأندلس وسهولها وتحمل إليها أعلام الخراب والموت ، إذ وقع في المعسكر الموريسكى حادث خطر ، هو مصرع محمد بن أمية . وكان مصرعه نتيجة المؤامرة والخيانة ، وكانت عوامل الخلاف والحسد ، تحيط هذا العرش بسياج من الأهواء الخطرة . وكان محمد بن أمية يثير بين مواطنيه بظرفه ورقيق شوائله كثيراً من العطف ، ولكنه كان يثير بصرامته وبطشه ، الحقد في نفوس نفر من ضباطه . وتقص علينا الرواية القشتالية سيرة مقتله فتقول ، إنه كان ثمة ضابط من هؤلاء يدعى ديجوالجوازيل (الوزير) له عشيقة حسناء تسمى زهرة ، فانتزعها محمد منه قسراً ، فحقد عليه وسعى لإهلاكه بمعاونة خليلته ، فزور على لسانه خطاباً إلى القائد العام « ابن عبو » يخرضه على التخلص من المرتزقة الترك ، وكان ثمة منهم فرقة في المعسكر الموريسكى ، فعلم الترك بأمر الخطاب ، واقتحموا المعسكر إلى مقر ابن أمية وقتلوه ، بالرغم من احتجاجه وتوكيد براءته ، واستقبل الجند الحادث بالسكون . وفي الحال اختار الزعماء ملكاً جديداً هو ابن عبو ، واسمه الموريسكى ديجو لوبيث ، وهو ابن عم الملك القليل ، فتسمى بمولاي عبد الله محمد ، وأعلن ملكاً على الأندلس بنفس الاحتفال المؤثر الذي وصفناه . وكان مولاي عبد الله أكثر فطنة وروية وتدبراً ، فحمل الجميع على احترامه ، واشتغل مدى حين بتنظيم الجيش ، واستقدم السلاح والذخيرة من ثغور المغرب ، واستطاع أن يجمع حوله جيشاً مدرباً قوامه زهاء عشرة آلاف ، بين مجاهد ومرتزق ومغامر .

وفي أواخر أكتوبر سنة ١٥٦٩ سار مولاي عبد الله بجيشه صوب « أرجبة » وهي مفتاح غرناطة ، واستولى عليها بعد حصار قصير ، فداعت شهرته وهرع الموريسكيون في شرق البشيرات إلى إعلان طاعته ، وامتدت سلطته جنوباً حتى بسائط رندة ومالقة ، وكثرت غارات الموريسكيين على فحص غرناطة La Vega ، وقد كان قبل سقوطها ميدان المعارك الفاصلة بين المسلمين والنصارى ؛ وكان فيليب الثاني حينما رأى استفحال الثورة الموريسكية ، وعجز القادة المحليين عن قمعها ، قد عين أخاه الدون خوان قائداً عاماً لولاية غرناطة ؛ ولما رأى الدون خوان اشتداد ساعد الموريسكيين اعزم أن يسير لمحاربتهم بنفسه ، فخرج في أواخر ديسمبر على رأس جيشه ، وسار صوب وادي آش ، وحاصر بلدة « جليرا » وهي من أمنع مواقع الموريسكيين ، وكان يدافع عنها زهاء ثلاثة آلاف موريسكى ، منهم فرقة

تركية ، فهاجمها الإسبان عدة مرات وصوبوا إليها نار المدافع بشدة ، فسقطت في أيديهم بعد مواقع هائلة ، أبدى فيها الموريسكيون والنساء الموريسكيات أعظم ضروب البسالة ، وقتل عدد من الأكابر الإسبان وضباطهم ، ودخلها الإسبان دخول الضواري المفترسة ، وقتلوا كل من فيها ولم يفرؤا النساء والأطفال ، وكانت مذبحة رائحة (فبراير سنة ١٥٧٠) ، وتوغل الدون خوان بعد ذلك في شعب الجبال حتى سيرون الواقعة على مقربة من بسطة ، وكانت هنالك قوة أخرى من الموريسكيين بقيادة زعيم يدعى «الحبتي» تبلغ بضعة آلاف ، ففاجأت الإسبان في سيرون ومزقت بعض سراياهم ، وأوقعت الرعب والخلل في صفوفهم ، وقتل منهم عدد كبير ، ولم يستطع الدون خوان أن يعيد النظام إلا بصعوبة ، فجمع شتات جيشه ، وطارد الموريسكيين ، واستمر في سيره جنوباً حتى وصل إلى أندرش في مايو سنة ١٥٧٠ ، وهنا رأت الحكومة الإسبانية أن تنجح إلى شيء من اللين ، خشية عواقب هذا النضال الرائع ، فبعث الدون خوان رسله إلى الزعيم «الحبتي» يفتاحه في أمر الصلح ، وصدر أمر ملكي بالوعد بالعفو عن جميع الموريسكيين الذين يقدمون خضوعهم في ظرف عشرين يوماً من إعلانه ، ولهم أن يقدموا ظلاماتهم ، فتبحث بعناية ، وكل من رفض الخضوع ، ما عدا النساء والأطفال دون الرابعة عشرة ، قضى عليه بالموت . فلم يصنع إلى النداء أحد . ذلك أن الموريسكيين أيقنوا نهائياً أن اسبانيا النصرانية لا عهد لها ولا ذمام ، وأنها غير أهل للوفاء ، فعاد الدون خوان إلى استئناف المطاردة والقتال ، وانقض الإسبان على الموريكسيين محاربين ومسلمين ، بمعنون فيهم قتلا وأسراً ، وسارت قوة بقيادة دون سيزا إلى شمال البشريات ، واشتبكت مع قوات مولاي عبد الله في معارك غير حاسمة ، وسارت مفاوضات الصلح في نفس الوقت عن طريق الحبتي ؛ وكان مولاي عبد الله قد رأى تجهم الموقف ، ورأى أتباعه ومواطنيه يسقطون من حوله تباعاً ، والقوة الغاشمة تحتاج في طريقها كل شيء ، فقال إلى الصلح والمسالمة ، واستخلاص ما يمكن استخلاصه من برائن القوة القاهرة . وتقدم للوساطة بين الثوار وبين الدون خوان كبير من أهل وادي آش يدعى الدون هرناندو دي براداس ، وكانت له صلات طيبة مع زعماء الموريسكيين قبل الثورة . وقد انتهت إلينا في ذلك وثيقة مؤثرة هي عبارة عن خطاب كتبه مولاي عبد الله إلى دون هرناندو هذا يعرض استعداداته للصلح والمفاوضة ، وفيه تبدولغة الموريسكيين العربية في دور احتضارها ، ويبدو أسلوب اللهجة الغرناطية التي انتهى الموريسكيون



دون خوان

إلى التحدث والكتابة بها بعد نحو ثمانين عاماً من الكبت والمطاردة . وإليك ما ورد في هذا الخطاب الذي ربما كان آخر وثيقة عربية عثر بها البحث الحديث :

- ١ الحمد لله وحده وقبل الكلم
- ٢ اسلم الكرمو على من اكرمهم الكرمو سيديا وحببي وعز اسر عنديا دن هرندو وني نعلم حرمتكم ين
- ٣ اكن انت تقول بحبي عنديا بحبي عند أنحكم وحبيلك وتجي مطمئن وكل مييجكم فلييا
- ٤ وذيمتي وكن انت تريد ترطل فلي المبرك مين سُلح كل متعمل تعملو معي وني
- ٥ نعمل معك كل متريد بحق وبل غدر وذهر لي مين الحبتي ين اشمكين يعمل
- ٦ معلمن وتطلعني على حق وذهر لي ين اشم طلب طلب يرخو وينسو ويسحبو وبعد رعي
- ٧ ودين اني نعرف حرمتك بهذا شي وحرمتك اعمل الذي يذهر لكم وعمل ميسلح بنرر .
- ٨ وبين وعسى يقديا الله خير بينين وتكن حرمتكم اسبب فدا شي وعملن فعد لكم يل اش
- ٩ كن معي من يكتب لي يل كينكن كتبت لكم أكثر وسلموا عليكم ورحموا الله وبركتو الله
- ١٠ كتيب الكتب يوم الثالث ف شهر وليو فعم ..

ملاي عبد الله (١)

وكتب الدون ألونسو دي فنيجاس (بنيغش) أيضاً إلى مولاي عبد الله يحثه على المسالمة ، والتكيب عن هذا الطريق الخطر ، ورد عليه عبد الله يلقي المسئولية على أولى الأمر ، وعلى ما أحدثوه من بدع جعلت الحياة مستحيلة على الشعب الموريسكي (٢) . وجرت المفاوضات بين الزعيم الحبتي قائد قوات الثورة ، وبين

(١) نشر هذا الخطاب وصورته الفتوغرافية التي نقلها هنا العلامة المستشرق M. Alarcón في مجموعة بالإسبانية عنوانها : Misceláneo de Estudios y Textos Arabes (Madrid 1915) ; p. 691 . وقد وجد هذا الخطاب في مجموعة المخطوطات الشرقية للمركز بنيافلور Pena Flor ، وتحفظ نسخته العربية فيها برقم ٢٤٦ ، وتحفظ ترجمته القشتالية برقم ٢٤٥ . وقد أورد مارمول ترجمته القشتالية في الكتاب التاسع الفصل التاسع .

(٢) Marmol : ibid; VIII. Cap. XXVII

الدون هرناندو دى براداس ، واتفق فى النهاية على أن يتقدم الحبى إلى الدون خوان بإعلان خضوعه ، وطلب العفو لمواطنيه ، فيصدر العفو العام عن الموريسكيين ، وتكفل الحكومة الإسبانية حمايتها لهم أينما ارتأت مقامهم . وفى ذات مساء سار الحبى فى سرية من فرسانه إلى معسكر الدون خوان فى أندرش ، وقدم له الخضوع وحصل على العفو المنشود .

ولكن هذا الصلح لم يرض بالأخص مولاى عبد الله وباقى الزعماء ، لأنهم لمخوف فيه نية اسبانيا النصرانية فى نفيهم ونزعهم عن أوطانهم ، ففهم كانت الثورة إذا وفهم كان النضال ؟ لقد ثار الموريسكيون لأن اسبانيا أرادت أن تنزعهم لغتهم وتقاليدهم ، فكيف بها إذ تعزم أن تنزعهم ذلك الوطن العزيز ، الذى نشأوا فى ظلاله الفيحاء ، والذى يضم تاريخهم وكل مجدهم وذكرياتهم ؟ أنكر الموريسكيون ذلك الصلح المجهف ، وارتاب مولاى عبد الله فى موقف الحبى ، إذ رآه يروج لهذا الصلح بكل قواه ، ويدعو إلى الخضوع والطاعة للعدو ، فاستقدمه لمعسكره بالحيلة وهنالك أعدم سرأ .

ووقف الدون خوان على ذلك بعد أسابيع من الانتظار والتريث ، وبعث رسوله إلى مولاى عبد الله ، فأعلن إليه أنه يترك الموريسكيين أحراراً فى تصرفاتهم . بيد أنه يأبى الخضوع ما بقى فيه رمت ينبض ، وأنه يؤثر أن يموت مسلماً مخلصاً لدينه ووطنه ، على أن يحصل على ملك اسبانيا بأسره . والظاهر أن مولاى عبد الله كانت قد وصلته أمداد من المغرب شدت أزره وقوت أمله ، وعادت الثورة إلى اضطرامها حول رندة ، وأرسل مولاى عبد الله أخاه الغالب ليقود الثوار فى تلك الانحاء ، وثارَت الحكومة الإسبانية لهذا التحدى ، واعزمت سحق الثوار بما ملكت ، فسار الدون خوان فى قواته إلى وادى آش ، وسار جيش آخر من غرناطة بقيادة دون ركيصانص إلى شمال البشرات ، وسار جيش ثالث إلى بسائط رندة ، واجتاح الإسبان فى طريقهم كل شيء ، وأمعنوا فى التقتيل والتخريب ، وعبثاً حاولت السرايا الموريسكية أن تقف فى وجه هذا السيل فزقت تباعاً ، وهدم الإسبان الضياع والقرى والمعازل ، وأتلفت الأحراش والحقول ، حتى لا يبقى للثائرين مئوى أو مصدر للقوت ، وأخذت الثورة تنهار بسرعة ، وفر كثير من الموريسكيين إلى إخوانهم فى إفريقية ، ولم يبق أمام الإسبان سوى مولاى عبد الله وجيشه الصغير : بيد أن مولاى عبد الله لبث معتصماً بأعماق الجبال ، يحاذر الظهور أمام هذا السيل الجارف

وفي ٢٨ أكتوبر سنة ١٥٧٠، أصدر فيليب الثاني قراراً بنفي الموريسكيين من مملكة غرناطة إلى داخل البلاد، ومصادرة أملاكهم العقارية، وترك أملاكهم المنقولة يتصرفون فيها. ويقضى هذا القرار بأن الموريسكيين في غرناطة والفحص ووادي لكرين (الإقليم) وجبال بونتوفيرحتي مالقة، وجبال رندة ومربلة، يؤخذون إلى ولاية قرطبة، ومن هنالك يفرقون في أراضي ولايتي إسترامادورة وجليقية. والموريسكيون في وادي آش وبسطة ووادي المنصورة يؤخذون إلى جنجالة والبسيط ثم يفرقون في أراضي قلعة رباح ومونتيل. والموريسكيون في ألمرية يؤخذون إلى ولاية إشبيلية. ونفذ القرار الحديد بمنهي الصرامة والتحوط، وجمع الموريسكيون المسلمون من غرناطة وبسطة ووادي آش وغيرها، وسيقوا إلى الكنائس أكداً، يحيط بهم الجند في كل مكان، ونزعوا من أوطانهم وربوعهم العزيزة، وشتتوا على النحو المتقدم في مختلف أنحاء قشتالة وليون (١).

ووقعت أثناء تنفيذ هذا القرار مناظر دموية، حيث جنح رجال الحكومة في بعض الأنحاء ولاسيما في رندة، إلى نهب المنفيين والفتك بالنساء والأطفال. ولما جمع الموريسكيون المعتصمون بالجبال هذه الأنباء انحدروا إلى السهل، وقتلوا كثيراً من الجند الثقيلين بالغنائم. وكان مصير المنفيين مؤلماً، إذ هلك الكثير منهم من المشاق والمرض، وعانى الذين سلموا منهم مرارة غربة جديدة مؤلمة، ونص على وجوب وضعهم تحت الرقابة الدائمة، وتسجيلهم وتسجيل مساكنهم في سجلات خاصة، وعين لهم حيث وجدوا مشرفاً خاصاً يتولى شئونهم، وحرم عليهم أن يغربوا مساكنهم إلا بتصريح ملكي، وحرم عليهم بتاتاً أن يسافروا إلى غرناطة، وفرضت على المخالفين عقوبات شديدة تصل إلى الموت؛ وهكذا شرد الموريسكيون في مملكة غرناطة أفضع تشريد، وانهار بذلك مجتمعهم القوي المتأسس في الوطن القديم (٢).

ولم يبق إلا أن يسحق مولاى عند الله وجيشه الصغير، وكان هذا الأمير المنكود يرى قواه وموارده تذبذب بسرعة، وقد انهار كل أمل في النصر أو السلم الشريف، بيد أنه لبث مخفياً في أعماق جبال البشرات بين آكام برشول وترقليس مع شردمة من جنده المخلصين. وفي مارس سنة ١٥٧١ كشف بعض الأسرى سر منجبه للإسبان، فأوفدوا رسلهم إلى معسكره في بعض المغائر، وهنالك استطاعوا

Marmol : ibid; X . Cap. VI. (١)

Dr: Lex: The Moriscos p. 256, 258 & 265 (٢)

إغراء ضابط مغربي من خاصته يدعى جونثالفو « الشنيش » . وكان الشنيش يحقد عليه لأنه منعه من الفرار إلى المغرب ؛ وأغلق الإسبانية له المنح والوعود ، وقطعوا له عهداً بالعفو الشامل ، وضمان النفس والمال ، وأن ترد إليه زوجته وابنته الأسيرتان ، إذا استطاع أن يسلمهم مولاي عبد الله حياً أو ميتاً . وكان الإغراء قوياً مشيراً ، فدبر الضابط الخائن خطته لاغتيال سيده ، وفي ذات يوم فاجأه مع شرذمة من أصحابه ، فقاوم مولاي عبد الله ما استطاع ، ولكنه سقط أخيراً مشخناً بجراحه ، فألقى الخونة بجثته من فوق الصخور لكي يراها الجميع ، ثم حملها الإسبان إلى غرناطة ، وهناك استقبلوها في حفل ضخم ، ورتبوا موكباً أركبت فيه الخلة مسندة إلى بغل ، وعليها ثياب كاملة كأنما هي إنسان حي ، ومن ورائها أفواج كثيرة من الموريسكيين الذين سلموا عقب مصرع زعيمهم ، ثم حملت إلى النطع وأجرى فيها حكم الإعدام ، فقطع رأسها ثم جرت في شوارع غرناطة مبالغة في التمثيل والنكال ، ومزقت أربعاً ، وأحرقت بعد ذلك في الميدان الكبير ، ووضع الرأس في قفص من الحديد ، رفع فوق سارية في ضاحية المدينة تجاه جبال البشيرات (١) .

* * *

وهكذا انهارت الثورة الموريسكية وسحقت ، ونجبت آخر جذوة من العزم والانضال ، في صدور هذا المجتمع الأبى المجاهد ، وقضت المشائق والمخارق والمحن المروعة ، على كل نزعة إلى الخروج والانضال ، وهبت روح من الرهبة والاستكانة المطلقة ، على ذلك المجتمع المهيب المعذب ، وعاش الموريسكيون لا يسمع لهم صوت ، ولا تقوم لهم قائمة ، في ظل العبودية الشاملة والإرهاق المطلق ، محقة أخرى .

الكتاب الرابع

نهاية النهاية

الفصل الأول

توجس السياسة الإسبانية

وعصر الغارات البحرية الإسلامية

الموريسكيون قوة أدبية واجتماعية . بعض ما قيل في وصفهم . تعلقهم بترائهم الروحي . يكتبون كتبهم بالألمليادو . نشاط ديوان التحقيق في مطاردتهم . قضية موريسكية شهيرة . عدد الموريسكيين . ما يقوله عنهم سفير البندقية . أقوال ثرفانتس . براعتهم الاقتصادية . تخوف السياسة الإسبانية من وجودهم . صلات الموريسكيين بمسلمي إفريقيا وترك . دسائس ومؤامرات مزعومة . غارات البحارة المجهدين على الشواطئ الإسبانية . البحر المتوسط مسرح القراصنة منذ العصور الوسطى . ظهور المغامرين المسلمين في هذه المياه . ظهور البحارة الترك والموريسكيين . النزعة الانتقامية في هذه الغارات . تحوط اسبانيا ضد الغارات . غارات المجهدين المغاربة . معاونة الموريسكيين للبحارة المغيرين . ظهور أوروغ وخير الدين . استيلاء خير الدين على الجزائر والثغور المغربية . غاراته المتوالية على الشواطئ الإسبانية . توالى صريح الموريسكيين . تحطيم سلطان البحارة الترك لمشاريع اسبانيا في المغرب . استنصار أمراء المغرب باسبانيا . غارات طرغود خلف خير الدين . غارات البحارة التونسيين . انزعاج اسبانيا ولوم الموريسكيين . اتساع نطاق الغارات في البحر المتوسط . انتشار تجارة الرقيق . حوادث المغرب الأقصى . فرار الأمير الشيخ إلى اسبانيا واستغاثةه بفيليب الثاني . الموريسكيون يحرضون مولاي زيدان على غزو اسبانيا . استيلاء الإسبان على ثغر المراثش . مقتل الشيخ وانتهاء مغامراته . الكفاح بين مولاي زيدان واسبانيا .

كان انهيار الثورة الموريسكية وسحق الموريسكيين ، خاتمة عهد من الكفاح المرير بين شعب مهيبض أعزل ، يحاول أن يحتفظ بشخصيته وكرامته وحقه في الحياة ، وبين القوة الغاشمة ، التي تريد أن تسحق في بقية الأمة المغلوبة ، كل أثر للحياة الحرة الكريمة . ولكن الثورة الموريسكية كانت من جهة أخرى ، نذيراً عميق الأثر للسياسة الإسبانية . ذلك أن الموريسكيين لبثوا بالرغم من تجريدهم من كل مظاهر القوة المادية ، قوة أدبية واجتماعية نخشى بأسها . وكان هذا الشعب المستكين الأعزل ما يزال رغم ضعفه وذلت ، يملأ جنبات الجزيرة بفنونه ونشاطه المنتج ، ويحتل مكانة بارزة في الشؤون الاقتصادية . وكانت الكنيسة ماتزال تنفث إلى الدولة تحريضها البغيض ، على مجتمع لم تطمئن لولائه وصدق إيمانه . وقد وصف المطران جريرو الموريسكيين في سنة ١٥٦٥ بقوله : «إنهم خضعوا للتنصير ،

ولكنهم لبثوا كفرة في سرائرهم ، وهم يذهبون إلى القديس تفاديا للعقاب ، ويعملون خفية في أيام الأعياد ، ويحتفلون يوم الجمعة أفضل من احتفالهم بيوم الأحد ، ويستحمون حتى في ديسمبر ، ويقىمون الصلاة خفية ، ويقدمون أولادهم للتنصير خضوعاً للقانون ، ثم يغسلونهم نحو آثار التنصير ، ويجرون نختان أولادهم ، ويطلقون عليهم أسماء عربية ، وتذهب عرائسهم إلى الكنيسة في ثياب أوروبية ، فإذا عدن إلى المنزل استبدلنها بثياب عربية ، واحتفل بالزواج طبقاً للرسوم العربية^(١) والظاهر أن هذه الأقوال تنطوي على كثير من الصدق . ذلك أن الأمة الموريسكية المهينة ، بقيت بالرغم مما يصيبها من شنيع العسف والإرهاق ، متعلقة بترائسها الروحية القديمة . وبالرغم مما فرض على الموريسكيين من نبذ دينهم ولغتهم ، فقد لبث الكثير منهم مسلمين في سرائرهم ، يزاولون شعائرهم القديمة خفية ، ويكتبون أحكام الإسلام والأدعية والمدائح النبوية بالقشتالية الأصلية ، أو بالقشتالية المكتوبة بأحرف عربية ، وهي التي تعرف بالأنلميادو Aljamiado أي « الأعجمية » وهو ما نعود إلى التحدث عنه بعد . وقد انتهى إلينا الكثير من الكتب الدينية والأدعية والمدائح الإسلامية الموريسكية مكتوبة « بالأنلميادو » وكثير منها يدور حول سيرة النبي العربي ، وشرح تعاليم القرآن والسنة ، يتخللها كثير من الخرافات والأساطير المقدسة^(٢) . بيد أنها تدل بما كانت تجيش به هذه النفوس المعذبة من إخلاص راسخ لدينها القديم ، وأن التبتت عليهم أصوله وشعائره بمضى الزمن . وقد لبث ديوان التحقيق على نشاطه ضد الموريسكيين طوال القرن السادس عشر ، ولم يفتر هذا النشاط حتى أواخر هذا القرن ، مما يدل على أن آثار الإسلام الراسخة بقيت بالرغم من كر الأعوام وتوالي الحن ، دفينة في قلب الشعب المضطهد ، تنضج آثارها من آن لآخر . يدل على ذلك ما تسجله محفوظات الديوان ، من أن قضايا الموريسكيين أمام محاكم التحقيق ، بلغت في سنة ١٥٩١ ، ٢٩١ قضية ، وبلغت في العام التالي ١١٧ قضية ، وظهر في حفلة « الأوتودافى » Auto da-fé التي أقيمت في ٥ سبتمبر سنة ١٦٠٤ ثمانية وستون موريسكياً ، نفذت فيهم الأحكام ،

(١) Marmol: ibid, II. Cap. I وكذلك : Dr. Lea : The Moriscos; p. 213 & 214

(٢) وضع القس الإسباني Pedro Longás عن حياة الموريسكيين الدينية كتابه الذي سبقت الإشارة إليه غير مرة (Vida Religiosa de los Moriscos (Madrid 1914) ، وفيه يورد كثيراً من رسومهم وعوائدهم الدينية ، وكثيراً من الآيات والمدائح النبوية بالقشتالية .

وظهر في حفلة ٧ يناير سنة ١٦٠٧ ثلاثة وثلاثون موريسكياً ، واستعمل التعذيب في محاكمتهم خمس عشرة مرة ، وكان الإتهام يوجه أحياناً إلى الموريسكيين حملة ، على أثر بعض الحملات الفجائية على المحلات الموريسكية ؛ فقد حدث مثلاً في سنتي ١٥٨٩ و ١٥٩٠ ، أن سجلت في قرية مسلاتة لموريسكية بالقرب من بلنسية مائة قضية ، وسجلت في قرية كارليت مائتان ، واتهم أربعون أسرة يصوم شهر رمضان . والواقع أنه كان من الصعب ، على من بقيت في نفوسهم جذوة أخيرة من دين الآباء ، ولم يخمدوها تعاقب جيلين أو ثلاثة من النصرانية المفروضة ، أن يكونوا دائماً بمنجاة من الإتهام ، ولهذا كان الشعب الموريسكي بأسره أينما وجد ، عرضة للإتهام بالحق وبالباطل . وإذا كانت ثمة فترات يهدأ فيها نشاط محاكم التحقيق ، فذلك يرجع بالأخص إلى استعمال الرشوة مع المأمورين ، أو الحصول على براءات الحصانة بالمال . وتوضح لنا قضية بني عامر زعماء الموريسكيين في بلنسية هذه الحقيقة أتم وضوح .

كانت أسرة بني عامر من أعرق الأسر المسلمة القديمة ، التي أكرهت على التنصير ، وكان زعمائها إخوة ثلاثة ، هم : دون كوزمي ودون خوان ودون هرناندو بني عامر ، ومنزل الأسرة في بنجوازيل (بني وزير) ضاحية بلنسية . وكان الثلاثة من ذوي المكانة والنفوذ ، يسمح لهم بحمل السلاح وامتيازات أخرى ، محرومة على الموريسكيين . ففي مايو سنة ١٥٦٧ صدر قرار محكمة التحقيق باتهامهم ، وتقرر التنبض عليهم ، ولكن بعد أن وافقت المحكمة العليا (سوپريما) نظراً لخطر مكانتهم ، فاختنى الإخوة الثلاثة حيناً ؛ ولكن الدون كوزمي قدم نفسه للسلطات في يناير سنة ١٥٦٨ ، وقرر في التحقيق أنه يعتقد أنه نصر طفلاً ، ومع ذلك فإنه لا يعتبر نفسه نصرانياً بل مسلماً ، وأنه جرى خلال حياته على مراعاة الشعائر الإسلامية ، ولم يذهب إلى المعترف إلا خضوعاً للأوامر ، على أنه ينبغي أن يكون في المستقبل نصرانياً ، وأن يؤدي ما يطلبه المحققون إليه ، ولم يقدم دون كوزمي خلال محاكمته أي دفاع ، ولكنه أفرج عنه في ١٥ يولييه بضمان قدره ألفي دوقية ، على أن يبقى في بلنسية ولا يرحلها ؛ ومع ذلك فقد سافر دون كوزمي إلى مدريد ، وحصل على عفو عنه وعن أخويه من الملك والمحكمة العليا ، نظير فداء قدره سبعة آلاف دوقية ، واستطاع فوق ذلك بنفذه القوى ، أن يحصل للموريسكيين في بلنسية على قرار التوفيق الصادر في سنة ١٥٧١ حسباً قدمنا .

وفي سنة ١٥٧٧ جددت التهم القديمة ضد بني عامر ، وقبض على كوزمي وأخيه خوان ، وحوكم كوزمي وشرح للمحكمة عقيدته الدينية ، وهي مزيج من الإسلام والنصرانية ، وعقدت الجلسات الأولى ، ولكن القضية أوقفت قبل أن يصل التحقيق إلى مرحلة التعذيب ، مما يدل على أن بني عامر استطاعوا بالرغم من سوء حالتهم المالية يومئذ ، أن يحصلوا على براءتهم وإطلاق سراحهم بدفع مبلغ آخر من المال^(١) .

وهكذا نرى أن الموريسكيين استطاعوا بالرغم من العنف المنظم ، الذي فرضته الدولة والكنيسة عليهم زهاء قرن ، أن يحتفظوا في قرارة نفوسهم الكليمة ، ببقية راسخة من تراثهم الروحي القديم .

هذا من ناحية الدين والعقيدة ؛ وأما من الناحية الاجتماعية ، فقد كان الموريسكيون يكونون مجتمعاً متماسكاً متضامناً ، قوياً بنشاطه ودأبه وذكائه ، وقد بلغ عددهم في أواخر القرن السادس عشر وفقاً لتقدير سفير البندقية زهاء ستمائة ألف نفس ، وقدر البعض الآخر عددهم يومئذ بأربعمائة ألف نفس ، وهو عدد ضخم بالنسبة لمجموع سكان اسبانيا في ذلك الحين ، وهو لم يتعد الثمانية ملايين . ووصفهم سفير البندقية في سنة ١٥٩٥ ، أي بعد قرن من سقوط غرناطة ، بأنهم شعب ينمو باضطراب في العدد والثروة ، وأنهم لا يذهبون إلى الحرب ، ولكن يكرسون نشاطهم للتجارة واجتناء الربح . وذكر الكاتب الإسباني الكبير ثرفانتيس^(٢) في بعض رسائله أن الموريسكيين يتكاثرون وكلهم يتزوج ، ولا يدخلون أولادهم قط في سلك الكهنوت أو الجيش ، ويقتصدون في الإنفاق ويكتمزون المال ، فهم الآن أغني الطوائف في اسبانيا . وأما عن الناحية الاقتصادية فقد قيل إن الموريسكيين كانوا يحتكرون تجارة الأغذية ، ويضعون يدهم على المحاصيل عند نضجها ، ومنهم تجار البقالة والماشية ، ومنهم القصابون والحجازون وأصحاب الفنادق وغيرهم ، وهم لا يشترون العقارات احتفاظاً بحرية استعمال أموالهم ، وقد كان ذلك من أسباب غناهم وقوتهم الاقتصادية^(٣) .

(١) Dr. Lea : History of the Inquisition ; V. III. p. 362 - 365

(٢) جيل ثرفانتس دي سافدرا (١٥٤٧ - ١٦١٦) من أعظم كتاب اسبانيا وشعرائها ، وهو

مؤلف قصة الفروسية الشهيرة « دون كيخوتي دي لمانشا » .

(٣) Dr. Lea : The Moriscos p. 204 & 210

كانت اسبانيا النصرانية إذاً، أبعد من أن تطمئن إلى مجتمع العرب المتنصرين ، فقد كانوا في نظر الكنيسة أبداً كفرة مارقين ، وكانت الدولة من جالها تلتمس المعاذير لاضطهاد هذا المجتمع الدخيل ومطاردته ، فهي تخشى أن يعود إلى الثورة ، وهي تخشى من صلاته المستمرة مع مسلمي إفريقيا ومع سلطان الترك ، وهي مازالت تحلم بتطهير اسبانيا من الآثار الأخيرة للشعب الفاتح ، والقضاء إلى الأبد على تلك الصفحة من تاريخ اسبانيا .

* * *

والواقع أن صلات الموريسكيين مع أعداء اسبانيا ، لبثت شغلا شاعرا للسياسة الإسبانية . وقد كانت الممالك والإمارات المغربية في الضفة الأخرى من البحر ، على استعداد دائماً لأن تصغي إلى هذا الشعب المنكود ، سليل إخوانهم الأمازيغ في الدين ، وأن تعاونه كلما سنحت الفرص . وكان سلاطين الترك يتلقون من الموريسكيين صريخ الغوث من آن لآخر ، وكانت المنافسة بين الترك واسبانيا يومئذ على أشدها ، في مياه البحر المتوسط ، وكانت طوائف الموريسكيين تعيش على مقربة من الثغور الشرقية والجنوبية . وأكثر من ذلك أن السياسة الإسبانية كانت تخشى دسائس فرنسا خصيمتها القوية يومئذ ، وتخشى تفاهمها المحتمل مع الموريسكيين . وكانت هذه الظروف كلها تحمل اسبانيا النصرانية ، على أن تعتبر الموريسكيين خطراً قومياً يجب التحوط منه ، والعمل على درئه بكل الوسائل . وتسوق الرواية الإسبانية إلينا دلائل هذا الخطر في حوادث كثيرة . ففي سنة ١٥٧٣ وقفت السلطات الإسبانية على أنباء مفادها أن أمراء تلمسان والحزائر يدبرون حملة بحرية لمهاجمة « المرسى الكبير » في مياه بلنسية ، يعاونهم الموريسكيون فيها بالثورة ، ولذا بادرت السلطات بنزع السلاح من الموريسكيين في بلنسية ، وقبل بعد ذلك إن هذه الحملة المغربية كانت ستقترن بغزوة فرنسية لأراجون ، ينظمها حاكم بيارن الفرنسي ، وأن سلطان الترك وسلطان الحزائر كلاهما يؤيد المشروع ، وأن أساطيل الغزو كانت ترمع النزول في مياه برشلونة وفي دانية ، وفيها بين مرسية وبلنسية ، وأن الفضل في فشل هذا المشروع كله يرجع إلى حزم الدون خوان ونزع سلاح الموريسكيين . ومما يدل على أن اسبانيا لبثت حيناً على توجسها من فرنسا ودسائسها لدى الموريسكيين ، ما تسوقه الرواية الإسبانية من أن هنري الرابع ملك فرنسا ، كانت له في ذلك مشاريع خطيرة ، ترمى إلى غزو اسبانيا من

ناحية بلنسية ، حيث يوجد حشد كبير من الموريسكيين ، وأن زعماء الموريسكيين وعدوا بإضرام نار الثورة ، وتقديم عدد كبير من الجند ، ولم يطلبوا سوى السلاح ، وكان من المنتظر أن تقوم الثورة الموريسكية في سنة ١٦٠٥ ، ولكن المؤامرة اكتشفت في الوقت المناسب ، وانهار مشروع الغزو . وهذه الروايات العديدة التي جمعها « ديوان التحقيق » الإسباني على يد أعوانه وجواسيسه ، تنقصها الأدلة التاريخية الحقة^(١) .

على أن الخطر الحقيقي ، كان يتمثل في غارات المجاهدين من خوارج البحر المسلمين ، على الثغور والشواطئ الإسبانية . وتتلأ سيرة هذه الغارات فراغاً كبيراً في الرواية الإسبانية ، وتسبغ عليها الرواية صفة الانتقام للأندلس الشهيدة . وقد لبثت هذه الغارات طوال القرن السادس عشر ، واستمرت دهرأ بعد إخراج العرب المنتصرين من اسبانيا . ويشير المقرئ مؤرخ الأندلس إلى مغزى هذه الغارات البحرية بعد إخراج الموريسكيين ، فيقول إنهم انتظموا في جيش سلطان المغرب ، وسكنوا سلا وكان منهم من الجهاد في البحر ما هو مشهور الآن^(٢) .

ويجب أن نذكر أن مياه البحر المتوسط شرقه وغربه ، كانت خلال العصور الوسطى ، دائماً مسرحاً سهلاً للأساطيل الإسلامية . فمنذ أيام الأغالة والفاطميين ، ومنذ خلافة قرطبة ثم المرابطين والموحدين ، كانت الأساطيل الإسلامية تجوس أواسط هذا البحر وغربيه ، وكانت الدول الإسلامية الأندلسية والمغربية ، ترتبط مع الدول النصرانية الواقعة في شمال هذا البحر ، مثل البندقية وچنوة وبيزة ، بمعاهدات ومبادلات تجارية هامة ، وكان التسامح يسود يومئذ علائق المسلمين والنصارى ، وتغلب المصالح التجارية والمعاملات المنظمة ، على النزعات الدينية والمذهبية .

وقد كانت المغامرات البحرية الحرة وأعمال « القرصنة » ، توجد في هذه العصور دائماً ، إلى جانب نشاط الأساطيل الرسمية . وكان البحر المتوسط منذ أقدم العصور مسرحاً لهذه المغامرات ، وكان معظم خوارج البحر (القراصنة) يومئذ من النصارى ، من الأمم التي غزت البحر في عصور متقدمة ، مثل اليونان وأهل سردانية وچنوة ومالطة . وفي أيام الصليبيين ازدهرت المغامرات في البحر المتوسط ،

(١) Dr. Lea : The Moriscos; p. 281 - 284 & 286 - 288

(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٧ . وقد أنجز المقرئ كتابه سنة ١٦٢٠ .

واستمر النصارى عصوراً زعماء هذه المهنة. ولم تكن ثمة بحريات منظمة تقوم بمطاردة أولئك الخوارج. وكانت المغانم الوفيرة من الإتجار في الرقيق، والبضائع المهربة، واقتداء الرقيق، تذكى عزمهم، وتدفع إليهم بسيل من المغامرين من سائر الأمم، ولما ظهرت الأساطيل الكبرى منذ القرن الرابع عشر، ضعف أمر أولئك المغامرين. ولم تكن هذه المياه خلوا من نشاط المغامرين المسلمين، ولكنهم لم يظهروا في هذا الميدان إلا منذ القرن الخامس عشر، حينما ضعف أمر الأندلس والدول المغربية وسادتها الفوضى، واضطربت العلاقات البحرية والتجارية المنظمة بين دول المغرب والدول النصرانية. وكانت الشواطئ المغربية تقدم إليهم المراسى الصالحة. ولما اشتد مساعد البحرية التركية بعد استيلاء الترك على قسطنطينية، زاد نشاط المغامرين المسلمين في البحر. وكان سقوط غرناطة واضطهاد الإسبان للمسلمين، ايداناً بتطور هذه المغامرات البحرية، ونزول الأندلسيين والموريسكيين المنفيين إلى مبدانها واتخاذها مدى حين صورة الجهاد والانتقام القومى والدينى، لما نزل بالامة الأندلسية الشهيدة من ضروب العنف والإرهاق (١).

وقد بدأت هذه الغارات البحرية على الشواطئ الإسبانية، عقب استيلاء الإسبان على غرناطة، وأكراههم للمسلمين على التنصير. في ذلك الحين غادر الأندلس آلاف من الأندلسيين المجاهدين، أنفوا العيش في الوطن القديم، في مهاد الذلة والاضطهاد، تحت نير الإسبان، وعبروا البحر إلى عدوة المغرب، وقلوبهم تفيض حقدًا ويأساً، واستقروا في بعض القواعد الساحلية، مثل وهران والجزائر وبجاية، ووهب الكثيرون منهم حياتهم للجهاد في سبيل الله، والانتقام من أولئك الذين قضوا على وطنهم، وظلموا أمتهم، وانتكوا حرمة دينهم. وكان البحر يهيء لهم هذه الفرصة، التي لم تهيئها لهم الحرب البرية. وكانت شواطئ المغرب بطبيعتها الوعرة، وثغورها ومراسيها وخليجاتها الكثيرة، التي تحميها وتحجبها الصخور العالية، أصلح ملاذ لمشاريع أولئك البحارة المجاهدين والقراصنة المغيرين. وكانت الجزائر وبجاية وتونس أفضل قواعدهم للرسو والإقلاع، وكانت هذه الغارات البحرية تعتمد بالأنحص على عنصر المفاجأة، وتنجح في معظم الأحيان في تحقيق غاياتها. ويصف بيرومارتيرى هذه الغارات بإسهاب ويقول إن فرناندو الخامس أمر في سنة ١٥٠٧، للتحوط ضد هذه الغارات بإخلاء الشاطئ الجنوبي، من جبل طارق

إلى ألمرية ، لمدى فرسخين إلى الداخل . ثم صدرت مراسم متعددة تحظر على الموريسكيين السفر على أبعاد معينة من الشواطئ ، ولكن هذا التحوط لم يغب شيئاً واستمرت الغارات على حالها . وكان اللوم يلقى في ذلك منذ البداية على الموريسكيين ولا سيما أهل بلنسية . وكان الموريسكيون كلما اشتدت عليهم وطأة الاضطهاد والمطاردة ، اتجهوا إلى إخوانهم في المغرب ، يستصرونهم للتدخل والانتقام . وكان المجاهدون المغاربة ، يغيرون في سفنهم على الشواطئ الإسبانية ، ويختطفون النصارى الإسبان ، ويجعلونهم رقيقاً يباع في أسواق المغرب ، وكان الموريسكيون يزودون الحملات المغيرة بالمعلومات الوثيقة ، عن أحوال الشواطئ ومواضع الضعف فيها ويمدونها بالأقوات والمؤن . وكانت هذه الحملات تجهز في أحيان كثيرة لنقل الموريسكيين الراغبين في الهجرة ، وقد استطاعت خلال القرن السادس عشر ، أن تنقل منهم إلى الشواطئ الإفريقية جماعات كبيرة .

وقد ظهر منذ أوائل القرن السادس عشر في الميدان ، عنصر جديد أذكى موجة الغارات البحرية في هذه المياه . ذلك أن البحارة الترك ، وعلى رأسهم الأخوان الشهيران أروج (عروج) وخير الدين^(١) ، اندفعوا من شرق البحر المتوسط إلى غربيه ، في طلب المغامرة والكسب . وفي سنة ١٥١٧ سار أروج في قوة برية وبعض السفن إلى الجزائر واستولى عليها . ولما قتل في العام التالي في معركة نشبت بينه وبين الإسبان ، استولى أخوه خير الدين على الجزائر ، ثم استولى على معظم الثغور المغربية الساحلية ، وعينه السلطان سليم حاكماً على هذه الأنحاء ، وأمدّه بالسفن والجنود . وتآلق نجم خير الدين من ذلك الحين ، وأضحى اسمه يقرن بذكر أعظم أمراء البحر في هذا العصر . وكان من معاونيه نخبة من أمهر الربابنة الترك ، مثل طرغود الذي خلفه في الرياسة فيما بعد ، وصالح ريس ، وسمان اليهودي ، وإيدين ريس وغيرهم من المغامرين ، الذين اشتهروا بالجرأة والبراعة . وبسط أولئك البحارة الترك سلطانهم على معظم جنابات البحر المتوسط ، واشتهروا بغاراتهم على الشواطئ الإيطالية والإسبانية ، والتف حولهم معظم المجاهدين والمغامرين من

(١) ويعرف كلاهما في الرواية الأوربية « بارباروسا » أو ذو اللحية الحمراء . وقد انتهى إلينا عن مغامرات هذين الأخوين الثميرين وغاراتهما البحرية كتاب بالعربية منقول عن أصل تركي ، نشر في الجزائر سنة ١٩٣٤ بعنوان « غزوات عروج وخير الدين » . والظاهر أنه من تأليف راوية معاصر أو قريب من العصر .

المغاربة والموريسكيين . وبدأ خير الدين غاراته في المياه الإسبانية بمهاجمة الشواطئ الشرقية ، وقطع خلال هذه الغارة ثلاثة أشهر عاث فيها في البقاع الساحلية ، وجمع في سفنه كثيراً من الموريسكيين الراغبين في الهجرة ، وأسّر كثيراً من الإسبان . وعرج أثناء عوده على جزيرة منورقة . وكان من أهم الغارات التي نظمها خير الدين على الشواطئ الإسبانية غارة وقعت في سنة ١٥٢٩ ؛ وذلك أن جماعة من الموريسكيين في بلنسية فاوضوه لكي ينقلهم خلسة إلى عدوة المغرب ، فأرسل عدة سفن بقيادة نائبيه إيدوين ريس ، وصالح ريس ، إلى المياه الإسبانية ، ورست السفن المغيرة ليلاً عند أوليفا الواقعة شمال غربي دانية أمام مصب نهر « ألتيا » ، ونزلت منها إلى البر قوة استطاعت أن تجمع من الأنحاء المجاورة نحو ستمائة من الموريسكيين الراغبين في الهجرة ، وهنا فاجأت السفن المغيرة عدة من السفن الإسبانية الكبيرة ، وطاردها حتى مياه الجزائر الشرقية (البليار) . ولكن سفن « القراصنة » انقلبت فجأة من الدفاع إلى الهجوم ، وانقضت على السفن الإسبانية وأغرقت بعضها ، وأسرت البعض الآخر ، وسارت سالمة إلى الجزائر تحمل الموريسكيين الفارين ، وعدداً من أكابر الإسبان أخذوا أسرى ، ومعها عدة من السفن الإسبانية الفخمة . وكان صريح الموريسكيين يتوالى إلى خير الدين وحلفائه من أمراء المغرب ولاسيا أيام الثورات المحلية التي تشتد فيها وطأة الإسبان على الأمة المغلوبة ، ومن ثم فقد توالى بعوث خير الدين وغاراته على الشواطئ الإسبانية ، وتتابعت الفرص لدى الموريسكيين ، للفرار والهجرة رفق السفن المغيرة ، حتى بلغ ما نقلته سفن خير الدين منهم إلى شواطئ المغرب نحو سبعين ألفاً (١) .

وكان سلطان خير الدين وزملائه البحارة الترك في المياه المغربية عاملاً في تحطيم كثير من مشاريع إسبانيا البحرية في المغرب . وكان الإسبان قد استولوا على ثغر وهران منذ سنة ١٥٠٥ ، واحتلوا مياه تونس سنة ١٥٣٥ ، بانضواء أميرها الحفصي المعزول تحت لوأثم ، وكان كثير من أمراء الثغور والقواعد المغربية الذين يهدد الترك سلطانهم يتجهون بأبصارهم إلى الإسبان للاحتفاظ برياستهم . ولدينا

(١) راجع كتاب الأستاذ لاين پول The Barbary Corsairs في الفصول الأول والثاني والثالث ، حيثما يورد كثيراً من التفاصيل الشائقة ، عن هذه الغارات البحرية ، وعن منامرات أوروغ وخير الدين . وراجع كتاب « غزوات عروج وغير الدين » الذي سبقت الإشارة إليه . ص ١٩ و ٤٨ و ٨١ و ٨٢ .



أمير البحر خير الدين
عن صورة بلاثكيث المحفوظة بمتحف البرادو بمدريد ، وهي صورة رائعة بالحجم الطبيعي ،
وفيها يبدو خير الدين مرتدياً ثوباً طويلاً أحمر ، وعباءة بيضاء ، وقلنسوة صغيرة حمراء ،
وله شارب طويل أشهب .

صور من عدة وثائق موجهة من هؤلاء الأمراء إلى الإمبراطور شارلكان : يستنصرون به ، ويقطعون العهد على أنفسهم بطاعته ، والانضواء تحت حمايته ، وهي تدلى بموضوعها وأسلوبها بما انتهت إليه الجبهة الإسلامية في المغرب في هذا العهد من التخاذل والتفرق المؤلم (١) .

وفي سنة ١٥٥٩ قام أمير البحر التركي طرغود ، الذي خلف خير الدين في الرياسة ، بغارة كبيرة على الشواطئ الإسبانية ، واستطاع أن يحمل معه ألفي وخمسمائة موريسكي ، وفي سنة ١٥٧٠ ، استطاعت السفن المغيرة أن تحمل معها جميع الموريسكيين في بالميرا . وفي سنة ١٥٨٤ سار أسطول من الجزائر إلى ثغر بلنسية وحمل ألفين وثلاثمائة . وفي العام التالي استطاعت السفن المغيرة أن تحمل جميع سكان مدينة كالوسا . وبلغت الغارات البحرية التي وقعت على الشواطئ الإسبانية بين سنتي ١٥٢٨ و ١٥٨٤ ثلاثاً وثلاثين . هذا عدا الغارات المحلية التي كانت تقوم بها سفن صغيرة لحمل جماعات من الموريسكيين المهاجرين . وقد وصف لنا الكاتب الإسباني الكبير ثرقاتيس هذه الغارات البحرية المروعة في صور مثيرة شائقة ، ولا غرو فقد كان هو أيضاً من ضحاياها ، إذ أسر في الغارات التي وقعت سنة ١٥٧٥ ، وحمل أسيراً إلى الجزائر ، ولبت يرسف في أسره بضعة أعوام حتى تم اقتداؤه في سنة ١٥٨٠ (٢) .

وكان ممن عملوا في الجهاد في البحر في ذلك الحين ضد الإسبان بعض أكابر الزعماء الموريسكيين المنفيين الذين غدوا من أثر الاضطهاد من أعداء اسبانيا مثل الرئيس بلانكيو Blanquillo ، والرئيس أحمد أبو علي من أشونية ، ومراد الكبير جواديانو من مدينة ثيوداد ريال (المدينة الملكية) وغيرهم . وقد أبلى هؤلاء

(١) حصلنا على مجموعة من هذه الوثائق من دار المحفوظات الإسبانية العامة Arch.gen. de Simancas ومنها وثيقة هي عبارة عن اتفاق معقود بين أبي عبد الله محمد الحسن سلطان تونس والإمبراطور شارلكان بتاريخ ١٢ صفر سنة ٩٤٢ هـ (١٣ أغسطس سنة ١٥٣٥) يتعهد فيه السلطان بتسليم مدينة بونه للإمبراطور شارلكان بشروط معينة ويحمل توقيعهما . وخطاب كتبه السلطان المذكور إلى الإمبراطور بتاريخ ذي الحجة سنة ٩٤٢ هـ (١٥٣٥) يحدثه فيه عن شئون قصبة بونة . وخطاب من أبي عبد الله المتوكل أمير تلمسان إلى السلطانة الإنبرطريس (الإمبراطورة) دونيا إيزابيل (زوجة الإمبراطور شارلكان) مؤرخ في سنة ٩٣٩ هـ (١٥٣٢) ، وخطاب من أبي عبد الله محمد بن القاضي صاحب حصن كوكو بالمغرب الأوسط إلى الإمبراطور مؤرخ سنة ٩٤٩ هـ (١٥٤٢ م) يستحثه فيه لقتال الترك وإراحة الناس منهم ... الخ .

(٢) Dr. Lea : History of the Inquisition in Spain ; V. III. p. 368

الزعماء الموريسكيون في البحر خير بلاء ، وكانوا خير مرشد لإحكام الغارات البحرية على الشواطئ الإسبانية ، ومضاعفة عصفها وعبثها .

ووقعت في سنة ١٦٠٢ غارة كبيرة ، قام بها بحار مغامريدعى مراد الريس على مدينة لورقة الواقعة غرب قرطاجنة على مقربة من الشاطئ ، وحمل عدداً من الأسرى ؛ وكثرت الغارات في الأعوام التالية على الشاطئ الجنوبي ، وظهر فيما بعد أن منظمها بحار إنجليزي مغامر ، يحشد في سفنه نواتية من المغاربة ، وكان يعيث في الشواطئ الأندلسية ويقتنص الأسرى النصاري ، ويبيعهم عبيداً في أسواق المغرب .

وكانت ثغور تونس في ذلك الوقت نفسه ، في أيام حاكمها عثمان داي (سنة ١٠٠٧ - ١٠١٩ هـ ١٥٩٨ - ١٦١٠ م) ، ملاذاً لطائفة قوية من البحارة المغامرين ، كانت تتكرر غاراتهم على الشواطئ الإسبانية بلا انقطاع . وكان من أشهر أولئك البحارة المغامرين يومئذ ، عمر محمد باي الذي اشتهر بجراته وبراعته ، وقد قام بعدة غارات جريئة على شواطئ إسبانيا الجنوبية ، وكان في كل مرة يعود مثقلاً بالغنائم والسبي (١) .

وهكذا لبثت الغارات البحرية عصراً ، تزعج الحكومة الإسبانية ، وقد زاد عددها واشتد عبثها ، بالأخص منذ منتصف القرن السادس عشر ؛ وكان هذا غربياً في الواقع ، إذ كانت إسبانيا يومئذ سيدة البحار ، وكانت أساطيلها الضخمة ، تجوب مياه الأطلنطيق حتى بحر الشمال وجزائر الهند الغربية ، وتسيطر على مياه البحر المتوسط الغربية . بيد أنها لم تستطع أن تقمع هذه الغارات الصغيرة المفاجئة ، التي كانت يقوم بها على الأغلب جماعات مجاهدة ، من القراصنة المغاربة ، في سفن صغيرة ، تدفعهم روح من المغامرة والاستبسال ، وكان اللوم يلقى في ذلك دائماً على الموريسكيين ، ولا سيما سكان الثغور منهم ، فهم الذين يمدون هذه الحملات المغيرة بالمعلومات ، ويزودونها بالموث والعون ، ويعينون لها موضع الرسو والإقلاع ، وقد كانت تأتي على الأغلب لمعاونتهم على الفرار إلى ثغور المغرب ، وقد كان الموريسكيون بالرغم من اضطهادهم ، والتشدد في مراقبتهم ، على اتصال دائم بمسلمي إفريقيا وأمراء المغرب جميعاً .

لبثت هذه الغارات البحرية عصراً شغلاً شاغلاً للحكومة الإسبانية لا تجد سيلاً إلى قمعها أو التخلص من آثارها . وكان اقترانها خلال القرن السادس عشر بنضال

(١) كتاب المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ص ١٩٢ .

الموريسكيين ، عنصراً بارزاً في تنظيمها وتوجيهها ، وكانت فكرة الانتقام للأمة الشهيدة ، تجتم في معظم الأحيان وراء هذه الغارات المخربة . ولما تم نفي الموريسكيين من الأراضي الإسبانية حسبما تفصل بعد ، زادت هذه الفكرة وضوحاً واشتدت وطأة الغارات ، بما انتظم في صفوف المجاهدين من المنفيين ، وغدت سلا بالأخص بمرفئها البديع ، الذي تحميه الخلجان المحجوبة مركزاً لأولئك المجاهدين ، ومنها توجه أقوى الحملات المغيرة على الشواطئ الإسبانية (١) .

ولبت البحارة الترك عنصراً ، يزعمون هذه الغارات البحرية ، وجل اعتمادهم على النواتية المغامرين من المغاربة والموريسكيين ؛ ثم أخذت هذه الغارات تفقد مغزاها القديم بمضي الزمن ، وتنقلب إلى حملات ناهبة ، تنظم على الشواطئ الإيطالية كما تنظم على الشواطئ الإسبانية ، وترمي قبل كل شيء إلى تغذية أسواق المغرب والشرق الأدنى ، بأسراب الرقيق . وكان يشترك مع البحارة الترك والمغاربة مغامرون من الإفرنج من سائر الأمم . وألنى الباشوات أو الدايات الترك ، الذين بسطوا حكمهم منذ أواخر القرن السادس عشر على طرابلس وتونس والجزائر ، في هذه الحملات الناهبة ، فرصة سانحة للغنم ، فكانوا يمدون الرؤساء والزعماء بصنوف العون ، عند الحط والإقلاع في ثغورهم ، وكان الرؤساء من جانبهم ، يقدمون إلى خزينة الباشا أو الداي عشر الغنائم . واسترق بهذه الطريقة عشرات الألوف من النصارى ، واستمرت هذه الغارات بعد ذلك زمناً طويلاً (٢) .

وحدثت في تلك الآونة التي اشتدت فيها الغارات البحرية على الشواطئ الإسبانية ، في أوائل عهد فيليب الثالث ، في عدوة المغرب أحداث أخرى ، زادت في توجس السياسة الإسبانية ، من مساعي الموريسكيين في استعداد مسلمي إفريقيا . وذلك أنه على أثر وفاة السلطان أحمد المنصور ملك المغرب في سنة ١٠١٢ هـ (١٦٠٣ م) اضطربت الحرب الأهلية بين أبنائه الثلاثة ، أبي عبد الله المأمون المعروف بالشيخ ، وكان ولي عهده الذي اختاره للملك من بعده ،

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٧ .

(٢) استمرت غارات القراصنة في البحر المتوسط طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وكانت بعض الدول الأوربية تعمل على تشجيعها لمضايقه البعض الآخر ، والإضرار بتجارها . ومنذ القرن السابع عشر تعمل إنجلترا وهولندا وفرنسا على مقاومة هذه الحملات البحرية الجريئة والقضاء عليها ، وذلك بمهاجمة الشواطئ المغربية وتدمير ثغورها ، ولا سيما تونس والجزائر . على أنها لم تنقطع نهائياً إلا بعد أن غزت فرنسا الجزائر واستولت عليها في سنة ١٨٣٠ .

وأبي فارس الملقب بالوائق بالله ، ومولاي زيدان . وكان أعيان فاس وعلمائها ، قد بايعوا عقب وفاة المنصور ، لولده زيدان ، وبايع أهل مراکش لولده أبي فارس ولكن معركة نشبت بين زيدان وأخيه الشيخ ، انتهت بهزيمة زيدان ، واستيلاء الشيخ على فاس . ثم تشبت بعد ذلك بين الأبناء الثلاثة سلسلة من المعارك الأهلية المتوالية ، كانت سجالاً بينهم ، وهزم خلالها مولاي زيدان غير مرة ، ودخل العاصمة مراکش غير مرة . واستمرت هذه الحرب الأهلية ، بضع سنوات (١٠١٢ - ١٠١٦ هـ) ، وانتهت آخر الأمر ، بانتصار مولاي زيدان واستيلائه على الملك ، ومقتل أخيه أبي فارس ، وفرار الشيخ في أهله وولده . ولكن الشيخ لم يستكن للهزيمة ، بل فكر في الاستنصار بالإسبان ، فعبر البحر مع أسرته وأمه الحيزران إلى إسبانيا ، واستغاث بملكها فيليب الثالث ، وتعهد بأن يقدم ثغر العرائش إلى إسبانيا نظير معاونته على استرداد عرشه . وكان ذلك في أوائل سنة ١٦٠٨ (١٠١٧ هـ)^(١) . وهنا أرسل الموريسكيون في بلنسية ، رسلاًهم إلى مولاي زيدان ، يوضحون له سهولة غزو إسبانيا ومحاربتها ، وأنهم على استعداد لأن يقدموا له مائتي ألف مقاتل ، متى أقدم على الغزو واحتلال أحد الثغور الإسبانية الهامة ؛ ولكن السلطان زيدان لم يحفل بهذا العرض ، وأجاب الرسل بأنه لن يحارب خارج بلاده^(٢) . واستجاب فيليب الثالث لدعوة الشيخ ، وأرسل معه بعض قواته وسفنه إلى شاطئ المغرب ، فنزل الشيخ وحلفاؤه الإسبان أولاً في حجر باديس ، غربي مليلة وذلك في رمضان سنة ١٠١٩ هـ (أوائل سنة ١٦١٠ م) ، ثم انتقل في صحبه إلى قصر عبد الكريم (القصر الكبير) ، وبعث سرية من رجاله ، فقامت بإخلاء العرائش من أهلها المسلمين قسراً ، وبعد مقاومة عنيفة ، وسلمتها إلى الإسبان ، تحقيقاً لتعهد الشيخ . ومحاول الشيخ أن يعتذر عن تصرفه بأن الإسبان ، احتجزوا أهله وولده ، وأنه فعل ذلك في سبيل افتدائهم ، واستصدر فتوى بشرعية تصرفه من بعض العلماء . ولكن ذلك لم يغنه شيئاً ، واشتد السخط عليه ، وانفض عنه كثير من أنصاره . ثم سار الشيخ في قواته إلى تطاون (تيطوان) ، وأخذ يغيث فساداً في تلك المنطقة ، وما زال في

(١) كتاب نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي لأبي عبد الله اليفرنى (طبع فاس)

ص ١٦٢ - ١٦٧ ، وراجع الإستقصاء ج ٣ ص ١٠٢ .

(٢) Dr. Lea : The Moriscos ; p. 289-290

مغامراته حتى تصدى له بعض زعماء غمارة وقتلوه على مقربة من تطاون ، وذلك في رجب سنة ١٠٢٢ هـ (١٦١٣ م) ، وانتهى بذلك أمره ، وتوطد بذلك مركز مولاي زيدان ، وتمكن عرشه ، وإن كان قد لبث بعد ذلك حيناً في مقارعة الخوارج عليه من أبناء الشيخ وغيرهم^(١) . واستمر السلطان زيدان حتى وفاته في سنة ١٠٣٧ هـ (١٦٢٧ م) أعنى بعد نفي الموريسكيين بنحو تسعة عشر عاماً ، في كفاح دائم مع اسبانيا . وحدث خلال هذا الكفاح ذات مرة في سنة ١٦١٢ م ، أن غنمت السفن الإسبانية في مياه المغرب على شاطئ الأطلس فيما بين آسفي وأغادير ، مركباً لمولاي زيدان شحنت بالتحف ، وبها ثلاث آلاف سفر من كتب الدين والأدب والفلسفة^(٢) ، وكان مولاي زيدان قد غادر مراکش تحت ضغط الحوادث ، وركب البحر مائتاً إلى الجنوب وحمل معه مكتبته الثمينة وتحفه ، فأنتهبها الإسبان على هذا النحو ، وحملت هذه الكتب إلى اسبانيا ، وضمت فيما بعد إلى مجموعة الكتب الأندلسية بقصر الإسكوريال .

(١) نزعة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي ص ١٦٨ و ١٦٩ . وراجع الاستقصاء ج ٣ ص ١٠٦ .
(٢) الاستقصاء ج ٣ ص ١٣٠ .

الفصل الثاني

مأساة النقي

قضية الموريسكيين مشكلة قومية لإسبانيا . استحالة العرب المنتصرين إلى شعب جديد . تشعب الآراء حول التخلص منهم . ولاية فيليب الثالث . مشروع دوق دى ليرما للقضاء على الموريسكيين . تقرير المطران ربيرا ومقترحاته . مجلس الدولة يبحث مشروع نقي الموريسكيين . مقترحات اللجنة الملكية . قرار مجلس الدولة . الاستعداد للتنفيذ . صدور مرسوم النقي النهائي . ما يحتويه المرسوم من الأحكام . موقف الموريسكيين . تظلم المدجنين . بدء التنفيذ في بلنسية . الرحيل إلى وهران وتلمسان . المنفيون من لنت . مقاومة الموريسكيين في بعض الأنحاء . إعلان قرار النقي في قشتالة . إحصاءات عن المنفيين . إعلان قرار النقي في غرناطة . إعلانه في باقي الجهات . تفرق المنفيين في مختلف الثغور . الإعتداء على المنفيين . عدد الموريسكيين الذين أخرجوا من إسبانيا . رواية موريسكية عن أحوال الموريسكيين وظروف النقي . رواية المقرئ عن مأساة النقي . روايات عربية أخرى . آثار الموريسكيين الأخيرة في إسبانيا .

تلك هي البواعث والظروف التي حملت إسبانيا النصرانية ، على التوجس من العرب المنتصرين ، واعتبارهم خطراً قومياً يجب العمل على درئه والتخلص منه . وكان هذا التوجس يزيد على كراهة الأعوام ، وتذكيره الحوادث المتوالية : ثورات الموريسكيين ولاسيما ثورة غرناطة الكبرى ، وغارات القراصنة على الشواطئ الإسبانية ، وصلات الموريسكيين الدائمة بمسلمي إفريقية وبلاط قسطنطينية ، وسواء أكان هذا الخطر حقيقياً يهدد سلامة إسبانيا ، أم كان للتحامل والبغض أثر في تصويره ، فقد غدت قضية العرب المنتصرين ، غير بعيد في نظر السياسة الإسبانية ، مشكلة قومية خطيرة يجب التذرع لمعالجتها بأشد الوسائل وأنجعها . وكانت السياسة الإسبانية ، تعزم منذ أواخر عهد فيليب الثاني ، أن تتخذ خطواتها الحاسمة ، في شأن الموريسكيين . وكان هذا الملك المتعصب يعزم نقي الموريسكيين بعد الذي عانته إسبانيا في قمع ثورتهم ، ووضع بالفعل في سنة ١٥٨٢ مشروعاً لنفيهم ، ولكن مشاغل السياسة الخارجية حالت دون تحقيق مشروعه . وكان قد مضى يومئذ زهاء قرن على سقوط غرناطة ، واستحالت بقية الأمة الأندلسية إلى شعب جديد ، لا تكاد تربطه بالماضي المجيد سوى ذكريات

غامضة . وكان التنصر قد عم الموريسكيين يومئذ ، وغدا أبناء قریش ومضر بحكم القوة والإرهاق ، نصارى يشهدون القداس فى الكنائس ، ويتكلمون ويكتبون القشتالية ؛ غير أنهم لبثوا مع ذلك فى معزل ، وأبت اسبانيا النصرانية ، بعد أن فرضت عليهم دينها ولغتها ومدنيتها ، أن تضمهم إلى حظيرتها القومية . وكانت ما تزال ثمة منهم جموع كبيرة فى بلنسية ومرسية وغرناطة ، وغيرها من القواعد الأندلسية القديمة ، وكانوا ما يزالون رغم العسف والإرهاق ، والاضطهاد والتشريد والذلة ، قوة أدبية واجتماعية خطيرة ، وعنصراً بارزاً فى إنتاج اسبانيا القومية ، ولا سيما فى الصناعات والفنون . ولكن السياسة الإسبانية كانت تخشاهم بالرغم من ضعفهم ونخوعهم ، بعد أن فشلت بوسائلها الهمجية البغيضة فى كسب محبتهم وولائهم . وكان ديوان التحقيق من جهة أخرى ، ومن ورائه الأحبار والكنيسة ، يعتبرهم بالرغم من تنصرهم ، أبداً وصمة فى نقاء النصرانية ، ويتصور الإسلام دائماً يجرى كالدم فى عروقهم .

وقد تضاربت آراء الساسة والأحبار الإسبان ، فى شأن الخطوة الحاسمة التى يجب اتخاذها ، للقضاء على خطر الموريسكيين . ورأى بعض أكابر الأحبار أن خطر الموريسكيين لا يزول إلا بالقضاء على الموريسكيين أنفسهم . وكان مما اقترحه المطران ربيرا أن يقضى عليهم بالرق ، وأن يؤخذ منهم كل عام بضعة آلاف للعمل فى السفن ومناجم الهند ، حتى يتم إفناؤهم بهذه الطريقة ، وذهب البعض الآخر إلى وجوب قتل الموريسكيين دفعة واحدة ، أو قتل البالغين منهم ، واسترقاق الباقين وبيعهم عبيداً ، وكان مما اقترحه بعض وزراء فيليب الثانى أن يجمع الموريكيون ، ويحملوا على السفن ثم يغرقوا فى عرض البحر^(١) . واستمرت السياسة الإسبانية حيناً تتلمس المخرج وسط هذه الحلول الهمجية ، حتى توفى فيليب الثانى (سنة ١٥٩٨) وخلفه ولده فيليب الثالث . وكان هذا الملك الفتى ، ضعيف الرأى والإرادة ، يتأثر كأبيه بنفوذ الأحبار ، وينحضع لوصى وزيره وصفيه الدوق دى ليرما . وكان الدوق من أشد أنصار فكرة القضاء على الموريسكيين ، وقد أشار بها منذ سنة ١٥٩٩ ، ووضع لتنفيذها مشروعاً ، خلاصته أن الموريسكيين إنما هم عرب ، ويجب أن يعدم الشبان والكهول منهم ، ما بين الخامسة عشرة والستين ، وأن يسترقوا ويرسلوا للعمل فى السفن ، وتنزع أملاكهم . أما الرجال والنساء الذين جاوزوا الستين ،

فينفوا إلى المغرب ، وأما الأطفال فيؤخذوا ويربوا في المعاهد الدينية ، وهو مشروع أقره مجلس الدولة ، وأخذ يعمل سراً لحشد القوى اللازمة لحصر عدد الموريسكيين في اسبانيا .

وفي سنة ١٦٠١ قدم المطران ريبيرا إلى الملك ، تقريراً يقول فيه إن الدين هو دعامة المملكة الإسبانية ، « وإن الموريسكيين لا يعترفون ، ولا يتقبلون البركة ولا الواجبات الدينية الأخيرة ، ولا يأكلون لحم الخنزير ، ولا يشربون النبيذ ، ولا يعملون شيئاً من الأمور التي يعملها النصارى » ثم يوضح الأسباب التي تدعو إلى عدم الثقة في ولائهم بقوله : « إن هذا المروق العام لا يرجع إلى مسألة العقيدة ، ولكنه يرجع إلى العزم الراسخ في أن يبقوا مسلمين ، كما كان آباؤهم وأجدادهم ، ويعرف المحققون العامون أن الموريسكيين بعد أن يعتقلوا عامين وثلاثة وتشرح لهم العقيدة في كل مناسبة ، يخرجون دون أن يعرفوا كلمة منها . والخلاصة أنهم لا يعرفون العقيدة ، لأنهم لا يريدون معرفتها ، ولأنهم لا يريدون أن يعملوا شيئاً يجعلهم يبدون نصارى »^(١) ، ثم يقول المطران في تقرير آخر ، إن الموريسكيين كفرة متعنتون يستحقون القتل ، وإن كل وسيلة للرفق بهم قد فشلت ، وإن اسبانيا تتعرض من جراء وجودهم فيها ، إلى أخطار كثيرة ، وتتكبد في رعايتهم ، والسهر على حركاتهم ، وإخماد ثوراتهم ، كثيراً من الرجال والمال . ثم يقترح أن تؤلف محكمة سرية من الأحبار ، تقضى بردة الموريسكيين ونجاستهم ، ثم تحكم علناً بوجوب نفيهم ومصادرة أملاكهم ، وأنه لا ضير على الملك في ذلك ولا حرج . ولكن مشروع المطران لم ينفذ ، لأن مجلس الدولة كان يرى أن يسير في تحقيق غايته سراً ، وألا تصطبغ إجراءاته في ذلك بالصبغة الدينية .

ومضت بضعة أعوام أخرى ، والفكرة تبحث وتختمر وتتوطد ، حتى كانت حوادث المغرب في أواخر سنة ١٦٠٧ ، وما نسب للموريسكيين من صلة بمولاي زيدان ومشاريعه لغزو اسبانيا ، وعزمهم على الثورة . عندئذ بادر مجلس الدولة بالاجتماع في أواخر يناير سنة ١٦٠٨ ، واستعرضت جميع الآراء والمشاريع السابقة ، وبحثت جميع الاقتراحات ؛ وكرر المطران ريبيرا اقتراحه بوجوب نفي الموريسكيين إلى المغرب ، وقال بأن النفي أرفق ما يمكن عمله ، وأيد رأيه معظم الأعضاء الآخرين وذكروا أن نفي الموريسكيين أصبح ضرورة لا مفر منها ، لأنهم يتكاثرون بسرعة ،

بينما يتناقض عدد النصاري القدماء . وبحث تفاصيل المشروع ووسائله ، وما يجب اتخاذه من التحولات لضمان تنفيذه ، خصوصاً وقد بدأت أنباء المشروع تتسرب إلى الموريسكيين ، وظهرت بينهم أعراض الهياج في سرقسطة وبلنسية . وكانت الخطوة التالية أن عهد بدرس المشكل كله ، إلى لجنة خاصة على رأسها الدوق دى ليرما ، ووضعت هذه اللجنة أسس المشروع التمهيدية بعد كبير جدل ، وخلاصتها أن يمنح الموريسكيون شهراً لبيع أملاكهم ومغادرة اسبانيا إلى حيث شاءوا ، فمن جاز منهم إلى إفريقية منح السفر الأمين ، ومن جاز إلى أرض نصرانية أوصى به خيراً ، ومن تخلف عن الرحيل بعد انقضاء هذه المدة ، عوقب بالموت والمصادرة ؛ ولم يعترض أحد على هذه الأسس في ذاتها ، على أن هذه الأسس الرفيعة نوعاً لم يؤخذ بها .

وفي يناير سنة ١٦٠٩ بحث مجلس الدولة المسألة لآخر مرة ، وقدم تقريراً ينصح فيه بوجوب نفي الموريسكيين ، لأسباب دينية وسياسية فصلها ، وأهمها تعرض اسبانيا يومئذ لخطر الغزو من مراکش وغيرها ، وقيام الأدلة على أن الموريسكيين جميعاً خونة مارقون ، يستحقون الموت والرق ، ولكن اسبانيا تؤثر الرفق بهم ، وتكتفي بنفيهم من أراضيها . وتقرر أن ينفذ المشروع كله في خريف هذا العام ، وأرسلت الأوامر إلى حكام صقلية ونابولي وميلان ، بإعداد جميع السفن الممكنة لنقل الموريسكيين ، وجميع القوات اللازمة لحراستهم ، واجتمعت منذ أوائل الصيف في مياه ميورقة ، عشرات من السفن المطلوبة ، وسارت أهبة التنفيذ بسرعة ونشاط . وهكذا انتهت السياسة الإسبانية بعد فترة من التردد ، إلى اتخاذ خطواتها الحاسمة في القضاء على البقية الباقية من الموريسكيين ، وتحقيق أمنيته القديمة ، في « تطهير » اسبانيا نهائياً من آثار الإسلام وآثار العرب ، ومحو تلك الصفة الأخيرة لشعب عظيم تالد .

وفي ٢٢ سبتمبر سنة ١٦٠٩ أعلن قرار (مرسوم) النفي النهائي للموريسكيين أو العرب المنتصرين ، فساد بينهم الروع والاضطراب ، وإليك نصوص هذا القرار الشهير في صحف المآسى والاستشهاد :

يبدأ القرار بالتنويه بخيانة الموريسكيين ، واتصالهم بأعداء اسبانيا ، وإخفاق كل الجهود التي بذلت لتنصيرهم ، وضمان ولائهم ، وما استقر عليه رأى الملك من نفيهم جميعاً إلى بلاد البربر (المغرب) . وبناء على ذلك فإنه يجب على جميع

الموريسكيين من الجنسين ، أن يرحلوا مع أولادهم ، في ظرف ثلاثة أيام من نشر هذا القرار ، من المدن والقرى إلى الثغور التي يعينها لهم مأمورو الحكومة ، والموت عقوبة المخالفين ؛ وأن لهم أن يأخذوا من متاعهم ما يستطيع حمله على ظهورهم ، وأن السفن قد أعدت لنقلهم إلى بلاد المغرب ، وسوف تتكفل الحكومة بإطعامهم أثناء السفر ، ولكن عليهم أن يأخذوا ما استطاعوا من المؤن ، وأنه يجب عليهم أن يبقوا خلال مهلة الأيام الثلاثة في أماكنهم رهن إشارة المأمورين ، ومن وجد متجولا بعد ذلك يكون عرضة للنهب والمحاكمة ، أو الإعدام في حالة المقاومة . وقد منح الملك السادة كل الأملاك العقارية والأمتعة الشخصية التي لم تحمل ، فإذا عمد أحد إلى إخفاء الأمتعة أو دفعها ، أو أضرم النار في المنازل أو المحاصيل ، عوقب جميع سكان الناحية بالموت . ونص القرار على استبقاء ستة في المائة فقط من الموريسكيين للانتفاع بهم في صون المنازل ، والعناية بمعامل السكر ، ومحصول الأرز ، وتنظيم الري ، وإرشاد السكان الجدد ، وهؤلاء يختارهم السادة ، من بين الأسر الأكثر خبرة وأشد ولاءً للنصرانية . أما الأطفال فإذا كانوا دون الرابعة ، فإنه يسمح لهم بالبقاء إذا شاءوا (كذا) ورضى آباؤهم أو أولياؤهم ، وإذا كانوا دون السادسة ، سمح لهم بالبقاء إذا كانوا من أبناء النصارى القدماء ، (أعني من غير العرب المنتصرين) ، وسمح كذلك بالبقاء لأهمهم الموريسكية ؛ فإذا كان الأب موريسكياً والأم نصرانية أصيلة ، نبي الأب وبقى الأولاد الذين دون السادسة مع أمهم . كذلك يسمح بالبقاء للموريسكيين الذين أقاموا بين النصارى مدى عامين ، ولم يختلطوا « بالجماعة » إذا زكاهم القسس . وحظر القرار إخفاء الهاربين أو حمايتهم . ويعاقب المخالف بالأشغال الشاقة لمدة ستة أعوام . كذلك حظر على الجنود والنصارى القدماء ، أن يتعرضوا للموريسكيين أو يهينوهم بالقول أو الفعل ، وهدد المخالفون بالعقاب الصارم . وأخيراً نص على السماح لعشرة من الموريسكيين بالعودة عقب كل نقلة ، لكي يشرحوا لإخوانهم كيف تم النقل إلى المغرب على أحسن حال .

وقع قرار النفي على الموريسكيين وقع الصاعقة ، وسادهم الوجوم والذهول . وكان عصر الثورة والمقاومة قد ولى ، ونهكت قواهم ، ونضبت مواردهم . وكانت الحكومة الإسبانية قد اتخذت عدتها للطوارئ ، وحشدت قواتها في جميع الأنحاء الموريسكية ، واجتمع زعماء الموريسكيين وفقهاؤهم في بلنسية ، وقرروا أنه لا أمل في المقاومة وأنه لا مناص من الخضوع ، واستقر الرأي على أن يرحلوا جميعاً ، وألا

يبقى منهم أحد ، حتى ولا نسبة الستة في المائة التي سمح ببقائها ، وأن من بقي منهم اعتبر مرتدأ مارقاً . ومع ذلك فقد وقعت ثورات محلية ، وتأهبت بعض الجماعات المحتشدة في المناطق الحبلية للمقاومة ، وعاشت في الأنحاء المجاورة ، ولكنها كانت فورة المحتضر ، فأخذت حركاتهم بسرعة وقتل منهم عدد جم .

وتظلم كثير من المدجنين من قرار النفي ، وقالوا إنهم اعتنقوا النصرانية طوعاً قبل التنصير الإجباري ، وغدوا نصارى واسبانيين قبل كل شيء ، فصدر الأمر إلى الأساقفة ببحث ظلامتهم ، وأن يسمح بالبقاء لمن توفرت فيه منهم شروط الولاء والإخلاص (١) .

أما الكثرة الساحقة من الموريسكيين فقد هرعت إلى اتخاذ أهبة الرحيل ، وأخذوا في بيع ما تيسر بيعه من المتاع ، وتدفقت السلع على الأسواق ، من الماشية والحبوب والسكر والعسل والملابس والأثاث وغيرها ، لتباع بأبخس الأثمان . وبدأ بتنفيذ قرار النفي في الجهات التي نشر فيها أولاً ، وهي أعمال بلنسية منذ أوائل أكتوبر (سنة ١٦٠٩) . وخرجت أول شحنة من هذه الكتلة البشرية المعذبة على سفن الحكومة من ثغر دانية وبعض الثغور القريبة ، وقدرت بثمانية وعشرين ألف نفس ، حملوا إلى ثغر وهران في الضفة الأخرى من البحر ، وقد كان يومئذ بيد الإسبان ، ثم نقلوا إلى تلمسان بحماية فرقة من الجند المرتزقة ، وهناك استظلوا بحماية السلطان ، وعاد البعض منهم إلى اسبانيا ليروي عن رحيل الراحلين ، وكيف وصلوا في أمن وسلام . ومع ذلك فقد أثر معظم المهاجرين السفر بأجر ، على سفن غير التي عينتها الحكومة ، لنقل المهاجرين وإطعامهم دون أجر ، واضطرت الحكومة لتلقاء ذلك ، أن تستدعي عدداً كبيراً من السفن الحرة ، إلى مياه بلنسية ، ورحل بهذه الطريقة من ثغر بلنسية زهاء خمسة عشر ألفاً ، معظمهم من الموسرين والمتوسطين ، ورحل المنفيون من ثغر لقنت على عزف الموسيقى ونشيد الأغاني ، وهم يشكرون الله على العود إلى أرض الآباء والأجداد ، ولما مثل فقيه من زعمائهم عن سبب اغتباطهم ، أجاب بأنهم كثيراً ما سعوا إلى شراء قارب أو سرقة ، للفرار إلى المغرب ، مستهدفين لكثير من المخاطر ، فكيف إذا عرضت لنا فرصة السفر الأمين مجاناً ، لانتهازها للعود إلى أرض الأجداد ، حيث نستظل بحماية سلطاننا ، سلطان الترك ، وهناك نعيش أحراراً مسلمين لا عبيداً كما كنا ؟



الملك فيليب الثالث
عن صورة بلائكيث المحفوظة بمتحف البرادو بمدريد ، وفيها يبدو أحمر الشعر واللحية والشارب ،
فوق جواد أسهب

وكانت الجنود تحرس المنفيين في معظم الأحوال ، حماية لهم من جشع النصارى الإسبان الذين انتظموا في عصابات لمهاجمة المنفيين ونهبهم وقتلهم أحياناً . وفضلاً عن ذلك فإن تنفيذ قرار النفي لم يجر دائماً في يسر وسهولة ، فقد رأينا أن كثيراً من الموريسكيين في المناطق الجبلية أبوا الخضوع للأوامر لعدم ثقتهم في ولاء الحكومة ، وفضلوا المقاومة حتى الموت ، واحتشدوا بالأخص في « وادي أجوار » حيث اجتمع منهم زهاء خمسة عشر ألفاً ، وفي مويلادى كورتيس حيث اجتمع نحو تسعة آلاف فبادرت قوات الحكومة بمحاصرة وادي أجوار وفتكت بالموريسكيين العزل ، وقتلت منهم بضعة آلاف ، ومات كثير منهم من الجوع والبرد . وأخيراً سلم من بقي منهم وحملوا قسراً إلى ميناء السفر ، وسبي الجند منهم كثيراً من النساء والأطفال ، باعهم رقيقاً ، ولم يصل منهم إلى شواطئ المغرب سوى القليل ، وفي مويلادى كورتيس لم يبق منهم عند الإبحار سوى ثلاثة آلاف ؛ ولبثت فلولهم تقاوم مستميتة ، وتبث الاضطراب نحو عام حتى قضى عليها (١) .

وصدر قرار النفي في قشتالة في ١٥ سبتمبر سنة ١٦٠٩ . ولكن أجل تنفيذه حتى ينفذ أولاً في بلنسية ، ولم ينفذ بالفعل إلا في أواخر ديسمبر ، ومنح الموريسكيون فيه شهراً للسفر بنفس الشروط التي تضمنها قرار النفي في الأندلس ؛ وسافر منهم في اتجاه الشمال إلى حدود فرنسا نحو أربعة آلاف عائلة ، وسافر إلى قرطاجنة نحو عشرة آلاف بحجة السفر إلى الأراضي النصرانية ، وذلك لكي يحتفظوا بأولادهم الصغار ، ولكن تسرب الكثير منهم إلى الثغور المغربية .

وبلغ عدد المنفيين في الثلاثة أشهر الأولى زهاء مائة وخمسين ألفاً ، وسافر منهم ألوف كثيرة من الأغنياء والموسرين على نفقتهم الخاصة ، وقصدت جموع كثيرة من الموريسكيين في أراجون قدرت بنحو خمسة وعشرين ألفاً ، إلى ولاية ناغار الفرنسية ، ودخل فرنسا من قشتالة نحو سبعة عشر ألفاً ، وسمح لهم هنرى الرابع ملك فرنسا بالتوطن فيما وراء نهر الجارون ، بشرط بقائهم على دين الكاثوليكية ، وأن تهيب السفن لمن أراد السفر منهم إلى شواطئ المغرب .

أما في غرناطة وأنحاء الأندلس ، فقد أعلن قرار النفي في ١٢ يناير سنة ١٦١٠ بعد أن عدلت بعض أحكامه ، وفيه يمنح الموريسكيون للرحيل ثلاثين يوماً ، ويباح لهم أن يبيعوا سائر أملاكهم المنقولة وأخذ ثمنها ، على أن يقتنى به عروض أو بضائع

اسبانية ، ولا يسمح لهم بأن يحملوا معهم من النقد أو الذهب أو الحلى ، إلا ما يكفي نفقات الرحلة بالبر والبحر . وأما الأملاك العقارية فتصادر لجهة العرش . وقد استقبل الموريسكيون في الأندلس قرار النفي بالاستبشار والرضى ، ويقدر من نزع منهم إلى المغرب ، سواء على سفن الحكومة أو السفن الحرة ، بنحو مائة ألف نفس ، وقد نزع معظمهم إلى مراکش .

ثم توالى إعلان قرار النفي ، في جميع الجهات التي تضم مجتمعات موريسكية ، في سائر أنحاء المملكة الإسبانية . في قطلونية وأراجون في مايو سنة ١٦١٠ ، ثم في إشبيلية وإسترمادوره ، ثم في مرسية وغيرها . وتأخر تنفيذه في مرسية نحو أربعة أعوام حتى يناير سنة ١٦١٤ ، وخرج من مرسية زهاء خمسة عشر ألفاً ، واتجهت جموع كثيرة من الشمال إلى الثغور الجنوبية .

واتجهت بعض الجماعات منهم إلى الثغور الإيطالية مباشرة ، أو عن طريق فرنسا ، ومنها أبحرت إلى مصر والشام وقسطنطينية^(١) . وبلغ السلطان أحمد سلطان الترك ، ما أصاب الكثير منهم في أرض فرنسا من الاعتداء والنهب ، فأرسل إلى ملكتها (وهي يومئذ ماري دي مديتشى الوصية على ولدها لويس الثالث عشر) يحنج على هذا الإيذاء ، ويطلب حماية المنفيين^(٢) . وكان بين هؤلاء الذين اتجهوا نحو المشرق ، بعض طوائف اليهود الأندلسيين ، ولاسيما طائفة « الحسديم » التي ما زالت تقيم حتى اليوم في قسطنطينية ، ويقيم بعضها في مصر .

ونفذ قرار النفي في كل مكان بصرامة ووحشية ، واستمرت السفن شهوراً بل أعواماً تحمل أكداساً من تلك الكتلة البشرية المعبدة ، فتلقى بها هنا ، وهناك ، في مختلف الثغور الإفريقية ، في غمر من المناظر المروعة المفجعة .

وقد رويت روايات كثيرة محزنة عن مصير بعض جماعات المنفيين ، فإن للذين نزلوا منهم في وهران ليسيروا منها إلى داخل البلاد المغربية ، اعتدت عليهم بعض العصابات الناهية ، لما كان معروفاً من أنهم يحملون أموالاً وحلياً نفيسة ، وسبي كثير من نسائهم . وقد كان منهم في الواقع كثير من الأغنياء والأشراف القدماء ، ولاسيما من أهل إشبيلية ، وكتب الكونت أجيلار حاكم وهران ، أن كثيرين منهم بقوا في وهران ، خوفاً من اعتداء الأعراب ، وقيل إن ثلثي القادمين إلى وهران

(١) المقرئ في نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٧ .

(٢) Dr. Lea : The Moriscos ; p. 864

أوأكثر من ذلك ، هلكوا من المرض أو نتيجة الاعتداء ، ومن ثم فإن كثيرين منهم هادوا إلى اسبانيا ، والتمسوا إلى السلطات أن يبقوا نصارى وأن يكونوا حبيداً . وقد ألقى هؤلاء بعض الأسر التي قبلت استرقاقهم ، واعترض على ذلك رجال الدين ، وصدرت الأوامر برفض نزولهم إلى الشواطئ الإسبانية ؛ ولكن كثيرين تسربوا إلى أنحاء بلنسية وغيرها ، وبقوا في اسبانيا رغم جميع الجهود التي بذلت لإخراجهم (١) .

وقد اختلف المؤرخون أيما اختلاف ، في تقدير عدد الموريسكيين الذين أخرجوا من اسبانيا تطبيقاً لقرار النفي ، ويقول ناباريتي وهو من أعظم مؤرخي اسبانيا ، إنه قد نفي من اسبانيا في مختلف العصور ، نحو مليونين من اليهود ، وثلاثة ملايين من الموريسكيين . ويقدر آخرون المنفيين من الموريسكيين بأربعمائة ألف أو تسعمائة ألف ، ويقدرهم دون لورنتي مؤرخ «ديوان التحقيق» بمليون ، ويقدرهم المستشرق فون هامار بثلاثمائة ألف وعشرة آلاف . وفي الرواية العربية الموريسكية التي نثبها فيما بعد ، يقدر عدد المنفيين الموريسكيين بستمائة ألف ، ونحن نميل إلى الاعتقاد بأن عدد من نفي من الموريسكيين لا يمكن أن يتجاوز هذا القدر ، وقد كان مجموعهم في أواخر القرن السادس عشر لا يتجاوز ستمائة ألف حسبما قدمنا . ويقدر من هلك من الموريسكيين أو استرق منهم أثناء مأساة النفي بنحو مائة ألف نفس (٢) . وقد عاد معظم الموريسكيين ، الذين نفوا إلى إفريقيا والمشرق ، إلى الإسلام دين الآباء والأجداد ، ولم تحمد مائة عام من التنصير المغصوب ، والإرهاق المستمر جلوة الإسلام في نفوسهم ، وقد لبث على كر العصور متغلغلا في أعماق سرائرهم . وبذلك ينتهى الفصل الأخير من مأساة الموريسكيين أو العرب المتنصرين ، وتطوى إلى الأبد صفحة شعب ، من أنبل وأمجد شعوب التاريخ ، وحضارة من أزهر الحضارات .

وتقدم إلينا الرواية الغربية ، تفاصيل ضافية عن مأساة الموريسكيين ، منذ بدايتها إلى نهايتها ، وتخصها بكثير من التعليق والنقد . ولكن الرواية الإسلامية مقلدة في هذا الموطن ، شأنها في تاريخ الأندلس منذ سقوط غرناطة ، فهي لا تعنى بتتبع

(١) Lea : The Moriscos ; p. 363 & 364 . وراجع نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٧ .

(٢) راجع : Lea : The Moriscos ; p. 259 .

مصير العرب المنتصرين ، كما تعنى الرواية الغربية ، ولا تقدم إلينا عن مأساة النفي سوى بعض الشذور والإشارات الموجزة .

وأهم وأوفى ما وقفنا عليه من ذلك ، رواية معاصرة عن أحوال الموريسكيين ، ومساعدتهم السرية للمحافظة على دينهم ، وظروف نفهم ، كتبها موريسكى عاش في جيان وغيرها من قواعد الأندلس الجنوبية في أواخر عهد الموريسكيين ، ثم هاجر إلى تونس قبيل النفي بقليل ، وكتب فيما بعد بالعربية كتاباً بعنوانه : « الأنوار النبوية في آباء خير البرية » ، يتحدث في نهايته في فصل خاص عن الموريسكيين المهاجرين ، وشرف نسبهم ، وينوه بحسن إيمانهم وتمسكهم بالإسلام دين آبائهم وأجدادهم ، ووردت خلال هذا الفصل حقائق تاريخية هامة ، عن النفي وأسبابه وملايساته . وقد رأينا أن ننقله فيما يلي : (١)

« قد كثُر الإنكار علينا معشر أشراف الأندلس من كثير من إخواننا في الله بهذه الديار الإفريقية من التونسيين وغيرهم ، حفظهم الله تعالى ، بقولهم من أبن لهم هذا الشرف ، وقد كانوا ببلاد الكفار ، دمرهم الله ، ولم يموتوا من السنين كذا وكذا ، ولم يبق فيهم من يعرف ذلك من مدة الإسلام وقد اختلطوا مع النصارى ، أبعدهم الله تعالى ، إلى غير ذلك من الكلام الذى لا نطيل به ولا أذكره هنا صونا لعرضهم وحيي فيهم .

« مع أنى صغير السن حين دخولنا هذه الديار عمرها الله تعالى بالإسلام وأهله بجاه النبي المختار فقد أطلعنى الله تعالى على دين الإسلام بواسطة والدى رحمه الله عليه وأنا ابن ستة أعوام وأقل ، مع أنى كنت إذ ذاك أروح إلى مكتب النصارى لأقرأ دينهم ، ثم أرجع إلى بيتي فيعلمنى والدى دين الإسلام ، فكنت أتعلم فيهما معاً ، وسنى حين حملت إلى مكتبهم أربعة أعوام . فأخذ والدى لوحاً من عود الخوز كائى أنظر الآن إليها ممسكاً ، فكتب لى فيه حروف الهجاء وهو يسألنى حرفاً حرفاً

(١) مؤلف هذا الكتاب هو حسبما ورد في نسخته المخطوطة ، محمد بن عبد الرقيق بن محمد الشريف الحسيني الجعفرى الأندلسي ، المتوفى سنة ١٠٥٢ هـ (١٦٥٢ م) ، أعني بعد نفي الموريسكيين باثنتين وأربعين عاماً . وتوجد هذه النسخة الوحيدة منه بخزانة الرباط بالمكتبة الكتانية رقم 1238 ، ومذكور في نهاية الكتاب ، أنه قد تم تحريره بحضرة تونس سادس شعبان سنة ١٠٤٤ هـ (١٦٤٤ م) . ويشغل الفصل الخاص بأحوال الموريسكيين فيه من ص ٣١٩ إلى ص ٣٣٦ . وقد نقل هذا الفصل الشاعر المغربي محمد بوجندار مع بعض التصرف في كتابه المسمى « مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح » (الرباط ١٣٤٥ هـ) ص ٢٠٠ - ٢١٤ .

عن حروف النصارى تدريباً وتقريباً ، فإذا سميت له حرفاً أعجمياً كتب لي حرفاً عربياً ، فيقول حينئذ هكذا حروفنا ، حتى أستوفى لي جميع حروف الهجاء في كرتين ، فلما فرغ من الكرة الأولى ، أوصاني أن أكتب ذلك حتى عن والدتي وعمي وأخي ، وجميع قرابتنا ، وأمرني أن لا أخبر أحداً من الخلق . وشدد على الوصية ، وصار يرسل والدتي التي تستلني ما الذي يعلمك والدك فأقول لها لا شيء . وكذا كان يفعل عمي وأنا أنكر أشد الإنكار . ثم أروح إلى مكتب النصارى وآتي إلى الدار فيعلمني والدي إلى أن مضت مدة .

« وقد كان والدي رحمه الله ، يلقني حينئذ ما كنت أقوله حين رؤيتي للأصنام ... فلما تحقق والدي أنني أكتب أمور دين الإسلام عن الأقارب فضلاً عن الأجانب ، أمرني أن أتكلم بإفشائه لوالدتي وعمي ، وبعض أصحابه الأصدقاء فقط ، وكانوا يأتون إلى بيتنا فيتحدثون في أمر الدين ، وأنا أسمع . فلما رأى حزمي مع صغر سني ، فرح كثيراً غاية ، وعرفني بأصدقائه وأحبائه وإخوانه في دين الإسلام ، فاجتمعت بهم واحداً واحداً ، وسافرت الأسفار لأجتمع بالمسلمين الأنحبار ، من جيان ، مدينة ابن مالك ، إلى غرناطة ، وإلى قرطبة وإشبيلية ، وبليطلة ، وغيرها من مدن الجزيرة الخضراء ، أعادها الله تعالى للإسلام ، فتلخص لي من معرفتهم أنني ميزت سبعة رجال كانوا كلهم يتحدثون بأمور غرناطة وما كان بها في الإسلام حينئذ ، فباجتماعي بهم حصل لي خير كثير ، وقد قرأوا كلهم على شيخ من مشايخ غرناطة ، أعادها الله للإسلام ، يقال له الفقيه اللوطوري رحمه الله تعالى ونفعنا به ، فإنه كان رجلاً صالحاً ، ولياً لله ، فاضلاً زاهداً ، ورعاً ، عارفاً سالكاً ، ذا مناقب ظاهرة مشهورة ، وكرامات ظاهرة مأثورة ، قد قرأ القرآن الكريم في مكتب الإسلام بغرناطة ، قبل استيلاء أعداء الدين عليها ، وهو ابن ثمانية أعوام وقرأ الفقه وغيره على مشايخ أجلا حسب الإمكان . ثم بعد مدة يسيرة ، انتزعت غرناطة من أيدي المسلمين أجدادنا ، وقد أذن العدو في ركوب البحر والخروج منها لمن أراد ، وبيع ما عنده ، وإتيانه لهذه الديار الإسلامية وذلك في مدة ثلاثة أعوام ، ومن أراد أن يقيم على دينه وماله فليفعل ، بعد شروط اشترطوها ، وإلزامات كتبها عدو الدين على أهل الإسلام . فلما تحركوا لذلك أجدادنا ، وعزموا على ترك ديارهم وأموالهم ، ومفارقة أوطانهم للخروج من بينهم ، وجاز إلى هذه الديار التونسية ، والحضرة الخضراء بغتة من جاز إليها حينئذ ، ودخلوا في زقاق

الأندلس المعروف الآن بهذا الاسم ، وذلك سنة اثنين وتسعمائة ، وكذا للجزائر وتطاون وفاس ومراكش وغيرها ، ورأى العدو العزم فيهم لذلك ، نقض العهد ، فردهم رغم أنوفهم من سواحل البحر إلى ديارهم ، ومنعهم قهراً عن الخروج والحقول بإخوانهم ، وقرابتهم بديار الإسلام ، وقد كان العدو يظهر شيئاً ، ويفعل بهم شيئاً آخر ، مع أن المسلمين أجسادنا استنجدوا مراراً ملوك الإسلام ، كملك فاس ومصر حينئذ ، فلم يقع من أحدهما إلا بعض مراسلات ، ليقضى الله أمراً كان مفعولاً .

« ثم بقي العدو يحتال بالكفر عليهم غصباً ، فابتدأ يزيل لهم اللباس الإسلامي ، والجماعات ، والحمامات ، والمعاملات الإسلامية ، شيئاً فشيئاً ، مع شدة امتناعهم والقيام عليه مرار ، وقتلهم إياه ، إلى أن قضى الله سبحانه ما قد سبق من علمه ، فبقينا بين أظهرهم ، وعدو الدين يحرق بالنار من لاحت عليه إماراة الإسلام ، ويعذبه بأنواع العذاب ، فكم أحرقوا ، وكم عذبوا ، وكم نفوا من بلادهم ، وضيعوا من مسلم ، فلنا لله ولنا إليه راجعون ، حتى جاء النصر والفرج من عند الله سبحانه ، وحرك القلوب للهروب ، وكان ذلك سنة ثلاثة عشرة وألف ، فخرج منا بعض للمغرب ، وبعض للمشرق خفية ، مظهراً دين الكفار أبعدهم الله ، فخرج بعض أحبائنا وإخواننا وهو الفقيه الأجل محمد أبو العباس أحمد الحنفي ، المعروف بعبد العزيز القرشي ، ومعه أحد أخواله ، إلى مدينة بلغراد من عمالة القسطنطينية ، فالتقيا بالوزير مراد باشا وزير السلطان المعظم المرحوم السلطان أحمد بن السلطان محمد نجل آل عثمان نصرهم الله تعالى وأيدهم ، فأخبراه بما حل بإخواننا بالأندلس من الشدة بفرانسة وغيرها ، فكتب أمراً لصاحب فرانسة دمرها الله ، بإعلام السلطان نصره الله ، يأمره بأن يخرج من كان عنده من المسلمين بالأندلس ويخدم آل عثمان ، ويوجههم إليه في سفن من عنده مع ما يحتاجون إليه . فلما قرئ الأمر السلطاني في ديوان الفرنسيين ، فسمعه من كان عنده مرسلاً من قبل صاحب الجزيرة الخضراء ، وهو اللعين فيليبو الثالث ، فأرسل لسيده ، يخبره بالواقع ، وأن السلطان أحمد آل عثمان ، أرسل أمره إلى فرانسة ، وأمر صاحبها أن يخرج من كان عنده من الأندلس ، فقبل كلامه ، وأمر بإخراج المسلمين ، وأذن لمن جاء من الأندلس بأن لا بأس عليهم ، وأن يركبوا عنده في سواحله مراكبه ، ويبلغهم إلى حيث شاءوا من بلاد المسلمين . فلما أحس بهذا الأمر عدو الله فيليبو صاحب إسبانية ، دخله الرعب والخوف الشديد ، وأمر حينئذ فجمع أكابر

القسيسين والرهبان والبطارقة ، وطلب منهم الرأى ، وما يكون عليه العمل فى شأن المسلمين الذين هم ببلادهم كافة ، فبدأ الشأن فى أهل بلنسية ، فأخذوا الرأى ، وأجمعوا كلهم على إخراج المسلمين كافة من مملكته ، وأعطاهم السفن ، وكتب أوامر وشروطاً فى شأنهم ، وفى كيفية إخراجهم ، وشدد على عماله بالوصية ، والاستحفاظ على كافة المسلمين من الأندلس . نعم أريد أن أذكر لك نبذة يسيرة اختصرتها ، وترجمتها ، من جملة أسباب ذكرها الملك الكافر أبعد الله ، فى أوامره ، التى كتبها فى شأن إخواننا الأندلس حين إخراجهم من الجزيرة الخضراء ، لتكون على بصيرة من أمرهم ، وتعلم بعض الأسباب التى أخرجوا لأجلها على التحقيق ، لا كما يزعم بعض الحاسدين ، وليؤيد ما قدمناه آنفاً من أمر السلطان أحمد آل عثمان ، وتكمل الفائدة ، ولثلا يساء الظن بنا معشر الأندلس

« قال الملك الكافر ، أبعد الله تعالى وزلزه آمين : لما كانت السياسة السلطانية الحسنة الجيدة موجبة لإخراج من يكدر المعاش على كافة الرعية النصرانية ، فى مملكتها التى تعيش عيشاً رغداً صالحاً ، والتجربة أظهرت لنا عياناً ، أن الأندلس الذين هم متولدون من الذين كدروا مملكتنا فيما مضى ، بقيامهم علينا ، وقتلهم أكابر مملكتنا ، والقسيسين والرهبان الذين كانوا بين أظهرهم ، وقطعهم لحومهم ، وتمزيقهم أعضائهم ، وتعذيبهم إياهم بأنواع العذاب ، الذى لم يسمع فيما تقدم مثله ، مع عدم توبتهم فيما فعلوه ، وعدم رجوعهم رجوعاً صالحاً من قلوبهم ، لدين النصرانية ، وأنه لم ينفع فيهم وصايانا ، ورأينا عياناً أن كثيراً منهم قد أحرقوا بالنار ، لاستمرارهم على دين المسلمين ، وظهر منهم العناد بعيشهم فيه خفية ، واستنجادهم كذلك عون السلطان العثمانى ، لينصرهم علينا ، وظهر لى أن بينهم وبينه مراسلات إسلامية ، ومعاملات دينية ، وقد تيقنت ذلك من إخبارات صادقة وصلت لى . ومع هذا أن أحداً منهم لم يأت إلينا ليخبرنا بما هم يدبرونه فى هذه المدة بينهم ، وفيما سبق من السنين ، بل كتموه بينهم ، علمت بذلك أن كلهم قد اتفقوا على رأى واحد ، ودين واحد ، ونيتهم واحدة ، وظهر لى أيضاً ، ولأرباب العقول والمتدينين من القسيسين والرهبان والبطارقة الذين جمعهم لهذا الأمر واستشرت ، مع أن من إبقائهم بيننا ينشأ عنه فساد كبير ، وهول شديد بسلطنتنا ، وأن بإخراجهم من بيننا يصلح الفساد الناشئ من إبقائهم بمملكتي ، أردت إخراجهم من سلطنتنا جملة ، ليزول بذلك الكدر الواقع ، والمتوقع للنصارى

الدين هم رعيئنا ، طائعين لأوامرنا وديننا ، ورميتهم إلى بلاد المسلمين أمثالهم ،
لكونهم مسلمين . انتهى المزاود بأكثر لفظه ولم أتعرض لذكر شروط كتبها ودققها .
« فانظر رحمك الله ، كيف شهد علو الدين ، الملك الكافر ، بأنهم مسلمون ،
واعترف أنه لم يقدر على إزالة دينهم من قلوبهم ، وأنهم متمسكون كلهم به ،
مع أنه كان يحرق منهم من ظهر عليه الدين ، ثم وصفهم بالعناد لرؤيته فيهم لوائح
المسلمين وإماراتهم ، فأى علامة أكبر من صبرهم على النار لدين الحق ، ومن
استنجاههم ملك دين الإسلام المؤيد لحماية الدين ، أمير المسلمين السلطان أحمد
آل عثمان نصرهم الله تعالى ، فهذا غاية الخير والعز والبركة لهذه الطائفة الطاهرة
الأندلسية التي قال فيها شيخنا الأستاذ القطب الغوث سيدى أبو الغيث القشاش
نفعنا الله به دنيا وأخرى في بعض مكاتبه التي كان يكتبهم بها ، فقال لى وسلم على
هؤلاء الأنصار الأطهار الأخيار فإنه لا يحبكم إلا مؤمن ولا يبغضكم إلا منافق .
« فخرجوا كلهم سنة تسعة عشر وألف . ووجد في دفاتر السلطان الكافر ،
أبعده الله تعالى ، أن جملة من أخرج من أهل الأندلس كافة ، نيف وستائة ألف
نسمة ، كبيراً وصغيراً . فكانت هذه الواقعة ، منقبة عظيمة ، وفضيلة عجيبة ،
لجماعتنا الأندلس زادهم الله شرفاً بممه . وأمر أيضاً بإخراج من كان مسجوناً في
نكافة مملكته ، وكل من كان أمر بإحراقه فأخرجه ، وعفا عنه ، وزوده وأرسله
إلى بلاد الإسلام سالماً . ولا يخفى أن هذا أمر عظيم ، ومحال عادة ، فسبحان رب
السموات ورب الأرض الذى إذا أراد أمراً قال له كن فيكون . فيهاها من أعجوبة
ما أعظمها ، ومن فضيلة ما أشرفها ، ومن كرامة ما أجملها ، ومن نعمة ما أكبرها ،
فما سمع من أول الدنيا إلى آخرها مثل هذه الواقعة . »

* * *

وقد صدر قرار النقي كما قدمنا في ٢٢ سبتمبر سنة ١٦٠٩ هـ ، وهو يوافق جمادى
الثانية سنة ١٠١٨ هـ . ولكن الرواية الإسلامية تضع تاريخ القرار أحياناً في سنة
١٠١٦ هـ أو ١٠١٧ هـ ، وهو تحريف واضح . وأقرب إلى الصحة ، ما ذكره
ابن عبد الرفيق في روايته المتقدمة وهو سنة ١٠١٩ هـ (١٦١٠ م) .
قال المقرئ مؤرخ الأندلس ، وقد كان معاصراً للمأساة : « إلى أن كان إخراج
النصارى إياهم (أى العرب المنتصرين) بهذا العصر القريب أعوام سبعة عشرة وألف
فخرجت ألوف بفاس ، وألوف آخر بتلمسان من وهران ، وجمهورهم خرج بتونس

فتسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله تعالى في الطرقات ، ونهبوا أموالهم ، وهذا ببلاد تلمسان وفاس ، ونجا القليل من هذه المصرة . وأما الذين خرجوا بنواحي تونس ، فسلم أكثرهم ، وهم لهذا العهد عمروا قراها الحالية وبلادها ، وكذلك بتطاون وسلا وفيجة الجزائر . ولما استخدم سلطان المغرب الأقصى منهم عسكريا جراراً وسكنوا سلا ، كان منهم من الجهاد في البحر ، ماهو مشهور الآن . وحصنوا قلعة سلا وبنوا بها القصور والحمامات والدور ، وهم الآن بهذه الحال . ووصل جماعة إلى القسطنطينية العظمى ، وإلى مصر والشام وغيرها من بلاد الإسلام ، وهم لهذا العهد على ما وصفت ^(١) .

وقال ابن دينار التونسي ، وقد كتب بعد المأساة بنحو سبعين عاماً ، في أخبار سنة ١٠١٧ هـ : « وفي هذه السنة والتي تلتها ، جاءت الأندلس من بلاد النصرى ، نفاهم صاحب إسبانية ، وكانوا خلقاً كثيراً ، فأوسع لهم عثمان داي في البلاد ، وفرق ضعفاءهم على الناس ، وأذن لهم أن يعمروا حيث شاءوا ، فاشترى الهناشير وبنوا فيها ، واتسعوا في البلاد ، فعمرت بهم ، واستوطنوا في عدة أماكن ، وعمروا نحو عشرين بلداً ، وصارت لهم مدن عظيمة ، وغرسوا الكروم والزيتون والبساتين ، ومهدوا الطرقات ، وصاروا يعتبرون من أهل البلاد » ^(٢) .

وقال صاحب « الخلاصة النقية » ، وهو من الكتاب المتأخرين : « وفي سنة ست عشرة وألف ، قدمت الأمم الحالية من جزيرة الأندلس ، فأوسع لهم صاحب تونس عثمان داي كنفه ، وأباح لهم بناء القرى في مملكته ، فبنوا نحو العشرين قرية ، واغلب بهم أهل الحضرة ، وتعلموا حرفهم وقلدوا ترفهم » ^(٣) .

وهذه النصوص الموجزة ، هي كل ما تقدم إلينا الرواية الإسلامية عن نبي العرب المنتصرين ، وقد لبثت رواية المقرئ عن المأساة ، مصدراً لكل ما كتبه الكتاب المتأخرون ^(٤) . وربما كان هذا النقص راجعاً إلى أنه لم يعن أحد من كتاب المغرب المعاصرين ، باستيفاء التفاصيل الضافية المؤثرة عن المأساة ، أولعله قد ضاع ما كتبه المعاصرون عنها فيما ضاع ، مما كتب عن المراحل الأخيرة لتاريخ الأندلس

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٧ .

(٢) المؤنس في أخبار إفريقية وتونس (تونس) ص ١٩٣ .

(٣) الخلاصة النقية (تونس) ص ٩١ .

(٤) راجع الإستقصاء ج ٣ ص ١٠١ ، حيث تنقل هذه النصوص .

والعرب المنتصرين ، ولم تصلنا منه على يد المقرئ سوى لمحات يسيرة .
وهكذا بذلت اسبانيا كل ما وسعت لإخراج البقية الباقية ، من فلول الأمة
الأندلسية ، ولم تدخر وسيلة بشرية للقضاء على آثار الموريسكيين إلا اتخذتها .
ومع ذلك فإن آثار الموريسكيين لم تنقطع بعد النفي بصورة نهائية . فقد رأينا أن
كثيرين من المنفيين قد عادوا إلى اسبانيا ، فراراً مما لقوا في رحيلهم من ضروب
الإعتداء المفزع ، وأسلموا أنفسهم رقيقاً يقتنى . كذلك كانت ثمة جماعات من
الأسرى المسلمين ، من مغاربة وغيرهم ، ممن يؤخذون في المعارك البحرية مع
المغربين ، يباعون رقيقاً في اسبانيا ، ويفرض عليهم التنصير . ومع أنه صدر قرار
يحظر وجودهم في العاصمة الإسبانية ، فإنه كان من الصعب إخراجهم من المملكة ،
نظراً لما ترتب لأصحابهم عليهم من الحقوق ، وكان البعض منهم يفلح في ابتياع
حريته ، ويعيد حياة الموريسكيين سرّاً ، وأخيراً توجست الحكومة الإسبانية من
وجودهم ، فصدر في سنة ١٧١٢ قرار بنفيهم ، خلال المدد التي يحددها القضاة
المحليون ، وسمح لهم بأن يأخذوا معهم أسرهم وأموالهم إلى إفريقيا .

وقد كان من المستحيل بعد ذلك كله ، أن يبقى في البلاد أحد من الموريسكيين
أو سلالتهم ، وقد كانت ذكراهم أو أشبايحهم ، تثير حولها أيما توجس
وتعصب . وكان من المتعذر أن يفلت أحد منهم من بطش ديوان التحقيق ،
وكان الديوان المقدس أبداً على أهبة لضبط أية قضية ضد موريسكى مختلف
أو عبد متنصر ، لكن هذه القضايا كانت نادرة مما يدل على انقراض هذا العنصر
بمضى الزمن . بيد أن أسرى المعارك البحرية الذين كانوا يكرهون على التنصير ،
كان بعضهم ينبذ النصرانية خفية ، وكان معظم معظم هؤلاء من الموريسكيين الذين
عادوا إلى الإسلام ، وخرجوا إلى الجهاد في البحر ، وكان ديوان التحقيق طوال
القرن السابع عشر يجد بينهم فرائس من آن لآخر . وعلى الحملة فإن آثار
الموريسكيين والإسلام لم تعف نهائياً من اسبانيا ، وقد لبث كثير من الأسر والأفراد
الموريسكيين ، الذين اندمجوا في المجتمع الإسباني ، على صلاتهم الخفية بالماضي
البعيد ، وقد ضبظت خلال القرن الثامن عشر أمام محاكم التحقيق بعض قضايا
الموريسكيين ، كانوا يحجون شعائر الإسلام خفية ، وضبظت في سنة ١٧٦٩ مسجد
صغير في قرطاجنة ، أنشأه المنتصرون المحدثون ، مما يدل على أنه كانت ما تزال
ثمة آثار ضئيلة للموريسكيين والإسلام .

ولا تقدم إلينا محفوظات ديوان التحقيق منذ أواخر القرن الثامن عشر ، أى ذكر للموريسكيين ، أو الإسلام والمسلمين ، مما يدل على أن الآثار الأخيرة لمأساة الموريسكيين قد غاضت ، وأسبل عليها الزمن عفاءه إلى الأبد^(١) .

على أن يقال أخيراً إنه ما زالت ثمة إلى اليوم ، فى بلنسية وفى غرناطة ومقاطعة لا منشا ، جماعات من الإسبان تغلب عليها تقاليد الموريسكيين فى اللباس والعادات ، ويجهلون الطقوس النصرانية الخالصة^(٢) .

والحقيقة أنه يصعب على الباحث أن يعتقد أن اسبانيا النصرانية ، قد استطاعت حقاً بكل ما لحأت إليه من الوسائل المفرقة ، أن تقضى نهائياً على آثار الأمة العربية فإن تاريخ الحضارة يدلنا على أنه من المستحيل ، أن تبحث آثار السلالات البشرية ، خصوصاً متى لبثت آماداً متخلفة متداخلة ، وعلى أن حضارة أمة من الأمم إنما هى خلاصة لتفاعل الأجيال المتعاقبة ، وفى وسع مؤرخ الحضارة أن يلمس فى تكوين المجتمع الإسباني الحاضر ، ولاسيما فى الجنوب فى ولايات الأندلس القديمة ، وفى خصائصه وتقاليده ، وفى حياته الاجتماعية ، وفى حضارته على العموم ، كثيراً من الخلال والظواهر ، التى ترجع فى روحها إلى تراث العرب والحضارة الإسلامية^(٣) .

(١) Lea : The Moriscos p. 391 & 392

(٢) Lea : ibld ; p. 365

(٣) استطعت خلال رحلاتي الأندلسية المتوالية أن أتبين هذه الظاهرة ، وأن أشعر بها شعوراً قوياً ، ولاسيما فى غرناطة ، وقد تناولت مظاهرها المادية والأدبية فى فصل خاص فى كتابي « الآثار الأندلسية الباقية » الطبعة الثانية ص ٤٣٦ - ٤٤٤ .

الفصل الثالث

تأملات وتعليقات عن آثار المأساة

مأساة الموريسكيين وعلاقتها بانحطاط اسبانيا . آثار نفي الموريسكيين المحزنة . ركود الزراعة وخراب الضياع الكبيرة . تأثير محاكم التحقيق . ذبوع العملة الزائفة . تقرير مجلس الدولة عن الاضطراب الاقتصادي . تعليقات الدكتور لى . خطأ السياسة الإسبانية . آراء التفكير الإسباني . تأييد الأحرار لسياسة الإبادة . حملة دون لورنتى عليها . رأى الكردينال ريشليو . آراء المؤرخين الإسبان . مأساة النفي بين التأييد والإنكار . آراء لافونتى وخانير وبكاتوسى ومنديث إى بلايو . تعليقات النقد الحديث . أقوال الدكتور لى . أقوال العلامة سكوت . أقوال منديث بيدال . أقوال المستشرق كوندى . تعليق المستشرق لاين بول .

تلك هى قصة الموريسكيين أو العرب المنتصرين : قصة مؤسفة تفيض بألوان الإستشهاد المحزن ، ولكن تفيض فى نفس الوقت بصحف من الإباء والبسالة والجلد ، تخلق بأعظم وأنبل الشعوب . وقد لبثت السياسة البربرية التى اتبعتها اسبانيا النصرانية ، واتبعتها ديوان التحقيق الإسباني ، إزاء العرب المنتصرين على كرا العصور ، مثار الإنكار والسخط ، يدمغها المفكرون الغربيون ، والإسبان أنفسهم ، حتى يومنا بأقسى النعوت والأحكام .

ويرى النقد الحديث ، أن العمل على إبادة الموريسكيين ، كان ضربة شديدة لعظمة اسبانيا وريختها ؛ ولم تنهض اسبانيا قط من عواقب هذه السياسة الغاشمة . بل انحدرت منذ نفي الموريسكيين ، من أوج عظمتها التى سطعت فى عصر شارلكان وفيليب الثانى ، إلى غمرة التدهور والانحلال التى ما زالت تلازمها حتى عصرنا . بل ترجع عوامل هذا الانحلال ، إلى ما قبل مأساة الموريسكيين ببعيد ، أو بعبارة أخرى إلى السياسة التى اتبعتها اسبانيا النصرانية ، نحو الأمة الأندلسية ، منذ بداية عصر الغلبة والفتح ، فى أوائل القرن الثالث عشر . فقد كانت القواعد والولايات الإسلامية الزاهرة ، تسقط تباعاً فى يد اسبانيا النصرانية ، ولكنها كانت تفقد فى نفس الوقت أهميتها العمرانية والاقتصادية ، إذ كانت العناصر الإسلامية الذكية النشيطة من السكان ، تغادرها إلى القواعد الإسلامية الباقية ، فراراً من عسف

النصارى ، وتغادرها حاملة أموالها وفنونها وصنائعها ، تاركة وراءها الخراب والفقر والضيق الاقتصادي . واستمر سيل هذه الهجرة المخربة زهاء قرنين ، حتى سقطت غرناطة ، واحتشدت البقية الباقية من الأمة الأندلسية في المنطقة الجنوبية ، في بعض القواعد الأندلسية القديمة ، مثل بلنسية ومرسية ، وهاجرت قبل سقوط غرناطة وبعده ، جموع غفيرة من المسلمين إلى إفريقية ، واستحالت الأمة الأندلسية غير بعيد ، إلى شعب مهيض ممزق هو شعب الموريسكيين أو العرب المتنصرين . ومع ذلك فقد لبثت هذه الأقلية الأندلسية المضطهدة ، عاملاً خطيراً في اقتصاد اسبانيا القوي ، وفي ازدهار زراعتها وتجارها وفنونها وصناعاتها . وكان الموريسكيون يحملون الكثير من تراث الأمة المغلوبة ، وإلى نشاطهم ودأبهم ، يرجع ازدهار الضياع الكبيرة التي يملكها السادة الإقطاعيون . فلما اشتد بهم الإضطهاد والعسف ، وأخذت يد الإبادة تعمل لتمزيق طوائفهم ، وسمح نشاطهم وقتل مواهبهم ، ولما اتخذت اسبانيا النصرانية أخيراً خطواتها الحاسمة بإخراجهم ، كانت الضربة القاضية لرخاء اسبانيا ومواردها ، فانحط الإنتاج الزراعي الذي برع الموريسكيون فيه ، وخربت الضياع الكبيرة بفقد الأيدي الماهرة ، وكسدت التجارة التي كان الموريسكيون من أنشط عناصرها ، وركدت ريع الصناعة ، وعفت كثير من الصناعات التالدة التي كانوا أساتذتها ، وغاضت الفنون الرفيعة التي استأثروا بها منذ أيام الدولة الإسلامية . وأحدثت هذه العوامل بمضي الزمن نتائجها المخربة ، فتناقص عدد السكان ، وانكمشت المدن الكبيرة ، وذوى عمرانها ، وتضاءلت موارد الخزينة العامة ، وشلت جهود الإصلاح والتقدم ، ولم يمض على إخراج الموريسكيين زهاء قرن ، حتى أصبح سكان المملكة الإسبانية كلها ستة ملايين ، وكان سكان قشتالة وحدها أيام سقوط غرناطة سبعة ملايين ، وفقدت معظم المدن الكبرى مثل قرطبة وإشبيلية وطليلة وغرناطة أربعة أخماس سكانها ، وعم الفقر والخراب مئات المناطق والمدن ، ونجم على اسبانيا كلها جو من الفاقة والركود والانحلال .

وإذا كان النقد الحديث ، ينوه بخطورة السياسة التي اتبعتها اسبانيا ، في إبادة الأمة الأندلسية ونفي الموريسكيين ، كعامل قوى الأثر فيما أصاب اسبانيا من أسباب الدمار والبؤس والانحطاط ، التي لم تبرأ منها حتى عصرنا ، فإنه يعتمد في هذا الرأي على طائفة من النتائج المادية والأدبية ، التي ترتبت على « النفي » ، وحرمان اسبانيا من الثروات العقلية والفنية والصناعية ، التي كانت تتمتع بها الأمة الأندلسية .

وقد ظهرت هذه الآثار المخربة ، بالأخص في محيط الزراعة والصناعة ، وكان تدهور إيراد الضياع الكبيرة ، وإيراد الكنائس والأديار ، دليلاً على ما أصاب قوة إسبانيا المنتجة ، الزراعية والصناعية ، بسبب نفى طائفة كبيرة ، من أنشط طوائف السكان وأغزرهم إنتاجاً . وكان من الحقائق المعروفة أن السكان الإسبان ، كانوا يبخسون الأعمال الزراعية والفنية ، ويعتبرونها أمراً شائناً ، وأن الإسباني لا يرى أولاده لمزاولة العمل الشريف ، وأن أولئك الذين لا يجدون عملاً في الجيش أو الحكومة ، يلتحقون بالكنيسة . ويبدو المؤرخ الإسباني الكبير ناباريتي أسفه لوجود أربعة آلاف مدرسة في عصره (أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر) ، يتعلم فيها أبناء الفلاحين ، بينما تهجر الحقول ، ولأن أولئك الذين لا يجدون منهم عملاً في الكنيسة لنقص تعليمهم ، يحترفون التسول أو التشرّد أو السرقة . وقد كتب سفراء البندقية منذ القرن السادس عشر إلى حكومتهم ينوهون بهذه الحقائق ، ويصفون الإسبان بأنهم زراع وعمال كسالى ، يحترفون العمل اليدوى ، حتى أن ما يمكن عمله في البلاد الأخرى في شهر ، يعمله الإسبان في أربعة أشهر (١) .

ويردد الوزير محمد بن عبد الوهاب الغساني مفير سلطان المغرب مولاي اسماعيل إلى إسبانيا ، وقد زارها في سنة ١٦٩١ ، أعنى بعد النفي بثمانين عاماً ، عن الإسبان مثل هذا الرأي إذ يقول في رحلته :

« وبحصول هذه البلاد الهندية (يقصد أمريكا) ومنفعتها وكثرة الأموال التي تجلب منها ، صار هذا الجنس الإسباني اليوم أكثر النصارى مالا ، وأقوام مدخولا ، إلا أن الترف والحضارة غلبت عليهم ، فقلما تجد أحداً من هذا الجنس يتاجر أو يسافر للبلدان بقصد التجارة كعادة غيرهم من أجناس النصارى مثل الفلامنك والإنجليز والفرنسيين والجنوبيين وأمثالهم ، وكذلك الحرقة التي يتداولها السقطة والرعاى وأراذل القوم يتأبى عنها هذا الجنس ، ويرى لنفسه فضيلة على غيره من الأجناس المسيحيين » (٢) .

وقد كان النبلاء والأحبار ، وأصحاب الضياع الكبيرة بوجه عام ، يعتمدون في تعهد أراضيهم وفلاحتها ، على نشاط الموريسكيين وبراعتهم ، فلما وقع النفي

(١) Lea : The Moriscos ; p. 879 - 881

(٢) رحلة الوزير الغساني المسماة « رحلة الوزير في افتكاك الأمير » (المرائش ١٩٤٠)

بحمد النشاط الزراعى ، ونقلت معظم الضياع من الزراع ، وأقفر كثير من القرى ، وهدمت ضياع كثيرة لخلوها من السكان ، ولا سيما في منطقة بلنسية ، واضطر النبلاء إلى استقدام العمال الزراعيين من الجزائر الشرقية (البليار) وأنحاء البرنيه وقطلونية ، ومع ذلك فقد حدث نقص ملحوظ في غلات الضياع الكبيرة ، ولم ينتفع النبلاء بما أصابوه من الاستيلاء على الأراضي التي نزلت ، وتعذر عليهم تعميرها وفلاحتها ، وحق بهم الضيق حتى اضطر العرش إلى منح كثيرين منهم نفقات سنوية من خاصة أمواله ، هذا فضلا عما أصاب طوائف السكان الأخرى ، التي كانت تتصل بالموريكسين في المعاملات والتبادل ، من العسر والمضيق .

وكما انحط دخل الكنائس والأديار ، فكذلك خسر ديوان التحقيق شطراً كبيراً من دخله ، مما كان يصيبه من مصادرة أموال الموريكسين والحكم عليهم بالغرامات الفادحة ، واضطرت الحكومة أن تعول كثيراً من محاكم التحقيق ، التي أوشكت على الإفلاس ، من جراء اختفاء الجماعة التي كانت تزدهر بمطاردتها واستصفاء أموالها . وقد بيعت أملاك الموريكسين وأراضيهم بمبالغ كبيرة ، ولكن العرش استولى عليها ، ووزع معظمها على أصفياؤه من الوزراء والنبلاء والأحبار ، ولم ينل ديوان التحقيق سوى جزء يسير منها .

ويقدمون مثلاً ما أصاب اسبانيا من الخراب من جراء «النفي» ، هو مثل مدينة ثيوداد ريال (المدينة الملكية)^(١) عاصمة لامنشا ، فقد أسس هذه المدينة ألفونسو العالم في القرن الثالث عشر ، ومنح سكانها شروطاً حرة مغرية ، شجعت كثيراً من اليهود والمسلمين على النزوح إليها . وفي سنة ١٢٩٠م كان دافعوا الضرائب فيها من اليهود (٨٨٢٨) ، فلما أخرج اليهود منها في سنة ١٤٩٢ ، حل محلهم الموريكسيون من غرناطة ، ولما أخرج منها هؤلاء مع المدجنين القدماء ، خربت المدينة وعفا رنخاؤها وانحطت زراعتها ، وخربت صناعة النسيج التي أنشأها الموريكسيون فيها ، وهبط عدد سكانها في سنة ١٦٢١ إلى ٥٠٦٠ نفساً ونحو ألف أسرة فقط ، في حين أنها كانت تضم من السكان قبل «النفي» اثنتى عشرة ألف أسرة^(٢) .

وكان مما ترتب على نفي الموريكسين أيضاً ، ذبوع العملة الفضية الزائفة ، وقد تركوا وراءهم منها مقادير عظيمة ، وكانت لهم بصنعها براعة خاصة . وأحدث

(١) Ciudad Real

(٢) Lea : The Moriscos ; p. 372 - 384

ذيوخ النقد الزائف اضطراباً شديداً في المعاملات ، وحاولت الحكومة جمعه ، والمعاقبة على ترويجه بعقوبات رادعة بلغت حد الإعدام ، ولكنها لم تفلح في استئصال الشر ، واستمرت هذه الحركة أعواماً طويلة ، وعمد الإسبان بدورهم إلى التزييف ، وعوقب كثير منهم أمام محاكم التحقيق والمحاكم المدنية ، وحافى التجار والمتعاملون كثيراً من الضرر والإرهاق .

ولم تمض أعوام قلائل على نفي الموريسكيين ، حتى ظهرت هذه الآثار المخربة كلها في حياة المجتمع الإسباني بصورة مزعجة ، وهال العرش والحكومة ما أصاب الأمة من ضروب البؤس والخراب ، وطلب رئيس الحكومة الدوق دى ليرما في سنة ١٦١٨ ، إلى مجلس الدولة ، أن ينظر في هذا الأمر ، ويعمل على تحقيقه ومعالجته ، وقدم مجلس الدولة تقريره بعد عام ، وأشير فيه إلى خراب المدن والقرى ، ولكنه لم يشر إلى نفي الموريسكيين ، وإلى تكاثر عدد رجال الدين وتزييف العملة ، وبغض الشعب للعمل الشريف ، بل حاول أن يرجع الشر إلى فداحة الضرائب ، وإلى الترف الذي تعيش فيه الطبقات الممتازة ، وإسراف الملك في الإغداق على أصفياه ، وكذلك اهتم مجلس النواب (الكورتيس) بالأمر وقدم عنه تقريراً إلى الملك . ومع أن التقارير الحكومية التي وضعت عن هذه المحنة ، لم تشر إلى نفي الموريسكيين كعامل أساسي فيما أصاب إسبانيا من الخراب والفقر ، فقد كان في القرارات الملكية ما ينطق بهذه الحقيقة . ففي سنة ١٦٢٢ أصدر الملك فيليب الرابع ، قراراً بخفض الضرائب في بلنسية يشر فيه إلى هجرة السكان ، وإلى ما خسرت المدينة من ضروب الدخل ، التي كانت تجبي على ما يستهلكه الموريسكيون . وما خسره التجار من انقطاع التعامل معهم .

على أن جهود العرش والحكومة ، لم تجد شيئاً في تخفيف هذه الضائقة ، التي طافت بالمجتمع الإسباني ، وشملت سائر الطبقات سواء في الإنتاج أو الاستهلاك . ومضى وقت طويل قبل أن تستقر الأحوال نوعاً ، وتفيق الزراعة والصناعة والتجارة من الضربة التي أصابتها .

يقول الدكتور لى : « إنه لا يمكن لفريق من السكان ، كان يعتمد عليه مدى القرون ، في القيام بقسط عظيم من الإنتاج والتنظيمات المالية في البلاد ، أن يمزق فجأة وينبذ ، دون أن يبت ذلك الخراب الواسع ، ويثير معتركا من المشاكل يمتد أثرها إلى أجيال مرهقة » .

ثم ينعى على السياسة الإسبانية تخطيطها وقصر نظرها فيقول : « وإنه لمن خواص السياسة الإسبانية في ذلك العصر ، أنه لم يفكر أحد في هذه الشئون ، ولم يحتط لها أحد في المباحثات الطويلة ، التي جرت في قضية الموريسكيين . وقد حدثت ثمة مناقشات لا نهاية لها حول مختلف المشاريع ومزاياها ، والوسائل التي ينفذ بها النقي ، وماذا يسمح به للمنفقين ، وماذا يكون مصير الأطفال . ولكن النتائج المحتملة تركت للمصادفة ، واحتقرت التفاصيل العملية ، واحتقر رخاء الفرد ، وهو ما يوضح فشل السياسة الإسبانية » (١) .

تلك هي النتائج المادية الواضحة ، الإقتصادية والاجتماعية ، التي جنتها اسبانيا النصرانية من جراء سياستها المبيتة لإبادة الأمة الأندلسية . فقد لبثت اسبانيا زهاء قرن ، تعمل بأقصى وسائل الإرهاب والمطاردة ، على استصفاء ما بقي من فلول الأمة الأندلسية ، في الأرض التي بسطت عليها زهاء ثمانية قرون ، ظلال الرخاء والأمن ، وضوء العلم والعرفان ، ولم تنطق حتى بعد أن استحالت هذه الفلول ، إلى شراذم معذبة مهينة ، وأكرهت على نبذ دينها ولغتها وتقاليدها ، أن تبقى عليها ، وعلى ماتبقى لها من مواهب وقوى منتجة ، ورأت في سبيل أسطورة من التعصب والجهالة ، أن تقضي عليها بالتشريد والنفي النهائي ، وأن تخرج من بين سكانها زهاء نصف مايون من أفضل العناصر العاملة . وكان من سوء طالع اسبانيا أن جاء نفي الموريسكيين ، في وقت أخذت فيه عظمة اسبانيا ورنخاؤها ، ينحدران سراعاً إلى الحضيض ، وجنح المجتمع الإسباني إلى حياة الدعة والحمول ، وأخذ سكانها في التدهور ، فجاء نفي الموريسكيين ضربة جديدة لحيوية اسبانيا ، التي أخذت في التفكك والذبول ، وتركت وراءها جرحاً عميقاً لم يقو الزمن على محو آثاره بصورة حاسمة . ومن ثم فإنه من الواضح أن يعلق النقد الحديث أهمية بالغة على نفي الموريسكيين ، ويعتبره عاملاً بعيد المدى فيما أصاب اسبانيا الحديثة ، من ضروب التفكك والانحلال .

على أن التفكير الإسباني يختلف في قبول هذا الرأي وتقدير مداه ؛ ويهاجمه وينكره بالأخص رجال الدين ، وقد كانوا منذ البداية روح هذه السياسة المخربة ، وأكبر العاملين على تنفيذها . وقد استقبل رجال الدين نفي الموريسكيين بأعظم مظاهر الغبطة والرضى ، واعتبروه ذروة النصر الديني ؛ ويقول أحدهم وهو القس بليدا وهو من مؤرخي القرن الماضي ، في كتابه الذي نشره دفاعاً عن هذا الإجراء :

« بأن عصر اسبانيا الذهبي بدأ بذهاب الموريسكيين ، وان اسبانيا قد حققت به وحدتها الدينية ، وأنقذت من مشاغلها الداخلية ، وأن النفي كان أعظم حادث بعد بعث المسيح ، واعتناق اسبانيا للنصرانية »^(١). ويقول حبر آخر : « لقد زعم الموريسكيون أن رخاء اسبانيا قد ذهب مذ أكرهوا على التنصير ، ولكن الرخاء قد عم بنعيمهم ، وازدهرت التجارة ، وساد الأمن في الداخل والخارج »^(٢). ويقول الحبر بثنى دى لافونتي في تاريخه الديني ، إنه من السخرية أن يقال إن نبي الموريسكيين كان سبباً في انحطاط اسبانيا ، فإن أمة قد تفقد مائة وخمسين ألفاً في وباء أو حرب أهلية . ثم يتساءل في تهكم لماذا ينحى على فيليب الثالث بمثل هذا اللوم ؟ على أنه يعترف مع ذلك بأن النفي كان سبباً في تدهور دخل الأشراف والكنائس^(٣).

ويرى آخرون من الأحرار أن اسبانيا قد دفعت بالنفي ثمناً باهظاً ، ولكن تحملهم نزعة فلسفية فيقولون إن وفرة الرخاء تذهب بالفضائل ، وإنه لا بأس من التقشف مع الإيمان ، وإن الفقراء استطاعوا بعد إجلاء الموريسكيين أن يجدوا أعمالاً^(٤).

ولكن حبراً ومؤرخاً اسبانياً كبيراً ، هو دون لورنتى مؤرخ ديوان التحقيق ، يحدثنا عن وسائل الديوان ونبي الموريسكيين في قوله : « كانت هذه الوسائل بقسوتها الشائنة ، تدكى روح الموريسكيين من تلك المحكمة الدموية ، وكانوا بدلاً من التعلق بالنصرانية ، وهو ما كانت تؤدي إليه معاملتهم بشيء من الإنسانية ، يزدادون مقتاً لدين لم تحملهم على اعتناقه سوى القوة ، وكان هذا سبب الإضطرابات التي أدت في سنة ١٦٠٩ إلى نفي هذا الشعب ، وعدده يبلغ المليون يومئذ ، وهي خسارة فادحة لاسبانيا تضاف إلى خسائرها الفادحة ، ففي مائة وتسع وثلاثين سنة انتزع ديوان التحقيق من اسبانيا ثلاثة ملايين ، ما بين يهود ومسلمين وموريسكيين »^(٥).

ويقول الكردينال ريشليو الفرنسي ، وهو من أعظم أحرار الكنيسة في مذكراته وكان معاصراً للمأساة : « إنها أشد ما سجلت صحف الإنسانية جرأة ووحشية ».

* * *

Bleda : Defensio fidel in Causa Neophylorum aive Morischorum in (١)

Hispania

Lea : The Moriscos ; p. 366 (٢)

Lea : ibid, p. 394 & 396 (٣)

Lea : ibid, p. 367 (٤)

Llorente : Historia Crítica de la Inquisición de España (1815-1817) (٥)

هذا عن الأخبار . وأما عن آراء البحث الإسباني الحديث ، فإنها تختلف في تقدير آثار نبي الموريسكيين اختلافاً بيناً ، بيد أنها تميل على الأغلب إلى الاعتراف بفداحة الآثار المخربة التي أصابت اسبانيا من جرائه ، وإلى اعتباره عاملاً قوياً في تدهور اسبانيا وانحلالها . بيد أنها مع ذلك تحاول الاعتذار عن النبي ، ويرى البعض أنه كان إجراء طبيعياً ، وضرورة لا محيص منها ، وينكر البعض الآخر أنه كان كارثة أو أنه ترتبت عليه آثار مخربة . وقد رأينا أن نورد هنا طائفة من آراء عدة من أكابر المؤرخين والمفكرين الإسبان المحدثين ، وأن نورد لها بدقة وإفاضة تسميحاً بفهم الروح الإسبانية ، إزاء هذا الحدث التاريخي الخطير ، وتقديرها على حقيقتها .

يقول دانقيلا إي كوليدو :

« وهكذا تحقق نبي الموريسكيين الإسبان ، بغض النظر عن كونهم شبانا أو شيوخاً ، صالحين ، أو عقماء ، مذنبين أو أبرياء . وكانت مسألة الوحدة السياسية تحمل في ثنتها ضرورة الوحدة الدينية ، وضع خطتها الملكان الكاثوليكيان ، وحاول تحقيقها الإمبراطور كارلوس الخامس (شارلكان) وفيليب الثاني ، ولكنهما ارتدداً خشيّة من عواقبها . أما فيليب الثالث ، فكان يزاوّل سلطانه عن يد أصفياه ، ولذا ألغى سلطة العرش الدينية والسياسية ، أيسر وأهون . وكانت الحرب الدينية تضطرم ضد الجنس الأندلسي ، وقد ألقت عواطف الروح الرقيقة نفسها ، وجهاً لوجه أمام المسألة السياسية . ودخلت الإنسانية والدين في صراع وخرج الدين ظافراً وفقدت اسبانيا أنشط أبنائها ، وانتزع الأبناء من حجور أمهاتهم وحنان آبائهم ، ولم يلق الموريسكي أية رافة أو رحمة . ولكن الوحدة الدينية بدت ساطعة رائعة في سماء اسبانيا ، واغتنبت الأمة إذ أضحت واحدة في جميع مشاعرها العظيمة .

« كان الموريسكيون شديدي المراس . وكان الوطن ينشد وحدة معنوية ، تغدو متممة للوحدة السياسية ، التي تحققت باندماج سائر العروش في شبه الجزيرة ، وكان عنصر تناقض قوى ، كالذي تمثله طائفة الموريسكيين ، لا يكون فقط عقبة شديدة يصعب تذليلها ، ولكنه كان استحالة مطلقة ، تحول دون تحقيق الغاية ، التي تتجه إليها الحركة العامة للفكر القومي . وكانت الصعوبة كلها تجتم في الدين . ولم تكن اللغة التي تبدو خاصة قومية أخرى ، تكون يومئذ أو في أي وقت عقبة بمثل هذه الخطورة ، ففي شمال اسبانيا ، وفي شرقها ، توجد اللهجات المختلفة ، من الحليقية والقطلونية والميورقية والبلنسية وغيرها . وكذلك يوجد مثل هذا

التباين في النظم القضائية ، والثياب والعادات الخاصة بكل منطقة ، ولكن ذلك لم يكن عقبة كأداء في سبيل وحدة الدين ، والروح القومية ، ولم يخلق مثل المعضلة الدائمة ، التي خلقها الدين بالنسبة للموريسكيين ، والتي جعلتهم في حالة دائمة من التربص والتوجس . إن ما بذله كارلوس الخامس وفيليب الثاني ، لإخضاع الموريسكيين للنصرانية ، مما لا يمكن وصفه ، ولكن بجهودهم كلها ذهبت عبثاً . ذلك أنه بعد ثلاثة قرون من الخضوع ، لبث الموريسكيون في عصر فيليب الثالث ، يضطرمون بنفس الروح المتمردة ، التي كانت لأسلافهم الذين أخضعوا بالسيف ، وقد ارتضوا حالتهم كمحنة مؤقتة عابرة ، ولم يندبوا الأمل قط ، ولم يتركوا قط الوسائل التي يعتقدون أنها تمكنهم ذات يوم من الأخذ بالثأر ، واسترداد استقلالهم وسيادتهم .

ثم يقول : « وإنها لخرافة أن يقال إن الموريسكيين كانوا عنصراً مفيداً في إنتاج اسبانيا ، ولو أنهم كذلك لحملوا الرخاء إلى بلاد المغرب حيث ذهبوا » (١) . ويقول المؤرخ الكبير مودستو لافونتي ، وسرى أنه يذهب في الصراحة وتقدير الحقائق المنزهة إلى أبعد حد :

« وعلى أي حال فإن مراسيم فيليب الثالث الشهيرة ضد الموريسكيين ، قد جردت اسبانيا - وقد كانت يومئذ جرد مقفرة من السكان بسبب الإدارة السيئة والحروب المستمرة - من طائفة كبيرة من السكان ، أو بعبارة أخرى من السكان الزراعيين والتجارين والصناعيين ، من السكان المنتجين ، أولئك الذين يساهمون بأكثر قسط في الضرائب . وكان أقل ما في ذلك تسرب الملايين من الدوقيات ، التي حملتها الطائفة المنفية معها ، في الوقت التي كانت فيه المملكة تعاني من قلة النقد ، فكان نقص الذهب القجائي على هذا النحو أشد وطأة عليها . وكذلك وقع ضرر أفدح بذيوع النقد الزائف أو المنقوص ، الذي روجه المنفيون بسوء قصد قبل رحيلهم . وأسوأ ما في ذلك كله ، هو أنه فقد برحيلهم العنصر العامل الدكي المتمرس في الفنون النافعة . وهم قد بدأوا بالزراعة ، وزراعة السكر والقطن والحبوب ، التي كان لهم في إنتاجها التفوق الخم ، وذلك لنظامهم المدهش في الري بواسطة السواقي والقنوات ، وتوزيع المياه بواسطة هذه الشرايين توزيعاً مناسباً ،

M. Danvila y Collado : La Expulsión de los Moriscos Españoles. (١)

(Madrid 1889) p. 320-22

كان له أثره في الإنتاج العظيم الذي امتازت به مروج بلنسية وغرناطة ؛ ثم تابعوا بنسج الأصواف والحرائر ، وصنع الورق والجلود المدبوغة ، وهي صناعات برع الموريسكيون فيها أما براعة ، وانتهوا بمزاولة الحرف الميكانيكية ، وهي حرف كان الإسبان لكسلهم وتكبرهم يحتقرونها ، ومن ثم فقد احتكرها الموريكيون واختصوها بها . وقد عانى كل شيء من نقص في السواعد وفي البراعة ، وهو نقص جعلت المفاجأة من المستحيل تداركه ، ثم غدا بعد ذلك ملوّه مهبطاً بطيئاً صعباً .

« ويقول نفس المؤرخ البلنسي الذي شهد النفي ، وكتب عقب إتمامه ، إنه ترتب على ذلك أن بلنسية ، وهي حديقة اسبانيا الغناء ، استحالت إلى قفر جاف موحش . وحدث هنالك كما حدث في قشتالة ، وفي باقي البلاد ، أن بدا شبح الجوع الداهم ؛ وبالرغم من أنه قد جرى بسكان جدد إلى الأماكن التي هجرها الموريسكيون ، لكي يتدربوا على العمل في الحقول والمصانع والمعامل ، إلى جانب أولئك القلائل الذين ارتضوا البقاء (وهو اعتراف مخجل بلاريب) . على أن مثل هذا التمرن لم يوث نتائج سريعة ، والتدرب والدأب ليسا من الفضائل التي ترتجل ، ولم يكن من السهل أن يعوض مثل هذا الجنس من البشر ، وهو الذي استطاع بعبقريته ، ومركزه الخاص في البلاد ، ووفرة براعته ، وجلده ، أن يحقق ما يشبه قهر الطبيعة ، واستغلالها لسائر مبتكراته . وهكذا حل مكان ضجيج القرى ، الصمت الموحش في الأماكن المهجورة ، وبدلاً من السيل المستمر من العمال والصناع في الطرق ، حل خطر لقاء الأشرار الذين يذرعونها ، ويحشمون في أطلال القرى المهجورة . وإذا كان ثمة بعض السادة الإقطاعيين قد غنموا من تراث المنفيين ، فقد كان عدد الذين خسروا أعظم بكثير ، وبلغ الأمر بالبعض أن طلبوا نفقات للطعام . أما الذين غنموا ، فقد كانوا بلاشك هم الدوق دي ليرما وأسرته وقد استولوا على نصيب مما تحصل من بيع منازل الموريسكيين .

« ومن ثم فقد اعتبر نفى الموريسكيين من الناحية الاقتصادية ، بالنسبة إلى اسبانيا أفدح إجراء مخرب ممكن تصوره . ولأنه لم يكن أن نغض الطرف عن المبالغة التي دفعت بأحد الساسة الأجانب ، وهو الكردينال ريشليو ، أن يسميه « أعرق إجراء في المرأة والبربرية مما عرفه التاريخ في أي عصر سابق » والحق أن الصدد الذي أصاب ثروة اسبانيا العامة من جرائه ، كان من الفداحة بحيث أنه ليس من المبالغة أن نقول إنه لم يبرأ حتى عصرنا .

« فأما من الناحية الدينية ، فقد كان هذا الإجراء ، ثمرة الأفكار التي سادت في اسبانيا قبل ذلك بقرون ، وثمره البغض التقليدي المتأصل ، الذي يكنه الشعب لغالييه وأعدائه الألداء القدماء . وليس مما يمكن إنكاره ، أنه كان مؤيداً لفكرة الوحدة الدينية ، التي دأب على العمل لتحقيقها وإكمالها الملوك الإسبان والشعب الإسباني . بيد أننا لا نعتقد أنه كان من البراعة (ما عدا اعتباره صراعاً مقررأ هو من خصائص العصور الوسطى) أن نصل إلى الوحدة الدينية بطريق إفناء أولئك الذين يعتنقون عقائد أخرى . وقد كانت البراعة أن نعمل على اجتذاب المخالفين المعاندين ، بالتعاليم والإقناع ، والحزم ، والرفق ، وتفوق الحضارة .

وأما كونه إجراء سياسياً ، قصد به إلى تحقيق سلامة الدولة وسلامها ، فقد كان ممكناً أن نبرر اتخاذه لو كانت المؤامرات حقيقية وخطيرة ، وكانت الخطة شنيعة ، وكانت الوسائل قوية ، والخطر داهياً ، وذلك كما افترض الوزير المقرب ، والأسقف ريبيرا والنصحاء الآخرون . أجل لم يك ثمة شك في أنه كانت هنالك مكاتبات وعلاقات ومشاريع معادية لإسبانيا ، بين بعض المورييسكيين البلنسيين وبين المغاربة والترك ، بل بينهم وبين بعض الفرنسيين . بيد أننا لم نقتنع بأن هذه الخطة كانت من الحسامة والخطر بمثل ما كان يصورها أنصار النفي ، ولم نقتنع بأن النصارى المحدثين في بلنسية كان لهم من القوة ما يمكن أن يثير مخاوف ذات شأن ، كما أنه لم يكن ثمة ما يثير المخاوف من جانب المورييسكيين في أراجون وفي مرسية ، مثلاً زعمت الوفود التي أتت من هذين الإقليمين ، وكذلك لم يكن المورييسكيون في قشتالة يعرفون التآمر أو يقدرّون عليه . وعلى أي حال فإنه متى ذكرنا ، أننا بعد مضي أكثر من قرن على قهر المورييسكيين وإخضاعهم لقوانين المملكة ، وتفريقهم ومزجهم بالإسبان والنصارى ، لم نوفق إلى تأليفهم في العادات والعقائد ، أو أن ندمج بقية الأمة المغلوبة في الكتلة الكبرى للأمة الغالبة ، ولم نوفق إلى جعلهم نصارى واسبانيين ، ثم لحأنا بلا ضرورة إلى وسيلة إفناء جيل برمته ، متى ذكرنا ذلك فلنا لا نستطيع أن ننظر بعطف إلى مهارة فيليب الثالث والملوك الذين سبقوه ، ولا إلى حزمهم أو سياستهم ،^(١) .

ويقول فلورثيو خانير ، وهو يحذر حذو لافونتي في تقديره وتعليقه ، وينقل بعض أقواله :

« ومع ذلك ، فإنه لمصلحة الدين ، والسلام الداخلى ، وسلامة الدولة ، قد وقع الإغضاء عن المزايا التى كان يسبغها الموريكيون على الصناعة والتجارة والزراعة ، بل وعلى ثروة الأمة الإسبانية كلها ، وذلك حينما أخرج بواسطة مراسيم فيليب الثالث ، آلاف من الصناع الموريكيين ، يحملون معهم بذور الحضارة والحرف . وقد قال كامبومانس الشهير : « إن بدء تدهور صناعاتنا يرجع إلى سنة ١٦٠٩ ، حينما بدئ بنفى الموريكيين . فمن ذلك الحين ، تبدأ مع خراب المصانع صيحات الأمة المتوالية ، وعبثاً يحاول ساستنا أن ينسبوا بوثن القرن السابع عشر ، إلى أسباب أخرى ، فهى وإن كانت جزئية ، لا يمكن أن تضارع ضربة بهذه المفاجأة ، وهى ضربة لم تستطيع الأمة حتى اليوم أن تنهض من عثارها . »

ولقد أحدثت مزاولة العرب للمهن الفنية فى الإسبان أثرين سيئين ، الأول أنهم اعتبروا هذه المهن من الأمور الشائنة ، والثانى أنهم لم يتعلموا شيئاً منها حتى لا يتشبهوا بأولئك الذين يزاولونها . وهم قد بدأوا بالزراعة وزراعة السكر والقطن والحبوب ، التى كان للموريكيين فى إنتاجها التفوق الجم ، وذلك لنظامهم المدهش فى الرى بواسطة السواقي والقنوات ، وتوزيع المياه بواسطة هذه الشرايين توزيعاً مناسباً ، كان له أثره فى الإنتاج العظيم الذى امتازت به مروج بلنسية وغرناطة الخصبية ، ثم تابعوا بنسج الأصواف والحرائر ، وصنع الورق والجلود المدبوغة ، وهى صناعات برع فيها الموريكيون أعما براعة ، وانتهوا بمزاولة الحرف الميكانيكية وهى حرف كان الإسبان لكسلهم وتكبرهم يحتقرون مزاولتها ، ومن ثم فقد كان للموريكيون يحتكرونها ، وقد وقع من جراء ذلك نقص فى الأيدى وفى المهارة كان من المستحيل ملؤه فى الحال ، ثم غدا بعد ذلك ملؤه مبهماً بطيئاً صعباً . وقد بلغ النقص فى الأنفس ، وفقاً للدراسات التى قمنا بها لنتائج الحادث ، على الأقل نحو مليون . ثم يأتى بعد ذلك نقص العملة الذهبية ، بسبب الكميات الكبيرة التى حملوها معهم من الدوقيات ، وأخيراً يأتى ذبوع النقد الزائف أو ناقص الوزن ، وهو الذى ملثوا به المملكة قبل نزوحهم منها ، على أن الضرر الفادح الذى لم يعوض لسنين بعيدة ، هو بلا ريب ما أصاب الزراعة والصناعة والتجارة .

« ومن ثم فى وسعنا أن نقول عن بلادنا بحق ، إن بلاد العرب السعيدة ، قد استحوالت إلى بلاد العرب الفقراء ، وعن بلنسية بوجه خاص ، إن حديقته إسبانيا الغناء قد استحوالت إلى صحراء جافة مشوهة . وقد حل شبح الجوع بالاختصار

في كل مكان ، وحل مكان المرح الصاحب للقرى العامرة ، الصمت الموحش في الأمكنة المهجورة ؛ وبدلاً من أن ترى أمامك العمال والصناع ، فإنك تغامر بأن تقابل قطاع الطرق يملأونها ويحشون في أطلال القرى المهجورة . ولئن كان ثمة فريق من السادة الملاك الذين أفادوا من تراث المنفيين ، فقد كان ثمة عدد أكبر بكثير ممن خسروا ، وانتهى بعضهم إلى الموقف المؤلم ، بأن يلتمسوا من الحكومة نفقة لإطعامهم ، ولم يك بينهم أحد قط ممن غنم كما غنم الدوق دي ليرما وأسرته ، وقد استولوا على جزء من أثمان بيع منازل الموريسكيين ، بلغ نحو خمسة ملايين ونصف ريال .

« وإذا فقد كان نبي الموريسكيين من الناحية الإقتصادية ، يعتبر بالنسبة إلى إسبانيا ، أفدح إجراء مخرب يمكن تصوره . وإنه يمكن أن نتسامح في المبالغة التي يصفه بها سياسي أجنبي هو الكردينال ريشليو ، حيث يصفه بأنه « أعرق إجراء في الجراحة والبربرية مما عرفه التاريخ في أي عصر سابق » . والحق أن الصديق الذي منيت به ثروة إسبانيا العامة من جرائه ، كان من الفداحة بحيث أنه ليس من المبالغة أن نقول إنه لم يبرأ حتى يومنا (١) . بيد أن خاير مع ذلك يقول إن النبي كان ضرورة دينية وسياسية ، وإن الوحدة الدينية ، تغدو اليوم أسطح جوهرة للأمة الإسبانية .

ويعلق المؤرخ الإجتماعي بكاتوستي ، في الفصل الذي عقده عن « بؤس إسبانيا العام » في كتابه عن « عظمة إسبانيا وانحلالها » على نبي الموريسكيين بما يأتي :

« كان نبي الموريسكيين من أفدح المصائب التي نزلت بإسبانيا . أجل لقد وجد أيام الملكين الكاثوليكين بعض المتعصبين الذين كانوا يقترحون هذا النبي ويعملون له . ولكنهم وجدوا عقبة كأداة في معارضة الملكة إيسابيلا . وفي سنة ١٥٢٩ ، بذل أسقف إشبيلية ، جهوداً مضاعفة في هذا السبيل ، وكذا طوال حكم فيليب الثاني ، كان هذا الموضوع يثار من وقت إلى آخر . ولكن أمكن فقط في عصر فيليب الثالث المحزن ، أن يرتكب هذا الخطأ الفادح .

« والمسئولية الكبرى التي تقع على عاتق هذا الملك ، وعلى نصحاؤه وأسلافه ، تتلخص في أنهم لم يحموا مصالح الموريسكيين المادية ، فيمهدوا تلك الطائفة العاملة ، سبل الحياة المستقرة الهادئة ؛ ولم يكن لهم من القوة أو الكياسة أو الحزم ما يمكنهم

من إخضاع هذه الطائفة المتمردة ، التي عاشت في اسبانيا في أوقات ، كانت فيها الأحقاد في أوج اضطرامها بين الغالبين والمغلوبين ؟

« ولقد أثار الإسراف في فرض الضرائب ونخس الأعمال ، والاضطهاد الديني ، ومساوئ ديوان التحقيق ، هذه الأرواح التي قابلت حكومة ضعيفة التدبير ، حتى أنه أضحى من المحتوم أن يتخذ هذا الإجراء الشاذ المتطرف .

« إن المؤرخين والساسة الذين دافعوا عن نبي الموريسكيين ، بعضهم للدفاع عن أخطاء هذه المدرسة ، وبعضهم لكي يشيد بالعمل الرائع ، إنما يدافعون عن أمور سيئة ، أو يرغبون في أن يضعوا السياسة والسلطة فوق رأس الأمة ، وهم في تبرير مثل هذا الإجراء ، لم يراعوا إلا ضرورة الساعة . وإذا فرضنا جدلاً ضرورته السياسية باسم السلام والسكينة العامة ، وهي التي اتخذت لتبرير كثير من الأخطاء ، بل وكثير من الجرائم ، فإننا لانستطيع أن ننسى أن هذا الموقف المحزن ، قد خلقت أخطاء السلطة التي واجهت تلك المشكلة القاسية ، ورأت أن تقصى الموريسكيين عن اسبانيا ، لأنها شعرت أنها عاجزة عن إخماد ثوراتهم المستمرة . إن فقد هذه السواعد في الأعمال الزراعية ، وفي كثير من الفنون والأعمال ، والازدراء الذي كان الإسبان يضمرونه لهذه الطائفة ولنشاطها ، والسرعة التي وقعت بها هذه الخسارة ، وعدم تحوط الحكومة ، التي لم تحاول بأية وسيلة أن تعوض عن نشاطها ، وزيادة الضرائب وغيرها من المغارم ، التي أضحى عبوها يقع فقط على عاتق الشعب الإسباني ، لكي يعوض ذلك ما خسرت الدولة مما كان يؤديه الموريكيون : هذه ربما كانت الأسباب السريعة للبؤس العام .

ولقد قام بعض المؤرخين ببحوث مدهشة لتقدير عدد المنفيين ، ونحن لا نجاريهم في ذلك ، إذ يبدو لنا العدد أمراً لا أهمية له . وسواء أكان المنفيون كثرة أو قلة ، فقد كانوا هم الوحيدون الذين يعملون ، وقد أحدث خروجهم من المملكة اضطراباً خطيراً .

يمثل هذه العوامل ، وصل البؤس الداخلي في المملكة إلى حد لا يمكن تصوره ، ولا تمكن مقارنته ، هذا بينما كان البلاط يغرق في الحفلات الشائقة ، وينسب لفيليب الثالث ما كان يمكن صدوره من فيليب الثاني أو كارلوس الخامس^(١) .

D. Felipe Picatosti : Estudios sobre la Grandeza y Decadencia de (١)

Espana. (Madrid 1887). p. 101 & 102

ويرى العلامة منتديث إى بلايو ، وهو من أعظم المفكرين ، والنقطة الإسبانية المحدثين ، أن نفي الموريسكيين كان نتيجة محتومة لسير التاريخ ، ويشرح رأيه فى كتابه عن « الحوارج الإسباني » على النحو الآتى :

« ولنقل الآن رأينا فى مسألة النفى بكل وضوح وإخلاص ، وذلك بالرغم من أنه يستطيع أن يتكهن به من تتبع القصة السابقة ، بروية وبلا تحيز ، ولن أتردد فى الجهر به ، وإن كان من المؤسف أن يكون ثمة ما أخر إبداءه . فهل كان من الممكن أن يقوم الدين الإسلامى بيننا فى القرن السادس عشر؟ من الواضح أن لا ، بل ولا يمكن أن يكون ذلك الآن فى أى جزء من أوربا . فكيف يستسيغ وجوده فى تركيا أولئك الإنسانىون الأجانب الذين يصفوننا بالبربرية لأننا قمنا بإجراء النفى؟ وإنهم لأسوأ مائة مرة من المسلمين الخالص ، مهما كان دينهم هائق لكل تمدن ، أولئك النصارى المنافقون ، والمرتدون والمارقون ، الذين لم يحسن إخضاعهم وأولئك الإسبان الأوغاد ، الأعداء الداخليون ، خيرة كل غزو أجنبي ، الجنس الذى لا يقبل الاندماج ، كما أثبتت ذلك التجارب المحزنة مدى قرن ونصف . فهل يعتبر ذلك تبريراً لأولئك الذين مزقوا عهود غرناطة ، أولئك الثوار الذين أضرموا الهياج فى بانسية ونصروا الموريسكيين بصورة منافية للدين ؟ كلا على الإطلاق . بيد أنه وقد سارت الأمور منذ البداية على هذا النحو ، فإنه لم يكن من الممكن أن تكون ثمة نتيجة أخرى ، فقد كانت الأحقاد والشكوك المتبادلة ، تضطرم باستمرار بين النصارى القدامى والمحدثين ، وقد لطخت بقاع البشرات بالدماء غير مرة ، وفقد الأمل فى تحقيق التنصير بالوسائل السلمية ، وذلك بالرغم من تسامح ديوان التحقيق ، والغيرة الطيبة التى أبداهها رجال مثل تلافيرا ، وفيلانيشا ، ورييرا ، وإذا فلم يك ثمة محيص من النفى . وأكرر أن فيليب الثانى قد أخطأ فى كونه لم ينفذه فى الوقت المناسب . وإنه لمن الحق أن نعتقد أن الصراع من أجل البقاء والمعارك ، والمذابح بين الأجناس ، تنهى بصورة أخرى غير النفى أو القضاء . ذلك أن الجنس الأدنى ينهار دائماً ، ويفوز بالنصر مبدأ القومية الأقوى .

وأما إن النفى كان حدثاً مقوضاً ، فهذا ما لا ننكره ، فإنه من المقرر أنه فى العالم يمتزج الخير والشر دائماً . وخسارة مليون بأسره من الناس ، لم تكن هى السبب الأساسى فى إقفار بلادنا من السكان ، وإن كان لها أثر فى ذلك . وبعد فإن ذلك يجب ألا يعد إلا كإحدى قطرات الماء فى بجانب نفى اليهود ، واستعمار أمريكا ،

والحروب الخارجية في مائة مكان معاً ، وعدد الجند النظاميين الضخم ، وهي أسباب نوه بها كلها بإيجاز اقتصاديوننا القدامى ، ومنهم من لم يتردد كالخبر فرناندث ناباريتي في نقد نبي الموريسكيين بعد وقوعه بأعوام قليلة . وما كانت بل وليست الأجزاء المقفرة من السكان في إسبانيا ، هي التي تركها العرب ، كما أنها ليست أسوأها زراعة ، وهو ما يدل على أن الخسارة التي لحقت بالزراعة ، من جراء نبي كبار الزراع المسلمين ، لم تكن عميقة أو باقية الأثر ، كما قد يتبادر إلى الذهن ، لو أننا وقفنا فقط عند عويل أولئك الذين تأملوا الحقول المحدبة غداة تنفيذ أوامر النفي . ونحن أبعد من أن نعتقد مع الشاعر الساذج الشيوعي نوعاً جسبار دي أجيلار ، أنه لم يخسر بالنفي سوى السادة الذين فقدوا أتباعهم المسلمين ، وأن الكثرة من الناس قد غنمت ، وغدا :

الأغنياء فقراء ، والفقراء أغنياء

والصغار كباراً ، والكبار صغاراً

ذلك أن مثل هذه النظريات ، وإن أملاها الإخلاص والحماسة الشعبية ، اللذان يضطرم بهما الشاعر ، ليست إلا من أسخف وأضل ضروب الاقتصاد السياسي . ذلك أن مملكة بلنسية كلها كان لازماً أن تخسر ، وقد خسرت برحيل مثل هذا العدد الجرم من عمال مهرة هادئين مثابرين ، وقد كانوا حسبما يصفهم السكرتير فرنسيسكو إدياكيث « يكفون وحدهم لإحداث الحصب والرخاء في سائر الأرض ، لبراعتهم في الزراعة ، وقناعتهم في الطعام » . هذا بينما يصف هذا السكرتير النصراني القدماء بقوله « إنهم قليلو الخبرة في الزراعة » . على أنه من الحق أنهم تعلموا ، وأن بلنسية قد عمرت فيما بعد ، وأن سائر الطرق الزراعية ونظم الري البديعة ، التي ربما كان من الخطأ أن تنسب إلى العرب وحدهم ، قد أحييت في هذه المناطق حتى أيامنا .

وإذا كان تدهور الزراعة مما لا ينكر ، ولعله مبالغ فيه ، فإن تأثير الصناعة كان أقل . ذلك لأن الصناعة كانت قبل ذلك بنصف قرن قد أصيبت باضمحلال واضح ، وكذلك لأن الصناعات الرئيسية ، إذا استثنينا الورق والحديد ، لم تكن في أيدي الموريسكيين ، وقد كانوا دائماً عمالاً أكثر منهم صناعاً . فإذا قيل مثلاً إن المناسج التي بلغ عددها من قبل في إشبيلية ستة عشر ألفاً ، لم يبق منها في عهد فيليب الخامس سوى ثلاثمائة ، ونسب ذلك كله إلى واقعة النفي ، فإن أصحاب هذا

القول ينسون أنه لم يكن في إشبيلية أحد من الموريسكيين ، وأن هذه المصانع كانت قد تركت قبل النفي بخمسين عاماً ، كأنما أثر أجدادنا أن يحققوا الثراء بالحرب في إيطاليا وبلاد الفلاندر ، وبغزو أمريكا ، وكأنهم كانوا ينتظرون باحتقار سخيف مؤسف للفنون والأعمال الصناعية . إن اكتشاف العالم الجديد ، والثروات التي كانت تتدفق من هنالك ، فتشير الحشع ، وتذكى أطماعاً يسهل تحقيقها : ذلك هو السبب الحقيقي الذي أسكت مناسجنا وأحمل زراعتنا ، وجعل منا أول طائفة من المغامرين المحظوظين ، ثم بعد ذلك شعباً من الأشراف المتسولين ، وإنه لمن المضحك أن ننسب إلى سبب واحد ، ربما كان أقل الأسباب ، ما كان نتيجة لأخطاء اقتصادية يعسر علينا أن نتبين علاقتها بالتعصب الديني .

والخلاصة أنه متى تدبرنا المزايا والمضار ، فإننا ننظر إلى إجراء النفي العظيم ، بنفس الحماسة التي امتدحه بها لوبي دي فيجا وثرقانتس ، وكل اسبانيا في القرن السابع عشر ، باعتباره ظفراً لوحدة الجنس ووحدة الدين واللغة ، والتقاليد . أما الأضرار المادية فقد شفاها الزمن ، وقد استحال ما كان صحراء بلقع قائمة ، إلى مهاد خصبة وحدائق غناء . وأما الذي لا يشفى ، وأما الذي يترك دائماً الأحقاد الدموية الأبدية ، فهي جرائم تشبه جرائم الوندال . ولما هدأت آثار النفي ، أضحى النفي ليس فقط إجراء محموداً ، بل كذلك إجراء ضرورياً . لم يكن ميسوراً أن تحل العقدة ، فكان لابد من قطعها ، ومثل هذه النتائج تقترن دائماً بالانقلابات المفروضة ^(١) .

ويعلق العلامة الدكتور لي ، وهو من أحدث الباحثين في هذا الموضوع على آراء المفكرين والمؤرخين الإسبان بقوله : « إذا كان نفي الموريسكيين كما يقول منديث إى بلايو ، نتيجة محتومة لقانون تاريخي ، وإذا كان قد غدا ضرورة في عهد فيليب الثالث ، فقد كانت ضرورة مصطنعة ، خلقتها تعصب القرن السادس عشر ، وإذا كان وجود المدجنين ، منذ أيام ملوك ليون وقشتالة وأراجون في الأراضي الإسبانية ، من الأمور المأمونة ، وذلك في الوقت الذي كان فيه زعماء اسبانيا النصرانية يشغلون بحروب أهلية مضطربة ، ويواجهون دول العرب والمرابطين والموحدين القوية ، وإذا كان في وسع الملوك النصراني في هذه العصور

المضطربة ، أن يركنوا إلى ولاء رعاياهم المسلمين أثناء الحرب ، وأن يفيدوا من نشاطهم أثناء السلم ، فإن الضرورة السياسية للوحدة الدينية ، بعد أن غدت اسبانيا دولة قوية موحدة ، وغدا المسلمون طوائف ممزقة ، لم تكن بلا ريب سوى ضرب من الخيال المغرق الذى يخافه التعصب . وقد كان هذا التعصب ، نتيجة لتعاليم الكنيسة المستمرة ، وهى التعاليم التى اعتنقتها اسبانيا مذ غدت قوة عالمية . وما أن انحدرت اسبانيا إلى طريق التعصب ، حتى دفعه توقة المزاج الإسباني إلى نهايته المحتومة باكتمال لا نظير له . ولما قضت غطرسة الكردينال خمينس العنيفة ، على ثقة المسلمين فى عدالة اسبانيا وشرفها ، اتخذت الخطوة المحتومة فى طريق لم تكن له سوى نهاية واحدة ... ولقد كان الموريسكيون بالضرورة أعداء فى الداخل ، حملوا بكل وسيلة على بغض دين فرض عليهم بالقوة ، وتبلورت مثله فى الظلم والاضطهاد وفضائح ديوان التحقيق ، وكان من المستحيل فى ظل المؤثرات الدينية ، التى غلبت على السياسة الإسبانية ، أن يعامل الموريسكيون بالرفق والتسامح ، وبهما فقط يمكن العمل على إرضائهم ، وتحقيق رخصتهم ، وبث محبة النصرانية فى قلوبهم . وقد كانت كل محاولة لتلطيف الموقف ، تزيد سوءاً حتى غدوا إغراء دائماً لاتصال كل عدو من الخارج ، ومثاراً دائماً لجزع السياسة الإسبانية . فلما اضمحلت قوة اسبانيا ، وفقدت حكماتها الثقة بالنفس ، لم يكن ثمة بد من أن يتوج قرن من الغدر والظلم ، بالنفى والإبعاد . وقلما يقدم لنا التاريخ مثلاً ، كوفئت فيه السيئة بأمثالها ، وطمت كوارثه ، كذلك الذى ترتب على جهود الكردينال خمينس بما يطبعها من تعصب مضطرم .

ثم يقول : « على أنه مهما كان من فداحة الضربة ، فقد كان الميسور تداركها بسرعة لو أن اسبانيا كانت تملك الحيوية القوية ، التى مكنت أمتاً أخرى من أن تنهض من كوارث أشد . إن انحلال اسبانيا لا يرجع فقط إلى خسارتها لجزء من السكان ، بنفى اليهود والعرب المنتصرين ، فقد كان من المستطاع أن تعوض هذه الخسارة ، ولكن الخطب يرجع إلى أن اليهود والعرب المنتصرين كانوا من الناحية الاقتصادية أقيم عنصر بين سكانها ، وكان نشاطهم معيناً لحياة الآخرين ، وبينما كانت أمم أوروبا الأخرى تنهض وتسير إلى الأمام فى مضمار التقدم ، كانت اسبانيا وشعارها أن تضحى كل شئ فى سبيل الوحدة الدينية ، تنحدر سراعاً إلى غمر البؤس والشقاء ، وتغدو جنة للأجبار والقساوسة ، وعمال ديوان التحقيق ، تحمد

فيها كل نزعة إلى الرقي العقلي ، وتقطع فيها كل صلة مع العالم الخارجي ، ويشل فيها كل جهد يبذل في سبيل التقدم المادي . وقد كان من العبث أن تنهمر ثروات العالم الحديد ، إلى أيدي شعب لا تقل مواهبه الطبيعية عن أي شعب آخر ، وإلى أرض كانت مواردها عظيمة ؛ مثلما كانت حينما جعلتها براعة العرب ونشاطهم في طليعة الأمم الأوربية ازدهاراً . ومهما كانت قيمة الخدمات التي أدتها إيسابيلا الكاثوليكية والكردينال خميس ، فإن السيئ في عملهما يفوق الحسن ، لأنهما علما الأمة أن الوحدة الدينية هي أول غاية يجب تحقيقها ، وقد ضحت في سبيل هذه الغاية برخائها المادي ورقبها العقلي»^(١) .

وأخيراً يحمل الدكتور لي خلاصة بحثه المستفيض في مأساة الموريسكيين في هذه العبارة الموجزة القوية ؛ « إن تاريخ الموريسكيين لا يتضمن فقط مأساة تثير أبلغ عطف ، ولكنه أيضاً خلاصة لجميع الأخطاء والأهواء ، التي اتحدت لتتحد بأسبانيا في زهاء قرن ، من عظمها أيام شارل الخامس إلى ذلتها في عصر كارلوس الثاني»^(٢) .

ويقول العلامة سكوت : « لقد كانت نتائج هذه الجريمة التي ارتكبت ضد الحضارة ، سواء البعيد منها والمباشر ، ضربة لاسبانيا . فقد عصفت بموارد عيشها ، ودفع بها القمح إلى الخراب ، وأضحى من الضرورة أن تمد الحكومة يد الغوث إلى كثير من الأسر النبيلة ، التي أودى بثرواتها تصرف العرش الانتحاري ، ونخم الصمت والوجوم على مناطق شاسعة ، كان يغمرها الخصب الأخضر ، وظهر اللصوص والخوارج على القانون مكان الزراعة والصناع ، وحل الجزاء المروع عقب مأساة لم تقدم على مثلها لحسن الطالع أية أمة أخرى ، مأساة أنزلت منذ وقوعها بالأمة التي ارتكبت فظائعها ، كل صنوف الدمار والويل حتى الجيل الأخير»^(٣) . ويمكن أن نلخص رأي النقاد الإسباني المعاصر فيما سمعته من العلامة الأستاذ مننديث بيدال ، أعظم المؤرخين والنقادة الإسبان في عصرنا ، فقد حدثته وأنا مدريد عن قضية الموريسكيين ونفيهم ، فأدلى لي بالآراء الآتية :

« لا ريب أن اسبانيا قد منيت من جراء نفي الموريسكيين بخسارة مادية لأنها

Dr. Lea : The Moriscos ; p. 395 - 397 & 399 - 401 (١)

Lea : The Moriscos, p V. (٢)

Scott : The Moorish Empire in Europe ; V. III. p. 328 (٣)

نحسرت بإخراجهم شعباً مجداً عاملاً بارعاً في الزراعة والصناعة ، ولكن الواقع أن حركة الانقلاب البروتستانتي حلت اسبانيا على أن تتبع من جانبها سياسة كاثوليكية شديدة ، وكان من جراء ذلك أن اشتدت في معاملة الموريسكيين ، ويمكن أن نصف هذه السياسة بأنها كانت عنيفة مغرقة .

ولم يكن نبي الموريسكيين خطوة موفقة ، وكان أيضاً من آثار الحركة الرجعية الكاثوليكية . وما كان ملك قوى مثل فيليب الثاني ليقدم على اتخاذ مثل هذه الخطوة ، ولكن ولده فيليب الثالث كان ملكاً ضعيفاً يعوزه الذكاء والحصافة . وقد غلبت السياسة الدينية والكنسية في هذه المسألة . ويبدو خطأ هذه السياسة بالأخص من الناحية العنصرية ، فإن العلامة روبرا يعتقد مثلاً أن الموريسكيين كان نصفهم على الأقل من الإسبان الخالص الذين اعتنقوا الإسلام في عهود مختلفة ، ثم أرغموا على التنصير بعد سقوط غرناطة وصاروا موريسكيين .

ويسلم الأستاذ بيدال بأن نبي الموريسكيين كان من عوامل انحلال اسبانيا ، ولكنه يرى من المبالغة أن يقال إنه السبب الرئيسي لهذا الانحلال . ثم يقول : « الواقع أن هذه مسألة معقدة ، وأعتقد أن من أهم أسباب انحلال اسبانيا ، عنف السياسة الكنسية المناهضة لحركة الإصلاح الديني — البروتستانتية — وهو عنف لم يقع مثله في أي بلد أوروبي آخر بل انفردت به اسبانيا والكنيسة الإسبانية » .

ويبدى دى مارليس الذي اتخذ مؤلف كوندى أساساً لكتابه عن « تاريخ دولة المسلمين في اسبانيا والبرتغال » حماسة في تقدير تراث الأمة الأندلسية وما أصاب اسبانيا من جراء القضاء عليها ، ويعلق في خاتمة تاريخه على مأساة الموريسكيين في تلك العبارات الشعرية المؤثرة :

« وهكذا اختفى من الأرض الإسبانية إلى الأبد ذلك الشعب الباسل اليقظ الذكي المستنير ، الذي أحى بهيمته وجدده تلك الأراضي ، التي أسلمتها كبرياء القوط الحاملة إلى الجذب ، قدر عليها الرخاء والفيض ، واحتفر لها عديد القنوات ، ذلك الشعب الذي أحاطت شجاعته الفياضة في السعود والشدائد معاً ، عرش الخلفاء بسياج من البأس ، والذي أقامت عبقريته بالمران والتقدم والدرس ، في مدنه صرحاً خالداً من الأنوار ، التي كان ضوؤها المنبعث ينير أوربا ، ويبث فيها شغف العلم والعرفان ، والذي كان روحه الشهم يطبع كل أعماله بطابع لا نظير له من العظمة والنبيل ، ويسبغ عليه في نظر الخلف ، لوناً غامضاً من العظمة الحارقة ، ودهاناً سحرياً

من البطولة ، يذكرنا بعصور هوميروس السحرية ، ويقدم لنا فيهم أنصاف آلهة اليونان ، ولكن شيئاً لا يدوم في هذا العالم . فإن هذا الشعب قاهر القوط ، الذي كان يبدو أنه صائر خلال القرون ، إلى أقصى الأجيال ، قد ذهب ذهاب الأشباح ، وعبثاً يسائل اليوم السائح الفريد ، قفار الأندلس الحزنة ، التي كان يعمرها من قبل شعب غني منعم . ظهر العرب فجأة في اسبانيا ، كالقبس الذي يشق عباب الهواء بضوئه ، وينشر لهبه في جنبات الأفق ، ثم يغض سريعاً في عالم العدم ، ظهوراً في اسبانيا فملأوها فجأة بنشاطهم وثمار براعتهم ، وأظلمها كوكب من المجد شملها من البرنيه إلى صحرة طارق ، ومن المحيط إلى شواطئ برشلونة . ولكن هوى يضطرم إلى الحرية والاستقلال ، وخلقاً متقلباً يميل إلى الخفة والمرح ، ونسيان الفضائل القديمة ، وميل نكد إلى التمرد والثورة ، يثيره دائماً خيال ملتهب ، وشهوات وأطماع عنيفة ، ونزعة إلى التغلب وغيرها ، من عوامل الاضمحلال ، قد عملت شيئاً فشيئاً ، على هدم ذلك الصرح العتيق ، الذي شاده رجال كطارق وعبد الرحمن الناصر ومحمد بن الأحمر ، وأفضت بالعرب إلى خلافات داخلية ، فلت من بأسهم وحملتهم إلى هاوية الفناء .

خرج ملايين العرب من اسبانيا ، حاملين أموالهم وفنونهم ، ثروات الدولة ، فماذا أنشأ الإسبان مكانهم ؟ لا نستطيع أن نجيب بشيء ، إلا أن حزننا خالداً يغمر هذه الأرض ، التي كانت من قبل تتنفس فيها أبهج الطبايع . أن ثمة بعض الآثار المشوهة ما زالت تقوم في هذه البقاع الموحشة ، ولكن صرخة حقيقية تدوى من أعماق هذه الأطلال الدارسة : الشرف والمجد العربي المغلوب ، والانحلال والبؤس للإسباني الظافر (١) .

ويقول الأستاذ لاين پول في مقدمة كتابه عن « العرب في اسبانيا » : « لبثت اسبانيا في يد المسلمين ثمانية قرون ، وضوء حضارتها الزاهرة يهرأوربا ، وازدهرت بقاعها الحصبة بمجهود الفاتحين ، وأنشئت المدائن العظيمة في سهول الوادي الكبير ، فلم يبق ثمة ما يذكرنا بماضيها المجيد ، سوى الأسماء والأسماء فقط — وتقدمت بها الآداب والعلوم والفنون ، دون سائر الأمم الأوروبية ، ولم تثمر وتكتمل زهرة العلوم

الرياضية والفلكية والنباتية ، والتاريخ والفلسفة والتشريع ، إلا في اسبانيا المسلمة ، فكل ما يدعو إلى عظمة أمة وسعادتها ، وكل ما يؤدي إلى رقي باهر وحضارة سامية ، فاز به مسلمو اسبانيا .

ثم ذوت عظمة اسبانيا بسقوط غرناطة . وقد سطعت لمدى قصير أشعة من ضوء الحضارة العربية ، فوق الأرض التي كان ينعشها بحرارته . ثم تضاءلت عظمة عصور فرديناند وإيسابيلا ، وشارل الخامس ، وفيليب الثاني ، وكلومبوس وكورتيس وبيثارو ، تموت بموتها دولة عظيمة . ثم خفقت أعلام الخراب بسيادة ديوان التحقيق وسادت اسبانيا بعد ذلك ظلمة خالكة ، فأصبح لا يعرف الأطباء بأرض كانت علومها منيرة إلا بالجهل والقصور ... وقضى على فنون إشبيلية وطليلة وألمرية وعفت صناعاتها ، وسممت المعاهد العامة حتى تزول بزوالها آثار الإسلام ، وخربت المدائن الكبيرة ، وذوت نضرة الوديان الحصبة ، فحل البؤساء والدماء والاصوص مكان الطلاب والتجار والفرسان : ذلك مبلغ انحطاط اسبانيا بعد إقصائها للعرب ، وهكذا يبدو البون شاسعاً بين أدوار تاريخها ^(١).

الكتاب الخامس
نظم الحكم
والحياة الاجتماعية والفكرية
في مملكة غرناطة

الفضل الأول

نظم الحكم في مملكة غرناطة

وخواصها الاجتماعية

مكانة الحضارة الأندلسية . ذوياً عقب انهيار الخلافة . انتعاشها أيام الطوائف . ركودها أيام المرابطين وانتعاشها أيام الموحدين . بنو زهر . ابن ميمون وابن رشد . الإضطهاد الفكري أيام الموحدين . الآداب والفنون في هذا العهد . مملكة غرناطة وخواصها الطبيعية . دولة بني الأحمر أو الدولة النصرية . شعارها الحكم المطلق . الوزراء الطغاة . أخطار هذا النظام . حمية الشعب الغرناطي . مناصب الحكم الرئيسية . الوزارة . خواصها ومهامها . قيادة الجيوش . الجيش والأسطول . قاضي الجماعة أو قاضي القضاة . الحسبة . صاحب الشرطة . إقليم غرناطة ومواردها . تقدم الري والزراعة . غرس الحدائق . بسائط غرناطة . الصناعات الأندلسية . التجارة الخارجية . الموارد السلطانية . الضرائب . تكوين الأمة الأندلسية . أحوال المجتمع الأندلسي . الفروسة الأندلسية .

تعرض لنا الحضارة الأندلسية ، صفحة من أجل وأروع صحف الحضارة الإسلامية ، والحضارة الإنسانية ، بصفة عامة . وقد نشأت حضارة الإسلام في الأندلس في بيئة وظروف خاصة ، واكتسبت بفعل المؤثرات التاريخية والإقليمية والاجتماعية ، لونها الخاص ومميزاتها الخاصة .

وتحتل قصة الحضارة الأندلسية ، في تاريخ الحضارات الأوروبية مكانة رفيعة ، وتملاً فراغاً كبيراً . ولكنها لم تنل مع الأسف مكانها من الرعاية والدرس في المصادر الإسلامية ، ولم تكتب حتى اليوم كتابة شافية . وأغلب ما كتب عنها في مصادرنا ، شذور ونبد متفرقة غير متناسقة ، وتراجع لأعلام التفكير والأدب لم يعن فيها بدراسة الجوانب الهامة . وإنه لمن الإسراف أن نقول ، إننا نستطيع أن نستعرض هذه القصة الباهرة المتعددة التواحي ، في فصل أو فصول ، من سفر يخص لكتابة تاريخ المراحل الأخيرة ، من حياة الأمة الأندلسية . على أننا سوف نحاول مع ذلك أن نستعرض صور الحضارة الأندلسية في ظل مملكة غرناطة ، استكمالاً لموضوعنا ، وأن نلقى بذلك شيئاً من الضياء على النظم والأحوال ، التي عاشت في ظلها الأمة الأندلسية في مراحلها الأخيرة ، وما انتهت إليه في ميدان التفكير والآداب والفنون .

وكما أن مصادرنا الإسلامية في هذا القسم من تاريخ الأندلس قليلة ضئيلة ، فهي كذلك بالنسبة لصور الحضارة الأندلسية ، وقد هلكت معظم الآثار والوثائق الأندلسية المتعلقة بهذا العصر ، كما رأينا على يد الإسبان ، ولم يسعفنا في ذلك سوى بعض الآثار القليلة الباقية ، التي نجت من المحنة ، ولا سيما آثار ابن الخطيب ، وما نقله إلينا المقرئ عن آثار ووثائق ضاعت ، وكان له فضل إيصالها إلينا .

* * *

وإذا كان تاريخ الأندلس السياسي ، يقدم إلينا صورته المتأينة ، من الإضطرام والركود ، والقوة والضعف ، فكذا شأن الحضارة الأندلسية . فقد وصلت في ظل الخلافة الأموية في عهد عبد الرحمن الناصر وولده الحكم المستنصر ، حينما وصلت الدولة الإسلامية إلى أوج سلطانها السياسي ، إلى ذروة القوة والبهاء ، وإن لم تصل يومئذ إلى ذروة نضجها الفكري . ولما انهارت الخلافة الأموية ، واضمحلت النظم السياسية والاجتماعية ، وسادت الثورة والفوضى أرجاء الأندلس ، وهلكت معظم الآثار العمرانية والفكرية في غمر الفتنة ، ذوت الحضارة الأندلسية مدى حين ، حتى قامت دول الطوائف فوق أنقاض الدولة الأموية ، واستطاعت بالرغم من صغرها ، وتنافسها وتطاحنها في ميدان الحرب ، أن تعيد لمحة من بهاء الدولة الإسلامية ، وسطعت آيات الحضارة الأندلسية في قصورها ومنشآتها ، وفي مجتمعاتها ، وأينعت في ظلها دولة التفكير والأدب ، وعرفت الأندلس في هذه الحقبة المضطربة من تاريخها ، طائفة من أعظم مفكرينها وأدبائها وشعرائها ، مثل الفيلسوف ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٤ م) وابن محيان أعظم مؤرخي الأندلس ، وقد توفى سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م) ، وتلميذه الحميدى المتوفى سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) . ومن الأدباء والشعراء ، ابن زيدون المتوفى سنة ٤٦٢ هـ (١٠٦٩ م) ، وابن عبدون المتوفى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) وعشرات آخريين من الكتاب والشعراء ، يقدمهم إلينا الفتح بن خاقان في مؤلفه « قلائد العقيان » . بل لقد كان ملوك الطوائف أنفسهم في طليعة العلماء والأدباء والشعراء ، مثل الأمير العالم عمر بن الأفطس صاحب بطليوس ، والشاعرين الكبيرين ، المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية ، والمعتصم بن صمادح صاحب ألمرية^(١) . ولكن

(١) توفى ابن الأفطس قتيلا بيد المرابطين سنة ٤٨٨ هـ ؛ وتوفى ابن عباد في الأسر بالمغرب في شوال سنة ٤٨٨ هـ ؛ وتوفى المعتصم بن صمادح في سنة ٤٨٤ هـ .

سرعان ما انكمشت هذه النهضة الفكرية والأدبية الزاهرة ، عقب مصرع دول الطوائف ، واستيلاء المرابطين على الأندلس في سنة ٤٨٤ هـ (١٩٠١ م) . وكان أولئك البربر الصحراويون قوماً غلاظاً ، يوثرون مهاد الجندية والحشونة ، وتغلب عليهم الأفكار الرجعية العتيقة ، لم تأخذهم مظاهر الحضارة الأندلسية المصقولة ، ولم تكن — إذا استثنينا العلوم الدينية — تهزهم أصداء الشعر والآداب الرفيعة ، اللهم إلا ما كان من حشدهم لبعض أكابر الكتاب الأندلسيين في البلاط المرابطي ، ليكونوا ترجماناً للدولة . وحتى العلوم الدينية كانت تدرس في ظلهم في إطار خاص يغلب فيه علم الفروع على الأصول ، ومن ثم فقد طوردت في ظلهم — فضلاً عن الكتب الفلسفية والعلمية — كتب الأصول المشرقية ، وفي مقدمتها كتب الغزالي . وترتب على ذلك أن ركدت في ظلهم دولة التفكير والأدب وذوى بهاء الحضارة الأندلسية . أجل ، سطعت في ظل دولتهم القصيرة الأمد ، في ميدان التفكير الأندلسي ، جمهرة من الشخصيات اللامعة من حفاظ وكتاب وشعراء ، وعلماء ، مثل الحافظ ابن الجحد الفهرى المتوفى سنة ٥١٥ هـ (١١٢١ م) ، وأبو عبد الله بن أبي الحصل المتوفى سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٥ م) ، وأبو بكر الصيرفي المتوفى سنة ٥٧٠ هـ (١١٧٤ م) . وأبو بكر الطرطوشي الفيلسوف السياسي المتوفى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) ، صاحب كتاب « سراج الملوك » ، والفتح ابن خاقان المتوفى سنة ٥٣٥ هـ (١١٤٠ م) ، وابن بسام الشنتيريني صاحب « الذخيرة » المتوفى سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م) ، وابن قزمان أمير الزجل الأندلسي المتوفى سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) ، ومن العلماء أبو القاسم خلف بن عباس القرطبي الطبيب الأشهر المتوفى سنة ٥١٩ هـ (١١٢٢ م) ، وابن باجة الطبيب الفيلسوف المتوفى سنة ٥٣٣ هـ (١١٣٨ م) — وهو المعروف باللاتينية باسم Avempace . ولكن ظهور هؤلاء وأضرابهم في هذه الفترة ، لم يكن إلا أثراً من آثار النهضة الفكرية والأدبية في ظل دول الطوائف (١) .

وفي ظل دولة الموحدين ، التي خلفت دولة المرابطين في حكم الأندلس ، انتعشت الحضارة الأندلسية والتفكير الأندلسي . وقد نشأ الموحدون كالمرابطين في مهاد الحشونة والتقشف ، ولكنهم كانوا أوسع أفقاً ، وأكثر قبولاً لثمار التمدن .

(١) تناولنا سير الحركة الفكرية الأندلسية خلال العهد المرابطي بتفصيل واف في كتابنا « عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس » (القسم الأول) ص ٤٣٨ — ٤٧٤ .

وكان لدولتهم بالأخص صبغة علمية دينية ، إذ كان مؤسسها المهدي ابن تومرت ، من أئمة التفكير الديني . وأبدى خلفاؤه عبد المؤمن وبنوه اهتماماً بالعلوم والفنون ، وأطلقت حرية التفكير والبحث ، وكانت قد صعدت في عهد المرابطين ، وأفرج عن كتب الغزالي وغيره من مفكرى المشرق ، وكانت قد طوردت ومنعت في أيامهم بالمغرب والأندلس . وفي تلك الفترة بالذات أعنى في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجرى ، بلغ التفكير الأندلسى ذروة النضج ، وتفجرت ينابيع النبوغ ، وظهرت طائفة من أعظم أقطاب العلم والأدب . وكان في طليعة أقطاب العلم في هذا العصر ، بنو زهر الإشبيليون ، وعميدهم الوزير والطبيب الأشهر أبو العلاء زهر ابن عبد الملك بن زهر ، ثم ولده أبو مروان عبد الملك بن زهر المتوفى سنة ٥٥٧ هـ (١١٦١ م) ، وهو المعروف باللاتينية باسم Avenzoar . ويعتبر ابن زهر أعظم طبيب ومشخص في العصور الوسطى بعد أبى بكر الرازى ، ويعتبره ابن رشد أعظم طبيب بعد جالينوس ، ويعتبر كتابه « التيسير » من أعظم مراجع الطب في العصور الوسطى ، وكان لمؤلفاته التى ترجمت كغيرها إلى اللاتينية في عصر مبكر ، أثر عظيم في سير البحوث الطبية في أوروبا ، وخلفه في مهنته ولده الطبيب الأشهر أبو بكر بن زهر ، وحظى لدى حكومة الموحدين ، وتوفى سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٨ م) . وظهر إلى جانب هؤلاء عدة من أقطاب الفلاسفة ، مثل أبى بكر ابن طفيل الوادى آشى ، المتوفى سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) ، وهو صاحب رسالة حى بن يقظان الشهيرة ، والإمام الفيلسوف أبى الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي ، المتوفى سنة ٥٩٤ هـ (١١٩٨ م) . والرئيس موسى بن ميمون اليهودى القرطبي ، المتوفى سنة ٦٠٢ هـ (١٢٠٥ م) .

وفي حياة ابن ميمون وابن رشد بالأخص ، ما يمثل لنا طرفاً من سياسة الموحدين تجاه التفكير ، وترددها بين التسامح والاضطهاد . فقد كان ابن ميمون من أعظم الأطباء والفلاسفة في عصره ، ولكنه اضطهد ليهوديته خلال الاضطهاد العام ، الذى لقيه اليهود في ظل عبد المؤمن خليفة الموحدين ، فغادر الأندلس إلى المشرق ، ونزل بمصر وخدم بلاطها ، وعين طبيباً خاصاً للسلطان صلاح الدين ، وندب للتدريس بالقاهرة . وقد كان ابن رشد بلا ريب أعظم فلاسفة الإسلام ومفكره في ذلك العصر ، ولد بقرطبة سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) واتصل منذ فتوته بأبى يوسف يعقوب ابن عبد المؤمن ، المشرف على شئون الأندلس ، وكان الأمير مثل أبيه يجمع حوله

أعلام المفكرين والعلماء؛ وبرع ابن رشد في الفقه والطب والفلسفة ، وتولى قضاء إشبيلية في سنة ٥٦٥ هـ ، ثم ولي قضاء قرطبة ، واستمر زهاء خمسة وعشرين عاماً ، يتقلب في مناصب القضاء والإدارة ، في ظل حكومة الموحدين بالأندلس والمغرب ، وتولى أثناء ذلك منصب الطبيب الخاص للخليفة أبي يعقوب يوسف ، ثم لولده الخليفة يعقوب المنصور بعد وفاته . واتهمه بعض خصومه بالزندقة والخروج على شريعة الإسلام ، فأمر الخليفة المنصور بنفيه إلى بلدة اليسانة على مقربة من غرناطة ، وفرضت عليه رقابة شديدة ، ثم عفا عنه واسترد مكانته في أواخر حياته ، واستدعى ثانية إلى مراكش ، وهناك توفي بعد قليل في سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٨ م) . وأعظم آثار ابن رشد هو شروحه لفلسفة أرسطو ، في المنطق وما وراء الطبيعة ، وقد ترجمت إلى اللاتينية منذ القرن الثالث عشر ، وكانت مفتاح الدراسات الأرسطوطالية في العصور الوسطى . وقد كان يغمرها الغموض والحلك ، قبل أن يتصدى ابن رشد لشرحها . وغدت شروح ابن رشد في الوقت نفسه أساساً لكثير من المباحث الفلسفية ، التي ازدهرت أيام حركة الإحياء الأوربي . بل يرى مؤرخو الفلسفة ، أن الفلسفة الجدلية الأوربية استمدت من العرب والفلسفة العربية ، أكثر مما استمدت من قسطنطينية التي كانت مستودعاً لثراث الفلسفة اليونانية . وكتب ابن رشد في الطب مؤلفه « الكليات » وهو من أهم الآثار الطبية في العصور الوسطى ، وقد ترجم إلى اللاتينية وغيرها من اللغات الأوربية منذ القرن الثالث عشر . ولابن رشد طائفة كثيرة أخرى من الرسائل والبحوث الفلسفية والكلامية . وكانت الفلسفة على الأغلب علماً خطراً في ظل حكومة الموحدين ، وقد رأيت ما كان من اضطهاد ابن رشد ونفيه بسبب آرائه الفلسفية ، وقد كان من ضحايا هذا الإضطهاد ، في هذا العصر ، مفكر أندلسي آخر هو ابن حبيب الإشبيلي ، الذي اتهم بالزندقة بسبب آرائه الفلسفية ، أيام المأمون بن المنصور ، وقتل لهذا السبب^(١) . وهكذا كانت الفلسفة أيام الموحدين قرينة الإلحاد والزندقة ، وكانت خطراً يجتنبه كثير من مفكري العصر .

وظهر في تلك الفترة ، إلى جانب هؤلاء العلماء ، جمهرة من أقطاب الرواية والأدب ، مثل أبي القاسم خلف بن بشكوال القرطبي المتوفى سنة ٥٧٨ هـ ، (١١٨٣ م) ، وهو مؤلف كتاب الصلة الذي ذيل به على كتاب علماء الأندلس

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ١٢٨ .

لابن الفرضي^(١) وابن بدرون الإشبيلي المتوفى في فاتحة القرن السابع ، وهو شارح قصيدة ابن عبدون الشهيرة في رثاء بني الأفطس ، وابن الصابوني الصدفي الإشبيلي الشاعر ، المتوفى في سنة ٦٠٤ هـ (١٢٠٧ م) ، وقد قال ابن الأبار في حقه « ذهبت الآداب بدهابه ، وختمت الأندلس شعراءها » .

وازدهرت المعاهد العلمية أيام الموحدين بالمغرب والأندلس ، وكانت المعاهد الأندلسية في إشبيلية وقرطبة وغرناطة وبلنسية ومرسية ، يومئذ مجمع العلوم والمعارف الرفيعة في تلك العصور ، وكانت مقصد الطلاب من كل فج ، وكانت مزودة بالمكتبات التي تضم أنفس الكتب والمصنفات ، في مختلف العلوم والفنون^(٢) . وعنى الموحدون أيضاً برعاية الفنون ، وأقيمت في عهدهم في معظم قواعد الأندلس ، طائفة من المساجد والصروح العظيمة ، التي تمتاز بجمالها الفني . وكان يعقوب المنصور حفيد عبد المؤمن ، من أشدهم شغفاً بالمنشآت الفخمة ، ومن آثاره الشهيرة بالأندلس مسجد إشبيلية الجامع ومنارته العظيمة التي بقيت إلى اليوم وحولها الإسبان إلى برج الأجراس لكنيسة إشبيلية العظمى التي بنيت مكان الجامع ، وهي من أروع الآثار الأندلسية الباقية ، ويطلق عليها الإسبان اسم « لاخيرالدا »

La Giralda

وكذلك تقدمت الزراعة والصناعة والتجارة في عهد الموحدين ، وازدهرت الزراعة بنوع خاص ، وارتقت أساليبها الفنية ، وتنوعت المحاصيل وانتشرت زراعة الفاكهة ، في أحواز بلنسية وإشبيلية ، وتقدمت الصناعات الحربية والمدنية ، ولاسيما صناعة الأقمشة الممتازة ، والصناعات الجلدية ، وصناعة الورق وغيرها . وازدهرت التجارة وعم الرخاء . وكانت ثغور الأندلس مثل بلنسية ودانية وإشبيلية وألمرية ومالقة ، من أعظم مراكز التجارة الخارجية في هذا العصر .

ولما اضمحل شأن الموحدين ، وضعف أمرهم بالمغرب والأندلس ، في أوائل القرن السابع الهجري ، واجتاحت الثورة معظم القواعد والثغور الأندلسية ، ونهض المتغلبون يتنافسون في اجتتاب أسلاب الدولة المذهبة ، شعرت اسبانيا النصرانية بدنو الفرصة السانحة ، لاقتطاع ما يمكن اقتطاعه من أطراف الأندلس الممزقة .

(١) وقد نشر ضمن المكتبة الأندلسية في مجلدين طبع مدريد في سنة ١٨٨٣ .

(٢) تناولنا سير الحركة الفكرية الأندلسية في عصر الموحدين بتفصيل واف في كتابنا « عصر

المرابطين والموحدين » (القسم الثاني) ص ٦٤٤ - ٧٢٦ .

وبدأت قواعد الأندلس الثالثة ، تسقط تباعاً في يد النصارى . وشغلت الأندلس بمحنتها الغامرة ، وانصرفت إلى متابعة الجهاد ، ومدافعة المغيرين عليها بكل ما وسعت ، فانكشت فنون السلم ، وتضاءلت دولة التفكير والأدب ، وإن كانت المحنة قد أذكت لوعة الشعر ، وبعثت إلينا بطائفة جمّة من أروع المراثي ، التي ما زالت تحتفظ إلى يومنا بكثير من قوتها وروعها .

— ٢ —

وانجلى الفتن الداخلية ، وانجلى الصراع بين اسبانيا المسلمة واسبانيا النصرانية بعد نحو ثلث قرن ، عن سقوط معظم القواعد الأندلسية الثالثة ، مثل قرطبة وإشبيلية وبلنسية ومرسية وجيان وغيرها ، في أيدي النصارى ، وانكشت رقعة الأندلس تباعاً ، وانحصرت في الركن الجنوبي الغربى للمملكة الإسلامية القديمة ، في مملكة غرناطة الصغيرة ، التي برزت من غمر الفوضى ، واستقرت في رقعتها المتواضعة ، بين نهر الوادى الكبير والبحر ، وهرعت إليها معظم الأسر الأندلسية القديمة ، التي أبت التدجن والبقاء في ظل حكم النصارى ؛ ولم يمض سوى قليل ، حتى غدت مستودع تراث الأندلس القومى والسياسى ، ومستودع الحضارة الأندلسية والتفكير الأندلسى . وكانت مملكة غرناطة ، بالرغم من صغرها وانكماش رقعتها ، تضم ثروات عظيمة من الموارد الطبيعية ، فإلى جانب وديانها الحصبة النضرة التي تغص بالبساتين الخضراء والحنات الفيحاء ، والتي تجود بها الحبوب والكروم والزيتون والفواكه وغيرها ، توجد الجبال الوعرة تحترقها من كل صوب ، وبها الكثير من الثروات المعدنية ، ومن بينها الذهب والفضة والرصاص والحديد (١) . وتفيض الأنهار والنهيرات العديدة على بساطها الماء الغزير . وكانت ثغورها وهى ثغور الأندلس الجنوبية ، ولاسيما مالقة وألمرية ، من أغنى الثغور الإسبانية وأزخرها بالحركة التجارية ، وكانت ولاية غرناطة وحدها تضم من البلاد والقرى العامرة نيفاً ومائة بلدة وقرية ذكرها لنا ابن الخطيب ، وقد دثر الكثير منها اليوم (٢) . أما غرناطة عاصمة المملكة ، فقد غدت عقب سقوط القواعد الأندلسية الأخرى في يد النصارى ، أعظم القواعد الأندلسية الباقية ، وأغناها وأكثرها ازدحاماً بالسكان . وكانت بحمراتها المطلّة عليها من ربوتها المنيعه ، وشوارعها الزاخرة ، وميادينها الفسيحة ، وقصورها

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة (القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ص ١٠٤ .

(٢) الإحاطة ، ج ١ ص ١٣٣ - ١٣٨ .

البديعة ، وحدائقها ومتنزهاتها البانعة ، من أجل مدن العصور الوسطى . وكانت غاية في الحصانة ، سواء بموقعها الطبيعي ، أو بأسوارها الكثيفة ، التي يتخللها ألف وثلاثمائة برج منيع ، وكانت تضم في أيامها الزاهرة من السكان مع أرباضها وضواحيها زهاء نصف مليون من الأنفس ، وذلك بما تقاطر عليها من سيل المهاجرين من المدن الأندلسية الأخرى . وكان بوسع العاصمة وقت الحرب ، أن تعي وحنها زهاء خمسين ألف مقاتل ، وكانت أبهاء قصر الحمراء تتسع وحنها لأربعين ألف رجل (١) .

وقد رأينا كيف نشأت مملكة غرناطة ، على يد رجل ذى عبقرية هادئة ، ولكن واسعة الأفق ، هو محمد بن الأحمر ، زعيم بنى نصر ، وكيف استمر أعقابها يتوارثون عرش غرناطة أكثر من قرنين ، حتى سقطت فى أيدي النصارى . وتسمى دولتهم بالدولة النصرىة أو دولة بنى الأحمر ، وقد تسمى زعيمهم ومؤسس دولتهم بأمير المسلمين ، وهو اللقب الذى كان يتسم به ملوك العدو (المغرب) فى تلك العصور ، وغلب هذا اللقب على سلاطين غرناطة حتى نهاية دولتهم ، وكان يقرن فى أحيان كثيرة بلقب « الغالب بالله » .

وكان ملوك بنى نصر ، كسائر ملوك العصور الوسطى ، يدينون بمبدأ الحكم المطلق ، ولا يرون له بديلاً . على أنه فى وقت الخطر العام والأحداث الخطيرة ، كان السلطان يستعين برأى الزعماء والقادة ذوى العصبية والتوجيه . وكان السلطان يستأثر بكل سلطة حقيقية ، ويباشر مهام الأمور بنفسه ، إلا فى فترات قليلة يستأثر بالسلطة فيها وزير قوى ، كما حدث فى عهد السلطان أبى عبد الله محمد الملقب بالملخوع (٧٠١ - ٧٠٨ هـ) ، حيث استأثر بالحكم وزيره أبوعبد الله ابن الحكيم اللخمى . وعهد السلطان أبى عبد الله محمد بن اسماعيل (٧٢٥ - ٧٣٣ هـ) ، حيث استبد بالحكم دونه وزيره ابن المحروق ، وعهد أخيه السلطان أبى الحجاج يوسف (٧٣٣ - ٧٥٥ هـ) حيث استبد بالحكم الحاجب أبى النعيم رضوان ، ثم فى عهد السلطان الغنى بالله (٧٥٥ - ٧٩٣ هـ) حيث استبد بالحكم حيناً وزيره ابن الخطيب . وكان نظام الطغیان الذى يفرضه الوزير المتغلب ، ينتهى فى كل مرة بانقلاب عنيف ، ويستعيد السلطان سلطته الحقيقية ، فى غمرة من الحوادث الدموية . وكان هذا النظام المطلق الذى يسود حكومة غرناطة ، يؤدى إلى نشوب الثورة

في أحيان كثيرة ، ويذكي من عواملها في الوقت نفسه ، تطاحن الأحزاب في البلاط والحيش . وكان هذا النظام يتطور أحياناً في ظل الملوك الضعاف إلى نوع من الإقطاع ، ويستأثر بعض الزعماء الأقوياء والأسر ذات العصبية ، بحكم المدن والثغور . وكان الشعب العرناطي سريع التقلب والغضب ، يأخذ في الثورات والإنقلابات السياسية بأعظم قسط .

وكانت مناصب الحكم الرئيسية في حكومة غرناطة ، تنحصر في الوزارة وقيادة الحيوش والقضاء . فأما الوزارة فكانت تسند غالباً إلى أحد الأعلام من رجال القلم ، وبين وزراء الدولة النصرية ثبت حافل من هؤلاء ، مثل ابن الحكيم اللخمي ، وابن الحباب ، وابن الخطيب ، وتلميذه ابن زمرك ، وكلهم من أقطاب الكتابة والشعر . وكانت مهام الوزارة تتلخص في أن يتلقى الوزير أوامر السلطان ، ويعمل على تنفيذها ، ويقوم بتوزيع مختلف الأعمال على أرباب المناصب ، ويعنى بتحرير المكاتبات السلطانية ، وصياغة المراسيم ، وكان أكابر الكتاب من الوزراء يجدون في هذه المهمة بالذات مجالاً لعرض براعتهم النثرية والتحريرية . ولدينا في مختلف الرسائل التي تركها لنا ابن الخطيب أروع نماذج للرسائل السلطانية التي تمتاز بأسلوبها العالي ، وبيانها القوي^(١) ، وكان الوزير في بعض الأحيان يقوم بقيادة الحيش ، ويسير على رأسه للغزو ، كما حدث أيام الحاجب رضوان ، وأحياناً يتولى الوزير مهام السلطنة في غياب السلطان ، كما حدث أيام ابن الخطيب ، حيث كان ينوب عن السلطان حين تغيبه في الغزو . وقد أسبغ على ابن الخطيب أيام وزارته لقب « ذي الوزارتين » ، وهو لقب لم يحمله في ظل الدولة النصرية سواه وابن الحكيم الرندي وزير السلطان محمد المخلوع ، ويترتب عليه أن يتمتع الوزير بمقام الرياسة العليا ويغدو في مرتبة « الحاجب » ، ويتناول ضعف مخصصاته . ولم يحمل من وزراء الدولة النصرية لقب الحاجب سوى الحاجب رضوان ، وزير السلطان يوسف أبي الحجاج .

وكان الوزير يستعين بطائفة من « الكتاب » لتنفيذ مختلف المهام . وللسلطان كاتب سر أو أمين خاص . وكثيراً ما يرتقى « الكتاب » إلى منصب الوزير . والخلاصة أن الوزير كان رأس السلطة التنفيذية الحقيقية ، وهو الذي يشرف سواء

(١) وقد أورد ابن الخطيب عدداً كبيراً منها في كتابه ، « ربحانة الكتاب ونجمة المنتخب » وهو ما يزال مخطوطاً .

بطريقة مباشرة أو بتوجيه سلطانه القوى ، على تصريف شئون المملكة ، وتوجيه سياستها الداخلية والخارجية .

وأما قيادة الحيوش ، فكانت أهم المناصب في دولة تواجه إغارة العدو على أراضيها باستمرار . وكان يختص بهذا المنصب الخطير ، منذ أواخر القرن السابع الهجرى أسرة بنى العلاء ، أحد بطون بنى مرين ملوك العدو ، وكان توليهم لقيادة الحيوش الأندلسية ، نتيجة للتحالف التي توثقت أواصره بين بنى الأحمر وبنى مرين عصر^(١) . وقد اشتهر أولئك القواد المغاربة بالبراعة والشجاعة ، وكانت لهم في ميادين الحرب والجهاد مواقف مشهورة . وكان المتولى لمنصب القيادة العامة يلقب بشيخ الغزاة ، وكانت الجنود المغربية عنصراً بارزاً في الجيش الأندلسي ، وقد تخلفت بالأندلس منذ أيام المرابطين والموحدين جموع كثيرة من البربر^(٢) . وكانوا لبداءتهم ونخشونتهم يؤثرون الحياة العسكرية على الحياة المدنية ، وقد زاد عددهم بالأنخص أيام عبور الحيوش المرينية إلى الأندلس . وبالرغم مما أداه القواد والهند المغاربة لمملكة غرناطة ، من الخدمات الحلية في ميدان الحرب ، فقد كانوا أحياناً خطراً على النظام والعرش ، وكان لبنى العلاء شيوخ الغزاة أطماع سياسية ، ظهرت خطورتها في بعض الثورات والإنقلابات العنيفة .

وقد كانت قوة غرناطة العسكرية ، في الواقع عماد حياتها ، التي استطالت أكثر من قرنين ، وذلك بالرغم من القوى الجسارة المعادية ، التي لبشت باستمرار ترهقها ، وتستنفد مواردها . وكان الجيش الأندلسي ، فضلاً عما كان يزخر به من العناصر المجاهدة الباسلة ، من البربر وجند البشرات وغيرها ، من المناطق الحبلية ، يتمتع بكثير من المزايا البارزة ، فكان يضم قرناً من أبرع الرماة ، وكان بالأنخص يتفوق بفرق القربان ، التي اشتهرت في تلك العصور ببراعتها التي لا تبارى . وإلى جانب ذلك كانت الطبيعة تحبو غرناطة برعايتها ، وتساعد على التلال المرتفعة والمفاوز الوعرة ، التي تتخللها في كل ناحية ، على شدة المقاومة ، وإتقان حرب العصابات التي ترهق الحيوش المنظمة . وكانت القواعد الأندلسية ، من جراء الحروب المتواصلة ، قد حولت جميعها إلى قلاع منيعة ، وشيدت الحصون القوية في كل مكان يصلح للمقاومة . وكان للجاجب رضوان النصرى وزير السلطان يوسف أبى الحجاج ثم ولده الغنى بالله ، في ذلك مجهود بارز ، حيث أنشأ سور غرناطة الكبير المحيط

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٥٣٨ . (٢) راجع ص ٧٣ من هذا الكتاب .

هربض البيازين ، وشيد سلسلة من الأبراج المنبوعة أربت على أربعين ، تمتد من شرق المملكة إلى غربها^(١) . وأهم من ذلك كله أن مسلمى الأندلس ، كانوا قد وقفوا فيما يبدو على سر البارود^(٢) ، واستعملوه منذ منتصف القرن الرابع عشر ، حسبما فصلنا في موضع سابق^(٣) . وكان لذلك كله أثر واضح في تمكين مملكة غرناطة الصغيرة ، من الوقوف في وجه عدوها القوى بنجاح ، طيلة هذه العصور .

وكان للقوى البحرية أيضاً شأنها ، في كفاح الأندلس من أجل حياتها ، وكانت مملكة غرناطة تسيطر من ثغورها الشهيرة : جبل طارق والجزيرة وطريف ومالقة ، على مدخل البحر الأبيض المتوسط ، وكانت أهم مهام الأسطول ، بعد حماية الشواطئ والثغور ، تأمين الصلة المباشرة بين مملكة غرناطة ، وبين إخوانها المسلمين فيما وراء البحر في المغرب الأقصى ، وقد استطاعت الأساطيل الأندلسية والمغربية ، أن تحتفظ بسيادتها في هذه المياه عصوراً ، وكان انهيار قوة غرناطة البحرية ، وسقوط ثغورها في يد النصارى ، نذير السقوط النهائي .

وكان أرفع المناصب القضائية ، منصب قاضي الجماعة ، وهو ما يقابل في الأندلس ، منصب قاضي القضاة في مصر الإسلامية . وقاضي الجماعة هو أيضاً قاضي الحضرة أو قاضي غرناطة ، والغالب أن يجمع في نفس الوقت بين منصبه ومنصب خطيب الحمراء ، أو خطيب الجامع الأعظم^(٤) ، وهو أيضاً من المناصب الدينية الرفيعة . وكان القضاء يجري في مملكة غرناطة ، على مذهب الإمام مالك ، وهو مذهب الأندلس المفضل منذ أواخر القرن الثاني الهجري . وكان يجري تعيين قاضي الجماعة « بظهير » أي مرسوم ملكي . وكانت كلمة « الظهير » هي الغالبة في مملكة غرناطة للتعبير عن المراسيم والقوانين السلطانية ، وهي ما زالت تستعمل حتى اليوم في المغرب الأقصى ، حيث يوصف المرسوم بأنه « ظهير ملكي » . وكان لكل مدينة قاضياً وخطيباً ، ولا يشغل مناصب القضاء سوى أكابر العلماء والفقهاء .

ويتبع القضاء وظيفة الحسبة وهي أيضاً وظيفة دينية ، تقوم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويختص صاحبها بمطاردة المنكرات ، والتعزير والتأديب على

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة ج ١ ص ٥١٧ .

(٢) Prescott : Ferdinand and Isabella p. 193-194

(٣) راجع ص ٢١٢ من هذا الكتاب .

(٤) راجع نقح الطيب ج ٣ ص ٧٠ و ٧٤ و ١٩٧ .

قدرها ، والعمل على احترام الأحكام الشرعية ، وقمع الغش والاختلاس في المعاملات ، وأمور المعيشة والمكايل والموازين ، وله أيضاً أن يحمل الناس على أداء المصالح العامة ، مثل تمهيد الطرقات والإضاءة بالليل وغير ذلك .

وكان يعهد بحفظ النظام والأمن إلى متوالى الشرطة ، وكان يسمى أيام الدولة الأموية صاحب الشرطة ، ويعتبر منصبه من أعظم المناصب القضائية والإدارية ، وكان ينتخب عادة من كبار القواد أو الخاصة ، ويتمتع بسلطات قضائية وإدارية واسعة . ثم سمي بعد ذلك بصاحب المدينة وصاحب الليل . وكان يعتبر في منصبه تابعاً للوزارة ، مستولاً أمامها ، وكان جل اختصاصه أن يتولى حفظ النظام والأمن ، ومطاردة المجرمين وأهل الفساد ، وتنفيذ العقوبات الجنائية ، من الحد والتعزير وغيرهما فيمن وجب عليه ذلك ، وهو الذي يتولى الإتهام والتحقيق وتوقيع العقوبة ، دون تدخل القاضي ، ويعاونه في مهمته جماعات من الحراس ، تجوب أنحاء المدينة ليلاً ، وتشرف على حراسة الطرق والأمكنة وتعقب الحناة^(١) .

- ٣ -

وقد أشرنا فيما تقدم ، إلى ما كانت تتمتع به مملكة غرناطة ، بالرغم من انكماش رقعتها من الموارد والثروات الطبيعية الوفيرة . وكانت الزراعة منذ أيام الدولة الأندلسية الكبرى ، من أعظم موارد الأندلس ، وكانت وديان إسبانيا الحصبة ، التي تتخللها عدة من الأنهار العظيمة ، وتربتها البديعة ، وأقليمها المتقلب بين الحرارة والبرودة ، تفسح أعظم مجال لشعب عامل ذكي . وكان مسلمو الأندلس من أنبغ الشعوب ، في فلاحه الأرض وتربية الماشية وغرس الحدائق ، وتنظيم طرق الري ، ومعرفة أحوال الجو ، وكل ما يتعلق بفنون الزراعة وخواص النبات ، وكانت مزارعهم وحدائقهم مضرب الأمثال في الجودة والنماء ؛ وقد نقل العرب من المشرق وشمال إفريقيا إلى إسبانيا كثيراً من الأشجار والمحاصيل ، كالقطن والأرز وقصب السكر والزعفران والنخيل ، وكانت بسائط شبه الجزيرة الإسبانية في أيامهم رياضاً نظرة ، وكانت غياض القمح وغابات الزيتون ، وحدائق البرتقال والتوت والكروم ، من أبدع ما ترى العين في وديان الأندلس ومروجها النظرة . وأما نبوغ مسلمي الأندلس في تنظيم وسائل الري والصرف ، واستجلاب الماء وتوزيعه بالطرق الفنية ، فما زالت تشهد به آثارهم الباقية إلى الآن ، في وديان الأندلس ، من القناطر والحداول الدارسة .

(١) ابن خلدون : المقدمة ج ١ ص ٢٠٩ و ٢١٠ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٠١ .

وقد أقيمت أيام الدولة الأموية عدة من القناطر الشهيرة ، وحفرت ترع ومصارف لا حصر لها ، في مختلف أنحاء اسبانيا ، وكلها مما يشهد لصانعها بالمهارة والتفوق . وقد شاهدت أثناء تجوالي في اسبانيا بعض المناطق التي ما زالت تقوم في زراعتها على مشاريع الري الأندلسية القديمة مثل منطقة لاردة وأحوازها ومنطقة بلنسية وأحوازها ومرسية وأحوازها . وكان لأهل الأندلس شهرة خاصة في غرس الحدائق وتنسيقها ، وقد كانت حدائق الرصافة والزهراء والزاهرة ، بدائع تشهد لهم بوفرة البراعة وحسن الذوق ، وكانت روعتها مستقى خصباً لخيال الشعراء والكتاب ، وما زالت هذه البراعة حتى اليوم علماً على جمال الحدائق الأندلسية . وقد اتخذت فنون الزراعة على يد الأندلسيين طابعاً علمياً ، وألفت فيها الكتب القيمة . وقد انتهى إلينا من آثارهم في ذلك كتاب « الفلاحة » لابن بصال الطليطلى (القرن الحادى عشر الميلادى) ، وكتاب « الفلاحة » أيضاً لتلميذه أبى زكريا ابن العوام الإشبيلي (أواخر القرن الثانى عشر) ، ومؤلف ثالث في « الفلاحة » أيضاً للطغرى الغرناطى (١) . وفي هذه الكتب كلها ما يدل على مبلغ ما وصل إليه مسلمو الأندلس من معرفة بخواص التربة ، واستخراج كنوز الأرض ، وطرق الري والصرف ، وأحوال الطقس وغيرها . وكانت مملكة غرناطة بالرغم مما يتخللها من الجبال والهضاب الوعرة ، تضم كثيراً من الوديان والبساتين الخصبة ، وكانت ضفاف شتيل سلسلة من البساتين الخضراء ، تتخللها مئات الترع والقنوات ، وكان المرج الشهير ، الواقع غربى غرناطة La Vega ، وهو الذى لبث أكثر من قرنين مسرحاً للمعارك المستمرة بين المسلمين والنصارى ، بحقوله وحدائقه النضرة ، كأنه قطعة من الجنان ، أودعها المسلمون كل براعتهم . وكانت المحاصيل المختلفة تتعاقب طول العام ، وتنتج البلاد كل ما يكفيها من الأطعمة والمؤن . وكانت مزارع الكروم الأندلسية الشهيرة ، تغطي مساحات واسعة في غرناطة ومالقة وشريش .

وكذلك ضرب مسلمو الأندلس في الصناعة بأوفر سهم . وكانت اسبانيا المسلمة أيام قوتها ، أعظم الأمم الصناعية في أوروبا ، وكانت ثرواتها المعدنية ، من الحديد والرصاص والزنبق والذهب والفضة وغيرها ، تمدها بأسباب التفوق في هذا الميدان .

(١) نشر كتاب « الفلاحة » لابن بصال بغناية معهد مولاي الحسن بطوان سنة ١٩٥٥ ، وتوجد نسخة مخطوطة من كتاب « الفلاحة » لابن العوام بمكتبة دير الإسكوريال . وكذلك توجد نسخة من كتاب الطغرى .

وقد اشتهرت الأندلس بنوع خاص ، بصناعة الأسلحة الجيدة ، تنتجها بوفرة وتصدرها إلى أهم أوربا وإفريقية . وكذا اشتهرت بصناعة الصوف والحرير ، والأقمشة الملونة الممتازة ، وصناعة الجلود الدقيقة التي برع فيها أهل قرطبة بنوع خاص . وطبق مسلمو الأندلس تفوقهم في الكيمياء في ميدان الصناعة ، فبرعوا في صنع الأدوية والعقاقير ، واستخراج العطور من الأزهار ، وتركيب الأصباغ المختلفة ، ولا سيما اللون الذهبي ، وغيره من الألوان الزاهية . وقد استطاعت مملكة غرناطة ، أن تستبقى كثيراً من الصناعات الأندلسية القديمة ، فاستمرت غرناطة مركزاً عظيماً لصناعة الأسلحة والذخائر ، وكان تفوقها في هذه الصناعة من أسباب قوتها ، وتمكنها طويلاً من مدافعة أعدائها . وكذلك استمرت صناعة الحرير على تقدمها وازدهارها ، ولا سيما في مالقة وألمرية ، وكانت يومئذ من أعظم موارد الأندلس . وقد نقلت المدن الإيطالية ، التي اشتهرت بصناعة الحرير في العصور الوسطى ، عن الأندلسيين معظم فنونهم وطرائقهم في هذه الصناعة المربحة ، وكانت مدينة فيرننزا (فلورنس) تستورد كميات كبيرة من الحرير الخام من غرناطة ، حتى أواخر القرن الخامس عشر^(١) . ولبت صناعة الأواني الخزفية الجميلة ، مزدهرة حتى العصر الأخير ، وما زالت بقايا هذه الصناعة الأندلسية القديمة قائمة حتى اليوم في بعض المدن الإسبانية ولا سيما في إشبيلية ومالقة ، وما زالت المتاحف الإسبانية تغص بكثير من الأواني الخزفية الأندلسية والموريسكية البديعة الصنع والزخرف . وكذلك لبت صناعة الجلود الفاخرة الملونة ، حتى نبي الموريسكيين ، وقد نقلت بعد تفهمهم على يدهم إلى أوربا . واشتهرت الأندلس أيضاً بصناعة الورق ، وأنشئت لها المصانع العظيمة ولا سيما في طليطلة وشاطبة ، ونقلها الإسبان عن المسلمين ، ثم انتقلت إلى أوربا عن طريق فرنسا ، وذاعت فيها منذ القرن الثالث عشر . وقد اكتشف الغزيري ، عدة مخطوطات بمكتبة الإسكوريال ، ترجع إلى القرن الحادي عشر ، كتبت على ورق مصنوع من القطن ، وأخرى ترجع إلى القرن الثاني عشر ، كتبت على ورق مصنوع من الكتان ، وكان لهذه الصناعة مكانتها في مملكة غرناطة .

أما التجارة فقد بلغت شأواً بعيداً في الأندلس ، وذلك لحسن موقعها وكثرة ثغورها ، وتوسطها بين أوربا وإفريقية ، وانتظام صلاتها البحرية ، مع سائر ثغور

البحر المتوسط . وكانت علائقها التجارية تمتد حتى قسطنطينية ، وثور الشام والإسكندرية ، وترسو سفنها التجارية في الثغور الإيطالية ، ولاسيما جنوة ورومة والبندقية . وكانت ثغورها تزخر بمختلف الواردات : من بلاد أوربا وإفريقية والمشرق . وازدهرت الحركة التجارية في غرناطة ولاسيما التجارة الخارجية ، وكان للجنوبيين وغيرهم ، من الأمم ذات الصلات الإقتصادية الوثيقة بالأندلس : منشآت تجارية في غرناطة . وعقدت غرناطة مع جمهورية جنوة ومع مملكة أراجون معاهدات تجارية عديدة أشرنا إلى بعضها فيما تقدم . وكانت خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر من أعظم المراكز التجارية في جنوب أوربا ، حتى لقد وصفها بعض المؤرخين المعاصرين بأنها « مدينة جميع الأمم » . ويقول مؤرخ إسباني « إن شهرة سكانها في الأمانة والثقة ، بلغت إلى حد أن كلمتهم المجردة ، كان يعتمد عليها ، أكثر مما يعتمد على عقد مكتوب بيننا » (١) .

وكان الرخاء يسود مملكة غرناطة طوال أيامها ، وقلما كانت تصدع منه الثورات الطارئة أو الحروب المتواصلة . وكانت موارد الخزينة أو الموارد السلطانية كثيرة متنوعة ، تتكون من ضريبة الأراضي المنزرعة ، وتبلغ في المتوسط نحو سبع قيمة المحصول ، والأموال المرسومة على السفن الواردة والصادرة ، ودخل دارالسكة ، ودخل بيت المال ، من زكاة وصدقات وميراث من لاوارث له ، وأخماس الغنائم التي كانت تحصل من العدو ، ومختلف الضرائب التجارية والمهنية . وكانت للعرش فوق ذلك أملاك ومزارع عظيمة في فحوص غرناطة (المرج) تعرف بالمستخلص . وكانت الضرائب في مملكة غرناطة على وجه العموم . أكثر مما كانت عليه في الدول الإسلامية السابقة . وقد يرجع ذلك من بعض الوجوه إلى استمرار الصراع بلا انقطاع بينها وبين النصارى . وقدر دخل مملكة غرناطة في تلك العصور : بنحو مليون ومائتي ألف ذوقه (٢) ، وهي قيمة لا يستهان بها في ذلك العصر ؛ وكان يتولى الإشراف على شئون الدخل والخرج وأعمال الجباية موظف كبير يسمى « صاحب الأشغال » ، وكانت ثمة طوائف كبيرة من الشعب الغرناطي تتمتع بالثراء ، ويقتني الكثيرون الحلى والجواهر النفيسة ولاسيما أبناء الطبقات العليا . وكانت غرناطة

(١) Prescott : ibid ; p. 190

(٢) الذوقه هي عملة ذهبية كانت ذائعة في أوربا في العصور الوسطى وتبلغ قيمتها نحو نصف جنيه من عملتنا الحديثة .

تتمتع فوق ذلك بنقد سليم ثابت^(١) ، تخرجه دار السكة الملكية التي اشتهرت بأمانتها ودقتها ، ولا يتطرق إليه شيء من ذلك الزغل الذي كان في أحيان كثيرة يؤدي إلى الانهيار المالي .

— ٤ —

وقد أشرنا في بداية هذا الكتاب ، إلى تكوين الأمة الأندلسية في مراحلها الأخيرة في ظل مملكة غرناطة ، وإلى خصائصها العنصرية . والحقيقة أن المجتمع الأندلسي بمختلف عناصره الأصلية والدخيلة ، كان قد استحال بمضى الزمن ، وتعاقب الحوادث والدول ، والمؤثرات الاجتماعية والإقليمية ، إلى أمة عربية إسلامية ذات طابع مستقل ومميزات خاصة ، تدعمها طائفة من الحلال البديعة ، وتصقلها حضارة رفيعة زاهرة . ثم قامت مملكة غرناطة التي اجتمعت فيها بقية الأمة الأندلسية لتعرض لنا خلال حياتها الطويلة ، المراحل الأخيرة لعظمة الأمة الأندلسية ، وحضارتها . وقد وصف لنا ابن الخطيب في « الإحاطة » ، أحوال المجتمع الأندلسي ، وخواصه الخنسية والعقلية والاجتماعية ، في هذا العصر ، الذي مالت فيه شمس الأندلس إلى الأفول . فذكر لنا أن الشعب الأندلسي ، كان يتمتع بصفات أخلاقية طيبة ، وأن صورهم حسنة ، وأنوفهم معتدلة ، وألوانهم بيضاء ، وشعورهم سوداء ، وقدودهم متوسطة ، وألسنتهم عربية فصيحة ، تغلب عليها الإمالة ، وأنسابهم عربية ، وفيهم كثير من البربر والمهاجرين^(٢) . وكان نساؤهم يتميزون بالجمال والسحر ، واعتدال السمن ، ونعومة الجسم ، ورشاقة الحركة ، ونبل الكلام ، وحسن المحاورة ، ولكن يندر الطول فيهن . وقد بلغن في التفنن في الزينة شأواً بعيداً ، يسرفن في الأصباغ والعطور ، والتزين بنفيس الحلى .

وكان اللباس الغالب بين الأندلسيين شتاء ، الملف^(٣) المصبوغ على اختلاف أصنافه وألوانه ، ويرتدون في الصيف ، الكتان والحرير والقطن والأردية الإفريقية ، والمقاطع التونسية ، والمآزر المشقوقة « فتبصرهم في المساجد أيام الجمع ، كأنهم الأزهار المفتحة ، في البطاح الكريمة ، تحت الأهوية المعتدلة »^(٤) .

(١) ابن الخطيب في الإحاطة ج ١ ص ١٤٣ ، واللمحة البدرية ص ٢٩ .

(٢) الإحاطة ج ١ ص ١٤٠ . (٣) نسيج من الصوف .

(٤) الإحاطة ج ١ ص ١٤١ .

ومما يجدر ذكره ، أن العمامة كانت يومئذ قد اختفت تقريباً كلباس رأس بين الشعب الأندلسي ، ولم يكن يلبسها سوى العلماء والقضاة^(١) . وقد حلت القلانيس منذ عهد بعيد مكان العمام . وكان أهل شرق الأندلس أسبق من غيرهم في نبذ العمامة ، وذاعت القلانيس بينهم منذ أوائل القرن السابع ، حتى كان أمراؤهم وشيوخهم وقضاةهم يلبسون القلانيس ، وكان كثير من أمراء المسلمين مثل ابن مردنيش وغيره يرتدون الثياب القشتالية^(٢) . ولم يلبس ملوك بني الأحمر العمامة ، بل فضلوا القلنسوة (كاب) واتخذوها لباساً حتى آخر دولتهم . وكان بمتحف جنة العريف بغرناطة قبل إلغائه ، صورة يقال إنها لأبي عبد الله آخر ملوك الأندلس ، وهي تصوره بقلنسوة عالية^(٣) . وأما القضاة فقد احتفظوا بالعمامة كلباس رسمي . وتوجد في سقف قاعة الملوك أوقاعة العدل بقصر الحمراء ، صورة تمثل مجلس القضاة وهم بالعمائم والبرانس ، وهي الصورة التي يعتقد البعض أنها تمثل ملوك غرناطة .

وكان الأمراء والأكابر ، وفريق كبير من أبناء الطبقات الميسورة ، يوثرون ارتداء الثياب الإفريقية ، اقتداءً بحيرانهم النصارى ، ولا سيما في عصور الأندلس الأخيرة . وأما ثياب الحندي الأندلسي فقد كانت في العصور المتأخرة مشابهة لثياب الحند النصارى ، وكذلك عدتهم وسلاحهم ونظامهم في الصفوف ، ثم عدلوا في عصر ابن الخطيب عن هذا الزي ، إلى الجواشن المختصرة والبيضات المذهبة ، والسروج العربية . وكانت الحنود البربرية من جانبها ، تحافظ على زيها المغربي^(٤) .

وكان أهل الأندلس مضرب الأمثال في النظافة ، يبالغون في العناية بنظافة أبدانهم وثيابهم ، ويكثر من الاستحمام . وقد كانت هذه العادات فيما بعد ، حينما أكره المسلمون على التنصير ، من الشبه التي تثيرها ضدهم محاكم التحقيق ، للتدليل على تشبههم بالإسلام ، وارتدادهم عن النصرانية .

وكان المجتمع الغرناطي يعيش في رخاء وسعة ، تكبر لديه الأقوات في الشتاء والصيف ، ولا سيما الفاكهة من العنب والتين والزبيب والتفاح والقسطل والجوز واللوز وغيرها ، ويدخرها الناس يابسة على كرفصول ، ومتى حل الصيف ، هرع الناس إلى الفحوص (المروج) أعني الضواحي ، للتمتع بجمال البسائط النظرة ، ونسيمها العليل^(٥) .

(١) الإحاطة ج ١ ص ١٤٢ . (٢) راجع ص ٨١ و ٩٩ من هذا الكتاب .

(٣) نشرنا هذه الصورة في ص ٢٧٥ . (٤) الإحاطة ج ١ ص ١٤٢ .

(٥) راجع ابن الخطيب في الإحاطة ج ١ ص ١٤٣ و ١٤٤ ، واللغة البدرية ص ٢٧ - ٢٩ .

وكان احتفالهم بالأعياد أنيقاً ، ولكن في حدود الاعتدال والاقتصاد . وكان الشعب الغرناطي يعشق مياهج الحياة والحفلات العامة ، وكانت الحياة لديه كأنها سلسلة من الأعياد المتواصلة . وكان الغناء ذائعاً ، ويكثر في المنتديات والمقاهي العامة ، حيث يجتمع الشباب بكثرة ؛ ولم تنس غرناطة مرحها حتى في أيام محنتها ، ولم تغلبها الكآبة إلا حينما أصبح العدو على الأبواب يهدد حياتها^(١) .

وقد استمرت الفروسة الأندلسية في مملكة غرناطة على ازدهارها ، ولبت عصوراً تجذب الأنظار باكتمالها وروعها ورقة شمائلها . وفضلاً عن كونها كانت عماد الدفاع القومي ، حسبما أشرنا من قبل ، فقد كانت مظاهرها وحفلاتها من أمتع المياهج العامة ، في ميدان كان التسامح المؤثر يسود فيه علائق المسلمين والنصارى ، بالرغم مما كان يدور بين الفريقين من صراع مستمر . وقد اشتهر ملوك غرناطة ، فضلاً عن الجود ، بميلهم نحو الحرية والتسامح ، فكان الأمراء المسلمون والنصارى يتبادلون الزيارات ، وكانوا يتلاقون أيام السلم وفي المفاوضات أنداداً كراماً . ومن أشهر مظاهر هذا التواصل ما حدث في ربيع سنة ١٤٦٣ ، حيث سار هنري الرابع ملك قشتالة إلى أراضي غرناطة ، وزار ملكها ابن اسماعيل ، والتقى الملكان في مكان بقرب الفحص La Vega ، ضربت فيه خيمة ملكية أمام أبواب العاصمة ، ولما انتهت الزيارة وتبادل الفريقان الهدايا ، رافقت ملك النصارى كوكبة من الفرسان المسلمين ، وشيعته حتى الحدود . وكذلك كان الفرسان المسلمون والنصارى يتبادلون الزيارات ، وكثيراً ما كان الفرسان النصارى يقصدون إلى غرناطة ، لقضاء مصالحهم وتسوية منازعاتهم ، وكذا كان كثير من الأسر القشتالية النيلية ، يلجأ إلى حماية ملك المسلمين كلما شعرت بالإضطهاد والخياف ، وكان في مقدمة هؤلاء آل ثيلا وآل كاسترو ؛ وكانت مباريات الفروسة وحفلاتها تتوالى في غرناطة ، وفيها يبدى الفرسان المسلمون ضروباً رائعة من البراعة والرشاقة . وكان من أهم مميزات هذه الحفلات الشهيرة اختلاط الجنسين ، فكان نساء غرناطة ، البارعات في الحسن والإناقة ، يشهدن هذه الحفلات وغيرها من الحفلات العامة سافرات ، ويسبغن بوجودهن عليها روعة وسحراً ، وكن يتمتعن بقسط وافر من الحرية الاجتماعية^(٢) .

(١) الإحاطة ج ١ ص ١٤٣ ، واللحة البدرية ص ٢٨ ؛ وكذلك في Prescott: Ferd. & Isabella, p. 192

(٢) Prescott : Ferdinand & Isabella, p. 192

الفصل الثاني

الحركة الفكرية في مراحلها الأولى

الحركة الفكرية الأندلسية في أوائل القرن السابع . الشعر والأدب . ابن حريق . ابن مرج الكحل . ابن الجيان المرسى . ابن الأبار القضاعي . أبو الطيب الرندي . أقطاب اللغة . الفقه وعلوم الدين . المؤرخون . العلوم . أبو بكر بن زهر . ابن البيطار الملقب . بنو الأحمر حماة العلوم والآداب . محمد الفقيه وولده المخلوع . السلطان أبو الحجاج . الأمير الأديب أبو الوليد اسماعيل . الوزراء الكتاب والشعراء . ازدهار الشعر والأدب . ركود الحركة العلمية . ابن الحكم الرندي . حياته وشعره . ابن خيس التلمساني . أبو الجيان الفرناطي . الرئيس ابن الجياب . ابن جابر الضرير . أقطاب اللغة . علماء الفقه والدين . التصوف . المؤرخون والرحل . العلوم .

أتينا في الفصل السابق ، على لمحة من سير الحركة الفكرية ، في ظل الدولة الإسلامية بالأندلس ، حتى بداية القرن السابع الهجري ، أعني إلى ما قبل قيام مملكة غرناطة بقليل . ونريد الآن أن نتحدث عن سير العلوم والآداب والفنون ، في ظل مملكة غرناطة ذاتها . وسنحاول أن نتوسع في هذا الحديث قدر الاستطاعة ، وإن كانت المصادر العربية ، ضئيلة في ذلك حسبما أشرنا ، أولا لهلاك معظم الآثار والوثائق الأندلسية المتعلقة بهذه المرحلة من تاريخ الأندلس ، وثانياً لأن كثيراً من المفكرين والكتاب المتأخرين ، الذين رأوا الوطن الأندلسي مشرفاً على السقوط في يد العدو ، بادروا بالهجرة إلى المغرب والبلاد الإسلامية الأخرى ، وأفقرت الأندلس بذلك من مفكرين وأدباءها .

بيد أنه يجدر بنا قبل ذلك ، أن نعي بالفترة العصيبة المضطربة التي جازتها الأندلس ، في أواخر أيام الموحدين قبيل قيام مملكة غرناطة . وقد شهدت الأندلس في هذه الفترة ، أعني في أوائل القرن السابع الهجري ، سلسلة من الأحداث الحسام . ذلك أن سلطان الموحدين أخذ ينهار سراعاً ، واضطربت ثورة ابن هود في الولايات الشرقية ، وأخذت قواعد الأندلس الكبرى ، تسقط تباعاً في يد النصاري ، واستطاع ابن الأحمر في الوقت نفسه ، أن ينشئ مملكة غرناطة في جنوبي الأندلس . وكان من جراء الفوضى السياسية التي غمرت الأندلس يومئذ ، أن تصدعت الحركة

الأدبية ، وانتثر شملها ، وفقدت وسيلة الاستقرار والتجمع ، وشغل الأدباء والمفكرون يومئذ بالحنة وآثارها . وغادر الأندلس في تلك الفترة ، كثير من الكتاب والعلماء الذين توقعوا سوء المصير ، وآثروا العمل في جو أكثر استقراراً وطمأنينة ، مثل الشيخ محي الدين ابن عربي المرسى قطب التصوف الشهير ، وابن البيطار المالقي ، وابن الأبار القضاعي ، وابن حمدون الحميري النحوي ، وابن سعيد الأندلسي ، وكثيرون غيرهم ، ممن رحلوا إلى المشرق أو عبروا البحر إلى المغرب . وهكذا طلعت أوائل القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) على الأندلس ، بأحداثها وفتنها المتوالية ، والحركة الفكرية في ربوعها حائرة غير مستقرة ، يتبدى ضوؤها باهتاً ، في ظل دول وإمارات تتصدع أركانها تباعاً . ومع ذلك فقد ظل تراث الأندلس الفكري في هذه الفترة متواصلاً ، يمتاز على اضطرابه بكثير من نواحي القوة والنضج ، التي امتاز بها في ظل دولة الموحدين ، وقت أن كانت في عنفوانها .

وسوف نستعرض فيما يلي أعلام التفكير والأدب في تلك الفترة المضطربة ، التي مهدت حوادثها لقيام مملكة غرناطة ، فهي ليست في الواقع سوى حلقة اتصال ، بين العصر الذي اختتمته الأندلس الكبرى ، وبين العصر الذي بدأت فيه حياتها الجديدة (١) .

الشعر والأدب

وكانت الحركة الأدبية يومئذ ما تزال في عنفوانها . وكانت دولة النثر والنظم تحتل مكانتها الرفيعة ، بل لقد بعثت الأحداث والحن ، التي توالى على الأندلس يومئذ ، إلى الشعر بكثير من أسباب الإنفعال والقوة . فامتألت الأندلس يومئذ بالشعر المؤسي ، والمرأى القوية المؤثرة ، التي نقل المقرئ إلينا كثيراً منها ، في كتابيه نفح الطيب وأزهار الرياض .

وكان من أعلام الشعر في تلك الفترة ، علي بن محمد بن أحمد بن حريق الشاعر البلسني المتوفى في سنة ٦٢٢ هـ (١٢٢٧ م) ؛ كان شاعراً مجيداً كثير النظم ، ذاع

(١) عرضنا في هذا الفصل بإيجاز إلى عدد من العلماء والكتاب والشعراء الذين تناولناهم في خاتمة كتابنا « عصر المرابطين والموحدين » في القسم الذي خصصناه للحركة الفكرية الأندلسية (القسم الثاني ص ٦٤٤ - ٧٢٦) حسبما أشرنا إليه من قبل . وقد كان هذا التكرار العرضي ضرورة للحفاظ على السياق ، وللتمهيد لما سيرد من بعده خلال العصر الغرناطي .

شعره في الأندلس ، وكتب فوق ذلك عدة كتب في الأدب (١) .
 ومنهم ابن مرج الكحل ، وهو أبو عبد الله محمد بن إدريس بن علي ،
 أصله من جزيرة شُقر ، وكان من شعراء عصره . وبرع بنوع خاص في الغزل
 والشعر الوصفي المبتكر ، وعاش حيناً في غرناطة ، وذاع صيته في سائر نواحي
 الأندلس ، وتوفي سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٥ م) . ومن شعره يصف عشة ، بنهر
 لفنداق الذي يمر بلوشة :

عرج بمنعرج الكتيب الأعفر	بين الفرات وبين شط الكوثر
ولتغبتها قهوة ذهبية	من راحتي أحوى المرافف أحور
والروض بين مفضض ومذهب	والزهر بين مدرهم ومدثر
والنهر مرقوم الأباطح والربا	بمصنل من زهره ومعصفر
وكانه وكان خضرة شبطه	سيف يسيل على بساط أخضر
وكان ذاك الحجاب فرنده	مهما طفا في صفحه كالجوهر (٢)

ومنهم عزيز بن عبد الملك القيسي ؛ كان من أعيان مرسية واشترك في حوادثها
 السياسية ، واستطاع أن يظفر بإمارتها لمدة قصير ، وتوفي سنة ٦٣٨ هـ (١٢٤٠ م)
 قتيلاً ، في معركة نشبت بينه وبين خصومه ، وكان شاعر مجيداً ، ومن قوله عندما
 حلت به المحنة :

نصحت فلم أفلح وخانوا فأفلحوا فأعقبني نصحي بدار هوان (٣)
 ومنهم علي بن إبراهيم بن علي المعروف بابن الفخار ، أصله من شريش
 وكان من أعلام الكتابة والنظم وتولى القضاء حيناً ، وتوفي سنة ٦٤٢ هـ (١٢٤٤ م) (٤)
 ومنهم إبراهيم بن سهل الإشبيلي . وقد كان يهودياً ثم أسلم ، وبرع في الشعر
 ولا سيما في التوشيح ، ومن أبداع شعره قصيدة طويلة نظمها في مدح النبي . وقد
 توفي غريقاً في النهر ، وهو شاب في عنفوانه ، وذلك سنة ٦٤٩ هـ (١٢٥١ م) .
 ومن شعره قوله :

مضى الوصل إلا منية تبعث الآسى أدارى بها همى إذا الليل عسعسا

(١) ابن الأبار في تكملة الصلة (رقم ١٨٩٥) ، وصلة الصلة لأبي جعفر ابن الزبير ص ١٢٩

(٢) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٢٦ و ٢٧ و ٢٨ .

(٣) راجع صلة الصلة ص ١٦٥ ، وابن الأبار في التكملة رقم ١٩٥٢ .

(٤) راجع صلة الصلة ص ١٢٥ ، والتكملة رقم ١٩٠٧ .

أتانى حديث الوصل زوراً على النوى أعيد ذلك الزور اللذيد الموثسما
ويا أيها الشوق الذى جاء زائراً أصبت الأمانى خذ قلوباً وأنفسا
ومن موشحاته :

ليل الهوى يقظان والحب ترب السهر
والصبر لى خوان والنوم من عيني برى^(١)

ومنهم أبو عبد الله محمد بن الحيان المرسى ، صديق ابن هود وكاتبه . وكان عالماً بالحديث والرواية ، بارعاً فى النثر والنظم . تولى الوزارة حيناً لابن هود ، وهو الذى كتب عن لسانه وصيته الشهيرة لأخيه . ولما استولى النصارى على مرسية سنة ٦٤١ هـ ، غادرها إلى أوريولة ، ثم نرح إلى المغرب ، واستقر بمدينة بجاية ، وتوفى هنالك سنة ٦٥٠ هـ (١٢٥٢ م) . وكان ابن الحيان صغير القد ، حتى ليخاله الناظر إليه طفلاً ، ومن شعره قصيدته الدالية المشهورة التى مطلعها :

يا حادى الركب قف بالله يا حادى وارحم صباية ذى نأى وإبعاد^(٢)

ومنهم الفقيه والكاتب الشاعر المؤرخ ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسى ، المعروف بابن الأبار . ولد سنة ٥٩٥ هـ وبرز فى الفقه واللغة ، وبرع فى النثر والنظم ، وتولى الكتابة للأمير أبي جميل زيان أمير بلنسية . حفيد ابن مردنيش . ولما حاصر النصارى بلنسية سنة ٦٣٦ هـ (١٢٣٨ م) واشتد الخطب بالمسلمين ، أرسل أميرها زيان كاتبه ابن الأبار ، سفيراً إلى أبى زكريا الحفصى أمير تونس ، يستغيث به ويستنصره على العدو . وألقى ابن الأبار بهذه المناسبة بين يدي أبى زكريا قصيدته السينية الشهيرة ، يردد فيها صريح الأندلس ، ويصف آلامها ومحنها ، وهذا مطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمت فلم يزل عز النصر منك ملتمسا
وهى من غرر القصائد التى ذاعت بالأندلس أيام المحنة . ولما سقطت بلنسية بعد ذلك بقليل فى يد النصارى ، نرح ابن الأبار فى أهله إلى تونس ، وعاش هنالك حيناً فى كنف أميرها المستنصر الحفصى . ولكنه تغير عليه بعد ذلك ونكبه ، ثم أمر

(١) راجع نفع الطيب ج ٤ ص ٣٠٤ .

(٢) راجع نفع الطيب ج ٤ ص ٤٣٢ وما بعدها ، حيث ينقل وصية ابن هود لأخيه ، وص ٤٤٠ وما بعدها حيث يذكر طائفة من نظم ابن الحيان .

بقتله متأثراً بتحريض خصومه ، وأحرقت كتبه في موضع قتله ، وذلك في سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦٠ م) . ولا بن الأبار كثير من الشعر الجيد . ومن قوله في الغزل :

لم تدر ما خلدت عيناك في خلدي من الغرام ولأما كابدت كبدى
أفديك من رائد رام الدينو فلم يسطعه من فرق في القلب متقد
خاف العيون فوافاني على عجل معطلا جيده إلا من الجيد
ومنه يصف نهراً :

ونهر كما ذابت سبائك فضة حكى بمجانبه العطاف الأراقم
إذا الشفق استولى عليه احمراره تراءى قضيباً مثل دامي الصوارم

وكتب ابن الأبار في الأدب والتاريخ . ومن آثاره تكملة كتاب الصلة لابن بشكوال ، ترجم فيها لأعيان أهل الأندلس وعلمائها وشعرائها . وله أيضاً كتاب الحلة السيرة ، ترجم فيها لطائفة مختارة من أعيان الأندلس من أمراء ووزراء وكتاب وشعراء ، وهو قيم جداً بالنسبة لتاريخ الطوائف وتاريخ عصره^(١) . وله مؤلفات أخرى مثل كتاب تحفة القادم ، وفيه يقدم طائفة مختارة من نظم شعراء الأندلس الذين سبقت وفاتهم مولده ، وبعض الطارئين عليها من الغرباء ؛ وإيماض البرق ؛ وكتاب الإعتاب ، أو إعتاب الكتاب ، ويشتمل على تراجم طائفة من كتاب الأندلس وبعض الكتاب المشاركة ، وغيرها ، وهي آثار وصل معظمها إلينا^(٢) . ومنهم أبو الطيب صالح بن شريف الرندي . وكان أديباً شاعراً جزلاً . بيد أننا لا نعرف كثيراً عن حياته ، ولا نعرف إلا أنه كانت من أهل رندة كما يدل على ذلك لقبه ؛ وقد ولد بها في سنة ٦٠١ هـ ، وتوفي سنة ٦٨٤ هـ . ويصفه ابن عبد الملك في « التكملة » أنه « خاتمة أدباء الأندلس » . وكان بارعاً في النثر والنظم معاً .

(١) نشر كتاب التكملة في مجلدين ضمن المكتبة الأندلسية ، ونشر كتاب الحلة السيرة بعناية المستشرق دوزي (ليدن سنة ١٨٥١) ، ولكن مع إغفال بعض التراجم . وتوجد منه نسخة خطية كاملة بمكتبة الإسكوريال (رقم ١٦٥٤ النزيري) . وقد قام بتحقيقها ونشرها الدكتور حسين مؤنس في مجلدين (القاهرة ١٩٦٤) .

(٢) راجع في ترجمة ابن الأبار ، فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٢٦ - ٢٢٧ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٧٨ - ٥٨٠ ؛ وراجع في محتته ومقتله ، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية للزركشي (تونس ١٢٨٩ هـ) ص ٢٧ . ويضع الزركشي تاريخ وفاته في سنة ٦٥٨ هـ . هذا وتوجد نسخة خطية من كتاب تحفة القادم بمكتبة الإسكوريال تحمل (رقم ٣٥٦ النزيري) ، كما توجد بها نسخة من كتاب إعتاب الكتاب وهي تحمل (رقم ١٧٣١ النزيري) .

وله مقامات بديعة في أغراض شتى . وكان كثير الوفود على غرناطة والتردد على بلاطها . وقد عاش الرندي في عصر الفتنة الكبرى التي اضطربت بها الأندلس في أواسط القرن السابع الهجري ، والتي تمخضت عن قيام مملكة غرناطة وسقوط معظم القواعد الأندلسية الكبرى في يد النصاري ، وقال في المحنة مرثيته الشهيرة التي أتينا على ذكرها في موضعها ، والتي خلدت ذكره إلى يومنا . وقد وهم المقرئ فاعتقد أنه قد عاش في أواخر القرن التاسع الهجري ، أو عصر سقوط الأندلس النهائي^(١) . ومن شعره في الغزل والتصوف :

سلم على الحى بذات العرار	وحى من أجل الحبيب الديار
وخل من لام على جهم	فما على العشاق في الذل عار
ولا تقصر في اغتنام المني	فما ليالي الأنس إلا قصار
ولنما العيش لمن رامه	نفس تدارى وكوئوس تدار
وروحه الراح وريحانه	في طيبه بالوصل أو بالعقار ^(٢)
لا صبر للشيء على ضده	والحمر والهم كماء ونار

وكان الرندي من خاصة المقربين إلى السلطان محمد بن الأحمر ، وكان يطرب لشعره ، ومن أشهر قصائده في مدح السلطان قصيدته التي مطلعها :

سرى والحب أمر لا يسـرام وقد أغرى به الشئون والغرام

وكتب الرندي برسم السلطان كتاباً في التاريخ سماه « روض الأنس ونزهة النفس » . ونثره لا يقل روعة عن شعره^(٣) .

* * *

وظهر في تلك الفترة أيضاً جماعة من أقطاب اللغة ، مثل علي بن محمد بن خروف الإشبيلي المتوفى سنة ٦٠٩ هـ (١٢١٢ م) ، وقد طاف بقواعد الأندلس والمغرب ، وذاع صيته ، ووضع شرحاً لكتاب سيديويه^(٤) ، وعمر بن محمد الأزدي الإشبيلي

(١) راجع أزهار الرياض ج ١ ص ٤٧ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٩٥

(٢) تراجع القصيدة بأكملها في نفح الطيب ج ٢ ص ٥٩٥ و ٤٩٦ .

(٣) نقلنا ملخص ترجمة صالح بن شريف عن مخطوط « الإحاطة في تاريخ غرناطة » المحفوظ بالإسكوريال . واطلعنا في المغرب على نسخة مخطوطة من تاريخه المذكور ، وهو مجلد كبير في تاريخ الإسلام والخلفاء الراشدين والدولتين الأموية والعباسية .

(٤) راجع ترجمته في صلة الصلة ص ١٢٢ .

المعروف بالشلوبين ، وكان إماماً في العربية ، وبرع في النحو والفقه ، وتوفي سنة ٦٤٥ هـ (١٢٤٧ م) (١) .

وظهر جماعة في الفقه وعلوم الدين ، مثل علي ابن أحمد بن محمد الغساني ، من أهل وادي آش ، وقد ألف في شرح « الموطأ » كتاباً ضخماً سماه « نهج السالك للفقهاء في مذهب مالك » ، ووضع شرحاً لكتاب مسلم ، وتوفي سنة ٦٠٩ هـ (١٢١٢) (٢) ؛ وعمر بن عبد المجيد بن عمر الأزدي الرندي المحدث ، المتوفى سنة ٦١٦ هـ (١٢١٨ م) (٣) ، وقرينه ومواطنه المحدث المؤرخ عيسى بن سليمان الرعيني الرندي ، المتوفى سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٤ م) (٤) .

ونبغ في تلك الفترة بالذات ، أعظم متصوفة الأندلس الشيخ محيي الدين أبو بكر الطائي المعروف بابن عربي ، وقد ولد بمرسية سنة ٥٦٠ هـ ونزح إلى المشرق في شبابه ، وحج وطاف بمعظم قواعده ، وبقي به حتى توفي سنة ٦٣٨ هـ (١٢٤٠ م) ، وله ثبت حافل من المصنفات الجلية ، منها كتاب فصوص الحكم ، والفتوحات المكية ، والتدبيرات الإلهية ، وعشرات غيرها ، ذكرها صاحب فوات الوفيات ، وله شعر جيد (٥) .

ونستطيع أن نذكر من المؤرخين في تلك الفترة ، إلى جانب ابن الأبار القضاعي ، الذي سبقت ترجمته ، علي بن موسى بن سعيد الأندلسي ، المعروف بابن سعيد المغربي ، وهو أديب ورحالة وسليل أسرة من الأدباء والمؤرخين ، تعاقب منها قبله خمسة في مدى قرن ، على تصنيف مؤلف ضخيم في فضائل مدن الأندلس والمغرب والمشرق ، يضم كتابين كبيرين هما : كتاب « المشرق في حلى المشرق » والمغرب في حلى المغرب » وأتمه علي بن موسى آخر من نبغ من هذه الأسرة . وقد ولد في غرناطة سنة ٦١٠ هـ وتوفي بدمشق سنة ٦٧٣ هـ (١٢٧٤ م) ، وطاف بقواعد الأندلس والمغرب والمشرق ، ومؤلفه الكبير أثر أدبي وتاريخي وجغرافي

(١) راجع ترجمته في صلة الصلة ص ٧١ .

(٢) راجع ترجمته في صلة الصلة ص ١٢١ .

(٣) راجع ترجمته في صلة الصلة ص ٧١ .

(٤) « » « » « » ص ٥١ .

(٥) راجع في ترجمة ابن عربي ، فوات الوفيات ص ٢٤١ - ٢٤٣ .

جليل بارع الأسلوب^(١) . وله كتب أخرى ذكر منها صاحب فوات الوفيات ،
المرقص والمطرب ، وملوك الشعر . وله شعر رقيق .

العلوم

وكان للعلوم أيضاً مجالها بالأندلس في أوائل القرن السابع الهجري ، وربما
كانت هذه آخر مرحلة ازدهر فيها العلم الأندلسي ، واستطاع أن يحتفظ بقبس
من تقاليده القديمة الراسخة .

وكان ممن ظهر في تلك الحقبة ، أبو الفضل محمد بن عبد المنعم الحلبي ،
الطبيب والشاعر الأديب ، أصله من جليانة من أعمال غرناطة ، ونبغ في الطب
في ظل الموحدين ، ثم رحل إلى المشرق ، وطاف بمصر والشام ، ونظم كثيراً في
الإلهيات والرياضيات وآداب النفس^(٢) .

ومنهم أبو بكر بن عبد الملك بن زهر الإشبيلي ، سليل أسرة بني زهر الشهيرة ،
التي نبغ منها في الطب والكيمياء والصيدلة ، أبو العلاء بن زهر ، ثم ولده عبد الملك
حسباً سبقت الإشارة إليه ، ثم ابنه أبو بكر هذا ، وقد برع كأبيه وجده في الطب
والكيمياء ، وكان من أعظم أطباء الأندلس في أواخر القرن السادس الهجري .

ومنهم أبو العباس أحمد بن محمد بن مفرج الأموي المعروف بابن الرومية
الإشبيلي العلامة الطبيب والنباتي ، وقد اشتهر بالأندلس في أوائل القرن السابع
الهجري ، وكان إماماً في الحديث وحجة في علم النبات لا يبارى . ولد بإشبيلية
سنة ٥٦١ هـ وتوفي بها سنة ٦٣٧ هـ (١٢٣٩ م) . وله مؤلفات نفيسة في النبات
والطب . منها شرح حشائش دياسقوريدس ، وأدوية جالينوس ، والرحلة النباتية ،
والمستدركة ، وله كتاب في الأدوية المفردة على نمط الكتب التي ألفها بنو زهر في
هذا الموضوع^(٣) .

وكان من أعظم علماء الأندلس في هذا العصر ، ابن البيطار المالقي العالم

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ١٣٧ . وقد انتهت إلينا من هذا الأثر الضخم نسخة مشوهة
ناقصة ، وهي محفوظة بدار الكتب المصرية رقم ٢٧١٢ ، تاريخ . وقد نشر أخيراً كتاب « المغرب في
حلي المغرب » في جزأين عميقاً بعناية الدكتور شوقي ضيف وصادراً عن دار المعارف بالقاهرة (١٩٥٣ -
١٩٥٥) .

(٢) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ١٦ ، وقد أورد المقرئ شيئاً من شعره .

(٣) ترجم له ابن الخطيب في الإحاطة (ج ١ ص ٢١٥ وما بعدها) . وراجع نفح الطيب

النباتي والطبيب المشهور ، وهو ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد ، ولد بمالقة في أواخر القرن السادس الهجري ، ودرس على أبي العباس النباتي ، ثم غادر الأندلس في شبابه ، وطاف بأنحاء المغرب ، وقدم إلى مصر أيام الملك الكامل ، فدخل طبياً في خدمته ، ثم خدم ابنه الملك الصالح من بعده ، وعنى بدراسة النبات والأعشاب في مصر والشام وآسيا الصغرى وبلاد اليونان ، وألف في ذلك كتابين ؛ « كتاب الجامع في الأدوية المفردة » تناول فيه الأدوية النباتية المعروفة في عصره ، ورتبها على حروف المعجم ، وكتاب « المغنى في الأدوية المفردة » ، وهو مرتب على مداواة الأعضاء ، وله أيضاً كتاب « الأفعال الغريبة والخواص العجيبة » . ودرس عليه ابن أبي أصيبعة العالم المشهور ، وصاحب معجم تراجم الأطباء ، وقد أشاد ببراعته وغزارة علمه ، ودقة فهمه لكتب الأقدمين . وتوفي ابن البيطار بدمشق سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) (١) .

وظهر في هذا العصر علماء آخرون في الرياضيات والفلك ، وكان منهم مطرف الإشبيلي ، وقد برع في الفلك ، واشتغل بالتصنيف فيه ، وكان ينسب إلى الزندقة بسبب اعتكافه في هذا الشأن ، فكان يخفى تصانيفه ونتائج بحوثه عن أهل عصره (٢) .

— ٢ —

وهكذا كانت الحركة الفكرية بالأندلس في النصف الأول من القرن السابع الهجري ، تحاول رغم اضطرابها أن تعمل على وصل ماضيها بحاضرها . فلما هضمت مملكة غرناطة من غمر الفوضى ، وبدأت الأندلس حياتها الجديدة في ظل هذه المملكة الفتية الجديدة ، أخذت الحركة الفكرية في الاستقرار ، وآنست جواً من الهدوء والطمأنينة . وكان ملوك غرناطة جرياً على سنن ملوك الأندلس السالفين ، من حماة العلوم والآداب ، وكان بلاط غرناطة يسطع بتقاليده الأدبية الزاهرة ، كما سطعت من قبل قصور ملوك الطوائف ، وكان أمراء بني الأحمر أنفسهم في طليعة العلماء والأدباء . واشتهر عميدهم ومؤسس دولتهم محمد بن الأحمر ، بحمايته للعلم والأدب ، وكانت له أيام خاصة يستقبل فيها الشعراء وينشدونه قصائدهم (٣) ،

(١) راجع فوات الوفيات ج ١ ص ٢٠٤ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٤٤ و ٤٥ .

(٢) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ١٣٨ .

(٣) اللوحة البدرية ص ٣١ .

وكان من خاصة شعرائه الأثيرين لديه صالح بن شريف الرندى حسبما قدمنا .
وكان ابنه محمد الفقيه عالماً ضليعاً ، يعشق مجالس العلم ويؤثر العلماء بعطفه ،
ويقرض الشعر^(١) ، وكذا كان ولده أبو عبد الله محمد الملقب بالخلوع ، عالماً
شاعراً ينظم الشعر المستظرف ، وقد أورد لنا ابن الخطيب قصيدة من شعره يقول فيها :

واعلنى وعداً وقد أخلفنا أقل شيء في الملاح الوفا
وحال عن عهدى ولم يرعه ما ضره لو أنه أنصبا
ما بالها لم تتعطف على صب لها ما زال مستعظفا
يستطلع الأنباء من نحوها ويرقب البرق إذا ما هفا^(٢)

وبلغت الحركة الفكرية والأدبية ذروة ازدهارها ، في مملكة غرناطة ، في عصر
السلطان أبي الحجاج يوسف بن اسماعيل النصرى (٧٣٣ - ٧٥٥ هـ) ، وولده
السلطان محمد الغنى بالله (٧٥٥ - ٧٩٣ هـ) . وكان السلطان أبو الحجاج نفسه ،
عالماً أديباً يشغف بالفنون . واشتهر الأمير أبو الوليد اسماعيل بن السلطان يوسف
الثاني بأدبه وبارع نثره ، وهو صاحب كتاب « نثر الجمان فيمن ضمنى وإياهم
الزمان » الذى يترجم فيه لأعلام عصره فى الشعر والأدب^(٣) .

وكان من بين وزراء الدولة النصرية وكتابها ، كثير من أعلام الشعر والأدب .
ويكفى أن نذكر فى هذا المقام ابن الحكيم الرندى ، وابن الحباب ، وابن الخطيب ،
وابن زمرك ، والشريف العقيلي خاتمة أدباء الأندلس ووزرائها ، وهم جميعاً من
أقطاب الحركة الأدبية فى مملكة غرناطة ، ومن أعلام وزرائها وسادتها ، وسنعود
إلى التحدث عنهم فيما بعد .

ومما تجدر ملاحظته ، أن الحركة الفكرية الأندلسية فى ذلك العصر ، تكاد
تنحصر فى النواحي الأدبية ، فقد ازدهر الأدب والشعر ، وحفلت غرناطة بجمهرة
من أكابر الأدباء والشعراء ، ولكن العلوم العقلية أصابها الركود ، وقلما نجد فى
هذه الفترة أحداً من أقطاب الطب والفلسفة أو العلوم الرياضية ، أو غيرها من
العلوم المحضة ، التى ازدهرت من قبل بالأندلس ، ونبغ فيها ثبث حافل من أكابر

(١) اللوحة البدرية ص ٣٨ .

(٢) راجع هذه القصيدة فى اللوحة البدرية ص ٤٩ ، وراجع الإحاطة ج ١ ص ٥٥٣ و ٥٥٤ .

(٣) نفح الطيب ج ٢ ص ٤٠٤ ، وراجع أزهار الرياض ج ١ ص ١٨٦ . وتوجد نسخة

مخطوطة وحيدة من هذا الكتاب بدار الكتب المصرية .

العلماء والفلاسفة ، هذا بينما احتفظت الآداب في مملكة غرناطة بروايتها وازدهارها ، حتى اللحظة الأخيرة من حياتها .

وقد تقلبت الحركة الفكرية الأندلسية في المائتين وخمسين عاماً التي عاشتها مملكة غرناطة ، في أطوار ثلاثة : طور الفتوة ، وطور النضج ، وطور الإنحلال الأخير . وسوف نحاول أن نستعرض هذه الأطوار الثلاثة تباعاً ، ذاكرين أقطاب التفكير والأدب في كل مرحلة منها ،

ويبدأ الطور الأول باستقرار مملكة غرناطة وتوطدها ، في أواخر القرن السابع الهجري وأوائل القرن الثامن .

وقد حفلت هذه الفترة التي بزغت فيها شمس الأندلس من جديد ، بجمهرة من الشعراء والأدباء والعلماء ، وازدهر الأدب ، واستعاد الشعر بنوع خاص ، كثيراً من روعته وروائه القديم .

وكان في طليعة شعراء هذه الفترة ، الكاتب البليغ والأديب البارع ، الوزير ابن الحكيم . وهو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن يحيى اللخمي الرندي وأصلهم من بيوتات إشبيلية ، وكان جده والده يحيى طبيباً عرف بالحكيم ، وأسبغ لقبه على الأسرة . ولما اضطربت الفتنة بالأندلس أيام الطوائف ، انتقلت الأسرة إلى رندة ، وولد ابن الحكيم برندة سنة ٥٦٦ هـ ، ووفد على غرناطة فتى ، أيام السلطان أبي عبد الله محمد المعروف بالفقيه ، فولاه كتابته في ديوان الإنشاء . ثم تقلد بعد وفاته الوزارة لولده السلطان أبي عبد الله محمد المخلوع ، إلى جانب وزيره أبي سلطان عزيز الداني . فلما توفي أبو سلطان ، انفرد ابن الحكيم بالوزارة ، ولقب بلدى الوزارتين لجمعه بين الكتابة والوزارة . واستبد بالحكم حيناً حتى نشبت الثورة في غرناطة ضد السلطان أبي عبد الله المخلوع وحكومته الطاغية ، وقتل فيها ابن الحكيم يوم عيد الفطر سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٨ م) حسبما أسلفنا في موضعه . وكان ابن الحكيم شاعراً مجيداً وكاتباً بليغاً وخطيباً ذليلاً ، وقد وصفه ابن الخطيب في الإحاطة بقوله : « كان علماً في الفضيلة والسراوة ومكارم الأخلاق ، كريم النفس ، واسع الإيثار ، متين الحرمة ، على الهمة ، كاتباً بليغاً ، أديباً ، شاعراً » ، وفي كتاب « عائد الصلة » بقوله : « كان فريداً دهره سماحة وبشاشة ولوذعية وانطباعاً ، رقيق الحاشية ،

نافذ العزيمة ، مهتزاً للمديح ، طلقاً للآمال ، كهفياً للغريب ^(١) وزار ابن الحكيم
المشرق ، وحج ودرس وتلقى عن مشايخه . ومن شعر ابن الحكيم قوله :

ما أحسن العقل وآثاره لو لازم الإنسان إيثاره
يصون بالعقل الفتي نفسه كما يصون الحر أسرارَه
لا سيما إن كان في غربة يحتاج أن يعرف مقداره

ومن قوله في الغزل :

هل إلى رد عشيات الوصال سبب أم ذاك من ضرب المحال
وليال ما تبقى بعسدها غير أشواقى إلى تلك الليال
إذ مجال الوصل فيها مسرحى ونعيمى أمر فيها ووال
ولحالات التراضى جولة مزجت بين قبول واقتبال
وغزال قد بدا لى وجهه فرأيت البدر فى حال الكمال
ما أمال التيسه من أعطافه لم يكن إلا على خصل اعتدال
خص بالحسن فـا أنت ترى بعده للناس حظاً فى الجمال
وقوله :

ألا واصل مواصلة العقار ودع عنك التخلق بالوقار
وقم وانخلع عذارك فى غزال يحق لمشله نخلع العذار
قضيب مائس من فوق دعص تعمم بالدجى فوق النهار
ولاح بنجده ألف ولام فصار معرفا بين الدرارى ^(٢)
وكان ولده أبو بكر محمد بن الحكيم أيضاً من أعلام الأدب والشعر فى تلك
الفترة ، وقد تولى مثله الوزارة فيما بعد ، وكان من أساتذة ابن الخطيب ، وقد
ألف فى الأدب كتاباً سماه « بالموارد المستعذبة » ^(٣) .

ومن أكابر الشعراء فى تلك الفترة أبو عبد الله محمد بن خميس التلمسانى ،
أصله من تلمسان كما يدل عليه اسمه . ووفد على غرناطة واتصل بالوزير ابن الحكيم
ومدحه ، ونزل بالمرية سنة ٧٠٦ هـ واتصل بحاكمها القائد أبى الحسن بن كماشه ،

(١) راجع الإحاطة ج ٢ ص ٢٧٩ .

(٢) راجع فى ترجمة ابن الحكيم وشعره : الإحاطة ج ٢ ص ٢٧٨ - ٣٠٣ ، ونفع الطيب

ج ٢ ص ٧ - ٩ ، وج ٢ ص ٢٦٣ - ٢٧١ .

(٣) راجع نفع الطيب ج ٣ ص ٢٦٣ .

ومدحه فأجزل صلته ، ووصفه ابن خاتمة بأنه من فحول الشعراء وأعلام البلغاء ، وقد جمع شعره في ديوان سمي « الدر النفيس في شعر ابن خميس » . وكانت وفاته قتيلا بغرناطة يوم مقتل مخدمه الوزير ابن الحكيم وذلك في يوم عيد الفطر سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٨ م) ، ويمتاز شعره بالجوادة والروعة ، ومن نظمه قوله :

نظرت إليك بمثل عيني جوذر	وتبسمت عن مثل سمطي جوهري
عن ناصع كالدر أو كالبرق أو	كالطلح أو كالأقحوان مؤثر
تجري عليه من لهاها نطفة	بل خمرة لكنها لم تعصر
لو لم يكن خمرأ سلافاً ريقها	تزرى وتلعب بالنهى لم تخطر

وقوله :

عجبا لها أيدوق طعم وصالها	من ليس يأمل أن يمر ببالها
وأنا الفقير إلى تلة ساعة	منها وتمنعي زكاة جمالها
كم ذا وعن عيني الكرى متأنف	يبدو ويختفي في خفي مطالها
يسمو لها بدر الدجى متضائلا	كتضاؤل الحسناء في أسبالها

ومنه :

أتت ولكن بعد طول غياب	وفرط لحاج ضاع فيه شبابي
وما زلت والعليا تغني غريمها	أعلل نفسي دائماً بمشاب
وهيات من بعد الشباب وشرخه	يلد طعامي أو يسوغ شرابي
خدعت بهذا العيش قبل بلائه	كما يخدع الصادي يلمع سراب

ومنه قوله في الحنين إلى بلده تلمسان قصيدة من أبدع قصائده هذا مطلعها :

تلمسان لو أن الزمان بها يسخو	منى النفس لادار السلام ولا الكرخ
ودارى بها الأولى التي حيل دونها	مثار الأسى لو أمكن الحق اللبخ
وعهدى بها والعمر في عنقوانه	ومنه شبابي لا أجبن ولا مطخ (١)

ومهم أبو حيان الغرناطي ، محمد بن يوسف بن علي ، ولد بغرناطة سنة ٦٥٤ هـ وطاف بالمشرق ، وتوفي بمصر سنة ٧٤٥ هـ (١٣٤٤ م) ، وكان فوق تضلعه في الحديث والتفسير بارعاً في اللغة والأدب ، إماماً في النثر ، ونظم

(١) راجع في أخبار ابن خميس شعره : نفح الطيب ج ٣ ص ١٨٤ - ١٩٤ ؛ وأزهار الرياض ج ٣ ص ٣٠٣ .

الموشحات ، وقد ترك مؤلفات كثيرة في التفسير واللغة والأدب ، وله شعر كثير ومن نظمه قوله في موشحته :

إن كان ليل داج . وخائنا الإصباح . فنورها الوهاج . يغنى عن المصباح
سلافة تبدو كالكوكب الأزهر
مزاجها شهد وعرفها عنبر
يا حبذا الورد منها وإن سكر^(١)

وكان الرئيس أبو الحسن علي بن الحبيب ، وزير السلطان يوسف أبي الحجاج وكتابه ، في طليعة أقطاب النثر والنظم في تلك الفترة ؛ ولد بغرناطة سنة ٦٧٣ هـ ، وبرع في الشعر والأدب ، وتقلب في مناصب الكتابة حتى غدا رئيساً لديوان الإنشاء ، وكان من معاونيه في الكتابة لسان الدين بن الخطيب وقد ورث منصبه عقب وفاته . وتوفي ابن الحبيب ضمن ضحايا الوباء الكبير سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) . ومن شعره قوله :

لله عصر الشباب عصرا فتح للخير كل باب
حفظت ما شئت فيه حفظا كنت أراه بلا ذهاب
حتى إذا ما المشيب وافي ندّ ولسكن بلا إياب
ومنه في الوعظ :

يا أيها المسك البخيل إلهك المنفق الكفيل
أنفق وثق بالإله ترع فإن إحسانه جزيل^(٢)

ومن شعراء ذلك العصر أبو عبد الله محمد بن جابر الأندلسي الهواري الضرير ، وقد رحل إلى المشرق ، ومدح بعض أمرائه ، وفصل إلى سلطان ماردن فأجزل صلته ، وقد أشار ابن بطوطة الرحالة إلى ذلك عند ذكره في رحلته لسلطان ماردن^(٣) ؛ ولا بن جابر موشحات كثيرة ومدائح جيدة في الصحابة وآل البيت ، ومن شعره في الغزل قوله :

شغفت بها حيناً من الدهر لم يكن سوى سكب دمعى في محبتها كسبي
وما أصل هذا كله غير نظرة إلى مقلة منها أصغت لها قلبي

(١) راجع ترجمته وشيئاً من شعره في فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٨٢ - ٢٨٥ .

(٢) راجع ترجمة ابن الحبيب وشعره : نفح الطيب ج ٣ ص ٢٢٣ - ٢٢٩ .

(٣) نفح الطيب ٤ ص ٣٩٣ ؛ ورحلة ابن بطوطة ج ١ ص ١٥٠ .

ومنه :

تجنت فجن في الهوى كل عاقل رآها وأحوال المحب جنون
وما وعدت إلا غلت في مطالها كذلك وعد الغانيات يكون
ومنه في الحكم :

مهلا فما شيم الوفا منقادة لمن ابتغى من نيلها أوطارا
رتب المعالي لا تنال بحيلة يوماً ولو جهد الفتى أوطارا
وقال يتشوق إلى حمراء غرناطة :
دامت على الحمراء حمر مدامعى والقلب فيما بين ذلك ذائب
طال المسدى بي عنهم ولربما قد عاد من بعد الإطالة غائب

* * *

وظهر من أقطاب اللغة في تلك الفترة عدة ، منهم أبو بكر محمد بن إدريس
الفرانى القضاعي المتوفى سنة ٧٠٧ هـ (١٣٠٧ م) . وقد كتب في علم العروض كتاب
« الختام المفصوص عن خلاصة علم العروض » ومنه نسخة بمكتبة الإسكوريال^(١) .
ومنهم أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الحافظ النحوى شيخ ابن الخطيب
الأب ، وقد ولد بجيان سنة ٦٢٦ هـ وتوفى سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٨ م) . قال ابن الخطيب في
حقه : « انتهت إليه رئاسة العربية بالأندلس » ؛ وكان عالماً بالقرآن والحديث ، مجيداً
للنثر والنظم ، ولى القضاء بغرناطة ، واتصل بسلطانها الأمير أبى عبد الله محمد بن
محمد بن الأحمر فأكرم مثواه ، وقد صنف كتباً عدة في مختلف الفنون ، ومن آثاره
المنشورة كتاب « صلة الصلة » الذى ألفه ذيل على كتاب الصلة لابن بشكوال^(٢) .
ومنهم أبو الحسن على بن يحيى الفزارى الملقب المعروف بابن البرزى المتوفى
سنة ٧٥٠ هـ (١٣٤٩ م) ، وكان بارحاً فى اللغة ، وله شعر يصفه ابن الخطيب
بالضعف والهزال .

ومنهم أبو عبد الله محمد بن على الفخار البيرى ، كان شيخ النحاة بالأندلس
فى عصره ؛ درس عليه الكثيرون ومنهم ابن الخطيب وابن زمرك ، وقد وصفه

(١) المستشرق بروكلمان فى تاريخ الأدب العربى Geschichte der Arabischen Litteratur
1943 . B . II. p. 259 .

(٢) راجع فى ترجمة ابن الزبير ، كتاب « صلة الصلة » لمنشور بعناية الأستاذ ايثى بروقنسال
فى المقدمة ص : و-ج . وكذلك الإحاطة ج ١ ص ١٩٥ - ٢٠٠ .

ابن الخطيب في الإحاطة « بالإمام المجمع على إمامته في العربية ، المفتوح عليه من الله فيها حفظاً واطلاعاً ، واضطلاحاً ، ونقلًا وتوجيهًا بما لا مطمع فيه لسواه » ، وكانت وفاته بغرناطة سنة ٧٥٤ هـ (١٣٥٣ م) (١) .

* * *

ونبغ من علماء الدين والفقهاء في تلك الفترة ، القاسم بن عبد الله بن الشط الأنصاري الإشبيلي ، المتوفى سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٤ م) وله كتاب « البرنامج » عن قضاة الأندلس (٢) . وأبو القاسم بن جزى الكلبي (محمد بن أحمد بن محمد) وهو من أهل غرناطة ، وأصل سلفه من ولبة بولاية الغرب ، كان فقيهاً محافظاً مشاركاً في فنون كثيرة ، ولا سيما اللغة والفقهاء ، والقراءات والأدب . اشتغل بالتدريس بغرناطة ، وتولى منصب الخطابة بالجامع الأعظم ، وله عدة مؤلفات منها كتاب « التسهيل لعلوم التنزيل » و« الأنوار السنية في الألفاظ السنية » و« القوانين الفقهية في تلخيص مذهب المالكية » وكتاب « تقريب الوصول إلى علم الأصول » وغيرها ، وله فهرسة اشتملت على طائفة كبيرة من علماء المشرق والمغرب ، ولد بغرناطة سنة ٦٩٣ هـ وتوفي قتيلاً في موقعة طريف سنة ٧٤١ هـ (٣) .

وازدهر التصوف في هذا العصر ، وكان من أقطابه يومئذ أبو الحسن علي ابن فرحون القرشي القرطبي ، المتوفى سنة ٧٥١ هـ (١٣٥٠ م) ، وأبو اسحاق ابراهيم بن يحيى الأنصاري المرسي ، وقد ولد في سنة ٦٨٧ هـ وتوفي بغرناطة سنة ٧٥١ هـ (١٣٥٠ م) ، وله كتاب « زهرة الأكمال » في قصة يوسف ، وأبو عبد الله محمد بن محمد الأنصاري المالقي المولود سنة ٦٤٩ هـ ، والمتوفى سنة ٧٥٤ هـ (١٣٥٣ م) ، وله كتاب « بغية السالك في أشرف المسالك » في مراتب الصوفية وطرائق المريدين (٤) .

وظهر من المؤرخين ، محمد بن يحيى بن أبي بكر بن سعيد الأنصاري المالكي . وقد ولد سنة ٦٧٤ هـ ، وتولى الخطابة والقضاء بغرناطة ، وتوفي قتيلاً في

(١) نفح الطيب ج ٣ ص ١٨٢ و ١٩٦ .

(٢) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٤ .

(٣) نفح الطيب (عن الإحاطة) ج ٣ ص ٢٧١ ، و بروكلمان المصدر السابق ج ٢

ص ٢٦٥ .

(٤) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٥ .

سنة ٧٤١ هـ (١٣٤٠ م) في موقعة طريف . ومن آثاره كتاب « التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان بن عفان »^(١) .

ومن الرجل والرواة ، أبو البقاء خالد بن عيسى البلوى ، وقد رحل إلى إفريقية والمشرق بين سنتي ٧٤٦ و ٧٤٠ هـ ، وكتب عن رحلته كتاب « تاج المشرق في تحلية علماء المشرق » وانتفع في مؤلفاته بما كتبه ابن جبير عن المشرق^(٢) .

* * *

وأما العلوم فلم تزدهر مثل إزدهارها في الماضي ، ولم تشغل في الحركة الفكرية سوى مجال محدود . وكان من أشهر علماء ذلك العصر أبو زكريا يحيى بن هذيل حكيم غرناطة وفياسوفها المتوفى سنة ٧٥٣ هـ (١٣٥٣ م) ، وقد برع في الطب والفلسفة والعلوم والرياضة ، وكان من شيوخ ابن الخطيب^(٣) وقد وصفه ابن الخطيب في الإحاطة بأنه « درة بين الناس معطلة ، وخزانة على كل فائدة مقفلة » ونوه بروعة محاضراته وأدبه . وله شعر جمع في ديوان سمي « بالسلامانيات » . وقد نقل إلينا المقرئ طائفة من نظمته^(٤) . ونستطيع أن نضع في العلماء المعاصرين أيضاً شيخ ابن الخطيب أبا عثمان سعد بن أحمد بن ليون التجيبي ، وكان من أكابر الأئمة في الفقه ، واختصر عدة من أمهات الكتب مثل كتاب « بهجة المجالس » لابن عبد البر . وكتب كتباً في الهندسة والفلاحة^(٥) .

(١) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٠ ، وتوجد من هذا الكتاب نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية .

(٢) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٦ ، وتوجد من كتابه نسخة خطية بدار الكتب المصرية .

(٣) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٥٢ . وص ٢٥٨ .

(٤) نفح الطيب ج ٣ ص ٢٥٨ - ٢٦٣ .

(٥) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٣٠٢ .

الفصل الثالث

عهد النضج والازدهار

تقدم الحركة الفكرية . ابن سلبطور الشاعر . أبو القاسم الحسيني . ابن خاتمة . ابن الخطيب . نشأته وحياته . سفارته إلى المغرب وقصيدته للسلطان . وصفه لحياته في الوزارة . سقوطه وجوازه إلى المغرب . احتفاء السلطان به وإنشاده في حضرته . ابن الخطيب وابن خلدون . ما قاله الأمير ابن الأحمر في تقدير ابن الخطيب . تهنته للسلطان . عوده إلى الأندلس وإلى تولي الوزارة . وصفه بجهوده يومئذ . ما ينسب إليه من طغيان . فقدته لحظوته وجوازه إلى المغرب . كيد خصومه له . اتهامه بالزندقة . تطور الحوادث في المغرب . تفاهم بلاط غرناطة مع سلطان المغرب على الإيقاع به . الوزير ابن زمرك يلاحقه في فاس . اتهامه ومصرعه . مؤلفاته وآثاره . أثره في تطور الحركة الأدبية . ابن زمرك تلميذ ابن الخطيب . نشأته وحياته . مكانته الأدبية . نماذج من شعره وموشحاته . الموازنة بينه وبين ابن الخطيب . بقية الشعراء والأدباء في تلك الفترة . الفقهاء . المؤرخون .

شهدت الحركة الفكرية الأندلسية في مملكة غرناطة ، مرحلة النضج في أواسط القرن الثامن الهجري وأواخره ، وشهدت في النصف الأخير من هذا القرن ، ذروة قوتها وازدهارها . ولا غرو فهذه الفترة هي التي سطع فيها ابن الخطيب ، أعظم مفكرى الأندلس ، وأعظم كتابها وشعرائها في ذلك العصر . وامتازت هذه الفترة ، بروعة إنتاجها الأدبي في النثر والنظم ، وربما كان للأحداث والفن الداخلية الخطيرة التي جازتها الأندلس يومئذ ، أكبر أثر في تغذية هذه الحركة الممتازة ، وإمدادها بمختلف الإنفعالات القوية ، التي طبعت إنتاجها .

وقد بدأت هذه الحركة في عصر السلطان أبي الحجاج يوسف بن اسماعيل ، أعظم سلاطين بني نصر (٧٣٣ - ٧٥٥ هـ) وأشدّهم حماسة في تعصيد الآداب والفنون ، واستمرت من بعده طوال القرن الثامن الهجري ، وحفلات بعدد كبير من الأدباء والشعراء الممتازين . وقد استعرضنا الكثير منهم فيما تقدم حتى منتصف القرن الثامن ، وسنمضي هنا في استعراض بقية هذا الثبت الحافل حتى أواخر هذا القرن .

كان من أكابر الشعراء في بداية هذه الفترة ، ابن سلبطور شاعر ألمرية ، وهو أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن سلبطور الهاشمي ، والظاهر أنه قد يرجع إلى أصل من أصول المولدين الإسبان ، كما يدلّ بذلك اسمه سلبطور Salvador ؛

وقد نشأ بالمرية ، وبرع في الأدب ، وتدرّب منذ فتوته على ركوب البحر وقيادة السفن ، وناب في قيادة الأسطول عن خاله القائد أبي علي الرنداحي أحد أبناء أسرة الرنداحي ، التي اشتهرت عصرها بقيادتها للأساطيل الأندلسية وأساطيل سبتة . واشتهر ابن سلبطور برائق نظمه . وفي أواخر حياته انحرف عن جادة الصواب ، وانكب على ملاذه وشهواته ، وأضاع كل ثروته ، حتى ساءت حالته ، وانحدر إلى هاوية الفقر والبؤس ، فعبر البحر إلى العدو ، وتوفي بمراكش سنة ٧٥٥ هـ (١٣٥٤ م) . ومن شعره يمتدح السلطان حين حل بالمرية :

أثفرك أم سمط من الدر ينظم	وريقك أم مسك من الراح تخم
ووجهك أم باد من الصبح نير	وفرعك أم داج من الليل مظلم
أعلل منك الوجد والليل ملتقى	وهل ينفع التعليل والخطب مؤلم
وأقنع من طيف الخيال بزورة	لو ان جفوني بالمنام تنعم ^(١)

ومنهم أبو عبد الله محمد بن جزى ، الكاتب الشاعر ، ولد بغرناطة سنة ٧٢١ هـ ، وانتظم منذ فتوته بين كتاب السلطان أبي الحجاج يوسف ، وحظي لديه ومدحه بطائفة من القصائد الرنانة ، ثم غضب عليه ونكبه ، فغادر الأندلس إلى العدو ، ودخل في خدمة السلطان أبي عنان المريني ومدحه ، وكان يارعاً في النثر والنظم ، ذكره ابن الأحرر في « نثر الحمان » وأشاد بمقدرته ، ووصفه بأنه أعظم شاعر في عصره . وكانت وفاته بمراكش سنة ٧٥٧ هـ (١٣٥٦ م)^(٢) . وهو الذي أنشأ رحلة ابن بطوطة من مذكرات صاحبها حسبما ينوه بذلك في خاتمة الكتاب^(٣) .

ومنهم قاضى الجماعة ، أبو القاسم محمد بن أحمد الشريف الحسيني ، ولد سنة ٦٩٧ هـ ، وتوفي بغرناطة سنة ٧٦٠ هـ (١٣٥٨ م) ، ولي رئاسة القضاء ، وكان فوق تضلعه في الحديث والفقه ، شاعراً مجيداً ، وكتب في العروض والأدب ، وجمع شعره في ديوان أسماه « جهد المقل »^(٤) .

ومنهم أبو جعفر أحمد بن علي بن محمد بن خاتمة الأنصاري ؛ ولد بالمرية

(١) نفح الطيب (عن الإحاطة) ج ٣ ص ٤٥٠ .

(٢) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٢٨٤ وما بعدها ، وأزهار الرياض ج ٢ ص ١٨٩ وما بعدها وفيه يورد بعض شعره .

(٣) أزهار الرياض ج ٢ ص ١٩٥ ، ورحلة ابن بطوطة (مصر) ج ٢ ص ٢٠٧ .

(٤) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ١٠٧ .

سنة ٧٢٤ هـ . وتوفي سنة ٨٧٧٠ هـ (١٣٦٩ م) . وكان أديباً كبيراً وشاعراً مبرزاً .
وقد خصه ابن الخطيب في الإحاطة بترجمة قوية^(١) ، ووصفه بأنه « صدر يشار إليه ،
متفنن ، مشارك ، قوى الإدراك ، سديد النظر ، قوى الذهن ، جيد القريحة » .
ووصفه في كتابه « التاج المحلى » بقوله : « ناظم درر الألفاظ ، ومقلد جواهر
الكلام ، نحور الرواة ولبات الحفاظ » .

وكتب ابن خاتمة عن مسقط رأسه ألمرية ، كتاباً أسماه « مزية ألمرية على
غيرها من البلاد الأندلسية » ، وكتب عن الوباء الكبير الذى عصفت بالأندلس
سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) رسالة عنوانها : « تحصيل غرض القاصد في تفصيل
المرض الوافد » يصف فيها عصف الوباء وسيره بمدينة ألمرية^(٢) . وله ديوان شعر
محفوظ بمكتبة الإسكوريال . ومن شعره قوله من قصيدة طويلة :

من لم يشاهد موقفاً لفراق	لم يدرك كيف توله العشاق
إن كنت لم تره فسائل من رأى	يخبرك عن ولهى وعن أشواق
من حر أنفاس ونخفق جوانح	وصدوع أكباد وفيض مآق
دهى الفؤاد فلا اللسان بناطق	عند الوداع ولا بلفظ فراق
وقوله من قصيدة أخرى :	

لولا حياثى من عيون النرجس	لأثمت نحد الورد بين السندس
ورشفت من ثغر الأقاحة ريقها	وضممت أعطاف الغصون الميس
شتان بين مظاهر ونخاتل	وعف الحجا ومطهر ومدنس
ومجمجم بالعدل باكرنى به	والطير أفصح مسعد بتأنس ^(٣)
وقوله :	

هو الدهر لا يبقى على عائد به	فمن شاء عيشاً يصطبر لنوائبه
فمن لم يصب في نفسه فصابه	بقوت أمانيه وفقد حبايبه

وكتب ابن خاتمة إلى صديقه ابن الخطيب ، حينما أزمع الرحلة عن الأندلس ،
رسالة مؤثرة يخاطبه فيها بقوله : « إنكم بهذه الجزيرة شمس أفقها ، وتاج مفرقها ،

(١) تراجع هذه الترجمة في الإحاطة ج ١ ص ٢٤٧ - ٢٦٧ .

(٢) توجد من هذه الرسالة نسخة مخطوطة ضمن مجموعة تحفظ بمكتبة الإسكوريال (رقم ١٧٨٥

الغزيرى) .

(٣) تراجع هاتان القصيدتان في الإحاطة ج ١ ص ٢٥٢ - ٢٥٤ و ٢٥٥ - ٢٥٧ .

وواسطة سلكها ، وطراز ملكها ، وقلادة نحرها ، وفريدة دهرها ، وعقد جيدها المنصوص ، وتمام زينتها على المعلوم والمخصوص ؛ ثم أنتم مدار أفلاكها ، وسر سياسة أملاكها ، وترجمان بيانها ، ولسان إحسانها ، وطبيب مارستانها ، والذي عليه عقد إدارتها ، وبه قوام إمارتها . وقد رد عليه ابن الخطيب برسالة مؤثرة كذلك تفيض بلاغة وبياناً^(١) .

— ٢ —

نعرض بعد ذلك ، إلى ألع فترة في الحركة الفكرية ، في ظل مملكة غرناطة ، وهي الحركة التي كان قطبها ومحورها ، أعظم مفكرى الأندلس ، وأعظم شعرائها وكتابها ، في القرن الثامن الهجري ، ونعني لسان الدين بن الخطيب . وقد أشرنا فيما تقدم إلى نشأة ابن الخطيب ، واستعرضنا طرفاً من حياته السياسية ، ونريد هنا أن نبسط القول في حياته الفكرية والأدبية .

وهو لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن الخطيب ؛ ولد في لوشة من أعمال غرناطة ، في بيت من أكرم بيوت الأندلس في شهر رجب سنة ٧١٣ هـ (١٣١٣ م) ، ثم انتقل بيته من لوشة إلى غرناطة . وخدم أبوه عبد الله في القصر والخاص في عهد السلطان يوسف أبي الحجاج . وتلقى ابن الخطيب دراسة حسنة . ودرس الطب والفلسفة والشريعة والأدب ، وبرز في النثر والنظم منذ حدثته ، ولما توفي أبوه في سنة ٧٤١ هـ قتيلاً في موقعة طريف حل مكانه في خدمة القصر ، وهو فتى في عنفوانه ، وتولى أمانة السر للوزير أبي الحسن بن الجياب ، وزير السلطان يوسف . ولما توفي ابن الجياب في الوباء الكبير سنة ٧٤٩ هـ ، خلفه في الوزارة والكتابة ، إلى جانب كبير الوزراء الحاجب أبي النعيم رضوان ، وندبه السلطان لبعض السفارات والمهام السياسية . ولما توفي السلطان أبو الحجاج يوسف (٧٥٥ هـ) ، وخلفه ولده محمد الغني بالله ، استمر الحاجب رضوان في الاضطلاع برياسة الوزارة ، واستمر ابن الخطيب إلى جانبه في منصبه ، وندب للوصاية على الأمراء القصر ، وأرسله السلطان لأول ولايته (أواخر سنة ٧٥٥ هـ) سفيراً إلى السلطان أبي عنان المريني سلطان المغرب ، على رأس وفد من وزراء

(١) راجع الإحاطة حيث يورد رسالة ابن خاتمة ورد ابن الخطيب عليها ج ١ ص ٢٦١-٢٦٧ وكذلك أزهار الرياض ج ١ ص ٢٦٥ - ٢٧٠ . وراجع عن ابن خاتمة نفح الطيب ج ٣ ص ١٨٤ و ٤١١ ما بعدها ؛ وكذلك بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٥٩ .

الأندلس ، يستنصره ويستغيث به على مقاومة طاغية قشتالة ، وأنشد ابن الخطيب
بين يدي السلطان قصيدة يقول فيها :

خليفة الله ساعد القدر علاك ما لاح في الدجى قمر
ودافعت عنك كف قدرته ما ليس يستطيع دفعه البشر
وجهك في النائبات بدر دجى لنا وفي المحل كفك المطر
والناس طرا بأرض أندلس لولاك ما أوطنوا ولا عمروا
وجملة الأمر أنه وطن في غير عليك ما له وطر
فاهتز السلطان لقصيدته ، ووعدهم بإجابة ملتمسهم وتحقيق رغباتهم (١) .
ثم وقعت الثورة في غرناطة في شهر رمضان سنة ٧٦٠ هـ (١٣٥٩ م) ، وقتل
الحاجب رضوان ، وأقصى الغنى بالله عن الملك ، وفر إلى وادى آش ، وخلفه
على العرش أخوه اسماعيل ، وولى ابن الخطيب الوزارة للملك الجديد حيناً ،
ولكن سرعان ما غضب عليه ، وأمر باعتقاله ومصادرة أمواله . ويصف لنا
ابن الخطيب في ترجمته لنفسه ، في نهاية كتاب الإحاطة ، هذه المراحل الأولى من
حياته في قوله : « فقلدني السلطان سره (يريد أبا الحجاج) ولما يستكمل الشباب ،
واستعملني في السفارة إلى الملوك ، واستنابني بدار ملكه ، ورمى إلى بنجائه وسيفه ،
واثمنني على صون حضرته وبيت ماله ، وسخوف حرمه . ومعدل أمتناعه . ولما
هلك السلطان ، ضاعف ولده حظوتي ، وأعلى مجلسي ، وقصر المشورة على
نصحي ، إلى أن كانت الكائنة ، فاقتدى في أخوه المتغلب على الأمر ، فسجل
الاختصاص وعقد القلادة ، ثم حمله أهل الشحنة من أعوان ثورته ، على القبض
علي ، فكان ذلك » .

وتدخل السلطان أبو سالم ملك المغرب ، في شأن السلطان المخلوع الغنى بالله ،
وكانت تربطه به مودة وصداقة ، مذ كان أيام محنته يلوذ بحمايته بغرناطة ، وأرسل
إلى ملك غرناطة الجديد سفيراً يطلب إجازة الغنى بالله ووزيره المعتقل إلى المغرب ،
فأجابه السلطان اسماعيل إلى مطلبه ، وجاز الغنى بالله وابن الخطيب إلى المغرب
ووصلا إلى فاس في أوائل شهر المحرم سنة ٧٦١ هـ ، واستقبلهما السلطان أبو سالم
بترحاب ، واحتفل بقدومهما في يوم مشهود ، وأنشده ابن الخطيب يومئذ
قصيدته المشهورة ، التي يدعو فيها لنصرة سلطانه وهذا مطلعها :

سلا هل لديها من مخبرة ذكر
 وهل باكر الوسمى داراً على اللوى
 بلادى التى عاطيت مشمولة الهوى
 وجوى الذى ربي جناحي وكره
 ومنها :

قصده ناك يا خير الملوك على النوى
 كففتنا بك الأيام عن غلوائها
 وعذنا بذاك المجد فانصرم الردى
 ولما أتينا البحر يرهب موجه
 ومنها :

وأنت الذى تدعى إذا دهم الردى
 ومثلك من يرعى الدخيل ومن دعا
 ونخذ يا إمام الحق بالحق ثأره
 وأنت الذى ترجى إذا أخلف القطر
 بيالمرين جاءه العز والنصر
 ففى ضمن ما تأتى به العز والأجر (١)

وكان لإنشاد ابن الخطيب فى السامعين أعظم وقع . ويقول لنا ابن خلدون ، وقد كان من شهود ذلك الحفل ، إن ابن الخطيب أبكى سامعيه تأثراً وأسى . وكان هذا أول لقاء بين هذين المفكرين العظميين ، اللذين تجمع بينهما مشابهاة عدة . فقد كان كلاهما أستاذ عصره فى التفكير والكتابة ، وقد خاض كلاهما نفس الحياة السياسية المضطربة ، وأخذ بقسط بارز فى حوادث عصره ، وفى توجيه شئونه ؛ وكان ابن خلدون يشغل فى دول المغرب ، نفس المركز الذى يشغله ابن الخطيب بالأندلس . وقد استأثر فى المغرب بزمامة التفكير والكتابة ، التى يستأثر بها ابن الخطيب فى الأندلس . وتوثقت بين المفكرين العظميين مدى حين ، أواصر المودة والصداقة ، ثم فرقت بينهما عوامل الغيرة والتنافس ، حينما عبر ابن خلدون بعد ذلك إلى الأندلس ، واتصل بسلطانها الغنى بالله . وكان كل منهما يقدر صاحبه ويحل مواهبه ، وقد ترجم كلاهما صاحبه بما ينم عن هذا التقدير والإجلال ، فيقول لنا ابن خلدون مثلاً فى ترجمته لابن الخطيب إنه « بلغ فى الشعر والترسل حيث لا يجارى فيهما ، وملأ الدولة بمدايحه ، وانتشرت فى الآفاق قدماءه » . ثم ينوه بعد ذلك

(١) تراجع هذه القصيدة بأكملها فى فتح الطيب ج ٣ ص ٤٥ - ٤٧ ، وأزهار الرياض

بروعة رسائله السلطانية ، وبراعته في الإدارة والحكم^(١) .
ويصف لنا الأمير أبو الوليد اسماعيل بن الأحمر ، معاصر ابن الخطيب ،
خلاله ومواهبه « في كتابه نثر الحمان » في تلك العبارات الرنانة :
« هو شاعر الدنيا ، وعلم الفرد والثنيا ، وكاتب الأرض إلى يوم العرض ،
لا يدافع مدحه في الكتب ، ولا يمنح فيه إلى العتب ، آخر من تقدم في الماضي ،
وهو نفيس العدوتين ، ورئيس الدولتين ، بالاطلاع على العلوم العقلية ، والإمتاع
بالفهوم النقلية » . ثم يشير بعد ذلك إلى قسوته في الهجاء ، وإلى كونه قد هجا
ابن عمه سلطان الأندلس بما لا يليق ويحمل^(٢) .

وتجول ابن الخطيب حيناً بالمغرب ، واستقر بسلا ، وتوالت مدائحه للسلطان
أبي سالم ، ومنها قصيدة طويلة يهني فيها السلطان بفتح تلمسان (٧٦١هـ) هذا مطلعها :
أطاع لساني في مدحك إحساني وقد لمجت نفسي بفتح تلمسان
فأطلعها تفر عن شنب المنى وتسفر عن وجه من السعد حياني
كما ابتسم النوار عن أدمع الحيا وجف بنجد الورد عارض نيسان
كما صفقت ريح الشمال شمولها فبان ارتياح السكر في غصن البان^(٣)
وبعث إلى السلطان في الوقت نفسه من سلا ، برسالة بليغة يهنته فيها بذلك
الفتح الكبير^(٤) .

أنفق ابن الخطيب ومليكه في المتني زهاء عامين ونصف ، حتى مهدت
حوادث الأندلس لسقوط المغيص ، واستطاع الغني بالله بمعاونة الوزير عمر
المتغلب على المغرب ، أن يسترد ملكه ، وذلك في حمادى الآخرة سنة ٧٦٣ هـ
(١٣٦١ م) ، ورد السلطان وزيره ابن الخطيب إلى سابق مكانته في الوزارة ،
ولكنه لم ينعم تلك المرة بسابق حظوته ونفوذه ، إذ كان ينافسه في السلطة شيخ
الغزاة عثمان بن يحيى ، الذى قر به السلطان وأولاده عطفه ، لما قام به

(١) كتاب العبر ج ٧ ص ٣٣٢ وما بعدها .

(٢) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٣٣٤ ، حيث ينقل تلك الفقرات . وتوجد من كتاب
« نثر الحمان » نسخة خطية وحيدة بدار الكتب المصرية تحفظ برقم ١٨٦٣ آداب .

(٣) وردت هذه القصيدة بأكملها في نفح الطيب ج ٣ ص ١٦ - ١٩ ، وفي بعض أجزاءها ينحو
ابن الخطيب نحو أبي البقاء في مرثيته الأندلسية .

(٤) وردت هذه الرسالة في نفح الطيب ج ٣ ص ١٩ و ٢٠ .

من معاونته في استرداد ملكه . ونشبت بين الرجلين منافسة شديدة ، وما زال ابن الخطيب يحرض السلطان ويحذره من نفوذ عثمان وآله ، ويذكره بسابق غدرهم ، حتى استجاب السلطان إلى تحريضه ونكبهم (رمضان سنة ٧٦٤ هـ) ، وبذا خلا له الجو ، وتبوأ ذروة النفوذ والسلطان :

ويصف لنا ابن الخطيب ، جهوده وعمله في الوزارة يومئذ في قوله : « ثم صرفت الفكر إلى بناء الزاوية والمدرسة والتربة ، بكر الحسنات بهذه الحطة ، بل بالجزيرة فيما سلف من المدة ، فتأتى بمنة الله تعالى من صلاح السلطان ، وعفاف الحاشية ، والأمن ، وروم الثغور ، وتشمير الجباية ، وإنصاف الحماة والمقاتلة ، ومقارعة الملوك المجاورة ، في إثارة المصلحة الدينية ، والصدع فوق المنابر ، ضماناً من السلطان ، بترياق سم الثورة ، وإصلاح بواطن الخاصة والعامة ... » (١) . غير أن معظم الروايات تدل من جهة أخرى ، على أن ابن الخطيب جنح عندئذ إلى الاستبداد وسوء المسلك والسيرة . وإليك كيف يصف صديقه ومعاصره ابن خلدون هذه المرحلة من حياته :

« وغلب على هوى السلطان ، ودفع إليه تدبير الدولة ، وخطط بنيه بندمائه وأهل حكومته ، وانفرد ابن الخطيب بالحل والعقد ، وانصرفت إليه الوجوه ، وعلقت به الآمال ، وغشى بابه الخاصة والكافة ، وغصبت به بطانة السلطان وحاشيته ، فتنفخوا في السعاية فيه » (٢) .

وأنفق ابن الخطيب بضعة أعوام أخرى في الوزارة وهو يستأثر بكل سلطة ويتصرف تصرف الحاكم المطلق ، ويشير حوله ضراماً من البغضاء والحسد . وكان السلطان يعرض في البداية عن الإصغاء لأعدائه والوشاة به ، ولكنه بدأ في النهاية يتأثر بسعائتهم . وشعر ابن الخطيب أنه قد بدأ يتغير عليه ، وخشى العاقبة ، فعول على مغادرة الأندلس ، واستأذن السلطان في تفقد الثغور الغربية ، وسار إليها في نفر من خاصته ومعه ولده علي ، وما كاد يصل إلى جبل الفتح (جبل طارق) ، حتى عبر البحر إلى سبتة (٧٧٢ هـ) ، وذلك بتفاهم سابق بينه وبين السلطان عبدالعزيز المريني ، ملك المغرب ، وكان يقيم يومئذ في تلمسان عقب افتتاحه لها ، فقصده إليها ابن الخطيب ، واستقبله السلطان بحفاوة ، وأنزله أكرم منزل ، وبعث سفيراً إلى الأندلس ليسعى في استقدام أسرة الوزير المنى ، فأتى بها معززة مكرمة ،

(١) نفح الطيب ج ٣ ص ٤١ . (٢) ابن خلدون في كتاب العبر ج ٧ ص ٣٣٥ .

وتبوا ابن الخطيب في بلاط ملك المغرب أسى مكانة . وغص خصوم ابن الخطيب بغرناطة ، بنجاته على هذا النحو ، فعولوا على ملاحقته وصحق هيبتة ، فاتهموه بالزندقة والخروج على شريعة الإسلام ، والطعن في النبي ، والقول بالحلل ، وسلوك مذهب الفلاسفة الملحدين ، واستندوا في ذلك إلى بعض أقوال وردت في رسائله ومقالاته أولوها وفق مقاصدهم . وكان تلميذه وخلفه في الوزارة أبو عبد الله بن زمرك ، أكبر مروج لهذه الدعاية ، وتولى صوغ الإتهام القاضي أبو الحسن علي بن عبد الله النباهي عدواً ابن الخطيب الألد ، وأفتى بوجوب حرق كتبه التي تتناول العقائد والأخلاق ، فأحرقت في غرناطة بمحضر من الفقهاء والمدرسين والعلماء « لما تضمنته من المقالات التي أوجبت ذلك عندهم وحققته لديهم » (سنة ٧٧٣ هـ)^(١) . ووجه أبو الحسن إلى ابن الخطيب بالمغرب رسالة شديدة ، ينوه فيها بما ارتكبه من الطعن في حق النبي ، ويقول : « فإنه نقل عنكم في هذا الباب أشياء منكورة ، يكبر في النفوس التكلم بها ، أنتم تعلمونها وهي التي زرعت في القلوب ما زرعت من بغضكم وإيثار بعدكم ، مع استشعار الشفقة والوجل ، من وجه آخر عليكم ، ولولا أنكم سافرتم قبل تقلص السلطة عنكم ، لكانت الأمة المسلمة امتعاضاً لدينها ودنياها ، قد برزت بهذه الجهات لطلب الحق منكم » . ثم يعدد مثالبه في الحكم قائلاً : « فليس يعلم أنه صدر عن مثلكم من خدام الدول ، ما صدر من العبث ، في الإبشار والأموال ، وهتك الأعراض وإفشاء الأسرار ، وكشف الأستار ، واستعمال المكر والحيل والغدر ، في غالب الأحوال ، للشريف والمشروف والخدام والمخدوم »^(٢) . وسجل القاضي أبو الحسن تهمة الزندقة على ابن الخطيب ، وصادق السلطان على حكمه ، وأرسل القاضي رساله إلى السلطان عبد العزيز ، يطالب بتنفيذ حكم الشرع في الوزير الملحد وهو الإعدام ، فأنف السلطان لطلبه وعنف رسل الأندلس ، وقال لهم : « هلا أنفذتم فيه حكم الشرع وهو عندكم ، وأنتم عالمون بما كان عليه » وردهم خائبين ، وزاد في إكرام ابن الخطيب ورعايته^(٣) .

(١) كتاب المراقبة العليا ، أو تاريخ قضاة الأندلس لأبي الحسن النباهي المنشور بعناية الأستاذ لين بروفنسالي ص ٢٠٢ .

(٢) نفح الطيب ج ٣ ص ٦٩ .

(٣) راجع ابن خلدون في كتاب العبر ج ٧ ص ٢٣٥ و ٢٣٦ ؛ ونفح الطيب ج ٣ ص ٦٧ و ٦٨ .

ولما توفي السلطان عبد العزيز بعد ذلك بقليل (٧٧٤ هـ) ، وخلفه ولده السعيد طفلاً على العرش ، غادر بلاط المغرب تلمسان ، وسار ابن الخطيب برفقة الوزير أبي بكر بن غازي القائم بالدولة ، ونزل بفاس ، واقتنى الضياع والدور ، واستمر على مكانته في الدولة . ولكن حوادث المغرب ما لبثت أن تمخضت عن انقلاب جديد . ذلك أن الثورة نشبت في شمال المغرب ، على يد بعض الزعماء من بني مرين . وعصدت حكومة الأندلس هذه الحركة وأمدتها بالعون ، ونادى الثوار بولاية الأمير أحمد بن السلطان أبي سالم . وحاول الوزير ابن غازي مقاومة الثوار فلم يفلح ، واقتحم الخوارج فاس فأذعن الوزير ، وخلع الملك الطفل السعيد ، وجلس السلطان أحمد على العرش وذلك في أوائل سنة ٧٧٦ هـ (١٣٧٤ م) . وكان ابن الخطيب قد لحاً في أثناء ذلك إلى البلد الجديد (ضاحية فاس) ، وكان التفاهم قد تم بين السلطان ابن الأحمر (الغني بالله) وزعماء الفتنة ، بشأن ابن الخطيب ومصيره ؛ فلما وقع الانقلاب بادر السلطان الجديد بالقبض على ابن الخطيب واعتقاله ، تنفيذاً للعهد الذي قطعه لابن الأحمر ، ولم يدخر وزيره سليمان بن داود ، وقد كان من ألد خصوم ابن الخطيب ، جهداً في تشديد النكير عليه وتدبير مصرعه . وكان ابن الأحمر يتوق إلى الانتقام من وزيره السابق ، لما نمي إليه من أنه كان يحرض السلطان عبد العزيز على غزو الأندلس . وبعث ابن الأحمر وزيره أبا عبد الله بن زمرك إلى فاس ليعمل على تحقيق هذه الغاية ، وعقد السلطان أحمد مجلساً من رجال الدولة وأهل الشورى ، استدعى إليه ابن الخطيب لمناقشته ، ومواجهته بالتهمة المنسوبة إليه ، وأخصها تهمة الزندقة ، استناداً إلى ما ورد في بعض رسائله ، وعزر ابن الخطيب وعذب أمام الملأ ، وأفنى بعض الفقهاء المتعصبين بوجوب قتله ، ودس عليه الوزير سليمان بعض الأوغاد فقتلوه خنقاً في سجنه ، وأخذت جثته في الغد وأضرمت فيها النار ، ثم دفنت خارج فاس على مقربة من باب المحروق ، وما زال قبره المتواضع قائماً هنالك في مكانه حتى يومنا (١) .

وهكذا ذهب الكاتب والمفكر الكبير ، ضحية الجهالة والتعصب والأحقاد

(١) كتبت ترجمة مستفيضة لحياة ابن الخطيب ، والحوادث السياسية التي تقلب فيها ، صدرت بها كتاب « الإحاطة في أخبار غرناطة » ، الذي عنيت بتحقيقه ، وصدر منه الجزء الأول بالقاهرة في سنة ١٩٥٦ (ص ٣٠ - ٨٢) .

السياسية الوضيعة ؛ وقد نقل إلينا صديقه ابن خلدون عنه أبياتاً من الشعر ، كان يرددّها وهو في سجنه ، ويرثي بها نفسه توقّعاً لمصيره المحزن :

بعدنا وإن جاورتنا البيوت وجئنا بوعظ ونحن صُموت
وأنفاسنا سكنت دفعة كجهر الصلاة تسلّاه القنوت
وكنّا عظاماً فصرنا عظاماً وكنّا تقوت فيها نحن قوت
وكنّا شمس مماء العلاء غربن فناحت عليها البيوت
فقل للعدا ذهب ابن الخطيب وفات ومن ذا الذي لا يفوت
فمن كان يفرح منكم له فقل يفرح اليوم من لا يموت^(١)

* * *

ومن الصعب علينا أن نلم بمجهود ابن الخطيب الفكري والأدبي في هذا المقام الضيق . والحقيقة أن ابن الخطيب كان عبقرية متعددة الجوانب ، فكان طبيباً وفيلسوفاً وشاعراً وكاتباً ، وكان سياسياً ومؤرخاً ، وقد ترك لنا تراثاً ضخماً متنوعاً ، من مؤلفات عديدة ، أدبية وتاريخية وطبية ، وطائفة كبيرة من غرر القصائد والموشحات ، ورسائل أدبية وسياسية لا تحصى ؛ ومن أشهر رسائله بنوع خاص رسائله السلطانية ، التي كان يكتبها عن حوادث عصره برسم ملوك المغرب ، وتلك التي كان يوجهها إلى أهل الأندلس من وقت إلى آخر ، يحثهم فيها على الجهاد ، والذود عن وطن يتربص به العدو ، ويعتزم القضاء عليه ، وهي رسائل تدلّ بما كان لابن الخطيب من فكر ثاقب وبصيرة نافذة ، هذا فضلاً عما تمتاز به من روعة البيان والأسلوب .

ونستطيع أن نذكر من مؤلفات ابن الخطيب الكتب الآتية :

الإحاطة في أخبار غرناطة وهو أشهر آثاره التاريخية والأدبية . التاج المحلى في مساحلة القدح المعلى . ربحانة الكتاب ونجعة المتتاب ، وهو يضم طائفة من أشهر رسائله السلطانية . اللمحة البدرية في الدولة النصرية . رقم الحلال في نظم الدول ، وهو تاريخ شعري لدول الإسلام والأندلس . نقاضة الجراب وعلالة الاغتراب ، وفيه يصف أحواله وأخباره أثناء إقامته منفياً بالمغرب . كناسة الدكان بعد انتقال السكان . معيار الاختيار في ذكر المشاهد والديار . السحر والشعر ، وهو من مختاراته الشعرية . ويوجد من هذه الآثار كلها نسخ مخطوطة بمكتبة دير الإسكوريال

(١) كتاب العبر ج ٧ ص ٣٤١ ، و ٣٥٢ ؛ وأزهار الرياض ج ١ ص ٢٣١ .

والكتيبة الكامنة في أدباء المائة الثامنة . وأعمال الأعلام ، وكلاهما يوجد بمكتبة أكاديمية التاريخ الملكية بمديرية .

ومن مؤلفاته الطبية : عمل من طب لمن حب ، وهو كتاب في وصف الأمراض والعلاج ألفه للسلطان أبي سالم المريني (ومنه نسخة خطية بخزانة القرويين وأخرى بمكتبة مدريد الوطنية) . والرجز في عمل الترياق . رسالة تكوين الحنين . الوصول لحفظ الصحة في الفصول . مقنعة السائل في المرض الهائل ، وفيه يصف أعراض الوباء الكبير في سنة ٧٤٩ هـ (ومنه نسخة بمكتبة الإسكوريال) .

ومن مؤلفاته السياسية : رسالة في السياسة . كتاب الإشارة إلى أدب الوزارة ، (وهما أيضاً بالإسكوريال) وقد نقلهما المقرئ في نفح الطيب^(١) .

وله ديوان شعر عنوانه : « الصيب والجهم ، والماضي والكهام » توجد منه نسخة مخطوطة بخزانة جامع القرويين بفاس .

ولابن الخطيب تراث حافل من الرسائل الأدبية والسياسية التي وردت في مختلف مؤلفاته ، وقد نقل إلينا المقرئ منها العدد الجهم ، ونقل إلينا ابن خلدون بعض ما كان يتبادل له معه من رسائل خاصة^(٢) .

ويفرد المقرئ في كتابه نفح الطيب مجلدين كاملين (هما الثالث والرابع) لابن الخطيب وأخباره ، وشعره ونثره ، وشيوخه وتلاميذه ؛ وقد نقل إلينا فيهما ، من مختلف كتبه ورسائله ، فصولاً وشذوراً لا تحصى ، كما نقل إلينا وصيته لأولاده ، وهي من أبدع ما كتب^(٣) .

وكان ابن الخطيب من أئمة الموشحات الأندلسية ، ومن أشهر نظم الموشحة الدائعة الصيت التي مطلعها :

جاءك الغيث إذا الغيث همى يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلماً في الكرى أو خلسة المختلس

(١) يراجع الثبت الكامل لمؤلفات ابن الخطيب وأمكنة وجودها ، وما نشر منها وما لم ينشر ، في مقدمة كتاب الإحاطة الذي سبقت الإشارة إليه (ج ١ ص ٦٨ - ٧٨) .

(٢) يراجع كتاب العبر ج ٧ ص ٤٢١ - ٤٣٠ ، وكذلك التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً (القاهرة ١٩٥١) . وقد أورد لنا المقرئ في أزهار الرياض ثبوتاً لآثار ابن الخطيب (ج ١ ص ١٨٩ و ١٩٠) .

(٣) يراجع نفح الطيب ج ٤ ص ٤١٩ - ٤٢٦ .

إذ يقود الدهر أشتات المني ينقل الخطو على ما يرسم
زُمرّاً بين فرادى وثُننا مثل ما يدعو الوفودَ الموسم
والحيا قد جَلَل الروض سنا فتغور الزهر منه تبسم^(١)

- ٣ -

كان ابن الخطيب قطب الشعر والنثر في عصره ، وكان محور الحركة الفكرية الأندلسية كلها ، في أواسط القرن الثامن الهجري ، تجتمع إليه وتلتف حوله ، وقد أتينا على ذكر بعض أكابر الشعراء من معاصريه ، المتقدمين عنه ، مثل ابن الجباب وابن سلبطور وابن خاتمة . وسنأتي هنا على ذكر أقطاب الشعر والأدب من معاصريه المتأخرين عنه . بيد أنه يجب أن نلاحظ أن عبقرية ابن الخطيب الأدبية ، قد طبعت هذه المرحلة كلها ، من تاريخ الحركة الفكرية الأندلسية ، بطابعها القوي ، وبعثت إليها كثيراً من أسباب القوة والروعة ، حتى ليسوغ لنا أن نقول إن مدرسة ابن الخطيب الأدبية ، امتدت منذ عصره إلى أواخر القرن الثامن ، وأوائل القرن التاسع الهجري .

بل يلوح لنا أن الأثر القوي الذي بثته هذه المدرسة الأدبية الباهرة ، لم يقتصر على مملكة غرناطة ، بل تعدى حدود الأندلس المسلمة إلى قواعد الأندلس الذاخرة ، التي دخلت في حوزة النصارى وتدجن أهلها ، فبدا بها شعاع ضئيل من النبوغ الأدبي القديم ، وظهر فيها بعض الشعراء الموهوبين ، بالرغم من مضى أكثر من قرن على خضوعها لحكم إسبانيا النصرانية . فمثلاً نجد بين كتاب بلنسية وشعرائها يومئذ ، الفقيه أبا جعفر بن عبد الملك العذري ، ومما كتبه لابن الخطيب في بعض الشئون :

إني بمجسّدك لم أزل مستيقناً أن لا يهدم بالتغير ما بني
إذ أنت أعظم ماجد يعزى له صنع وأكرم من عفا عمن جنى
وكتب له أيضاً :

إن كان دهر قد أساء وجاراً فذمام مجسّدك لا يضيع جاراً
فلأنت أعظم ملجأ ينجي إذا ما الدهر أنجد مؤعداً وأغاراً^(٢)

(١) راجع هذه الموشحة بأكملها في نفح الطيب ج ٤ ص ١٩٨ وما بعدها .

(٢) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٤٢٦ .

وكان الوزير ابن زمرك ، تلميذ ابن الخطيب وخلفه في الوزارة ، أعظم شخصية تزعمت من بعده الحركة الأدبية بالأندلس . وهو محمد بن يوسف بن محمد الصريحي الشهير بأبي عبد الله بن زمرك ، أصله من شرقي الأندلس ، ونزحت أسرته إلى غرناطة . واستقرت بربض البيازين حي غرناطة الشمالي . وبه ولد أبو عبد الله سنة ٧٣٣ هـ (١٣٣٣ م) ودرس دراسة حسنة في غرناطة وفاس ، وخدم حيناً في بلاط السلطان أبي سالم المريني . ولما نفي السلطان الغني بالله إلى المغرب ، اتصل به ابن زمرك وانقطع إليه . ثم عاد حين استرد ملكه ، فولاه كتابة السر وغمره بعطفه . وظهر ابن زمرك يومئذ ببارع أدبه ، وروعة نظمه ونثره ، وينوه ابن الخطيب في الإحاطة بذكائه وخلاله ، وتفوقه في الدرس والأدب ، ويصفه بالعبارات الآتية : « شعلة من شعل الذكاء ، تكاد تحترق جوانبه ، كثير الرقة ، فكه ، غزل ، مع حياء وحشمة ... ثاقب الذهن ، أصيل الحفظ ، ظاهر النبل ، بعيد المدى الإدراك » ثم يصف شعره بأنه « مترام إلى هدف الإجابة ، كلف بالمعاني البديعة ، والألفاظ الصقيلة ، غزير المادة » .

وعمل ابن زمرك في كتابة السر في كنف ابن الخطيب وتحت رعايته . ولكنه كان ضالعا مع خصومه ، فلما انقضت العاصفة على ابن الخطيب وأصابته المحنة ، كان ابن زمرك في طليعة أعدائه الساعين إلى هلاكه . وقد خلفه في الوزارة عقب فراره ، وهو الذي تولى مهمة السعي لدى بلاط فاس في محاكمته وإعدامه حسبما أسلفنا . واستمر ابن زمرك على حظوته ونفوذه أعواماً طويلة ، ولكنه كان لطغيانه وغطرسته وحدة لسانه ، يثير حوله كثيراً من البغض والخصومة . وفي أواخر عهد الغني بالله فقد حظوته ونفوذه ، واعتقل ونفي خارج غرناطة ، ولكنه عاد بعد وفاته إلى الحضرة . وفي بداية عهد السلطان محمد بن يوسف الثاني ، أعيد إلى الوزارة ، فأساء السيرة ، واشتد عيئه وطغيانه ، وكثر خصومه . وفي ذات ليلة من أواخر سنة ٧٩٧ هـ (١٣٩٥ م) دهمه في منزله جماعة من المتآمرين ، فقتلوه ولديه وخدمه شرقتة . وينوه المقرئ بما في ذلك من عبر الدهر ، إذ كان ابن زمرك هو الساعي إلى مقتل أستاذه ابن الخطيب ، فكان أن دارت عليه الدائرة ، وقتل مثله ولكن بصورة أقسى وأشنع (١) .

(١) نفح الطيب ج ٤ ص ٢٨٦ - ٢٩٠ ، وينقل إلينا المقرئ ترجمة ابن زمرك عن كتاب معاصره الأمير اسماعيل بن الأحمر ، وينقل إلينا في أزهار الرياض كثيراً من موشحاته (ج ٢ ص ١٧٧

ولا بن زمر ك شعر كثير جيد نقل إلينا المقرئ منه قصائد وموشحات عديدة ،
فمن شعره قوله يمتدح سلطان الأندلس الغنى بالله في سنة ٧٦٥ هـ :

لعل الصبا إن صافحت روض نعيان	تؤدي أمان القلب عن ظبية البان
وماذا على الأرواح وهي طليقة	لو احتملت أنفاسها حاجة العاني
وما حال من يستودع الريح سره	وبطابها وهي النجوم بكتان
وكالطيب أستقر به في سنة الكرى	وهل تنقع الأحلام غلة ظمان
إمام أعاد الملك بعد ذهابه	إعادة لا تأتي الحسام ولا واني
فغادر أطلال الضلال دوارسا	وجدد للإسلام أرفع بنيان
وشيدها والمجد يشهد دولة	محافلها تراهي يمين وإيمان

ومن قوله من قصيدة طويلة يصف فيها دار الملك (الحمراء) :

فكم فيه للأبصار من منزله	تجد به نفس الحليم الأمانيا
وتهوى النجوم الزهر لو ثبتت به	ولم تك في أفق السماء جواريا
به البهو قد حاز البهاء وقد غدا	به القصر آفاق السماء مباهايا
وكم حلة قد جللت بحليها	من الوشى تنسى السابري الممانيا
وكم من قسي في ذرة ترفعت	على عمد بالنور باتت حواليا
فتحسبها الأفلاك دارت قسيها	تظل عمود الصبح إذ بات باديا
سوارى قد جاءت بكل غريسة	فطارت بها الأمثال تجري سواريا
بل المرمر المجلو قد شف نوره	فيجلو من الظلماء ما كان داجيا
به البحر دفاع العباب تخاله	إذا ما انبرى وفد النسيم مباريا
إذا ما جلّت أيد الصبا متن صفحة	أرتنا دروعاً أكسبتنا الأباديا

ومن قوله يشيد بأعمال الأميرين سعد ونصر ، ولدى السلطان ، في ميدان الجهاد :

يا آل نصر أنتم تُسرج الملى	في كل خطب قد تبهم مظلم
الفاتحون لكل صعب مقفل	والفارجون لكل خطب مبهم
والباسمون إذا الكماة عوايس	والمقدمون على السواد الأعظم
أبناء أنصار النبي وحزبه	وذوى السوابق والحوار الأعظم

ومن قوله في الغزل :

= وما بعدها) : وقد أورد المستشرق برزوكلمان (ج ٢ ص ٢٢٩) تاريخ مقتله في سنة ٧٩٥ هـ (١٣٩٣ م) ولكن رواية ابن الأحرار هي الأرجح .

قيادى قد تملكه الغرام ووجدى لا يطاق ولا يرام
ودمعى دونه صوب الغوادى وشجوى فوق ما يشكو الحمام
إذا ما الوجد لم يبرح فؤادى على الدنيا وساكنها السلام
ولا بن زمرك موشحات كثيرة رائعة ، ومنها موشحته الشهيرة فى الإشادة
بغرناطة ومحاسنها إذ يقول :

نسيم غرناطة عليل لكنه يبرئ العليل
وروضها زهره بلبل ورشفه ينقع الغليل
سقى بنجد ربا المصلى مباكراً روضه الغمام سقى بنجد ربا المصلى
تبسم الزهر فى الكمام والروض بالحسن قد تجلى وجرد النهر عن حسام
ودوحها ظله ظليل يحسن فى ربه المقبل
والبرق والجو مستطيل يلعب بالصارم الصقيل
عقيلة تاجها السبيكة تطل بالركب المنيف كأنها فوقه مليكة
كرسيها جنة العريف تطلع من عسجد سبيكة شمسها كلما تطيف
أبدعك الخالق الجميل يا منظرأ كله جميل
قلبي إلى حسنه يميل وقلبنا قد صبا جميل (١)
ونكتفى بما تقدم فى الاقتباس من شعر الوزير ابن زمرك . ويأوح لنا أنه قد
يتفوق فى شاعريته على أستاذه ابن الخطيب ، وأن إنتاجه الشعرى ولا سيما فى
الموشحات قد يتفوق على إنتاج أستاذه ، على أنه لا ريب أنه يقصر عن مجارة
ابن الخطيب ، فى كثير من نواحي التفكير والإنتاج الأخرى .

* * *

وظهر من أعلام تلك المدرسة الزاهرة ، إلى جانب ابن الخطيب وابن زمرك ،
عدة آخرون من الشعراء والكتاب ، منهم أبو سعيد فرج بن لب ، ولد سنة
٧٠١ هـ وتوفى سنة ٧٨٢ هـ (١٣٨٠ م) ، وكان من أشهر أساتذة المدرسة النصرية
(جامعة غرناطة) ، وقد ولى خطابة الجامع الأعظم حيناً ، وكان فوق تضلعه فى
الفقه شاعراً مجيداً ، وقد ترك لنا مجموعة من الفتاوى المشهورة ، وطائفة من الشعر
الجيد ، ومن نظمته قوله :

(١) راجع ترجمة ابن زمرك وهى التى نقلها المقرئ عن ابن الأحرار ، فى نفح الطيب ج ٤ ص ٨٧
وما بعدها ؛ وقد نقل إلينا المقرئ كثيراً من قصائده وشعره (ج ٤ ص ٢٩٦ - ٣٥٤) .

خذوا للهوى من قلبي اليوم ما أبقى فما زال قلبي كله للهوى رقا
دعوا القلب في لظى الوجد ناره فنار الهوى الكبرى وقلبي هو الأشتى
سلوا اليوم أهل الوجد ماذا به لقوا فكل الذي يلقون بعض الذي ألقى
فإن كان عبد يسأل العتق سيدي فلا تبغى لمن مالكي في الهوى عتقا (١)

ومنهم القاضي أبو محمد بن عطية بن يحيى المحاربي كاتب الإنشاء ، وكان بارعاً
في النظم والنثر وخطيباً مفوهاً؛ أصله من وادي آش وبها ولد سنة ٧٠٩ هـ ، وتولى
القضاء بها . ووفد على غرناطة سنة ٨٧٥٦ ودرس على ابن الخطيب وغيره من
أكابر الشيوخ ، وتولى الكتابة السلطانية حيناً . ومن شعره قوله :

ألا أيها الليل البطيء الكواكب متى ينجلي صبح بليل المآرب
وحتى متى أرمى النجوم مراقباً فمن طالع منها على إثر غارب
أحدث نفسي أن أرى الركب سائراً وذنبى يقصيني بأقصى المغارب
فلا فزت من نيل الأمانى بطائل ولا قتت في حق الحبيب بواجب (٢)

ومنهم الأمير الأديب أبو الوليد اسماعيل بن يوسف بن محمد بن الأمير
الرئيس أبي سعيد فرج أمير مالقة المعروف بالأمير ابن الأحمر ، وقد سبقت
الإشارة إليه . وكان أديباً ضليعاً ، وقد تناول في كتابه « نثر فرائد الجمان في نظم
فحول الزمان » (٣) ، أكابر الكتاب والشعراء في القرن الثامن الهجري ، وأفاض
بنوع خاص في ذكر ابن الخطيب وتلميذه ابن زمرك ، ونقل عنه المقرئ في كتابه
نفع الطيب وأزهار الرياض ، معظم ما كتب عن أدباء عصره ، ونقل عنه
بالأخص كثيراً مما كتبه عن ابن زمرك حسبما بينا في موضعه ، وللأمير ابن الأحمر
كتاب آخر عنوانه « نثر الجمان في شعر من نظمى وإياه الزمان » يحتوى على
اثنى عشر باباً ، يتحدث فيها عن شعر ملوك بني الأحمر ، وشعر ملوك
بني حفص ، وبني مرين ، وبني عبد الواد ، وعن شعر وزراء الأندلس
وقضاة وكتباها ، وكتاب وقضاة المغرب في عصره (٤) . ولمع الأمير ابن الأحمر

(١) راجع نفع الطيب ج ٣ ص ٢٦٧ و ٢٦٨ .

(٢) نفع الطيب ج ٤ ص ٣٦٢ - ٣٦٥ .

(٣) وتوجد منه نسخة بدار الكتب المصرية تحفظ برقم ٧٩١٣ أدب .

(٤) وتوجد منه نسخة وحيدة مخطوطة بدار الكتب المصرية فاقصة الأول وتحفظ برقم ١٨٦٣

في أواخر القرن الثامن ، وتوفي سنة ٨٠٧ هـ (١٤٠٤ م)^(١) .

ومنهم أبو عبد الله الشريشي تلميذ ابن الخطيب ومساعدته (أمينه) ، وكان مؤدباً لأبناء السلطان ، وهو الذي تولى نقل كتاب الإحاطة لابن الخطيب من مسوداته ، بتكليف منه لاشتغاله بشئون الوزارة ، فجاء في ستة مجلدات ، وكان الشريشي في الوقت نفسه من علماء القرآن والسنة^(٢) .

ونستطيع أن نذكر إلى جانب هذه الجمهرة الممتازة من الشعراء والأدباء ، عدة من الفقهاء والمؤرخين ، منهم ابن فرحون برهان الدين إبراهيم بن علي العمري الأندلسي المتوفى سنة ٧٩٩ هـ (١٣٩٧ م) ، وكان فقيهاً ومؤرخاً ، ومن أشهر مؤلفاته كتاب « الديباج المذهب في معرفة علماء أعيان المذهب » ، وهو تراجم طبقات المالكية . وقد طبع مراراً بالمغرب ومصر ، وكتاب « طبقات علماء العرب » ومنه نسخة بالإسكوريال^(٣) .

ومنهم أبو الحسن علي بن عبد الله بن محمد الحذاقي المالقي النباهي ، ولد بمالقة سنة ٧١٣ هـ ودرس على أشياخها . ثم وفد على غرناطة ، وتولى القضاء ، ثم عين كاتباً بالديوان . وانتهى إلى ولاية قضاء الجماعة بغرناطة . ونشبت بينه وبين ابن الخطيب خصومة شديدة ، وتبادلا الطعن والهجاء اللاذع في عدة رسائل ومقالات ، ولما نكب ابن الخطيب وغادر الأندلس ، كان النباهي في مقدمة متهميه بالكفر والزندقة والساعين إلى هلاكه حسباً قدمنا . وتوفي في أواخر القرن الثامن . ومن آثاره الباقية كتاب يسمى « بالإكليل في تفضيل التخييل » وهو كتاب أدبي وضعه مؤلفه على لسان نخلة وكرمة . ويعرف أحياناً « بنزهة البصائر » وهو العنوان الذي تحمله نسخته الخطية الموجودة بمكتبة الإسكوريال . وقد وردت به نبذة حسنة عن تاريخ الدولة النصرانية حتى عصر المؤلف^(٤) . وكتاب « المراقبة العليا فيمن يستحق

(١) وللأمر ابن الأحرر أيضاً كتاب في تاريخ بني مرين عنوانه « النفحة المرينية واللمعة المرينية » وهو كتاب صغير الحجم ومنه نسخة مخطوطة بالإسكوريال (رقم ١٧٦٩ الغزيري) .

(٢) نفح الطيب ج ٤ ص ٧٥٧ .

(٣) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٢٩٨ و ٢٩٩ ؛ وبروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٣ .

(٤) تحفظ هذه النسخة بمكتبة الإسكوريال برقم ١٦٥٣ الغزيري . وهي قديمة وتحمل تاريخاً لقرءاتها هو سنة ٧٨١ هـ (١٣٧٩ م) . وتوجد منه نسخة خطية أخرى بخزانة الرباط . . .

القضاء والفتيا» وهو تاريخ لقضاء الأندلس^(١).

ومنهم الفقيه أبو القاسم بن سلمون الكنانى الغرناطى قاضى الجماعة بغرناطة المتوفى سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) ، ومن آثاره كتاب «العقد المنظم للحكام فيما يجرى بين أيديهم من الوثائق والأحكام»^(٢) ؛ وأبو عبد الله محمد بن على بن إسحاق الرندى المتوفى سنة ٧٩٢ هـ (١٣٨٩ م) ، وكان من أقطاب التصوف ، وقد كتب كتاب «الرسائل الكبرى» و«غاية المواهب العلية بشرح الحكم العطائية»^(٣) . وأما فى ميدان العلوم فلم نعر على ما يدل على ازدهارها فى تلك الفترة ؛ على أننا نستطيع أن نذكر أن ابن الخطيب كان إلى جانب أدبه الممتاز ، عالماً بالطب والفلسفة ، وكان من تلاميذه الطبيب العالم ابن المهنا شارح ألفية ابن سينا ، وشرحه عليها من أقيم الشروح^(٤) .

(١) وقد قام على نشره الأستاذ ليث بروكلمان ، ونشره بعنوان «تاريخ قضاء الأندلس» . (القاهرة سنة ١٩٤٨) . وراجع فى ترجمة النباهى الكتاب المشار إليه (المقدمة) ، وأزهار الرياض ج ٢ ص ٥-٧ . وراجع بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٢ .
(٢) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٤ .
(٣) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٥ .
(٤) راجع نفح الطيب ٤ ص ٧٥٦ .

الفصل الرابع

العصر الأخير والآثار الباقية

ركود الحركة الفكرية . الشعراء الذين ظهوروا في هذا العصر . القاضي أبو بكر بن عاصم . ولده . أبو يحيى . بعض الكتاب والأدباء . الشريف العقيلي وزير أبي عبد الله . ما حدث بعد سقوط غرناطة . القضاء على اللغة العربية . الأندلسيون لغة الموريسكيين السرية . كتاب الأندلسيون . الأدب الموريسكي وخصائصه . نماذج من تراث الأندلسيون . الشهاب الحجري وابن غانم . محاولة إسبانيا القضاء على تراث الأندلس . إيداع الكتب العربية الباقية بقصر الإسكوريال . المجموعة العربية في الإسكوريال . حجبتها عن أعين الباحثين . معجم الغزيري . انتفاع البحث الحديث بالآثار الأندلسية . الفن في الأندلس . تطوره منذ القرن الرابع الهجري . ازدهاره أيام الناصر وابنه المستنصر . تقدمه أيام الطوائف . ركوده أيام المرابطين والموحدين . الفن في مملكة غرناطة . الموسيقى الأندلسية . الآثار الأندلسية الباقية .

بدأت مملكة غرناطة منذ أوائل القرن التاسع الهجري تستقبل عصرها الأخير ، وأخذ الاستقرار ، والسلم النسبي الذي تمتعت به حيناً في أواخر القرن الثامن ، وأوائل القرن التاسع ، يتصرم شيئاً فشيئاً ، وأخذت من ذلك الحين تواجه طائفة من الثورات والانقلابات الداخلية المتوالية ، وتواجه في الوقت نفسه طوابع الصراع الأخير بينها وبين إسبانيا النصرانية ، التي أخذت منذ منتصف القرن التاسع (القرن الخامس عشر الميلادي) توثق أواصر اتحادها ، وتستجمع قواها لإنزال ضربتها الأخيرة بعدوتها القديمة الثالثة إسبانيا المسلمة .

وما كانت الحركة الفكرية لتزدهر في مثل هذا الأفق الكدر ، ولذا نجد في هذا العصر فراغاً ملحوظاً في ميادين التفكير والأدب في الأندلس المحتضرة ، ولا نعتز إلا بقلّة من المفكرين والأدباء الذين ظهوروا في تلك الفترة متفرقين متباعدين .

وكان ممن ظهر في ميدان التفكير والأدب في تلك الفترة علي بن عاصم شاعر السلطان يوسف الثاني وقد جمع له مجموعة شعرية في سنة ٧٩٣ هـ (١٣٩١ م) (١) . والقاضي أبو بكر محمد بن عاصم القيسي الغرناطي ، وقد كان أعظم شخصية

(١) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٥٩ .

ظهرت في هذا الميدان في مملكة غرناطة في أوائل القرن التاسع الهجري. واد بقرناطة سنة ٥٧٦٠ (١٣٥٨ م) وتوفي بها سنة ٨٣٩ هـ (١٤٢٦ م) ، وبرع في النحو والمنطق والبيان والفقه ، وتولى الوزارة للسلطان يوسف الثاني سنة ٥٧٩٣ (١٣٩١ م) ثم ولي قضاء الجماعة بقرناطة ، وبرز في النثر والنظم ، ووضع عدة قصائد وأراجيز ، تناول فيها بعض مسائل من علم الأصول ، والقراءات والفرائض والنحو وغيرها . وله كتاب « تحفة الأحكام في نقط العقود والأحكام » . وهو مختصر في الفقه ، وقد طبع بمصر وترجم إلى الفرنسية . وله أيضاً كتاب « حقائق الأزهار في مستحسن الأجوبة والمضحكات والحكم والأمثال والحكايات والنوادر » كتبه للسلطان يوسف . ويعرف بابن الخطيب الثاني لبراعته وجودة نثره ونظمه (١).

وكذلك برع ولده العلامة الفقيه أبو يحيى بن عاصم في النثر والنظم ، وتولى كآبيه منصب الكتابة والوزارة ، وكتب شرحاً على كتاب أبيه « تحفة الأحكام » وكتب رسالة فلسفية تاريخية عن أحوال غرناطة في عصره ، وما دهاها من آثار التفرق والفتنة ، ووصف فيها أساليب السياسة الإسبانية ، في الكيد والتفريق بين المسلمين ، أسماها « جنة الرضى في التسليم لما قدر الله وقضى » . ونقل إلينا منها المقرئ في أزهار الرياض نبذاً عديدة تشهد بمقدرة صاحبها ، وعميق تفكيره ورائق أسلوبه (٢) .

وأبو الحسن سلام بن عبد الله الباهلي الإشيلي ، وقد كتب سنة ٨٣٩ (١٤٢٥ م) كتاب « الذخائر والأعلاق في أدب النفوس ومكارم الأخلاق » (٣) .

ومنذ منتصف القرن التاسع الهجري ، تضمحل الحركة الفكرية في مملكة غرناطة شيئاً فشيئاً . ولاغرو فقد كانت غرناطة تخوض في تلك الفترة بالذات ، مرحلة الصراع الأخير ، وكانت الحرب الأهلية تمزق أوصالها ، وخطر الفناء الداهم يبدو لها قوياً في الأفق .

بيد أن شعاعاً أخيراً كان يبدو في تلك الظلمات المدهمة . فرى في أواخر

(١) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٨ و ٩ ؛ وبروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٤

(٢) راجع أزهار الرياض ج ١ ص ٥٠ وما بعدها ، وص ١٦٧ وما بعدها . وتوجد من هذه الرسالة نسخة خطية بالخزانة الملكية بالرباط .

(٣) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٥٩ . وقد طبع الكتاب المشار إليه بالقاهرة

القرن التاسع ، في الوقت الذي كانت غرناطة تسلم فيه أنفاسها الأخيرة ، عدة من المفكرين والأدباء الذين يستحقون الذكر والتنويه .

وكان من هؤلاء القاضي أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن القاسم الأصبحي المعروف بابن الأزرق المتوفى سنة ٨٩٥ هـ (١٤٩٠ م) ، أصله من وادي آش ، وتولى قضاء الجماعة بغرناطة . وكان بارعاً في النثر والنظم والتاريخ . ومن آثاره كتاب في السياسة الملكية عنوانه : « الإبريز المسبوك في كيفية أدب الملوك » (سنة ٨٣٨ هـ) . وكتاب « بدائع السلك في طبائع الملك » لخص فيه كثيراً من آراء ابن خلدون في مسائل الرياسة والملك وعلق عليها ، وأتى في موضوعها بزيادات جديدة ، وقسمه إلى أربعة كتب ، الأول في حقيقة الملك والخلافة وسائر أنواع الرياسة ، والكتاب الثاني في أركان الملك وقواعد مبناه ضرورة وكمالاً ، والثالث فيما يطالب به السلطان تيسيراً لأركان الملك وتأسيساً لقواعده ، والرابع في عوائق الملك وعوارضه^(١) . وله أيضاً كتاب « روضة الأعلام بمنزلة العربية من علوم الإسلام » . ولما ساءت الأحوال في غرناطة وأشرفت على السقوط ، عبر البحر إلى تلمسان ، ثم ارتحل إلى المشرق ، ونزل بالقاهرة في عصر السلطان الأشرف قايتباي ، واتصل به ، وحاول أن يستحث همته لتسيير جيش إلى الأندلس لاسترداد غرناطة^(٢) ، ومن شعره الموثر حين نزل النصارى بمرج غرناطة :

مشوق بخيمات الأحبة مولع	تذكره نجد وتغريه لعلع
مواضعكم يا لاثمين على الهوى	فلم يبق للسلوان في القلب موضع
ومن لي بقلب تلتظي فيه زفرة	ومن لي يحفن تنهى منه أدمع
رويدك فارقب للطائف موقعاً	ونخل الذي من شره يتوقع
وصبراً فإن الصبر خير تيممة	ويا فوز من قد كان للصبر يرجع
وبت واثقاً باللطف من خير راحم	فألطافه من لمحة العين أسرع ^(٣)

(١) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٦ ؛ وأزهار الرياض ج ١ ص ٧١ ، وج ٣ ص ٣١٨ و ٣١٩ . وقد طبع كتاب الإبريز المسبوك بالجزائر . وتوجد من كتاب « بدائع السلك » نسختان خطيتان في خزانة الرباط (المكتبة الجلاوية) ، إحداها قديمة كتبت في سنة ٩٩٨ هـ ، والأخرى حديثة .

(٢) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٤٩ - ٥١ .
(٣) أزهار الرياض ج ٣ ص ٣١٨ ، ٣١٩ .

ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد الحداد الشهير بالوادي آشي ، وهو أيضاً من أهل وادي آش ، وكان أديباً بارعاً وله تعليقات كثيرة على أدباء عصره ، وقد غادر غرناطة قبيل سقوطها بقليل ونزل بتلمسان (١) .

وأبو الحسن علي بن محمد القرشي البسطي ، وقد ولد في بسطة ودرس في غرناطة وتلمسان وتونس ، ورحل إلى المشرق وأدى فريضة الحج ، ثم استقر بعد عوده في غرناطة . ولما اشتد ضغط النصارى على غرناطة عبر البحر إلى تلمسان ، وعاش هناك حيناً حتى توفي سنة ٨٩١ هـ (١٤٨٦ م) . وقد برع البسطي في الرياضيات ووضع كتباً في الحساب والجبر (٢) .

وأبو الحسن علي بن قاسم بن محمد التجيبي الزقاق وقد درس في غرناطة وفاس وتولى الخطابة في غرناطة . ولما سقطت غرناطة في يد النصارى ، عبر البحر إلى المغرب ، وتوفي سنة ٩١٢ هـ (١٥٠٦ م) . ومن آثاره كتاب « المنهج المنتخب إلى أصول المذهب » في الفقه المالكي (٣) .

ومن أواخر الشعراء الذين ظهوروا في هذه الفترة ، فترة الانهيار الأخيرة ، شاعر من نوع خاص ، هو عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم القيسي . وقد ترك لنا ديواناً ، يضم قصائد عديدة تشير إلى بعض أحداث العصر مثل سقوط جبل طارق وحصار مالقة وسقوط أرشدونة وبلش وغيرهما من قواعد مملكة غرناطة ؛ ويستدل من بعض إشاراتِهِ إلى أنه قضى ردها من الزمن في أسر القشتاليين ؛ وهو يعترف لنا في مقدمة ديوانه بأنه شعره « منحط من الدرجة المتوسطة » ، ولكنه مع ذلك مغتبط بنظمه وإنشاده . والظاهر أن عبد الكريم القيسي قد عاش حتى سقوط غرناطة أوقبله بقليل ، إذ يضم ديوانه قصيدة في رثاء ابن الأزرقي ، وهو قد توفي في سنة ٨٩٥ هـ ، والديوان في حملته يلتقي أضواء كثيرة على أحداث الصراع الأخير الذي انتهى بسقوط غرناطة ، وتشير قصائده إلى كثير من شخصيات العصر من قادة ، وكتاب ، وقضاة وغيرهم (٤) .

(١) راجع أزهار الرياض ج ١ ص ٥٥ و ٧١ .

(٢) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٦ .

(٣) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٥ .

(٤) توجد نسخة مخطوطة من هذا الديوان بخزانة الرباط رقم ١٩٨ ق (مخطوطات الأوقاف) ، وهو يقع في ١٥٣ صفحة من القطع المتوسط .

ومن نظم عبد الكريم المذكور قوله :

خليلي ما مثلي يقوم ذليلاً ويحمل من ضيم الزمان ثقيلاً
ويرضى بعيش يداً ببسطة يحدد من خطب الحموم جليلاً
فلا تعذل في رحيلي عنكما فإني لما أنعى عزمت رحيلاً

وقوله حينما اتصل به خبر سقوط جبل طارق في يد الأسبان :

أوارى أوارى القلب مع شدة اللوح فتبكه عين دمعها داهم السطح
وأخفى الذي ألقى من الحزن والأسى وظاهر حال الدهر يؤذن بالصفح
وأبدى من التقطع للفتح حالة تسوء صديقي في مساء وفي صبح
على أن أعظم شخصية ظهرت في تلك الفترة القائمة في ميدان التفكير والأدب
هي شخصية الوزير والكاتب الشاعر أبي عبد الله محمد بن عبد الله العربي المعروف
بالشريف العقيلي ، وزير أبي عبد الله محمد آخر ملوك الأندلس وكاتبه . وكان
فوق تضاعفه في الفقه ، إمام عصره في النثر والنظم ، وقد وصفه الوادي أشي بأنه
« شاعر العصر ، مالك زمامي النظم والنثر » وبأنه « إمام هذه الصناعة ، وفارس
حلبة القرطاس والبراعة ، وواسطة عقد البلاغة والبراعة » . ووصفه أيضاً بحق
بأنه نخاعة أدباء الأندلس .

ومن شعره يمدح السلطان أبا عبد الله حينما ولاه منصب الكتابة قوله :

أوجه سعدى انحط عنه اللثام أم بدر أفق فض عنه الغمام
كأنما أقبس نور البها ن وجه مولانا الإمام
ابن أبي الحسن الأسرى الذي قد كان للأملأك مسك الختام
ضرغام قد أنجب شهباً له في صدق بأس ومضاء اعتزام
دام له النصر الذي جساءه والسيف من طلي أعاديه دام

ومنه قوله حينما نزل النصاري بمرج غرناطة :

بالطبل في كل يوم وبالنفسير نراع
وليس من بعد هذا وذاك إلا القراع
يارب خيرك يرجو من هيض منه الذراع
لا تسلبني صبرا منه لقلبي ادراع

التي كتبها على لسان السلطان أبي عبد الله إلى سلطان المغرب ، وعنوانها « الروض العاطر الأنفاس في التوسل إلى المولى الإمام سلطان فاس »^(١) . ومهد لها بعد اللديباجة بقصيدته الرائعة التي مطلعها :

مولى الملوك ملوك العرب والعجم رعيًا لما مثله يرعى من الذمم
بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن جار الزمان عليه جور منتقم
وقد سبق أن أتينا على ذكر هذه الرسالة المؤثرة الفريدة ، في موضعها ،
وأوردنا طرفاً من قصيدة العقيلي ، ومن أقواله التي يخاطب بها السلطان أبو عبد الله
سلطان فاس مستجيراً به ، ملتجئاً إلى حمايته ، معتذراً إليه عما بدر منه .
وعبر البحر إلى المغرب قبيل سقوط غرناطة وبعده جمهرة من العلماء والأدباء ،
هم البقية الباقية من مجتمع الأندلس الفكرى^(٢) . وقد آثروا مغادرة الوطن القديم
على التعرض لفقد الحرية ، وإمتهان الدين والكرامة القومية ، ومذلة العبودية ،
في ظل حكم يضطرم نحو الأمة المغلوبة بغضاً وتعصباً .

وكان سقوط غرناطة في يد اسبانيا النصرانية في سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م) ،
نذيراً بانهايار صرح الأمة الأندلسية القومية والاجتماعي ، وتبدد تراثها الفكرى
والأدبي ؛ وكانت اسبانيا النصرانية ترمى قبل كل شيء ، إلى القضاء على خواص
الأمة المغلوبة الدينية والفكرية ، وعلى سائر الروابط الأدبية التي تربطها بماضيها
المجيد ؛ وقد نجحت السياسة الإسبانية ، بدعمها طغيان الكنيسة وعسف ديوان التحقيق ،
في تحقيق هذه الغاية إلى أبعد حد ؛ فلم يمض على سقوط غرناطة نحو خمسين عاماً ،
حتى استحالت بقية الأمة الأندلسية إلى شعب جديد ، يستبدل دينه القديم —
الإسلام — بالنصرانية المفروضة ، ويتكلم القشتالية ، وتغيض البقية الباقية من
خصائصه القديمة ، شيئاً فشيئاً ، تحت ضغط التشريعات والإجراءات التعسفية المرهقة .
وكانت الأمة الأندلسية خلال هذا الاستشهاد الحزن ، الذي فرض عليها ،
تحاول بكل وسيلة أن تستبقى ما وسعت ، من تراثها الفكرى والروحي القديم ،
فكان الموريكسيون بالرغم من دخولهم في النصرانية ، يتعلقون سرّاً بدينهم القديم ،
وكثير منهم يؤدون شعائر الإسلام خفية ، وديوان التحقيق من ورائهم يطاردهم

(١) نشر المقرئ هذه الرسالة بأكملها في نفح الطيب ج ١ ص ٦١٧ - ٦٢٨ ؛ وفي أزهار

الرياض ج ١ ص ٧٢ - ١٠٢ . (٢) راجع أزهار الرياض ج ١ ص ٧١ .

بمنهى القسوة حسباً فصلنا في موضعه . وكانوا يحافظون جهدهم على لغتهم العربية . ولكن السياسة الإسبانية المرهقة ، فطنت منذ الساعة الأولى إلى أهمية اللغة في تدعيم الروح القومية ، فعولت على سحق العربية وكل آثارها ، وصدر منذ أيام الإمبراطور شارل كان في سنة ١٥٢٦ ، أول قانون لتحريم التخاطب بالعربية على الموريسكيين ، ولكنه لم يطبق بشدة . وكانت العربية ما تزال حتى ذلك الوقت لغة لأدب يختصر ، وكانت ما تزال لغة التعاقد والتعامل ، لا في أنحاء مملكة غرناطة القديمة وحدها ، ولكن أيضاً في مجتمعات المدجنين القاصية في أراجون حسباً تدل عليه وثائق عثرنا عليها^(١) . وكان يوجد ثمة بين الموريسكيين من ينظم بها الشعر . وقد أشرنا فيما تقدم إلى القصيدة التي أرسلها الموريكيون إلى السلطان بايزيد الثاني يلتمسون فيها النجدة والغوث ، وهي قصيدة تم بالرغم من ركاكتها عن روح شعرية مؤثرة . واستمر الموريسكيون عصر آخر يوجهون رسائلهم العربية إلى مسلمي المغرب . وكانت السياسة الإسبانية تضيق ذراعاً بالعربية ، وتزداد منها توجساً . فعادت في عهد فيليب الثاني لتتخذ خطواتها الحاسمة في القضاء عليها . وصدر في سنة ١٥٦٦ قانون جديد صارم يحرم على الموريسكيين التخاطب بالعربية أو التعامل بها على نحو ما فصلنا ، وطبق القانون بمنهى الشدة . وكانت العربية قد أخذت تغيض شيئاً فشيئاً في غمر العسف والاضطهاد ، فجاء القانون الجديد ضربة قاضية لمظاهرها الباقية . وفي هذا الوقت بالذات نشهد نفثات العربية الأخيرة لدى الموريسكيين في بعض قصائدهم السرية الثورية . وفي لغة الخطاب الذي نشرناه فيما تقدم لمولاي عبد الله آخر زعماء الثورة الموريسكية ما يوضح لنا مدى الانحلال الذي انتهت إليه اللغة العربية في ذلك العصر .

ولم تمض فترة قصيرة على تطبيق القانون الجديد بتحريم العربية نهائياً ، وفرض القشتالية كلغة للتخاطب والتعامل على الموريسكيين ، حتى اختفت المظاهر والآثار الأخيرة للعربية . ومع ذلك فقد وجد الموريسكيون في القشتالية ذاتها متنفس تفكيرهم وأدبهم القديم ، فكانوا يكتبون القشتالية سراً بأحرف عربية ، وأسفر ذلك بمضي

(١) ومن ذلك وثيقة زواج بالعربية مؤرخة يوم الأحد ١٧ يولييه الموافق ١٠ رمضان سنة ٩٢٨ هـ (١٥٢٢ م) بين « الشب الكريم محمد خشان وبين المقدم القاضي ابراهيم ذاهر في الثيبة الكريمة فاطمة بنت علي سائته من ربض مسلمي من مدينة قلعة أيوب » ، وهي بخط عربي رديء (مكتبة مدريد الوطنية مجموعة الأحيادر رقم 4968 وثيقة نمرة ٩) .

الزمن عن خلق لغة جديدة اشتقت أصلاً من القشتالية لغتهم المفروضة ، واختلطت بها ألفاظ عربية وأعجمية مختلفة من اللهجات المعاصرة والقديمة ، ولاسيما اللغة الرومانية . وكانت هذه اللغة الرومانية *Lengua Romanica* لغة المستعربين أيام الدولة الإسلامية ، وكانت معروفة ذائعة في قرطبة وغيرها من الحواضر الأندلسية التي تقيم بها طوائف كبيرة من النصارى المستعربين ، وكان يتكلم بها بعض أكابر الصقالبة في البلاط ، ويعرفها بعض العلماء المسلمين . وكان المسلمون الأندلسيون يستعملون أحياناً بعض عبارات من هذه اللغة الرومانية ، ولاسيما في الكتابات العلمية ، ويسمونها في كتبهم « باللطينية » ، (أعني اللاتينية) ، وقد تسرب منها بمضى الزمن كثير من الألفاظ في الزجل الأندلسي ، ولاسيما زجل ابن قزمان . وفي مملكة غرناطة ، كانت اللغة العربية الشعبية ، يتسرب إليها كثير من الألفاظ الرومانية والقشتالية^(١) ، وهذه هي التي تسربت بالأخص فيما بعد إلى لغة الموريسكيين السرية ، التي لجأوا إلى ابتكارها حينما حرمت عليهم لغتهم الأصلية ، واحتفظوا لها بالأحرف العربية .

وتعرف هذه اللغة التي اتخذها الموريسكيون بالأخص متناً لديهم القديم « بالأنحميادو » *Aljamiado* ، وهو تحريف إسباني لكلمة « الأعجمية » ، وقد لبثت زهاء قرنين سراً مطموراً حتى ظفر بعض العلماء الإسبان بمجموعة من مخطوطاتها في أوائل القرن الماضي ، وعندئذ ظهرت عنها المعلومات الأولى . ويقول العلامة مننديث إى بلايو في تعريفها ، بأنها هي اللغة الرومانية القشتالية *Romana Castela* تكتب بأحرف عربية . ويقول المستشرق سافدرا في تعليل قيامها « إن الطابع الدينى الذى كان يفصل بين الموريسكيين وباقي الإسبان يطغى على إنتاجهم الأدبى ، وكأنما هو قرين طبيعى للمنتجات العربية ، فهم لكى يحتفظوا بجلوة حية من العقيدة الحمادية ، كتب العلماء والفقهاء ، كتباً « عما يجب أن يعتقده وأن يحفظه كل مسلم حسن الإيمان » عن صفات الله ، وعن بعض المسائل الفقهية ، وفقاً لمذهب مالك ، وكتبوا عن التاريخ المقدس ، والقصاص الدينى ، وتعبير الرويا وغير ذلك »^(٢) .

R. Menéndez Pidal : Orígenes del Español p. 418, 429 & 431 (١)

E. Saavedra : Discurso leído ante la Real Academia Española (Madrid (٢)

وهكذا كتب الموريكيون القرآن سرّاً باللغة العربية ، مقروناً بشروح وتراجم أنحميادية ، وكتبوا سيرة الرسول والمدائح النبوية ، وقصص الأنبياء ، وبعض كتب الفقه والحديث بالأنحميادو — وهو رسم لغتهم العزيزة — ، مع كتابة البسملة والآيات القرآنية دائماً خلال هذه النصوص السرية باللغة العربية ، ويلاحظ أن معظم كتب الأنحميادو المذكورة تكتب بالشكل الكامل ، حتى يمكن قراءتها بطريقة صحيحة .

واستعمل الموريكيون الأنحميادو في أدبهم ، وفي التعبير عن أفكارهم ومثلهم في النثر والنظم . ومن أشهر شعرائهم محمد ربدان Rabadán أو الراعي وقد كان حياً في أوائل القرن السابع عشر ، وأصله من روضة خالون من أراجون . وله نظم كثير ، وقصائد قصصية ، وأخرى دينية . ومن آثاره في القصص الديني كتاب عن « هول يوم الحساب » و« قصة النبي منذ بدء الخليفة » وأغنيات دينية ، وأسماء الله الحسنى ، وكلها بالنظم . وشعره يمتاز بالحزالة والسهولة . ومن شعراء الموريكيين أيضاً إبراهيم دى بلفاد ، وخوان ألفونسو ، ومنهم الشاعر محمد الخرطوشي ، وقد كان من أهل بيانة ، ومنهم أخيراً شاعر موريكي مجهول ، عاش في تونس في أوائل القرن السابع عشر بعد النفي ، واشتهر بنقده لمسرحيات « لوبي دى فيجا » شاعر اسبانيا الأكبر .

ومن أشهر كتاب الأنحميادو الكاتب الفقيه المسمى « فتي أيرالو » El Mancebo de Avéralo ، وهو مؤلف لكتب في التفسير ، وتلخيص السنة ، وقد طاف بمعظم أنحاء اسبانيا ، وشهد مصائب قومه ووصفها ، وتلقى العلوم الإسلامية القديمة عن عالمتين بارعتين في الشريعة هما « مسلمة أبده » La Mora de Ubéda ، و« مسلمة آبله » La Mora de Avila ، وألف كذلك في القصص الديني .

وعنى الموريكيون بنوع خاص بكتابة القصص وترجمته ، ومن آثارهم المعروفة في ذلك كتاب « حديث القصر الذهبي » Alhadiz de Alcázar del Oro وكتاب الحروب ، و« حديث علي والأربعين جارية » ، بيد أن أعظم كتبهم القصصية الحماسية هو كتاب « قصة الإسكندر ذي القرنين » ، والتنويه ببطولة الإسكندر يرجع إلى شخصيته ، ولأنه ذكر في القرآن ، وأنه بعث لكي يحارب ملوك الأرض ويحطم الأصنام ويقتل عبادها . . . ومن أشهر كتب الموريكيين الأنحميادية ، كتب المدائح النبوية والأدعية ،

والواقع أن كتابة المدائح النبوية باللغة القشتالية ترجع إلى عصر مبكر ، وقد كتبها المدجنون بهذه اللغة منذ القرن الثالث عشر ، وانتشرت بعد ذلك بين طوائف المدجنين في مختلف مدن قشتالة وأراجون . ثم كتبها الموريسكيون بالألحميادو أو القشتالية العربية .

والظاهرة الواضحة في الأدب الموريسكي ، هو أن كتاب الألحميادو كانوا يفكرون ويكتبون بالروح العربية ، وإن كان تعبيرهم عن ذلك يجرى بالقشتالية ، وأنهم كانوا يتأثرون في الأسلوب بلهجات مقاطعاتهم المختلفة ، أكثر من تأثرهم بقواعد اللغة .

ويرى النقدة أن نثر كتاب الألحميادو أفضل من نظمهم ، وأنه نثر مطبوع نال من التكلف ، ومن الملاحظ فيه بنوع خاص تسرب الألفاظ العربية الصحيحة إليه من آن لآخر ، والأدب الموريسكي لا يتجه إلى مراعاة الرونق والتنميق ، ولكنه يرمى قبل كل شيء إلى تصوير التاريخ والتقاليد القومية في إطار ديني . وبالرغم مما يغلب عليه من الضعف والركاكة بصفة عامة ، فإنه يصل أحياناً إلى مرتبة الطلاوة ، بل يصل أحياناً إلى مرتبة البلاغة . وأفضل مثل لذلك شعر ريدان^(١).

كما يرى البعض ، أنه وإن لم تكن للأدب الموريسكي ثروة من الجمال أوقية أدبية ذات شأن ، فإن له قيمة تاريخية واجتماعية هامة ، في الكشف عن التقاليد والعادات ، وأنه قد ترك أثره في اللغة الإسبانية ، وفي الشعر الإسباني ، وفي الأفكار الدينية وغيرها .

بل وقد نوه غير واحد من الكتاب الإسبان ، بما كان عليه الأدب الموريسكي بالرغم من ضعفه وضآلة شأنه ، من شاعرية ، وشعور بالجمال ، وخيال ممتع ، وذوق سليم . ويعلق الدون برونات على اختفاء الموريسكيين واختفاء أدبهم بعبارات شعرية يقول فيها : « إن السياسة الإسبانية لم تكتف بنفي الموريسكيين ، وما ترتب عليه من نضوب حقولنا ومصانعنا وخزائننا ، ولم يقتصر الأمر على انتصار التعصب ، وبربرية ديوان التحقيق ، بل تعداه إلى اختفاء الشعر ، وشعور الجمال الموريسكي ، والأدب السليم الذي رفع سمعة تاريخنا » .

(١) راجع : Menéndez y Pelayo : Historia de los Heterodoxos Espanoles

E.Saavedra : ibid. وكذلك ، p. 345 - 349

وراجع الموسوعة الإسبانية العامة تحت كلمة Aljamia

ثم يقول : « إنه اختفى بطرد الموريسكيين ، الأدب المعطر ، والشاعرية الشعبية ، والخيال الممتع ، ومصدر الوحي الذي كانوا يمثلونه . وقد غاض باختفائهم من شعرنا هذا التلوين والفن والحيوية والإلهام والحماسة ، التي كانت من خواصهم ، وحل محلها الظلام في الأفق الأدبي خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر » (١) . وقد اطلعنا خلال إقامتنا بمدريد على كثير من الكتب والوثائق الأنحبيادية ولاسيما في المكتبة الوطنية التي تحتفظ منها بطائفة كبيرة ، ومنها كتب صلوات وأدعية وفقه ، ومعظمها يفتح بالبسملة والصلاة على النبي ، وقد لفت نظرنا بالأخص مخطوط منها ، وهو كتاب في الصلاة والأدعية ، تدل عبارته الاختتمية على أن اللغة العربية كانت ما تزال بالرغم من تحريمها ومطاردتها ، تدرس وتكتب سراً حتى أواخر القرن السادس عشر ، وإليك نص العبارة المذكورة :

« أفرغ للعبد من الله تعالى المعترف بذنبه الراجي غفران ذنبه ، على بن محمد بن محمد شكار من بلاد مزماذيانتي اليوم الآخر من جمادى الثاني يوما أربعة وعشرين من شهر مارس من يوم من ثلث منه عام ثمانية وتسعين تسع مائة من الحجرة النبي صلى الله عليه وسلم . ولعددا من المسيح منه عام وتسع وثمانين ألف وخمسمائة آمين آمين يارب العالمين . تمت بحمد الله وحسن عونه وكان الفراغ ثم صلاة العصر » (٢) .

واطلعنا كذلك على عدة من كتب الأدب الموريسكي ، ومنها قطعة مخطوطة من كتاب يوسف بأنه « قصيدة يوسف » ، وهو كتاب شعري عن حياة يوسف لمؤلف مجهول (٣) .

وهناك أيضاً طائفة من الكتب الدينية ، ومنها كتب في السيرة النبوية والتفسير والحديث والصلوات ، وعدد كبير من الوثائق الموريسكية المختلفة ، وكثير منها يفتح بالبسملة ويتخللها ، اسم الله والصلاة على رسوله .

D. Pascual Boronat : Los Moriscos Espanoles y su Expulsión. (١)

p. 384, 386, & 389

(٢) يحفظ هذا المخطوط بالمكتبة الوطنية بمدريد برقم 5306 بفهرس المخطوطات العربية .

(٣) يحفظ هذا المخطوط بالمكتبة الوطنية برقم R. 247 . وتوجد من هذا الأثر الموريسكي أيضاً

قطعة مخطوطة بمكتبة أكاديمية التاريخ بمجموعة جاينجوس ، وقد وضع العلامة المؤرخ الأستاذ مننديث بيدال عن هذا المؤلف كتاباً نقدياً نشر فيه النص الأنحبيادي مقروناً بتخريج اسبابه بعنوان :

La Poema de Yuçuf (Granada 1952)

على أن هذه الآثار الدينية التي حاول الموريسكيون أن يدونوا فيها تعاليم الإسلام وسيرة النبي ، تحتوي في أحيان كثيرة على بعض التعاليم النصرانية ، تبرز بتعاليم الإسلام ، وتعرض فيها المثل الإسلامية أحياناً في صور المثل النصرانية ، وقد يصور النبي العربي من بعض النواحي في صور المسيح . ويرجع هذا المزيج الغريب إلى ظروف العصر ، وإلى ضغط المطاردة الدينية التي لبث الموريسكيون تحت روعها ، وإلى رهبة محاكم التحقيق التي استمرت في عسفها ومطارداتها الدموية . بيد أن الآثار الدينية التي خافها الموريسكيون ثم في معظمها عن بغضهم للنصرانية ومثلها وتقاليدها ، مما يدل على أن تسرب التعاليم النصرانية إلى كتبهم لم يكن سوى نتيجة لظروف العصر التي باعدت قسراً بينهم وبين تعاليم دينهم الحقيقية .

وقد وجدت في أواخر القرن السادس عشر بيدرو ساكروموني القريب من غرناطة ، ألواح من الرصاص عليها كتابات دينية باللاتينية والعربية ، تتحدث عن حياة المسيح والرسول ومريم ، وعن الإسلام وبعض قواعده ، وتبرز فيها التعاليم الإسلامية بالتعاليم المسيحية . وقد رأى بعض الباحثين أن هذه الألواح كتبها الموريسكيون ، وفيها يحاول علماءهم أن يجدوا حلاً وسطاً للتوفيق بين الدينين ، وأن يصنعوا مزيجاً معقولاً من العقيدتين . وقد حملت هذه الألواح فيما بعد إلى رومة ، وترجم قسمها اللاتيني ، ثم حكم بأنها أوهام وخرافات وضعت لمسح الدين المسيحي وهدمه (١) .

هذا ، ويوجد ثمة بعض الكتاب الموريسكيين ، الذين استطاعوا أن يغادروا إسبانيا في أواخر العهد الموريسكي ، قبيل النفي بقليل ، وأن يكتبوا بالعربية لغة آبائهم وأجدادهم ، بعض الآثار التي انتهت إلينا ، ولدينا من هؤلاء مثلاًن بارزان ، الأول ، هو باسمه الأندلسي ، محمد بن عبد الرقيق الحسيني الأندلسي الذي سبقت الإشارة إليه ، وقد هاجر قبل النفي إلى تونس ، وترك لنا بالعربية كتابه « الأنوار النبوية في آباء خير البرية » ، وهو الذي اقتبسنا منه ، ما كتبه في خاتمته عن أحوال إخوانه الموريسكيين ، وعن البواعث التي حملت إسبانيا على نفيهم (٢) .

(١) Menéndez y Pelayo : Historia de los Heterodoxos Espanoles.p.354

(٢) وتوجد منه نسخة خطية بخزانة الرباط (المكتبة الكتانية رقم 1288) ، ومذكور

في نهايته أنه تم تحريره بتونس في سادس شعبان سنة ١٠٤٤ هـ

والثاني هو حسبما يسمى نفسه باسمه الأندلسي ، أحمد بن القاسم بن أحمد الفقيه قاسم بن الشيخ الحجري ، ويعرف بالشهاب الحجري ، وكذلك بأفوقاي ، وهو موريسكي من أحواز غرناطة ، استطاع أن يغادر الأندلس في سنة ١٠٠٧ هـ (١٥٩٨ م) ، أعنى قبل النفي بثلاثة عشر عاما . ويروى لنا الشهاب ، قصة فراره من اسبانيا في خاتمة كتابه « العز والمنافع » الذي نتحدث عنه فيما بعد ، على النحو الآتي :

« وأقول اعلم أن أول ما تكلمت به ببلاد الأندلس ، كان بالعربية ، وكانت النصراني دمارهم الله ، تحكم في من يجدوه يقرأ العربية ، فتعلمت القراءة الأعجمية للأخذ والاعطى ، ثم ألهمني الله سبحانه أن أخرج من تلك البلاد إلى بلاد المسلمين لما تحققت أن الكفار ، كانوا في الثغور يبحثون عن كل من يرد عليهم لعلهم يجدونه أندلسيا مخفيا ليحكموا فيه لأنهم كانوا منعوهم من الثغور ليلا يهربوا إلى بلاد المسلمين ، فجلست سنين ، نتعلم الكلام والأخذ في كتبهم ليحسبوا أني منهم إذ أمشي إلى بلادهم للخروج منها لبلاد الإسلام . ولما أن جئت إلى البلاد التي هي على حاشية البحر ، حيث هو الحرس الشديد ، وجلست بينهم فلم يشكوا في بما رأوا مني من الكلام والحال والكتابة ، وجئت من بينهم إلى بلاد المسلمين ، وبهذه النية تعلمت وبلغت في كتبهم . ولكل امرئ ما نوى . ثم رأيت أن بسبب التعليم أنه كان بنية القرب من الله ببلاد المسلمين ، فتح لي بذلك العلم المنهى عنه ببيان الملوك المسدودة عن كثير من الناس » .

وقد اتصل الشهاب الحجري ، عقب وصوله إلى المغرب ، بالسلطان أحمد المنصور ، ملك المغرب يومئذ ، واشتغل مترجماً للبلاط ، في عهد المنصور وولده السلطان مولاي زيدان المتوفى سنة ١٠٣٧ هـ (١٦٢٧ م) ، إذ كان يجيد الإسبانية إلى جانب العربية . واستعمله السلطان فوق ذلك للسفارة عنه في بعض البلاد الأوربية ، ورحل الشهاب في أواخر حياته إلى المشرق ، وأدى فريضة الحج . ولما عاد ، نزل بتونس ، وقربه أميرها الداي مراد يومئذ . وهناك توثقت أواصر الصداقة بينه وبين زميل موريسكي مهاجر يسمى باسمه الأندلسي الرئيس ابراهيم ابن أحمد بن غانم بن محمد بن زكريا الأندلسي . وكان الرئيس ابراهيم هذا فيما يبدو من زعماء الجند ، وقد ألف بالإسبانية (الأعجمية) كتابا في فن الجهاد بالمدافع . فقام الشهاب الحجري بترجمته إلى العربية ، وسماه « كتاب العز والرفعة

والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع » ، ووصف نفسه في صفحة العنوان بأنه « ترجمان سلاطين مراکش » . وقد انتهى هذا الكتاب الفريد إلينا ، وهو يحتوى على خمسين باباً في وصف البارود ، والآلات الحربية القاذفة ، وتركيب المدافع واختلافها ، ووصف أدواتها ، وطرق تعميرها ، والرمح بها إلى غير ذلك . ويتخلل ذلك رسوم توضيحية لمختلف أجزاء المدفع (١) .

ويشير الشهاب في كتابه المذكور إلى المقرئ مؤرخ الأندلس ، وإلى كتابه الجامع « نفح الطيب » في قوله : « وقد صح من كتب التواريخ التي جمعها العلامة الشيخ أحمد المقرئ في كتابه بمصر في الكتاب الجامع للتواريخ على بلاد الأندلس أعادها الله إلى الإسلام » ، وقد عاش الرجلان في نفس العصر . والظاهر أن الشهاب الحجري قد لقي المقرئ بمصر خلال مروره بها في طريقه إلى الحج ، أو خلال العود منه ، وذلك في نحو سنة ١٠٤٠ هـ (١٦٣١ م) قبيل وفاة المقرئ بقليل . وقد كتب الشهاب الحجري فوق ذلك كتاباً آخر عنوانه « رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب » . والأحباب هنا فيما يبدو هم إخوانه المسلمون فيما وراء البحر في عدوة المغرب ، ولكن هذه « الرحلة » لم تصلنا مع الأسف ، ولم يصل إلينا منها سوى شذور يسيرة جداً ، نقلها بعض الكتاب المغاربة المتأخرين ، وأكبر الظن أن رحلة الشهاب المفقودة كانت تحتوى على معلومات هامة ونفيسة عن أحوال مواطنيه العرب المتنصرين ، ولعل البحث يظفر بها يوماً ما .

ومما يلفت النظر من أقوال الشهاب عن أحوال اسبانيا يومئذ ، ما نقله إلينا صاحب كتاب « نزهة الحادى » من الرحلة المذكورة ، قول الشهاب « إن جزيرة الأندلس ، استردادها من أيدي الكفار سهل ، واسترجاعها منهم قريب . ولما دخلت في أيام المنصور مراکش ، وجدت عنده من الخيل نحو من ستة وعشرين ألفاً ، فلو تحركت هذه لفتحها لفتحها ، ولاستولى عليها في الحين » (٢) .

(١) توجد منه نسخة مخطوطة بخزانة الرباط تحفظ برقم ج ٨٦ ، وتقع في ٢٦١ صفحة كبيرة ، ومذكور في صفحة العنوان أنه من تأليف الرئيس إبراهيم بن أحمد بن غانم بن محمد بن زكريا ، كتبه بالأعجمية ، وترجمه له بالعربية ترجمان سلاطين مراکش ، أحمد بن قاسم بن أحمد الحجري الأندلسي . وتوجد منه كذلك نسخة بالخرانة التيمورية بدار الكتب المصرية رقم ٩٧ فروسية . ونسخة أخرى بدار الكتب رقم ٧١ فنون حربية .

(٢) كتاب نزهة الحادى ص ٩٩ .

وأخيراً ، فقد وضع الشهاب أيضاً عقب عوده من الحج ، كتاباً عنوانه «ناصر الدين على القوم الكافرين» يؤيد فيه رسالة الإسلام ، ويفند معتقدات النصارى .

وقد أبدت السياسة الإسبانية اهتماماً خاصاً بالقضاء على تراث الأندلس الفكرى ، وبدأت بارتكاب فعلتها الشائنة فى سنة ١٤٩٩ م أغنى لأعوام قلائل من سقوط غرناطة ، فجمعت الكتب العربية ، وأحرقت بأمر الكردينال خميس حسبها فصلنا من قبل ، ولم تبق معاول التعصب والجهالة إلا على بقية صغيرة من الكتب العربية ، جمعت فيما بعد من مختلف الأنحاء ، وأودعت أيام فيليب الثانى فى قصر الإسكوريال على مقربة من مدريد ، وحجبت عن كل باحث ومتطلع . وفى أوائل القرن السابع عشر ، وقع حادث كان سبباً فى مضاعفة المجموعة العربية الإسبانية . ذلك أن السفن الإسبانية استطاعت أن تأسر مركباً مغربية لمولاي زيدان ملك المغرب ، كانت مشحونة بالكتب ومختلف التحف ، وبها ثلاثة آلاف سفر من كتب الدين والأدب والفلسفة وغيرها . وتضع الرواية الإسبانية تاريخ هذا الحادث فى سنة ١٦١٢ فى عصر فيليب الثالث ، وذلك حينما اشتد اضطراب العلاقات بين اسبانيا والمملكة المغربية^(١) . وقد حملت هذه المجموعة النفيسة من الكتب العربية إلى اسبانيا ، وأودعت قصر الإسكوريال ، إلى جانب بقية التراث الأندلسى التى كانت مودعة فيه منذ أيام فيليب الثانى . وكانت مجموعة مولاي زيدان المغربية تحتوى على عدد كبير من الكتب الأندلسية التى كثر استنساخها ، واقتنائها بالمغرب ، بعد سقوط غرناطة .

ولبثت هذه المجموعة من المخطوطات العربية الأندلسية مودعة بمكتبة الإسكوريال الملكية حتى أواسط القرن السابع عشر ، وكانت تبلغ يومئذ عدة آلاف ، وكانت أغنى وأنفس مجموعة من نوعها بإسبانيا . ولكن محنة جديدة أصابت هذه البقية الباقية من تراث الأندلس . فى سنة ١٦٧١ شبت النار فى الإسكوريال ، واهتمت معظم هذا الكنز الفريد ، ولم ينقذ منه سوى ألفين ، هى التى مازالت تثوى حتى اليوم فى أقبية مكتبة الإسكوريال التى يشرف عليها الآباء الأوغسطينيون . وكانت الحكومة الإسبانية أثناء هذه العصور تحرص على إخفاء الآثار العربية عن كل قارئ

(١) الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى للسلوى ج ٣ ص ١٢٨ ؛ وراجع ص ٣٩٢ من هذا الكتاب .

وباحث ، كأنما كانت تخشى أن تتسرب روح التفكير الإسلامى إلى تفكير اسبانيا النصرانية ، بعد أن بذلت لقتل هذا الروح كل وسيلة ممكنة . وكان الكتاب الإسبان أنفسهم ، تحملهم نزعة الدين والجنس ، يعرضون عن كل بحث وتنقيب فى هذه المصادر النفيسة ، التى تلقى أكبر ضوء على تاريخ اسبانيا المسلمة وحضارتها فى العصور الوسطى ، ويكتفون فى كتابة هذه المرحلة الطويلة الباهرة من تاريخ بلادهم ، بالرجوع إلى المصادر الإسبانية التى تفيض بالتحامل والتعصب وغمر الخرافات . ولم تفق الحكومة الإسبانية من جمودها ، ولم تفكر فى تنظيم تراث الأندلس الفكرى والتعريف به ، قبل أواسط القرن الثامن عشر ، فعندئذ انتدبت عالماً شرقياً يجمع بين الثقافتين الشرقية والغربية ، هو ميخائيل الغزيرى اللبناى ، الذى يعرف فى الغرب باسم كازيرى Casiri ، وعهدت إليه بدرس الآثار العربية ، ووضع فهرس جامع لها . وكان الغزيرى بنشأته وثقافته الشرقية رجلاً المهمة ، فلبى دعوة الحكومة الإسبانية ، وعين فى سنة ١٧٤٩ مديراً لمكتبة الإسكوريال ، وأنفق هنالك بضعة أعوام يدرس المخطوطات العربية ويحققها ، ثم بدأ بوضع فهرسه الجامع الذى عهد إليه بوضعه . وفى سنة ١٧٦٠ صدر الجزء الأول من هذا الفهرس باللاتينية بعنوان *Bibliotheca Arabico - Hispana Escorialensis* «المكتبة العربية الإسبانية فى الإسكوريال» ؛ وصدره الغزيرى بمقدمة طويلة تحدث فيها عن قيمة هذه المخطوطات العربية وأهميتها ، وقسم هذه الآثار إلى عدة فنون ، وبدأ بكتب اللغة وعلومها ، ثم الشعر وأبوابه ، ثم الفلسفة وما يتعلق بها ، ثم الأخلاق فالطب والتاريخ الطبيعى ، فالرياضة والهندسة والفلك ، فالفقه وعلوم الدين والقرآن ، وهى تشمل أكبر مجموعة . ثم الآثار النصرانية . وتبلغ محتويات هذا الجزء الأول من الفهرس ١٦٢٨ مجلداً . وفى ١٧٧٠ ظهر الجزء الثانى من الفهرس ، محتوياً على كتب الجغرافيا والتاريخ ومنتهاً برقم ١٨٥١ ، وهو جملة ما أثبتته الغزيرى فى فهرسه .

وكان أهم ما اتجهت إليه الأنظار بعد ظهور معجم الغزيرى ، هو التنقيب فى مجموعة الإسكوريال عن الروايات العربية المتعلقة بتاريخ اسبانيا المسلمة ، وسياسة الحكومات الإسلامية ، وخواص المجتمع الإسلامى ، فعنى طائفة من الباحثين الإسبان فى أواخر القرن الثامن عشر ومنهم أندريس وماسدى ، يبحث تاريخ العلوم والآداب العربية ، فأخرج أندريس كتابه عن «أصول الأدب» ، وأخرج

ماسدى مؤلفه عن « تاريخ اسبانيا والحضارة الإسبانية »^(١). ثم جاء العلامة كوندى فوضع لأول مرة تاريخاً لاسبانيا المسلمة^(٢)، يعتمد فيه على الروايات العربية ، وظهر هذا المؤلف بين سنتي ١٨١٠ و ١٨١٢. وبالرغم من أن مؤلف كوندى يحتوى على كثير من الأخطاء التاريخية ، فقد كان أول مجهود غربى من نوعه يعرض للغرب قضية العرب فى اسبانيا من الناحية العربية ، وفيه يقف الغرب لأول مرة على وجهات النظر الأندلسية ، وخواص النظم والسياسة الإسلامية . ويبدى كوندى فى كثير من المواطن حماسة فى الدفاع عن العرب ، والإشادة بخلاصهم ومواقفهم وحضارتهم ، ويصدر فى بعض المواطن ، أشد الأحكام على أمته وسياسة مواطنيه . وأخذت المصادر العربية الأندلسية ، تمثل من ذلك الحين فى كل بحث يتعلق بتاريخ الأندلس . وكان العلامة المستشرق الهولندى رينهاردت دوزى أعظم باحث غربى ، توفر على دراسة التاريخ الأندلسى ، ودراسة مصادره العربية والغربية ، وكتابه القيم « تاريخ المسلمين فى اسبانيا حتى فتح المرابطين »^(٣) ، من أنفس ما كتب فى هذا الباب ، وذلك بالرغم مما يبدو فيه من أن لآخر من تعليقات يطبعها التحامل . وتوالى بعد ذلك جهود الباحثين الغربيين فى دراسة تاريخ اسبانيا المسلمة وكتابته . وصدرت بعد كتاب دوزى خلال القرن الماضى فى هذا الموضوع ، عدة كتب قيمة ، إسبانية وإنجليزية وفرنسية وغيرها ، يمتاز الكثير منها بدقة البحث وروح الإنصاف .

وقام المستشرق الفرنسى هارتفج ديرنبور فى أواخر القرن الماضى بدراسة جديدة للمجموعة الأندلسية بالإسكوريال ، ووضع لها فهرساً جديداً بالفرنسية عنوانه : « المخطوطات العربية فى الإسكوريال » Les Manuscrits Arabes de l'Escorial نحا فيه نحو الغزيرى فى ترتيبه وترقيمه ، وعثر على نحو مائة مخطوط أخرى لم يثبتها الغزيرى فى معجمه . بيد أنه لم يصدر من هذا الفهرس الجديد سوى جزئين يشتملان على كتب اللغة والبلاغة والشعر والأدب والفلسفة والأخلاق والسياسة . وأصدر الأستاذ ليثى بروفنسال بعد وفاة ديرنبور جزءاً ثالثاً من هذا الفهرس مشتملاً على

(١) Historia crítica de Espana y la Cultura espanola

(٢) Historia de la Dominación de los Arabes en Espana

(٣) Histolre des Musulmans d'Espagne jusqu'à la Conquête de l'Anda-

lousie par les Almoravides

كتب الدين والجغرافيا والتاريخ . وما زال هذا القهرس الحديد لمجموعة الإسكوريال الأندلسية ، ينقصه استعراض كتب الطب والتاريخ الطبيعى والرياضة والفقه ، كما ينقصه ذكر الكتب التى غابت عن الغزيرى وعددها نحو مائة كتاب .

وقد كان التنقيب فى تراث الآثار الأندلسية ، والتعريف بها على هذا النحو ، فتحاً عظيماً فى تاريخ اسبانيا المسلمة ، وتاريخ الحضارة الإسلامية . فقد كان الغرب حتى أواخر القرن الثامن عشر ، لا يعرف من هذا التاريخ سوى ما تعرضه الرواية الإسبانية من شذور مشوهة مغرضة ، وكانت مثاث من الحقائق تغمرها حجب التعصب والتحامل ، فجاءت وثائق الإسكوريال تبديد هذه الحجب ، وتقدم الأدلة الساطعة على عظمة هذه الصفحة من تاريخ اسبانيا ، وتعرض لنا مثاث الحقائق عن تفوق الحضارة الأندلسية ، ومبلغ ما وصلت اليه من الإزدهار والتقدم .

ومما هو جدير بالذكر أن ملوك المغرب بذلوا أكثر من محاولة لاسترداد الكتب العربية من اسبانيا ، وكان محدوهم فى ذلك شعور بأن هذا التراث الفكرى للأمة الأندلسية الشهيدة إنما هو تراثهم المشترك ، وأن المغرب هو الوارث الطبيعى لهذا التراث ، خصوصاً وقد كان بين محتوياته مكتبة مولاي زيدان التى انتهت فى عرض البحر حسباً قدمنا . فى سنة ١١٠٢ هـ (١٦٩١ م) بعث مولاي اسماعيل عاهل المغرب العظيم ، وزيره الكاتب محمد بن عبد الوهاب الغسانى سفيراً إلى كارلوس الثانى ملك اسبانيا ، وكان من مهمته إلى جانب السعى فى تحرير الأسرى المغاربة ، أن يسعى فى استرداد الكتب العربية ، وقد نجح السفير فى تحقيق الشطر الأول من مهمته ، ولكنه لم ينجح فى تحقيق الشطر الثانى . وفى سنة ١١٧٩ هـ (١٧٦٥ م) أرسل مولاي محمد بن عبد الله سلطان المغرب ، كاتبه أحمد بن مهدى الغزال ، سفيراً إلى كارلوس الثالث ملك اسبانيا ليضطلع بنفس المهمة المزدوجة ، أعنى العمل على تحرير الأسرى المغاربة ، واسترداد الكتب العربية ، ولكنه لم يحرز فى مهمته بشأن الكتب نجاحاً يذكر ، وإن كان قد استطاع أن يحصل من الإسبان على قدر من الكتب العربية ليس بينها شيء من محتويات الإسكوريال^(١).

(١) ترك لنا كل من هذين السفيرين كتاباً عن مهمته : فكتب الوزير محمد بن عبد الوهاب كتابه

المسمى « رحلة الوزير فى افتكاك الأسير » (تطوان ١٩٢٩) . وكتب الثانى أحمد الغزال كتابه « نتيجة

الإجتهاد فى المهادنة والجهاد » (تطوان ١٩٤١) .

بقى أن نتحدث عن الفن في الأندلس ، وسيكون حديثنا عن ذلك عاماً . ذلك أن الفن في مملكة غرناطة آخر دول الإسلام بالأندلس ، لم يكن سوى المرحلة الأخيرة لسر الفن الأندلسي .

وقد نشأ الفن الإسلامي في البداية نشأة متواضعة . ونريد بالفن هنا معناه الدقيق الخالص . فالتصوير والنحت والنقش والزخرفة والموسيقى والغناء وما إليها ، مما ينعت في عصرنا بالفنون الجميلة ، يقع تحت هذا المعنى . بيد أن هنالك معنى أوسع للفن فقد يشمل فنون الهندسة والعمارة وما إليها ، ولا بأس من أن نعامله بهذا المعنى الأعم في الوقت نفسه . وهذه النشأة المتواضعة للفن الإسلامي ترجع بالأخص إلى عوامل دينية . فقد نشأ الإسلام خصيم الوثنية ، يضطرم بغضاً لمظاهرها ورسومها ، وقد كان النحت والتصوير والنقوش الرمزية ، وقت ظهور الإسلام من مظاهر الوثنية ورسومها البارزة ، فكان الإسلام يخاصمها ويطاردها . ولم يشأ الإسلام أن يفسح صدره لهذه المظاهر والرسوم كما فعلت النصرانية ، حيث اعتنقتها وشملت برعايتها ، وازدانت بها كنائسها وهياكلها العظيمة منذ القرن الأول للميلاد . ثم غدت فيها بعد ميثاقاً للخلاف الطائفي ، واعتبرت رمزاً لعبادة الصور ، وثار حولها تلك المناقشات والخصومات البيزنطية الشهيرة . بيد أن هذه الخصومة التي شهرها الإسلام في عصره الأول على التماثيل والصور ، رموز الوثنية ومظاهرها ، لم تلبث أن خفت وطأتها منذ القرن الثاني للهجرة ، حينما قامت الإمبراطورية الإسلامية ، وأنشئت في أرجائها الصروح الإسلامية العظيمة ، وبدأت الخلافة في عظمها الدنيوية ، وأخذت بقسطها من الترف والبهاء والبدخ . عندئذ عني الخلفاء بالفنون وازدانت قصورهم ومعاهدهم وحدائقهم ، بمظاهر الفن الرفيع ، واعتمد على الاقتباس بادئ بدء من تراث الفنون الفارسية واليونانية والرومانية ، والبيزنطية بنوع خاص . واقتبس عرب الأندلس أيضاً من تراث الفن القوطي . ولم يمض بعيد حتى امتزج الاقتباس بالابتكار ، وبدأ الفن الإسلامي في مظهره المستقلة . وبلغ منذ القرن الثالث للهجرة ، سواء في بغداد أو قرطبة مستوى رفيعاً من الروعة والبهاء . وبرع المسلمون في صنع الزخارف والنقوش والرسوم والصور الدقيقة ، وانتهوا في الموسيقى إلى ذروة الافتنان والبراعة ، وازدهر الفن الإسلامي في المشرق والمغرب أيما ازدهار .

وبلغ الفن الإسلامي في الأندلس أوج ازدهاره في القرن الرابع الهجري . ويجب أن نلاحظ أن مسلمي الأندلس كانوا أسبق الأمم الإسلامية إلى صنع التماثيل والصور وقد زينوا قصورهم ومعاهدهم منذ القرن الثالث ، بالتماثيل والصور والنقوش ، التي تمثل الحيوان والنبات والطيور . أما التماثيل والصور البشرية ، فكانت تلتى نوعاً من التحريم العام . وفي عصر عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) خطا الفن الأندلسي خطوة أخرى ، فصنعت التماثيل والصور البشرية ، وزينت بها القصور والمعاهد الخلافية ، وكما أن عصر الناصر كان أعظم عصور الدولة الإسلامية في الأندلس ، فكذلك كان أعظم عصور الفن الأندلسي .

وقد كان قصر قرطبة الكبير حتى عهد الناصر ، موضع العناية والرعاية من جميع أمراء بني أمية ، وكان مجمع البهاء والرواء والفن . ولكن الناصر آثر أن ينشئ له ضاحية ملوكية جديدة ، تكون آية في الفخامة والبهاء ، فأنشأ مدينة الزهراء وقصورها ومعاهدها الباهرة ، وأفاض عليها من ألوان البذخ والبهاء ، وبدائع الفن والرخف ، آيات رائعات . وكانت نقوش الزهراء ورسومها وتماثيلها ، أبدع ما أخرج الفن الإسلامي في الأندلس . ولا يتسع المقام للإفاضة في وصف عظمة الزهراء ، وروائعها الفنية ، فنحيل القارئ إلى ما أورده صاحب نفح الطيب في هذا الشأن من مختلف الروايات والفصول (١) . ولكننا نخص بالذكر هنا مثلين رائعين من آيات الفن الباهر ، التي زينت بها قصور الزهراء ، فمن ذلك أسد عظيم الصورة بديع الصنعة شديد الروعة ، لم يشاهد أبهى منه فيما صنع الملوك الأوائل ، مطلي بالذهب ، وعيناه جوهرتان لهما ضوء ساطع ، قد أقيم على بحيرة قصر الناعورة ، يجوز الماء إلى مؤخره من قناة تحمل إليه الماء العذب ، من جبل قرطبة على حنايا معقودة ، فيدفع الماء إلى البحيرة في منظر رائع (٢) . ومن ذلك الحوض البديع الذي جلبه الناصر لاستحمامه ، وأقيم عليه اثنا عشر تمثالا من الذهب الأحمر ، مرصعة بالدر النفيس مما صنع بدار الصناعة بقرطبة : أسد إلى جانبه غزال ثم تمساح ، يقابلها ثعبان وعقاب وفيل ، وفي الجانبين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر ، كلها من ذهب مرصع بالجواهر النفيس ، وتخرج الماء من أفواهها (٣) .

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٥ و ٢٤٦ و ٢٦٤ - ٢٦٦ ؛ وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤ ؛

وراجع Murphy : Mohamedan Empire in Spain. p. 167-174

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٤ .

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٤ .

وهنا أيضاً أعنى في عصر الناصر ، نرى لأول مرة فيما يظهر ، تماثيل الإنسان وصوره تمثل في الفن الأندلسي ، إلى جانب تماثيل الحيوان وصوره . فيروى أن الناصر أمر أن تنقش صورة جاريته وحظيته « الزهراء » على باب قصر الزهراء ، وهذه الجارية فيما يروى هي التي حملته على بناء الزهراء وتسميتها باسمها^(١) . وزينت أبهاء الزهراء بتماثيل وصور بشرية^(٢) . فكانت ظاهرة فنية جديدة .

يقول العلامة الأثري الإسباني الأستاذ مورينو مشيراً إلى عصر عبدالرحمن الناصر : « جاء هذا الملك ، وقد دخل الشرق الإسلامي في دور الانحطاط ، ودخل العهد البيزنطي بالعكس في أسطع مراحلها ، وعمل الخليفة الإسباني ، وهو حليف القيصر اليوناني على إحياء الحضارة ، فعادت بفضلها تزدهر في جانبي البحر المتوسط ، وتولت قرطبة بقوتها الروحية زعامة العالم ، ووصلت إسبانيا المسلمة في عهد الناصر إلى ذروة التماسك والتناسق الاجتماعي والرخاء ، وآل ذلك إلى ولده الحكم ، فاستعمله في أعمال الحضارة ، وهكذا تحقق قيام بلاط جديد في الزهراء الرائعة التي بدأت أطلالها الآن تبدو للعيان ، وبعد ذلك زيد المسجد الجامع ، وأسبغت عليه آيات الفخامة والروعة ،

على أن الفن القرطبي يصل إلى ذروته في طراز العقود المتشابكة المتقاطعة في تشكيلات هندسية ، وهو ما يخدم نفس الأغراض التي تقوم بها العقود القوطية ، متقدمة عليها قرنين ، وخاضعة لمبدأ أساسي زخرفي ، ومنسقة مع طرازها القرطبي^(٣) . وبلغ الفن الأندلسي في عصر الناصر وابنه الحكم المستنصر ، ذروة القوة والبهاء ، وما زالت إسبانيا النصرانية تحتفظ ببعض تحف فنية نادرة من تراث ذلك العصر ، نذكر منها وعل الزهراء الشهير ، وهو تمثال وعل من البرونز زين جسمه بالنقوش والزخارف العربية البديعة ، وتاج عمود من المرمر به زخارف دقيقة مذهشة ، وقد نقش عليه اسم الحكم المستنصر بالله واسم حاجبه ، وقد وجد كلاهما في حفائر مدينة الزهراء ، وكلاهما يحفظ اليوم بمتحف قرطبة ، ومنها صندوق من العاج البديع نقش عليه صور فرسان وأشخاص ووعول آية في الدقة ، وذكر عليه اسم

(١) نفح الطيب ج ٦ ص ٢٤٥ .

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٥ و Murphy : ibld, p. 292

(٣) M. Gomez Morena : "La Civilización árabe y sus Monumentos en

Espana" Art. en "Arquitectura" (Nov. 1919)

صاحبه وهو عبد الملك بن أبي عامر ولد الحاجب المنصور ، وتاريخ صنعه وهو سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٥ م) ، ويحفظ اليوم بمتحف كنيسة بنبلولة العظمى ، ويوجد في مدينة جيرونة صندوق بديع الصنع من أيام الحكم الثاني ، وفي كتدرائية مدينة سمورة صندوق آخر يرجع إلى نفس العصر . ويوجد من تحف العهد الغرناطي كثير من النقوش والزخارف المرمرية التي تحفظ اليوم بمتحف غرناطة ؛ وفي متحف مدريد الوطني مصباح برونزي رائع الصنع أصله من مصابيح مسجد الحمراء ؛ وتوجد في متحف الحمراء جرة كبيرة من القيشاني الملون زينت بزخارف مذهبة رائعة ، وهي من مخلفات قصر الحمراء . هذا إلى طائفة كبيرة أخرى من التحف البرونزية والمعدنية والحرفية ، والبسط والأنسجة الأندلسية والموريسكية ، مبعثرة في مختلف المتاحف الإسبانية . وقد أتيج لنا أن نشاهد معظم هذه التحف الفريدة ، وأن نتأمل روائعها^(١) .

هذا وقد برع الأندلسيون في الصناعات الفنية الدقيقة ، مثل صناعة الحلى الفائقة والتحف العاجية والجلدية ، ونافسوا فيها صناعة بزنطية . وما زالت بعض المدن الأندلسية القديمة مثل قرطبة وطليلة وغرناطة تحتفظ حتى اليوم في بعض صناعاتها الدقيقة ، ببقية من هذه البراعة الفنية الأندلسية . فما زالت طليطلة تشتهر حتى يومنا بصناعة الأسلحة المزخرفة ، وتشتهر قرطبة بصناعة الحلود الدقيقة المزخرفة . وكانت غرناطة بالأخص تتفوق في صنع الأقمشة الحريرية المذهبة ، والبسط الأنيقة ، والتحف البرونزية والزجاجية والأسلحة ، وكانت أنسجتها المطرزة بالذهب تلب أبواب الشعوب الأوربية . وهي مازالت حتى اليوم تتفوق في أصناف من الدانتلا الرائعة . وهذه الصناعات اليدوية الدقيقة مازالت متأثرة بجمال الزخرف الإسلامي أعظم تأثير . وكانت القصور والمعاهد العامة ، والمساجد الجامعة بالأندلس في تلك العصور ، معرضاً لأبداع ما تمخض عنه الفن الرفيع يومئذ من صنوف الزخارف والرسوم والتحف الفنية . ومن ذلك أنه كان يجامع قرطبة تنور من نحاس أصفر يحمل ألف مصباح ، وقد زين بصور ونقوش رائعة ، يعجز عن وصفها القلم^(٢) . وقد امتازت المدرسة المحافظة بالتفوق في نوع جديد

(١) نشرنا أوصاف هذه التحف الأثرية الأندلسية وصورها في كتابنا الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال - الطبعة الثانية . ص (٣٧ و ٤٢ و ١٨١ و ٣٢٠ و ٣٢٧ و ٣٥٥)
(٢) نفح الطيب ج ٣ ص ٢٤٥ .

من الزخارف ، يقوم على رسوم الشجر والأوراق والأغصان والأشكال المتماثلة المبتكرة ، دون الصور التي تمثل الإنسان والحيوان ؛ ذلك لأنها كانت تقوم على احترام التقاليد الدينية القديمة ، واشتهرت هذه المدرسة في العصور الوسطى ، وكان لها أثر عميق في تطور الفن الأوربي ، وما زالت تعرف بالأنماذج العربية (الأرابيسك)^(١).

وسطع الفن الأندلسي أيام الطوائف مدى حين ، ونثر ملوك الطوائف ولاسيما بنو عباد في إشبيلية ، وبنو ذى النون في طليطلة ، حولهم آيات من البذخ والترف والبهاء ، وأغلقوا على قصورهم ومعاهدهم بدائع الفن وروائعه ، مما أفاض في وصفه المؤرخون والكتاب والشعراء . وكان بنو عباد في إشبيلية أعظم حماة للفنون والآداب . وكان قصر المأمون بن ذى النون ملك طليطلة آية رائعة من آيات الفن والبهاء ، وكان روشنه الشهير الذى بنى وسط بحيرة القصر ، من الزجاج الملون المزين بالنقوش الذهبية ، مستقى خصباً لخيال الشعراء ، وكانت حافة البحيرة مزدانة بصفوف من تماثيل الأسود التي تقذف الماء من أفواهها ، وهي لا تزال تقذف الماء ولا تفتر ، وتنظم لآلىء الحجاب بعد ما نثر^(٢) . وأنشأ المقتدر بالله أبو جعفر أحمد بن هود أمير سرقسطة في أواخر القرن الحادى عشر الميلادى قصره الرائع المسمى « بقصر السرور » ، وكان أروع ما فيه بهوه العظيم الذى زينت جدراته بالنقوش والتحف الذهبية البديعة والذى كان يسمى لذلك « مجلس الذهب » . ولما سقطت سرقسطة في يد النصارى شوهدت معالم هذا القصر وأدخلت عليه تعديلات وتغييرات عديدة قضت على مجاسنه وبدائعه العربية . وما زال يقوم على موقعه السابق الصرح الذى يسمى اليوم بقصر الجعفرية Palacio Aljaraфия . وقد اشتهر المقتدر بن هود ، في التاريخ وفي الشعر ، بقصره الفخم ومجلسه الرائع ، ذى النقوش والتحف الذهبية البديعة وهو القائل في وصفه^(٣) :

قصر السرور ومجلس الذهب بكما بلغت نهاية الطرب
لو لم يحز ملكى خلافاً كما لكان لدى كفاية الأرب

Murphy: ibid, p. 291-Aschbach: Geschichte der Omajaden in Spanien; (١)

B. II. p. 352.

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٧ و ٢٨٢ ؛ وقلائد العقيان للفتح بن خاقان ص ١٩٤ و ١٩٥ .

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ٢٥٠ . وراجع كتاب « دول الطوائف » ص ٢٧٢ .

ولم يكن هذا الهوى الفنى قاصراً على الأمراء والكبراء ، فقد روى لنا المقرئ أنه كان ببعض حمامات إشبيلية تمثال بديع الصنع ، قال فيه الشاعر :

ودمية مرمر تزهو بجيـد تنهى في التورد والبياض
لها ولد ولم تعرف حليلاً ولا ألت بأوجاع الخاض
ونعلم أنها حجر ولكن تيمنا بالحفاظ مراض

وفي عهد المرابطين والموحدين نحت دولة الفن الإسلامى فى الأندلس نوعاً ، ذلك لأن أولئك الغزاة البربر ، الذين كانوا يضطرمون بروح دينية محافظة ، لم يقدرُوا الفنون والآداب على نحو ما كانت أيام الخلفاء الأندلسيين . ومع ذلك ، فقد كان لدى الموحدين ، بالرغم من طابعهم الدينى المحافظ ، طموح فنى ، ظهر أثره أولاً فى إقامة المنشآت الدفاعية العظيمة ، ثم ظهر فى إقامة المساجد والقصور ، سواء فى المغرب أو الأندلس . وقد كان قصر إشبيلية ، الذى أنشأه أبو يعقوب يوسف وجامع إشبيلية الأعظم ، ومنارته العظيمة التى أنشأها ولده الخليفة المنصور ، التى مازالت قائمة إلى اليوم بعد أن حولت إلى برج لأجراس كنيسة إشبيلية العظمى ، التى أقيمت فوق موقع المسجد الجامع : كانت هذه المنشآت العظيمة عنواناً لعظمة الفنون والزخارف الإسلامية فى عصر الموحدين . وازدهرت الفنون والآداب كزرة أخرى فى مملكة غرناطة . وكان بنو الأحمر حماة كرماء للفنون . ونلاحظ أن الفن الأندلسى بلغ فى هذا العصر ذروة التحرر والافتنان أيضاً ، وتوسع الفنانون المسلمون فى تصميم المناظر والرسوم . ولم يقتصر الأمر على الصور والرسوم والتماثيل المفردة ، بل تعداه إلى المناظر المصورة ، وإلى المجموعات المنحوتة . وقد كانت مملكة غرناطة على صغر رقعتها ، وضعفها من الوجهتين العسكرية والسياسية ، تحدث من الناحية الحضارية والفنية فى قشتالة ، جارتها الكبيرة القوية ، أثرها العميق . يقول الأستاذ مورينو : « إنه منذ عهد سان فرناندو إلى عهد هنرى الرابع ، كان الكثير من عناصر حضارة قشتالة ، وهندستها المدنية ، وفنونها الزخرفية الدينية ، وكل ضروب الإناقة والمتعة فى الحياة - كانت كلها قائمة على الاقتباس من الأندلس »^(١) . وما زالت حمراء غرناطة ، وما زالت أبهاؤها ومجالسها الرائعة ، تنبئ عما انتهت إليه آخر دول الإسلام فى الأندلس من البذخ والبهاء ، وعما بلغه الفن الأندلسى فى هذه المرحلة

الأخيرة من حياة الإسلام في اسبانيا ، من الدقة والافتنان . وسوف يبقى قصر الحمراء ، وما يحتويه من النقوش والزخارف والصور الفريدة ، رمزاً خالداً للعمارة الإسلامية ، ولروعة الفن الإسلامي في الأندلس .

وقد كان لفنون العمارة الأندلسية في مختلف عصورها أعمق الآثار داخل شبه الجزيرة الإسبانية ، فكانت القصور الملكية في الممالك الإسبانية النصرانية ، تماذج من القصور الملكية الأندلسية ؛ وتطورت فيها مظاهر الحصون الرومانية القديمة ، وظهرت عليها مسحة أندلسية . وكان هذا التأثير أشد وأعمق في حياة النبلاء القشتاليين ، وفي طراز مساكنهم المدنية ، فقد حل مكان المنزل المحزن الموحش ، المكون من غرف قليلة الضوء قليلة التهوية ، المنزل الذي تغمره أشعة الشمس ، والذي تطل الأروقة الداخلية على فناءه ، وفيه الماء الجاري ، وفي داخل جدرانها الأربعة تتذوق الحياة كاملة ، وتبدو عليه البسمة . وقد أسبغت هذه المنازل على اسبانيا طابعها الخاص^(١) . وما زال طراز المنازل الأندلسية قائماً واضحاً في مدن أندلسية قديمة مثل إشبيلية وغرناطة وشريش ، وهذا الطراز من المنازل تفضله الأرستقراطية بنوع خاص . بل لقد كان أثر الفن المعماري الأندلسي قوياً في الكنائس ذاتها ، ففي كثير من الكنائس الإسبانية والبرتغالية الأثرية ترى خطة المسجد ظاهرة في عقودها وأروقها . وقد أقيمت أبراج كثير من الكنائس الشهيرة على نمط المنارة الإسلامية ، واتخذت منارة الخيراندا الشهيرة بإشبيلية نموذجاً لكثير من الأبراج في كنائس اسبانيا الجنوبية . بل لقد تسرب تأثير الفن الإسلامي إلى الهياكل ذاتها ، فنرى مثلاً مصلى دير « الهولحاس » أو الدير الملكي في مدينة برغش ، وقد صنعت على الطراز الإسلامي ، وعليها قبة عربية مقرنصة الزخارف . ولما تضاعفت رقعة اسبانيا المسلمة ، وسقطت معظم القواعد الأندلسية في يد الإسبان ، لبث المدجنون عصوراً ينقلون الفنون الإسلامية إلى صروح اسبانيا النصرانية . وكانت غرناطة ترسل العرفاء إلى قشتالة ليقوموا بإصلاح الصروح الإسلامية القديمة في المدن الأندلسية القديمة التي استولت عليها قشتالة .

نعرض بعد ذلك لناحية أخرى من الفن الإسلامي في الأندلس هي الموسيقى . وقد كان للموسيقى بين فنون الحضارة الإسلامية أعما شأن ، وكان ازدهارها بالأخص في بغداد وقرطبة ، حيث بلغت حضارة الإسلام ذروة العظمة والنضج .

وكان ازدهارها في عصر مبكر جداً منذ أواخر القرن الثاني للهجرة ، في ظل الدولة العباسية الفتية . وكان أول من كتب عن الموسيقى من المسلمين ، الكندي والفارابي ، وقد ترجمت كتبهما إلى اللاتينية منذ القرن الحادي عشر الميلادي . ويبدو أثر الموسيقى الشرقية واضحاً في الكتابات الموسيقية اللاتينية ؛ وفضلاً عن الكتابة ، فقد كانت الطرائق والمعارف الموسيقية الشرقية تنقل إلى الغرب عن طريق السماع والاتصال الشخصي ؛ وينطبق ذلك بنوع خاص على اسبانيا المسلمة ، حيث ازدهرت الموسيقى ، وتنوعت طرائفها منذ القرن التاسع الميلادي . وكانت الأندلس قد تلقت منذ أوائل هذا القرن قبساً من النهضة الموسيقية الشرقية ، فنزح زرياب الموسيقى غلام الموصليين^(١) أساطين الموسيقى والغناء لهذا العهد ، إلى الأندلس في عصر عبد الرحمن بن عبد الحكم (أوائل القرن الثالث) ، فاستقبله بنفسه وببالغ في إكرامه ، وأغدق عليه العطف والبدل . وكان زرياب موسيقياً عظيماً ومغنياً ساحراً ، فذاع فنه في الأندلس والمغرب ، وأنشأ بالأندلس مدرسة موسيقية وغنائية باهرة ، استطال نشاطها وأثرها حتى عصر الطوائف ، وازدهرت أيام الطوائف في إشبيلية في ظل بني عباد بنوع خاص^(٢) . وسطع في مملكة غرناطة قبس من هذه النهضة ، وظهر أثر الموسيقى الأندلسية في تطور الموسيقى والغناء ، في قشتالة وغيرها من أنحاء اسبانيا في عصر مبكر ، ثم انتقل هذا الأثر إلى أوروبا ، واشتهرت الموسيقى الأندلسية في غرب أوروبا في العصور الوسطى ، وكان لها أثرها في تطور الموسيقى الغربية . ويقول لنا الأستاذ موريو إن الأغاني الأصلية للموسيقى الحديثة ، كانت اقتباساً أندلسياً ، وأنها كانت في الأصل تكتب بلغة « الرومانشي » اللاتينية التي كانت تغلب في اللهجة الشعبية الأندلسية ، ومع أنه لم يبق لنا حتى اليوم شيء من هذا الشعر الرومانشي ، فإن آثاره تكثر في أزجال شاعر قرطبي هو « ابن قرمان »^(٣) . وبرع المسلمون في العزف على كثير من الآلات الموسيقية المعروفة حتى اليوم ، واخترعوا الكثير منها ولاسيما « القيثارة » التي كانوا يعتبرونها أجمل الآلات الموسيقية . وكان للموسيقى الأندلسية أثر كبير في تطور الموسيقى الإسبانية القديمة ، وما يزال كثير من الأوضاع

(١) إبراهيم الموصلي وولده إسحاق وولده حماد .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ص ٣٥٧ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ١٠٩ وما بعدها .

(٣) M.Gomez-Moreno : Arquitectura (Nov: 1919)

والتقاليد الموسيقية الأندلسية ، تمثل مثولا قوياً في فنون الموسيقى والرقص والغناء الإسبانية الحديثة^(١) .

وقد كانت الأمة الأندلسية أمة مرهقة الشعور والحس ، تعشق الفن الجميل ، وتحب الحياة الناعمة المترفة ، وتجنح إلى المرح والطرب . وقد وصف لنا ابن الخطيب لمحة من هذا الترف ، الذى كان عنواناً لحياة الأمة الأندلسية في عصورها الأخيرة ، وذكر لنا كيف كان الشعب يعشق الغناء والموسيقى ، وكيف كانت غرناطة تموج بالمقاهى الغنائية التى يؤمها الشعب من سائر الطبقات^(٢) . وقد اشتهر الرقص الأندلسى بجماله واقتنانه في مجتمعات العصور الوسطى ، وما زال شعب غرناطة المرح الطروب مقبلاً خلال كفاحه الطويل ، على حياته المترفة الناعمة ، حتى أصبح للعدو على الأبواب .

وللأندلسيين آثار قيمة في الموسيقى العلمية والعملية . وفي مكتبة الإسكوريال مخطوط عربى نفيس للفيلسوف أبى نصر الفارابى عن الموسيقى وعناصرها ومبادئها وأوضاعها وأنغامها ، وكذلك عن الآلات الموسيقية المختلفة وأشكالها وتراكيبها^(٣) . وهو دليل على ما بلغه المسلمون في هذا الفن من الرسوخ والابتكار . وقد يرى بعض الباحثين الغربيين أن الأندلسيين تلقوا معظم تراثهم الفنى ، عن الفن النصرانى . وفي هذا رأى مبالغه ، فقد اقتبس الأندلسيون من فنون القوط والفرننج والبيزنطيين والبنادقة ، ولكنهم كانوا مبتكرين أيضاً ، وكانوا منشئين لفن إسلامى محض ، بما أسبغوه عليه من ألوان الإفتنان الرائع التى اختصوا بها ، وتميز بها تراثهم الفنى مدى الأحقاب .

- ٥ -

هذا . وقد غاضت اليوم من الأندلس كل مظاهرها القديمة ، وأصبحت سائر القواعد الأندلسية القديمة اليوم ، مدناً إسبانية نصرانية ، وقد اختفت معظم الصروح والآثار الأندلسية ، ولم تبق منها اليوم سوى بقية صغيرة ، متناثرة هنا وهناك ؛ وإذا تركنا جامع قرطبة (وهو اليوم كنيسة قرطبة العظمى) ، وجرأ

(١) Murphy : ibid ; p. 296 ، وهذا ما يستطيع أن يلاحظه كل من زار اسبانيا وشهد حفلاتها الموسيقية والغنائية .

(٢) راجع الإحاطة ج ١ ص ١٤٢ و ١٤٣ .

(٣) وعنوانه « اسطقات علم الموسيقى » (معجم الغزيرى ج ١ ص ٣٤٧) .

غرناطة ، ومنار إشبيلية (وهو اليوم برج الأجراس لكنيسة العظمى) ، إذا تركنا هذه الصروح الأندلسية العظيمة الباقية جانباً ، كان معظم الصروح والآثار الأندلسية التي قدر لها أن تنجو من أحداث الزمن ، يتمثل في بضعة أنواع معينة من المنشآت الأثرية يمكن حصرها فيما يلي :

أولاً — القصبات الأندلسية ، والقصبة هي القلعة وماحقاتها ، وكانت تبنى عادة فوق أعلى ربوة تشرف على المدينة ، وتستعمل للسيطرة عليها والدفاع عنها ، كما تستعمل موقراً للأمير أو الحاكم ، ويالحق بها عادة قصر ومسجد . والقصبة هي أكثر الآثار الأندلسية ذيوياً ، ولا تكاد تخلو قاعدة أندلسية قديمة حتى اليوم من القصبة أو بعض أطلالها ، وتوجد أشهر القصبات الأندلسية اليوم في مالقة وألمرية وجبل طارق وشاطبة وبطليوس وماردة بإسبانيا ، وشلب وأشبونة وشنترة وشنترين بالبرتغال .

ثانياً — القصور ، وهي الكلمة التي حرفها الإسبان مفرداً إلى كلمة Alcázar أي القصر . وتوجد في طليطلة وإشبيلية وغرناطة ، وإطلاق هذه الكلمة الإسبانية على صرح من الصروح الأثرية ، يفيد في الحال أنه يرجع إلى أصل أندلسي أو أنه أنشئ على أنقاض قصر أندلسي ، كما هو الشأن في قصر إشبيلية Alcázar de Sevilla .

ثالثاً — القناطر الأندلسية ، وتوجد منها نماذج في طليطلة ، وقرطبة ، ورندة ، وغرناطة .

كذلك يوجد كثير من بقايا الأسوار والأبواب والحمامات الأندلسية القديمة ، والأطلال التي تركت إلى جانب بعض الكنائس ، التي أقيمت فوق أنقاض المساجد القديمة ، من منارات حولت إلى أبراج للأجراس ، ومن عقود أو أسوار أو مشارف دأرسة ، كما يوجد عدد عديد من النخائر والتحف واللوحات الأندلسية المبعثرة هنا وهناك ، في بعض الكنائس والمتاحف الإسبانية ، وهذا كله إلى ما خلفه الفن الأندلسي من أثر خالد ، في طراز كثير من الصروح الإسبانية التاريخية ، من كنائس وقصور وأبواب وعقود ، وفي زخارفها ونقوشها ، وما خلفه فن المدجنين الذي اشتق من الفن الأندلسي ، من الآثار الظاهرة ، في طراز كثير من الصروح التي أنشئت في مختلف المدن الإسبانية ، منذ القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر وذلك حسبما أشرنا من قبل .

على أن هذه البقية الباقية من الآثار الأندلسية تمثل بالرغم من قلتها ، العصور والأطوار المختلفة للفن الأندلسي ، ومنها نستطيع أن نقف على خصائص كل عصر وأطواره . وليس هنا مقام التحدث عن هذه الآثار ، فقد أفردنا لذلك مؤلفاً خاصاً ، تناولنا الحديث فيه عن الآثار الأندلسية الباقية في سائر قواعد الأندلس القديمة^(١) ، ولكننا نود أن نسجل هذه الحقيقة ، التي يشعر بها السائح المتجول ، كما يشعر بها العالم الباحث ، وهي أن هذه الآثار والأطلال الصامتة ، كلها تشهد بما كان لهذا الشعب الأندلسي الذكي النبيل ، من قدم راسخ في ميدان العلوم والفنون ، وكلها تبدو بما يتجلى فيها من روعة أثرية ، ومن براعة علمية وفنية ، عنواناً لحضارة عظيمة .

(١) هو كتاب « الآثار الأندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال » (القاهرة سنة ١٩٥٦)

ثبت المراجع

- ١ -

- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرئ (القاهرة وبولاق) .
أزهار الرياض في أخبار عياض للمقرئ (القاهرة) .
تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر (بولاق) .
التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً (لجنة التأليف والترجمة
القاهرة ١٩٥١) ؛
الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام (القسم الثالث مخطوط أكاديمية
التاريخ بمطبعة) .
الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب (ج ١ و ٢ القاهرة سنة ١٣١٩ هـ) .
الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب (ج ١ القاهرة سنة ١٩٥٦) .
اللمحة البدرية في تاريخ الدولة النصرية لابن الخطيب (القاهرة ١٣٤٧ هـ) .
الحلل الموشية في الأخبار المراكشية (تونس ١٣٣٧ هـ) .
أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر المنشور بعناية المستشرق ميلر
(جوتنجن سنة ١٨٦٣) .
(نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر) المنشور بعناية معهد فرانكو -
(العرائش سنة ١٩٤٠) .
تاريخ قضاة الأندلس لأبي الحسن النباهي المنشور بعناية الأستاذ ليثي
بروفنسال (القاهرة ١٩٤٨) .
قلائد العتميان للفتح بن خاقان (القاهرة ١٢٨٤ هـ) .
صلة الصلة لأبي جعفر بن الزبير المنشور بعناية الأستاذ ليثي بروفنسال
تكملة الصلة لابن الأبار (المكتبة الأندلسية) .
الحلة السيرة لابن الأبار المنشور بعناية العلامة دوزي (ليدن سنة ١٨٥١) .
تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين لأشباح وترجمة محمد عبد الله
حنان (القاهرة ١٩٥٨) .

المنذخرة السنية في تاريخ الدولة المريضة لمؤلف مجهول (الجزائر سنة ١٩٢٠) .
نزهة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى لأبى عبد الله محمد اليفرنى
(طبع فاس) .

بغية الرواد في ذكر الملوك من بنى عبد الواد للوزير يحيى بن خلدون.
المنشور بعناية الأستاذ الفرد بل (طبع الجزائر سنة ١٩٠٣ و ١٩١٠) .

الإستقصاء لأخبار دول المغرب الاقصى للسلاوى (القاهرة) .

المؤنس في أخبار إفريقية وتونس لابن دينار (تونس) .

الخلاصة النقية في أمراء إفريقية لأبى عبد الله الباجى المسعودى (تونس) .

مختصر تاريخ تطوان للسيد محمد داود .

مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح لأبى عبد الله محمد أبوجندار (الرباط

١٣٤٥ هـ) .

رحلة الوزير في افتكاك الأسير للوزير محمد بن عبد الوهاب الغسانى

(العرائش ١٩٤٠) .

غزوات عروج وخير الدين (الجزائر سنة ١٩٣٤) .

وثائق عربية غرناطية من القرن التاسع الهجرى للأستاذ سيكودى لوئيند

(المنشور بعناية المعهد المصرى بمديرية ١٩٦١) .

السلوك في دول الملوك للمقرئزى (لجنة التأليف والترجمة القاهرة) .

صبح الأعشى للقلقشندي (القاهرة) .

الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع للسخاوى (القاهرة) .

قوات الوفيات لابن شاکر الكتبي (بولاق) .

تاريخ ابن إياس المسمى بدائع الزهور (بولاق) .

الروض المعطار لأبى عبد الله الحميرى المنشور بعناية الأستاذ ل. بروفسال (القاهرة) .

معجم البلدان لباقوت الحموى (القاهرة) .

رحلة ابن بطوطة (القاهرة) .

مصادر مخطوطة

ريحانة الكتاب ونجعة المتاب لابن الخطيب (الإسكوريان ١٨٣٥ الغزيرى) ؛

وكناسة الدكان (رقم ١٧١٢) ؛ ونفاضة الجراب (رقم ١٧٥٥) وغيرها من

آثاره المخطوطة بالإسكوريان .

ديوان ابن الخطيب المسمى « الصبب والجهام والماضى والكهام » (خزانة
جامع القرويين بفاس) .

أسنى المتأجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب
على ذلك من العقوبات والزواج (الإسكوريال رقم ١٧٥٨ الغزيرى) .

التكملة لابن عبد الملك المراكشى (الإسكوريال رقم ١٦٨٢ والرباط) .
الإكليل في تفضيل النخيل (أو نزهة البصائر) لأبى الحسن النباهى
(الإسكوريال رقم ١٦٥٣ الغزيرى) .

الياقوتة الحلية في الذرية السعيدية المرينية المباركة العبدالحقية (مكتبة مدريد
الوطنية) .

النفحة النسرينية واللمحة المرينية ، للأمير إسماعيل بن الأحمر (الإسكوريال
١٧٦٩ الغزيرى) .

الأنوار النبوية في آباء خير البرية لمحمد بن عبد الرقيق الأندلسى الموريسكى
المحموظ بخزانة الرباط (المكتبة الكتانية) برقم 1238

كتاب العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع للرئيس ابن غانم
الأندلسى الموريسكى ، وترجمة الشهاب الحجرى الموريسكى ومحموظ بخزانة
الرباط برقم ج 87 .

الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم لعبد الباسط بن خليل الحنفى المصرى
(مكتبة الفاتيكان رقم ٧٢٨ و ٧٢٩ Borg.) .

نثر الجمان في شعر من نظمى وإياه الزمان للأمير إسماعيل بن الأحمر
(دار الكتب المصرية رقم ١٨٦٣ آداب اللغة العربية) .

- R. Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la conquête
» des Almoravides (Lévy-Provençal 1932).
» : Recherches sur l'Histoire et Littérature de l'Espagne-
pendant le moyen-âge.
» : Supplément aux Dictionnaires Arabes.
- Lévy-Provençal : L'Espagne Musulmane au Xème Siècle.
- De Marlès : Histoire de la Domination des Arabes et des Maures en
Espagne et Portugal (redigé sur l'Histoire de M.
Joseph Condé).
- P. Gayangos : Mohamedan Dynasties in Spain.
(وهو ترجمه القمم التاريخي من كتاب نفع الطيب مع تعليقات وهوامش)
- W. Prescott : History of Ferdinand and Isabella the Catholic
(London, Sonnenschein).
» : History of the Reign of Philip the Second (London
1855).
- Scott : The Moorish Empire in Europe.
- H. Ch. Lea : History of the Inquisition in Spain.
» » : History of the Moriscos of Spain; their Conversion
and Expulsion (London 1901).
- Owen Jones & Jules Goury : The Alhambra (London 1844).
- W. Irving : A Chronicle of the Conquest of Granada (Everyman's).
- Murphy : Mohamedan Empire in Spain.
- Lane-Poole : The Barbary Corsairs.
» » : The Moors in Spain.
- C. Brockelmann : Geschichte der arabischen Literatur.
- M. Casiri : Bibliotheca Arabico-Hispana Escorialensis.
- F.J. Simonet : Descripción del Reino de Granada (Granada 1872).
» » : El Cardinal Ximénez de Cisneros y los Manuscritos
: Arábigo-Granadinos.
- Isidro de las Cagigas : Los Mudéjares (Madrid 1940).
- Prieto y Vives : De como debió nacer el Reino de Granada.
- R. y. de Linares : Escrituras Arabes pertenecientes al Archivo de
Nuestra Senora del Pilar de Zaragoza (en Homenaje
a F. Codera, Zaragoza 1904).
- A. G. Palencia : Los Mozárabes de Toledo en los Siglos XII &
XIII (Madrid 1926-1930).

- A.G. Palencia : Moros y Cristianos en España Medieval (Madrid 1945)
- P. Boigues : Apuntes sobre las Escrituras Mozárabes Toledanas.
- Alarcón y Santón y R. G. de Linares : Los Documentos Arabes diplomáticos del Archivo de la Corona de Aragón.
- J. Condé : Historia de la Dominación de los Arabes en España.
- Lafuente Alcántara : Historia de Granada (Granada 1904).
- Luis del Marmol Carvajal : Historia del Rebelión y Castigo de los Moriscos de Granada.
- Hernando de Baeza : Las Cosas de Granada (ed. por M. Müller, Göttingen 1863).
- M. Gaspar y Remiro : Documentos Arabes de la Corte Nazarí de Granada.
- » » » » : Entrada de los Reyes Católicos en Granada al Tiempo de su Rendición (Revista de Centro de Estudios Hist. de Granada).
- Documentos Inéditos para la Historia de España.
- M. Garrido Añenja : Las Capitulaciones para la Entrega de Granada (Granada 1910).
- P. Martiri de Angleria : Legatio Babylonico (Una Embajada de los Reyes Católicos a Egipto).
- M. Gomez-Moreno : El Arte en España.
- A. Llorente : Historia Crítica de la Inquisición de España (Madrid 1817)
- M. Alarcón : Misceláneo de Estudios y Textos Arabes (Madrid 1915)
- M. Danvila y Collado : La Expulsión de los Moriscos Españoles (Madrid 1889)
- Florencio Janer : Condición Social de los Moriscos de España (Madrid 1857).
- Modesto Lafuente : Historia General de España (Madrid 1882).
- D. Felipe Picatostí : Estudios sobre la Grandeza y Decadencia de España (Madrid 1887).
- M. Menéndez y Pelayo : Historia de los Heterodoxos Españoles.
- D. Pascual Boronat : Los Moriscos Españoles y su Expulsión.
- R. Menéndez Pidal : Orígenes del Español.
- F. Saavedra : Discurso leído ante la Real Academia Española (Madrid 1878).
- Al-Andalus (Revista de las Escuelas de Estudios Arabes de Madrid y Granada).

فهرست الموضوعات

صفحة	مقدمة
٣	...

تاريخ مملكة غرناطة

الكتاب الأول

مملكة غرناطة

منذ قيامها حتى عصر السلطان أبي الحسن

١٦	الفصل الأول : الأندلس الغاربة
٢٧	الفصل الثاني : نشأة مملكة غرناطة وقيام الدولة النصرانية
٥٥	الفصل الثالث : طوائف الأمة الأندلسية في عصر الانحلال
٧٤	الفصل الرابع : طبيعة الصراع بين الأندلس وإسبانيا النصرانية
	الفصل الخامس : تاريخ إسبانيا النصرانية منذ أوائل القرن الحادى عشر حتى قيام مملكة غرناطة
٨٤	الفصل السادس : مملكة غرناطة عقب وفاة ابن الأحمر وعصر الجهاد المشترك بين بنى الأحمر وبنى مرين
٩٤	الفصل السابع : مملكة غرناطة في النصف الأول من القرن الثامن الهجرى وذروة الصراع بين بنى مرين وإسبانيا النصرانية
١١٧	الفصل الثامن : الأندلس بين المد والجزر
١٣٨	الفصل التاسع : تاريخ إسبانيا النصرانية منذ قيام مملكة غرناطة حتى اتحاد مملكتى قشتالة وأراجون
١٦٩	...

الكتاب الثانى

نهاية دولة الإسلام في الأندلس

١٨٨	الفصل الأول : الأندلس على شفا المنعذر
٢١٥	الفصل الثانى : بداية النهاية

صفحة	
٢٢٩	الفصل الثالث : الصراع الأخير
٢٧١	الفصل الرابع : ختام المأساة

مأساة الموريسكيين أو العرب المنتصرين

الكتاب الثالث

مراحل الإضطهاد والتنصير

٣٠٨	الفصل الأول : بدء التحول في حياة المغلوب
	المفصل الثاني : ديوان التحقيق الإسباني ومهمته في إبادة الأمة
٣٢٨	الأندلسية
٣٤٩	الفصل الثالث : ذروة الإضطهاد وثورة الموريسكيين

الكتاب الرابع

نهاية النهاية

	المفصل الأول : توجس السياسة الإسبانية وعصر الغارات البحرية
٣٧٨	الإسلامية
٣٩٣	المفصل الثاني : مأساة النفي
٤١١	المفصل الثالث : تأملات ونعليات عن آثار المأساة

الكتاب الخامس

نظم الحكم والحياة الاجتماعية والفكرية في مملكة غرناطة

٤٣٤	المفصل الأول : نظم الحكم في مملكة غرناطة وخواصها الاجتماعية ...
٤٥٢	المفصل الثاني : الحركة الفكرية في مراحلها الأولى
٤٦٩	الفصل الثالث : عهد النضج والأزدهار
٤٨٨	المفصل الرابع : العصر الأخير والآثار الباقية
٥١٩	ثبت المراجع

فهرست الخرائط والصور والوثائق

صفحة

- ١ - خريطة مملكة غرناطة وعدوة الغرب صدر الكتاب
- ٢ - » الأندلس والممالك الأسبانية في أواخر عصر الموحدين ... ٢٩
- ٣ - » الأندلس بعد الانهيار ٨٩
- ٤ - » غرناطة الإسلامية ٢٥٩
- ٥ - » مدينة الحمراء وقصر جنة العريف ٢٩١

الصور

- ١ - ألفونسو العالم ١٠٤
- ٢ - إيسابيلا الكاثوليكية ملكة قشتالة ١٨١
- ٣ - فرناندو الكاثوليكي ملك أراجون ١٨٣
- ٤ - أبو عبد الله محمد سلطان غرناطة وآخر ملوك الأندلس ٢٠٧
- ٥ - أبو عبد الله محمد آخر ملوك الأندلس - صورة أخرى ٢٧٥
- ٦ - منظر عام لمدينة الحمراء ٢٩٣
- ٧ - من زخارف بهو السفراء ٢٩٥
- ٨ - نافورة الأسود والشفرة الوسطى لفناء الأسود ٢٩٧
- ٩ - واجهة قصر جنة العريف ٢٩٩
- ١٠ - الكزدینال خنيس دى سيسنيروس ٣١٧
- ١١ - ضريح فرناندو وإيسابيلا بكنيسة غرناطة ٣٥١
- ١٢ - الإمبراطور شارل كان ٣٥٣
- ١٣ - الملك فيليب الثاني ٣٥٩
- ١٤ - دون خوان ٣٧١
- ١٥ - أمير البحر خير الدين ٣٨٧
- ١٦ - الملك فيليب الثالث ٣٩٩

الوثائق

- ١ - وثيقة مدجنية مؤرخة في سنة ٨٠١ هـ (١٣٩٨ م) ومحفوطة ببلدية بنبلونة ٥٩
- ٢ - وثيقة مستعربية من مجموعة دير سان كليمنتي بطليطلة مؤرخة في سنة ١١٧٣ م ٧١

٣	— معاهدة التحالف المعقودة بين محمد بن الأحمر وملك أراجون في	صفحة
١١١	سنة ٧٠١ هـ (١٣٠١ م)	
٤	— معاهدة الصلح المعقودة بين السلطان أبي الوليد اسماعيل وملك	
١١٩	أراجون في سنة ٧٢١ هـ (١٣٢١ م)	
٥	— وثيقة بتجديد معاهدة الصلح السابقة معقودة بين السلطان محمد	
١٢٣	ابن اسماعيل وملك أراجون في سنة ٧٢٦ هـ (١٣٢٥ م)	
٦	— رسالة مرسلة من السلطان يوسف أبي الحجاج إلى دون ألفونسو	
١٣١	ملك أراجون في سنة ٧٣٥ هـ (١٣٣٥ م)	
٧	— وثيقة اعتماد صادرة من السلطان أبي الحجاج إلى وزيره القائد ابن كماش	
١٣٣	سفيره إلى بيدرو الرابع ملك أراجون ومؤرخة سنة ٧٤٥ هـ (١٣٤٤ م)	
٨	— وثيقة صادرة من السلطان أبي الحسن المريني باعتماد الصلح المعقود بين	
١٣٥	سلطان غرناطة وملك أراجون مؤرخة في سنة ٧٤٦ هـ (١٣٤٥ م)	
٩	— رسالة موجهة من السلطان الأيسر إلى قادة حصن قنارش مؤرخة	
١٥٧	في سنة ٨٣١ هـ (١٤٢٨ م)	
١٠	— صورة بجانب من معاهدة التحالف والخضوع المعقودة بين يوسف	
١٥٩	ابن المول ونحوان الثاني ملك قشتالة في سنة ٨٣٥ هـ (١٤٣٢ م)	
١١	— مرسوم صادر من السلطان أبي الحسن إلى رسول الملكين الكاثوليكين	
١٩٣	بقبول التحكيم ومؤرخ في سنة ٨٨٢ هـ (١٤٧٨ م)	
١٢	— خطاب مرسل من السلطان أبي عبد الله محمد إلى قائد وأشباه أجيجر	
٢٣٣	يدعوهم إلى طاعته مؤرخ في سنة ٨٩٥ هـ (١٤٨٩ م)	
١٣	— الصفحة الأخيرة من معاهدة التسليم التي أصدرها الملكان الكاثوليكيان	
٢٥٣	لأبي عبد الله وأهل غرناطة وعليها توقيعاً فرناندو وإسabella (١٤٩١ م)	
١٤	— ذيل المعاهدة النهائية التي عقدت بين الملكين الكاثوليكين وأبي عبد الله	
٢٧٩	وفيها يتعهد بمغادرة الأندلس ، وعليها توقيعها ونهاية (١٤٩٣ م)	
١٥	— صورة خطاب مولاي عبد الله إلى دون هرناندو دي براداس	
٣٧٣	مكتوب بخطه ومذيل بتوقيعه	
٤٩٧	١٦ — الصفحتان الأوليان من كتاب في الأدعية النبوية محرر بالأنحميادو	
٤٩٩	١٧ — صفحتان من كتاب في التفسير محرر بالأنحميادو	

فهرست البلدان والأماكن

إستجة ؛ ١٥٨٤١٠٦٤١٠٠٤٤٨٤٣٣٤٢٠
 استرامادورة ؛ ٤٠١٤٣٧٥
 أسترفه ؛ ١٩
 آسنى ؛ ٣٩٢٤٣١١
 الاسكندرية ؛ ٤٩٦٤٤٤٨٤٢٧٢
 الاسكندرية ، موقعة ؛ ١٤٧
 آسيا الصغرى ؛ ٤٦٠
 أشبونة ؛ ٥١٧٤٢٠
 إشبيلية ، وولاية ؛ ٣٢٤٣٠٤٢٨٤٢٢٤٢٠
 ٤٦٥ ٤٦٣٤٥٧-٥٥٤٥٠ ٤٤٥-٤٣٤٣٩٤٣٧
 ٤١٠٢ ٤١٠١٤٩١٤٩٠٤٨٨٤٨٧٤٧٥٤٧٠
 ٤١٤٩ ٤١٤٨ ٤١٤٢٤١٣٢ ٤١٠٩ ٤١٠٦
 ٤٢٣١ ٤٢٢٠ ٤١٩٤ ٤١٧١ ٤١٧٠ ٤١٦٣
 ٤٤٠٤ ٤٤٠١٤ ٣٧٥٤ ٣٤١٤ ٣٣٢٤ ٣٣١
 ٤٤٤٠-٤٣٨٤ ٤٣٥٤ ٤٣٢٤ ٤٢٦٤ ٤١٢
 ٥١٧٤٥١٥-٥١٢٤٤٦٢٤٤٥٩٤٤٤٧
 أشكر ؛ ٢٢٣٤٥٥
 أشونة ؛ ٣٨٨
 أطرية ؛ ١٤٨
 أغادير ؛ ٣٩٢
 إفراغة ؛ ٢٠
 إفريقية ؛ ٢١١٤٧٢٤٦٨٤٣٩٤٣٧٤٣٦
 ٤٣٤٥ ٤٣٢٥ ٤٢٣٩ ٤٢١٩ ٤٢١٧ ٤٢١٦
 ٤٣٩٠ ٤٣٨٩ ٤٣٧٤ ٤٣٦٨ ٤٣٥٥ ٤٣٥٠
 ٤٤٨٤٤٤٧٤٤١٢٤٤٠٢٤٣٩٦
 البسيط ؛ ٣٧٥
 إلبيرة ؛ ١٤٢٤١١٨٤٥٦٤٢٧٤٢٢٤٢١
 ١٦٠
 إلبيرة ، موقعة ؛ ١٢٠
 ألحامة ؛ ٢١٥٤٢٠٢٤٢٠١٤٥٥٢
 الحرم الشريف ؛ ١٢٩
 الخبرونا ، موقعة ؛ ١٧٤
 الصخرة ؛ ٢٠١٤١٩٥٤١٥١
 العرائش ؛ ٣٩١
 العقاب ، موقعة ؛ ٧٧ ٤٧٥ ٤٢٠ ٤١٩
 ١٢٨٤٩٦٤٩٥٤٨٦-
 الغرب ، ولاية ؛ ٤٤٣٤٣٩٤٣٦٤٢٨٤٢٠

أبدية ؛ ٤٩٦٤١٤٩٤١٠٠٤٨٨٤٣٣٤٢٠
الأبلج الحمراء ؛ ٢٩٠
آيلة ؛ ٣٣٢٤٣٢٣٤١٧٧٤١٧١٤١٩
أبو عقبة ، موقعة ؛ ٢٨٧
أجيجر ؛ ٣٦٦٤٣٦٤٤٢٥١٤٢٣٠
أدره ؛ ٣٦٦٤٣٦٢٤٢٧٨٤٢٦٤٤٢٥١
أراجون ؛ ٣٤٤٣٦٤٣٦٤٢٤٥٧
١٤٠٤١٢٧٤١٢١٤١٢٠٤١١٠٤٩١-٨٤٤٧٨
١٨٤٤١٨٠٤١٧٩٤١٧٢٤١٦٣٤١٤٨٤١٤٤
٣١٢٤٢٧٢٤٢٢٩٤٢٢١٤٢١٠٤١٩٤٤١٨٥
٣٨٢٤٣٥٨٤٣٥٣٤٣٥١٤٣٤٠٤٣٣٢-٣٣٠
٤٩٨٤٤٩٦٤٤٩٤٤٤٢١٤٤٠١٤٤٠٠
أرجبة ، ٣٦٩٤٣١٥٤٢٦٤٤٢٥١٤٥٥
أرشدونة ؛ ٤٩١٤١٩٢٤١٦١٤١٥٨٤٥٥
الأرك ، موقعة ؛ ٨٧٤٨٦٤٧٧٤٧٥٤١٩
١٣٦٤١٠٠
أركش ؛ ٤٥
أرمليا ؛ ٢٦٦٤٢٦٠٤٢٥٨٤٢٥
أريقالو ؛ ٣٥٥
أزمور ؛ ٣١١
إسبانيا المسلمة ؛ ٨٦-٨٤٤٧٩٤٧٨٤٢٠٤١٩
٥٠٧٤٥٥٠٤٤٨٨٤٤٤٦٤٤٤٠٤٤٣٢٤٣٣٠
٥١٥٤٥١٤٤٥١٠
إسبانيا ، إسبانيا النصرانية ؛ ٣٤٤٢١-١٨٤١٦
- ٨٢٤٨٠-٧٤٤٦٨٤٦٧٤٦٥٤٦٣٤٤٣٤٣٧
٤١٦٨٤١٣٠٤١٢٧٤١٢٣٤١٢٢٤٩٥٤٨٨
١٩١٤١٨٥٤١٨٤٤١٨٠٤١٧٦٤١٧٥٤١٧٠
٢٦٠٤٢٣٩٤٢٣٦٤٢٢١٤٢١٩٤١٩٥٤١٩٤
٣١٠-٣٠٨٤٣٠٣٤٣٠٣٤٢٧٢٤٢٦٦٤٢٦٤
٤٣٣٣٤٣٣٠٤٣٢٤٤٣١٩٤٣١٣٤٣١٢
٣٥٦٤٣٥٥٤٣٥٢-٣٤٨٤٣٤٦٤٣٤١٤٣٤٠
٤٣٨٣-٣٨١٤٣٧٤٤٣٧٠٤٣٦٢-٣٦٠
٤٤٠٢٤٣٩٩-٣٩٢٤٣٩٠٤٣٨٩٤٣٨٦
٤٤٣٢-٤٢٦٤٤٢٤٤٤٢٣٤٤٢١-٤١٩٤٤٠٩
٥٠٢٤٤٩٣٤٤٨٨٤٤٨١٤٤٤٥٤٤٤٠٤٤٣٩
٥١٥٤٥١٤٤٥١٠٤٥٠٧

٤٩٣٤٩٠٤٨٨ : ٤٨٦ ، ٤٨٢ ، ٤٨١
٥١٦٥١٥٥١٣٥١١٥٠٩٥٠٨٥٠٢
أنيسة ، موقعة ؛ ٣٦
أوربا ؛ ٦٣ ، ٤٢٨ ، ٤٢٥ ، ٢٨٧ ، ٧٦ ،
٥١٥٤٤٨٤٤٧
أوريولة ؛ ٩٢ ، ٥٦ ، ٤١ ، ٣٦ ، ٢٠
أوليفيا ؛ ٣٨٦
الأهرام ؛ ٢٧٣
إيطاليا ؛ ١٣٠ ، ٣٣٠ ، ٣٢٨ ، ٢٧٢ ، ١٧٩ ،
٤٢٧ ، ٣٥٠

ب — ث

باب البنود ؛ ٢٦ ، ٣٦٣ ، ٣٦٠
باب البيازين ؛ ٢٦
باب البيرة ؛ ٢٦ ، ٢٦١
باب الرمان ؛ ٢٩٢
باب الرملة ، ميدان ؛ ٣١٦ ، ٢٦
باب الشريعة ؛ ٢٩٢ ، ٢٩٠ ، ٢٨٧ ، ٢٦١ ، ٢٦
باب الطباق السبع ؛ ٢٦٧ ، ٢٦٦ ، ٢٦٠
باب المشار ؛ ٢٤٥
باب فحص اللوز ؛ ٢٦
باب الفخارين ؛ ٣١٠
الباب المحروق ؛ ٤٧٨
باب نجدة ؛ ٢٤٥
باجة ؛ ٢٨ ، ٢٠
باديس ؛ ٣٩١ ، ٣١١
باغة ؛ ١٥١ ، ١٤٩ ، ١٢٦
بالميرا ؛ ٣٨٨
بجاية ؛ ٤٥٥ ، ٣٨٤ ، ٣٢٥ ، ٣١١ ، ١٢٧
البذول ؛ ٢٦٣ ، ٢٣٤
بربشتر ؛ ١٧
البرتغال ؛ ٨٨ ، ٨٥ ، ٧٩ ، ٤٦ ، ٤٣ ، ٢٠ ،
٥١٧ ، ١٧٤ ، ١٢٧ ، ٩٠
برج الأسيرة ؛ ٢٩٠
برج الحراسة ؛ ٢٩٢ ، ٢٨٩ ، ٢٦٢ ، ٢٦٠
برج رومة ؛ ٢٣٤
برج السلاح ؛ ٢٩٠
برج العقائل ؛ ٢٩٠
برج قمارش ؛ ٢٠١ ، ٢٠٠
برج الماء ؛ ٢٦٧
برج المتزين ؛ ٢٩٠

٤٦٧ ، ١٥١ ، ٨٨ ، ٧٢ ، ٤٩
الغرب الإسلامي ؛ ١٣٩ ، ٧٧
القبذاق ؛ ١١٠
الكالا دي هنارس ؛ ٣١٦
اللسانة ، وموقعة ؛ ٢٠٨ ، ٢٠٣
المانيا ؛ ٣٣٠ ، ٣٢٨
المدور ؛ ٢٠
ألرية ، وولاية ؛ ٦٣ ، ٥٢ ، ٤٠ ، ٣٥ ، ٣٣
١٥٦ ، ١٤٤ ، ١٣٠ ، ١٢٦ ، ١٢١ ، ١١٦ ، ١١٥
٢٢٤ ، ٢٢٢ ، ٢١٨ ، ٢٠٩ ، ٢٠٨ ، ١٦٧ ، ١٦٣
٢٦٩ ، ٢٦٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٤ ، ٢٣٠ ، ٢٢٩ ، ٢٢٦ ،
٣٦٧ ، ٣٦٤ ، ٣١٩ ، ٣١٥ ، ٣١١ ، ٢٧٤
٤٤٧ ، ٤٤٠ ، ٤٣٩ ، ٤٣٥ ، ٤٣٢ ، ٣٨٥ ، ٣٧٥
٥١٧ ، ٤٧١ ، ٤٧٠ ، ٤٦٣
الملاحة ؛ ٢٢٧
المنصورة ؛ ٣٦٨ ، ٥٥
المنكب ؛ ١٥٠ ، ١٠٦ ، ١٠٥ ، ١٠٢ ، ٥٥
٢٣٥ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٢٤ ، ٢٢٢ ، ٢٠٩ ، ٢٠٤
٢٧٨ ، ٢٦٩
أمريكا ؛ ٤٢٧ ، ٤٢٥
أنشيرة ؛ ١٤٣ ، ٥٥
أندرش ؛ ٢٥١ ، ٢٣٥ ، ٢٣٤ ، ٢٢٧ ، ٥٥
٣١١ ، ٢٧٧ ، ٢٧٦ ، ٢٧٣ ، ٢٦٧ ، ٢٦٤
٣٧٤ ، ٣٧٠ ، ٣٦٦ ، ٣٢٥ ، ٣٢٣
أنجلس ؛ ١٦ - ٣٨ ، ٣٧ ، ٣٥ - ٣٠ ، ٢٨ ، ٢٢ -
٤٠ - ٤٦ ، ٤٣ - ٤٩ ، ٥١ ، ٥٤ - ٥٦ ، ٦١ ، ٦٢
٦٨ ، ٧٢ - ٧٩ ، ٨١ ، ٨٦ - ٨٨ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٥
٩٧ - ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٥ - ١٠٩ ، ١١٣
١١٤ ، ١١٦ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٤ - ١٣٠ ،
١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤١ -
١٤٧ ، ١٥٥ ، ١٦٢ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٠ ،
١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٩ ،
٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢١١ ، ٢١٦ -
٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ ،
٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٤٩ ، ٢٥٤ ، ٢٥٨ ، ٢٦١ ،
٢٦٤ ، ٢٦٧ ، ٢٧٠ - ٢٧٣ ، ٢٧٨ ، ٢٨٠ ،
٢٨٢ ، ٢٨٥ - ٢٨٨ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٣ ، ٣١٦ ،
٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٥٠ ، ٣٦٢ ، ٣٦٥ ، ٣٦٧ -
٣٦٩ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٤٠٠ - ٤٠٨ ، ٤٣١ ،
٤٣٤ - ٤٤٣ ، ٤٤٥ - ٤٤٧ ، ٤٥٠ ، ٤٥٨ ،
٤٥٢ - ٤٦٢ ، ٤٦٩ - ٤٧١ ، ٤٧٤ ، ٤٧٦ ، ٤٧٨

٤٢٦ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤٦ ، ٤٥٥ ، ٤٨١
 بنبلونة ؛ ٥٨
 البندقية ؛ ٤٤٨ ، ٣٨٣ ، ٣٥٥
 بنى وزير ؛ ٣٨٠ ، ٣٥٢
 بوكيرا ؛ ٣٦٧
 هو السباع ؛ انظر فناء السباع .
 هو قمارش (هو السفراء) ؛ ٢٥٤ ، ٢٤٠ ،
 ٢٩٤ ، ٢٩٠ ، ٢٦١ ، ٢٥٥
 البيازين ، ريفس ؛ ٢٥٠ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ،
 ٢١٣ ، ٢٤٩ ، ٢٤٥ ، ٢٦٢ ، ٣١٥ ،
 ٣٦٥ ، ٣٦٢ ، ٣٦٠ ، ٣٢٦ ، ٣٢٣ ، ٣١٦
 ٤٨٢ ، ٤٤٤ ، ٣٦٨
 بيارن ؛ ٣٨٢
 بياسة ؛ ٢١٢ ، ١٢٠ ، ٧٠ ، ٢٠
 بيانة ؛ ٤٩٦
 بيت المقدس ؛ ٢٧٣ ، ٢٢١ ، ٢٢٠ ، ٧٨
 بيرة ؛ ٣١١ ، ٢٢٣ ، ١٢٢ ، ٥٥
 بيزه ؛ ٣٨٣
 بينغ ؛ ٤٣
 تركيا ؛ ٤٢٥ ، ٢١٩ ، ٦٦
 تطوان (تطاون) ؛ ٣٩١ ، ٣١١ ، ١١٤ ،
 ٤٠٨ ، ٤٠٥ ، ٣٩٢
 تطيلة ؛ ٦٣ ، ٢٠
 تل الرحي ؛ ٢٥٨
 تل الحمراء ؛ ٢٣
 تلمسان ؛ ١٤٤ ، ١١٣ ، ٩٧ ، ٩٦ ، ٣٢ ،
 ٢٢٨ ، ٣١١ ، ٣٨٢ ، ٣٩٨ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ،
 ٤٩١ ، ٤٩٠ ، ٤٧٦ ، ٤٧٥ ، ٤٦٤
 تورو ؛ ١٨٢
 تونس ؛ ١٥٥ ، ١٢٥ ، ٤٨ ، ٤٠ ، ٢٨ ، ١٨ ،
 ١٥٦ ، ٣٢٥ ، ٣٨٩ ، ٣٨٦ ، ٣٨٤ ، ٣٩٠ ،
 ٤٠٣ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٥٥ ، ٤٩١ ، ٤٩٦ ،
 ٥٠٢ ، ٥٠١
 الثغر الأعلى ؛ ١٦٦ ، ٧٥ ، ٢٠
 ثيودادريال ؛ ٤١٤ ، ٣٨٨

ج - ح

جامع إشبيلية ؛ ٥١٣ ، ٤٣٩ ، ٤٤٥
 جامع الحمراء ؛ ١١٢
 جامع القرويين ؛ ٤٧
 جامع القصبة ؛ ٤٠

برج الملاحه ؛ ٢٣٤
 برجة ؛ ٣٦٦ ، ٣١١ ، ٢٧٨ ، ٢٦٤ ، ٢٥١ ، ٥٥٤
 برذنار ؛ ٣٦٥
 برشانة ؛ ٥٥
 برشلونة ؛ ٤٣١ ، ٣٨٢ ، ٧٨
 برشينا ؛ ٢٧٧
 برغة ؛ ١٤٨
 برغش ؛ ٥١٤
 بركونة ؛ ٤٣
 بروقانس ؛ ١٧٦
 بسطة ؛ ٢٢١ ، ٢٠٨ ، ٨٨ ، ٥٥ ، ٥٠ ، ٣٩ ،
 ٢٢٧ - ٢٢٤ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٥ ، ٢٥١ ، ٣١١ ،
 ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٦ ، ٣٦٧ ، ٣٧٠ ، ٣٧٥ ، ٣٩١ ،
 ٤٢٤ ، ٤٣٩ ، ٤٣٦ ، ٤٣٤ ، ٥٥٥
 البشرات ؛ ٢٧٣ ، ٢٦٧ - ٢٦٤ ، ٢٥١ ، ٢٤٩ - ٢٤٧ ، ٢٤٦ ،
 ٣١١ ، ٣١٩ ، ٣٢٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٧ ، ٣٥٦ ،
 ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٧٠ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٤٢٣ ، ٤٤٣
 بطرنا ؛ ٣٦٧ ، ٤٤٣
 بطليوس ؛ ٥١٧ ، ٤٣٥ ، ٥٦ ، ٣٢ ، ٣١ ، ٢٠
 بغداد ؛ ٥١٥ ، ٢٨٣ ، ٣١
 بلاد البشكنس ؛ انظر ناقار (نبرة)
 بلاط الشهداء ؛ ٢١
 البلد الجديد ؛ ٤٧٨
 بلد الوليد ؛ ٣٢٢ ، ١٨٢ ، ١٧٥
 بلدية بنبلونة ؛ ٥٩ ، ٥٨
 البلشان ؛ ٢٢٣
 بلش الحناء (بلج) ؛ ٢٢٣ ، ٢٠٨
 بلش البيضاء ؛ ٢٢٣ ، ٢٠٨
 بلش مالقة ؛ ٢٠٩ ، ٢٠٣ ، ١٣٤ ، ١١٦ ، ٥٥٥ ،
 ٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٢٠ ، ٢٣٥ ، ٣١١ ،
 ٤٩١ ، ٣٦٤
 بلغراد ؛ ٤٠٥
 بلفيق ؛ ٣٢٣
 بلنقة ؛ ١٩٥
 بلنسية ، وولاية ؛ ٥٦ ، ٥٠ ، ٣٧ - ٣٥ ، ٣٤ ، ٢٠ ،
 ٥٧ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٧٠ ، ٧٥ ، ٨١ ، ٩٠ - ٩٢ ،
 ١٢٠ ، ١٧٧ ، ١٩٩ ، ٢١٠ ، ٢٧٢ ، ٣١٢ ،
 ٣٤٦ ، ٣٥٢ - ٣٥٥ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٦١ ، ٣٨٠ ،
 ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٨ ، ٣٩١ ،
 ٣٩٤ ، ٣٩٦ - ٣٩٨ ، ٤٠٢ ، ٤٠٦ ، ٤١٠ ،
 ٤١٢ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤٢٠ ، ٤٢٢ ، ٤٢٥ ،

٤١٤٨ ، ٤١٤٩ ، ٤١٥١ ، ٤١٥٨ ، ٤١٦٥ ، ٤٢٢٢
 ٤٠٤ ، ٣٣٢ ، ٢٢٥
 الجيتو (حى اليهود) : ٣٢٦
 جيرة : ١٤٨
 جيرونة : ٥١١
 الحجاز : ١٦٢
 الحمراء ، مدينة ، قصر ، حصن : ٢٤٤ ، ٢٣٣ -
 ٤١٦٧ ، ٤١٩٥ ، ٤١٩٨ ، ٤٢٠١ ، ٤٢٠٨ ، ٤٢٣٠ ، ٤٢٣٨
 ٤١٤٠ ، ٤١٤٧ ، ٤١٥٠ ، ٤١٥٥ ، ٤١٥٦ ، ٤١٦٠ ، ٤١٦٣
 ٤٢٤٠ ، ٤٢٤٥ ، ٤٢٤٩ ، ٤٢٥٢ ، ٤٢٥٤ ، ٤٢٥٨ ، ٤٢٦٠
 ٤٢٧٣ ، ٤٢٨٧ ، ٤٢٨٩ ، ٤٢٩٠ ، ٤٢٩٢
 ٢٩٤ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٣٠١ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٥٠
 ٣٦٢ ، ٤٤٤ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥١٤ ، ٥١٦
 حصن أرجونة : ٣٨ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٩٠
 حصن إليورة : ٢١٠ ، ٢٣٠
 حصن أياموتى : ١٥١
 حصن ذكوين : ٢٠٦
 حصن قرطبة : ٢٠٦
 حصن قلنيرة : ٢١١
 حصن قمارش : ٢١٦
 حصن المقورة : ٤٦
 حصن اللوز : ٥٥ ، ١٥٨ ، ١٦٠
 حصن مجريط : ١٠٥
 حصن مرتيل : ٣١١
 حصن المعودة : ١٠٠
 حصن المنكب : ١١٤
 حصن موجر : ٣١١
 حصن موكلين : ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢٣٠
 حصن مونتميور : ٢١٦
 حصن : ٥٠ ، وانظر إشبيلية .
 حوزموئل : ٢٥
 الخان : ٢٥
 الخزانة : ٤٣
 الخير الدا (منار إشبيلية) : ٤٣٩ ، ٥١٤ ، ٥١٧

د - ز

الدار البيضاء : ٣١٢
 دانية : ٢٠ ، ٣٦ ، ٥٦ ، ٧٥ ، ٩٢ ، ٣٨٢
 ٤٣٩ ، ٣٨٦

جامع غرناطة : ٢٤ ، ٢٦ ، ٣٦ ، ٣٥٠ ، ٤١٧
 ٤٨٤
 جامع قرطبة : ٣٤ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٥١٠ ، ٥١١
 ٥١٦
 جامعة غرناطة : ٢٦
 جبال البرنيه : ٧٧ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ١٤٣ ، ١٤٤
 ٤٣١
 جبال بونتو : ٣٧٥
 جبال رنلة : ٣٧٥
 جبال قسنطينة : ٢١٣
 جبل شلير : انظر سيرا نقادا .
 جبل طارق : ٥٥ ، ٨٢ ، ١١٥ ، ١٢٢ ، ١٢٤
 ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٧ ، ١٣٩
 ١٤٥ ، ١٥١ ، ١٥٣ ، ١٦١ ، ١٦٥ ، ١٧١
 ١٧٣ ، ١٧٦ ، ٢١٦ ، ٢٢٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٤
 ٤٤٤ ، ٤٤٧ ، ٤٩١ ، ٥١٧
 جريانة : ٢٤٤
 الجزائر : ٣٦٨ ، ٣٨٢ ، ٣٨٤ ، ٣٨٦ ، ٤٠٥
 ٤٠٨
 الجزائر الشرقية : ٣٥ ، ٦٢ ، ٩١ ، ١٧٨
 ٣٨٦ ، ٣٨٨ ، ٣٩٠ ، ٤١٤
 الجزيرة ، الجزيرة الخضراء : ٢٢ ، ٣٣ ، ٤١
 ٤٤٣ ، ٥٥٥ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٦
 ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٧
 ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٤٩ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٣ ، ٣١١ ، ٤٤٤
 جزيرة شقر : ٤٥٤
 جزيرة صقلية : ٦١ ، ١٥٢ ، ١٧٦ ، ١٧٨
 ٢١٩ ، ٣٩٦
 جزيرة منورقة : ٣٨٦ ، ٩٢
 جزيرة ميورقة : ٢٠ ، ٩١ ، ٩٢
 جليانة : ٤٥٩
 جليرا : ٣٦٩
 جليقية : ٨٦ ، ٨٧ ، ٣٢٣ ، ٣٧٥
 جنة المريف ، قصر : ٢٣ ، ٢٤ ، ١٤٠ ، ٢٩٨
 ٢٩٩
 جنة عصام : ٢٤٢
 جنجال : ٤١ ، ٤٤ ، ١٦٤ ، ٣٧٥
 جنوه : ٣٨٣ ، ٤٤٨
 جواخريس : ٣٦٧
 جيان ، وولاية : ٢٠ ، ٣١ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٣
 ٥٠ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٦٥ ، ٧٠ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ١١٠

٥١٧٤٤٤٧٤١٢٠
 الشام ؛ ٤٤٤٧٤٤٠٨٤٤٠١٤١٢٩٤٧٧
 ٤٦٠٤٤٥٩
 شانت ياغب ؛ ٢٦٢٤٨٤٤
 شذونة ؛ ٤٥٤٢٢
 الشرق الإسلامى ؛ ٥١٠٤٣٥٥
 الشرقية ، موقعة ؛ ٢٠٣
 شرق الأندلس ؛ ٤٥٧٤٤٦٤٣٨٤٣٦٤٣٥
 ٤٨٢٤٤٥٠٤٢٢٦٤٧٢
 شريش ، وموقعة ؛ ٤٥٤٣٩٤٢١٤٢٠
 ٤١٠٩٤١٠٧٤١٠٦٤١٠١٤٩٩٤٤٩٤٤٧
 ٥١٤٤٤٥٤٤٤٤٦
 شقوبية ؛ ٣٣٢٤٣٣١٤١٨٢
 شقورة ؛ ١٩
 شلطيش ؛ ٤٦
 شلمنقة ؛ ٧٩٤١٩
 شلوقة ؛ ٤٥
 شلب ؛ ٥١٧٤٤٣٤٢٨٤٢٠
 شلوبانية ، وقلعة ؛ ٤١٥٣٤١٥٠٤١٠٢٤٥٥
 ٣٦٦٤٢٣٤٤١٥٦
 شنرة ؛ ٥١٧٤٢٠
 شترين ؛ ٥١٧٤٢٠
 شنتى ؛ ٢٦١٤٢٦٠٤٢٥٨٤٢٤٤٤٢٣٦
 ٢٦٧٤٢٦٥
 شتمرية الغرب ؛ ٤٥٤٢٠
 صفاقس ؛ ٣١١
 صقلية ؛ انظر جزيرة صقلية
 طيرة ؛ ٤٣
 طرابلس ؛ ٣٩٠ ، ٣٢٥
 طرش ؛ ٥٥
 طرطوشة ؛ ٦٣٤٢٠
 طريف ؛ ١١٥٤١١٠٤١٠٩٤٩٩٤٥٥
 ٤٤٤٤٣١١٤١٢٩٤١٢٧
 طريف ، موقعة ؛ ٤٦٨٤١٧٢٤١٢٨٤١٢٧
 ٤٧٢
 طليطلة ؛ ٨١٤٧٥٤٧٤٤٧٠٤٦٣٤٢٠٤١٨
 ٤٣٢٤٤١٢٤٤٠٤٤٣٣٢٤١٦٠٤١٠٥٤٩١
 ٥١٧٤٥١٢٤٥١١٤٤٤٧
 طنجة ؛ ٣١١٤٢٣٩٤١١٤٤١١٠٤٩٩
 حقة ؛ ٢٣٦
 حدوة المغرب ؛ انظر المغرب .

درعة ؛ ٩٦
 دلالة ؛ ٣٦٦٤٢٦٤٤٢٥١٤٢٢٦٤٥٥
 دمشق ؛ ٤٦٠٤٤٥٨
 دير الآباء الدومنيكان ؛ ٣٣١
 دير سان فرنسيسكو ؛ ٣٥٠
 دير ساكرومونتى ؛ ٥٠١
 دير سان كلنتي ؛ ٧١٤٦٨
 دير القديس فرنسيس ؛ ٢٢١٤
 الدير الملكى ببرغش ؛ ٥١٤
 رأس طرف الغار ؛ ١٢٧
 الرباط ؛ ٣١٢
 الرصافة ؛ ٤٤٦
 رندة ؛ ٤١٣٤٤١١٦٤١١٢٤١٠٥٤٩٩٤٥٥
 ٤١٩٤٤١٦٠٤١٥٨٤١٥١٤١٤٨٤١٤١
 ٤٣٦٦٤٣٢٤٤٣١١٤٢١٥٤٢١١٤٢٠٦
 ٥١٧٤٤٥٦٤٣٧٥٤٣٧٤٤٣٦٩
 ريه ؛ ٢٢
 روسيون ؛ ١٧٩
 روطه ؛ ٤٩٦٤٤٥
 رومة ؛ ٥٠١٤٤٤٨٤٢٧٣٤٢٧١٤٢٢١٤٩١٤
 الزاهرة ؛ ٤٤٦
 الزلاقة ، موقعة ؛ ٨٦٤٧٧٤٧٥٤٢٠٤١٨
 ١٣٦٤١٠٠
 الزمراء ؛ ٥١٠٤٥٠٩٤٤٤٦

س — غ

سبتة ؛ ٢٣٩٤١٤٥٤١٢٨٤١١٤٤١١٣٤٤٧
 السبيكة ؛ ٢٩٢٤٥٣٤٢٤٤٢٣
 سبلياسة ؛ ٩٦
 سردانية ؛ ٣٨٣
 سرقطة ؛ ٧٥٤٦٨٤٥٨٤٣١٤٢٨٤٢٠
 ٥١٢٤٣٩٧٤٣٥٢٤٣١٢٤١٧٧
 سلا ؛ ٤٤٠٨٤٣٩٠٤٣٨٣٤٣١٢٤٣١١٤٩٦
 ٤٧٥٤٤٧٤
 سمورة ؛ ١٨٢٤١٩
 سوسة ؛ ٣١١
 سيرا قمرلبا ؛ ٣٢٤
 سيرا نقادا ؛ ٢٩٨٤٢٩٢٤٢٣٣٤٥٥٤٢٣
 ٣٦٦٤٣٦٤
 سيرون ؛ ٣٧٠
 شاطبة ؛ ٩٢٤٧٥٤٥٦٤٥٠٤٣٦٤٢٠

ليون : ١٨٢٠٨٧٠٨٦٠٨٤٠٧٧٠٣٣٠٣٢
٣٧٥
ماردة : ٥١٧٠٥٦٠٣٢٠٢٠
ماردين : ٤٦٥
مالطة : ٣٨٣
مالقة ، وولاية : ٥١٠٤٠٠٣٩٠٣٠٠٢٨
٠١٠٩٠١٠٦٠١٠٣٠١٠٢٠٩٩٠٦٣٠٥٥
٠١٦٧٠١٦٠٠١٤١٠١٣٤٠١٢٥٠١١٣
٠٢٠٩٠٢٠٦٠٢٠٣٠٢٠٢٠١٩٤٠١٩٢
٠٢٥٤٠٢٢٤٠٢٢٠٠٢١٨٠٢١٦٠٢١٣
٠٤٣٩٠٣٧٥٠٣٦٩٠٣٦٦٠٣١٥٠٣١١
٥١٧٠٤٩١٠٤٨٦٠٤٤٧٠٤٤٦٠٤٤٤٠٤٤٠
المارستان الأعظم : ١٤٧
متحف الحمراء : ٥١١
متحف جنة العريف : ٤٥٠
متحف غرناطة : ٥١١٠٢٦
متحف قرطبة : ٥١٠
متحف مدريد الوطني : ٥١١٠٢٩٠
متزين الملكة : ٢٩٨
مدرسة غرناطة النصرية : ٤٨٤٠١٢٦
مدريد : ٥٠٤٠٥٠٠٠٤٨٠٠٣٦١
مدينه دلكامبو : ٣٥٥
مراكش : ٣٩١٠٣١٢٠٢١٨٠٩٦٠٣٢٠٣٠٠
٥٠٣٠٤٧٠٠٤٣٨٠٤٠٥٠٤٠١٠٣٩٧
مريلة : ٣٧٥٠٣٦٦٠١٣٤٠١٠٣٠٥٥
مرتش ، وموقعة : ١٢١٠١١٨٠٤٢٠٤
مرتفع غارة : ٢٦١
مرتيل ، قرية : ٣١١
المرج = مرج غرناطة : ١٤٢٠٦٨٠٤١٠٢٤
٠٢٤٠٠٢٣٨٠٢٣٦٠٢٣٥٠١٦٠٠١٥٠
٠٤٤٨٠٤٤٦٠٣٧٥٠٣٦٩٠٣١٠٠٢٥١
٤٩٢٠٤٩٠٠٤٥١
مرسية ، وولاية : ٤١٠٣٧٠٣٤٠٣١٠٣٠
٩٠٠٨٨٠٧٥٠٧٠٠٦٣٠٥٧٠٥٥٠٥٠٠٤٢
٠١٦٤٠١٥٥٠١٥٠٠٠١٢٦٠١١٨٠١١٢
٠٤١٢٠٤٠١٠٣٩٤٠٣٨٢٠٣٦٨٠١٩٩
٤٥٨٠٤٥٥٠٤٥٤٠٤٤٦٠٤٤٠٠٤٢١
المرسى الكبير : ٣٨٢
مرشاة : ٣٦٦٠٣١١٠٢٥١٠١٤٩
مسجد الحمراء : ٥١٦٠٢٩٠
مسلاقة : ٣٨٠

قصر شنيل ، قصر السيد : ٢٥
قصر عبد الكريم (القصر الكبير) : ٣٩١
قصر قرطبة : ٥٠٩
قصر قمارش : ٢٩٤٠١٩٩
قصر مصمودة : ٩٩
قطلونية : ٤١٤٠٤٠١٠١٧٦٠٨٦
قلعة ابن سلامة : ١٦٣
قلعة الحمراء : ١٥٦
قلعة أيوب : ٦٣
قلعة بني سعيد : ١٢٨
قلعة بني موريل : ١٦٣
قلعة جابر : ٤٣
قلعة رباح : ٣٧٥٠٧٩٠٤٢
قمارش : ١٠٨٠٥٥
القمامة : ٢٢١٠٢٢٠
قنطرة شنيل : ٢٦٠٢٣
قيباطة : ١١٠
كازورلا : ١٦١
كالوسا : ٣٨٨
كتدرائية إشبيلية : ٥١٣٠٤٣٨٠٦٥
كتدرائية بنبلونة : ٥١١
كتدرائية سرقسطة : ٥٧
كتدرائية سمورة : ٥١١
كتدرائية غرناطة : ٣٥٠٠٢٦٢٠٨٣
الكعبة : ٣٤٦
كنيسة سانتاماريا : ٢٩٠
كنيسة سان سالبادور : ٣١٦
كنيسة سان سبستيان : ٢٦٠
كنيسة طليطلة العظمى : ٢٦٦

ل — ي

لاردة : ٤٤٦
لامنشا : ٤١٤٠٤١٠
لبلة : ١٠٦٠٥٦٠٤٦٠٢٠
لقنت : ٣٩٨٠٥٦٠٤١٠٣٦٠٢٠
لك : ١٩
اللسانة (اليسانة) : ٤٣٨٠٢٠٨٠٢٠٣
لورقة : ٣٨٩٠١٥٠٠١٢٦
لوشار : ٣٦٦٠٢٧٧٠٢٦٤٠٢٥١
لوشة : ٢٠٣٠٢٠١٠١٦٠٠٥٥٠٢٣
٠٢٢٩٠٢١٥٠٢١٣٠٢١٠٠٢٠٩٠٢٠٥
٤٧٢٠٤٥٤٠٣١١

نابل ، وملكة ؛ ٢٢٠، ١٧٩، ١٧٧، ١٧٦ ؛ ٢٩٦، ٢٢٢
 نثار (نبرة) ؛ ١٧٩، ٨٧، ٨٦، ٧٧، ٦٠ ؛ ٢٩٦
 نافورة السباع ؛ ٢٩٦
 نهر ألتيا ؛ ٣٨٦
 نهر أندرش ؛ ٥٥
 نهر أوديل ؛ ٤٦
 نهر إبيرو ؛ ٨٥
 نهر التاجه ؛ ٢٠
 نهر دويرة ؛ ٨٤، ١٩
 نهر حدره ؛ ٢٩٢، ٢٨٩، ٢٠١، ٢٣
 نهر سالادو ؛ ١٧٢، ١٢٧
 نهر شيل ؛ ٢٣، ٢٥، ٢٠٣، ٢٠٢، ٥٥
 ٢٣٦، ٢٥٦، ٢٥٨، ٢٦٠، ٢٦٥، ٢٦٦ ؛ ٤٤٦
 نهر اللوار ؛ ٧٧
 نهر المنصورة ؛ ٥٥
 نهر النيل ؛ ٢٧٣
 نهر وادي أنة ؛ ٤٦
 نهر الوادي الكبير ؛ ٤٩٠، ٥٥٥، ٤٤٤، ٣٧ ؛ ٤٤٠، ٤٣٢، ١٠٦
 همدان ؛ ٢٣٤
 وادي أجوار ؛ ٤٠٠
 وادي آش ؛ ١١٦، ١٠٨، ٨٨، ٥٥، ٣٩ ؛ ١٢٢
 ٢٠١، ١٦٠، ١٥٦، ١٤٢، ١٤٠، ١٢٢ ؛ ٢٠٢
 ٢٢٧، ٢٢٤، ٢١٧، ٢١٦، ٢١٤، ٢٠٢ ؛ ٢٢٩
 ٣١٩، ٢٤٩، ٢٣٥، ٢٣٤، ٢٣٠، ٢٢٩ ؛ ٣٦١
 ٣٧٥، ٣٧٤، ٣٧٠، ٣٦٩، ٣٦٧ ؛ ٤٥٨
 ٤٩١، ٤٨٥، ٤٧٣ ؛ ٩٧
 وادي غفو ؛ ٩٧
 وادي لكرين ؛ ٣٧٥، ٣١٩
 وادي لكه ، وموقعة ؛ ٣٣٠، ٢١٢
 وادي ملوية ؛ ٩٥
 وادي المنصورة ؛ ٣٧٥، ٣٦٦
 وجدة ؛ ٩٧
 وشقة ؛ ٢١٢
 وهران ؛ ٣٨٦، ٣٨٤، ٣٢٥، ٣١١، ٢٢٧ ؛ ٤٠١، ٣٩٨
 ولبة ؛ ٤٦٧، ٤٦٤، ٢٠
 يابرة ؛ ٢٠

المشرق ؛ ١٣٠، ٢١١، ٢١٨، ٢١٩، ٢٧٣ ؛ ٢٨٤
 ٤٤٨، ٤٤٥، ٤٢٧، ٤٠٥، ٤٠١ ؛ ٤٥٣
 ٤٩٠، ٤٦٥، ٤٦٣، ٤٥٩، ٤٥٨ ؛ ٤٩١
 ٥٠٨، ٥٠٢ ؛ مصر ؛ ٢١١، ١٦١، ١٢٩، ٧٨، ٧٧، ٦٦ ؛ ٢١٨
 ٣٢٤، ٣٢٢، ٢٧٣، ٢٧٢، ٢٢٢ ؛ ٣٤٧
 ٤٦٤، ٤٦٠، ٤٥٩، ٤٠١، ٣٤٨ ؛ ٥٠٣، ٤٨٦
 المغرب ؛ ٤٦، ٤٤، ٣٨، ٣٧، ٣٢-٣٠، ١٨ ؛ ٦٠
 ١٠٣-٩٩، ٩٧-٩٥، ٩٢، ٨١، ٧٥، ٦٦، ٦٠ ؛ ١١٧
 ١١٦، ١١٣، ١١٠-١٠٨، ١٠٥ ؛ ١٢٢
 ١٢٦، ١٢٤، ١٣٢-١٤٠، ١٥٣، ١٦٥ ؛ ١٦٧
 ١٧٠، ١٧٢، ١٨٩-١٩١ ؛ ٢١٦
 ٢١٨، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٧، ٢٣٢ ؛ ٢٣٤
 ٢٣٥، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤٦، ٢٤٧ ؛ ٢٥٢
 ٢٥٧، ٢٦٧، ٢٧١، ٢٧٣، ٢٧٦-٢٨٠ ؛ ٢٨٤
 ٢٨٦، ٣٠٩-٣١٣، ٣٢٢، ٣٢٣ ؛ ٣٢٧
 ٣٤٢، ٣٤٧، ٣٥٢، ٣٦١، ٣٦٣ ؛ ٣٨٤
 ٣٨٦، ٣٨٩، ٣٩٢-٣٩٥، ٤٠٠، ٤٠١ ؛ ٤٠٥
 ٤٠٨، ٤١٩، ٤٢٧، ٤٤٣، ٤٥٢ ؛ ٤٥٣
 ٤٥٥، ٤٥٨، ٤٦٠، ٤٧٠، ٤٧٣-٤٨٢
 ٤٨٦، ٤٩١-٤٩٣، ٥٠٧ ؛ ٥٠٨
 ٥١٣، ٥١٥ ؛ المغرب الأقصى ؛ ٤٤٤، ٢٣٩، ٩٧، ٩٥
 المغرب الأوسط ؛ ٩٥
 مقبرة الحمراء ؛ ١٣٦
 مكتبة أكاديمية التاريخ ؛ ٥١٩، ١٧
 مكتبة الإسكندرية ؛ ٣١٩
 مكتبة الإسكوريال ؛ ١٩٦، ١٣٠، ٦٠ ؛ ٥١٦
 ٥٠٧، ٥٠٤، ٤٨٦، ٤٨٠، ٤٤٧ ؛ ٣٤٤
 ١٦٧ ؛ ٥٠٠
 مكتبة مدريد الوطنية ؛ ٩٦، ٢٠
 مكناسة ؛ ٣٦٥
 مكة ؛ ٢٧٨
 مليلة ؛ ٢٩٨
 منظره اللندراخا ؛ ٣٢٦
 موريريا (حى الموريسكيين) ؛ ١٧٤
 ١٧٣، ١٤٣، ٨٢ ؛ ٣٧٥
 موتيل ، موقعة ؛ ١٦٤، ١٦٣
 مونتي فريو ؛ ٢٨
 ميرتلة ؛

فهرست القبائل والطوائف والدول

بنو عبد الواد ؛ ٤٨٥٠٩٥
بنو عبد المؤمن ؛ ٢٨
بنو قسي ؛ ٧٢
بنو مرين ، ودولة ؛ ٩٥٠٧٣٠٤٧٠٣٢ -
٩٩ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١١٦ ، ١١٨ ، ١٢٢ ، ١٢٩ ،
١٣٦ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ،
١٩١ ، ٢١٨ ، ٢٧٨ ، ٤٤٣ ، ٤٧٨ ، ٤٨٥
بنو نصر ؛ ٥١٠٤٢٠٤٠٠٣٨٠٢٥٠١٧
٥٤٠٥٢ ، ٩٤ ، ١٠٧ ، ١١٥ ، ١٢٥ ، ١٣٦ ،
١٣٩ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٩١ ، ١٩٩ ، ٢٠٦ ، ٢٦٤ ،
٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٤٤١ - ٤٤٣ ، ٤٥٠ ،
٤٦٩ ، ٤٨٥ ، ٤٨٦
بنو وطاس ، ودولة ؛ ١٦٥ ، ٢٣٩ ، ٢٧٨ ،
٢٨٦
التتار ؛ ٢٨٣
الترك العثمانيون ؛ ١٦٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٤٦ ،
٣٦١ ، ٣٦٨ ، ٣٨٢ ، ٣٨٤ ، ٣٨٦ ، ٤٢١
الخلافة الأموية ، والدولة ؛ ١٦٠ ، ٢٢٠ ، ٢٢٦ ، ٢٧٠ ، ٢٥٦ ،
٧٩ ، ٤٣٥ ، ٤٤٦
الخلافة العباسية ، والدولة ؛ ٣١ ، ١٥٠ ،
خلافة قرطبة ؛ ٣٨٣
الخلافة الموحدية ؛ ٣٠٠ - ٣٢٠ ، ٤٧٠ ، ٤٨٨ ،
٩٥ - ٩٧ ، ٩٧ ، ٤٣٦ ، ٤٥٧
الدولة النصرية ؛ انظر بنو نصر
الرومان ؛ ٢٢
زفانة ، قبيلة ؛ ١٠٧ ، ٩٥ ، ٧٣
الصقالبة ؛ ٤٩٥
الصليبيون ؛ ٣٨٣ ، ٧٨
صنهاجة ، قبيلة ؛ ٢٧
الصحابه ؛ ٤٦٥ ، ٣٨
الطوائف ، ملوك ، ودولة ؛ ١٦ - ١٨ ، ٢٨ ،
٣٧ ، ٤٤٦ ، ٤٥٤ ، ٧٤ ، ٧٧ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ١٠١ ،
١٠٦ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٥٦ ، ٤٦٠ ، ٤٦٢ ،
٥١٢ ، ٥١٥
العرب ؛ ٢٢ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٩٥ ، ٩٦ ،
٤١٠ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٢٩ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٤٥ ،
٥٠٦

الأسبانية ؛ ٧٩ ، ٧٨
الأغالبة ؛ ٣٨٣
الألييون ؛ ٣٣٠ ، ٣٢٩ ، ٩١
الامبراطورية الرومانية المقدسة ؛ ١٧٠
الامة الأندلسية ؛ ١٦ ، ١٨ ، ٢١ ، ٣٨ ، ٤١ ،
٧٠ ، ٧٢ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٨٣ ، ١٥٤ ، ١٦٦ ،
١٨٤ ، ١٨٨ ، ٢١٩ ، ٢٤٤ ، ٢٥٤ ، ٢٦٠ ،
٣٠٣ ، ٣٠٩ ، ٣١٩ ، ٣٢٢ ، ٣٣٠ ، ٣٤٠ ،
٣٤١ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٦٠ ، ٣٦٢ ، ٣٨٤ ،
٣٩٣ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٦ ، ٤٣٠ ، ٤٣٤ ،
٤٤٩ ، ٤٩٣
آل البيت ؛ ٤٦٥
آل هونشتافن ؛ ١٧٠ ، ١٧٦
البابوية ؛ ٦٢ ، ٦٥ ، ٢٨٨ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٢ ،
البربر ؛ ٢٣ ، ٢٧ ، ٥٦ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٧ ،
٤٤٣
البروتستانتية ؛ ٣١٩ ، ٣٣٠
بنو أبي العلاء ؛ ١٠٧ ، ١١٨ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ،
٤٤٣
بنو اسرائيل ؛ انظر اليهود .
بنو أشقيلولة ؛ ٤٠ ، ٤١ ، ٥١ ، ٩٨ ، ٩٩ - ١٠٣
بنو أضحى ؛ ١٦٦
بنو الأحمر ؛ انظر بنو نصر .
بنو الأفطس ؛ ٤٣٩
بنو الثغرى ؛ ١٦٦ ، ٢١٧ ، ٢٣٩ ، ٣٠٣ ، ٣١٥
بنو أمية ؛ ٢٧ ، ٢٨ ، ٥٠٩
بنو حفص ؛ ٤٨٥
بنو حمود ؛ ٢٧ ، ٢٨
بنو خلدون ؛ ١٤٢
بنو ذو النون ؛ ٥١٢
بنو زهر ؛ ٤٣٧ ، ٤٥٩
بنو سراج ؛ ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٦٣ ، ١٦٦ ،
١٦٧ ، ٢٠٠ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ،
٣١١ ، ٣٦٣
بنو عامر ؛ ٢٧
بنو عامر الموريسكيون ؛ ٣٨٠ ، ٣٨٣
بنو عباد ؛ ٢٨ ، ١٢ ، ٥١٥ ، ٥١٥

فهرست الأعلام

— ١ —

ابن الدباغ ، أبو اسحق ؛ ١٩
 ابن الرومية ، أبو العباس ؛ ٤٦٠ ، ٤٥٩
 ابن الزبير ، أبو جعفر ؛ ٤٦٦
 ابن الشط الأنصاري ؛ ٤٦٧
 ابن الصابوني ؛ ٤٣٩
 ابن المزني ؛ ١١٣
 ابن العوام ، أبو زكريا ؛ ٤٤٦
 ابن الفخار ؛ ٤٥٤
 ابن الفرضي ؛ ٤٣٩
 ابن المحروق ؛ ١٢١ ، ١٢٢ ، ٤٤١
 ابن المهنا ؛ ٤٨٧
 ابن إلياس ؛ ٣٢٢ ، ٢٢٠ ، ٢١٩ ، ٢١٨
 ابن باجة ؛ ٤٣٦
 ابن بدرون ؛ ٤٣٩
 ابن بسم ؛ ١٧ ، ٤٣٦
 ابن بشكوال ؛ ٤٦٦ ، ٤٥٦ ، ٤٣٨
 ابن بصال ؛ ٤٤٦
 ابن بطوطة ؛ ٤٧٠ ، ٤٦٥ ، ١٣٤ ، ١٣٢
 ابن تومرت ، المهدي ؛ ٤٣٧ ، ٣١
 ابن جابر الضرير ؛ ٤٦٥
 ابن جبير ؛ ٤٦٨
 ابن جزى ، أبو عبد الله ؛ ٤٧٠
 ابن جزى ، أبو القاسم ؛ ٤٦٧
 ابن حبيب الإشبيلي ؛ ٤٣٨
 ابن حريق ؛ ٤٥٣
 ابن حزم ؛ ٤٣٥
 ابن حفصون ؛ ٧١
 ابن حمدون الحميري ؛ ٤٥٣
 ابن حيان ؛ ٤٣٥ ، ١٧
 ابن خاتمة ، أبو جعفر ؛ ٤٧٠ ، ٤٦٤ ، ١٣٠
 ٤٨١ ، ٤٧١
 ابن خالد ؛ ٣٩
 ابن خروف الإشبيلي ؛ ٤٥٧
 ابن خلدون ؛ ١٤١ ، ١٣٩ ، ١١٨ ، ١٠٥
 ٤٩٠ ، ٤٧٩ ، ٤٧٦ ، ٤٧٤ ، ١٩٠ ، ١٧٣ ، ١٤٢
 ابن خنيس التلمساني ؛ ٤٦٣

ابراهيم بن زور ؛ ١٤٢
 ابراهيم بن سهل الإشبيلي ؛ ٥٥٤ ، ٤٤٤
 ابراهيم بن يحيى الأنصاري ؛ ٤٦٧
 ابراهيم القيسي ؛ ٢٣١
 ابراهيم دي بلفاد ؛ ٤٩٦
 ابن أبي أصيبعة ؛ ٤٦٠
 ابن أبي الخصال ؛ ٤٣٦
 ابن الأبار القضاعي ؛ ٤٣٩ ، ٩٢ ، ٣٧ ، ٣٦
 ٤٥٨ ، ٤٥٦ ، ٤٥٥ ، ٤٥٣
 ابن الأحمر ، محمد بن يوسف ؛ ٤٤٤-٣٩ ، ٣٨
 ٤٦-٥٣ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٩٤ ، ٩٥
 ١٦٠ ، ١٧٠ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٤٤١ ، ٤٣١
 ٤٥٢ ، ٤٥٧ ، ٤٦٠
 ابن الأزرق ، الأصمعي ؛ ٤٩١ ، ٤٩٠
 ابن اسماعيل ، السلطان ؛ ١٧٦ ، ١٦٧-١٦٤
 ٤٥١
 ابن أشقيلولة ، أبو اسحاق ؛ ١٠٨ ، ٤٠
 ابن أشقيلولة ، أبو الحسن ؛ ١٠٨ ، ٩٩ ، ٤٠
 ابن أشقيلولة ، أبو محمد ؛ ١٠٤ ، ٥١
 ابن البرزى ، علي بن يحيى ؛ ٤٦٦
 ابن البيطار الماقي ؛ ٤٦٠ ، ٤٥٩ ، ٤٥٣
 بن الجند الفهري ؛ ٤٣٦
 ابن أحياب ، أبو الحسن علي ؛ ٤٤٢ ، ١٢٦
 ٤٨١ ، ٤٧٢ ، ٤٦٥ ، ٤٦١
 ابن أحيان المرسى ؛ ٤٥٥
 ابن الحكيم الرندي ؛ ١١٤ ، ١١٣ ، ١١٢
 ٤٦٤-٤٦١ ، ٤٤٢ ، ٤٤١
 ابن الحكيم ، أبو بكر ؛ ٤٦٣
 ابن الخطيب ، عبد الله ؛ ٤٧٢ ، ٤٦٦ ، ١٢٦
 ابن الخطيب ، لسان الدين ؛ ٤٩٠ ، ٢٤٤ ، ٢٣٤
 ١٥٠ ، ١٣٩ ، ١٣٤ ، ١٣٢ ، ١٢٦ ، ٧٣ ، ٥١
 ٤٣٥ ، ١٩٠ ، ١٨٩ ، ١٧٤ ، ١٧٣ ، ١٦٦
 ٤٤٠-٤٤٢ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٦١-٤٦٥ ، ٤٦٣
 ٥١٦ ، ٤٨٩ ، ٤٨٧

ابن هود ، محمد بن علي ؛ ٤١
 ابن هود ، المقتدر ؛ ٥١٢
 ابن يونس ؛ ٤٨
 أبو ابراهيم ، اسحاق بن يوسف ، السيد ؛ ٢٥٤
 أبو الحسن بن مسعود ؛ ١٢١
 أبو الحسن البسطي ؛ ٤٩١
 أبو الحسن السعيد الموحدي ؛ ٩٦٠٣٢٤
 أبو الحسن الفزاري ؛ ٤٦٦
 أبو الحسن المريني ، السلطان ؛ ١٢٤٠١٢٢
 ١٧٢٠١٣٧٠١٣٦٠١٣٢٠١٢٧٠١٢٥
 أبو الحسن المنظري ؛ ٣١١
 أبو الحسن النباهي ؛ ٤٨٦٠٤٧٧
 أبو الحسن النصري ، السلطان ؛ ١٨٤٠١٦٧
 ٢٠٨٠٢٠٤-٢٠٠٠٠٠١٩٨-١٩٤٠١٩٢٠١٩١
 ٣١٥٠٣٠٢٠٢٧٤٠٢٥٢٠٢٥١٠٢٣٨٠٢١٨
 أبو الخطار الكلبي ؛ ٢٢
 أبو الربيع المريني ؛ ١١٦٠١١٤
 أبو الطيب الرندي (صالح بن شريف) ؛ ٤٩٤
 ٤٦١٠٤٥٧٠٤٥٦٠١٠٢٠٥٢٠٥٠
 أبو العباس ، السيد ؛ ٣١
 أبو العباس المريني ؛ ١٥٠
 أبو العلاء إدريس الموحدي ؛ ٣٠٤
 أبو القاسم بن سلمون ؛ ٤٨٧
 أبو القاسم بن سوده ؛ ٢٤٢
 أبو القاسم الحسيني ؛ ٤٧٠
 أبو القاسم بنيفش ؛ ٣١٥٠١٩٥٠١٩٣٤
 أبو القاسم العزفي ؛ ٤٨
 أبو القاسم القرطبي (خلف بن عباس) ؛ ٤٣٦
 أبو القاسم المليح (عبد الملك) ؛ ٢٤١-٢٣٩٠٢٣١٤
 ٢٧٧٠٢٧٦٠٢٧٤٠٢٥٤٠٢٠٤٤
 أبو بكر الرازي ؛ ٤٢٧
 أبو بكر السعيد ؛ ١٤٠
 أبو بكر الطرطوشي ؛ ٤٣٦
 أبو بكر بن عاصم ؛ ٤٨٩٠٤٨٨
 أبو بكر بن عبد الحق (أبو يحيى) ؛ ٩٦
 أبو بكر بن غازي ؛ ٤٧٨
 أبو ثابت المريني ؛ ١١٤٠١١٣
 أبو ثابت عامر ، شيخ الفزاة ؛ ١٢٤
 أبو جعفر بن عبد الملك العذري ؛ ٤٨١
 أبو حو ؛ انظر عبد الرحمن بن موسى .
 أبو حيان القرطاطي ؛ ٤٦٤

ابن دينار ؛ ٤٠٨
 ابن رشد ، الجدي ؛ ٦٨٠٦١
 ابن رشد ، الحفيد ؛ ٤٣٨٠٤٣٧
 ابن زورك ، أبو عبد الله ؛ ١٥٠٠٠١٤٥
 ٤٨٥-٤٨٢٠٤٧٨٠٤٧٧٠٤٦١٠٤٤٢٠٢٩٦
 ابن زهر ، أبو بكر ؛ ٤٥٩٠٤٣٥
 ابن زهر ، أبو العلاء ؛ ٤٥٩٠٤٣٧
 ابن زهر ، عبد الملك ؛ ٤٥٩٠٤٣٧
 ابن زيدون ؛ ٤٣٥
 ابن سراج ، الوزير ؛ ١٦١
 ابن سعيد الأندلسي ؛ ٤٥٨٠٤٥٣
 ابن سلطور ؛ ٤٨١٠٤٦٩
 ابن شبيب ، الرئيس ؛ ٤٤
 ابن صناديد ، عبد الملك بن يوسف ؛ ٥٢
 ابن طفيل ، أبو بكر ؛ ٤٣٧
 ابن عبد البر ، الوزير ؛ ١٦٣٠١٦١٤
 ابن عبد البر ؛ ٤٦٨
 ابن عبد الرفيع الأندلسي ؛ ٥٠١٠٤٠٧٠٤٠٣
 ابن عبد الملك المراكشي ؛ ٤٥٦
 ابن عبدون ؛ ٤٣٩٠٤٣٥
 ابن عمو ؛ انظر مولاى عبد الله .
 ابن عربي ، محيى الدين ؛ ٤٥٨٠٤٥٣
 ابن غازي ، الوزير ؛ ٤٧٨
 ابن غانم الأندلسي ؛ ٥٠١
 ابن فرج الموريسكي ؛ ٣٦٦٠٣٦٤٠٣٦٢
 ابن فرحون القرشي ؛ ٤٦٧
 ابن فرحون ، برهان الدين ؛ ٤٨٦
 ابن كاشة ، أبو الحسن ؛ ٤٦٣٠١٣٠
 ابن كاشة ، يوسف ؛ ٢٤٤٠٢٣١٠٢٠٤
 ٢٦٦٠٢٦١٠٢٦٠٠٢٥٨٠٢٥٧٠٢٥٤
 ٣١٥٠٢٧٧٠٢٧٦٠٢٧٤
 ابن قزمان ؛ ٤٩٥٠٤٣٦
 ابن ليون التجيبي ؛ ٤٦٨
 ابن مريج الكحل ؛ ٤٥٤
 ابن محفوظ ؛ ٤٦٠٤٣
 ابن مردنيش ، محمد بن سعد ؛ ٨١٠٧٢٠٤٠
 ٤٥٥٠٤٥٠٠٠١٩٩
 ابن ميمون ؛ ٤٣٧٠٧٣
 ابن هشام ، الوزير ؛ ٩٩
 ابن هود ، المتوكل ؛ ٣٨٠٣٥٠٣١٠٢٨
 ٤٥٥٠٤٥٢٠٩٠٠٨٨٠٤٠

أبو ديوس ، الواصل بالله ؛ ٩٧٠٣٢
 أبو زكريا الحفصي ؛ ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٥٠٩٢
 أبو زيان المريني ؛ ١٠٦٠٩٩
 أبو زيد عبد الرحمن ، السيد ؛ ٣٥
 أبو سالم المريني ؛ ١١٣ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٨٩
 ٤٨٢ ، ٤٧٥ ، ٤٧٣
 أبو سعيد ، الرئيس ؛ ١٤١٠٥١
 أبو سعيد عثمان المريني ؛ ٩٦ ، ١١٧ ، ١٢٢
 ١٦٥ ، ١٥٣
 أبو سعيد فرج بن محمد بن يوسف ؛ ٥١
 أبو عبد الله الرميبي ؛ ٣٤ ، ٣٥ ، ٤٠
 أبو عبد الله الزليخى ؛ ٢٢٤
 أبو عبد الله الشريشى ؛ ٤٨٥
 أبو عبد الله الشيخ ؛ ٣٩٠
 أبو عبد الله العقيلي ؛ ٢٨٠ ، ٤٦١ ، ٤٩٢
 ٤٩٣
 أبو عبد الله الوادى آشى ؛ ٤٩١ ، ٤٩٢
 أبو عبد الله الوطاسى ؛ ٢٧٨
 أبو عبد الله الينشى ؛ ٣١٠
 أبو عبد الله محمد ، السلطان ؛ ١٩٦ - ١٩٨
 ٢٠٠ - ٢١٠ ، ٢١٣ - ٢١٥ ، ٢١٨ - ٢٢٠ ، ٢٢٣ - ٢٢٤
 ٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ - ٢٣٥ ، ٢٣٨ - ٢٤٦ ، ٢٤٨ - ٢٥٠
 ٢٦٧ ، ٢٧٣ ، ٢٨٨ ، ٢٩٨ ، ٤٥٠
 ٤٩٣ ، ٤٩٢
 أبو عبد الله محمد ، سلطان تونس ؛ ٣٨٨
 أبو عبد الله الوطاسى ؛ ٢٧٨ ، ٢٨٢ ، ٣١١
 أبو علي الرنداحى ؛ ٤٧٠
 أبو عمر بن المرابط ؛ ١٠١
 أبو عثمان المريني ؛ ١٣٢ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١
 ٤٧٢ ، ٤٧٠
 أبو فارس الحفصي ؛ ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٨
 أبو الحارس الواصل بالله ؛ ٣٩١
 أبو مالك المريني ؛ ١٢٤ ، ١٢٧
 أبو محمد بن عطيه المحاربى ؛ ٤٨٥
 أبو محمد عبد الواحد الموحدى ؛ ٢٨ ، ٣٠
 أبو مروان الباجى ؛ ٣٩
 أبو معرف ، محمد بن عبد الحق ؛ ٤٧ ، ٩٦
 أبو يحيى الحفصي ؛ ١٢٥
 أبو يحيى بن عاصم ؛ ٤٨٩

أبو يحيى بن يحيى ؛ ٩١
 أبو يعقوب بن المنصور ؛ ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١٠٦
 ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١٣٧
 أبو يعقوب يوسف الموحدى ؛ ٤٣٧ ، ٤٣٨
 ٥١٣
 أبو يوسف المنصور المريني ؛ ٤٧ ، ٥١ ، ٨١
 ٩٦ - ١٠٣ ، ١٠٥ - ١٠٧ ، ١٣٧ ، ١٧١
 أجيلار الكونت دى ؛ ٤٠١
 أحمد المنصور ؛ ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٥٠٣ ، ٥٠٢
 أحمد بن أبي سالم ؛ ١٤٦ ، ٤٧٨
 أحمد أبو علي الموريسكى ؛ ٣٨٨
 أحمد العثماني ، السلطان ؛ ٤٠١ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦
 أحمد بن أبو جمعة المفرأوى ؛ ٣٤٣
 أحمد بن قسى ؛ ٧٢
 أحمد بن مهدي الغزال ؛ ٥٠٧
 أحمد بن يحيى الوئشريشى ؛ ٦١
 أحمد الوطاسى ؛ ٢٨٧
 الأحنف السلطان ؛ ١٦٢ - ١٦٤ ، ١٩٧
 أدريس ، المأمون الموحدى ؛ ٣٠ - ٣٢ ، ٨١
 ٤٣٨
 إدريس بن أبي العلا ؛ ١٤٠ ، ١٤٢
 إدوارد ، ولي عهد إنجلترا ؛ ١٤٣ ، ١٧٣
 إدوارد الثالث ؛ ١٧٤
 أردونيو الثاني ؛ ٧٧ ، ٨٠
 أرسطو ؛ ٣٢٩ ، ٤٣٨
 إسبينوسا ، الكردينال ؛ ٣٦١
 الإستراداد ، حروب ؛ ١٩ ، ٢٠ ، ٢٦ ، ٦٥
 ٨٣ ، ٧٩ ، ٧٦
 الإسلام ؛ ٢١٤ ، ٣٤ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٦٠ ، ٦٧
 ٧٠ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٣ ، ٨٦ ، ٩٨ ، ١٣٦
 ١٦٨ ، ١٨١ ، ١٩٨ ، ٢٢٨ ، ٢٣٦ ، ٢٦٣
 ٢٧١ ، ٢٧٨ ، ٢٨٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١٣
 ٣٤٥ ، ٣٧٩ ، ٣٨١ ، ٣٩٦ ، ٤٣٢ ، ٥٠١
 ٥١٣ ، ٥٠٨
 إسماعيل ، أبو الوليد السلطان ؛ ١١٦ - ١٢١
 ١٢٥ ، ١٧١ ، ٢١٢ ، ٢٩٠ ، ٢٩٤
 إسماعيل ، مولاي ؛ ٤١٣ ، ٥٠٧
 إسماعيل ، بن السلطان يوسف ؛ ١٤٠ ، ١٤١
 ٤٦١ ، ٤٧٣
 إسماعيل بن الأحمر الكاتب ؛ ٤٧٠ ، ٤٧٥
 ٤٨٥

٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٦ ، ٢٧١ ، ٢٧٦ ، ٣١٠
٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣٢٤ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٥٠
٤٣٢ ، ٤٤٢٩ ، ٤٤٢٣ ، ٣٥٦
إيسايلا البرتغالية ؛ ١٧٥
إيسايلا دي سوليس ؛ انظر ثريا الرومية .

ب - خ

باديس بن حبوس ؛ ٢٨٤ ، ٢٨
البارود ؛ ٢١٣ ، ٢١٢
بايزيد الثاني ؛ ٢١٩ ، ٢٢٢ ، ٢٤٦ ، ٣٤٧
٤٩٤ ، ٣٤٨
بټروونلا الارجونية ؛ ٨٥
بثنى دي لافونتي ؛ ٤١٧
برسكوت ، وليم ؛ ٣١٨
برمودو الثاني ؛ ٨١
برمودو الثالث ؛ ٨٤
برنجاريا ، ابنة ألفونسو النبيل ؛ ٨٨
برونات ، دون ؛ ٤٩٨
بكاتوسى ؛ ٤٢٣
بلانش دي بوربون ؛ ١٤٣ ، ١٧٣ ، ١٧٩
بلانكيو الموريسكى ، الرئيس ؛ ٣٨٨
بلتران دي لا كويشا ؛ ١٨٠
بليدا ، القس ؛ ٤١٦
بياتريس ، الأميرة ؛ ١٧٤
بيټرو مارتيرى ؛ ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٣٢٤ ، ٣٨٤
بيټارو ؛ ٤٣٢
بيدال ، منديث ؛ ٨٠ ، ٤٣٠ ، ٤٣٩ ، ٤٩٥
بيدرو الأول ملك أراجون ؛ ٨٧
بيدرو الثاني ملك أراجون ؛ ٩١
بيدرو الثاني ملك قشتالة (دون بطر) ؛ ٩١٤
١٧٤ ، ١٤١
بيدرو الثالث (القاسى) ؛ ٨٢ ، ١٣٢ ، ١٤٢
١٧٨ ، ١٧٣ ، ١٤٨ ، ١٤٣
بيدرو الثالث ملك أراجون ؛ ١٧٦
بيدرو الرابع ملك أراجون ؛ ١٣٠ ، ١٤٧
١٧٨ ، ١٧٧
تاشفين بن يعقوب ؛ ١١٤
تالاڤيرا ؛ ٣١٥ ، ٤٢٥
تركيمادا ، توماس دي ؛ ٣٣١ - ٣٣٣
تندليا ، كوئنت ؛ ٢٦٠ - ٢٦٢ ، ٢٦٦ ، ٣١٠
٣٦١ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧

الأشرف جان بلاط ؛ ٢٧٢
الأشرف شعبان ؛ ١٤٧
الأشرف قايتباي ؛ ٢١٦ ، ٢١٩ ، ٢٢١ ، ٤٩٠
الأخميادو ؛ ٦٧ ، ٣٧٩ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٤٩٨
الإنفانت فيليب ؛ ١٠٣ ، ٨١
الأيسر ، السلطان ؛ ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٨
١٦٠ - ١٦٣ ، ١٧٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢١٨ ، ٣٤٧
السعيد بن عبد العزيز المرينى ؛ ١٤٦ ، ٤٧٨
السيد الكميادور ؛ ٨٠ ، ٨١
القارو دي لونا ؛ ١٧٥
ألفونسو المحارب ؛ ٦٨ ، ٧٨ ، ٨٥
ألفونسو الثالث الأرجونى ؛ ٩١ ، ١٧٧
ألفونسو الرابع الأرجونى ؛ ١٣٠ ، ١٧٧
ألفونسو الخامس ؛ ١٧٩
ألفونسو السادس ؛ ١٨ ، ٧٤ ، ٨٠
ألفونسو الثامن ؛ ٧٥ ، ٨٦ ، ٨٧
ألفونسو التاسع ؛ ٣٢ ، ٨٧ ، ٨٨
ألفونسو العاشر ، الحكيم ؛ ٣٦ ، ٤١ ، ٤٨
٤٩ ، ٥١ ، ٥٧ ، ٦٥ ، ٨١ ، ٩٠ ، ٩٥ ، ١٠٣ -
١٠٦ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ٢١١ ، ٤١٤
ألفونسو الحادى عشر ؛ ٨٢ ، ١١٨ ، ١٢٤
١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٣٢ ، ١٤٣ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٤
ألفونسو ريمونديس (السابع) ؛ ٧٩ ، ٨١ ، ٨٧
ألفونسو هنريكيڤز ؛ ٨٦
ألفونسو الخامس ، ملك البرتغال ؛ ١٨٢
الكامل ، الملك ؛ ٤٦٠
ألونسو دي أجبلار ؛ ٣٢٥
ألونسو دي فنيجاس ؛ ٣٦١ ، ٣٧٢
إليورا دي كزمان ؛ ١٤٣ ، ١٧٢ ، ١٧٣
أندريس ؛ ٥٠٥
أنطونيو أجابيدا ؛ ٢٣٨ ، ١٥٦
أنطونيو ميلان ، القس ؛ ٢٢١
إنوسان الرابع ؛ ٦٢
إنوسان الثامن ؛ ٢٢١ ، ٢٢٢
الأوتودافى ؛ ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٧٩
أوروج ، أمير البحر ؛ ٣٨٥
إيدين ريس ؛ ٣٨٥ ، ٣٨٦
إيرفنج ، وشنطون ؛ ٢٣٨ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨
إيسابيل الكاثوليكية ؛ ٢٦ ، ٨٣ ، ١٧٥ ، ١٧٦
١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٩٤ ، ٢٠٥
٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٥ ، ٢٢٩ ، ٢٥٨

خوانا ، الملكة ؛ ٣١٨
 خوانا بلترنيخا ؛ ١٨٢، ١٨٠
 خوانا دى مندوثا ؛ ٣١٥
 خير الدين ، أمير البحر ؛ ٣٨٨، ٣٨٦، ٣٨٥
 الخيزران ، أم الشيخ المأمون ؛ ٣٩١
 خنيث بيرث دى إيتا ؛ ٣٠٣
 خيل ، دون ؛ ٤٨
 د — ز
 دانفيل إى كولبادو ؛ ٤١٨
 دون بطره غرسييس ؛ ٦٦
 دوزى ، رينهارت ؛ ٥٠٦، ٨٠
 دونيا إيزابيل ، الإمبراطورة ؛ ٣٨٨
 دى جسكلان ؛ ١٤٣
 ديرنبور ، المستشرق ؛ ٥٠٦ ، ٦٥
 ديسا المحقق العام ؛ ٣٦٠، ٣٢٣، ٣١٤
 دسبينا ، الكردينال ؛ ٢٥٠
 دى ليرما ، دوق ؛ ٤١٥، ٣٩٦، ٣٩٤
 ٤٢٣، ٤٢٠
 ديوان التحقيق ، ومحاكم ؛ ٣٠٩، ١٨٤، ٨٣
 - ٣٤٥، ٣٤١-٣٢٨، ٣٢٤، ٣٢٣، ٣١٤، ٣١١
 ٣٨٣ ، ٣٨٠، ٣٧٩، ٣٦١، ٣٥٦-٣٥١، ٣٤٧
 ٤٢٤، ٤١٧ ، ٤١٥، ٤١٤، ٤١١-٤٠٩، ٣٩٤
 ٥٠١، ٤٩٨، ٤٩٣، ٤٥٠، ٤٣٢، ٤٢٨، ٤٢٥
 دى لاس كاخيخاس ، المستشرق ؛ ٤٠
 دى مارليس ؛ ٤٣٠
 ديسفوريدس ؛ ٤٥٩
 الرازى ، المؤرخ ؛ ٣٨
 راميرو ، ملك ليون ؛ ٧٧
 راميرو الراهب ملك أراجون ؛ ٨٥
 ربيرا ، المطران ؛ ٤٢٥، ٤٢١، ٣٩٥، ٣٩٤
 ٤٣٠، ٤٢٥
 رديمجو ألونسو ؛ ٤٢
 الرشيد الموحدي ؛ ٩٦، ٣٢، ٣١
 رضوان النصرى ؛ ١٣٩، ١٢٥، ١٢٤، ١٢٢
 ٤٧٢، ٤٤٣، ٤٤٢، ٤٢١، ١٩٢، ١٤٠
 ركيصانص ، دون ؛ ٣٧٤
 ريشليو ، الكردينال ؛ ٤٢٣، ٤٢٠، ٤١٧
 ريمون برنجار ؛ ٨٥، ٧٨
 رينان ؛ ٨٠
 زاوى بن زيرى الصنهاجى ؛ ٢٨، ٢٧

ثرفاقس ؛ ٤٢٧، ٣٨٨، ٣٨١
 ثريا الرومية ؛ ٣٠٥، ٣٠٤، ٢٠٠-١٩٨
 ثوريتا ؛ ٣٥٠
 جاينجوس ، المستشرق ؛ ٢٩٠، ١٦٦، ٥٢
 جرماط بن مرين ؛ ٩٥
 جريرو ، المطران ؛ ٣٧٨
 جسبار دى أجيلار ؛ ٤٢٦
 جنه هنريكينز ؛ ١٧٩
 حوتيرى دى كارديناس ؛ ٢٦٢، ٢٢٥
 جوفرى تنوريو ؛ ١٢٧
 جومث مورينو ؛ ٥١٥، ٥١٣، ٥٠٩، ٣٠٠
 جوفزالفو دى كوردوبا ؛ ٢٤٤
 الحاجب المنصور ؛ ٤٨٩، ٧٧، ٦٩
 حامد الثغرى ؛ ٢٠٦
 الحبق ؛ ٣٧٤-٣٧٢، ٣٧٠، ٣٦١
 حبوس بن ماكسن ؛ ٢٨
 الحرة ، الأميرة ؛ ١٢٩
 الحروب الصليبية ؛ ٢١٨، ٢١١، ٧٧
 الحكيم بن هشام ؛ ٧٢، ٦٧
 الحكم المستنصر ؛ ٥١١، ٥١٠، ٤٣٥
 الحميدى ؛ ٤٣٥
 خالد الوزير ؛ ١٤٩
 خالد بن عيسى البلوى ؛ ٤٦٨
 خاثير ، فلورثيو ؛ ٤٢٣، ٤٢١، ٦٣
 خايمي الأول (الفاتح) ؛ ٦٤، ٦٢، ٣٦-٣٤
 ١٧٨، ١٧٦، ١٧٠، ٩٣-٩١، ٩٠
 خايمي الثانى ؛ ١٢١، ١٢٠، ١١٥، ١١٠
 ١٧٧
 خزائن جامع القرويين ؛ ٤٨٠
 خنيس ، الكردينال ؛ ٣٣٩، ٣١٩-٣١٤
 ٥٠٤، ٤٢٩، ٤٢٨، ٣٥١
 خايمي الثالث صاحب ميورقة ؛ ١٧٨
 خوان ، دون ، أخو فيليب الثانى ؛ ٣٦٩
 ٣٨٢، ٣٧٤، ٣٧٢، ٣٧٠
 خوان الأول ملك قشتالة ؛ ١٧٨، ١٧٤
 خوان الثانى ملك قشتالة ؛ ١٥٨، ١٥٣، ١٥١
 ١٧٥، ١٦٤
 خوان الأول الأرجونى ؛ ١٧٨
 خوان الثانى الأرجونى ؛ ١٨٤، ١٨٠-١٧٨
 خوان بن حامز ؛ ٣٨١، ٣٨٠
 خوان ألفونسو ؛ ٤٩٦

شقارتز ، برتولد ؛ ٢١٢
 شفاف ، قائد الفحص ؛ ٤٤
 الشهاب الحبري (أفوقاي) ؛ ٥٠٤-٥٠٢
 شوقي ، أحمد ؛ ٣٠٤،٢٦٥
 الشيخ المأمون ؛ ٣٩٢-٣٩٠
 الصالح بن الكامل ، الملك ؛ ٤٦٠
 الصالح بن الناصر قلاوون ؛ ١٢٩
 صالح ريس ؛ ٣٨٦،٣٨٥
 صالح بن شريف ؛ انظر أبو الطيب الرندي
 صلاح الدين ، السلطان ؛ ٤٣٧،٧٧
 طارق بن زياد ؛ ٤٣١،٢١
 طرغود ؛ ٣٨٨،٣٨٥
 الطغري ؛ ٤٤٦
 الظاهر چقمق ، السلطان ؛ ٣٤٧،٢١٨،١٦٢
 ع - غ
 العادل الموحد ؛ ٣٠
 عامر بن إدريس ؛ ١٠٧،٤٨،٤٧
 عائشة الحرة ؛ ٢١٣،٢٠٤،٢٠١-١٩٦
 ٢٨٨،٢٧٤،٢٦٧،٢٩٥
 عبد الباسط بن خليل المصري ؛ ١٦٧
 عبد الحق بن خالد بن محيو ؛ ٩٦
 عبد الحق بن عثمان المريني ؛ ١٦٥،١٥٨
 عبد الرحمن بن عبد الحكم ؛ ٥١٥،٦٧
 عبد الرحمن الداخل ؛ ٧٧
 عبد الرحمن الناصر ؛ ٤٣١،١٩٩،٨٠،٧٧
 ٥١٠،٥٠٩،٤٣٥
 عبد الرحمن بن موسى ، أبو حمز ؛ ١٤٤
 عبد العزيز المريني ؛ ٤٧٨،٤٧٧،١٤٦،١٤٥
 عبد الكريم القيسي ؛ ٤٩١
 عبد الله بن أبي العلاء ؛ ١٠٧
 عبد الله بن أشقيلولة ؛ ٤٠
 عبد الله بن بلكين ؛ ٢٨
 عبد الله العيلي ؛ ٢٨٩
 عبد الله المريني ؛ ١٥٣
 عبد الله ، مولاي ، (ابن عيو) ؛ ٣٧٢-٣٦٩
 ٤٩٤،٣٧٦-٣٧٤
 عبد الملك المنصور ؛ ٥١١
 عبد المؤمن بن علي ؛ ٤٣٧،١٢٢،١٠٨
 عتبة بن يحيى المغيل ؛ ٣٩
 عثمان بن أبي العلاء ؛ ١٢٤،١١٢،١١٣،١٠٨

زرياب ؛ ٥١٥
 الزغل ، أبو عبد الله محمد بن سعد ؛ ١٩١
 ٢٠٨،٢٠٦،٢٠٤،٢٠٣،٢٠٢،١٩٤،١٩٢
 ٢١٣،٢٠٩-٢٢٤،٢٢٠-٢٢٤،٢٣١-٢٢٤،٢٣٤،٢٧٦
 ٣٤٧،٣١٥،٢٨٨،٢٨٥
 الزمار ؛ ٣٦٧
 زيان بن مردنيش ، أبو جميل ؛ ٣٣، ٣٥-
 ٤٥٥،٩٢،٩١،٩٠،٣٧
 زيدان ؛ مولاي ؛ ٥٠٢،٣٩٥،٢٩٢،٣٩١
 ٥٠٧،٥٠٤

س - ظ

ساقدر ، المستشرق ؛ ٤٩٥
 سانشو ، ملك ليون ؛ ٨١،٨٠
 سانشو الكبير ، ملك نافار ؛ ٨٤
 سانشو ، ملك قشتالة (الباسل) ؛ ٨٧،٨١
 ١٧١،١٧٠،١١٠،١٠٩،١٠٦،١٠٥
 سان فرناندو ؛ انظر فرناندو الثالث .
 السخاوي ، شمس الدين ؛ ١٦٢
 سعد بن عبادة ؛ ٣٨
 سعد بن محمد بن يوسف (المستعين) ؛ ١٦٤
 ١٩١،١٨٥،١٦٧
 سعد بن أبي الحسن ؛ ٣١٥،٢٠٠
 سكستوس الرابع ، البابا ؛ ٣٣١
 سكوت ؛ ٤٢٩
 سكيابريلي ، المستشرق ؛ ٣١٦
 سلام بن عبد الله الباهلي ؛ ٤٨٩
 سليم ، السلطان ؛ ٣٨٥
 سليمان بن داود ؛ ٤٧٨،١٤٦
 سنان اليهودي ؛ ٣٨٥
 السويريما ؛ ٣٣٧،٣٣٦،٣٣٢
 سيولد ، المستشرق ؛ ١٥٥،٢٢
 سيكودي لوئينا ؛ ١٩٧
 سيمونيت ، المستشرق ؛ ٣١٩،٣١٨،٢٢
 شاتوبريان ؛ ٣٠٢
 شارل الخامس ، ملك فرنسا ؛ ١٤٣
 شارل دانجو ؛ ١٧٦
 شارلكان ، الامبراطور ؛ ٢٩٨،٢٩٣،٢٦
 ٣٨٨،٣٥٨-٣٥١،٣٥٠،٣٤٠،٣٣٩،٢٩٩
 ٤٩٤،٤٣٢،٤٢٩،٤١٩،٤١٨،٤١١
 شارلمان ؛ ٧٧

١٧٨٠١٧٥٠١٥٣
 فرناندو البرتغالي ١٧٤
 فرناندو ملك نابيل ٢٢١٠١٧٩
 فرناندو الخامس (الكاثوليكي) ٤٨٣٠٢٦
 ١٩٦٠١٩٤٠١٨٥٠١٨٤٠١٨٢٠١٨٠٠١٧٦
 ٢٢٠٠٢١٩٠٢١٧٠٢١٣٠٢١٠٠٢٠٦-٢٠٣
 ٢٦٠٠٢٥٨٠٢٥٧٠٢٥٤٠٢٤٤٠٢٣٨٠٢٣٦
 ٣١٢٠٣١٠٠٢٧٦٠٢٧٢٠٢٧١٠٢٦٦٠٢٦٢
 ٣٣٨٠٣٣١٠٣٢٦٠٣٢٥٠٣٢٣٠٣١٥٠٣١٣
 ٣٨٤٠٣٥٧٠٣٥٦٠٣٥١-٣٤٧٠٣٣٩
 فرناندو وإيسابيلا (الملكان الكاثوليكيان) ٢١٠٠٢٠٨٠٢٠٥٠١٨٥٠١٨٤٠١٨٠٠٢٦
 ٢٥٧٠٢٥١-٢٤٢٠٢٣١٠٢٣٠٠٢٢٦٠٢٢٤
 ٣٢٠٠٣١٨٠٢٨٦٠٢٧٧-٢٧٤٠٢٧٢٠٢٦٧
 ٤٢٣٠٤١٨٠٣٤٠٠٣٣٢٠٣٢٢
 فرناندو الزغوير ٣٦٥
 فرناندو دي ثافرا ٢٧٦٠٢٥٤٠٢٤٤
 فرناندو دي ثافرا ٢٧٦٠٢٥٤٠٢٤٤
 فرناندو دي ثافرا ٢٧٦٠٢٥٤٠٢٤٤
 فنون هامار ٤٠٢
 فيليب الثاني ٣٧٤٠٣٦٩٠٣٦٠-٣٥٦٠٣١٩
 ٤٢٥٠٤٢٣٠٤١٩٠٤١٨٠٤١١٠٣٩٤٠٣٧٥
 ٥٠٤٠٤٩٤٠٤٣٢٠٤٣٠
 فيليب الثالث ٤٠٥ ٤٣٩١٠٣٩٠٠٨٣
 ٥٠٤٠٤٣٠٠٤٢٤-٤٢٢٠٤١٩٠٤١٨٠٤١٧
 فيليب الرابع ٤١٥
 فيليب الخامس ٤٢٦٠٢٩٩
 القادر بن ذي النون ٨١
 قبره ٢٠٨٠٢٠٣
 قسي ٧٢
 القلقشندي ١٢٩
 قومس أهل الذمة ٦٧
 كارل مارقل ٧٦
 كارلوس الثاني ٥٠٧٠٤٢٩
 كارلوس الثالث ٥٠٧
 كارلوس الخامس ١٧٩
 كامبومانس ٤٢٢
 كورتيس ٤٣٢
 كلومبوس ٤٣٢
 الكندي ٥١٥
 الكورتيس ١٧٥ ١٧٤٠ ١٦٠ ٤٣

٤٠٨٠٣٨٩
 عثمان بن يحيى ٤٧٦٠٤٧٥٠١٤٥
 عزيز الداني ٤١١٥-١١٣٠١٠٩٠١٠٢
 ٤٦٢٠١١٨
 عزيز بن عبد الملك القيسي ٤٥٤
 عصر الإحياء الأوربي ٤٣٨٠٢٩٨٠١٧٩
 علي بن أحمد الغساني ٤٥٨
 علي بن بدر الدين بن رحو ١٤٢
 علي بن سعيد اليحصبي ٥٢
 علي بن عاصم ٤٨٨
 علي بن قاسم الزقاق ٤٩١
 علي بن يوسف بن تاشفين ٦٨
 علي العطار ٢٠٢
 عمر ، الخليفة ٣١٩
 عمر بن الأفطس ، المتوكل ٤٣٥
 عمر بن السمود ١١٠
 عمر بن عبد الله ٤٧٥٠١٤١
 عمر بن عبد المجيد الأزدي ٤٥٨
 عمر بن محمد الأزدي (الشلوبين) ٤٥٧
 عمر محمد باي ٣٨٩
 عيسى ، المسيح ٥٠١٠٤٧١٠٣٤٥٠٣٤٤
 عيسى بن الحسن بن منديل ١٣٩
 عيسى بن سليمان الرعي ٤٥٨
 غرسية ملك ثافرا ٨١
 غرسية راميرس ٨٥
 الغزالي ٤٣٧٠٤٣٦
 الغزيري ، ميخائيل ٥٠٦٠٥٠٥٠٤٤٧
 الغني بالله محمد ، السلطان ١٤٣-١٣٩٠٨٢
 ٤٤٣٠٤٤١٠٢٩٦٠٢٩٠٠١٧٣٠١٥٠-١٤٥
 ٤٨٣٠٤٨٢٠٤٧٨٠٤٧٥-٤٧٢٠٤٦١

ف - ك

الفارابي ٥١٦٠٥١٥
 الفتح بن خاقان ٤٣٦٠٤٣٥
 فرج بن اسماعيل ١١٦٠١١٣٠١٠٩٠١٠٨
 فرج بن لب ٤٨٤
 فرناندو الأول الأرجوني ١٧٩
 فرناندو الثالث ٤٥٠-٤٢٠٣٦٠٣٣٠٣٢٠٣٠
 ١٦٩٠١٦٠٠٩٥٠٩١٠٩٠٠٨٨٠٨١
 فرناندو الرابع ١٧١٠١١٥
 فرناندو الوصي (صاحب أنتقيرة) ١٥١

محمد بن عبد المنعم الجلياني ؛ ٤٥٩
 محمد بن عبد الوهاب الفسافي ؛ ٣٠٢، ٢٣٧
 ٥٠٧
 محمد بن علي الفخار البيري ؛ ٤٦٦
 محمد بن علي بن موسى ؛ ٩١
 محمد بن محمد الأنصاري ؛ ٤٦٧
 محمد بن محمد الرمي ؛ ٥٢
 محمد بن محمد بن محمد بن يوسف (المخلوع) ؛
 ١٠٨ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١٣٦ ، ٢٩٠ ؛
 ٤٦٢ ، ٤٤٢ ، ٤٤١
 محمد بن محمد بن يوسف (الفيهي) ؛ ٤٩٤ ، ٥١
 ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ؛
 ١١٠ ، ٣٠٠ ، ٤٦٢ ، ٤٦٦
 محمد بن يوسف ؛ انظر ابن الأحمر
 محمد بن يوسف بن النفي بالله ؛ ١٥٨ ، ١٥٠
 ٤٨٢
 محمد بن الحاج ؛ ٢٢٤
 محمد الخرطوشي ؛ ٤٩٦
 محمد ريدان الموريسكي ؛ ٤٩٨ ، ٤٩٦
 محمد الزغير ؛ ١٥٥ ، ١٥٦
 محمد الشيخ الوطاسي ؛ ٢٨٧ ، ١٦٥
 محمد الفاتح ؛ ١٦٨
 محمد الفرسوطي ، القائد ؛ ١٩٢
 محمد الناصر الموحدى ؛ ٩٦ ، ٧٥ ، ١٩
 مدينا سيدوينا ، دوق ؛ ١٦٥
 مراد الريس ؛ ٣٨٩
 مراد باشا ؛ ٤٠٥
 مراد ، الداي ؛ ٥٠١
 مراد جواديانو ؛ ٣٨٨
 المرتضى بالله الموحدى ؛ ٣٢
 المرتضى ، الخليفة الأموي ؛ ٢٧
 مرتين ملك أراجون ؛ ١٧٨ ، ١٥١ ، ٨٢
 مرتين ملك صقلية ؛ ١٧٨ ، ١٥١
 مريم ، مريمة ؛ ٢٧٤
 مريم بنت بنيخش ؛ ٣١٥
 المستنصر الحفصي ؛ ٤٥٥ ، ٤٨
 المستنصر العباسي ؛ ٣١
 المستنصر الموحدى ؛ ٢٨
 مسعود بن خيار ؛ ٤٤
 مشيخة الفزاة ؛ ٤٤٣ ، ١٤٥ ، ١٠٧
 مطرف الاشبيل ؛ ٤٦٠

٤١٥ ، ١٨٠ ، ١٧٨

كوزي بن عامر ؛ ٣٨٧ ، ٣٨٠ ، ٣٦١

كونثالث دي لونا ؛ ١٥٨

كوندي ، يوسف ؛ ٥٠٦ ، ٤٣٠ ، ٢٣٧ ، ١٥٦

كونستانس ، الملكة ؛ ١٧٥ ، ١٧٤

ل - ي

لافونتي ألقنطرة ؛ ٢٤٣

لافونتي ، موديسو ؛ ٤٢١ ، ٤١٩

لاين بول ؛ ٤٣١

لوبي دي فيجا ؛ ٤٩٨ ، ٤٢٧

لورنتي ، أنتونيو ؛ ٤١٧ ، ٤٠٢ ، ٣٣٥ ، ٣٣٤

لوس فيلبس ؛ ٣٦٨ ، ٣٦٧

لوسيرو ، المحقق العام ؛ ٣٣٩

لويس التاسع ؛ ٣٢٩

لويس الثالث عشر ؛ ٤٠١

لي ، هنري تشارلس ؛ ٤٢٧ ، ٣٣٥ ، ٣٣٣

٤٢٩

ليث بروثنسال ؛ ٥٠٦

مارمول ، لويس دل ؛ ٣٦٤ ، ٢٤٣

ماري دي مديتي ؛ ٤٠١

ماريا البرتغالية ؛ ١٧٢

ماريا دي مولينا ؛ ١٧١

ماسدي ؛ ٥٠٦

مالك ، الإمام ؛ ٤٩٥ ، ٤٤٤ ، ٧٣

مالك بن المرحل ؛ ٤٧

المأمون بن ذي النون ؛ ٥١٢ ، ٨٠

مانفردوق بنفونتم ؛ ١٧٦

محاكم التحقيق ؛ انظر ديوان التحقيق .

محمد بن أحمد الشريف ؛ ٤٧٠

محمد بن ادريس ؛ ١٠٧

محمد بن اسماعيل (السلطان) ؛ ١٢٢ ، ١٢١

٤٤١ ، ١٢٥ ، ١٢٤

محمد بن اسماعيل ، صاحب الجزيرة ؛ ١٢١

محمد بن أشقيلولة ؛ ١٠٢ ، ٩٩

محمد بن أمية الموريسكي ؛ ٣٦٩ - ٣٦٧ ، ٣٦٥

محمد بن داود الموريسكي ؛ ٣٦٣ ، ٣٦٢

محمد بن زائدة ؛ ٢٣٩

محمد بن سراج ؛ ٣٠٢

محمد بن عاصم القيسي ؛ ٤٨٨

محمد بن عبد الله ، مولاي ؛ ٥٠٧

هزرى الثالث ملك قشتالة ؛ ١٥١
 هزرى الرابع ملك قشتالة ؛ ١٧٤، ١٦٤، ٨٧
 ١٧٦، ١٨٠، ١٨٢، ١٩٢، ١٩٤، ٣٣٠، ٤٥١
 هزرى الرابع ملك فرنسا ؛ ٤٠٠، ٣٨٢
 هزرى دى ترستارا ؛ ١٧٨، ١٧٤، ١٤٤، ١٤٣
 هومير ؛ ٤٣٠
 يحيى بن خلدون ؛ ٤٤
 يحيى بن ذى النون ؛ ٧٤
 يحيى بن الصائغ ؛ ٤٩
 يحيى بن محمد بن رحو ؛ ١٤٠، ١٢٥
 يحيى بن غانية ؛ ٨١
 يحيى بن الناصر الموحدى ؛ ٣٠
 يحيى بن هذيل ؛ ٤٦٨
 يحيى النيار (سيدى يحيى) ؛ ٢٢٧، ٢٢٥
 ٣١٥
 يحيى بن يحيى الوطاسى ؛ ١٦٥
 يعقوب المنصور ؛ ١٠٨، ٨٦، ٧٧، ٧٥، ١٩
 ٥١٣، ٤٣٨
 يغمراسن بن زيان ؛ ١٠٢، ٩٩، ٩٦
 يوسف السراج ؛ ١٥٥
 يوسف بن تاشفين ؛ ١٠٨، ١٨
 يوسف أبو الحجاج ؛ ١٣٠، ١٢٨، ١٢٥
 ٢٩٤، ٢٩٠، ٢١٢، ١٣٩، ١٣٦، ١٣٤، ١٣٢
 ٤٤١-٤٧٣، ٤٧٢، ٤٦٥، ٤٤٣
 يوسف الثانى ؛ ٤٨٩، ١٥٠، ١٤٩، ١٤٢
 يوسف الثالث ؛ ١٦١، ١٥٣
 يوسف بن أبي الحسن ؛ ٢٧٤، ٢٠٨، ٢٠٠
 يوسف بن المول ؛ ١٦٠، ١٥٨
 يوسف بن سراج ؛ ١٥٦، ١٥٤
 يوسف بن سعد ؛ ١٩٨، ١٩١، ١٦٧
 يوسف بن سعيد ، أبو الحجاج ؛ ٢٥
 يوسف بن يوسف الثانى ؛ ١٥٤، ١٥٠

المعتمد بن عباد ؛ ٤٣٥
 المعتصم بن صباح ؛ ٤٣٥
 المقرئ ، شهاب الدين ؛ ١٩٦، ١٥٥، ١٢٩
 ٢٠٩ ، ٢٧٠ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٣٠٩ ، ٣٢١
 ٣٢٥-٤٠٧، ٤٥٣، ٤٨٠، ٤٨٢، ٤٨٣، ٤٨٩
 ٥٠٣
 المقرئى ؛ ١٢٩
 مكياقيللى ؛ ٣٥٠
 الملكان الكاثوليكيان ؛ أنظر فرناندو وايسابيلا
 مندوسا ، الكردينال ؛ ٢٦٢-٢٦٠، ٢٥٨
 متنديث إى بلايو ؛ ٤٢٧، ٤٢٥
 موسى بن أبي الغسان ؛ ٢٥٤، ٢٤١-٢٣٧
 ٣١٤، ٢٥٦
 موسى بن رحو ؛ ١٠٧
 موندينجار ، المركيز ؛ ٣٦٧، ٣٦٦
 ناباريقي ، المؤرخ ؛ ٤٢٦، ٤٠٢
 الناصر بن قلاوون ؛ ١٢٩
 النبى العربى ؛ ٣٧٩، ٣٤٦، ٣٣٩، ٣١٣
 ٥٠١
 قصر بن أبي الحسن ؛ ٢٠٠
 قصر بن محمد الغنى بالله ؛ ٤٨٣
 قصر بن محمد ، أبو الجيوش ؛ ١١٦، ١١٤
 النصرانية ؛ ٢٧٢، ٢٣٦، ١٤٤، ٧٧، ٥٣
 ٥٠١، ٤١٧، ٣٩٧، ٣٩٤، ٣٤٩، ٣٢٤، ٣٢٣
 ٥٠٨
 قعيم بن رضوان ؛ ٢٣٩
 قوليوى لارا ؛ ١٠٠، ٤٨
 الوباء الكبير ؛ ٤٧١، ٤٦٥، ١٣٠، ١٢٦
 ٤٧٢
 هرناندو دى بايثا ؛ ٣٠٢، ٢٧٤، ١٩٨
 هرناندو دى براداس ؛ ٣٧٤، ٣٧٢، ٣٧٠
 هشام بن عبد الرحمن ؛ ٧٣
 هشام المؤيد ؛ ١٩٩



بين الحلم والواقع كانت مسافة زمنية ربما بدت لى طويلة أو مختلفة ولكن الأهم أن الحلم أصبح واقعاً ملموساً حياً يتأثر ويؤثر، وهكذا كانت مكتبة الأسرة تجربة مصرية صميمة بالجهد والمتابعة والتطوير، خرجت عن حدود المحلية وأصبحت باعتراف منظمة اليونسكو تجربة مصرية متفردة تستحق أن تنتشر فى كل دول العالم النامي وأسعدنى انتشار التجربة ومحاولة تعميمها فى دول أخرى. كما أسعدنى كل السعادة احتضان الأسرة المصرية واحتفائها وانتظارها وتلفها على إصدارات مكتبة الأسرة طوال الأعوام السابقة.

ولقد أصبح هذا المشروع كياناً ثقافياً له مضمونه وشكله وهدفه النبيل. ورغم اهتماماتى الوطنية المتنوعة فى مجالات كثيرة أخرى إلا أننى أعتبر مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة هى الإبن البكر، ونجاح هذا المشروع كان سبباً قوياً لمزيد من المشروعات الأخرى.

وما زالت قافلة التوير تواصل إشعاعها بالمعرفة الإنسانية، تعيد الروح للكتاب مصدراً أساسياً وخالداً للثقافة. وتوالى «مكتبة الأسرة» إصداراتها للعام الثامن على التوالي، تضيف دائماً من جواهر الإبداع الفكرى والعلمى والأدبى وتترسخ على مدى الأيام والسنوات زاداً ثقافياً لأهلى وعشيرتى ومواطنى أهل مصر المحروسة مصر الحضارة والثقافة والتاريخ.

سوزان مبارك

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

السعر الرمزى أربعة جنيهات للجزء

Bibliotheca Alexandrina



06333964



مكتبة الأسرة

مهرجان القاهرة للقراءة